

تاريخ إسبانيا الإسلامية

من الفتح إلى سقوط
الخلافة القرطبية (٧١١-١٠٣١م)

المجلس
الأعلى
للثقافة



المشروع القومي للترجمة

النظم والمؤسسات والحياة الاجتماعية والفكرية

المجلد الثاني
الجزء الأول

بقلم المستشرق الفرنسي: ليفى بروفنسال
ترجمه إلى الإسبانية: إميليو جارتيا جومث

ترجمة: على عبد الرؤوف البمبي - على إبراهيم المنوفى
السيد عبد الظاهر عبد الله
مراجعة: صلاح فضل

321

هذه هي الترجمة الكاملة للمجلد الثاني من تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح حتى سقوط الخلافة القرطبية، وقد اجتمعت فيه إسهامات العلامة ليثي بروفنسال والترجمة الرائعة لاميلى جارتيا جومث والختم الجوهري والضروري لأستاذ الأجيال فى ميدان الفنون والعمارة ليوبولدو تورس بلباس. ويكمل هذا المجلد سابقة الذى يحمل نفس العنوان، أى إننا نرى من خلال هذه الدراسة وذلك الإسهام العلمى الرفيع صورة متكاملة لفترة عزيزة علينا جميعاً وتتعلق أيضاً بجزء عزيز لا زلنا نذكره بتلك العبارة ذات الدلالات وهى «الفردوس المفقود» التى أصبحت عنواناً للأندلس.

تتسم هذه الدراسة بالبساطة النابعة من تراكم خبرات المؤلف وعبقريته، ولقد تمكن - من خلال هذين العنصرين - من التغلب على العقبات، وتمكن من إدماج المستجدات الكثيرة دون إبرازها والتلهيل لها، والمصادر التى اعتمد عليها لم تكن معاصرة ومستفيضة فحسب، بل ثرية ببيانات لم يسبق نشرها. لقد جاء هذا المجلد فى جزأين نظراً لضخامة المتن وكثرة اللوحات والصور المصاحبة وثرأء الحواشى والهوامش والتعليقات. والأمل كبير فى أن تكون الترجمة إلى العربية سبيلاً لزيادة عدد القراء من المتخصصين والدارسين وعامة القراء.



المشروع القومي للترجمة

تاريخ إسبانيا الإسلامية

من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية

(٧١١ - ١٠٣١ م)

المجلد الثاني (الجزء الأول)

- النظم والمؤسسات ، والحياة الاجتماعية والفكرية .

بقلم المستشرق الفرنسي / ليفي پروفانسال

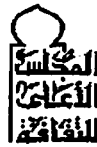
ترجمه إلى الإسبانية / إميليو جارتيا جومث

ترجمة : على عبد الرؤوف البمبي

على إبراهيم المنوفى

السيد عبد الظاهر عبد الله

مراجعة : صلاح فضل



٢٠٠٢

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد ٣٢١

- تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح

إلى سقوط الخلافة القرطبية (٧١١ - ١٠٣١ م)

المجلد الثانى (الجزء الأول)

النظم والمؤسسات والحياة الاجتماعية والفكرية

- ليقى بروقتسال

- على عبد الرؤف البمبى - على إبراهيم المنوفى - السيد عبد الظاهر عبد الله

- صلاح فضل

- الطبعة الأولى ٢٠٠٢

ترجمة عن الإسبانية لكتاب :

HISTORIA DE España

Dirigida Por :

Ramón Menéndez Pidal

الصادر عن : Espasa Calpe, S.A.

MADRID - 1965 (2ª edición)

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة المجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084 E. Mail : asfour @ onebox. com

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

رقم الصفحة

9 - تمهيد

(الجزء الأول)

- النُّظم والمؤسسات ، والحياة الاجتماعية والفكرية

بقلم المستشرق الفرنسى / ليڤى پروفنسال

ترجمه إلى الإسبانية / إميليو جارتيا جومث

25 الفصل الأول : النُّسق السياسى للخلافة الأموية

71 الفصل الثانى : النظام العسكرى

119 الفصل الثالث : النظام القضائى

159 الفصل الرابع : المجتمع الأندلسى

213 الفصل الخامس : النشاط الاقتصادى

الفصل السادس : النهضة العمرانية فى قرطبة خلال القرن العاشر

285 الميلادى

341 الفصل السابع : الحياة الاجتماعية

397 الفصل الثامن : الحياة الدينية والفكرية

تنويه

- ترجم أ. د. / على عبد الرعوف البمبى التمهيد ، والفصل الأول ، والثانى ،
والثالث ، والرابع ، والخامس (من الجزء الأول) مع حواشيهم .
- ترجم د. / على إبراهيم المنوفى الفصل السادس (من الجزء الأول) والفصل
الخامس ، والسادس ، والسابع ، والثامن ، والتاسع (من الجزء الثانى)
مع حواشيهم .
- ترجم د. / السيد عبد الظاهر عبد الله الفصل السابع والثامن (من الجزء
الأول) والفصل الأول ، والثانى ، والثالث ، والرابع (من الجزء الثانى) مع
حواشيهم .
- وقام أ. د. / صلاح فضل بمراجعة المجلد كله .

تمهید

إمیلیو جارتیا جومت

العمل الأخير لليفي بروقنسال

اخترنا للصفحات التالية عنوان « تمهيد » بدلاً من « مقدمة » لسببين :

لقصرها المنافى لعقد آمال كبيرة عليها ، ولأن هذا المجلد - برغم فائدته وقيمه الثمينة - يعتبر تكملة للمجلد السابق ، والمقدمة المتواضعة التي افتتحناه بها (« الأمويون وحضارة قرطبة ») تنسحب - كما يفهم من العنوان - على مجمل فترة الخلافة ، دون استثناء للجانب الحضارى .

فى تلك المقدمة أعلننا أننا سنسلم القيادة فى « تاريخ إسبانيا الإسلامية » للعلامة « ليفى بروقنسال » ، وانتظرنا بفارغ الصبر مواصلة هذا التاريخ بمجلد ثالث بعد ترجمتنا للمجلدين الأولين عن اللغة الفرنسية ، ظننا - فى البداية - أن المجلد الثالث المنتظر سيتناول القرن الحادى عشر الميلادى - مفتاح تاريخنا الوسيط - أو « إسبانيا السيد » طبقاً للعنوان الملهم الذى صدر به أستاذنا « الجليل » مينندث بيدال إحدى دراساته الشهيرة ، ولما ظفر المجلد الثالث ووجدناه يتناول « المؤسسات والحياة الاجتماعية فى فترة الخلافة القرطبية » أصابنا - للوهلة الأولى - نوع من خيبة الرجاء . ومع هذا لا مفر من الاعتراف بأن هذا التأتى كان مفيداً وله مبرراته .

لا نجافى الحقيقة إن قلنا إن كثرة أشغال المؤلف وضيق وقته - كما سنرى فيما بعد - لم يجهضا الأمل لديه (لأسباب شخصية عديدة) فى مواصلة تاريخه ، ومن جهة أخرى فإن قلعة تاريخ الطوائف - التى تضم مصاعب وتعقيدات توهن عزائم ومنطق أشد المتخصصين تسليحاً - كانت تتطلب بالفعل وقتاً للمراجعة والتفكير والاستعداد ، فمن قبيل المستحيل سرد تلك الحقبة من تاريخ الأندلس سرداً جيداً إلا من خلال منهج قادر على تفادى متاهة التفاصيل الصغيرة ، وذلك للمحافظة - إلى حد مقبول - على يقظة القارئ المستعد دائماً للشرود . كان المؤلف - الذى تجمعنى به صداقة حميمة - يطلعنى على ما يعن له من أفكار وخواطر وشكوك حول هذا الموضوع ، كان رأيه قد استقر أخيراً على جعل شخصية « ألفونسو السادس »

(لا « السيد القمبيطور ») بمثابة المحور الحقيقي للأحداث ، والخيط الذى يضى شياً من التماسك والوحدة على فوضى تلك الحقبة ، لكن ضيق الوقت وكثرة الأشغال لم يمكناه من تحريك مادته العملية فى هذا الاتجاه ، أو نشرها على الورق بالترتيب والتكنيك المحكم الذى يتطلبه الموضوع ويتفق مع صرامته البحثية المعهودة .

ومن جهة أخرى ، نطن أن المؤلف كان بحاجة إلى وقت لتقييم مردود العمل الذى بين أيدينا ، فمن المعروف أن المفهوم الحديث لعلم « التاريخ » لم يعد يقتصر - كعهدهنا به فى القرون السابقة - على الحقل السياسى والعسكرى ، بل امتد ليغزو آفاقاً أخرى عديدة ، وفترة الخلافة القرطبية تحتاج أكثر من غيرها إلى هذا التوسع . لماذا ؟ لأنها بمثابة المرقب الكبير فى قمة هرم الإسلام الإشباني ، وتحليلها المفصل يتيح لنا رصد البنى : التأسيسية ، والسياسية ، والثقافية ، والاجتماعية التى تشكلت قبله ثم تحلت ببطء وتناثرت بعده .

تجدد الإشارة أخيراً إلى أن موضوع هذا المجلد لم يكن جديداً تماماً على المؤلف لأنه نشر منذ عشرين عاماً بحثاً مطولاً عنوانه : « إشبانيا الإسلامية فى القرن العاشر : المؤسسات والحياة الاجتماعية » (باريس ، لاروس ، ١٩٣٢) ، وهذا البحث - الذى تتطابق مادته العلمية إلى حد كبير مع مجلدنا الحالى - وإن كان يضم معلومات قديمة بعض الشيء إلا أنه لا يزال سارى المفعول كإطار عام ، ولا يزال محتفظاً بتماسك وصلابة بنائه .. ربما جال بخاطر « بروقنسال » إعداد طبعة جديدة له ، مزيدة ومنقحة ، لكن عدم خروجها إلى النور أجدى وأفضل ، ذلك لأن كل كتاب ولید عصره ولحظة تبلوره ، ومن هنا سيظل الكتاب القديم متمتعاً باستقلاليته وسيظل بمثابة أرشيف لحفظ الكثير من البيانات التى لا غنى عنها برغم تجاوزها ، أما بخصوص المجلد الذى تقدمه الآن ... فإنه بالتأكيد شىء مختلف .

يعتبر هذا المجلد (الذى يحمل فى طبعته الفرنسية عنوان « عصر خلافة قرطبة ») أشد « تبسيطاً » من قرينه القديم ، وهو بهذا الشكل يتناسب مع حقبة تاريخية سهلة القراءة ، متدفقة دون عوائق ، وقد وضعنا كلمة « تبسيطاً » بين قوسين لأن القارئ قد يندفع بمدلولها الآخر (عامية أو فى متناول كل من هبّ ودب) ، ما أردت قوله يكمن باختصار فى أن هذه الدراسة تتسم بالبساطة النابعة من تراكم خبرات المؤلف (لأنها آخر عمل له) وعبقريته ، إذ استطاع بهما تعبيدها والتغلب على العقبات والنتوءات

الداخلية ، وتمكن - فى رشاقة - من إدماج المستجدات الكثيرة بها دون إبرازها والتهيل لها ، وبالفعل فالمصادر التى اعتمد عليها لم تكن معاصرة ومستفيضة فحسب ، بل ثرية ببيانات فى منتهى الحداثة لم يسبق نشرها ، وعلى سبيل المثال نذكر البيانات المستخلصة من « المقتبس » (الجزء الأول والثالث) لابن حيان ، أو المستقاة من مجموعات « الفتاوى » الأندلسية ، أو المأخوذة من صيغ المحررات والعقود الرائعة لكل من الجزيرى والقيسى (وهذه المحررات محفوظة فى « مدرسة الدراسات العربية بمدرين » ، وكان لى شرف إطلاع « بروفنسال » عليها) ، ومن هذه الأعمال ومن أخريات عديدة - مثل مؤلفات « الحسبة » و « المحتسب » التى لم تستقد منها دراسة بهذا الشكل حتى الآن - استخلص المؤلف ألوئاً لصيغ لوحاته وجعلها مترعة بالحياة .

يحتوى المجلد الذى بين أيدينا (الثالث) على ثمانية فصول كبيرة ، وترتيب هذه الفصول فى الطبعة الفرنسية يتفق مع ترتيب فصول المجلدين الأول والثانى ، لكننا أثرنا ترقيمها فى الترجمة الإسبانية ترقيماً مستقلاً على اعتبار أن هذا المجلد منفصل عن المجلدين السابقين ، تتناول الفصول الثمانية الموضوعات التالية : يتحدث الفصل الأول عن النُسق السياسى (الحكومة المركزية ، النظام المالى والإدارى فى الكُور المختلفة) ، والثانى عن النظام العسكرى (النظام الدفاعى ، والجيش وصفوفه ووحداته ، والحملات العسكرية ، والأسطول الحربى) ، والثالث عن النظام القضائى (القضاء ، وهيئات القضاء الفرعية ، وتنفيذ الأحكام والحدود) ، والرابع عن المجتمع الأندلسى (توزيع السكان وأعدادهم التقريبية ، والعناصر الأصلية والوافدة ودرجة اندماجها ، والطبقات الاجتماعية ، وأهل الذمة) ، والخامس عن الحياة الاقتصادية (موارد الخزانة العامة ، ونظم الكيل والوزن والقياس ، والعمل ، والزراعة ، والتعدين ، والصيد ، والصناعة ، والتجارة) ، والسادس عن النهضة العمرانية (السمات العامة للمدن الأندلسية ، ومدينة قرطبة فى القرن العاشر) ، والسابع عن الحياة الاجتماعية (الأسرة ، والبيت ، والأثاث ، والملابس ، والغذاء ، والزينة ، والصحة ، والتسلية وتمضية أوقات الفراغ ، والسلوكيات) ، أما الفصل الثامن والأخير فيتناول الحياة الفكرية والدينية (الحياة الإسلامية بوجه عام ، والتيارات الشرعية والصوفية ، والإضافات الشرقية ، ورعاية الحكم الثانى للأدب والفنون ، وعلم التاريخ ، والعلوم والفنون) .

وكما هو متوقع فقد كان الفصل الأخير هو الأشد قناعة من بين الفصول الأخرى ؛ ذلك لأنه يتناول الحياة الروحية والأدبية والفنية في عصر الخلافة القرطبية ، والحديث عن هذه القضايا يتطلب صفحات ينوء بحملها الكتاب وعنوانه ، ومن ثم فقد ترك المؤلف - انطلاقاً من معيار رشيد - مسألة الخوض المسهب فيها لأقلام المختصين ؛ وبرغم هذا فعندما جاء الدور على علم التاريخ كتب لنا المؤلف ، معتمداً على بيانات لم يسبق نشرها ، صفحات - لا أتردد قيد أنملة في وصفها بالروعة - عن الرازي ومن سبقه من المؤرخين ، ومن شدة إعجابي بهذه الصفحات التي لم يعرها « بروفنسال » أهمية خاصة لكثرة اعتياده على استخدام المعلومات والبيانات الجديدة ، طلبت منه إعادة نشرها ، وقد لبى رغبتي - طبقاً لاعتراقه - ونشر نصوصها العربية في مجلته « أرابيكا » (Arábica) (1955, II-2) ، ص ٢٨٨ - ٢٣٠) تحت عنوان : « عن إقامة الرازي في إسبانيا » .

أما بقية المجالات الثقافية فلم يتوغل فيها - كما سبق وأشرنا - مهارة منه وتهذيباً ؛ فمهارته تكمن في يقظة حسّ التاريخي الذي دلّه على أن التوسع القسري الجديد لعلم التاريخ خارج نطاق السياسة وميدان الحروب ليس مطلقاً بل له حدوده ، وأن الأدب والفلسفة - خصوصاً في إسبانيا الإسلامية - محيطان بلا شطآن ومن السهل ضل الطريق فيهما ، إن لم نقل الجنوح أو الفرق ؛ ولهذا - ومن منطلق غيرته وحرصه على عدم إلصاق تهمة الإطناب الفارغ أو الانحراف عن الجادة بأي جزء من عمله - اقتصر على الملاحظة الحذرة بالقرب من الشواطئ ؛ أما بالنسبة لتهذيبه ، فإذا لم نرُدّه إلى فهمه لحدوده وتخلّيه عن ارتياد آفاق لا تدخل في دائرة اختصاصه ، لا نملك إلا اعتباره نابعاً من احترامه لمنطق توزيع العمل .. ونحن معاشر المهتمين بالدراسات العربية قد تربينا على هذا المبدأ الذي ينبغي أن يسود العالم بأسره ، وهكذا فمثلاً تنصّب المدرسة الإسبانية أميراً على كافة مؤرخي الأندلس ، فإنه قد تنازل راضياً لمدارس أخرى عما يمكنها التجديد والتجويد فيه .

ولكل ما تقدم شرحه لم يخرج المجلد الحالي عن الحدود التي رسمها له « بروفنسال » إلا عند التخوم المشرفة على الفن ، ذلك لأن الفن لا يعتبر فقط من المواد المساعدة للتاريخ ، بل لقدرته الفائقة على إلقاء الضوء عليه وتوضيحه ، وخاصية الفن هذه لا غنى عنها في أعمال مثل هذا العمل الذي لا يتمسح في تقعرات التخصص بل يطمح في التوجه إلى قاعدة عريضة من القراء .

لاشك أن الحضارة الإسلامية تفتقر - كما أوضحنا فى مناسبة أخرى - إلى الأجناس الأدبية الكاملة التى تعكس - صراحة - الأحاسيس والمشاعر المشتركة ، وتسجل حركة المجتمع الذى ولدت فيه ؛ وعلى سبيل المثال نذكر الملحمة ، والدراما ، والخطابة السياسية الفعلية أو القصة بمعناها الحقيقى ، بل إنها تعاني أيضا من نقص حاد فى الفنون التشكيلية ، ولا نجد فيها - مثلاً - معادلاً للكوب الإغريقى بأطيافه السوداء لتحديد البريق البارد للرخام ، ولا ما ينبو عن الحلة الرومانية أو منمنمات العصر الوسيط من أجل تقديم الوعاء الذى يُصرف فيه الخيال ، حسناً : وبما أن الشجرة المُشذبة تستجمع عصارتها فى الفرع المتبقى لها ، فإن الخيال العربى يُنقى ويظهر فى الحلية المعمارية التى نطلق عليها اليوم مصطلح « الفنون الصناعية » ، وهى احراج خُلقت لنا أعمالاً قيمة تضيء بروعتها حوليات إسبانيا المسلمة ، وتسمح لنا - على الأقل - بالتعرف على خشبة المسرح التى أدى عليها الممثلون الكبار أنوارهم ، والأغراض التى امتدت إليها نواظرهم وداعتها أناملهم .

وبهذا الجزء من تاريخ إسبانيا حالفنا الحظ بتولى « ليوبولدو توريس بلباس » أمره ، بما له من باع طويل فى هذا المجال : فهو تلميذ لأساطين علماء الآثار العربية من الإسبان ، وصديق لأفضل المتخصصين الأجانب ومساهم فعّال فى أعمالهم ، كتب العديد من الدراسات الممتازة ، تولى الإشراف على قصر الحمراء وفحص الآثار القومية ، كما تولى رئاسة تحرير قسم « تاريخ الآثار فى إسبانيا الإسلامية » بمجلة الأندلس ، إنه رجل يطير بجناحى النظرية والتطبيق ، ويتحرك بخفة وبراعة بين سقالات الأعمال وكأنه يتحرك بين أرفف الكتب .

لو عدنا - بعد هذا الاستطراد الواجب - إلى عمل « بروفنسال » لوجدنا أن نقص الوثائق أو توافرها قد أخل بالتوازن بين هذا الفصل أو ذاك ، وهذا أمر طبيعى ومقبول . ففي « البنى التأسيسية » - على سبيل المثال - إذا لم نفاضل بعناية بين آلاف الملاحظات المستقاة من المدونات التاريخية ونخضع ما وقع عليه الاختيار للمقارنة بهدف إلقاء الضوء على نقاط معينة ، فإننا سنجد أنفسنا مضطرين للاكتفاء بلوحات تلخيصية رسمها بعض المُنظرين ، وفى هذه الحالة علينا استخدامها بحذر شديد ذلك لأن النظرية لتتطابق عادة مع الواقع عند المُنظرين المسلمين ، ولأن هذا التباعد (بين النظرية والواقع) يزعزع الثقة فى تسلسل التواريخ ويوقعنا - بالتالى - فى مشكلة تطبيق حالة قديمة على أخرى أحدث منها بكثير أو العكس ، أو تطبيق مفاهيم الشرق

على الغرب ، أو استخدام مصطلح فى غير ما وضع له .. وعلى خلاف هذا ، ففى « الحياة الاجتماعية » تنقصنا فى كثير من الأحيان حدود النظرية وتتوافر لدينا فى المقابل الوثائق الخاصة المليئة بالأحاجى والألفاظ ؛ لتلك الأسباب مجتمعة نجد أن بعض فصول المجلد تتسم بترابط وتماسك خيوطها ، بينما يحتوى البعض الآخر على لوحات مفصلة مترعة بالألوان الموزعة بالعدل والقسطاس ، كما توجد أيضاً فصول - مثل الوصف الطبوغرافى للمدن القديمة - لا تتعدى قيمتها اللمحة المختصرة المؤقتة التى تنتظر التغيير على يد الوثائق الجديدة المكتشفة محلياً ، ومع هذا فإن عبقرية المؤلف لا تكمن فقط فى قدرته على تشكيل هذه العجينة التاريخية الهائلة بل تمتد إلى وحدة الأسلوب والمعالجة الواعية المعتمدة على أفضل المصادر والمناهج المعاصرة ، ومن يتصفح المجلد يتنسم فيه رهبانية العلم ، وتسترعى انتباهه المستجدات الكثيرة والمقارنات السديدة بين إسبانيا الإسلامية والمغرب الحالية .

هناك بعض النقاط المدرجة بالمجلد يبدى المترجم اعتراضه المذهب عليها ؛ وعلى سبيل المثال ما يتعلق « بالشرطة » فى الأندلس : فالمؤلف قد افترض وجود ثلاث طبقات اجتماعية (عليا ، ووسطى ، وشعبية) ليبرر وجود ثلاث هيئات للشرطة فى عصر الخلافة ؛ ومن رأى إن المسألة يمكن تفسيرها بشكل مختلف ، لكن المقام لا يتسع لتقديم الأدلة على ذلك ؛ كما توجد نقاط أخرى صغيرة ومحدودة توعد بتعديلات ، ومنها أورد اسم « ذبحة » الذى أطلقه المؤلف (ص ٩١) على الشهيدة المستعربة ، والاسم الصحيح - من وجهة نظرى - هو « دولشى - دولسى » ، وأذكر أننى كتبت بهذا الصدد بحثاً لم يعترض عليه المؤلف فى مجلة الأندلس (العدد ١٩ ، ص ٤٥١ - ٤٥٤) عنوانه : « دولسى ، شهيدة مستعربة فى بداية القرن العاشر » .. وبطبيعة الحال فإن الملاحظات القليلة السابقة لا أهمية لها ، أقول هذا لأننى سبق وقطعت عهداً على نفسى بعدم المشاركة فى « الإرهاب النقدى » الذى استطال ليمسك بتلابيب المستشرقين المحليين والأجانب ، ويعدم التدخل فى عمل الغير إلا إذا كان لممارسة حق الدفاع المشروع أو لإمالة اللثام عن غش وتزييف .

لا نعتقد أن للنقد البناء شغل كثير هنا ، ومع هذا لا نستطيع الزعم بأن البنى التأسيسية والحياة الاجتماعية قد أقفل موضوعهما بهذا المجلد : فبالإضافة إلى أنه لا يوجد فيما هو إنسانى - خاصة فى مجال العلم - شئ يمكن اعتباره نهائياً أو خالداً ، فالأمر يتعلق هنا بأرضية متحركة ، ونعتقد أن هذا المجلد بما يشتمل عليه

من نصوص جديدة ومعالجة ألمعية لما هو تاريخي محض واكتشافات أدبية سيغير كثيراً من النتائج : سواء التي كنا نعدّها مؤقتة أو تلك التي توهمنا أنها أصبحت راسخة ، وبرغم هذا لا يزال جزء كبير من التاريخ الحضارى للأندلس فى حاجة ماسة للارتياح والاستكشاف ، لكن لكل شىء وقته ، وفى وقتنا الراهن لا يوجد ما يطاول النظرية الموجزة التى صاغها « بروفنسال » لذلك التاريخ الحضارى ونقدمها اليوم للجمهور الناطق بالإسبانية ، فهى تجمع بين صرامة التقنية وتمام العمل الفنى ، وهذا فى حد ذاته كاف لمنحها صفة ثبات النصب التذكارية .

بعد فراغنا من التعليق على المجلد حان دور الحديث الذى تقاديتاه عن صاحبه .. عندما تُرجم هذا المجلد وعند طباعته ، بل وحتى عند تصحيح بروفته الأولى والثانية ، كان « التاريخ » الذى بدأه « بروفنسال » لا يزال جسداً حياً تشع منه إمكانية متابعة النمو وملء فراغات دائرة إسبانيا الإسلامية ، لكنه تحول اليوم - عند صدوره إلى الجمهور - إلى مجرد شلّو مؤلم ، ففى يوم الجمعة ، الثالث والعشرين من مارس ١٩٥٦ غادر مؤلفه ، من موقعه فى باريس ، عالم الأحياء إلى الأبد .

يبدو أن قدراً مشنوماً يقف بالمرصاد لمحاولة كتابة تاريخ كامل لسيطرة الإسلام على شبه جزيرة إيبيريا بقلم واحد ، لا يوجد إلى الآن فى أية لغة أوروبية - ولا حتى فى العربية - مثل هذا التاريخ ، اللهم إلا نتف منه وبأيدى مصنفين متأخرين ، ومن الحالات الأكثر شهرة فى أوروبا مازلنا نذكر أن مجلد « كوندى » الثالث ظهر بعد وفاته ولم يحرره مؤلفه ، وتاريخ « دوزى » الذى استمر مفعوله لفترة طويلة ، لم يصل لأبعد من دخول المرابطين شبه الجزيرة .. صحيح أن « حرب الاسترداد » كانت طويلة ومتقطعة ، وأن نفوذ المسلمين فى إسبانيا مرّ بمراحل شديدة التباين على كافة الأصعدة ، وصحيح أيضاً أن تلك المراحل قد حظيت بأنصبة متفاوتة من الدراسة والوضوح : فإذا كانت الحلقات الكبرى فى السلسلة [مثل عصر الخلافة وبداية الطوائف - برغم تعقيدها الشديد- وعصر الهيمنة الإفريقية (المرابطون والموحدون)] قد اجتلت بفعل النصوص الجديدة المكتشفة وإسهامات الدراسات المختلفة ، فما زال الصداً يغطى حتى الآن الحلقة الأولى (الفتح) والأخيرة من السلسلة (المملكة الناصرية ، برغم تقدّمها) علاوة على بعض وصلاتها الأخرى .. لو فتش عصرنا ونقّب عن شخص باستطاعته ملء الفراغ المحزن فى سلسلة الحضور الإسلامى على أرض شبه الجزيرة لما وجد أفضل من « ليفى بروفنسال » ؛ فدراسات هذا الرجل الأحادية

الموضوع ، وطبعاته المتميزة ، وقدرته الفائقة على التحليل ، واكتشافاته الشهيرة ، وحسه الواعى وفهمه العميق ، وأسلوبه الواضح الشامخ كانت - مؤتلفة - خير معين على المهمة الشاقة ، لكنه مات ، وبموته أصيبت المهمة مرة أخرى بطعنة الخذلان ومرارته .

أريد فيما تبقى من « التمهيد » تسجيل بعض الكلمات تكريماً للعالم الجليل والصديق العزيز الغائب ، ومعظم هذه الكلمات مجرد تلخيص لبعض ما ورد فى الترجمة المطولة التى كتبتها عنه عقب وفاته ونشرتها بمجلة الأندلس (XXI-II) ، وأنا أعود إليها الآن لأن الكلمات الصادقة لا تخرج إلا مع حرارة المشاعر ولا تكتب إلا مرة واحدة .

مات « بروفنسال » عن اثنين وستين عاماً إلا ثلاثة أشهر ، ذلك لأنه ولد فى الجزائر يوم الرابع من يناير سنة ١٨٩٤ ، حصل على الشهادة الثانوية من مدرسة الليسيه بمدينة قسنطينة ، ثم على الإجازة العالية (الليسانس) من جامعة الجزائر ، وفى عام ١٩١٣ نشر بمجلة (Revue Africaine) ثلاثة أبحاث عن علم الكتابة والنقوش اللاتينى. يبدو أن الدراسات الكلاسيكية قد صادفت هوى فى نفسه منذ نعومة أظفاره : فإلى جانب دراساته العربية - التى لا نعرف مداها - بحكم ولادته ونشأته وتعلمه فى بيئة عربية ، فقد حالفه الحظ بالتلمذ فيها - بأرض الجزائر أيضاً - على واحد من أساطينها ونعنى به J. Carcopino . وتشكيله الكلاسيكى هذا جدير بالتنويه لأننا نجده عند أفضل المتخصصين فى الدراسات العربية . كان « كاركوبينو » هو الذى نصحه بتطبيق المناهج التى اكتسبها من دراسته للإنسانيات الإغريقية / اللاتينية على الثقافة الشرقية .

عندما هبت نحو الشرق الريح العاصف للحرب العالمية الأولى حملته كمقاتل إلى الدردنيل ، أصيب عام ١٩١٥ وحمل إلى مصر ليدأوى فيها من جراحه ، وبعد فترة النقاها أرسل إلى المغرب التى دخلها عام ١٩١٧ بصفته مختصاً بشئون أهل البلاد الأصليين ، مارس تلك الوظيفة فى وادى « ورجة » (Warga) الواقع بين منطقة الأشرف وفاس (وأبحاثه العربية الأولى ترجع إلى تلك الفترة) .. بعد حصوله على ليسانس الخدمات العسكرية عام ١٩١٩ انتقل إلى امبراطورية الأشرف : عمل فى البداية خلال بضعة أشهر فى مدرسة الليسيه بطنجة ثم انتقل إلى المدرسة العليا بالرباط (وقد تحول اسمها بعد قليل من وصوله إلى « معهد الدراسات العليا ») .

فى تلك المؤسسة التعليمية انضم إلى الفريق الذهبى للاستشراق الفرنسى الذى كان يعمل بها ، ولم يبق الآن من أفرادہ سوى « هنرى تيراس » و « جورج سى . كولین » . لقد شهدت تلك الفترة أولى مراحل حياته الجادة المترعة بالنشاط : أعد خلالها أطروحته للدكتوراه عن تاريخ الأشراف ، وكتب العديد من الدراسات عن مغرب العصر الوسيط ، ودفعته هذه الدراسات إلى البحث والتنقيب عن المصادر القيمة والمخطوطات النادرة والاهتمام بتاريخ الموحدين .

بعد موت « هنرى باست » عام ١٩٢٦ انتقلت إليه زعامة فريق الاستشراق ، ورئاسة تحرير مجلة (Hespéris) وإدارة الطبعة الفرنسية للموسوعة الإسلامية ، وفى العام التالى شغل منصب أستاذ كرسى بجامعة الجزائر ، وظل يمارس وظيفته الجديدة إلى جوار مهامه السابقة بالرباط ، ومن عام ١٩٣٠ بدأ يلقي محاضرات ودروساً سنوية فى جامعة السوربون ، استهل سنوات منتصف العمر بسلسلة من الاكتشافات الرائعة للعديد من النصوص التاريخية ، ويظهر موضوع إسبانيا فى نطاق أفاقه العلمية ، ربما كان هذا الاهتمام نتيجة لتكليفه بمواصلة العمل فى فهرسة المخطوطات العربية بالإسكوريال ، وهى المهمة التى تركها « درينبورج » دون إتمام ، ومن بين كموات الأوراق غير المفهرسة الناجية من الحريق الذى شبَّ بالإسكوريال اكتشف مذكرات « البيدق » المدهشة ، وحسن الطالع الذى هداه للاكتشافات السابقة سرعان ما أعاد عليه بأخبار عديدة ، إلى أن قاده - فى يوم سعد - إلى قمة المجد وفتح له جدران الغرفة الحصينة فى « قرويين » فاس ليستخرج منها - بين كنوز أخرى - المجلد الثالث من « البيان » ، السيرة الذاتية لآخر ملوك غرناطة الزيريين (عبد الله) بالإضافة إلى أجزاء كثيرة من « المقتبس » لابن حيان . تحكمت هذه الاكتشافات فى توجيه دفة أبحاثه خلال تلك الفترة التى بدأ فى نهايتها يُعنى بإسبانيا الأيبيرية ويوقف جُل نشاطه العلمى عليها ، ومن أهم ثمار تلك الفترة نشر إلى كتاب (إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر: البنى التأسيسية والحياة الاجتماعية) وإلى الطبعة المزينة والمنقحة لـ « تاريخ المسلمين فى إسبانيا » للعلامة « دوزى » ، وفى هذا المقام تجدر الإشارة إلى أن كتبه وأبحاثه فى تلك الحقبة تتسم بالمزاوجة بين تاريخ المغرب فى العصر الوسيط وبين إسبانيا الإسلامية ، وقد أضفت تلك المزاوجة طابع الوحدة والتناغم على ما نطلق عليه اليوم مفهوم « الغرب الإسلامى » . لقد استطاع فريق الرباط الفرنسى - وعلى رأسه بروفنسال - حقن هذا المفهوم بجرعة مكثفة من

المستحدثات العلمية والمضامين الحية التي كنا نجهلها حتى ذلك الوقت نتيجة لجهلنا بالخبايا المغربية . وفى تلك الآونة ، التي أخذ فيها ولعه بتاريخ إسبانيا يعظم ويتسع ليمتد إلى كل ما هو إسباني ، جمعتنى به عرى الصداقة والأخوة حتى اختطفه الموت .

لم يحدث انتقال « بروفنسال » إلى الجزائر عام ١٩٣٥ تغييراً يذكر فى أنشطته ، هذا إذا استثنينا اهتمامه الوليد بالشرق الأدنى واستئناف رحلاته إليه ، ولم تكد تمر بضع سنوات على هذا الانتقال حتى نشبت الحرب العالمية الثانية وهبت معها أزمة خطيرة ، ومثل أشياء إنسانية كثيرة فقد كان لهذه الأزمة وجهان : أحدهما سلبي والآخر إيجابى ؛ يتمثل الجانب السلبي فى إقصائه عن منصبه الجامعى كأستاذ كرسى (لا لشيء إلا لكونه فرنسياً محباً لوطنه) وما تبع ذلك من هدم سعادته الأسرية وتخريب زواجه ، وعلى صعيد الجانب الآخر يمكن القول إن فترة الشعور بالمرارة والألم عادة ما تكون أخصب الفترات فى حياة الإنسان ، وبناء على هذا ، فبالى فترة توقف نشاطه الجامعى وألامه الشخصية ندين بهذا العمل الضخم الذى نعرفه جيداً (لأننا ترجمناه من قبل ونشرناه) : « تاريخ إسبانيا الإسلامية ، من الفتح حتى سقوط الخلافة القرطبية » .

بعد انتهاء الحرب وعودة الأمور إلى نصابها رجع إلى فرنسا فى شهر أبريل من عام ١٩٤٥ ليشغل كرسى الدراسات الإسلامية (الذى أنشئ خصيصاً له) بجامعة السوربون ، وليدير أيضاً معهدين علميين ... أصبح رسمياً أهم شخصية فرنسية فى الدراسات العربية ، لكن حياته التى عرفت الاستقرار العائلى من جديد (بعد زواجه من سيدة من أصل إسباني) كانت حافلة بالنشاط الدائب والحركة المستمرة : الموسوعة الإسلامية فى طبعتها الثانية تطلبت منه الكثير من الجهد والرحلات المتكررة ، وحضور المؤتمرات العالمية ، وإلقاء محاضرات فى دول عديدة ، ورحلة سنوية للشرق الأدنى ، وزيارة كل عام لإسبانيا ومنها إلى البرتغال والمغرب ، وشيئاً فشيئاً أضيفت إليه أعباء أخرى : رحلة سنوية إلى تونس ، طبع نصوص فى « ليدن » ، رئاسة تحرير سلسلة للدراسات العربية فى دار نشر خاصة ، تأسيس مجلة .. أبعد هذه الحركة الدائبة والأنشطة المتعددة يمكن أن يجد وقتاً لالتقاط الأنفاس وتنفيذ مهام أدبية ؟ أبداً لم يعد قلمه لخط كتاب مهم ، لكن القوة الكامنة فى نشاطه الإبداعي السابق ، والمهارة التى اكتسبتها يداه ، والمادة العلمية الثرية المتراكمة لديه تضافت جميعاً لتمدنا بدراسات أحادية الموضوع من العيار الثقيل .

كانت ما تزال تبدو عليه - حتى فى شهوره الأخيرة - أمارات العنفوان الجسماني كما تشهد بها حركته الدائبة ونشاطه المتواصل وحيويته الشابة ، وإلى عهد قريب كنا نداعبه ونعيد على مسامعه باستمرار الكلمات التي استقبله بها « خوليان ريبيرا » عندما رآه أول مرة : « ياله من شاب يتفجر قوة وحيوية ! » ، لكن أصدقاءه كانوا يعلمون أن الصدوع تتخر منذ وقت ليس بالقصير فى أساسات ذلك المبنى المتماسك من الخارج ، لقد بدأت أدرك خطورة تلك الصدوع عندما رأيته فى « كوبنهاجن » خلال شهر سبتمبر عام ١٩٥٥ ، وعندما زرتة فى بيته بباريس خلال ديسمبر من العام نفسه وجدته نصف ميت ، لكنه ظل حتى ذلك الوقت يُعد الخطط ويرتب الأدوات لاستكمال « تاريخه » .. هذا التاريخ الذى كنا على يقين من أنه لن يكتمل أبداً ، لأنه لم يعد للعمل الجاد فيه منذ رجوعه إلى فرنسا ، وبرغم هذا استطاع - مدفوعاً بأحلامه وبشغف القراء - أن يضيف إلى ذلك التاريخ - فى ظل الظروف التى أشرنا إليها - هذا المجلد الرائع الذى نقدمه الآن للناطقين بالإسبانية .

لا أدري ما إذا كان بمقدور هذا السرد الخاطف لأوجه النشاط الطاغى للصديق الذى نبيكه توضيح حجم الخسارة التى منينا بها عند فقدته ، إنه نشاط - دون الخوض فى الضائقة الاقتصادية التى لم يشك بروفنسال أبداً منها - « بلزاكى » (نسبة إلى بلزاك) : النار المتقدة بداخله ، لفوضى الاحتدام الإبداعى الذى يتنافى مع الترتيب المنظم لمائدته وأوراقه ، وللكفاح المستمر البعيد عن التيارات الرسمية وإن كان لا يزدريها ..

من العجب العجاب أن يموت فى مثل هذه السن والشهرة دون أن ينال « الدكتوراه الفخرية » من أية جامعة أجنبية ، أو يكون عضواً بالمجمع الفرنسى .. كان يترك رجالا الصف الأول فى دولته والدول الأخرى ينادونه بـ « الأستاذ » ، لكنه لم يكن يسمح بها لواحد من تلاميذه الأوفياء لمنهجه ... كانت حياته مُغلّفة بقدر غريب : لا أسميه دراما صاحبة بل ضيقاً دفيناً لم يتحدث عنه أبداً ، لكنه كان يظهر أحيانا فى شكل تكشيرة على فمه العريض ، وعندئذ كان شذواه يغوصان فيبدو مثل رجل الدين البوذى الحزين .. كان خجله العجيب من معاناته الداخلية يكسوه بلحاء خارجى صلب ، وعندما انتزع الموت هذا اللحاء وألحقه بمن سبقه من الأهل رفرف عليه السلام وعادت أهانج الطفولة ترن بعذوبة فوق جثمانه .

كان من المستحيل ألا نشدّه بأعماله الجبارة وشخصيته القوية ، كما كان من العسير تفادى الإعجاب به . ونضيف - إحقاقاً للحق - أنه كان من الصعب أيضاً الوقوع فى حبه لأول وهلة ، وذلك لخشونته وتجهمه ودمدمته ولاعتراضه على أى شىء من البداية ، لكن هذا - كما أسلفنا القول - كان مجرد لحاء ... لم تكن صداقته مثل مياه النهر - الملوثة أحياناً - التى تعرض نفسها لنظر كل عابر ، بل مثل ينبوع خفى يتدفق بين الصخور ، ومن أجل هذا ، من يتمكن من الوصول إلى مكان انبثاق العين والتنعيم بنضارة مودتها الحقيقية يصبح صديقه إلى الأبد : فى حميمية تبرّ ما عداها . فى واحة الثقة كان « بروفنسال » يتحول ويتغير شكله : تجده حنوناً ، كريماً ، بشوشاً ، طفولياً (لدرجة لا تصدق) حيث يراه الآخرون قاسياً وبخيلاً وعبوساً ، لقد كان بالفعل طفلاً مدلاً ويائساً فى آن واحد ، لكن شراسته للدعابة والعطف لم يكن لها حدود ، ومن أجل هذا لم يكن أنموذجه العطوف ينسجم مع القالب الاجتماعى الفرنسى ، بل يتسق - فى المقابل - اتساقاً مدهشاً مع عصارة الروح الأيبيرية .

لقد فرّ صولجان تاريخ إسبانيا العربى من « كوندى » (Conde) إلى « دوزى » (Dozy) ، ثم من « دوزى » إلى كوديرا (Codera) . وفى شغلنا ، نحن « بنى كوديرا » ، باستعمار الأراضى الجديدة التى اكتشفها « ريبيرا » و « أسين بلاثيوس » غفلنا قليلاً عن ذلك الجزء من ميراثنا القديم فانتقل إلى « ليفى بروفنسال » .. ونود - اليوم - أن يتقدم فتى إسبانى ويعيد هذا الصولجان برفق وثبات إلى أرض الوطن بعد سحبه من تابوت العالم الفذ الذى دبّت على يديه الحياة ثانية فى حوليات إسبانيا الإسلامية وتقدمت تقدماً مدهشاً لأكثر من ربع قرن ، من خلال أعمال تجلّ أرضنا ومحاطة بأسمى آيات التقدير العالمى .

إميليو جارئيا جومث

الجزء الأول

النُّظم والمؤسسات ، والحياة الاجتماعية والفكرية
بقلم المستشرق الفرنسي / ليفى پروفنسال
ترجمه إلى الإسبانية ، العلامة / إميليو جارتيا جومث

الفصل الأول

النسق السياسي للخلافة الأموية ^(١)

عناوين الفصل الأول :-

١ - الخصائص والسمات العامة للمؤسسات الأموية :

شحة الوثائق المتاحة وعدم دقتها - « الواجهة الشرقية » للدولة القرطبية .

٢ - الحكومة المركزية :

العامل - الشارات الرمزية للدولة ، ومراسم تنصيب العامل - الحجابة وشرف الوزارة - الإدارة المركزية والأمانة العامة للدولة .

٣ - النظام المالي :

الخزانة العامة ومواردها - الضرائب بأنواعها المختلفة - احتكار سك العملة - الموارد أو المخصصات الملكية .

٤ - التنظيم الإقليمي :

الكور أو الدوائر الإقليمية - الإدارات الإقليمية .

حواشي الفصل الأول

١ - الخصائص والسمات العامة للمؤسسات الأموية

شحة الوثائق المتاحة وعدم دقتها : -

لو نظرنا إلى مجمل تاريخ إسبانيا الإسلامية لوجدنا أن القرن الخاص بالخلافة القرطبية يمثل نقطة ارتقاء تَبَزَّ ما عداها ، ولا يرجع هذا فقط إلى ما يتميز به ذلك القرن من استقرار سياسي وازدهار مادي غير مسبوقين على أرض شبه الجزيرة منذ الفتح العربى ، بل - أيضاً - لفترة الشلل الطويلة التى فرضتها الهيمنة الحربية الأموية على البوارج الهجومية للممالك المسيحية المتاخمة .

ولو أردنا ترسيم حدود دقيقة لتلك الفترة لبدأناها بتأسيس الخلافة على يد عبد الرحمن الثالث عام ٩٢٩ م (٣١٦ هـ) وختمناها ب وفاة « حاسب القصر » الثانى ، العامرى : عبد الملك المظفر (١٠٠٨ م - ٣٣٩ هـ) ، إنه عصر يمكن تمثيله فى الرسم البيانى لحوايل الأندلس بالمنبسط العريض المسبوق بمنحنى بطيء صاعد ، والمتبوع - من بداية القرن الحادى عشر - بانحدار رأسى فجائى .

يبدو مناسباً ، بالتالى ، تبنى هذا الإطار الزمنى لعمل دراسة مستفيضة بعض الشئ للمؤسسات السياسية والهيكل الاجتماعى ، للحياة الاقتصادية والدينية والثقافية لإسبانيا الأموية ، انطلاقاً من أن عصرًا مترع الثمرات مثل هذا العصر لابد وأن يكون مناخاً مناسباً للتبلور النهائى سواء فى نظم الحكم والطبقات الاجتماعية ، أو الاستثمار الأمثل للموارد الطبيعية للبلاد ، أو للتطور التجارى / الصناعى المكثف وللتقدم الجلى فى شتى ميادين الفكر والأدب والفن .

إن الثمار المرجوة من هذه الدراسة هى الدافع لتجسير الصفحات التالية ، لكن علينا تحذير القارئ مقدماً من أن اقتصارنا - عن عمد - فى هذه المهمة على دائرة تاريخية مغلقة بشدة وصرامة يجعلنا عرضة للتوصل إلى نتائج قصيرة المدى ، وإن انتفت عنها صفة السلبية المطلقة ، ومن ثم يجب التنويه إلى أننا سنضطر للانفلات - فى كل أن - من المسطح الزمنى للقرن العاشر والتعريح على شواهد سابقة أو أخرى لاحقة (على وجه الخصوص) فى محاولة للتعويض - بقدر المستطاع - عن جفاف المصادر التاريخية المثير للأسى .

من الثابت أن المؤرخين العرب لا يلقون بالا للوصف التفصيلي لدور و«ميكانيزم» الخدمات العامة في الدول الإسلامية ، وبالرغم من أن المصادفة البحتة قد تقودنا - ذات يوم حسن الطالع - للعثور على الأعمال الكاملة لمشاهير مؤرخي سلالة قرطبة الأموية (الرأزي أو ابن حيان ، مثلاً) إلا أننا لن نجد بها ما ينقع الغلة من معلومات متماسكة حول تنظيم دولة الخلافة وتطور النظام السياسي الأموي ، مما يحول في النهاية دون إعداد وصف موجز يمكن مقارنته بالمحاولات الناجحة لحقب متزامنة أو لاحقة في تاريخ الشرق الإسلامي خلال العصر الوسيط ، إن أعمال المؤرخين الغربيين - بما فيهم أولئك الذين يستحقون وافر الثناء والتقدير - لا تزودنا إلا ببعض الإشارات الجافة حول طبيعة وأداء الخدمات العامة خلال فترة تاريخية محددة ، صحيح أن كافة المدونات التاريخية تسلط الضوء باستمرار على شخصية العامل المحورية ، وتموج بالقباب ووظائف جمهرة من رجال الحكومة ، إلا أنها لا تعتمد أبداً إلى التحديد الواضح لدوائر اختصاصهم ولطبيعة المهام المنوطة بهم ، وعلاوة على هذه الفاقة الوثائقية فإن تذبذب المصطلحات (٢) وعدم ثباتها في معظم الأحيان يزيد الطين بلة : فهنا وهناك - خلال السرد - تصدر مسميات يراد بها وظيفة أو منصب إداري أو مالي ، دون أن يسمح لنا السياق مطلقاً بالتحديد الدقيق لأبعاده ومهامه ، ومع كل هذا فليس أمامنا من سبيل سوى الاستعانة الفطنة بتلك الشذرات المعلوماتية المبثوثة كيفما اتفق في الحوليات العربية ، لأنها - وبرغم شحتها - تعتبر الوحيدة تقريباً التي تعكس الواقع الفعلي للأشياء وتبتعد - بالتالي - عن الحدس والافتراضات المحضة .

قد يبدو من قبيل التكرار الإشارة هنا إلى معلومة معروفة مفادها أن العيب الجوهري في بعض الأعمال التاريخية القديمة - نوعاً ما - التي تتناول أسس الحقوق العامة في الإسلام (٣) يكمن في محاولاتها تقديم صورة مثالية للحكومة في الدولة الإسلامية بدلاً من وصف نظامها الحقيقي ، وفيما يخص شبه الجزيرة إيبيريا ، فقد قُدِّر علينا الانتظار حتى نهاية العصر الوسيط لكي يشرع كاتبان مغربيان شهيران (ابن سعيد وابن خلدون) في رسم لوحة مجملية للبنى التحتية المختلفة للدولة القرطبية في عصر الخلافة ، وقد قام المؤلف الأول بعمل هذا ، لكن بشكل موجز للغاية ودون توخي الدقة بالنسبة للفواصل الزمنية ، أما الأخبار التي يسوقها لنا ابن خلدون في « المقدمة » الذائعة الصيت لتاريخه العام أو « كتاب العبر » فهي أيضاً لا تستحق

ثقتنا الكاملة لافتقارها إلى الدقة فى معظم الأحيان ، هذا لأن المصطلحات الخاصة بالمؤسسات القرطبية خلال القرن العاشر لم تكن مألوفة - بعد مرور أربعة قرون - لدى السياسى المغربى الكبير الأكثر علماً وإحاطة بالنظم الحكومية المعمول بها أيامه فى الممالك الإسلامية فى الغرب والتي لحقها التحوير نتيجة للتغيرات التى أحدثها الموحدون - فى نهاية القرن الثانى عشر - بنظم الدولة الأموية .

« الواجهة الشرقية » للدولة القرطبية : -

بالرغم من أن شحة المصادر التى لدينا وعدم دقتها يعوقان استجلاء كنه تفاصيل النسق السياسى للخلافة الأموية ، إلا أن ما نعرفه يُعد كافياً لسوق الملاحظة التالية : إن ذلك النسق لم يكن نتيجة لمبادرة نبعت من أمير المؤمنين الأول : عبد الرحمن الثالث (وهو الاعتقاد الخاطىء الذى ظل سائداً حتى وقت قريب) ؛ بل كان - بالرغم من أن العداوة القديمة كانت ما تزال تفصل فى القرن العاشر بين بغداد وقرطبة - مجرد نقل للنظام السياسى لخلافة الشرق العباسية ، صحيح أن هذا النقل قد خضع للتعديل فى بعض الجوانب المحددة ليتكيف مع الأطر البشرية والجغرافية الجديدة ، إلا أنه كان بوجه عام نسخاً وفياً لا شىء فيه ، وهاتان الحقيقتان - المرتبطتان ارتباطاً وثيقاً - قد عززهما مؤخراً الجزء المكتشف من « المقتبس » (لابن حيان) والذى يغطى فترة ولاية الأميرين الأمويين : الحكم الأول وعبد الرحمن الثانى .

وكما رأينا من قبل (٤) ، فإن الأمير عبد الرحمن الثانى هو الذى قام بإدخال النظام الإدارى المتبع وقتها فى الدولة العباسية إلى إمارته الأندلسية ، وبالطبع فإن هذا النظام لم يحل فجأة محل النظام السياسى السابق للإمارة القرطبية والمنقول بحذافيره من امبراطورية دمشق الأموية ، وأغلب الظن أن تبنى هذا النظام قد تم بالتدريج : ربما يكون الحكم الأول هو الذى بدأه وسار على نهجه بعد ذلك عبد الرحمن الثانى ثم الأمير محمد الأول ، على أى حال ، فإننا لو نحيئاً جانباً عبد الرحمن الداخل (لأنه مؤسس الحكم المروانى ولديه كل ما يمكن تخيله من الأسباب والدوافع التى تجعله - فى منفاه الذى حوله إلى مملكة - المحافظ الوفى على « التقاليد السورية » ، والخصم اللدود للخلفاء الذين اغتصبوا عرش الخلافة من نويه) لأمكننا القطع بأن أمراء قرطبة كانوا - طيلة القرن التاسع - على علم تام بنظم الحكومة العباسية - المنسوخة حرفياً بواسطة إمارة الأغالبة الإفريقية القريبة جداً من إسبانيا (٥) - وأنهم استلهموها فى إصلاحاتهم الإدارية المتباعدة ، التى قد لا يقدر لنا أبداً الوقوف على دقائقها وتفصيلاتها .

وعلى خلاف ما تقدم فنحن نعلم الكثير عن المؤسسات السياسية للإمبراطورية العباسية ، خاصة في عهود خلفائها الكبار ، وكما هو معروف ، فتلك المؤسسات تنضج بالصبغة الإيرانية ، ذلك لأن العباسيين عندما أراونا إحداث تغييرات شاملة في الإمبراطورية السورية التي آلت إليهم ، لم يجدوا أفضل من الفرس الذين ساعدوهم كثيراً في رفع قواعد دولتهم الجديدة ، وعلى هذا ، فإن الهيكل الحربي القديم - الذي كان تماسكه عرضة للانفراط الدائم من جرأء الخصومات بين العشائر العربية - قد تحول الآن إلى إمبراطورية ليبرالية يضطلع فيها الانتشار السريع للغة القرآن ، وسمو العقيدة الإسلامية وتطبيق قواعدها الاجتماعية على المسلمين الجدد بمهمة الحفاظ على وحدتها .

ومما لا شك فيه أن تفشى المقومات التأسيسية الفارسية (٦) في أوصال هذه الدولة المترامية الأطراف قد أدى إلى توارى طابعها « العربي » الخالص ، وإلى إبراز صفتها « الشرقية » ، إن الاقتباسات التي لا تحصى من الحضارة الساسانية تظهر بجلاء على قصر الخلافة وعلى حاشية العامل .

أما بيزنطة (مستودع تراث الإمبراطورية الرومانية) فقد اضطلعت هي الأخرى بدور فعال ؛ قد تنتفى عنه صفة المباشرة الصريحة إلا أن آثاره واضحة للعيان ، وعما قريب ، وفي دورة طويلة وفريدة ، سيقوم هذا الحضور التراثي لإمبراطوريتي الأكاسرة والقيصرية في الدولة العباسية بالإعلان عن نفسه ثانية في الطرف الغربي للعالم الإسلامي .

لابد أن المملكة الأموية في الأندلس قد تمكنت من مراقبة التسلل المستمر لهذه التأثيرات البعيدة التي تنضج بها واجهة الإمبراطورية الشرقية المنتصبة على الطرف الآخر للبحر الأبيض المتوسط ، ولم يعوقها نسيجها البشري المعقد ، ولا جغرافيتها ، ولا شدة قربها من المسيحية الأيبيرية والفرنجية ، من تبني جوهر المستحدثات السياسية لخلفاء بغداد ، أو السير على نهجهم في التخفف من بعض التشريعات الإسلامية النظرية التي تستعصى على التطبيق نظراً لصرامتها الشديدة ، وعلى خلاف هذا ، لم يعمد أمراء وخلفاء قرطبة إلى الأخذ بشيء من المقومات التأسيسية ، التي كانت سارية المفعول في إسبانيا القوطية وقت دخول الغزاة المسلمين ، اللهم - وحتى على هذا لا يوجد دليل قاطع - إلا فيما يخص بعض قواعد الأحوال الشخصية

لتطبيقها على المستعربين ، والنظام الخاص بملكية العقارات . وفى المقابل ، كانت الممالك المسيحية فى شبه جزيرة أيبيريا هى التى قامت بالنقل المتنامى للعديد من الأسس والنظم السياسية لملكة الأندلس ، وعندما اتضحت معالم « حرب الاسترداد » تسربت المسميات العربية لهذه البنى التأسيسية ومسميات وظائف القائمين عليها إلى قاموس الإدارى لكل من قشتالة و « رغون » ، ويكفى أن نشير بإيجاز إلى أن المصطلحات الإدارية والضرائية فى العصر الوسيط كانت مجرد نسخ أو تحريف - باللغة الرومانثية (الأعجمية) - للمصطلحات العربية ، ومن فوق قنطرة إسبانيا الإسلامية عبرت جبال البرانس (من خلال الممالك المسيحية الإيبيرية) مجموعة من المقومات التأسيسية المتعلقة بشئون الدولة - وبخاصة تلك التى تتصل بوظائف قصر الحكم ، ذات الأصل الفارسى الساسانى الواردة من بغداد - ووصلت إلى غرب أوروبا وظل بعضها فيه حتى العصر الحديث .

٢ - الحكومة المركزية

العاهل :-

بإمكاننا الحديث - تحت هذا العنوان - عن الحياة اليومية للخليفة في مقره بقرطبة ، أو في قصره المنيف بمدينة الزهراء ، عن « البروتوكول » الصارم المعقد الذى يتحكم فى أدق تفاصيل نشاط الخليفة الرسمى ، عن المجالس وحفلات الاستقبال الخاضعة للبروتوكولات التى تطبق بعناية على الشرائع الاجتماعية المختلفة من رعايا المملكة والمماثلة للمعمول به فى بلاط بغداد وبيزنطة ، لقد أصبح الأموى الإشبانى فى القرن العاشر أشد تشبها بالخليفة العباسى منه إلى صورة أسلافه السوريين ، أصحاب السجايا والخلال الحميدة ، الأوفياء فى بعض المظاهر لعروبتهم ، البسطاء فى أغلب الأحوال والأسريون أحياناً ، ومنذ اليوم الأول الذى تجاسر فيه عبد الرحمن الثالث على التلقب « بأمير المؤمنين » وهو على وعى تام بضرورة إحاطة جميع أنشطته العامة بهالة من الجلال والوقار ، صحيح أن أسلافه - ربما باستثناء جده عبد الله - كانوا قد تخلوا منذ زمن عن الظهور المستمر أمام رعاياهم ، وكانوا يحيطون أنفسهم كل مرة يظهرون فيها بهالة من الأبهة والفخامة ، لكن بعد التحول إلى خليفة ، غدا العاهل الأندلسى يقود جماهير شعبه من علّ باعتباراه إمامها : أى الموجه الأعلى لضميرها ، والمسئول فى جميع أرجاء المملكة عن الحفاظ على سلامة ووحدة القانون المستمد من القرآن الكريم والسنة النبوية طبقاً لصيغة التفسير المالكى الصارمة ، على عاتقه ، قبل أى إنسان آخر ، تقع مسئولية تطبيق الوصفة السحرية التى تضبط إيقاع سلوكيات وتصرفات المجتمع الإسلامى : « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » . كان عاملاً مستبداً ، مطلق السلطات ، يقرر كل شئ بنفسه ، وعلى هواه ، إذا تنازل وفوض بعض كبار الموظفين فى ممارسة جزء من سلطاته ، لا يحاسبهم عليها أحد غيره ، وبإمكانه عزلهم وقتما يشاء ، دون أن يكون لهم الحق فى الدفاع عن أنفسهم ، يهب الحياة ويقضى بالموت ، وكأنه يمتلك مصائر الجميع ، زعيم دينى ودينوى بكل ما تتسع له هذه الكلمات من معان ؛ يؤم - فى البداية - صلاة الجمعة ؛ يصدر الأحكام النهائية التى لا رجعة فيها ، يسك النقود باسمه ؛ يتحكم فى الإنفاق العام ويوجهه حيثما أراد ، لا توجد قاعدة ما يمكن أن تخفف من تعسفه المحتمل فى ممارسة

السلطة ، ليس له من ضابط سوى القانون المكلف هو بتطبيقه ، والذي يملئ عليه تجنب الظلم ونشر العدل بين رعاياه دون تمييز بينهم ؛ وفي حالة صدور قرارات جائرة يسمح هذا القانون للرأى العام بالتدخل - من خلال رجال الدين فى حاشيته - وتوجيهه إلى جادة الصواب .

كان الخليفة هو القائد العام لقواته ؛ من يتولى - خاصة فى البداية - قيادة جيوشه فى المعارك ؛ من يعنى شخصياً بإعداد الصوائف ؛ من يضع خطة العمليات الحربية ، كان يقود السياسة الخارجية ، ويختار مندوبى وأعضاء سفاراته ، ويستقبل فى أبهة وفخامة الحاملين للرسائل أو الهدايا من الملوك الكبار أو الصغار ، سواء كانوا من العالم الإسلامى أو المسيحى ، ينفق الأموال الطائلة لإعاشة بيته ، وعلى علم تام بإيرادات الخزانة العامة وإيرادات أملاكه الخاصة ، وللاضطلاع بهذه المهام الجسم بدقة وتفان - مثلما فعل عبد الرحمن (الناصر) - كان عليه التخلّى عن التمتع بحياته والتحول إلى حركة دائبة - حتى ولو لم يكن على رأس إحدى الحملات فى ثغر من ثغوره البعيدة - ، وأن يضرب صفحاً - بالتالى - عن تزكية الروح أو الترويح عن النفس . وإذا كان عاجلاً مثل الحكم الثانى قد استطاع أن يوفر لنفسه الوقت الكافى للتأمل والدراسة فقد كان هذا لأنه عندما اعتلى العرش وجد الماكينة الإدارية تعمل بكفاءة ودون معوقات ، ولأنه - من جهة أخرى - اعتقد أن بإمكانه تكليف أحد الثقات (خاصة وزير الدولة) بأداء بعض مهامه ، دون أن يتخيل أن مثل هذا التفويض سيصبح أحد الأسباب الرئيسية لزوال ملك عائلته .

بالفعل ، رأينا كيف انتقلت بعد الحكم الثانى معظم الاختصاصات الملكية ليد المنصور بن أبى عامر ، الذى لم يكتف بموقعه كحاجب أول للقصر ، واستطاع فى بضع سنوات (دون رد فعل من الشعب الذى سرعان ما تحول زعره فى البداية - نتيجة للقمع العنيف لأية باردة احتجاج تصدر منه - إلى فتنة بمواهب الرجل السياسية وانتصاراته الحربية المدوية) تجريد الخليفة الأندلسى من كل سلطاته ، لم يترك المنصور للعاجز هشام الثانى سوى لقب « أمير المؤمنين » ، وإمهار المراسيم الملكية المُملة عليه بتوقيعه وخاتمه ، والدعاء له على منابر المساجد الكبرى فى خطبة الجمعة ، وبهذا الشكل ظلت واجهة الملكية الأموية محترمة ، وبالرغم من أنه كان الحاكم الفعلى ويمارس السلطة على هواه إلا أن اللقب الذى ارتضاه لنفسه كان يقل

درجة عن اللقب الرسمي للأمير ، وعلى سعيد الهيمنة الروحية (الدينية) فعل الشيء نفسه عندما جعل اسمه يأتى تالياً لاسم المروانى فى دعوات وابتهالات الوعاظ والأئمة ، لم يחדش الوضع الاستثنائى الذى ابتدعه « حاجب القصر » العامرى الهيكل الإدارى للمملكة : إذ ظل سلّم المواقع والوظائف دون مساس ؛ وظلت مكاتب الحكومة المركزية - التى انتقلت بكاملها تقريباً إلى « الزاهرة » - تعمل كما كانت من قبل ، أو ربما بكفاءة أعلى تحت الإدارة الشخصية والمراقبة الدؤوب لمن استطاع (وفى هذا يعتبر ندأ لعبد الرحمن الثالث) أن يقود إسبانيا المسلمة إلى أسمى الآفاق ، ولن كان أهلاً - لو اعتلى ذات يوم قمة السلطة - لحمل اللقب المهيب : « ملك كريم » ، وإن كان قد تسلىح بالشجاعة واستباحه لنفسه ، بيد أنه جعله تالياً لجلال الخلافة التى ظلت محتفظة بشكلها الخارجى .

* الشارات الرمزية للدولة . ومراسم تنصيب العاهل : -

يعتبر من قبيل الخروج عن الموضوع لو تطرقنا الآن لعرض الميزات المختلفة للملك فى العالم الإسلامى خلال الفترة التى نحن بصدددها ، تكفى الإشارة إلى أن مملكة الأندلس لم تطمح إلى التفرد فى هذا المجال ، كانت الشارات الرمزية للدولة الأندلسية - حتى منتصف القرن العاشر ، على الأقل - مطابقة لمثيلاتها فى الامبراطورية الأموية بالشرق ، أى أنها كانت متواضعة للغاية ، لكن بعد تأسيس الخلافة على يد عبد الرحمن الناصر بدأت تظهر أصداء البروتوكول العباسى فى الأمانة العامة للدولة ، لدرجة أنها تغلغت فى أدق تفاصيل تشريفات البلاط الأموى ، ويشهد بذلك الملف الذى أعده المؤرخ « عيسى الرأزى » (واحتفظ به ابن حيان) ويغضى ثلاث سنوات من عهد الحكم الثانى ، كان من الضرورى انتظار المناسبات الاستثنائية - علاوة على الاحتفالات الدينية الموسمية المرتبطة بالتقويم الهجرى - لى تعلن كل مظاهر الأبهة والعظمة فى مقر العاهل بالعاصمة أو فى مدينة الزهراء عن نفسها ، ولتتمكن العامة فى قرطبة من الافتتان بتأمل العروض التى لا تنتهى ، والمواكب الفاخرة التى ترافق الأمراء والسفراء المسلمين والمسيحيين^(٧) حتى مجلس الخليفة .

أما « التاج » (الشارة الرفيعة السامية للوك إسبانيا المسيحية فى القرن العاشر باستثناء مملكة ليون) فلم يكن له وجود فى قرطبة المروانية^(٨) ، وفى المقابل ، وعلى

غرار خلفاء بغداد ، فإن العاهل الأندلسي كان يجلس - أثناء حفلات الاستقبال المهيبة - على العرش (الكرسي) ويمسك بيده صولجاناً (عبارة عن عصا طويلة من الخيزران معقوفة الطرف) (٩) .

وعلى هذه الهيئة أخذ الحكم الثاني البيعة من « الخاصة » عندما تولى مقاليد السلطة في ١٥ أكتوبر سنة ٩٦١ م (٣ رمضان ٣٥٠ هـ) . يبدو أن هذا التقليد كان من ابتداع الخليفة القرطبي الثاني ، ذلك لأن والده لم يلجأ إليه حتى في أواخر عهده ، ربما لأنه أثر الابتعاد عن مشقة الجلوس منحنيًا على الكرسي المظلم طيلة وقت انعقاد المجلس ، لدينا - على الأقل - في هذا الخصوص دليل حاسم تركه لنا كاتب التراجم « خوان دي جورثي » (Juan de Gorze) : عندما جاء رئيس دير « لورينا » موفداً من قبل الامبراطور « أوتون الكبير » (Otón el Grande) استقبله عبد الرحمن الثالث (في ٢١ يونيو ٩٥٦ م) وهو شبه متمدد على أريكة ، ذلك لأن - يوضح النص - ملوك قرطبة « لا يستخدمون ، مثل بقية الشعوب ، عروشاً ولا كراسي ، بل أسرة أو حشايا يجلسون عليها واضعين ساقاً على ساق لكي يتجاذبوا أطراف الحديث أو تتناول الطعام » (١٠) .

وطبقاً للمؤرخين المسلمين فإن علامة الملك الحقيقية يمثلها - دون منازع - الخاتم الملكي : خاتم من الذهب الخالص منقوش عليه شعار العاهل المتمثل في جملة موجزة (كانت معروفة لدى معظم أمراء بني أمية السابطين واستخدمها الخليفة الأول والثاني) تقول كلماتها : « عبد الرحمن (أو الحكم) بقضاء الله راض » ؛ أما الخليفة الثالث فقد حوَّرها لتصبح : « هشام بن الحكم بالله يعتصم » (١١) ، كان الشعار ذاته مطبوعاً على الرايات التي تسلم للقادة عند خروجهم للقتال على رأس الحملات الحربية ، كما كان موجوداً - دون شك - على حواشي الأقمشة المزركشة التي تنسجها دار الصناعة الملكية ، وفي هذا أيضاً كانت قرطبة تسير على نهج دمشق وبغداد .

ومن صميم التقاليد الشرقية أيضاً مراسم أخذ البيعة (١٢) ، التي كانت تتم في قرطبة خلال القرن التاسع والعاشر ، بهدف تقديم الطاعة والولاء للعاهل عند تنصيبه ، وأحياناً لولى العهد عندما يتم تعيينه (١٣) ، أعد لنا المؤرخون تقارير ضافية عن الاحتفالات الرسمية أثناء عصر الخلافة في الأندلس ، وخاصة ما يتعلق منها بتنصيب

الحكم الثانى وهشام الثانى ، وهذه التقارير ذات أهمية بالغة لأنها تتضمن أسماء الشرائع الاجتماعية (الطبقات) التى كانت تحتل مكان الصدارة فى مراسم تقديم الولاء للعامل الجديد (١٤) .

وتقديم الطبقة الأرستقراطية (الخاصة) لفروض الولاء والطاعة كان يتم داخل إحدى صالات الاستقبال بالقصر ، وبصفة شخصية (دون إنابة) ، وطبقاً لبروتوكول صارم أعد سلفاً ، أما « بيعة العامة » التى تستمر بعد ذلك عدة أيام فى العاصمة وعواصم الأقاليم (الكُور) المختلفة ، فكانت على هذا النحو : يفوض العامل عدداً من الموظفين والقضاة لأخذ البيعة من العامة نيابة عنه ، ثم يجتمع هؤلاء فى المساجد الكبرى المنتشرة فى جميع أرجاء المملكة لتلقى فروض الطاعة من طوائف الشعب (سكان المدن ، القرى ، المزارع والضياح ... الخ) وصيغة القسم وكيفيته كانت مأخوذة أيضاً - بالنسبة للخاصة ، على الأقل - من التقاليد الشرقية : إذ كان المبايع يضع يده على راحة المبايع قائلاً له « أقسم بالله العظيم ، الواحد الأحد ، على الولاء والطاعة لك فيما يوافق شرع الله وسنة نبيه ، وأن أحافظ على هذا العهد بكل ما أوتيت من قوة » (١٥) .

وهناك ميزة أخرى للعامل تتمثل فى ذكر اسمه وألقابه الرسمية والدعاء له على المنابر فى خطبة الجمعة ، وإن نتوقف كثيراً عند هذه النقطة لأننا تطرقنا إليها من قبل (١٦) ، تكفى التذكرة بأنه حتى اللحظة التى قطع فيها عبد الرحمن الثالث كل الصلات ببغداد باتخاذ لقب « أمير المؤمنين » لم يكن قد دار بخلد الناصر ولا بخلد المروانيين السابقين منع الوعاظ والخطباء من الدعاء على المنابر للحكام العباسيين باعتبارهم الخلفاء الشرعيين الوحيدين فى العالم الإسلامى ، ومنذ عام ٩٢٩ م (٣١٦ هـ) حتى سقوط الدولة الأموية - دون استثناء زمن الديكتاتور العامرى - تحول الدعاء فى خطبة الجمعة إلى المروانى الحاكم فى قرطبة ، وظل الأمر هكذا حتى استولى المرابطون على الأندلس ، وعندها حولوا الدعاء ثانية - وإن كان لبعض الوقت - لصالح خلفاء الشرق.

الحجابه وشرف الوزارة :-

عندما لم يكن هناك سوى منصب واحد ، فإن وزير الدولة كان يطلق عليه فى الأندلس لقب « حاجب » (١٧) وهو يساوى لقب « وزير » فى البلاط العباسى (١٨) ، كان

هذا المنصب ^(١٩) يعتبر - بالإضافة إلى منصب قاضى الجماعة (قاضى القضاة) - من أرفع المناصب بالمملكة ، ومثل الوزير فى الشرق ، فإن « الحاجب » الأندلسى كان ينوب عن الأمير فى ممارسة السلطة ، ويتولى رئاسة الإدارة المركزية والحربية والإقليمية ، لقد كان - باختصار - شخصية غاية فى الأهمية ، يلتقى من العاهل راتباً كبيراً علاوة على الهبات والمنح العقارية ، كانت مسئولية الأمن العام تقع على عاتقه ، ولهذا الغرض كان لديه حشد كبير من الجواسيس ورجال الأمن ، يلتقى بالعاهل يومياً ليقدم له التقارير ، ومن النادر أن يتولى بنفسه - خلال فترة الخلافة ، وباستثناء حالة « العامريين » - قيادة إحدى الصوائف المتجهة إلى أرض الأعداء فى حين أن هذا كان من الأمور الشائعة فى عهود الأمراء الأمويين .

والآن يحق لنا التساؤل : لماذا حمل وزير الدولة فى إسبانيا لقب « حاجب » بينما كان اسمه فى بقية الدول الإسلامية Chambelán الأمير ؟ صحيح أن اللقب الأخير كان يشير إلى رفعة مقام صاحبه ، لكنه لا يحمل فى طياته أدنى مدلول للتفويض فى السلطة ، يبدو أن السبب يكمن فى أن لقب الوزير لم يكن يستخدم فى تقاليد البلاط الأموى القديمة لتحديد مهام منصب معين ، بل للإشارة إلى صفتي الرفعة والشرف اللتين يتحلى بهما شخص ما ، ومن البديهي أن « الحاجب » كان واحداً من مجموعة الوزراء ، لكنه كان الأقرب منهم جميعاً إلى العاهل .

قام ابن سعيد وابن خلدون بتحديد صفة منصب « الحاجب » فى إسبانيا الأموية بدقة متناهية ، وطبقاً للمؤرخ الأول ^(٢٠) فإن الأمير القرطبى فى القرن العاشر كان يمنح لقب « وزير » لعدد من الأشخاص يختارهم ليكونوا « معاونين » و « مستشارين » له ، وكان يفرد من بينهم واحداً يرأسهم وينوب عنه إذا اقتضى الأمر ؛ هذا الواحد كان يطلق عليه فى إسبانيا « حاجب » وفى الشرق « وزير » ، أما ابن خلدون ^(٢١) فقد أوضح بجلاء هذا المدلول القرطبى الخاص قائلاً : « أما دولة بنى أمية فى الأندلس فأبقوا اسم الوزير فى مدلوله أول الدولة ، ثم قسموا خطته أصنافاً ، وأفردوا لكل صنف وزيراً ، فجعلوا لحسبان المال وزيراً ، ولترسيل وزيراً ، ولتنظر فى حوائج المتظلمين وزيراً ، ولتنظر فى أحوال الثغور وزيراً ، وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم ، وينفذون أمر السلطان هناك كلُّ فيما جعل له ، وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان فى كل وقت ، فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب » ^(٢٢) .

لا يتفق المؤرخون الأقدمون مع ابن خلدون في تصنيفه السالف لوزراء الخلافة القرطبية ، ولا في وصفه لطبيعة أعمالهم ؛ ويبدو أن صاحب « كتاب العبر » قد مال - مرة أخرى - لنزعة التعميم العارية عن البراهين الثابتة ، كما أنه لم يسلم من الخطأ ثانية عندما أعلن بعد قليل من كلامه السابق عن بقاء هذا النظام حتى زوال الدولة الأموية ، في حين أن المدونات التاريخية تنطق بخلاف هذا ، فبمجرد الاطلاع على تلك المدونات التاريخية نعرف أنه في نهاية القرن التاسع وبداية العاشر لم يكن هناك « حاجب » بهذه المواصفات ، لأن الأمير عبد الله بعد تعيينه لوزيرين للدولة ألغى الوظيفة إلى أن قام عبد الرحمن الثالث بإعادتها بعد ذلك (٢٣) ، كان لعبد الرحمن الثالث « حاجبان » : بدر بن موسى ، ثم موسى بن حُضَيْر (Hudair) ؛ ولما مات الأخير (عام ٩٣٢ م - ٣٢٠ هـ) لم يعين خلفاً له وظل دون حاجب حتى نهاية عهده ، أما الحكم الثاني فقد اتخذ منذ توليه السلطة القائد « جعفر الصقلبي » وزيراً للدولة ، وعندما مات الصقلبي حل محله « جعفر المصحفي » الذي ظل محتفظاً بالحجابة إلى أن أخذها منه محمد بن أبي عامر .

وعندما اتخذ المنصور لقب السلطان جعل ابنه عبد الملك (المظفر) حاجباً ، وبقي اللقب ملازماً له بعد وفاة والده ، لقد كان للقب « الحاجب » شأن جليل في إسبانيا لدرجة أن عدداً من ملوك الطوائف الأول فضلوه على لقب الملك أو السلطان واهتموا بنقشه على عملاتهم وإثباته في بروتوكولاتهم (٢٤) .

وفي مقابل هذا ، يبدو أن لقب « وزير » قد فقد بريقه بسرعة ، خاصة عندما تحول في القرن العاشر والثاني عشر إلى مجرد درجة وظيفية عالية ، فمنذ نهاية القرن العاشر كانت السلالة الحاكمة - كما في حالة الديكتاتور العامري - تتوسع في منحه لمن تريد تشریفهم أو إدخال البهجة عليهم ؛ لكن علينا ألا ننسى الهوان الذي لحق بهذا اللقب عندما منحه قرطبة للزعيم « الزيري بن عطية » (٢٥) . يبدو أن الترقى لدرجة الوزارة لم يكن يعنى بالضرورة ترك صاحبها لمنصبه السابق ، بل صعوده إلى درجة أعلى في السلم الاجتماعي والتمتع براتب معين (رزق) مدى الحياة ، وهذا الراتب الذي يمكن أن يكون صاحبه موظفاً أو قائداً أو مجرد قاض (٢٦) يفوق ما يتلقاه بقية موظفي الدولة ، لكنه لا يصل إلى ما يتقاضاه الحاجب ، ولو أراد الخليفة تمييز واحد من بين مجموعة الوزراء ، فإنه يعمد إلى مضاعفة راتبه الأبدى وليتحول لقبه ، بالتالي ، إلى « ذي الوزارتين » .

وهذا اللقب « ذو الوزارتين » كان معروفاً فى الشرق ويحمله أصحاب المقام الرفيع من العباسيين عندما منحه عبد الرحمن الثالث عام ٩٣٩ م (٣٢٧ هـ) - ولأول مرة فى إسبانيا - لأحد خلائه المقربين ، ونعنى به أحمد بن شهيد ، الرجل الواسع الثراء الذى قَدِمَ للخليفة سلسلة طويلة من الهدايا الثمينة التى احتفظ لنا المؤرخون بقوائمها التفصيلية^(٢٧) ، وطبقاً لبيانات هؤلاء المؤرخين فإن الناصر ضاعف عندئذ لابن شهيد راتب الوزير الذى كان يصل أيامها إلى ٨٠ ألف دينار (وهو على ما يبدو رقم مبالغ فيه)^(٢٨) ، على أى حال ، فمن قبيل المؤكد أن أصحاب « الوزارتين » - وهم كثيرون دون حساب العامريين - لم يكونوا ، على خلاف ما يُعتقد أحياناً كثيرة ، يُخاطبون بهذا اللقب نظراً لأن مهمتهم كانت تتمثل فى الإشراف على العديد من الوظائف الحربية والمدنية العليا فى آن واحد ، وبعد ذلك بوقت طويل - وبالتحديد أيام الناصريين فى غرناطة - أصبح اللقب يطلق على القائم بعمل محدد داخل الحكومة ، ومن جهة أخرى ، فقد كانت توجد ألقاب أخرى كثيرة تعنى « الازباجية » ، ولكنها كانت جميعاً تشريفية مثل : « ذو السيفين » (اذى خلعه الحكم الثانى على القائد « غالب » بعد انتصاره على الإدريسيين فى المغرب) ، « ذو المجدين » ، « ذو السيدتين أو ذو الرياستين » والتى سنراها عما قريب ماثلة فى بروتوكولات بعض ملوك الطوائف الأندلسيين^(٢٩) .

الإدارة المركزية والأمانة العامة للدولة :

فى العهود الأموية كانت تعمل تحت سلطة العاهل وتوجيهه - أو « الحاجب » عندما يتكرم الخليفة ويفوضه فى جزء منها - إدارة مركزية تتكفل بحسن سير الشؤون المدنية والمالية ، وبالطبع ، فإن تلك الإدارة (خدمة الخلافة) يلزمها تجنيد عدد كبير من الموظفين لكى تنهض بما عليها من أعباء ، وهى فى مجملها لا تختلف - على بعد المسافة - اختلافاً جوهرياً عن مثيلتها فى الامبراطورية العباسية أو حتى البيزنطية ، وكان موظفوها يختارون من بين أصحاب المقامات الرفيعة فى البلاط ويُصنفون فى درجات متفاوتة طبقاً لنظام مُحَكَّم ، وللأمير الحق فى فصلهم نهائياً - بسبب أو بدونه - لتُسَدل عليهم من جديد ، مؤقتاً أو للأبد ، ستائر النسيان .

وكما كان متبعاً فى الغرب الإسلامى خلال العصر الوسيط فإن الخدمات المركزية للإدارة كانت تقع داخل حرم قصر الخلافة ، فى الملحقات الشاسعة للقصر المطلّة على الرصيف ، فى مواجهة الضفة اليمنى لنهر الوادى الكبير ، وكان يطلق على مُجمَع

المكاتب هذا « باب السُّدَّة » (٣٠) . كان لبعض هذه المكاتب فروع في مدينة الزهراء ، لكنها انتقلت بكاملها بعد ذلك إلى مدينة الزاهرة (المقر الإدارى القصير الأمد للعامرين) .

نتعرف - من خلال ابن سعيد - على وصف مجمل للخدمات المركزية لتلك الإدارة فى القرن الثانى عشر ، والتي يطلق عليها « الكتابة » أو « سكرتارية الدولة » ، وطبقاً للمؤرخ المذكور (٣١) فإنها تتمثل فى مهمتين أساسيتين : المهمة العليا ، ويضطلع بها « كاتب الرسائل » أو « الكاتب » فحسب بالنسبة للأندلسيين الذين لم يكونوا يغفرون له أدنى هفوة فى فن تدوين الرسائل ، ولذا لزم أن يكون ، هو ومعاونوه ، على دراية تامة به ؛ أما المهمة الأخرى فتخص إدارة المال العام ويضطلع بها « كاتب الزمام » ، وقد أطلق عليه هذا اللقب نظراً لطبيعة عمله المتمثلة فى تسجيل أو « زمام » الإيرادات والنفقات ؛ كما كان يطلق عليه أحياناً « صاحب الأشغال الخراجية » .

لكن يبدو أن هذا الوصف المجمل لابن سعيد ينطبق ويتناسب أكثر مع الإدارة الأندلسية فى عهد المرابطين عن عصر الخلافة الذى لا بد وأن يكون « ميكانيزم » إدارته أشد تعقيداً ، وللتدليل على هذا تكفى مجرد إطلالة على قوائم التعيينات الموجودة بمدينة « عارب بن سعيد » التاريخية ، والتي تنطق - علاوة على هذا - بمسميات ومصطلحات مغايرة ، ومن تلك القوائم يتضح كذلك شيوع ودوام التغيير فى أصحاب المناصب العليا الذين كان يعمل تحت إمرتهم جيش من الموظفين المغمورين فى وظائف متواضعة ، وهم وإن كانوا من طبقات اجتماعية غير بارزة إلا أنهم كانوا أكثر استمراراً وديمومة ، ولذا فقد تكفلوا بسير دولاى العمل فى المصالح المختلفة وحافظوا على التقاليد الإدارية التى أدخلها أمراء بنى أمية الأول أو من سبقهم من حكام .

من الغوص فى تلافيف علم التاريخ المعاصر يتبين لنا أن رئيس الأمانة العامة للخلافة القرطبية كان شخصية بالغة الأهمية ، له مثل ما للوزير من شرف وراتب ؛ وكان يحمل لقب « الكاتب » أو « صاحب الرسائل » ؛ وكانت له اختصاصات متعددة إلى أن قام عبد الرحمن الثالث فى أواخر عهده الطويل (عام ٩٥٥ م - ٣٤٤ هـ) بتقسيم المنصب مضيفاً إلى كل قسم من قسمى الأمانة العامة هيئة تفتيشية ، وبهذا الشكل أصبحت مكاتب الأمانة العامة للدولة تحت سلطة أربعة من « كبار الموظفين » ،

كل واحد منهم بدرجة وزير : الأول « جَهْور بن أبى عبدة » ، ومهمته فحص جميع الرسائل الواردة من موظفى الأقاليم : الثانى ، « عيسى بن فطيس » ، ويختص برسائل ممثلى الحكومة فى الثغور والقلاع الساحلية : الثالث « عبد الرحمن الزجالي » ، ومهمته متابعة تنفيذ قرارات العاهل الإدارية الصادرة فى مراسيم ملكية : والرابع ، « محمد بن حضير » ، وكان يدرس الشكاوى التى تصل إلى القصر ويقوم - بعد التأكد من صحتها - باتخاذ التدابير اللازمة لحلها ، « وبهذا الشكل - ينهى المؤرخ حديثه عن الإصلاحات الإدارية للناصر (٣٢) - أصبح لمنصب كل واحد مهمة محددة ، وتوزع العمل بالقسطاس ، وقضيت مصالح العامة فى سهولة ويسر . »

وبالإضافة إلى خدمات الأمانة العامة للدولة ، كان للعاهل سكرتير خاص (كاتب خاص) يملأ عليه القرارات والردود التى يتعين إبلاغها لكبار موظفى الدولة ، سواء فى قرطبة أو عواصم الكُور أو الثغور ، هذه البيانات القصيرة (توقيعات) لم تكن سوى مسودات (٣٣) يقوم بعد ذلك محرر مختص (صاحب الإنشاء) بإعادة صياغتها - بأسلوب بليغ مثقل بشتى ضروب الزخارف اللفظية ، كما جرت العادة فى الأمانات العامة للدول الإسلامية شرقاً وغرباً - وتحويلها إلى : « بطاقة » ، « رسالة » ، كتاب دورى (قونداق) (٣٤) ؛ أو إلى « صك » ، « منشور » ، « سجل » (تعيين) (٣٥) . كان استخدام السجع فى النشر ، والإكثار من الاستشهادات والاقتباسات القرآنية والأدبية ، التوزيع المتناغم للنص - من أوله إلى آخره - إلى فقرات متساوية ، يعنى سعة ثقافة الكتبة الإداريين وتمرسهم الطويل ، والنماذج الكثيرة التى وصلت إلينا من الوثائق البيروقراطية القرطبية فى القرن العاشر تجعلنا نجزم بأن فن تحرير الرسائل الأندلسى لم يكن يقل عن مثيله فى الشرق العربى خلال تلك الفترة ، بالرغم من أنه لم يبلغ قمة نضجه إلا فى القرن التالى ، أى فى عصر ملوك الطوائف .

لسوء الحظ لا يتوافر لدينا كتاب ولو صغير مخصص لرسائل الأمانة العامة أثناء فترة الخلافة نستطيع الوقوف من خلاله على التعريعات الدقيقة لمجموعة من المصطلحات الفنية ، التى كثيراً ما نحتار فى الاهتمام إلى معناها الصحيح ، وبالرغم من هذا سنشير إلى بعض قواعد فن تحرير الرسائل الرسمية وإلى عناية الأندلسيين بمادة كتابتها استناداً إلى ما ورد بإحدى فقرات رسالة دورية حررها باسم « عبد الملك المظفر » الكاتب الشهير « أحمد بن برد » (٣٦) ، وكانت

موجهة إلى المناصب المختلفة بالإدارة المركزية والإدارات الإقليمية بقصد التذكرة بالأوامر التي أصدرها المنصور بن أبي عامر قبل سنوات . تأمر هذه الفقرة ضباط الجيش ومحصلى الضرائب بأن يقوموا شخصياً بتدوين حالة الأرصد وحسابات الصندوق وإرسال تلك الوثائق - مؤرخة ومرقمة بعناية - إلى مقر الحكومة بصفة دورية ، وأن أية رسالة ستستعصى على القراءة أو تُكتب بمداد رديء أو على رقاع من نوعية سيئة فلن يلتفت إليها .

تساعدنا هذه النقف القصيرة على تخيل ما كانت عليه مكاتب قرطبة الإدارية وخدمات الأرشيف من نشاط وحركة دائبة ، وإن كنا لا نملك عنها خلال عصر الحكم الثانى سوى إشارات مبهمه ، فهذا الخليفة (البيروقراطى الذى لاتفوته شاردة ولا واردة) لابد وأن يكون هو الذى اعتنى منذ اعتلائه العرش بتحديد نظم وقواعد « الكتابة » القرطبية ، ويتوحيده شكل الوثائق التى تخرج من أمانة سر دولته ، والتى لم تصل إلينا منها وثيقة واحدة فى صورتها الأصلية .

لابد أن نظام الأمانة العامة للدولة الأموية قد استمر دون تغيير يذكر حتى نهاية العصر الوسيط ، ولابد أن المرابطين قد نقلوه إلى عاصمتهم مراكش ، وبعد ذلك قام الموحدون - المغرمون بالتجديد - بإحداث بعض التعديلات ، مثل : إضافة شعار أو علامة صلاحية (علامة) إلى كل وثيقة رسمية (وتتمثل فى أية قرآنية قصيرة مرسومة بخط معين (٢٧)) ، أو تحريم الاستعانة - نظرياً ، على الأقل - بكتابة يهود أو مسيحيين فى مكاتب الدولة ، وهذا ما يجعلنا نعتقد بأن صغار موظفى قصر الحمراء الفرناطى كانوا يشبهون إلى حد كبير نظراءهم فى القصر القرطبى قبل خمسة قرون ، ولابد أن هؤلاء وأولئك قد تركوا بصماتهم على موظفى « المخزن » المغربى الذين ظلوا حتى وقت قريب يمارسون نشاطهم الروتينى تحت ظلال قصور الأشراف ، من شاهدهم وهم يعملون لابد وأن يدور بخلفه شكل الأمانات العامة الأندلسية : صالات فسيحة ، أرضياتها مغطاة بالحصر والملفات مكمّمة إلى جوار الحائط ، ويدخلها بعض الكتبة جالسين القرفصاء أمام مكاتب منخفضة يطالعون السجلات أو يحررون - والقرطاس والقلم فى أيديهم - الرسائل والشهادات التى سيمهرها الملوك بعد ذلك بأختامهم (٢٨) .

ويتطلب وصول الأوراق الرسمية بسرعة إلى غايتها وجود الخدمات البريدية فى الدولة القرطبية لربط البلاط بعواصم الكُور المختلفة ، ومن المعروف أن الامبراطورية العباسية عرفت البريد (٢٩) عن طريق فارس الساسانية وبيزنطة ، وكلمة

« بريد » ليست عربية، ويبدو أنها مشتقة من الكلمة اللاتينية « بيريدوس » (Veredus) . وقد كان البريد متقدماً جداً خلال ذلك العصر في الشرق الإسلامي ، وخاصة فيما يتعلق بالمناوبة في المسافات الطويلة وتجهيز المحطات على الطرق والحراسة المشددة للطرق التي يسلكها سعاة البريد ، وكانت وظيفة « صاحب البريد » في غاية الأهمية ، ويتمتع صاحبها بهيبة كبيرة ، فيفضل موظفيه الكثيرين المنتشرين في كافة الأقاليم - والذين يضطلعون في نفس الوقت بدور الاستخبار - كان « صاحب البريد » يعرف جميع الأخبار ، ويتلقى المعلومات السرية الخطيرة والمؤثرة ، ولهذا السبب تحول إلى زعيم حقيقى لهؤلاء الموظفين وبسط هيمنته المطلقة عليهم ، لا يبدو أن شيئاً من هذا قد حدث في الخلافة الإسبانية ، خاصة وأننا لانعرف الكثير عن المكلف بالبريد (المسمى هنا بـ « صاحب البرد ») أو عن الخدمات التي كان يتولى أمرها (٤٠) ، وبالرغم من هذا ، توجد - على الأقل - إشارتان لهذا المنصب خلال القرن العاشر : الأولى تتعلق بقيام عبد الرحمن الثالث ، فور وصوله إلى السلطة ، بإسناده إلى « بدر » إضافة إلى عمله كحاجب ؛ والثانية ترجع لنهاية عهد الحكم الثانى عندما جمع القائد الصقلبي « فائق النظامى » بينه وبين منصب إدارة مصانع النسيج الملكية (٤١) ، ومن المرجح أن الرسائل كانت تنقل بواسطة سعاة بريد يمتطون البغال وترافقهم مجموعة من الحراس ، أو بواسطة سودانيين سود ، وقد كانوا مشهورين في إسبانيا بالتفانى في العمل ويتحمل المسافات الطويلة سيرا على الأقدام ، ومنذ القرن الحادى عشر فقط نجد أخباراً تفيد باستخدام الحمام الزاجل ، ويغلب الظن أن هذه الوسيلة كانت تستخدم في الرسائل العاجلة (٤٢) ؛ ونعتقد أيضاً بوجود نظام الإشارات المرئية وخاصة على السواحل التي تنتشر بها أبراج المراقبة (٤٣) .

٣ - النظام المالى

الخزانة العامة ومواردها :

يمت النظام المالى للدولة الأموية فى القرن العاشر أيضاً بصلة قرابة مباشرة للنظام المعاصر له فى دول الشرق الإسلامى ^(٤٤) ، لم يصل إلينا - للأسف - أى كتيب يمكن الاعتماد عليه لوصف هذا النظام فى الخلافة القرطبية ، وهكذا نجد أنفسنا مرة أخرى فى مواجهة بيانات غريبة مبثوثة فى السرد التاريخى ولكنها - بالرغم من قصرها واحتوائها على مصطلحات فنية يتعذر الوقوف ، فى معظم الأحيان ، على معناها المحدد - توضح بجلاء ، وفى هذا المجال أيضاً ، الهوة السحيقة التى تفصل بين الواقع وبين الصورة المثالية التى يرسمها المؤرخون العرب للدولة الإسلامية فى العصور الوسطى من خلال تهويماتهم النظرية .

لا يتحدث علماء التاريخ الأندلسيون فى قوائمهم عن أصحاب المناصب العليا المعينين حديثاً إلا عن شريحة واحدة من موظفى المالية : أمناء الصندوق « خزنة المال » أو « أصحاب المخزون » ^(٤٥) وجميعهم ينتمى إلى الارستقراطية العربية القرطبية ، كان العديدون يشتركون فى المهمة ، ولأن مسئولية تقديم كشف الحساب تقع على عاتقهم فقد كانوا - باستمرار - عرضة لغضب الأمير الذى لم يكن يتوانى فى إقالتهم ، وعلى سبيل المثال ، فقد قام عبد الرحمن الثالث ٣٩٢٨ م (٣١٦ هـ) بتنحية خمسة أمناء للصندوق دفعة واحدة وتعيين أربعة من عائلات قرطبية معروفة بدلاً منهم ^(٤٦) .

أما « كاتب الذمم » ، فإن إشارة ابن سعيد إليه أثناء حديثه عن نظام الأمانة العامة للدولة لا تشفى الغليل وأغلب الظن أن هذا اللقب دخل إسبانيا فى عهد الموحدين ، أى بعد فترة من سقوط الدولة الأموية .

ومن جهة أخرى ، فلازلنا نفتقر إلى القرائن التى تسمح لنا بتحديد ماهية عمل « خزنة المال » أو صلاحياتهم ، ومع هذا ، يمكننا التكهّن بوجود نظام متكامل للإدارة المالية - تحت قيادة هؤلاء وفى قصر الخليفة ذاته - يضطلع بمهام الموازنة العامة للدولة التى كانت فى زيادة مستمرة ، ومما لا شك فيه أن سر تفادى محلى السلالة

الأموية التعرض لهذا النظام المالى يكمن فى شغل غير المسلمين (من مستعربين ويهود) لوظائفه الرئيسية ؛ وقد برهن ابن سعيد بطريقته على هذا فى الفقرة المشار إليها آنفاً عند قيامه بالثناء على سادة الأندلس فى عصره (ونعنى بهم الموحدين) لعدم استعانتهم بالذميين فى تصريف الشؤون المالية للدولة ، وفى هذه المناسبة ، نذكر أن الطبيب اليهودى « حسداى بن شبروت » كان يكلف فى عهد عبد الرحمن الثالث بالمهام الدبلوماسية ، علاوة على رئاسته لأحد مكاتب المال ، ويبدو أنه كان مكتباً خاصاً بالجمارك ^(٤٧) ؛ وأن الحكم الأول قد عهد قبل ذلك بتحصيل الجزية فى مملكته للقومس المستعرب « ربيع » ، ابن « تيودولفو » ^(٤٨) ؛ وأن حفيده الأمير محمد الأول ، قد أثار غضب الأوساط الدينية فى بلاطه بسبب زيادة أعداد الذميين فى المكاتب الحكومية ^(٤٩) .

وطبقاً للنصوص المعاصرة ، فإن الخزانة العامة فى إسبانيا الأموية لم تكن تسمى - كما فى بقية الأصقاع الأخرى فى العالم الإسلامى - « بيت المال » ، بل « خزانة المال » ، وفى قرطبة كان المصطلح الأول (بيت المال) يطلق على خزانة مؤسسات البر والتقوى ، التى يديرها الفقهاء ، وتتكفل - معنوياً - جماعة المسلمين بحراستها ، ومقرها أحد المباني الملحقة بالمسجد الجامع (ولنا عودة للحديث عن ملحقات هذا المسجد) ، أما « خزانة المال » فقد كانت تقع داخل حرم القصر حيث خصصت لها الخزانات الحصينة المغلقة بالأقفال المنيعه ، علينا ألا نخلط بينها وبين الخزانة الخاصة بالعاهل (خاصة بيت المال) التى تتلقى إيراداته الشخصية والإيرادات العامة الموجهة - قانوناً - إلى القائمة المدنية للخلافة .

أما بالنسبة لمصادر موارد الخزانة العامة للدولة الأموية ، فيمكن القول بأن معظمها كان يأتى عن طريق الجزية والزكاة والضرائب المباشرة وغير المباشرة (أو بمعنى أصح : الشرعية وغير الشرعية) ، ودراسة هذا النظام المالى غاية فى الصعوبة للاصطدام شبه المستمر بالعقبات الكنود المتمثلة فى شحة المصادر التاريخية وعدم دقة المصطلحات المستخدمة ، وقبل الحديث عن هذا النظام نرى من المناسب ذكر بعض الكلمات عن الزيادة المطردة فى الإيرادات العامة للدولة خلال القرنين : التاسع والعاشر .

لدينا لدراسة هذه الزيادة - سواء في فترة الإمارة، أو الخلافة - بعض الأرقام المعبرة ، وكان من الممكن أن تصبح أشد تعبيراً - بلا شك - لو قدر لنا معرفة القيمة النسبية للدينار (الوحدة النقدية المذكورة بتلك الأرقام) وكسوره المتمثلة في الدراهم ، وطبقاً للجغرافى « البكرى » ، فإن الأندلس الوسطى والغربية والجنوبية كانت تضخ في الخزانة العامة أيام الحكم الأول - دون حساب الإيرادات العينية - ما يزيد عن ربع مليون دينار سنوياً، أما إيرادات جميع أقاليم المملكة فقد وصلت إلى ٦٠٠ ألف دينار ، وفى عهد عبد الرحمن الثانى وصلت إلى مليون دينار ، وفى عهود الأمراء الثلاثة التالين انخفضت تلك الإيرادات تدريجياً تبعاً لمساحة الأراضى التى اقتطعها المتمردون من جسد الدولة ؛ لكنها سرعان ما عادت إلى الصعود وبدرجة كبيرة فى عهد عبدالرحمن الثالث حيث وصلت إلى ٥٤٨.٠٠٠ دينار ، منها ٧٦٥.٠٠٠ دينار تتجه مباشرة إلى الخزانة الخاصة بالخليفة (٥٠) ، ولقد ظل الرقم الأخير على ما هو عليه تقريباً فى عهد الحكم الثانى وأثناء ديكتاتورية المنصور بن أبى عامر .

يوجد المزيد من التفاصيل التى زودنا بها الجغرافى المشرقى ابن حوقل الذى لم يزر إسبانيا إلا عام ٩٤٨ م (٣٣٧ هـ) ، لكنه تابع باهتمام وضعها المالى خلال العشرين سنة التالية ، وبالرغم من انتفاء شبهة انحيازه للأمويين - نظراً لعمالاته السرية المؤكدة للخليفة الفاطمى - إلا أنه استخف طرئاً أمام ثراء الخزانة القرطبية التى لم يكن لها منافس فى كافة أرجاء العالم الإسلامى وقتها سوى خزانة الحمدانى « أبو تغلب فضل الله » ، أمير الموصل (٥١) . فى عام ٩٥١ م (٣٤٠ هـ) (أى فى منتصف عهد الناصر ، تقريباً) تنهى إلى علم ابن حوقل - عن طريق أندلسيين على بينة بدقائق الأمور - أن الاحتياطى النقدى فى خزائن العاهل الأموى يصل إلى عشرين مليون دينار ، وأثناء تدوينه لمؤلفه (أى عام ٩٧٧ م - ٣٦٧ هـ) - وهو العام الذى مات فيه الحكم الثانى - وصل المخزون الاحتياطى إلى الضعف (٥٢) ، وقد أشار المؤلف نفسه إلى مصادر تلك الموارد (التى كانت تغطى النفقات العادية والاستثنائية للدولة وتسمح فى ذات الوقت بتجميع هذا الاحتياطى الضخم) وحددها بما يلى : حقوق سك العملة ، الزكاة (الضريبة الشرعية) ، الجزية ، والمكوس ، والجمارك التى تحصل فى الموانئ على البضائع المصدرة والمستوردة ، وأخيراً ، الرسوم المفروضة على الصفقات المتعاقدة عليها فى الأسواق .

لاشك أن معلومات ابن حوقل تحتوى على قدر كبير من المصادقية لكنها ليست كاملة ؛ ذلك لأن موارد الدولة - التى يطلق عليها فى إسبانيا المسمى الشائع : «جباية» (٥٣) - لا تقتصر على ناتج الضرائب والرسوم على الصفقات ، بل تضم أيضاً سلسلة طويلة من الموارد الاستثنائية التى تتغير حصيلتها تغيراً ملموساً من عام لآخر ، وفى ميزانية المنصور - طبقاً للمعلومة التى استقاها المؤرخ ابن حيان من أحد العارفين بدقائق الأمور (٥٤) - تظهر « الجباية » فى خانة الجانب الدائن من الحساب بما قيمته ٤ مليون دينار ؛ لكن علينا إضافة ما يلى إلى هذا الرقم : ناتج التركات التى ليس لها وريث شرعى ، وحصة الدولة فى الأسرى وغنائم الصوائف (الخمس) ، والمبالغ المحولة إلى الخزانة نتيجة مصادرة الثروات غير المشروعة ، والأموال المرتجعة من الموظفين المدانين باختلاس المغارم المفروضة على الناس .

الضرائب بأنواعها المختلفة : -

علينا أن ندرك فى هذا المقام - وإسبانيا لا تختلف فى هذا عن بقية العالم الإسلامى - الفرق بين الضرائب الشرعية الواجبة على المسلمين وبين المفروضة على الذميين ؛ كما ينبغى التمييز بين الضرائب على المنقولات - التى تسدد نقداً أو عيناً (من جنس المنقول) - وبين الضرائب على العقارات والأراضى .

تلزم الشريعة الإسلامية كل مسلم قادر بسداد نوع من الضريبة لمجتمعه تعادل عشر ما يملك من قطعان أو محاصيل أو بضائع ، وهذا العشر (الزكاة) يعتبر (نظرياً) - طبقاً للشريعة الإسلامية - المورد الوحيد لميزانية الدولة . فى البداية ، كان هذا العشر (الزكاة) يسدد عيناً (من جنس الشيء المملوك) ويطبق على المنقولات فقط . أما غير المسلمين - من أهل الكتاب - فالبالغ الذكر منهم ملزم فى المقابل بسداد رسم « جزية » يتم تحديده طبقاً للحالة المادية التى عليها المساهم ، وهى مقسمة إلى ثلاث فئات : الأغنياء ، ومتوسطى الحال ، والفقراء . ومن جهة أخرى ، فإن الذميين الذين يعيشون فى أقاليم استولى عليها المسلمون صلحاً دون قتال ، يحق لهم الاحتفاظ بملكية أراضيهم والانتفاع بها مقابل سداد ضريبة تحدد قيمتها سنوياً ، ويطلق عليها « خراج » ، ومع هذا ، فسرعان ما تحول تحصيل « الخراج » إلى قاعدة عامة تطبق حتى على الذين تركوا دينهم الأصلي ودخلوا طواعية الإسلام ، أما بالنسبة للأراضى التى يستولى عليها المسلمون بقوة السلاح فتتزع

ملكيتها وتصبح فى جميع الأحوال غنيمة حرب « فىء » لله ، ويعتبر شاغلها مؤقتين - أى يمكن منحيتهم والإتيان بغيرهم - وملزمين بدفع إيجار يتولى العامل تقديره .

لسنا بحاجة إلى القول بأن البيانات التى عرضناها آنفاً بشكل موجز لا قيمة لها إلا على المستوى النظرى فحسب ، وأننا لم نقصد بها دراسة تطور مفهوم مصادر تمويل خزانة الدولة فى القرون الأولى من التاريخ الإسلامى ، ولا حتى مجرد الإشارة إلى أن الأمويين فى الشرق ومن بعدهم العباسيين قد تملصوا شيئاً فشيئاً من الضوابط الشرعية الصارمة الخاصة بتحصيل « الزكاة » أو « الخراج » حتى يتسنى لهم توسيع قاعدة التمويل لضمان حسن سير خزائنتهم ، هذا بالإضافة إلى أن المسائل السابقة يكتنفها كثير من الغموض لأن الدراسات القليلة الموثوق بها لم تهتم كما ينبغى بإلقاء الضوء عليها ^(٥٥) ، وبالطبع فإن هذا الضوء لن يكون مصدره الوثائق العربية .

سنرى فيما بعد - عند محاولتنا تحديد طبيعة نظام ملكية الأراضى فى الأندلس - كيف سنضطر إلى الاعتماد على بيانات شحيحة للتمكن ببعض الافتراضات الخجولة حول هذه القضية الاجتماعية ذات الأهمية القصوى ، ما نستطيع قوله الآن بالنسبة لمسألة تحصيل الضرائب الشرعية هو إن إسبانيا الإسلامية قد حذت حذو الشرق الإسلامى ، وإنها أيضاً أدخلت - مثله - عند التطبيق العملى للقواعد الشرعية العديد من التعديلات التى أوجت بها الحاجات الملحة للميزانية والظروف الخاصة بجموع الممولين .

وخلال فترة طويلة ظلت الضرائب (الزكاة) على المنقولات تسدد فى شبه جزيرة إيبيريا نقداً أو عينا ، والنوع الأول يطلق عليه « نض » والثانى « وظيفة » .

وطبقاً للبكرى (الجغرافى) ^(٥٦) فإن محافظة قرطبة وحدها كانت تغل من النوع الثانى (وظيفة) فى عهد الحكم الأول ٥٢٠٠٠ قدح من القمح ، ٧٣٠٠٠ من الشعير ، كانت الحبوب تدخل صوامع الدولة ثم يطرح جزء منها للبيع فى الأسواق بالأسعار الرسمية ، ويدخر الباقى كاحتياطى تحسباً لسنوات الجفاف التى كانت - طبقاً للمؤرخين - معهودة وشائعة فى ذلك الزمان ، ومن جهة أخرى ، فقد كانت الضريبة العينية على القطعان وحيوانات الجر تتطلب توفير الحظائر المناسبة والمراعى

الشاسعة ، وربما كان هذا هو السبب الرئيسى فى التعجيل بإلغائها ؛ لكن الزكاة العينية على الغلال استمرت حتى بداية القرن الحادى عشر ، كما يشهد بذلك كتاب دورى صادر عن « على بن حمود » ، قام « أحمد بن برد » بتحريره ووصل إلينا نصه ^(٥٧) ، يتوجّه الكتاب إلى الممولين فى محافظة « جيان » قائلاً : إنه من الآن فصاعداً ، وتقديماً لمشقة حمل الحبوب إلى صوامع الدولة ، لن يتم تسديد العشر عينا بل نقداً (نض) بما قيمته ست دينارات لقدح القمح وثلاثة لقدح الشعير ، أما « الخراج » على الأراضى فيبدو أنه يعتبر فى إسبانيا ، ومنذ القرن التاسع ^(٥٨) ، بمثابة المساهمة السنوية الرئيسية ، وإن كان هذا لا ينفى احتمال إلغائه فى بعض الأوقات ثم العودة إلى فرضه من جديد .

وعلاوة على الضريبة الشرعية (الزكاة) كانت توجد المساهمات الاستثنائية (المغارم) ^(٥٩) التى كانت دائماً محل سخط الناس سواء فى إسبانيا أو فى غيرها من بلدان العالم الإسلامى ، ولذلك فإن العاهل الذى يهتم بشعبيته كان يعجل بإلغائها بالكامل ، أو إلغاء جزء منها ، أو بتخفيضها بنسبة كبيرة ، وهذا ما فعله الحكم الثانى عام ٩٧٥ م (٣٦٤ هـ) ، وبعده بخمس وعشرين سنة قام العامرى « عبد الملك » بتخفيض المغارم والجباية إلى السدس ، وفى فترة تداعى أركان الخلافة القرطبية تحمل الأندلسيون عبء الزيادة الكبيرة فى هذا النوع من المساهمات الضريبية ^(٦٠) ، وابن حزم يبيّن مر شكواه من هذا الأمر قائلاً : بينما كانت هذه المغارم تفرض من قبل على العقارات فقط ^(٦١) فإنها قد تضاعفت فى عصره ولحقت أشياء كثيرة ، مثل : الضريبة على الرؤوس (وهى تحصل شهرياً من كل مسلم) ؛ الضريبة على حيوانات الجر والقطعان والمناحل ؛ وضريبة المبيعات المفروضة على التعامل فى الأسواق ؛ وأخيراً ، الضريبة على تجارة النبيذ ^(٦٢) الرائجة فى ذلك الزمان والتى كان يعمل فيها المسلمون (لتراجع تمسكهم بتعاليم دينهم) وأهل الذمة سواء بسواء .

كان يتكفل عادة بسداد جانب من هذه الضرائب - وخاصة النوعين الأخيرين - عدد من المحصلين (مُتَقَبِّل) ^(٦٣) الذين لم يكونوا يكتفون بجمع ما قدموه ، بل يضيفون إليه فوائد باهظة ، وإلى جانب المُحَصِّلِينَ كان يوجد من يقومون بتقدير المحاصيل قبل جمعها (خَارِص) ^(٦٤) ، أما مواعيد التحصيل فكانت مرتبطة بتواريخ ثابتة فى التقويم الهجرى (نجم) ، وهو يماثل التقويم الشمسى ^(٦٥) . وفى بعض

الأحيان كان العاهل يقوم - رحمة بمواطنيه أو حفاظاً على شعبيته - بإعفاء الممولين من المتأخرات الضريبية (بقية) التى لم تسدد بعد (٦٦) ، كما كان يؤخذ فى الحساب عند التحصيل نقص المحاصيل التى تغلها الأراضى بسبب العديد من المشاكل الزراعية مثل تساقط الجليد أو غزارة الأمطار أو الجفاف أو التعرض للآفات والجراد ... إلخ ، ولم يكن هذا النظام من ابتداء الأندلس بل كان معروفاً فى الشرق الإسلامى كذلك .

وعلاوة على هذه الضرائب الدورية المتعددة ذات المواعيد الثابتة توجد مساهمات أخرى ذات طابع عرضى يقررها العاهل نتيجة لعقوبة ما ، أو لتخفيف أعباء نفقات القوات فى الحملات الحربية ، ومن بينها نذكر : « النزيلة » أو « الإنزال » وهى ضريبة تسدد نقداً ويوجه عائدها للصرف على إقامة الجند ؛ و « التقوية » التى فرضت - على ما يبدو - فى نهاية القرن العاشر وبداية الحادى عشر وبموجبها يتكفل كل مواطن وليرة واحدة بدفع ما يكفى لتسليح وإعاشة جندي .

وبالرغم من تمركز الإدارة العامة للضرائب فى قرطبة إلا أن عاصمة كل إقليم (كورة) كانت تضم مجموعة من الموظفين يعملون تحت إمرة مفتشين (مشرفين وأمناء) ، وكان يطلق عليهم جميعاً لفظ « عمال » (ومفردها : عامل) (٦٧) .

أما بالنسبة لأوجه صرف إيرادات هذه الضرائب فالمعلومات التى لدينا لا تتسم بالدقة الكاملة ، ومع هذا يمكن القول أن ناتج « الخراج » كان يقسم فى ظل الإمارة القرطبية إلى ثلاثة أجزاء متساوية : جزء يخصص للإنفاق على الجيش ، والثانى للنفقات الطارئة فى الأوقات الحرجة ، والجزء الثالث يبقى احتياطياً (٦٨) .

وقد قسم الناصر « الجباية » بنفس الطريقة ، لكنه خصص جزءاً من الثلاثة للإنفاق على البناء والمعمار (٦٩) ويروى أحد مؤرخى المنصور (٧٠) أن ناتج إيرادات الضرائب كان يُحفظ أيام الديكتاتور العامرى فى أربع خزائن حصينة ، يستخرج منها كل شهر للإنفاق العام (النفقات السلطانية) ما بين ١٥٠ و ٢٠٠ ألف دينار ، ومن بداية شهر يونيو - عند تجهيز الصوائف - كانت النفقات تصل إلى نصف مليون دينار ، وفى نهاية كل « سنة مالية » - إن حق لنا استخدام هذا المصطلح الحديث - يتم تحويل « الرصيد الفائض » لتدعيم احتياطى « الخزنة العامة » .

احتكار سك العملة :

فى الفقرة المذكورة أنفأ لابن حوقل ، يورد الجغرافى المشرقى المبالغ المحصلة من حق سك العملة كأحد الروافد الأساسية للخرانة القرطبية ، لقد كان سك العملة حكراً بالفعل على الدولة ؛ لكن الخواص كان لهم مطلق الحرية فى حمل ما لديهم من ذهب أو فضة إلى « دار السك » لتحويلهما إلى نقود حقيقية مقابل سداد رسوم (حق) ، وكان هذا « الحق » عالياً نسبياً : نعرف أنه كان يصل فى فاس خلال القرن الرابع عشر إلى ١,٧٥ ٪ بالنسبة للذهب وإلى أقل قليلاً من ٢/٣ ٪ بالنسب للفضة ^(٧١) ؛ ولابد أن تكون هذه التعريفات هى نفسها المتبعة فى إسبانيا خلال ذلك الوقت المتقدم من العصر الوسيط ، وعلى هذا فلنا أن نتخيل كم القطع الذهبية والفضية المحولة سنوياً فى دار السك التابعة للخلافة الأموية ، وإذا كان ابن حوقل قد أوضح أن حقوق سك العملة كانت تدر للدولة سنوياً أيام الناصر مائتى ألف دينار ، وكل دينار يساوى - تبعاً لتقديره - ١٧ درهماً ، يمكننا القول - من خلال عملية حسابية بسيطة - إن الدولة كانت تسك سنوياً حوالى ٨ مليون دينار ؛ وبما أن كمية المسكوكات الفضية كانت ثلاثة أضعاف المسكوكات الذهبية فإن متوسط حق السك يوازى ٢,٥ ٪ .

يؤكد معظم المؤرخين المسلمين أن الأمير عبد الرحمن الثانى هو أول من نظم السك الرسمى للعملة ؛ وقد وصل الأمر بأحدهم إلى القول بأن سكان الأندلس لم يكن لديهم - منذ الفتح وحتى نهاية عهد الحكم - عملة قومية حقيقة ، وأنهم كانوا يتعاملون إما بقطع قوطية أو بعملات ذهبية وفضية مجلوبة - بكميات ضئيلة - بواسطة التجار والمسافرين القادمين من إفريقيا أو الشرق الإسلامى ، وقد ترتب على هذا ندرة دوران النقد داخل البلد وإلى عقد الصفقات عن طريق المقايضة ، ولكى يعالج عبد الرحمن الثانى هذه الظاهرة فقد قرر - بإيعاز من رجل يدعى « الحارث بن أبى شبل » - القيام بسك العملة فى قرطبة ذاتها، ومع هذا ظل النقد الأجنبى يشكل جزءاً كبيراً من العملات المتداولة حتى نهاية عهده ^(٧٢) ذلك لأن الكميات الصادرة عن دار سكته كانت تخرج على فترات متباعدة .

وبالطبع فإن هذه المعلومات لا تتسم جميعها بالدقة وذلك للعثور على مجموعات من العملات الذهبية والفضية التى يعود تاريخ سكها لعصر حكام إسبانيا الأول ^(٧٣) ، ولوجود نماذج من الدراهم المسكوكة فى الأندلس ترجع تواريخها الهجرية إلى عهود

الأمراء الأمويين المتقدمين على عبد الرحمن الثانى ، هذا بالإضافة إلى كسور الدراهم المصنوعة من البرونز^(٧٤) ، فعلى أى أساس إذن يمكن أن ننسب لهذا الأمير (عبد الرحمن الثانى) مبادرة تأسيس أول دار رسمية لسك العملة فى قرطبة ، والتي كانت تقع - طبقاً للجغرافى المشرقى « ابن الفقيه »^(٧٥) - بالقرب من المسجد الجامع ، ناحية « باب العطارين » ؟^(٧٦) ، ومن جهة أخرى ، فإن « دار الضرب » هذه (أو « دار السكة ») لم تكن تضرب سوى العملات الفضية ، وكان عليها الانتظار حتى يتخذ عبد الرحمن الثالث لقب خليفة لى يأمر بضرب العملات الذهبية الأولى للأمويين ، ويقوم بتجديد « دار السكة » القديمة عام ٩٢٨ م (٣١٦ هـ) ، ويوجه تعليماته بسك الدراهم والدنانير فى آن واحد من الذهب والفضة الخالصين .

أما إدارة السك فكان يعهد بها إلى موظف رفيع المستوى يطلق عليه « صاحب السكة » وكان مخولاً بنقش اسمه على النقود تحت اسم الأمير الحاكم^(٧٧) ، وفى عام ٩٤٧ م (٣٣٦ هـ) انتقلت « دار السكة » من قرطبة إلى مدينة الزهراء^(٧٨) .

الموارد أو المخصصات الملكية : -

لا يجب الخلط بأى حال بين « خاصة بيت المال » (أى الخزانة الخاصة بخليفة قرطبة) وبين خزانة الدولة ، أو بينهما وبين « بيت مال المسلمين » (خزانة مؤسسات البر) ، فائدات المخصصات الملكية كان يوجهها العاهل بنفسه لتغطية نفقاته الباهظة التى تشمل الإنفاق على بيته وصرف أجور العاملين لديه - وربما رواتب حرسه الخاص - وبناء المؤسسات ذات النفع العام وتمويل أنشطتها ، واستمالة الكثيرين من أعضاء العائلة المروانية المقيمين بالعاصمة أو الأقاليم ، وأخيراً المكافآت التى تصرف لمادحيه ولرجال العلم والأدب والفن الدائرين فى فلكه ، لقد كان الخليفة يجرى الذهب أنهاراً فى مناسبات عديدة من السنة ، خاصة فى عيدى الفطر والأضحى ، فى صورة إنعامات نقدية (صلة أو معروف) تذهب إلى وجهاء البلاط نظير تفانيهم فى خدمة الأسرة الأموية ، كما كانت توزع عليهم ملابس الجهاز الحاكم (خلافة) التى تقوم المصانع الملكية بنسجها وتفصيلها .

وللوفاء بهذا الكرم الحاتمى - الذى لا ينقطع - فإن خزانة العاهل لابد وأن تكون مترعة دائماً ، لا بناتج عائداته الشخصية فحسب ، بل أيضاً ببعض موارد الدولة التى تحفظ خصيصاً له ؛ ومن بينها التعاقدات التجارية التى نجهل النسبة المفروضة فيها ، ويشير إليها المؤرخون بمصطلح « زكاة السوق » ، وكما رأينا فإن « زكاة السوق »

هذه كانت حصيلتها السنوية تبلغ أيام عبد الرحمن الثالث ٧٦٥ ألف دينار ، دون حساب ما يدره « المستخلص » . والمصطلح الأخير كان يراد به فى العصر الوسيط الممتلكات الخاصة بالعاهل ، ومن معناه يبدو أن غالبية تلك الممتلكات كانت تأتى عن طريق مصادرة الأراضى لأى سبب من الأسباب ^(٧٩) ، كانت مزارع العاهل الخاصة (الضياع) منتشرة بجميع كُور إسبانيا المسلمة - حتى فى الثغور - ، وكان يفلحها مزارعون نظير الاحتفاظ بجزء من محصولها وفقاً لإجراءات وشروط ستحدث عنها فيما بعد ، ومراجعة حسابات هذه الضياع الريفية والإشراف عليها يعنى وجود جيش عرمرم من الإداريين والمحاسبين على رأسهم رجل يتمتع بثقة الخليفة يطلق عليه « صاحب الضياع » ^(٨٠) وطبقاً لأحد المؤرخين ، فإن الناصر عند موته خلف وراءه عدداً كبيراً من الضياع لدرجة أن ابنه الحكم الثانى قرر - فى لمحة كرم منه - تخصيص ربع عائداتها للأعمال الخيرية التى تخدم فقراء عاصمته ^(٨١) .

لاتوجد أية إشارة صريحة تسمح لنا بالتاكيد على أن خليفة قرطبة كان يتمتع - علاوة على الموارد المذكورة آنفاً - بحصة من الأرصدة المدنية فى الخزانة العامة ، وبالرغم من هذا ، فهذا أمر وارد إذا أخذنا فى الاعتبار تلاشى الفواصل فى ذلك العصر بين ميزانية الدولة وميزانية العاهل ، الشئ المؤكد هو أن العاهل كان يتصرف على هواه فى موارد الدولة كلما دعاه داع من حاجة أو طمع ، وبالإضافة إلى ذلك لدينا مؤشرات عديدة تفيد بأن العاهل لم يكن يأنف أو يتورع عن التعدى - لأتفه الأسباب - على من يملكون ثروات تبدو له متضخمة ، ومن المحتمل أيضاً أنه يُنعم فى بعض الحالات بالمناصب التشريعية أو التى يرجى منها النفع نظير إيداع المرشحين لها لأكوام من الذهب فى خزانته الخاصة ، ولأن الرشوة من أجل الحصول على المناصب كانت إحدى مثالب الدول الإسلامية فى الشرق والغرب فليس من المستبعد لجوء الخلفاء الأمويين إليها وممارستها باعتياد فى نظامهم للحكم .

٤ - التنظيم الإقليمي

الكُور أو الدوائر الإقليمية : -

عندما هيمن السلام الداخلى - فى أواسط القرن العاشر - وتلاشت مشاكل العاهل الحاكم فى قرطبة واستسلمت « ببشتر » (Bobastro) والمناطق الجبلية فى جنوب شبه الجزيرة ومعهما انتهت آمال الزعماء المحليين (من العرب والبربر و المولدين) فى التمرد والعصيان بعد أن أرقوا لفترة طويلة مضاجع أمراء بنى أمية ، استردت مملكة الأندلس استقرارها السياسى الذى سمح لها بإعادة النظام الإقليمى إلى الوضع الطبيعى الذى كان عليه فى بداية عهدها ، لكى يضطلع من جديد بدوره داخل الميكانيزم المعقد للدولة ، فى تلك الآونة كان الجانب الأعظم من أراضى إسبانيا خاضعاً لنظام الإدارة المدنية ، أما منطقة الحدود العريضة للغور فكانت عبارة عن مجموعة من الدوائر الخاضعة للقيادة العسكرية أو (خاصة فى حوض « إبرة ») سلسلة من الإقطاعيات المتوارثة التى رسخت واشتد ساعدها ولم تعد لقرطبة هيمنة حقيقية عليها .

والمصطلحان الشائعان لدى المؤلفين الأندلسيين لتعيين « الإقليم » هما : « ناحية » ، « كورة » .، ويبدو أن المصطلح الأول لم يكتسب قيمة رسمية على الإطلاق (٨٢) ؛ أما الثانى فكان الوحيد المستخدم للإشارة إلى « التقسيم المساحى » . كما يوجد مصطلح ثالث اكتسب فى إسبانيا مدلولاً خاصاً ، ونعنى به « إقليم » (٨٣) الذى يقصد به فى المصطلحات الإدارية « القسم » أو « المنطقة » ومساحته أقل من « الكورة » . وعلى هذا الأساس فقد كانت « الكورة » الواحدة تضم عدداً يقل أو يكثر من « الأقاليم » ، ومجموعها كان يطلق عليه أيضاً - وفى بعض الأحيان - « عَمَل » ، « حوز » أو « نظر » (٨٤) .

عرفت شبه الجزيرة لفظ « كورة » (وجمعها : كُور) (٨٥) فى القرن الثامن الميلادى ، وكان يطلق فيها - منذ عصر الحكام - على « الدائرة الإقليمية » ، وكلمة « كورة » ، التى أخذها عرب إسبانيا من الشرق ، أصلها إغريقى وكانت تستخدم فى مصر للإشارة إلى « القسم » الذى يماثل « باجاركية » Pagarquia فى النظام

البيزنطى ، لكن « الكورة » الأندلسية - كما أشار إلى ذلك صراحة « المقدسى »^(٨٦) - كانت عبارة عن تقسيم إدارى أكثر اتساعاً من كُور الشرق التى تقترب مساحتها من « الأقاليم » الأندلسية ، وسبب هذا الخلاف فى مساحة الكورة الأندلسية عن نظيرتها المشرقية يكمن - على الأرجح - فى أن العرب عندما فتحوا إسبانيا أثروا الإبقاء على الهيكل الإدارى للبلد دون مساس ، واكتفوا بتحويل « دوقيات » (Ducados) و « كونتات » (Condados) النظام القوطى إلى « كُور » ، نعتقد أن هذا ما حدث بالفعل ، لكن علينا ألا نغفل - أيضاً - إمكانية التأثير فى تحديد الكور وعواصمها « بتقسيم قسطنطين » الذى امتدت شهرته حتى القرن الحادى عشر كما يتضح من الدراسة المفصلة التى أعدها الجغرافى الأندلسى « أبو عبيد البكرى »^(٨٧) .

لن نفاجأ - لا عتيادنا على أوجه قصور مماثلة - لو عرفنا أنه لا يوجد مؤلف أندلسى واحد كلف نفسه عناء إعداد قائمة كاملة^(٨٨) بكُور المملكة الأموية فى عصر الخلافة ، أما القائمة التى تركها لنا الرحالة المشرقى « المقدسى » وتحتوى على ثمانية عشر اسماً فقط^(٨٩) فصاحبها نفسه يعترف بعدم تمامها أو وفائها ، وبالنسبة لقائمة الحموى الجغرافية^(٩٠) - التى اعتمد صاحبها على وصف إسبانيا لأحمد الرازى - فإنها تضم ٤١ اسماً ، لكنها - علاوة على اشتغالها على عدد من مدن الثغور العليا والوسطى التى لا ينبغى إدراجها - تحتوى على أسماء مغايرة لعواصمها الإقليمية ، والإدريسى ، من جهته^(٩١) ، يقسم شبه جريزة إيبيريا إلى كُور ، لكن وفقاً للمدلول الجغرافى القديم للمصطلح ، ومن ثم فإن عمله يخلو من أية قيمة إدارية .

لا يوجد ، بالتالى ، منهاج آمن للتعرف على الدوائر الإقليمية فى إسبانيا خلال عصر الخلافة سوى الغوص فى تلافيف المدونات التاريخية وقوائم التراجم الأكثر قدماً - قوائم ابن الفرضى ، وابن بشكوال ، على سبيل المثال - لالتقاط الأعلام الجغرافية التى ذكرت فيها صراحة كمسميات للكُور .

من الطواف بالمصادر المذكورة أنفاً - علاوة على البيانات المستقاة من « البكرى » (الجغرافى الإشبانى) - يتضح أن أرض الأندلس (دون حساب مناطق الحدود) كانت مقسمة إلى ٢١ كورة ، سبع منهن يحملن مسميات مغايرة لمسميات عواصمهن والباقيات يُعرفن بأسماء عواصمهن ! لدينا ، فى المقام الأول ، كورة « قرطبة » التى

تحدها من الشمال كورة « فحص البلوط » وعاصمتها « غافق » (٩٢) ، وعلى الجانب الآخر من كورة قرطبة المترامية الأطراف تقع جنوب الوادى الكبير كورتا « قُبْرَة » و « إِسْتَجَّة » (ÉCIZA) الأقل اتساعاً ، أما « إشبيلية » و « قرمونة » فكانتا عاصمتى الإقليمين اللذين يحملان اسميهما ، كذلك « أبلَة » (Niebla) ، وفى الغرب (Algarve) - أى على الساحل الجنوبى للبرتغال حالياً - توجد كورة « أكشونبة » (عاصمتها : « شلت » Silves) ، وإلى شمالها تقع كورة « باجة » (BEJA) ، وفى أقصى جنوب الأندلسى توجد أربع كُور : « مَورُور » ، « شذونة » (وعاصمتها « كلسينا » CALSENA) ، « الجزيرة الخضراء » و « تاكرونا » (عاصمتها « رُندَة ») (٩٣) .

وفى أقصى الشرق من الكورة السابقة تقع « مالقة » - المسماة أيضاً « رِيَّة » (٩٤) (REYYO) - تليها « إلبيرة » ، ثم « جِيَّان » ، ثم « بَجَانَة » (PECHINA) التى انتقلت عاصمتها إلى « أَلْمَرِيَّة » فى النصف الثانى من القرن العاشر .

أما الساحل الشرقى للبحر المتوسط فيضم من الشمال إلى الجنوب ثلاثة أقاليم : كورة « تُدْمِير » الشاسعة (التى كانت تابعة قديماً للقوطى « تيودمير » ، وظلت محتفظة باسمها بالرغم من نقل عاصمتها إلى مدينة « مرسية ») ؛ كورة « شاطبة » ثم « بلنسية » التى تصل حدودها إلى مشارف مصب نهر « إِبْرُهُ » ، وإلى جوار إقليم « طليطلة » من جهة الشرق تقع كورة « شنت بَرِيَّة » (SANTAVÉR) وعاصمتها « أُقْلِيش » (UCLÉS) ، أما جزر « البليار » فأغلب الظن أنها كانت تعتبر فى القرن العاشر إقليمًا إداريًا مستقلاً شأنها فى ذلك شأن أقاليم الغرب المستأنسة حديثاً ، وهى « ماردة » ، « بَطْلَيَّوس » ، « شنترين » (SANTAREN) ، « لشبونة » وربما « قَلْمَرِيَّة » (COIMBRA) .

تسعة من هذه الأقاليم كانت تتمتع - حتى عصر الخلافة - بقانون ولوائح خاصة منذ قيام الحاكم « أبو الخطار الكلبى » عام ٧٤٢ م (١٢٥ هـ) بمنح أراضيها كإقطاعيات للجند السوريين الذين كانوا تحت قيادة « بلج القشبرى » .

ونذكر ، فى هذا المقام ، أن جند دمشق كانوا قد استوطنوا « إلبيرة » ، وأقام جند الأردن فى « رِيَّة » ، وجند فلسطين فى « شذونة » ، وجند حمص فى « أبلَة » وإشبيلية - ولهذا السبب كان الأدباء والشعراء يطلقون على الأخيرة ، أحياناً ، « حمص » (٩٥) - ، ونزل جند قنسرين فى « جِيَّان » ، بينما استوطن جند مصر « باجة »

و « أكشونية » و « تدمير » (مرسية) ، وهكذا ستظل هذه الكور تتحلى - حتى انهيار الخلافة القرطبية - بنعت « مُجَنَّدَة » : أى « متمتعة بالقانون الخاص بالجند » (٩٦) .

الإدارات الإقليمية : -

فى عاصمة كل كورة كان يقيم الحاكم (الوالى) المعين بمرسوم من الخليفة ، وهو بمثابة الممثل الشخصى للخليفة وخاصة فيما يتعلق بصلاة الجمعة والمناسبات الدينية الأخرى ، كان الوالى يقطن - عادة - « قصبة » العاصمة التى تضم أيضاً المكاتب المختلفة للإدارة الإقليمية ، وأمانة التخاطب الرسمى مع « باب السدة » فى قرطبة ، وخدمات تحديد الضرائب والإشراف عليها ، وأخيراً ، الخزنة التى تحفظ فيها إيرادات الأقاليم . إنها - باختصار - صورة مصغرة لمكاتب قصر الخلافة ، وبالطبع فالمهمة الرئيسية لهذا التنظيم الإقليمى تضطلع بها مفوضيات المال التى يديرها - كالحال فى قرطبة - أمناء أو خَزَنَة (٩٧) بمعاونة مُحَصِّلِينَ وَخُرَّاصٍ وَمَمْسَكِي الدفاتر ، أما نفقات إدارة الكورة وماهيات الموظفين ورواتب قوات الحامية والقلع الاستراتيجية فكانت تستقطع من الموارد المتاحة بينما يرسل الباقي (الفائض) - كما ذكرنا من قبل - فى حراسة مشددة إلى خزائن قرطبة .

وبوجه عام ، لم تكن الحكومة المركزية تترك الوالى فى منصبه مدة طويلة ، وإذا شاعت حالات التغيير والعزل ، كانت مجرد شكوى من سوء استخدام السلطة كافية لى يبادر الخليفة - بعد التحقق التام من الواقعة - بعقاب صاحبها ؛ ولم يكن الخليفة يتردد كذلك فى عقاب الولاة الذين تتضخم ثرواتهم بسرعة ، أما حكومات الأقاليم البعيدة عن العاصمة - مثل طليطلة أو بلنسية - فقد كان باستطاعة ولايتها تفادى رقابة المكاتب المركزية ، ولهذا تحولوا بالفعل إلى ملوك غير متوجين (٩٨) ، ومن جهة أخرى ، فإن عواصم الكور الأكثر أهمية - إشبيلية ، غرناطة (التى حلت محل «لبيرة» فى بداية القرن العاشر (٩٩)) ، مالقة ، ومرسية ، وألمرية ، وبلنسية ، وطليطلة وسرقسطة المتخمة بالثراء - قد تحولت عند سقوط الخلافة إلى رؤوس ممالك صغيرة ظلت تحتفظ بالنظام الإدارى للخلافة دون مساس إلى أن تبتاه المرابطون بدورهم مع إدخال بعض التعديلات الطفيفة وخاصة فيما يتعلق بمسميات شاغلى الوظائف .

هوامش الفصل الأول

(١) بالإضافة إلى المصادر العربية - سواء التاريخية أو الجغرافية أو التشريعية - التي أوردها ليفي بروفنسال في (Esp. mus. Xo siècle, capítulos II, III, IV) يمكن الرجوع إلى الأجزاء المكتشفة حديثاً من « المقتبس » لابن حيان ، والتي تلقى الضوء على عهود كل من الحكم الأول وعبد الرحمن الثاني ، ومحمد الأول ، وعبد الرحمن الناصر .

كما يمكن الرجوع إلى المعلومات الهامة التي ذكرها ابن الخطيب (« أعمال الأعلام ... » ص ١١٤ - ١٢٢) عن المنصور بن أبي عامر ، وإلى المعلومات المبثوثة في ثنايا « الذخيرة » لابن بسام حول الفترة الأخيرة للخلافة القرطبية .

بعض المؤلفات التي ظهرت في إسبانيا خلال السنوات الأخيرة اعتمدت اعتماداً مباشراً في تناولها للموضوع على ليفي بروفنسال (Esp. mus. Xo siècle, capítulos II, III, IV) ؛ والمؤلفات المذكورة هي :

- M. Aguado Bleye : Manual de Historia de España, I, pág. 445 - 450

- L. G. De Valdeavellanos : Historia de España, I, p. 646 - 651 .

ونفس الشيء يمكن قوله بالنسبة لبعض المؤلفات التي ظهرت حديثاً في فرنسا ، وهي :

- G. Marçais, en el t. 111 de la Histoire du Moyen Age de Glotz, p. 369 Y sigs .

- Ch. Verlinden : L' Espagne au Xo siècle. Aux origines d' une civilisation composite, en Revue de cours et conférences, t. XXXVI, paris, 1936 - 1937, pp. 113 - 141, 261 - 278 .

وبالنسبة للتأثيرات الشرقية في أنظمة الدولة الأموية ، انظر :

- Lévi-Provençal : La civilisation arabe en Espagne, cap. II.

- Mez : Die Renaissance des Islâms (trad. Española de S. Vila).

- M. Gaudefroy - Demombynes, t. VII de Histoire du Monde de E. Cavaignac [Gaudefroy - Demombynes et Platonov :

Le monde musulman et byzantin jusqu' aux Croisades. Paris, 1931] .

أما بالنسبة للتأثيرات الأندلسية في إسبانيا المسيحية فلا تزال الدراسات اللتان أعدهما جوناثان بالثيا هما الأكثر وفاء في هذا المجال :

- A. González Palencia *El Islam y Occidente*, Madrid, 1929, (reproducido en *Moros y Cristianas en la España medieval*, Madrid, 1945, pág. 1-59).

- A. González Palencia :Hist. Esp. Mus., 2a ed., pág. 196-199.

(٢) لم تساعدنا المعاجم العربية كثيراً في شرح هذه المصطلحات ، أما «دوزي» فإنه على الرغم من تعرضه لدراسة النظام السياسي لإسبانيا في عصر الخلافة الأموية في تاريخه أو في عمله الآخر (Recherches) إلا أن مُلَمِّقَه الرائع الذي يحمل عنوان *Supplément aux dictionnaires arabes* يجعل منه المستشرق الوحيد الذي له دراية تامة وواضحة بالموضوع خلال القرن التاسع عشر .

ومصدرنا الأساسي في هذا المجال ينحصر في مدونة « عارب بن سعيد » الملحقه بالجزء الثاني من « البيان المغرب » لابن عذارى ، التي تمدنا بكم وأفر من المصطلحات الفنية الإدارية ، ويبدو أن « فاجنان » لم يحسن فهم المصطلحات ولذا جاءت ترجمته لها مليئة بالأخطاء .

(٣) نذكر هنا بصفة « كتاب الأحكام السلطانية » للموردى (المتوفى عام ١٠٥٨ م - ٤٥٠ هـ) ، وقد قام R.Enger بطبع هذا الكتاب في بون عام ١٨٥٢ تحت عنوان : *Constitutiones politicae* ؛ وبعد ذلك ترجم أجزاء منه كل من L. Ostrorog (Paris, 1900-1905) و E. Fagnan (Argel, 1915) .

لأنجد في هذا الكتاب سوى مدائح غير واقعية على غرار ما جاء في « سيرة الملوك » لأبى بكر الطرطوشى (المتوفى بمصر عام ١١٢٦ م - ٥٢٠ هـ) الذي طبع عدة مرات في الشرق وقام M. Alarcón بترجمته إلى الإسبانية تحت عنوان : *Lámpara de príncipes*, Madrid, 1930-1931 .

(٤) انظر المجلد الرابع (الفصل الثانى) .

(٥) انظر الصفحات القيمة للكتاب التالى :

- G. Marçais : *La Berbérie el l' Orient*, p. 57 y sigs.

أما كتاب :

- M. Vanderheyden : *La Berbérie Orientale sous la dynastie des Benoû' l-Arab* (800- 900), paris, 1927.

فيعتبر ناقصاً وغير مناسب ، وخاصة ما جاء بصفحاته (من ١٥٩ إلى ١٨٥) عن النظام الإدارى للأغالبة .

(٦) انظر أعمال A. Christensen وخاصة :

- L' Iran sous les Sassanides, 2^a ed., Copenhagen, 1944 .

والتي ستظل لفترة طويلة تحتل أهمية مطلقة في هذا المجال .

وبالرغم من أن التأثير الإيراني قد اكتمل عنفوانه أثناء حكم العباسيين إلا أن هذا لا يمنع من الظن أن سريانه في أوصال نظم الدولة العربية قد بدأ خلال المرحلة الأخيرة من الخلافة الأموية .

(٧) للتعرف على احتفالات ومواكب الفاطميين منذ استقرارهم في القاهرة ، انظر :

- M. Canrad : Le Cérémonial fatimie et le cérémonial byzantin : essai de comparaison, en Byzantion. XXI, 1951, págs. 355-420.

(٨) لنذكر في هذا المقام أن عبد العزيز بن موسى بن نصير عندما تولى الحكم تبنى - بعد إلحاح من الأميرة القوطية « إيجلونه » أو « أم عاصم » - استخدام التاج (أو الإكليل ، بمعنى أصح) ، وقد أثار تصرفه هذا استهجان العرب الفاتحين وغضبهم منه ، وطبقاً للمؤرخ :

- Ibn Hamado (Histoire de Rois' Obaidides, ed. Y traducción M. Vonderheyden, Argel-paris, 1927, texto p. 45; trad. P. 96).

فإن الخليفة الفاطمي المعز كان أول فاطمي يستخدم التاج .

(٩) أما « المظلة » التي كان يستخدمها العباسيون والفاطميون كشارة للعاهل فأغلب الظن أنها انتقلت إلى الغرب الإسلامي قبل الموحدين بزمن طويل ، لأنها - كما سنرى فيما بعد - كانت الشارة التي يستخدمها القائد العام للقوات في الحملات الحربية - انظر :

- Mez : Ren. Isl., Trad. Vila, p. 174-175 .

وكلمة المظلة « تختلف في إسبانيا عن « المظل » (Mazall) الذي يقصد به خيمة العاهل في المعسكر الحربي : انظر الأمثلة المستقاة من ابن حيان والتي ذكرها « بوزي » في . Suppl. dict. ar., II, p. 84 .

- Cap. 133, p. 73 de la ed. de A. paz y Melia [cf. Supra, IV, p. 352, nota (١٠) 170] .

(١١) ابن عذارى « البيان المغرب ... » ، الجزء الثاني ص ١٦١ - ٢٤٩ (١٥٦ - ٢٢٢) من النص الأصلي ، ص ٢٦٠ - ٢٨٥ ، ٤١٩ من الترجمة .

(١٢) عن البيعة في عصر الخلافة القرطبية ، انظر :

- M. M. Antuña : La jura en el Califato de Córdoba, en An. Hist. Der. Esp., VI, Madrid, 1930, págs. 108-144 .

(١٣) سواء تم هذا التعيين في حياة سلفه أو عند موته أو قبل موته بقليل (كما حدث مع عبد الرحمن الثاني الذي عين قبل موت الحكم الأول) ، وقد احتفظ المؤرخون الأندلسيون بالنص الكامل لحضر « ولاية العهد » الذي صاغه الخليفة هشام الثاني لصالح عبد الرحمن شنجول ، وقد حرر هذه الوثيقة أمين سر الدولة « أحمد بن برد » ووقع عليها قاضي الجماعة في قرطبة « أحمد بن زكوان » وتسعة وعشرون من أصحاب المناصب الرفيعة بدرجة وزير ، علاوة على ١٨٦ فقيهاً يعملون بالمناصب القضائية المختلفة .

(١٤) قدم ابن حيان فى تاريخه عن العامريين قائمة بأسماء فقهاء قرطبة الذين أدوا يمين الطاعة لهشام الثانى عند توليه السلطة ، وتضم هذه القائمة - التى أوردها وأضاف إليها ابن الخطيب فى كتابه « أعمال الأعلام ... » (ص ٥٦ - ٦٥) - عدداً كبيراً من الوجهاء والقضاة الذين يسهل التعرف عليهم بينهم سبعة تولوا قضاء قرطبة .

(١٥) وبسط « راحة اليد » كرمز للبيعة ثابت فى مبايعة محمد الثانى (المهدي) ، انظر / ابن عذارى « البيان المغرب ... » ، الجزء الثالث ، ص ٦٠ .

(١٦) انظر المجلد الرابع (الفصل الخامس) .

(١٧) عن الحاجب فى الإسلام ، انظر المقال التالى :

- M. Sobernheim, en la Enc. Isl., II, P.219 .

(١٨) عن أصول منصب الوزير ، انظر :

- S. D. Goitein : the origin of the vizirato and its true character, en Islamic Culture, XVI, 1942, PP. 255-263 y 380-392.

(١٩) فى اللغة العربية « خُطَّة » ، وجمعها « خطط » .

(٢٠) عن المقرئ « نفع الطيب » ، الجزء الأول ، ص ١٢٣ .

21 - Prolégomènes, trad. De Slane, II, p. 13 .

(٢٢) يذكر ابن القوطية (« تاريخ افتتاح الأندلس » ، ص ٦١ - ٦٢ من النص ، ص ٤٩ فى الترجمة) أن عبد الرحمن الثانى هو أول من قن حضور الوزراء إلى المجلس الملكى ، وطبقاً لابن حيان (« المقتبس » ، الجزء الأول ، ص ١٩٦) فقد ظلت تلك القواعد التى ابتدعها عبد الرحمن الثانى سارية المفعول فى القرن العاشر الميلادى .

(٢٣) انظر المجلد الرابع (الفصل الخامس) .

(٢٤) وبهذا الشكل فقد حمل لقب « الحاجب » - الذى يساوى فى القيمة لقب العامل - فى النصف الأول من القرن الحادى عشر كل من : أحمد بن قاسم ، أمير « ألبونت » (Alpunte) ؛ « صبور » ، أول مستشار مستقل لبطلبيوس ؛ الزيرى « باديس بن جبوس » ملك غرناطة . انظر :

- Lévi - Provençal : Inscr. ar. d'Esp, p. 54 y 91 .

(٢٥) انظر المجلد الرابع (الفصل السادس) .

(٢٦) تشير إحدى فقرات « بغية الملتمس » (ص ٢٨٨) للضبى إلى أن لقب الوزير فى عهد الأمويين بإسبانيا كان يعنى فى المقام الأول الحصول على وضع معين داخل الهرم الاجتماعى .

(٢٧) انظر المجلد الرابع (الفصل الخامس) .

(٢٨) انظر « نفح الطيب » للمقرى ، الجزء الأول ، ص ٢٣٢ .

(٢٩) عن الألقاب التي تعنى الازواجية فى الإسلام ، انظر :

- I. Goldziher : über Dualtitel, en Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes, VII, págs. 321-329 .

وبالنسبة لإسبانيا الإسلامية ، انظر :

- Lévi - Provençal : Inscr. Ar. d'Esp., p. 66 y nota 2.

(٣٠) انظر المجلد الرابع (الفصل الخامس) .

(٣١) عن « نفح الطيب » ، للمقرى ، الجزء الأول ، ص ١٣٤ .

(٣٢) ابن عذارى « البيان المغرب ... » الجزء الثانى ، ص ٢٣٦ (٢٢٠) من النص الأصيل ، ص ٣٦٥ - ٣٦٦ من الترجمة .

(٣٣) انظر التعريف الصائب فى :

- Gaudefroy - Demombynes: Le monde musulman, p. 399 y nota 3.

(٣٤) ورد لفظ « قونداق » - المأخوذة دون شك من المصطلحات الإدارية البيزنطية - و « بطاقة » فى فقرة من « كتاب الصلة » لابن بشكوال ، رقم ١٠٤٢ .

كما أطلق نفس المصطلح (قونداق) على رسالة توبيخ صادرة من « عبد الملك المظفر » ، قام بتحريرها سكرتير الأمانة العامة للدولة « أحمد بن برد » (انظر : « النخيرة ... » لابن بسام ، الجزء الأول ، ص ٨٧) .

(٣٥) توجد فقرة فى « الحلة السيرة » (ص ١٣٧) لابن الأبار تصف « عبد الرحمن بن بدر » بأنه « كان المفوض الوحيد من قبل العامل لمنح الولاية ، وكانت سجلات التعيين تحرر فى بيته ثم تحمل إلى القصر لختمتها ، ويعد أن تعود إليه يتكفل بإيصالها إلى المرسل إليه عن طريق حكام الأقاليم .

(٣٦) ابن بسام « النخيرة » الأول - ١ ، ص ٨٦ - ٨٨ .

(٣٧) انظر :

- Lévi - Provençal : un recueil de lettres officielles almohades, Paris, 1942,p.17-19 .

(٣٨) طبقاً لإشارة قصيرة وردت فى « نفح الطيب » (الجزء الأول ، ص ٢٧٢) للمقرى ، فإن مكاتب الإدارة المركزية فى قرطبة كانت تطلق أبوابها يوم الأحد وليس الجمعة كما يعتقد ، كما توجد إشارة أخرى تجعلنا نجزم أن الأحد كان يوم عطلة فى إسبانيا الإسلامية سواء فى المدن أو القرى ، ويبدو أن اختيار يوم الأحد لراحة الموظفين يعود لأيام الأمير محمد الأول ، كما تشير عبارة وردت فى الجزء المكتشف حديثاً من

« المقتبس » لابن حيان (الجزء الأول ، ورقة ٢٢٣ V) ومفادها : أن القومس المسيحي ، ابن أنطونيانو ، عندما عين رئيسا لأمانة قرطبة العامة اشترط تفرغه أيام الأحاد لكي يتمكن من ممارسة شعائره الدينية .

(٢٩) انظر :

- R. Hartmann: Enc. Isl. I, p. 678 .

- Mez : Ren. Isl., Trad. Vila, p. 385 y sigs .

- Gaudefroy - Demombynes : Le monde musulman, p. 397-398.

(٤٠) يبدو أن حكومة قرطبة المركزية كان لديها - داخل المملكة وخارجها - شبكة واسعة من الجواسيس ونقلة المعلومات الذين يطلق عليهم ابن حوقل (الجزء الأول ، ص ١١٦ من طبعة Kramers) « مخلفين على رفع الأخبار » .

(٤١) انظر :

- Lévi - Provençal : Esp. mus. Xo siècle, p. 55 y nota 2.

ولقد ارتكب « فاجنان » خطأ فادحاً في ترجمته لـ البيان المغرب .. « (الجزء الثاني ، ص ٤٢١) عندما فسر كلمة « بُرد » على أنها جمع « برودة » ، أى « لباس » .

(٤٢) بالنسبة للشرق في القرن العاشر ، انظر :

- Mez : Ren. Isl., trad. Vila, pp. 592-594 .

(٤٣) المرجع السابق ، ص ٥٩٢ .

(٤٤) للتعرف على النظام المالى فى الدولة العباسية ، انظر :

- F. Lokkegaard : Islamic taxation in the classic period with special reference to circumstance in Iraq, Copenhagen, 1950.

- Mez : Ren. Isl., trad. Vila, págs. 138-172.

(٤٥) ظهر التعبير الأخير فى عهد الحكم الثانى فقط ، وقد استخدمه كل من عيسى الرازى وابن حيان (المقتبس ، الجزء الثالث ، Passim) .

(٤٦) ابن عذارى « البيان المغرب ... » ، الجزء الثانى ، ص ٢١١ (١٩٧) من النص الاصلى ، ص ٢٢٦-٢٢٧ فى الترجمة .

(٤٧) انظر المجلد الرابع (الفصل الخامس) .

(٤٨) انظر المجلد الرابع (الفصل الثانى) .

(٤٩) انظر المجلد الرابع (الفصل الرابع) .

(٥٠) تتسب هذه البيانات لابن بشكوال ، وقد ذكرها عنه كل من المقرئ (« نفع الطيب ، الجزء الأول ، ص ١٣٠) وابن عذارى (« البيان المغرب ... » الجزء الثاني ، ص ٢٤٧ (٢٣١) من الأصل ٢٨٢ من الترجمة) .

(٥١) « كتاب صورة الأرض » طبعة Kramers (الجزء الأول ، ص ١١٢) ، يلمح ابن حوقل أيضاً من طرف خفى إلى أن الزيادة الهائلة في المساحة أيام الحكم الثاني ترجع لمصادرة العاهل لثروات عدد كبير من الموظفين الذين كانوا يعملون في إدارة سلفه .

(٥٢) « لا بد وأن تكون الإشارة مبنية على أساس المقارنة بجملة احتياطي آخر ، ذلك لأن ابن خلدون قد أشار في مقدمته - الجزء الأول ، ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ - إلى أن عبد الرحمن الثالث قد ترك عند موته مخزوناً يقدر بخمسة ملايين دينار يصل وزنها إلى ٥٠٠ قنطار من الذهب .

(٥٣) بالنسبة للشرق في نفس العصر ، انظر :

- Lokkegaard : Islamic taxation, p. 128

تجدد المقارنة في هذا المقام بين الأرقام التي أوردها المؤرخون والجغرافيون هنا وبين ميزانية الدولة العباسية عام ٩١٨ / ٩١٩ م (٣٠٦ هـ) ، وهي كالتالي : ١٤٨٢٩١٨٨ دينار إيرادات) ، ١٦٩١٩٠٨٢ دينار (نفقات) ، وقد وصل احتياطي الخزانة عام ٩٠٨ م إلى ١٥ مليون دينار .

(٥٤) عن ابن الخطيب « كتاب أعمال الأعلام ... » ، ص ١١٤ - ١١٥ .

(٥٥) انظر ، على وجه الخصوص :

- M. Van Berchen : La Propriété territoriale et l'impôt foncier sous les premiers califes. Etude sur l'impôt du kharâg' Ginebra, 1886.

- C. H. Becker : Islamstudien, I, Leipzig, 1924.

- Gaudetfroy-Demombynes: Le monde musulman, p. 195 y sigs., y P.337 y sigs.

(٥٦) انظر :

- Lévi - Provençal : Péninsule Ibérique, p. 251 .

(٥٧) ابن بسام « الفخيرة » ، الجزء الأول - ١ ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٥٨) إذا أخذنا في الاعتبار ما أورده البكري ، انظر :

- Lévi - Provençal : Péninsule Ibérique, p. 251 .

(٥٩) في فقرة هامة لابن عذارى (« البيان المغرب .. » ، الجزء الأول ص ٢٣٦ (٢٢٧) من النص ، ص ٢٣١ من الترجمة) ورد لفظ « مغارم » مع النعت « سلطانية » إلى جوار التعبير « وظيفة مخزنية » ، ولقد تم إعفاء سكان « سبته » من كلتا الضريبتين بموجب مرسوم « سجل » من الخليفة الحكم الثاني صدر في فبراير / مارس ٩٦٤ م (صفر ٢٥٢ هـ) ، وحوالت قيمة الضريبتين على سكان « الشرف » التابعة لإقليم إشبيلية .

(٦٠) انظر :

- M. Asín Palacios: Un código inexplorado del Cordobés Ibn Hazm, en Al-Andalus, II, p. 37 [trad. Española, p.37 42].

(٦١) الضريبة الاستثنائية على الضياع (مفردھا : ضيعة) المسماة « تضييع » (Tadyi') والمفروضة في إفريقيا عام ٩١٧ م (٣٠٥ هـ) - طبقاً لعارب الذي أخذ عنه ابن عذارى (« البيان المغرب » ، الجزء الأول ص ١٨٤ (١٨١) من النص ، ص ٢٥٦ من الترجمة) - ، لا يبدو أنها كانت تسمى بنفس الاسم في إسبانيا الإسلامية التي كانت تحصل فيها خلال القرن العاشر .

(٦٢) بالنسبة للشرق ، انظر :

- Mez : Ren. Isl., trad. Vila, p. 157 nota 4.

(٦٣) يذكر أن سوق النبيذ في « شقندة » (Secunda) كان مؤجراً أيام الحكم الأول لشخص يدعى « حيين » (Hayyun) .

(٦٤) للتأكد من ورود اللفظ المذكور هكذا ، انظر :

- Lévi - Provençal : Seville musulmane, p. 142.

(٦٥) ومع هذا فقد فرض في قرطبة خلال القرن التاسع تحصيل الضريبة على اثنتي عشرة دفعة موزعة على الشهور الهجرية ، ويؤكد هذا ما جاء في كتابات مستعربى ذلك العصر ، انظر :

- Leovigildo : De habitu clericorum (España sagrada, XI, p. 523) .

- Simonet : Hist. de los mozárabes, p. 93 y nota 2.

(٦٦) والتفضل بالتنازل عن تسديد البقية (والكلمة لا زالت تحتفظ بها اللغة الإسبانية حتى اليوم ، وتعنى « بقية الدين ») كان معروفاً في التراث الساساني .

(٦٧) بالفعل ، فإن لفظ « عامل » يعنى في النصوص التاريخية الخاصة بالغرب الإسلامي في العصر الوسيط : « موظف الإدارة المالية » .

(٦٨) انظر ابن خلدون « العبر ... » ، الجزء الرابع ، ص ١٣٣ ..

(٦٩) انظر ابن عذارى « البيان المغرب ... » الجزء الثاني « ص ٢٤٧ (٢٣١ - ٢٣٢) من النص الأصلي ، ص ٢٨٢ من الترجمة .

- (٧٠) انظر ابن الخطيب « كتاب أعمال الأعلام ... » ، ص ١١٤ - ١١٥ .
- (٧١) استقيننا هذه المعلومة من « النوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة » لعلى بن يوسف المديونى ، وأقوم حالياً بإعداد ملخص سيتم إدارجه فى :
- Matériaux pour servir à l' histoire économique et sociale de l' occident musulman au Moyen Age.
- (٧٢) انظر :
- Lévi-Provençal : Esp. mus. X^o siècle, p. 75 y nota 2.
- (طبقاً للمجموعة الصغيرة المجهولة المؤلف التى تحمل عنوان : « كتاب الزهرة المثورة فى الأخبار المثورة ») .
- G. C. Miles : The Coinage of the Umayyads of Spain, Nueva York, 1950, págs. 39-40.
- (٧٣) انظر :
- Miles : op. cit, pp. 20-22 y 113-126 .
- فى الصفحة رقم ٢٢ والملاحظة ١ يمكن الاطلاع على رأى هذا الباحث حول بعض الدراهم المسكوكة فى « الوسيط » (Wasit) ل يتم التعامل بها فى إسبانيا وفى شمال إفريقيا ، ولهذا السبب كانت تحمل على أحد وجهيها « سكت فى إسبانيا » ، وعلى الوجه الآخر « سكت فى إفريقيا » .
- (٧٤) المرجع السابق ، ص ٢٢ - ٢٤ ، ١٣١ - ٢٣٤ .
- (٧٥) « مختصر كتاب البلدان » (B. G. A.) ، الجزء الخامس ، ١٨٨٥ ، ص ٨٨ . طبعة وترجمة :
- Hadjsadok: Description du Magreb et de l' Europe au III = IX siècles, Argel, 1949, pags. 50-51.
- (٧٦) هذا الباب الذى يسمى أيضا « باب إشبيلية » كان يؤدى إلى « الجانب الغربى » من مدينة قرطبة .
- (٧٧) انظر : ابن عذارى « البيان المغرب ... » ، الجزء الثانى ، ص ٢١١ (١٩٨) من النص ، ص ٢٢٧ من الترجمة .
- Lévi-provençal : Esp. mus. X^o siècle, págs. 75-76.
- (٧٨) سنتحدث فيما بعد عند تناولنا للمقاييس والموازن فى إسبانيا الإسلامية عن المواصفات الأساسية للعملات الأموية .

(٧٩) قام النباهي بشرح مصطلح « المستخلص » شرحاً وافياً في كتابه « المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا » (ص ١١٤) .

أما « صاحب المستخلص » أبو علي بن حدابة فقد ذكر بروفنسال (Esp. mus. X^o siècle, p. 75)
(76) إنه كان يعمل في خدمة بني نصر ، والصحيح أنه كان يعمل في خدمة المرابطين .

(٨٠) أكد « عارب » في مناسبتين مختلفتين على وجود هذه الوظيفة . انظر :

ابن عذارى « البيان المغرب ... » ، الجزء الثاني ، ص ٢١٣ (١٩٩) ، ٢٢١ (٢٠٥) من الأصل ، ص ٣٢٩ ، ٢٤٠ في الترجمة .

(٨١) المرجع السابق ، ص ٢٥٠ (٢٢٤) من الأصل ، ص ٢٨٧ من الترجمة .

(٨٢) ونفس الشيء يمكن قوله أيضاً بالنسبة لكلمة « جهة » .

(٨٣) قام « ياقوت الحموي » بشرح هذا اللفظ في « معجم البلدان » (الجزء الأول ، ص ٢٧) .

(٨٤) انظر :

- Lévi-provençal : Esp. mus. X^o siècle, P. 119, nota 4.

(٨٥) يستخدم الجغرافيون أحيانا الجمع « كُور » للدلالة على المفرد ، انظر :

- Lévi-Provençal : Péninsule Ibérique, glosario, p. 278, s.V^o .

(٨٦) انظر :

- B. G. A., III, p. 235 (trad. pellat, Argel, 1950, p. 39).

- Alemany, Georg: pén. Ibér, págs. 38-39.

(٨٧) انظر :

- Lévi-Provençal : Péninsule Ibérique, págs. 246-249 .

(٨٨) نشير في هذا الصدد إلى أن معظم أسماء « الكور » الأندلسية التي وردت في « المغرب في حلى المغرب » لابن سعيد لا تتفق مطلقاً مع الواقع الإداري لا في القرن العاشر ولا في الأزمنة التالية له .

(٨٩) انظر :

- Lévi-provençal : Esp. mus. X^o siècle, P. 116, Nota 3.

(٩٠) المرجع السابق ، ص ١١٧ ، ملاحظة ٣ .

(٩١) المرجع السابق ، ص ١١٧-١١٨ ، ملاحظة ١ .

(٩٢) ثبت بالدليل القاطع أن « غافق » كانت توجد في نفس مكان « بلا لقصر » الحالي (Belálcazar) التي تبعد ثمانية كيلو مترات عن (Hinojosa del Duque) .

انظر :

- F. Fernández Jiménez : Estudios de geografía histórica española, VII: Gafiq, Gahete = Belálcazar. en Al-Andalus, IX, 1944, págs. 71-109.

(٩٣) عن مسمى هذه الكورة ، انظر :

- Lévi-Provençal : en Enc, Isl., IV, p. 663, S. ٧°.

(٩٤) المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص ١٢٢١ . S. Vo.

قبل القرن العاشر كانت « أرشُلُونَة » هي عاصمة كورة « رية » .

(٩٥) توجد أمثلة على ذلك في :

- Pérés : Poésie andalouse, pp. 105, 119, 142, 192 .

(٩٦) لنا عودة فيما بعد للحديث عن القانون الخاص بهذه الكور والجند المقيمين بها .

(٩٧) تحدث ابن الفرضي (« تاريخ علماء الأندلس » ، رقم ٨٠٨) عن أمين كورة مالقة في القرن العاشر .

(٩٨) سنتحدث فيما بعد عن الثروة الطائلة التي جمعها « عبد الملك بن شهيد » عندما رأس خلال تسع سنوات - في عهد المنصور بن أبي عامر - الإدارتين الإقليميتين لكل من كورة « بلنسية » و « تدمير » ، وقد تحول بهذا المنصب إلى ملك غير متوج على شرق الأندلس بكامله .

(٩٩) أثبت « أحمد الرازي » في وصفه لإسبانيا الوجود المتزامن لغرناطة ولبيرة خلال القرن العاشر ، وأيده في هذا ابن الفرضي (« تاريخ علماء الأندلس » رقم ١٤٤١) عند حديثه عن الأديب « مطرف بن عيسى الفسائي » الذي عاش في عاصمة المستقبل للزييريين وتوفي بها عام ٩٦٧ م (٢٥٦ أو ٢٥٧ هـ) .

الفصل الثانى

النظام العسكرى^(١)

عناوين الفصل الثانى :

١ - مناطق الحماية والنظم الدفاعية :

ثغور الأندلس - النظام الدفاعى - القلاع .

٢ - جيش الخلافة :

عناصر الجيش النظامى ، وكيفية تجنيدها - المرتزقة - وحدات الجيش - المتطوعون للجهاد - إدخال التشكيلات البربرية فى جيش الخلافة - إصلاحات المنصور العسكرية ..

٣ - الحملات الحربية :

إعداد وتجهيز الحملات - معدات الجيش وأسلحته - طواير الجيش ومهامه العسكرية - فنون القتال وفرض الحصار - المَحَصَّة النهائية للحملات العسكرية .

٤ - الأسطول والدفاع عن السواحل :

الأسطول وموانئ الحرب - الدفاع عن السواحل

- حواشى الفصل الثانى .

١ - مناطق الحماية والنظم الدفاعية

ثغور الأندلس (Las Marcas) :

كانت سلامة البناء الذي أقامه الأمويون في إسبانيا الإسلامية مرهونة دائماً - سواء في القرن العاشر أو عصر الإمارة - بقوة عاهل قرطبة العسكرية ، والحفاظ على تلك القوة كاملة غير منقوصة ، وتعزيزها كلما سنحت الفرصة كان الشغل الشاغل للخليفة ؛ ذلك لأن تدنيها العارض ينعكس في الحال على هذا المكان أو ذاك من المملكة في صورة تمردات ريفية أو أعمال شغب من قبل السوق ، وكان - على الصعيد الخارجي - يوقظ شهية الجيران من مسيحي شمال شبه الجزيرة أو شيعة إفريقيا . وللتصدي لنزوات القشتاليين والبشكنس والفرنجة والليونيين العدوانية ، كان من الضروري تبني نظام دفاعي محكم يستند على مواقع استراتيجية ، تؤمن طرق الاتصال وتستخدم كخط دفاعي متقدم ، أو نقاط مساندة لحملات الردع الموجهة إلى أرض الأعداء ، كما كان على قرطبة في نفس الوقت - لمواجهة قوة الفاطميين المتزايدة - تقوية دفاعات السواحل الضعيفة (خاصة في الجانب الشرقي) من خلال إعداد أسطول حربي وزيادة عدد الترسانات البحرية ومحاولة نقل الصراع إلى الأراضي الإفريقية بعيداً عن الأندلس .

تحدثنا كثيراً في المجلد الرابع عن تلك (الماركات - Marcas) التي تتولى حماية إسبانيا الإسلامية في الجانب المواجه للممالك المسيحية ، وعن الدور الذي تضطلع به ، سواء في عصر الإمارة أو الخلافة ، وبوجه عام ، فقد كانت تلك الثغور (التي تختلف عن التقسيمات الإدارية الداخلية المسماة بالكور) صورة طبق الأصل من ثغور الإمبراطورية العباسية الواقعة على حدودها مع الإمبراطورية البيزنطية ، ومثل الأخيرة ، فقد كانت مناطق حرب تعيش حالة الاستنفار الدائم وتقع على مقربة من الحدود التي تشكلها الأنهار الكبيرة ، مثل « الدويره » و « التاجه » حتى لا تكون فريسة سهلة ؛ لكن علينا ألا ننظر أن تلك الثغور كانت دائماً مناطق خالية من السكان ؛ ذلك لأنه إلى جوار المناطق الصحراوية وبعد تجاوز الخط الاستراتيجي كانت تنفتح - في الغالب - أقاليم

شاسعة خصبة تمثلها أحواض الأنهار التي تشكل تخوم الأراضى الإسلامية مع الأعداء ، والوديان التي تتخللها الفروع الجنوبية لتلك الأنهار ، ما حدث بالفعل هو أن تلك الثغور كانت تتمتع بلوائح سياسية مختلفة عن القوانين الخاصة بالتقسيمات الإدارية الداخلية ؛ نظراً لوجودها على الحدود مع الأراضى المسيحية ولبعدها النسبى عن العاصمة ، وللمهمة الحربية الملقاة على عاتقها بصفتها الدروع التي تتلقى الصدمات الأولى لهجمات المعتدين ، ولأنها أراضى حربية فلم يكن الذى يمارس السلطة فيها - بتفويض من الأمير أو الخليفة - حاكماً مدنياً (والياً) مثل الكُور ، بل « قائداً » عسكرياً (مثل « الماركيز » فى الجانب المسيحى) .

وطبقاً للمؤرخين المسلمين فإن الثغور المتقدمة فى الأندلس كانت ثلاثة : الثغر « الأعلى » ، و « الأوسط » ، و « الأدنى » .

كان هذا التقسيم مطابقاً للواقع بالفعل خلال حقبة تاريخية معينة (خاصة فى القرن التاسع) ، أى قبل حلول السلام النهائى بالأراضى التي تمتد غرب شبه جزيرة أيبيريا ، ويمثلها حالياً إقليم « إكستريمادورا » ووسط البرتغال .

أما فى عصر الخلافة فقد كانت مناطق الثغور تقتصر على مجموعتين : مجموعة « الثغر الأعلى أو الأقصى » ، وعاصمتها سرقسطة ؛ ومجموعة « الثغر الأوسط أو الأدنى » ، المواجهة لمملكة قشتالة وليون ، وعاصمتها « مدينة سالم » ، ومقر القيادة الأخير حلّ فى نهاية عهد الناصر محل « طليطلة » البعيدة عن مسارح الأحداث وقرون الاستشعار التي كانت تزحف من « مدريد » و « طليطلة » و « قورية » و « قلمرية » نحو مرتفعات جبال « وادى الرملة » والمجرى الأدنى لنهر « الويرة » و « جليقية » .

يبدو من قبيل الإطالة التى لا معنى لها العودة هنا للحديث عن نشاط قادة الحرب الرئيسيين الذين اكتسبوا فى القرن العاشر شهرة طبقت الأفاق أثناء توليهم قيادة هذا الثغر أو ذاك ، لونسينا فلا يحق لنا نسيان المشّار الرائع لمولى عبد الرحمن الثالث : « غالب هلناصرى » (صاحب الثغر الأعلى) الذى عهد إليه خليفة قرطبة عام ٩٤٦ م (٣٣٥ هـ) بإعادة « مدينة سالم » المنيعّة إلى ما كانت عليه ، وتحويلها

إلى نقطة انطلاق راسخة للصوائف المتجهة إلى المواقع المسيحية فى الحوض الأعلى والأوسط لنهر « الويرة » ؛ هذا الفارس المقدام الذى لقى حتفه عام ٩٨١ م (٣٧٠هـ) فى ظروف مأساوية ^(٢) بعد انتصاراته المدوية على « أدارسة » المغرب المنشقين ، وإن ننسى كذلك الدور السياسى الذى لعبه فى الثغر الأعلى (خلال القرن العاشر) عدد من أفراد عائلة « بنى توجب » العربية مثل ابن هشام وولده يحيى .

وكما عهدنا من قبل ، فإن المصادر التاريخية التى بين أيدينا لا تمدنا بشيء نستطيع من خلاله التعرف على مدى اختلاف واجبات وحقوق سكان الثغور عن الشائع منهما بين سكان الأقاليم الخاضعة للإدارة المدنية ، كل ما نستطيع قوله يتلخص فى أن طليطلة وسرقسطة شرعتا - بعد انصوائهما الأخير فى القرن العاشر تحت لواء قرطبة - فى ممارسة دور الحواضر السياسية والثقافية ، وقد اكتمل هذا الدور فى القرن التالى عندما أصبحت كل منهما عاصمة لمملكة من ممالك الطوائف الهامة ، وفى سرقسطة - على الأقل - يبدو أن تأسيس إمارة بنى هود فيها خلال القرن الحادى عشر لم يكن أكثر من ترسيخ لوضع كان قائماً بالفعل ، ذلك لأنها كانت تتمتع - حتى فى عهد الناصر نفسه - بنظام سياسى أقرب إلى ما نسميه بالحماية : بمعنى أن الزعيم « المحمى » يعترف فى كل وقت بخضوعه للأمير « الحامى » ولا يضمن عليه بالتعاون العسكرى أو المالى ؛ وفى مقابل هذا يحتفظ هذا الزعيم بالعديد من الامتيازات السلطانية ويصبح كالسيد الإقطاعى على الزعماء الصغار الذين يحكمون الأجزاء المختلفة من أراضى الإقليم ^(٣) .

النظام الدفاعى : القلاع :-

من المناظر الطبيعية الأيبيرية الأكثر أصالة (سواء فى هضاب ليون وقشتالة الشاسعة أو الكتل المضفّرة التى ترتفع خلف السواحل الأندلسية الشرقية) صورة الخيال المُحدَّب أو المربع للقلعة التى تُشرف من فوق قمة صخرة على المناطق المحيطة بها ، وبالطبع فإن جميع قلاع إسبانيا والبرتغال ليست معاصرة لهيمنة الإسلام على شبه الجزيرة ، لكن عدداً كبيراً منهما إسلامى الأصل ، وكثرة هذه القلاع (التى يحتفظ معظمها باسمه العربى) يعتبر أبلى تعبير عن الجهود المُكفَّفة التى بذلها

الأمويون - فى جنوب الأندلس ، على الأقل - للتمتع والحفاظ على سلام قلب دولتهم . وبالرغم من هذا ، يمكننا التأكيد على أن معظم جهودهم فى القرن العاشر قد انصرفت إلى قلاع الخط الحدودى الإسلامى / المسيحى (الثغور) الذى يحيط بمملك الخلفاء ، على شكل قوس ، يمتد طرفاه من شاطئ المتوسط حتى ساحل الأطلنطى .

والقلاع من حيث التصنيف والتسمية أنواع : الأكبر حجماً منها والذى يعتبر فى الوقت نفسه مركزاً حضرياً ، ويشبه الحصون المنيعة التى تسيطر على السهول الخصبة الأهلة بالسكان ، يطلق عليه « قلعة » (ولا تزال اللغة الإسبانية تحتفظ بهذا اللفظ العربى) ، ومدلول « القلعة » بهذا الشكل يختلف عن مفهومها فى الشرق حيث كانت تُطلق فيه على « المَعْقِل » الكائن بمدينة ما ، وهو يساوى فى الغرب الإسلامى مصطلح « قصبة » .

وفى إسبانيا الحالية توجد أعلام جغرافية كثيرة تحمل اسم « قلعة » ، نذكر منها على سبيل المثال « قلعة جابر » (Alcalá de Guadaira) (بالقرب من إشبيلية) ؛ « قلعة جَزُولَة » (Alcalá de los Gazules) ^(٤) (بمحافظة « شنونة ») ؛ « قلعة يَحْصُب » (Alcalá la Real) ^(٥) (بإقليم غرناطة) ؛ « قلعة النهر » أو « قلعة عبد السلام » (Alcalá de Henares) (بين مدريد ووادى الحجارة) ؛ « قلعة أيوب » (Calatayud) (بين مدينة سالم وسرقسطة) ؛ « قلعة التراب » (Calatorao) ؛ « قلعة النسور » (Calatañazor) ؛ « قلعة رياح » (Calatrava) ^(٦) ، أما « كاستيا » (Castilla) (بلد القلاع) فقد كان يطلق عليها فى البداية الاسم العربى « القلاع » مقترناً بـ « ألبَة » (ألبَة والقلاع) ، ويبدو أن هذا المسمى يسبق بنحو قرن على الأقل ما يعرف بـ « قشتالة » التى تعتبر تحويراً للفظة الرومانشية : Castella ، ثم Castilla .

وبعد القلاع - من حيث المساحة والحجم - تاتى الحصون التى تزيد أعدادها بكثير عن القلاع ، وبالرغم من أن كلمة « حصن » قد دخلت - أحياناً - فى تشكيل مسميات أعلام جغرافية عربية خالصة (مثل « حصن اللوز » = Iznilloz ؛ « حصن القصر » = Aznalcázar) ، إلا أنها ظلت - فى الغالب - تحتفظ بمدلولها الرومانى أو الإيبيرى القديم دون تغيير ^(٧) . والحصن ، الذى يقوم دائماً على مكان مرتفع أو - بمعنى أصح - على قمة تل يصعب الوصول إليه ، يتكون أساساً من سور ضخ

متماسك يحيط به من كل الجهات ، وإذا كانت جهة منه تُشرف علي أخدود فإنه يكفي فيها بالحائط الطبيعي ، وفي زوايا هذا السور - المبنى من الدبش (حجارة غير مصقولة) أو الأجر - ترتفع الأبراج ، كما يحتوى السور على شرفات وممشى لطواف نوبات الحراسة ، وفي معظم الأحوال يلتف السور حول فراغ أو مساحة صغيرة غير ممهدة ، ولا توجد به سوى بوابة واحدة قوية مبطنة بصفائح من الحديد ، وكانت البوابة تلى - أحياناً - قنطرة متحركة تسمح باجتياز الخندق في حالة وجوده .

لم يكن هذا المكان المُسَوَّر المحدود المساحة - « حرم الحصن » ^(٨) - سوى استحكام دفاعي قادر على التصدي لهجمات الأعداء وتَحْمُلُ حصارهم ؛ ولذا فلم يكن يحتوى إلا على عدد قليل من المنشآت الدائمة ، مثل : صهاريج لحفظ مياه المطر ، مخزن أو أكثر للسلاح أو لتخزين المواد الغذائية ، عدد من غرف الإقامة في الأبراج الكبيرة وفي برج التشريفه ، وخارج هذا الحرم - تحت أقدام الحصن ، حيث يقل ارتفاع التل - يقع « الربض » الذى يعيش فيه الجنود مع عائلاتهم ، بالإضافة إلى عدد من الحرفيين والتجار الذين يمارسون التجارة في سوق صغير إلى جوار مسجد متواضع الأبعاد ، ويتمتع جنود الحامية النظاميون - عادة - بحق زراعة قطعة أرض صغيرة « مَحْرَث » على مقربة من الحصن والاستفادة من محاصيلها ^(٩) ، وفي حالة الخطر يقوم سكان « الربض » بالانتقال إلى الحصن بعد أن يحملوا إليه كافة منقولاتهم ومخزون صوامعهم ، وهذا النظام الذى يمنح الجندي حق الاستفادة من عائد أرضه قد تكفل بتحويله - شيئاً فشيئاً - إلى مزارع مرتبط بالمكان وعلى استعداد - بالتالى - للتضحية بنفسه في الدفاع عن أبراجه ضد هجمات الأعداء ومحاولاتهم لسلب محتوياته ، ومن جهة أخرى ، يبدو أن هذا النظام قد استُخدم كأساس لسياسة « إعادة تعمير » المناطق المحيطة بالحدود في كلتا الجهتين .

وبالإضافة إلى « القلعة » و « الحصن » لم تخل إسبانيا الإسلامية كذلك - خاصة في مناطق الجنوب الجبلية - من مواقع أخرى حصينة (أقل حجماً من الحصن) على قمم المنحدرات الصخرية ، كانت عبارة عن معاقل طبيعية منيعة لم تلحقها يد التعديل إلا لماماً ، يطلق عليها « صخرة » ويبدو أنها لم تكن مزودة - في الغالب - بحاميات مستقرة استقراراً دائماً ^(١٠) .

لقد استخدم المسيحيون كل هذه القلاع-بعد وقوعها أو عودة وقوعها في أيديهم ، تبعاً لسير « حرب الاسترداد » - ضد المسلمين في العصور الوسطى بعد إدخال

بعض التعديلات عليها ، ولاتزال غالبية هذه القلاع باقية - تقريباً - على حالتها التي كانت عليها أيام المسلمين بالرغم من عوامل التعرية وتعديات سكان القرى المجاورة الذين يستخدمونها كمحاجر لبناء منازلهم ، كما يحتفظ بعضها إلى الآن - سواء على الساحل الأندلسي أو في الداخل أو في منطقة الحدود القديمة مع أشتوريش وليون وقشتالة - بالنقوش والكتابات التي تخلد ذكرى تأسيسه أو تعزيزه في القرن العاشر ، ومن هذه القلاع نذكر قلعة « برج الحمة » (Baños de la Encina) (بمحافظة « جيان » ، شمال « بايلين » Bailón) التي يستغل حرمها الآن - مثل قلاع أندلسية أخرى - في دفن الموتى ؛ وقد تم بناء برجها - وفقاً لنص خاص بعلم المدونات والنقوش - على يد القائد الصقلي « ميسور » (في صيف ٩٦٨ م - ٣٥٧ هـ) بتكليف من الحكم الثاني ، أما تاريخ بناء برج قلعة « طريف » (على مضيق جبل طارق) فيرجع إلى أخرج فترات التهديدات الفاطمية : أي إلى عام ٩٦٠ م (٣٤٩ هـ) . ونشير في النهاية إلى قلعة كانت بمثابة مفتاح دفاعي حقيقي في الخط الاستراتيجي لدولة الخلافة : قلعة « غُرماج » (Gormáz) التي تقع بين « وخشمة » (Osma) وبين « بيرلانجة » (Berlanga) ، وتُشرف من فوق قمة تُل يرتفع لأكثر من ١٣٠ متراً على الوادي الأعلى لنهر « الدويرة » ، إنها لا تزال رابضة إلى يومنا هذا ، مشرئبة العنق نحو السماء ، بخيال حرمها الشاسع الذي يتمطى لما يقرب من الكيلومتر ، كحارس وراقب على غوطة تتماوج بالخضرة ، وهناك نقوش ، تساندها الوثائق التاريخية ، تفيد أن الحكم الثاني هو الذي أمر ببناء هذه القلعة - أو على الأقل ترميمها - عام ٩٦٥ م (٣٥٤ هـ) تقريباً ^(١١) .

وهناك دراسة حديثة نسبياً ^(١٢) عن قلعة « غُرماج » تلقي الضوء على مهارة مسلمي القرن العاشر الإسباني في فن تشييد الحصون والاستحكامات ، وتنعتها بالتفوق على بقية أوروبا الغربية ، إن نوعية البناء ، بالإضافة إلى اعتدال خطوطه المعمارية والترشيد في الاستفادة من المساحة المتاحة تجعل من أطلال هذه القلعة دليلاً دامغاً على قوة الأمويين الحربية وعلى القدرات الضخمة التي كان بإمكانهم استثمارها لبناء مجمعات استراتيجية على هذا القدر من الأهمية .

لن يكون من قبيل الإطناب إذا أشرنا - ونحن نتحدث عن هذا الموضوع - إلى أن المصطلحات الخاصة بالأجزاء المختلفة للقلعة قد انتقل معظمها إلى اللغة الإسبانية منذ العصر الوسيط ، صحيح أن المسلمين تبنا تلك المصطلحات بعض المفردات ذات الأصل الإيبيري (مثل « قَلْهَرَّة » للإشارة إلى « القصبة ») لكن جيرانهم العدوانيين من المسيحيين أخذوا عنهم كلمات أكثر ، مثل « دَرْب » (*adarve*) للإشارة إلى « ممشى الدورية » ؛ « ستارة » (*acitara*) للإشارة إلى « الحاجز الواقى » ؛ « طليعة » (*atalaya*) للإشارة إلى « برج المراقبة » ، ، « بَرَّانية » (*albarrana*) للإشارة إلى « البرج الخارجى » ؛ ... إلخ ^(١٣) ، وفيما بعد سنرى أن تلك الاستعارات اللغوية لم تقتصر - فى مادة الحرب - على فن تشييد الحصون والاستحكامات .

٢ - جيش الخلافة

عناصر الجيش النظامى ، وكيفية تجنيدها : -

كان جيش الخلافة يتألف فى القرن العاشر من عنصرين يتعين علينا دراسة نظام ولوائح تجنيدهما فى ضوء ما تسمح به الوثائق المتاحة : فهناك - من جهة - الفرق الدائمة المجمعة من خلال التجنيد الإجبارى للأندلسيين المكلفين بأداء الخدمة العسكرية ؛ وهناك - من جهة أخرى - المرتزقة الأجانب .

وإلى هذين العنصرين تجب إضافة قوات الدعم الاستثنائية المؤلفة من كتاب المجاهدين (أهل الرباط) .

كان الوفاء بأرزاق جيش غير متجانس على هذا النحو ، وصرف رواتب القوات التى تشكل صفوفه يعنى - بالنسبة للخليفة وإجهاز خدماته المركزية - تخصيص ميزانية ضخمة ودائمة يتم اقتطاعها من موارد الخزانة العامة ، ولهذا السبب يجمع واضعو نظريات الحقوق العامة فى الإسلام - مثل ابن خلدون فى القرن الرابع عشر (١٤) - فى دراساتهم بين التنظيم المالى للدولة وبين مالىة الجيش (أو « ديوان الجيش » ، بتعبير أدق) . يكثر الحديث فى المدونات التاريخية الخاصة بإسبانيا الأموية عن هذا « الديوان الحربى » والذى كان فى الأصل « سجل » لتدوين القوات العاملة التى تتمتع برواتب ثابتة سواء كانوا جنوداً أم ضباطاً ، والكل يطلق عليه لفظ « مُتَدَوِّن » ، وإلى القوائم التى يتألف منها هذا « السجل » يمكن - فى مناسبات خاصة - إضافة « ملاحق الديوان » (١٥) ، وهى عبارة عن قوائم تكميلية .

والنصوص التى يمكن الرجوع إليها للتعرف على الطريقة التى كان يتم بها التجنيد أو المرتبة الاجتماعية لسكان الأندلس المكلفين بأداء الخدمة العسكرية يكتنفها كثير من الغموض والإبهام ، ومن بين سكان الأندلس المكلفين بأداء هذا الواجب يأتى فى المقام الأول العرب السوريون ، أحفاد « جُند » بلج القشيري ، الذين ظلوا مقيمين

فى أراضى أسلافهم ومتمتعين - فى البداية ، على الأقل - بما كان لهم من ميزات ، ومتجمعين فى أقاليم ظلت محتفظة باسمها الرسمى القديم : « كُور مُجَنَّدَة » .

لازلنا نذكر أن « الجند » الأوائل الذين مُنحوا « إقطاعات أو مقاطعات » آلت إلى حفدتهم ، كانوا فى رباط دائم وملزمين بتلبية نداء الأمير كلما دعتة الحاجة إلى انخراطهم فى سلك الجندية ، دون انتظار لمقابل ، لكن هذا الالتزام سرعان ما توارى وأصبح الإقطاعيون السوريون يتلقون المقابل المادى أو العينى الضخم مثل بقية فرق الجيش الدائمة أو شبه الدائمة .

ومن جهة أخرى ، فإن مسمى « جُنْد » أو « أجناد » (ومفردها : جندى) لم يكن يُطلق فى القرن العاشر على حفدة أصحاب « بلج » فقط ، بل اتسع ليشمل بعض الفئات الأندلسية (من العرب والبربر والمولدين الأحرار فى سن التجنيد) التى يقع على عاتقها أداء الخدمة العسكرية .

كان العاهل إذا أراد إعداد حملة عسكرية أو تعبئة قواته لأى ظرف طارئ يلجأ إلى إعلان « الاستنفار أو النفير » فى جميع كور المملكة ، بما فيها قرطبة ، وبناء على هذا يقوم كل وال بإرسال الرجال المقيدين بديوان كورته (الجند العاملين) إلى العاصمة أو إلى المكان المحدد للتجمع ، ويلحق بهم المتطوعون (الحشود ، ومفردها : حشد) ، وبهذا الشكل نستطيع فهم هذا التعبير الذى يستخدمه مؤرخو الغرب الإسلامى باستمرار : « الجنود والحشود » ، فالكلمة الأولى تعنى القوات العاملة الدائمة المقيمة بـ « ديوان » الكور المختلفة ؛ أما الثانية فيراد بها المتقدمين للتطوع من غير القوات العاملة ، كان يتكفل بتجنيد هؤلاء المتطوعة رجال يُطلق عليهم « حاشدون أو حشَاد » (مفردهما : حاشد وحشَاد) ، وكانوا يلجأون إلى الطرق التقليدية فى عملهم ^(١٦) بهدف زيادة عدد الجنود الذين تشملهم التعبئة ^(١٧) .

وللتعرف على مساهمات الكور المختلفة فى تعبئة الجيش الأموى لدينا - لحسن الحظ - إحصائية دقيقة (نظمئن لصحتها لعدم المبالغة فيما ورد بها من أرقام) تتعلق بعهد الأمير محمد الأول (النصف الثانى من القرن التاسع) قام بإعدادها ابن حيان ^(١٨) ، والإحصائية التى نتحدث عنها عبارة عن قائمة بأعداد الفرسان الذين أرسلتهم الكور الأندلسية وأقاليمها للمشاركة فى الحملة العسكرية الموجهة لأشتوريش

عام ٨٦٣ م (٢٤٩ هـ) ، وقد تضمنت ما يلي : شاركت كورة «البيرة» بـ ٢٩٠٠ فارس ؛ وأخرجت «قبره» ١٨٠٠ ؛ و«باغة» (Priego) ٩٠٠ ؛ «تاكرونا» ٢٦٩ ؛ «الجزيرة الخضراء» ٢٩٠ ، «إستجة» ١٢٠ ؛ «قرمونة» ١٨٥ ؛ «شنونة» ٦٧٩٠ ؛ «ريه» ٢٦٠٧ ؛ «فريش» ٣٤٢ ؛ «فحص البلوط» ٤٠٠ ؛ «مَورور» ١٤٠٣ ؛ «تدمير» ٢٥٦ ؛ «رويينة» (Rovina) ١٠٦ ؛ «قلعة رباح» و«أوريط» (Oreto) ٣٨٧ ، وهذه الأرقام (التي يصل إجمالها إلى حوالي ٢٢٠٠٠ فارس) لا تتناسب فقط مع تعداد سكان كل كورة ، بل أيضاً مع مساحتها الجغرافية وحالة الاستقرار الداخلي بها .

ومن بين هذه القوات يتمتع نوو الأصول العربية - من السوريين والبلديين (أحفاد الفاتحين لشبه الجزيرة) - بمعاملة متميزة ووضع خاص ، هذا على الأقل ما يمكن استخلاصه من نص غامض للمؤرخ « أحمد الرازي » أورده في القرن الرابع عشر المؤلف الغرناطي ابن الخطيب ^(١٩) ؛ وبالرغم من صعوبة تفسيره إلا أنه ذات أهمية كبيرة فيما يتعلق بدراسة نظام تعبئة القوات العسكرية أثناء حكم الأمويين ، يشير النص إلى أن الحكومة المركزية كانت تستدعي ربع كل عام نصف الجند السوريين العاملين بكامل تشكيلاتهم للمشاركة في العمليات الحربية التي تقررها ، ويعد مضي ثلاثة أشهر على الحملة يحل النصف الثاني محل النصف المستدعي أولاً ، وعلى غرار العرب السوريين كانت القوات المؤلفة من « البلديين » تشارك في الصوائف بالطريقة نفسها : أى على أساس النصف وبالتناوب .

ويشير الرازي إلى طائفة ثالثة من الجنود يطلق عليهم « النُصَرَاء » ويبدو أنها تتعلق بقوات تكميلية يتم تجنيدها للصوائف .

وفي هذا المقام يحق لنا طرح السؤال التالي : ما هي الجدوى الفعلية لتلك الاستنفارات الأندلسية من وجهة النظر الحربية ؟ الملابس جميعها تشير - بعمامة - إلى أنها لم تكن تزيد في الفاعلية عن المتوسط ويعضد هذا الانطباع الشهادة - المتحيزة والمتحاملة - للرحالة المشرقي ابن حوقل الذي أكد في أوج القرن العاشر - وفي أكثر من مناسبة - على تراجع فاعلية الأندلسيين الحربية وعلى عدم خبرتهم في ركوب الخيل للقتال ، ويضيف الرحالة المشرقي - بسوء طوية لا تخفى على لبيب - أن تواضع إمكانات قوات الخليفة كان يُعوّض بعضه اللجوء إلى خديعة الأعداء والتغريب بهم ، وطبقاً لما أورده المؤلف نفسه ، فإن عبد الرحمن الثالث - وكذلك سلفه - لم يكن بمقدوره تجميع وكفالة أكثر من خمسة آلاف فارس ^(٢٠) .

على أى حال ، من واجبنا الاعتراف بأن حكومة قرطبة (وهى فى هذا لا تختلف عما كان يحدث فى المشرق العربى وفى بيزنطة خلال العصر الوسيط) قد أدركت مبكراً - ومنذ عهد عبد الرحمن الأول ، دون شك - حتمية الاستعانة بالمرتزقة لتدعيم صفوف القوات الوطنية العاملة ، ولتوفير الموارد اللازمة لكفالة هؤلاء الجنود الأجانب سيضطر ملوك الأندلس بعد ذلك للسماح لبعض رعاياهم بالإعفاء من أداء الخدمة العسكرية المكلفين بها (مثلما كان يحدث فى بقاع أخرى) مقابل فدية معتبرة تُسدد نقداً .

وهكذا ، يبدو أن المدن الكبرى (وقرطبة على رأسها) قد استطاعت - لا فى القرن العاشر فحسب ، بل فى السابق أيضاً بكل تأكيد (٢١) - التخلص ، بفضل المال ، من ربيعة الاستنفار المستمر .

المرتزقة : -

تتفق المدونات التاريخية (٢٢) على نسبة إدخال الكتائب الأجنبية فى الماكينة الحربية الأموية إلى الحكم الأول ؛ هذا على الرغم من أنها توحى بأن سلفيه - عبد الرحمن الأول (٢٣) وهشام الأول - قد استعانا فى جيوشهما بخدمات بعض الفصائل الأجنبية ، كان يُطلق على القوات المرتزقة - وفى جميع العصور - المسمى الشائع « عَجَم » (٢٤) ، وهو يقابل « الجند أو الأجناد » ، فالمسمى الأخير يقصد به دائماً المقاتلين الوطنيين ؛ أما الأول فيطلق على المحاربين أصحاب العطاءات المجلوبين من خارج الأندلس سواء كانوا أفارقة أم أوروبيين ، سوداً كانوا أم بيضاً .

ومبادرة الحكم الأول هذه واكبت إعادة تنظيمه للجيش حيث قسّم قواته إلى فرق نظامية حدد عطاءاتها ، وبني فى قرطبة - داخل حرم القصر - مخازن للسلاح والمعدات الحربية التى كانت تزيد باضطراد نتيجة لما تخرجه المصانع الرسمية ؛ كما اهتم بتشكيل وحدة حراسة دائمة للقصر (عرافة) (٢٥) كانت تتألف من ثلاثة آلاف فارس وألفين من المشاة ، وجميع أفرادها من الممالك (جاليقيين وفرنجة ، وربما صقالبة) الذين اشتراهم من خارج الأندلس وألحق بهم بعض الأسرى من سبتمانيا .

ولقد ذكرنا فى المجلد الرابع شيئاً عن حرس الأمير الخاص الذى يدين له بالولاء الشديد والمؤلف من ١٥٠ رجلاً مسلحاً من « أربونة » ، وكما أشرنا فى حينه فقد كان القرطبيون (المرتعدون فرقاً من هذا الحرس القوى الشكيمة الذى لا يتردد فى

استخدام كافة أنواع القمع) يطلقون عليهم « الخرس » نظراً لجهلهم باللغة العربية ، وكان هذا الحرس المسيحي - الذي يقيم بملحقات القصر ويقوده رجل يدعى القومس « ربيع » (ابن تيودولفو) - مقسماً إلى فصائل ، فى كل فصيلة ١٠٠ رجل .

ويتشكل الحكم الأول لهذا الحرس الخاص من غير العرب - مقلداً فى هذا ملوك بيزنطة وبغداد - يكون قد سن سنة يجب أن تتبع فى إسبانيا المسلمة - وفى المغرب كذلك - حتى نهاية العصر الوسيط ، فمن أتوا بعده اتخذوا حرسهم الخاص من المرتزقة الأجانب الذين كان من السهل تجنيدهم منذ أن انضم إلى « الخرس » القدامى مغامرون أحراراً ، تستهويهم الرواتب العالية ويحدوهم الأمل فى الوصول إلى شغل المناصب الهامة بالقصر ، وبهذا الشكل أخذت الميليشيات ذات الأصل المسيحي - سواء اعتنقت الإسلام بعد ذلك أو لم تعتنقه - تلتحم تدريجياً بنسيج المجتمع الأندلسي واستطاع عدد كبير من أفرادها الحصول على حريته من الأمير والتمتع بحق « المولى » .

وهكذا تشكلت طبقة من الصقالبة تحدثنا من قبل عن نشاطها وتأثيرها المتنامي فى قرطبة منذ عهد الناصر (٢٦) ، أما الذين فضلوا - من بين هؤلاء المرتزقة ذوى الأصول الأجنبية - الاستمرار فى ممارسة الجندية فقد كانوا يتميزون بالوفاء لساداتهم وبشجاعتهم وإقدامهم فى الحروب ؛ ومن ثم فقد كانوا ملوك الأندلس بمثابة الدرع الواقى والقناة التى لا تلين (٢٧) .

وإلى جانب تلك الطائفة من المرتزقة الأجانب (عجم) ستظهر فى قوائم الحرب الأموية (منذ بداية القرن التاسع ، على الأقل) طائفة أخرى مؤلفة من البربر المغاربة ومن العبيد السودانيين (بأعداد أقل) . ندين بفضل التعرف على دور هؤلاء الأفارقة فى الجيش الأموي لنص هام ورد فى « المقتبس » لابن حيان - تم نشره حديثاً لأول مرة (٢٨) - ؛ هذا المؤرخ الذى استطاع - بالمعية منقطعة النظير - الامتداء إلى الأسباب الحقيقية التى أودت بحياة دولة الأمويين فى الأندلس ، فى هذا النص يروى لنا ابن حيان - بعد تناوله لسقوط سبته فى يد عبد الرحمن الثالث - كيف أنف العاهل الأندلسي من طلب تعزيزات لجيشه من أمراء شمال المغرب (الإدارسة) الذين أخضعهم لسيادته ، وكيف اقتصر - طوال عهده - على الاستعانة بعدد ضئيل من الكتائب البربرية قليلة الشأن (من الطنجيين - نسبة إلى طنجة) ومن العبيد الأفارقة

السود الذين كانوا يحتلون الدرك الأسفل من السلم العسكرى ويكفون بأحط الأعمال وأشقها ، كما يشير ابن حيان إلى أن الحكم الثانى بعد توليه السلطة وجد نفسه مضطراً - للظروف التى ستتعرض لها فيما بعد - لانتهاج سياسة مخالفة تماماً لوالده .

وجود الكتائب الطنجية (نسبة إلى طنجة التى كانت تتجمع بها قبل رحيلها إلى إسبانيا) فى الجيش الأموى شىء مؤكد ، إذ استعان بهم الأمير عبد الله (٢٩) فى صراعة الطويل والمرير مع ابن حفصون ومتمردي جنوب الأندلس ، لقد كان من الطبيعى أن توجه قرطبة ناظريها إلى بلاد البربر القربية لتستمد منها ما ينقصها من قوات أشد تمرسا على الحرب والنزال من الأندلسيين نوى الأصول العربية أو المولدين ؛ قوات تتوافر فيها صفات مماثلة للبربر المتأسبين المقيمين فى الثغور الأندلسية من حيث قوة التحمل الجسمانى والاعتiad على القتال فى الأراضى الوعرة .

وحدات الجيش :

من الصعوبة بمكان معرفة العدد الإجمالى لجنود الجيش النظامى فى نهاية عهد عبد الرحمن الثالث ، لكن يجب ألا يسوقنا هذا إلى المبالغة فى تقدير الأعداد المشاركة فى كل صائفة من الصوائف السنوية . سبق وتعرفنا على حجم مشاركة الكور فى إحدى حملات الأمير محمد الأول ، ورأينا أنها لم تزد إلا بقليل عن ٢١ ألف فارس ، وحتى لو أضفنا إليهم المرتزقة فلن يزيد الإجمالى بأى حال عن عدد يتراوح بين ٣٠٠٠ و ٣٥٠٠ مقاتل ، وبالرغم من إمكانية تضاعف هذا الرقم فى عهد المنصور إلا أن الجيش العرمرم لم يكن له وجود - سواء فى الغرب أو الشرق - إلا فى مخيلة المؤرخين ، تجدر الإشارة فى هذا المقام إلى أن الطوابير الأموية لم تكن تواجه قوات معادية تفوقها حجماً بشكل ملموس إلا فيما ندر .

وبالطبع ، لابد أن تكون عناصر الجيش - المؤلفة من « الفرسان » (وهم الغالبية) و « الرجالة » - خاضعة لنظام معين ومزودة بكوادر قيادية ؛ وعلينا أن نتسلح بالشجاعة ونعترف بأن معلوماتنا عن هذه المسألة يشوبها نقص واضح . وكما هو منطقي ، فقد كان يتولى قيادة الكتائب السورية (الجند) - أثناء احتفاظها بوضعها المتمثل فى الخدمة العسكرية الدائمة - قواد وضباط مختارون من بين صفوفها تحولوا إلى نوع من الأرستقراطية الحربية التى أثبتت - وفى كل العصور - ولاها لعاهل

قرطبة ، بالرغم من أنها لم تكف فى بعض الأحيان (خاصة فى إلبيرة وإشبيلية) عن ارتكاب حماقة التمرد .

ومن بين قواد « الجند » هؤلاء يوجد الكثيرون الذين حازوا فى القرن التاسع الفخار أمام الأعداء وهم يتولون إمرة قوات الإمارة ؛ ومع هذا فمن السهولة التى رأينا بها تلك القوات - طبقاً لبعض الروايات - تتفكك وتؤثر السلامة بالفرار من ميدان المعركة ، نخلص إلى أنها لم تكن منضبطة بالقدر الكافى ، وأنها فقدت منذ زمن ليس بالقصير - وفقاً لابن حوقل - لامواهبها العسكرية فحسب بل حسبها الوطنى ، وعلى خلاف هذا كان المرتزقة يمتازون بالتجانس وروعة التنظيم والتدريب والانصياع للأوامر نتيجة لعدم تبسُّط ضباطهم معهم .

أما بالنسبة لتقسيم قوات الجيش إلى وحدات ، فالمعلومات التى لدينا متأخرة كثيراً عن القرن العاشر ؛ ومع هذا ليس أمامنا من سبيل سوى الاعتماد عليها لخلو الساحة مما يفضلها ، ومصدر هذه المعلومات الكاتب الغرناطى ابن هذيل (الذى وضع أيام الناصريين فى نهاية العصر الوسيط مؤلفاً عن الحرب المقدسة (الجهاد) (٣٠)) ؛ وطبقاً للمؤلف المذكور فإن التقسيم كان يعتمد على رقم خمسة : فالجيش ينقسم إلى فرق ، وكل فرقة تضم خمسة آلاف رجل عليهم « أمير » يحمل « راية » ؛ وتنقسم الفرقة إلى خمس كتائب ، كل كتيبة من ألف رجل عليهم « قائد » يحمل « علماً » والكتيبة بدورها تنقسم إلى خمسة ألوية ، يضم كل لواء مائتى جندى عليهم « نقيب » يحمل « لواء » ؛ وينقسم اللواء إلى خمس سرايا ، قوام الواحدة منها أربعون رجلاً عليهم « عريف » يحمل « بنداً » ؛ وأخيراً ، تنقسم السرية إلى خمس فصائل ، فى كل فصيلة ثمانية رجال عليهم « ناظر » يحمل « عقدة » ، وكانت الأوامر تسرى من أعلى السلم القيادى إلى نهايته ، وتقع مسئولية تنفيذها على ضابط كل قوة .

ومن المحتمل أن التقسيم السابق لم يكن له وجود على أرض الواقع وأنه لم يتجاوز الجانب التنظيرى ، ومن بين أسماء القادة المذكورة آنفاً فإن الأكثر استخداماً منها لدى المؤرخين اثنان : « قائد » و « عريف » ، ويبدو أن الأول كان يقصد به « القائد الأعلى » بينما يطلق الثانى على « نائبه » ، أما بقية الرتب فإن معناها مذبذب ولا يثبت على حال ، أما بالنسبة لمسميات الرتب الأكثر رفعة (مثل « قائد الأعنة » (٣١) التى تطلق على القائد العام لسلاح الفرسان) فيبدو أنها استخدمت على فترات ، ومن

جهة أخرى ، فنحن لا نعلم شيئاً عن النظام المتبع لترقية الضباط إلى درجات أعلى ، ومن ثمَّ يتعين علينا الاكتفاء فيه بمجرد التكهن .

المتطوعون للجهاد : -

وبالإضافة إلى قواته النظامية فقد كان بإمكان عاهل قرطبة تعزيز حملاته إلى الحدود المسيحية بجموع غفيرة - إلى حد ما - من المتطوعين للجهاد ، لأن ذلك العصر لم يكن يخلو - سواء في أقاليم الأندلس وثغورها أو في أرض المغرب على الجانب الآخر من مضيق جبل طارق (٢٢) - من المسلمين الأتقياء الراغبين في الوفاء ، ولو مرة في حياتهم ، بفريضة الجهاد ، ومن ثمَّ فقد كانوا يسارعون بالانضمام إلى الطوابير المتجهة لخوض غمار الحرب المقدسة ضد الكافرين .

ولم يكن هؤلاء المتطوعة يتلقون أرزاقاً (رواتب) بل يكتفون بنصيبهم من الغنائم ، وكان يُطلق عليهم « أهل الرباط » ذلك لأن بعضهم كان يتطوع - حتى في فترات التوقف بين الحملات - للانضمام إلى حاميات الثغور لممارسة الأنشطة الحربية أو للقيام بالتوعية الدينية ، ومن هنا فقد كانوا في حالة « رباط » (٢٣) ؛ والمسمى الأخير أطلق على منظمة إسلامية أخذت ، من بداية القرن الحادي عشر ، في الانتشار السريع داخل إسبانيا ، ولنا عودة للحديث عنها فيما بعد (٢٤) ، فالجنود النظاميون أصحاب الرواتب (أرزاق) يسمون « مرتزقة » ، أما « أهل الرباط » فيعرفون بالمسمى الرسمي « متطوعة » (٢٥) .

إدخال التشكيلات البربرية في جيش الخلافة : إصلاحات المنصور العسكرية : -

لدراسة هذا الموضوع ، لا يوجد بين أيدينا حتى الآن ما هو أفضل من الفصل المنشور حديثاً لابن حيان وأشرنا إليه منذ قليل ، في هذا الفصل يتحدث ابن حيان عن السياسة الجديدة التي انتهجها الخليفة الحكم الثاني فيما يخص تجنيد القوات المرتزقة ، ففي عهده شرع بالفعل في « بربرة » قوات الخلافة ، وهي السياسة التي توسع فيها وأكملها بعد قليل الديكتاتور المنصور بن أبي عامر عندما أجرى إصلاحات شاملة في نظم الجيش التقليدية .

ونسوق فيما يلي موجزاً لما أورده المؤرخ القرطبي : بعد إرسال الحكم الثاني لقائده الأشهر « غالب » على رأس جيش جرار إلى شمال المغرب ، وانتصاره في ٩٧٤ م (٣٦٣ هـ) على الأمير الإدريسي « الحسن بن كنون » ، وانتقامه بهذا الشكل للهزيمة الماحقة التي منيت بها قواته قبل عامين في « مهران » ، أعد الخليفة استقبالاً رائعاً في قرطبة للأمير المهزوم ولأقاربه من فرع « بنى محمد » ، ولما كان هؤلاء قد وصلوا إلى العاصمة بصحبة كتيبة من المحاربين الأشاوس المواليين للأدارسة فقد قرر الخليفة التعجيل بضمهم إلى جيشه بعد تأمين أرزاقهم ومعسكراتهم (٣٦) .

كان الحكم الثاني قد ألحق بخدمته قبل ذلك كتيبة الزنوج (العبيد) التي رافقت حليف الفاطميين القديم « جعفر بن علي بن الأندلسي » وأخيه « يحيى » عندما قدما إلى قرطبة بعد انتصارهما المدوي على الزيري « ابن مناد » (٣٧) : لقد لجأ العامل الأموي إلى كافة أساليب الضغط ليشتري هؤلاء الزنوج من ابن الأندلسي وأخيه ، وبعد إتمام الصفقة ألحقهم ، مع بعض أعوان الأخوين ، بطوابير « العجم » ، في ذلك الوقت ، وبرغم اعتناقهم لفكر الخوارج الإبضيين ، دعا الخليفة أيضاً للقدوم إلى إسبانيا الكتائب التي ساعد بها « بنو بيرزال » (فرع من قبيلة بنى ضمّار) ابن الأندلسي في نصره المؤزر على الزيري « ابن مناد » (٣٨) ، وبهذا الشكل - ينهى المؤرخ حديثه - أصبح لدى الحكم الثاني في أواخر عهده القصير قوة من الفرسان البربر قوامها ٧٠٠ رجل ، لقد كانت هذه القوة - التي ظلت محتفظة بتنظيمها الداخلي وبمعداتنا التقليدية - موضع عناية العامل ومحطاً للكثير من عطايا وهباته .

وهكذا فتح الخليفة المستنصر الباب على مصراعيه أمام خلفه الحقيقي محمد بن أبي عامر الذي أدرك بمجرد إمساكه بزمام دولة الأندلس المزايا الجمة التي يمكن أن تعود عليه من وراء تجنيد قوات بربرية من شمال إفريقيا ، والتي لا تقتصر على زيادة أعداد الجيش لوفاء بطموحاته في إرسال الحملات الصيفية وغير الصيفية إلى إسبانيا المسيحية ، بل تفيد أيضاً في إلحاق الوهن ثم القضاء - في النهاية - على نفوذ الأرستقراطية الحربية العربية وفي الحد نهائياً من غطرسة صقالبة العاصمة .

كانت المغرب [العدو ، حسب تسمية ذلك الزمان] وإفريقيا بمثابة المنجم الذي لا ينضب ، ولم يتردد المنصور في استخدام كافة أساليب الترغيب لاستقطاب شباب البربر منهما ، وسرعان ما شهدت موانئ الأندلس القريبة من السواحل الإفريقية -

مثل « الجزيرة الخضراء » و « مالقة » و « ألمرية » - سيلاً متدفقاً ومتجدداً من العابرين إلى شبه الجزيرة ، كان معظم الملبيين لدعوة المنصور عبارة عن مجموعات قبلية متكاملة تحت إمرة رؤسائها ، ولا زلنا نذكر التواريخ المتوالية لمجيئهم إلى قرطبة : فى عام ٩٨٥ م (٣٧٥ هـ) وصلت قوات مغربية كانت تشكل جزءاً من جيش الإدريسى المتورد « الحسن بن كنون » ؛ وفى عام ٩٩١ م (٣٨١ هـ) وصل أتباع « ابن دوناس » من « بنى إفران » ؛ وقبل بضع سنوات من موت العامرى حضرت - تحت قيادة « زاوى بن زيرى » - مجموعة الأمراء الزيريين الصنهاجية [التى شقت عصا الطاعة حديثاً على عاهل القيروان : قرييهم « باديس بن المنصور بن بولوجين »] بصحبة أشياءهم للاتحاق بخدمة الخلافة الأموية^(٢٩) التى سيستفيدون لاحقاً من بعض أشلائها فى تأسيس ملك لهم ، عاصمته غرناطة .

و « عبد الله بن بولوجين بن باديس » (آخر ملوك غرناطة الزيرية) هو الذى تحدث فى مذكراته^(٤٠) ، التى دونها فى منفاه بالمغرب بعد خلعها فى نهاية القرن الحادى عشر على يد المرابطى يوسف بن تاشفين ، عن أسباب جلب ابن أبى عامر للمجندين من شمال إفريقيا وعن إصلاحاته العسكرية التى أشار إليها المؤرخون باقتضاب . يشير كاتب المذكرات إلى أن المنصور كان يقلقه هيكل جيش الخلافة النظامى ، ذلك لأن تجانسه واقتصار كل وحدة من وحداته على عنصر واحد كان يعنى إمكانية التمرد عليه وخلعه من منصبه ، وهذا الخوف هو الذى دفعه لإحداث تغيير جذرى فى تركيبة الجيش ؛ وهكذا ، فبدلاً من أن يترك التشكيلات العسكرية على ما كانت عليه (أى مؤلفة من جنود وضباط من نفس الجنس أو العشيرة) قرر المزج بين العناصر والأجناس المختلفة داخل كل وحدة حتى لا يقوى نفوذ أحد اعتماداً على صلات القرابة والموالة ، لكن ما هو المنهاج الذى ارتكزت عليه هذه الثورة الإصلاحية ؟ كنا نتمنى أن يكلف المؤرخون أنفسهم عناء التعمق فيها بدلاً من تقديمهم للإشارات المقتضبة^(٤١) .

وبعد ذلك مباشرة ، يسوق لنا الملك الزيرى (عبد الله) فى مذكراته معلومات هامة عن تجنيد المنصور لأعداد ضخمة من البربر ، وعن حملات الدعاية المكثفة التى كلف بها أعوانه لاستمالة المتطوعين للجهاد من شمال إفريقيا ، وطبقاً للمؤلف ، فإن رعايا الأندلس طلبوا من الديكتاتور العامرى إعفائهم من الخدمة العسكرية للتفرغ لزراعة الأرض مقابل تحملهم لنفقات المرتزقة الذين سيحلون محلهم^(٤٢) ، وبهذا المعنى أبرم بالفعل اتفاق بين الطرفين .

وبهذا الإحلال التدريجي لكتل المرتزقة المسلمة القادمة من شمال إفريقيا محل المجندين الوطنيين يكون المنصور قد دقّ المسمار الأخير في نعش الخلافة الأموية ، لا أحد ينكر أنه استطاع بهذه السياسة إلحاق الوهن بالروابط القبلية داخل الطبقة الحربية العربية الأندلسية ، وأنه أجهز على ما تبقى من نظام « الجند » القديم ؛ لكن العواقب الوخيمة لـ « بربرة » الجيش سرعان ما ظهرت بمجرد اختفائه هو وخلفه « المظفر » من على مسرح الأحداث ، فقد أخذت تتوافد على أسوار قرطبة سيول المهاجرين المغاربة والأفارقة ، مما استوجب توسيع المدينة وإنشاء أحياء جديدة ، وعمل توسعة أخرى للمسجد الجامع من خلال إضافة أروقة جانبية لأن التوسعة التي أحدثها الحكم الثاني قبل سنوات لم تعد كافية ؛ كانت تنضم كل عام إلى المرتزقة - أصحاب الرواتب والمجندين المؤقتين - كتائب من المجاهدين الأفارقة ، وإن كنا نظن أنه لم يكن هناك ما يمنع من ركوب هؤلاء المتطوعة للبحر ثانية عائدين إلى بلادهم بعد انتهاء الحملات التي شاركوا فيها .

٣ - الحملات الحربية

إعداد وتجهيز الحملات :

قبل تناول مسألة تجهيز الحملات والتعرض لمعدات وأسلحة ومهمات الجيش تجب الإشارة إلى أن الوثائق المحدودة التي كنا نعتمد عليها في هذا الصدد قد اتسعت بفضل عدة صفحات تركها لنا المؤرخ ابن حيان عن عهد المنصور^(٤٣) ، والمعلومات القيمة التي تشتمل عليها هذه الصفحات تجعلنا ننعى بمزيد من الأسى فقدان المدونة التي كتبها نفس المؤرخ (عام ١٠٤٤ م ، تقريباً) عن العامريين ، في تلك الصفحات يعتمد ابن حيان على ثلاثة من الرواة الثقات المعاصرين للمنصور ، وقد ذكر أسماءهم جميعاً ومن بينهم أبو عبد الله بن سعيد التيجاني (أو البجاني) الذي لا نعرف عنه شيئاً ، ونوجه عناية القارئ إلى أننا سنعتمد فيما يلي من صفحات على ما جاء في بيانات ابن حيان الجديدة .

عادة ما كان يتم سنوياً وفي فصل الصيف إعداد الحملات الحربية (الغزوات)^(٤٤) الموجهة إلى الأراضي المسيحية (« دار الحرب » في جميع الأوقات باستثناء فترات « الهدنة » النادرة) ، ولهذا فقد عرفت في جميع أنحاء العالم العربي باسم « الصوائف » (مفردتها : « صائفة » التي انتقلت إلى اللغة الإسبانية منذ العصر الوسيط مع بعض التحوير : *aceifa*) ، وفي حالات عارضة كان من الممكن - تلبية لظروف سياسية معينة أو لتحقيق أهداف محدودة - أن تحدث الغزوة في الفصول الباردة ، وفي تلك الحالات كان يطلق عليها « شتوية »^(٤٥) .

كان الإعداد للصائفة يبدأ في شهر يونيو ، ولذا فقد كان يزيد - اعتباراً من هذا التاريخ - حجم المخصصات المربوطة لهذه الغاية في الخزانة العامة ، وكما رأينا من قبل ، فقد كانت المخصصات الشهرية لميزانية حرب الصيف تصل في عهد المنصور إلى مليون دينار ؛ وهذا الرقم الضخم - المجموع من عوائد الضرائب المباشرة - كان يضاف إلى الميزانية الاعتيادية المخصصة للإنفاق على القوات النظامية وللوفاء برواتبها والعلوات الاستثنائية (الإنعامات) .

كان الأمير هو الذى يتخذ - بالطبع - قرار إعداد الحملة بعد التشاور مع قواده ورسم خطة العمليات الحربية التى تظل طى الكتمان حتى آخر لحظة ، لكن القرار لم يكن يُتخذ إلا بعد وصول التقارير المواتية إلى قرطبة عن حالة المحاصيل فى الأقاليم التى سيجتازها الجيش ^(٤٦) ، وبما أن الجيش كان يعتمد فى طريقه على ما تجود به الأراضى التى سيمر بها ، فقد كان يتم إلغاء الحملات فى سنوات الجفاف الشديد كما حدث فى صيف ٩١٥ م (٣٠٣ هـ) فى بداية عهد عبد الرحمن الثالث ^(٤٧) .

لكن هذا الاعتبار لم تعد له أهمية فى نهاية القرن العاشر عندما لم يتمكن من إفساد مشاريع ابن أبى عامر الحربية لأن الأخير لم يكف - قبل وبعد الجفاف الذى ألهب أسبانيا بسياطه عام ٩٨٨ م (٣٧٨ هـ) والأعوام التالية - عن بناء صوامع الغلال الضخمة فى قرطبة والأماكن الرئيسية على الحدود ^(٤٨) تحسباً لمثل هذه الظروف .

لو أخذنا بالتعريف الدقيق الذى وضعه ابن حيان ^(٤٩) "المُرْتَبَق" ، فإن الفارس (مهما كانت درجته أو طبقته الاجتماعية) كانت تُفرض له - علاوة على راتبه الشهري - عدة حقوق من بداية تعبئة الجيش للحرب ، وتتمثل فيما يلى : ركوبة مع ما تتطلبه من "حلية" : السلاح ؛ السكن ؛ مصاريف الطعام (نفقة) والعلف اللازم لركوبته (علوفة) ، والوفاء بهذه المتطلبات - نقداً أو عيناً - كان يقع على عاتق ما يمكن تسميته بإدارة التموين والإمدادات التى يرأسها موظف يطلق عليه " صاحب العَرَض " ، وأحياناً " عارض الجيش " ^(٥٠) ، ونظير هذا الموظف (الذى كان همزة الوصل بين الجيش والإدارة المالية للخلافة ، ويشرف كذلك على صرف رواتب المقاتلين الذين شملتهم التعبئة الحربية) فى جيوش أسبانيا المسيحية يعرف باسم (Maestre nacional) ^(٥١) .

ولتحديد أعمق للمفاهيم ، نشير إلى أن كلمة « عَرَض » و « اعتراض » - علاوة على المرادف "تمييز" الذى كان يستخدم أحياناً ^(٥٢) - كانت جميعها تعنى "الاستعراض السورى للقوات العسكرية" ^(٥٣) ، أى استعراض الرجال المسجلين بـ "ديوان الجيش" من خلال تجمع ^(٥٤) يتم بميدان السلاح ، ولم يكن الغرض منه يقتصر على التأكد من وجود الجندي المسجل بكشف الرواتب ، بل الاطمئنان كذلك على معداته وأسلحته ، ولم يكن هذا الإجراء حكراً على إسبانيا الإسلامية ، بل كان

متبعاً - وفوق هذا ضرورياً - فى جيوش العالم الإسلامى التى كانت تتألف فى العصر الوسيط من أخلاط بشرية متعددة (٥٥) .

كان "صاحب العرض" ومساعدوه يقومون بأعمال مكثفة خلال فترة الإعداد للصائفة ، خاصة إذا وضعنا فى الاعتبار احتمال تكليفهم أيضاً بالتفتيش على ما تنتجه المصانع الرسمية والورش الخاصة من أسلحة ومعدات حربية (٥٦) .

كان إعداد الحملة يستغرق - حسب ظروف كل منها - ما بين عشرين وأربعين يوماً (شهر تقريباً) ، وبمجرد أن يتخذ القرار يؤمر حكام (ولاية) الكُور باستنفار القوات المكلفة بالخدمة العسكرية وإرسالها إلى قرطبة ، حيث تتجمع أمام أسوارها ، وفى ذات الوقت كان على زعماء الثغور اتخاذ التدابير اللازمة للانضمام بقواتهم إلى طوابير جيش الخلافة عند اقترابها من أرض العدو .

كان العاهل يتولى بنفسه - حتى ولو لم يكن معنياً بقيادة الحملة المزمعة - الإشراف على مراحل الإعداد والتجهيز ، ولهذا الغرض كان يترك مؤقتاً قصره وينتقل مع حرسه الخاص للإقامة بالقرب من مركز تجميع القوات ، فى المساحة الشاسعة الواقعة شمال قرطبة والمعروفة بـ « فحس السرادق » ، وسبب التسمية يرجع لضرب المعسكر الملكى (السرادق) فيها (٥٧) ، وقد كان يتألف من مجموعة من الخيام (مظلات أو قباب) ، وانتقال العاهل من قصره إلى المعسكر كان - على الأقل فى زمن الناصر - مناسبة احتفالية حيث تتظاهر جموع الشعب معلنة ولائها ؛ ووسط هدير هتافاتهم كان يجتاز العاصمة فى موكبه الفاخر وهو يمتطى صهوة جواده ، وبهذه المناسبة كان يجرى أيضاً عرض عسكري على أعلى مستوى (بروز أو تبريز) لم يغفل المؤرخون - عادة - وصفه ، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بحملة هامة إلى أراضي الأعداء (٥٨) .

كما كان مسجد قرطبة الجامع يشهد فى يوم الجمعة السابق لرحيل القوات احتفالاً آخر يسمى « عَقْد الألوية » فى هذا الاحتفال كانت توزع - فى مهابة - الألوية المختلفة على قادة الجيش وتُعقد فى أسنة رماحهم ، وعند العودة من الحرب كانت تُجمع تلك الرايات لتعلق ثانية على أحد حوائط المسجد (٥٩) ، إنه تقليد شرقى ، ظل حياً لفترة طويلة فى الغرب ، إذ أثبتت الشواهد احتفالاً مماثلاً جرت وقائعه عام ١١٩٠ م (٥٨٦ هـ) فى عهد الموحدى : يعقوب المنصور (٦٠) .

معدات الجيش وأسلحته : -

رأينا فيما سبق كيف كان الفرسان يشكلون ثلاثة أخماس جيش الخلافة بينما يشكل المشاة خمسيه الباقيين ، أما فى نهاية القرن العاشر وبعد انضمام كتائب شمال إفريقيا - المحمولة فى معظمها - فقد أصبح الجيش يتألف - تقريباً - من الفرسان فقط ، وتمّ ادخار المشاة للاستفادة منهم فى فرض الحصار أو للإحلال - بالتناوب - محل حاميات القلاع الواقعة فى مناطق الحماية ، وكانت المصادرة (٦١) إحدى الوسائل المتبعة لتوفير الجياد اللازمة لمن لا يملكون خيولا خاصة بهم ، ولتأمين الخيول للجيش عمل المنصور على إنشاء مزارع لتربيتها فى الجزر الكائنة بنهر الوادى الكبير أسفل إشبيلية والتي كانت تعرف أيامها بـ « المدائن » (المستنقعات الشهيرة فى الوادى الكبير) . وطبقاً لابن حيان فقد وصل عدد الأفراس الحوامل بتلك المدائن إلى ثلاثمائة ، وعدد الفحول إلى مائة (٦٢) ، ولتغطية بقية احتياجات الجيش كان يتم على فترات شراء خيول من الساحل الأطلسى للمغرب ، وشراء البغال المُسرَّجة وبغال الحمل والجرّ من المناطق الجبلية فى المغرب وفى جنوب الأندلس .

يبدو أن توفير سروج الخيل وأطقمها كان من اختصاص « العارض » ، فى نهاية القرن العاشر كان يوجد نوعان من السروج : الأندلسى والإفريقى ، والنوع الأخير يقل كثيراً فى الارتفاع عن الأول (٦٣) ، بعد ذلك بأربعة قرون قام الغرناطى « ابن هذيل » بوصف السروج فى زمنه وصفاً تفصيلياً (٦٤) ، ومن المحتمل أنها لم تتغير كثيراً عما كانت عليه فى نهاية عصر الخلافة ، لكن الشيء المؤكد هو قيام فرسان شمال إفريقيا بإدخال تحسينات عديدة على فن ركوب الخيل ، وهو الفن - طبقاً لإشارة الجغرافى ابن حوقل الخبيثة - الذى لم يكن للأندلسيين فيه باع طويل .

كان يساعد الفارس فى المعركة « تابع » (٦٥) يقود دابة تحمل متاعاً مكوناً من عدد من القذائف الاحتياطية والأسلحة الدفاعية ، علاوة على خيمة لكليهما .

أما الأسلحة الهجومية التى لم يلحقها تغيير يذكر فى عصر الخلافة والتى تماثل نظائرها فى جيوش إسبانيا المسيحية (٦٦) فكانت كما يلى : الرمح والفأس الطويلة ذات الحَدين للفارس ؛ والحربة والدبوس للرَّاجل ، والحسام والخنجر لكل من الفارس والرَّاجل ، وبعض المشاة كانوا مزودين بالمزاريق والمقاليع (٦٧) . أما القوس (٦٨) فكان

يستخدمه الفارس والراجل سواء بسواء ، وكان منه « العربى » و « التركى » و « الإفرنجى » ، ولابد أن القوس الإفرنجى (الذى انتشر استخدامه خلال عصر ابن هذيل) كان يشبه قوس الفولاذ ، ومن المحتمل أنه لم يكن فى نهاية القرن العاشر (٦٩) سوى سلاح بدائى غير منتشر على نطاق واسع .

وبالنسبة للأسلحة الدفاعية لدينا مسميات عديدة ماثلة فى ثنايا الأدب الأندلسى ، شعراً كان أم نثراً (٧٠) ؛ ويبدو أن الدروع الحديدية كانت حكرًا على أقلية من المحاربين ، وأن السترات الواقية كانت تُصنع - كما هو الحال على الجانب الآخر من الحدود - من جلد سميك مدعوم فى بعض الأجزاء بشرائح معدنية .

وكانت الدروع فضفاضة لتغطى ساقى الفارس على جواده (سابعة) ؛ كما كانت توجد دروع أخرى مصنوعة من الأسلاك الرقيقة على مقاس الجسد مثل الجلاب ، وكانت تستخدم أيضاً المشدّات (بَدَن) وصدور الدروع (جوسن) ، ولكل نوع من الأنواع السابقة توجد عدة مسميات تكشف عن أصلها الشرقى ، ولذا يمكن القول بأنها كانت منسوخة من النماذج العباسية ، ولحماية الرأس فى القرن العاشر توجد : « البيضة » ، و « الخوذة » ، و « المغفر » .

وإلى ما تقدم من الأسلحة الدفاعية يمكن إضافة « الصاعد » و « الساق » .

وبالنسبة للترس (٧١) - السلاح الدفاعى الأكثر استخداماً فى الجيش الأندلسى - يجب التمييز بين ما يحمله الفارس والمزود به الراجل : فما يحمله الفارس (درقة) خفيف صغير الحجم ، مصنوع من الجلد السميك المشدود على هيكل خشبى ؛ أما ما يحمله الراجل (ترس) فهو مستدير الشكل ، وحجمه ووزنه أكبر من الدقة ، ومصنوع من الخشب المكسو أحياناً بصفائح أو نتوءات حديدية تفيد فى انحراف ضربات الخصم ، وترس الراجل أنواع : فمنه « السلطانى » و « العامرى » ، و « الحفصونى » ، والدرقات الأكثر طلباً كانت المصنوعة من جلد « اللامت » (Lamt) ، والمسمى لإحدى الطبء الصحراوية التى اشتهر جلدها المدبوغ بمقاومته للرمح والسيوف ومعظم أنواع السهام ، وبالتأكيد كانت تجلب فى ذلك العصر من إفريقيا .

وبالطبع كنا نود تتويج وصفنا للأسلحة الهجومية والدفاعية (٧٢) بوثائق مصورة لكننا للأسف نفتقدها ، ومع هذا يمكننا لفت النظر إلى الأشكال المنحوتة على أحد جانبي قوس من العاج - تم تصنيعه عام ١٠٠٥ م (٣٩٥ هـ) للعامري عبد الملك المظفر ، وتحفظ به حالياً خزائن كاتدرائية بنبلوثة (٧٣) - وهى تجسد مشهداً لنزال بين فارسين مسلحين بالدرقات والشيش العريض (الذى يمكن استخدامه فى الحرب أو الصيد) .

ولحفظ كل هذه الأسلحة كان يوجد فى قرطبة « خزانة السلاح » الهامة ، وقد أشارت بعض نصوص ذلك العصر إلى تلك الخزانة ، لكن أبلغها على الإطلاق نص ابن حيان (٧٤) الذى يعلن فيه - من بين أشياء أخرى ، غاية فى الأهمية - أن مصنعى التروس كانوا مكلفين بتسليم ١٣٠٠٠ ترس فى السنة ؛ بينما تنتج تبلى حصص مصنعى الأقواس ١٢٠٠٠ قوس (ما بين عربية وتركىة) تنتج نصفها ورشة رجل قرطبى من أصول شرقية يدعى « أبو العباس البغدادى » ، بينما النصف الآخر ورشة « طلحة الصقلبى » الموجودة بمدينة الزهراء . أما الإنتاج الشهير للسهم فكان لا يقل بأى حال عن ٢٠٠٠ سهم ، وطبقاً لنفس المصدر فقد كان يوجد بمقر العامري فى الزهراء مخزن لحلل التشريفية التى كانت توزع على الأمراء فى احتفالات المبارزة أو عند مصاحبتهم للمواكب الرسمية ، وكانت خيام ومضارب الجيش تصنع بمعدل ٣٠٠٠ خيمة فى السنة .

طوابير الجيش ومهامه العسكرية : -

من التفاصيل العامة التى يخوض فيها ابن حيان (٧٥) ما يتعلق بطوابير الجيش ومهامه العسكرية زمن اقتياد المنصور لحملاته الشهيرة ضد إسبانيا المسيحية .

كان تعداد الجيش يختلف تبعاً للغاية المرصودة والعدد الذى يمكن أن يجمعه الخصوم ، ففى إحدى حملات المنصور - التى تجهل تاريخها - بلغت أعداد الجيش ٤٦٠٠٠ فارس و ٢٦٠٠٠ راجل ، بالإضافة إلى ٨٠٠ فارس لحراسة المهمات و ١٣ طبّالاً ، وفى حملة ١٠٠٢ م (٣٩٢ هـ) التى لقي فيها حتفه عند عودته ، لم يتمكن المنصور من توفير مطايا لجميع الفرسان فحسب ، بل إنه اصطحب ٧٠٠ جواداً احتياطياً ، علاوة على ٥٠ جواداً أصيلاً كانت لا ستخدمه الشخصى ؛ وفوق كل هذا

كان قد خَلَف وراءه فى قرطبة أَلَف جِواد جُلِبَت من شمال إفريقيا ، وفى الطريق ما بين قرطبة ومدينة سالم اشترى خيلا ليصل جملة ما لديه من احتياطى إلى أَلَف جِواد .

وبالإضافة إلى مهمات الجيش العسكرية ، كانت معه لخدمته الشخصية ٢٥٠ دابة للحمل والجرّ و ٣٩٠٠ جملا لنقل المعدات الثقيلة ، وكانت هذه الجمال ترعى وقت السلم فى سهولة كورة مرسية الشاسعة (٧٦) .

كانت هناك ٢٠٠٠ دابة مخصصة لنقل الأمتعة الشخصية لحاجب القصر وضباطه الصقالبة (غلمانه) ، ومائة بغل لحمل الطواحين المتنقلة التى يُطحن فيها القمح اللازم لإعداد الخبز للجنود .

ولم تكن أمتعة المنصور تقتصر على خيام معسكره (سرادقه) بل كانت تضم أيضاً معدات المطبخ وأدوات الزينة وورشة إصلاح وأغلال لتقييد الجنود المحبوسين فى سجن المعسكر ، وتعتبر من المهمات كذلك الصناديق المنيعّة التى تحتوى على ميزانية الحرب ، وهوادج النساء المصاحبات للقوات (النساء الغوازي) (٧٧) ، وبما أنه كانت تُنصب فى كل مرحلة من مراحل الطريق ، بداخل معسكر القائد العام ، ١٠٠ خيمة لفتيان حاشيته و ٢٠ خيمة كبيرة وفخمة لإيواء ضيوفه والسفارات القادمة إليه (٧٨) ، فمن البديهي اشتغال المهمات على الأمتعة اللازمة لفرش تلك الخيام من حَشِيَّات وأغطية ووسائد ويُسَط وخلافه ، أما معدات الحرب فقد كانت كثيرة : الصناديق الملوّنة بالسهام والدروع والرُّد ، والزيت ، والنفط ، والقار والنُّسالة ، بالإضافة إلى ماكينات الحرب والمقاليع اللازمة لفرض الحصار على القلاع الحصينة .

ولرسم صورة تقريبية فى المُخَيِّلة لانتشار قافلة بهذا الحجم على طول بضعة كيلو مترات ، وهى تثير سحابات الغبار أو تغوص فى الأوحال ، علينا أن نستحضر صورة فيالق جنود الريف المغاربة فى القرن التاسع عشر .

ومن نواحي الغرابة إغفال جميع النصوص التاريخية المُستخدَمة لذكر العرب (عَجَلَة) ، علماً بأنها كانت خلال القرن العاشر وسيلة نقل شائعة فى إسبانيا المسيحية (٧٩) وبين مستعربى قرطبة أيضاً .

عندما يتحرك الجيش كان يأخذ التشكيل التالى : فى الأمام المقدمة ، تتبعها كتل القوات المختلفة التى تحميها من الأجنحة كتائب خفيفة من الفرسان ، وفى المؤخرة (الساقة) تاتى المهمات المحمولة بصحبة حراسها ، وبمجرد اقتراب الجيش من أراضى العدو يقوم جهاز الاستخبارات (الذى يملك شبكة واسعة من الجواسيس) بتزويد القائد الأعلى بالمعلومات ، بينما يقوم « الأدلاء » (وهم بوجه عام فارون من معسكر الأعداء ، وعلى دراية تامة بطبوغرافية المنطقة المستهدفة) فى القيادة العامة بتحديد المراحل الواجب اتباعها ثم يرافقون طليعة الجيش فى تقدمها ، بعد أيام من السير يتجه الجيش إلى المركز المتقدم للقيادة العامة (وكانت تمثله فى أغلب الأحيان مدينة سالم) ليرابط فيه بعض الوقت حتى يكتمل انضمام قوات الدعم الوافدة من الثغور . رأينا فيما سبق (فى المجلد الرابع) كيف قام المنصور - فى حملته الشهيرة على « شنت ياقب » عام ٩٩٧ م (٢٨٧ هـ) - باجتياز أقصر الطرق (الطريق المار بـ « قورية » و « بازو ») ، وكيف قام بنقل معظم المهمات العسكرية عن طريق البحر (من « قصر أبى دانس » أو « قصر الفتح » (Alcacer do Sal) إلى « بورتو » (Oporto)) .

فنون القتال وفرض الحصار :-

لا توجد لدينا سوى إشارات متفرقة فى المدونات التاريخية عن « التكتيكات » التى كانت تستخدمها القوات الأموية فى المعارك ، أعلينا أن نتذكر مرة أخرى مقولة ابن حوقل - على ما فيها من تحامل بين - من أن مسلمى إسبانيا كانوا يعتمدون على الخديعة للظفر بأعدائهم أكثر من اعتمادهم على التكتيك والشجاعة والإقدام ؟ لا شك أن الطرق التقليدية للحرب فى السهول ، والتى عرفها العرب فى صدر الإسلام ، لم تعد ذات جدوى كبيرة فى الأراضى الوعرة مثل أراضى شبه جزيرة إيبيريا ، وبالرغم من ذلك ، ففى عدد من المعارك التى دارت رحاها على الأراضى المنبسطة احتفظ التكتيك القديم المتمثل فى « الكر والفر » بكامل فاعليته ، بدليل أن المسيحيين اقتبسوه واتخذوا له مسمى مماثلاً (٨٠) ، ومع هذا لا نعتقد أن استراتيجيا داهية فى قمة المنصور سيحجم فى نهاية القرن العاشر عن استخدام خطط أكثر تعقيداً تتضمن حركات الالتفاف المفاجيء والغارات الخاطفة المدوية على مؤخرة جيش الأعداء (٨١) .

بالنسبة للغرب الإسلامي فإن الوصف الوحيد ، الدقيق والمتكامل ، للحظة التقاء الجمعين فى المعركة قد انفرد به كاتب من أصل إسباني يدعى « أبو بكر الطرطوشى » فى كتابه « سراج الملوك » ؛ وبالرغم من أن الكاتب كان يعيش فى نهاية القرن الحادى عشر إلا أن وصفه يمكن أن ينطبق على ما كان يجرى قبل قرن من الزمان، يقول (٨٢) :
 وها هو الترتيب الأشد فعالية فى اشتباكنا مع العدو والذى تتبعه قواتنا فى المعركة ؛ فى المقدمة ينتظم المشاة فى صفوف ومعهم التروس والحرب والنبال المصنوعة من الصلب الرقيق القادر على الاختراق ، كان المشاة يرتكزون بالركبة اليسرى على الأرض ويمسكون بشمائلهم التروس وبأيامانهم الحرب المنحرفة على أكتافهم ، جاعلين زجّ الرمح ملامساً للأرض وسنّه فى اتجاه العدو ، وخلف المشاة يقف الرماة المهرة الذين يستطيعون بسهامهم اختراق الدروع المنيعه ، وخلف الرماة تصطف فرق الخيالة . عندما يبدأ المسيحيون الهجوم لا يتحرك المشاة المعتمدون بركبتهم على الأرض ، وبمجرد اقتراب الأعداء يسدد عليهم الرماة دققة من السهام ، بينما يطلق عليهم المشاة نبالهم ويعترضونهم بعد ذلك بأسنة الرماح ، بعد ذلك فقط تنفتح صفوف المشاة والرماة بالتحرك انحرافاً جهة اليمين وجهة اليسار ، ومن خلال هذه الفرجة الخالية يندفع الفرسان نحو الخصم ويجبرونه على الفرار بعون الله .

أما العادة القديمة المتمثلة فى خروج الأبطال (المبارزين) من كلا الفريقين وإعلانهم التحدى لخوض غمار المعارك الفردية ، فيبدو أنها ظلت موجودة فى نهاية الخلافة الأموية (٨٣) ؛ لكن مصير المعارك كانت تحدده فى الغالب الصدمات الدموية والقتال المتلاحم ، كان الدور الرئيسى للقائد العام يكمن فى متابعة سير القتال من فوق مرتفع يسمح له برؤية ميدان المعركة بالكامل ، وفى إرسال التعزيزات بسرعة للقوات التى لاتحضر تقدماً أو التى تتخلى عن مواقعها أمام كثرة الخصوم ، وبما أن القائد كان ينشر « المظلة » الدالة على رتبته (٨٤) فإنه كان هدفاً للأعداء ، لكن حرسه الخاص كان يتولى إجهاض أية محاولة للهجوم عليه أو تطويقه .

ومن جهة أخرى ، كانت تُتخذ التدابير اللازمة لتأمين المكان الذى توجد به مهمات الجيش لأن وصول الأعداء إليه يؤدى إلى كارثة ، وغالبية الأسرى فى تلك المعارك لم يكونوا من الجنود بل من الفلاحين وذويهم الذين لم يتمكنوا من الفرار فى الوقت المناسب وداهمت القوات المعادية .

كان الهدف من إرسال الصوائف إلى الحدود يكمن عادة فيما يلي : تحرير قلعة مسلمة من حصار المسيحيين ؛ استرجاع أخرى تمكن منها الأعداء ؛ فرض الحصار على معقل حصين بمملكة ليون أو قشتالة أو بلاد البشكنس.

كانت القوات المحاصرة تعمل أولاً على إزالة الأشجار والأحراج من المناطق المجاورة ، ثم تتوغل كتائب منها إلى المواقع الاستراتيجية لقطع الإمدادات عن الحامية المحاصرة ، وبعد إحكام قبضتها على المكان تنتظر حتى ينال الجوع والعطش من أفرادها ، وفي نفس الوقت تقوم فرق خاصة (نقابة) مزودة بالمعاول بإحداث فجوة في السور ، ويتمكنون من هدم الجزء العلوي منه بعد إضرار النيران في الأخشاب التي استخدموها كدعامات في تنقيباتهم ، ولدك أبواب القلعة كانوا يستخدمون « كباشاً » قوية (مفردها : كَبْش *) . كما كان يقوم رماة متخصصون بإلقاء القذائف الملتهبة داخل حرم القلعة ، وفي بعض الأحيان كانوا يستخدمون المنجنيق أو « الرعدة » (٨٥) ، وعندما تظهر بوادر التعب والخور على أفراد الحامية يتم الاقتحام باستخدام السلام ، عادة ما كانت الحاميات المسيحية تقاوم شبراً شبراً دون أن تفتر عزائمها ؛ لكنها في حالة الاستسلام كانت تضمن البقاء على قيد الحياة مع التحول إلى الأسر ومعها النساء والأطفال الذين لم يتمكنوا من الهرب ، ومن قبيل الإنصاف ، تجدر الإشارة هنا إلى أن الحاميات المسلمة كانت تلقى - وفي أفضل الأحوال - المصير نفسه عند استيلاء المسيحيين على قلاعهم (٨٦) .

المحصلة النهائية للحملات العسكرية : -

واتتنا الفرصة من قبل كي نلقى الضوء على تواضع نتائج عمليات قرطبة العسكرية ضد إسبانيا المسيحية (٨٧) ، وبالفعل ، لم تتمكن الصوائف الصاعقة - ولو مؤقتاً - من ضم أراض جديدة أو زحزحة الحدود لأبعد مما كانت عليه في بداية القرن العاشر ، لو أخذنا في الاعتبار ضخامة الوسائل المستخدمة ، والنفقات الباهظة المطلوبة سنوياً لإعالة وإرسال طوابير الحرب الصيفية ، علاوة على التجانس العسكري لجيوش الخلافة (والذي أقرت به الأعداء) لا عترتنا الدهشة من جراء إحجام الأمويين

(*) الكَبْش : آلة حربية قديمة كانت تستخدم في دك أبواب القلاع (المترجم) .

والعامريين عن التفكير فى توسيع تخوم ذلك الركن من « دار الإسلام » نحو الشمال (إلى جبال البرانس أو إلى ما هو أبعد منها) وقد كانوا المتحمّلين مادياً لعبء الدفاع عنه والمسئولين أخلاقياً عن وحدة وسلامة أراضيه أمام رعاياهم وأمام عموم المجتمع الإسلامى .

لاحظنا كذلك - بالنسبة للمنصور ، على الأقل - أن النشاط العسكرى المستمر للجيش الأندلسى ضد المسيحية (والذى كان يديره شخصياً بعزم وإصرار منقطعى النظر) كان مبعثه الأساسى الوفاء بواجب الجهاد (أى الحرب المقدسة ضد الكافرين) ، فلم يكن يعنيه اقتطاع أراض ومدن من العدو بقدر ما يعنيه إذلاله بهزيمته فى ساحة القتال ، ولا يوجد إذلال أنكى من إجباره على تقديم فروض الطاعة والإذعان للمنتصر المسلم والاعتراف بسلطته . لا شك أن التداخل بين شعوب الإسبانيّتين فى القرن العاشر (وقد كان أعمق بكثير مما توحى به المدونات التاريخية المتحيزة والقصيرة النظر فى كلا الجانبين) كان يجعل - على خلاف ما يتبادر إلى الذهن من الوهلة الأولى - من تقديم التابع (دافع الجزية) لفروض الطاعة أمراً عادياً ومألوفاً ، لقد كانت الحرب المقدسة - فى كلا الجانبين - كفيلة باستقطاب الكتل البشرية الطامحة فى التضحية من أجل قيمة عليا تسمو بكثير فوق متاع الدنيا البائس .

ومع أن دافع الوفاء بواجب الجهاد كان يستقطب آلاف المتطوعة الأندلسيين والأفارقة إلى صفوف المنصور ، إلا أن هذه النزعة الصوفية فى المخاطرة بالحياة ، كان يخالطها عادة هدف المنفعة المادية : أى الحصول على نصيب من الغنيمة ، وهناك فقرة فى بنود العقد مع « البديل » (المُستأجر للإحلال فى الحملة محل المتعاقد) تدعو للتأمل : يتعهد البديل « بالمساهمة » - قدر المستطاع - فى تحريق بساتين أعداء الله وتخريب ديارهم وتدمير محاصيلهم ، إلا إذا كانت تلك المحاصيل مما يمكن للمسلمين حمله وأمر القائد العام بذلك ^(٨٨) . نخلص من هذا إلى أن الغنائم (بما تشتمل عليه من محاصيل وقطعان وأسرى من الجنسين ... إلخ) إذا لم تكن هى الباعث الرئيسى للحملة ، فقد كانت - على الأقل - مما يمكن للمشاركة المطالبة بنصيبه فيها .

فى عهد المنصور كان سوق العبيد بقرطبة يفضّ - بصفة دورية - بالأسيرات المسيحيات (اللاتى يشتد عليهن الطلب ، بالإضافة إلى الزنجيات) وبالرجال من كل

صنف : قساوسة ، مدنيون ومزارعون بسطاء ، ولما توفى العامرى الأول كان أهالى قرطبة يتحسرون قائلين : « مات الذى كان يمدنا بالعبيد » (٨٩) .

كانت الغنيمة توزع طبقاً للشريعة الإسلامية ، بعد خصم حصة الدولة يقسم الباقي على المقاتلين (كلّ على حسب درجته ونظامه العسكرى وطبقته الاجتماعية) الذين كانوا يسارعون ببيع أنصبتهم فى مزاد عام لتحويلها إلى نقود سائلة ، ومن جهة أخرى ، فقد كانت الجزية السنوية المفروضة - من بداية عهد الحكم الثانى - على الأمراء المسيحيين تشكل رافداً من الروافد الهامة لخزانة الدولة ؛ لكن الحفاظ على هذا المورد الهام كان عالى التكلفة أيضا ، ذلك لأن تأخير الجزية عن مواعدها المحدد كان سبباً كافياً لاتخاذ القرار بإرسال الحملات التأديبية .

كان أسرى الحرب - من المسلمين أو المسيحيين - هدفاً فى معظم الأحيان لمفاوضات التبادل أو الفدية ، لدينا - على الأقل - علم بوجود منظمة لمحررى الأسرى (فكّاكين) فى قرطبة منذ القرن العاشر - وربما قبله (٩٠) - كانت تقدم خدماتها للعائلات التى لها أسير أو أكثر فى أراضى الكفار ، كان « الفكّاك » يتعهد - من خلال وثيقة معتمدة تنص على مبلغ معين - بالرحيل إلى أرض الأعداء للتفاوض بشأن تحرير الأسير ودفع فديته .

كانت الوثيقة تتضمن أيضاً بنوداً إضافية تتعلق بتوقعات هرب الأسير المعنى أو موته (٩١) ، وطبقاً لما أورده ابن الفرضى ، فقد استرد القاضى « ابن الإمام » (قاضى « تطيلة » فى الفترة من ٩٣٥ إلى ٩٤٨ م ، ٣٢٥ - ٣٣٧ هـ) وابنه وأخوه حرياتهم مقابل فدية قدرها خمسة عشر ألف دينار أخذها المسيحيون (٩٢) .

٤ - الأسطول والدفاع عن السواحل

الأسطول وموانئ الحرب :

عند الحديث عن التاريخ السياسى لإسبانيا الأموية ، تعرفنا على اهتمام ملوك قرطبة المبكر بامتلاك أسطول حربي ، وإنشاء ترسانات على ساحل المتوسط ، وعلى الساحل الأطلسي أيضاً ، وإن كان بدرجة أقل ، لقد أدى الامتداد الشاسع لسواحلهم - من مصب نهر « إبرة » حتى مصب نهر « التّاجه » ، على أقل تقدير - إلى جعل الأندلس عُرْضة (خاصة فى القرن التاسع والعاشر) لغارات القراصنة أو لهجوم وإبرار القوات المعادية ، ففي عهدى عبد الرحمن الثانى ومحمد الأول أبرزت غارة الفايكنج الحاجة الملحة للشروع فى تنظيم جبهة بحرية وبناء سفن جديدة ، لكن الخطر الفاطمى - الذى حل ، وبخطورة أشد ، محل النورماندى - هو الذى دفع خلفاء قرطبة لتبنى سياسة بحرية واقعية ، تستطيع النهوض بأعباء الدفاع والهجوم فى آن واحد .

بدأ المؤرخون المسلمون يتحدثون منذ القرن التاسع عن الأساطيل الحربية الأندلسية ؛ لكن حديثهم مقتضب كالعادة ولايشفى الغليل وخاصة فيما يتعلق بحجم الوحدات البحرية أو تسليحها . رأينا فيما سبق ، كيف تحمل أسطول قوامه ٢٠٠ سفينة مسئولية إخماد نيران العصيان فى « ميورقة » و « منورقة » عام ٨٤٨ - ٨٤٩م (٢٢٤ هـ) (٩٣) . كان عبد الرحمن الثانى هو الذى قام قبل هذا التاريخ بأربع سنوات - بعد الهجوم النورماندى على سواحل إشبيلية - ببناء ذلك الأسطول وإنشاء الترسانات البحرية ، وحاول محمد الأول ، بعد ذلك ، استخدام نفس الأسطول فى الهجوم على « جليقية » لكن محاولته باءت بالفشل الذريع (٩٤) ، وفى بداية عهد عبد الرحمن الثالث كانت الوحدات البحرية الخفيفة تجوب ليل نهار مضيق جبل طارق لمنع وصول المؤن والتعزيزات من شمال إفريقيا لابن حفصون (٩٥) ، وعندما أدرك الناصر فيما بعد مدى الخطر الذى يمثله الفاطميون - ورثة الأسطول الأغالبى القوى - عزز أسطوله بشكل أتاح له الاستيلاء على « مليلة » (عام ٩٢٧ م - ٣١٤ هـ) ، وعلى « سبتة » بعد ذلك بأربع سنوات . من تلك اللحظة أصبحت أساطيل الحرب الأموية

تمثل - بدورها - تهديداً حقيقياً للسيادة الفاطمية ؛ وهكذا - وكرد فعل لنهب « أُلرية » عام ٩٥٥ م (٢٤٤ هـ) - قامت قطع بحرية ترفرف عليها رايات الأمويين البيضاء بإضرار النيران في ميناء « مرسى خرز » التونسي وتخريب نواحي « سوسة » (٩٦) ، وفي عهد الحكم الثاني استطاعت قوة بحرية أندلسية اللحاق بتشكيل للمجوس بالقرب من « شِلْب » (Silves) وأجهزت على معظمه .

وحدات بحرية أخرى استخدمها المنصور في حملاته على شواطئ « قطلونية » و « جليقية » عامي : ٩٨٥ م (٣٧٤ هـ) ٩٩٧ م (٢٨٧ هـ) ، على التوالي ، كل هذه الأخبار المستقاة من بطون المدونات التاريخية تجعلنا نعتقد أن البحرية الأموية كانت في القرن العاشر آلة حربية غاية في القوة والفاعلية ؛ لكن معلوماتنا عن تنظيمها ما زالت - لسوء الحظ - تعاني حتى الآن من القصور البين .

عند حديثنا عن تأسيس مجموعة من البحارة الأندلسيين لفيدرالية « بَجَانة » عام ٨٤٤ م (٢٧١ هـ) ، أشرنا في حينه إلى قيام هذه الجمهورية الصغيرة للبحارة المولدين والمستعربين بإنشاء الميناء الذي سيصبح فيما بعد الأكثر أهمية في المملكة ، سواء اعتبرناه قاعدة بحرية أو مركزاً للحركة التجارية بين إسبانيا وموانئ البحر المتوسط الغربية والشرقية : إنه « مَرِيّة بجانة » أو باختصار « مَرِيّة » ، أي « أُلرية » ، سنتعرض لاحقاً للدور الذي لعبته أثناء الخلافة وبعدها تلك المدينة الساحلية واسعة الثراء على الصعيدين : التجاري والصناعي ، نكتفي الآن بالإشارة إلى أنها كانت أقوى ميناء حربي لإسبانيا المسلمة في القرن العاشر ، وأن معظم قطع البحرية الأموية كانت ترسو في خليجها الصغير ، وأنها كانت مقر القيادة العامة لقادة البحر ، ومن بينهم « عبد الرحمن بن رماحس » الذي لمع نجمه في عهد الحكم الثاني ، وكان بالإضافة إلى ذلك والياً على إقليم بَجَانة والبيرة ، وخدماته الجليلة كافأه عليها ابن أبي عامر أفدح مكافأة عندما أزاحه من طريقه - ربما لغيرته من نفوذه ومكانته - بدس السم له عام ٩٨٠ م (٣٦٩ هـ) ، وطبقاً لما أورده مؤلف أندلسي (٩٧) ، فإن العامل الأندلسي في ذلك العصر كان يطلب المشورة في الأمور الهامة من ثلاثة رجال : قائد البحر وقائد الثغر الأعلى وقاضي الجماعة (قاضي القضاة) ، ويختم المؤلف كلامه قائلاً : « لقد كان قائد أسطول أُلرية يقاسم الخليفة السلطة بشكل ما : فأحدهما يبسط ملكه على البر والآخر يبسطه على البحر »

من الصعب معرفة عدد الوحدات الثقيلة والخفيفة التي كان من الممكن تجميعها في القواعد البحرية للشواطئ الأندلسية عندما اكتمل عنقوان الأسطول الأموي ، من المؤكد أنها كانت سفن تعمل بالأشرعة والمجاديف ، لكن مؤرخو ذلك العصر لم يتطرقوا أبداً لوصفها ، في حين أنهم فعلوا ذلك متأخراً ، خاصة في عصر الموحدين .

وطبقاً لابن خلدون - ويقدر ما تسمح لنا الثقة في كلامه نظراً لتأخره (٩٨) - فقد كان الأسطول في عهد الناصر يضم ٢٠٠ سفينة ، وهو نفس عدد وحدات الأسطول الفاطمي تقريباً ، ويضيف المؤرخ قائلاً : كان يتولى إمرة كل سفينة ضابطان ، أحدهما يسمى « قائد » ويختص بالشق العسكري من سلاح ومقاتلين ومعارك ، ويسمى الثاني « رئيس » وعلى عاتقه تقع عملية تسيير السفينة بالأشرعة أو المجاديف ومناورات الرسو والإبحار ، ولو أخذنا بكلام مؤرخ آخر (٩٩) فقد كان أسطول ألمرية يتألف في عهد الحكم الثاني من ٣٠٠ قطعة بحرية .

وبخلاف « ألمرية » كانت توجد قواعد بحرية أخرى - تقل أو تكبر في الأهمية - على السواحل الأندلسية ، مزودة بترسانات تعرف باسم « دار الإنشاء » أو « دار صناعة المراكب » أو « دار الصناعة » فقط (١٠٠) ؛ ومن هذه القواعد نخص بالذكر : « قصر أبي دانس أو قصر الفتاح » ، و « شلب » ، و « الجزيرة الخضراء » ، و « مالقة » ، و « لقنت » و « دانية » .

وتخبرنا إحدى الوثائق أن عبد الرحمن الثالث (١٠١) أمر عام ٩٤٥ م (٣٣٣ هـ) بإنشاء ترسانة بحرية في « طرطوشة » بالقرب من « قطلونية » ، وجميع هذه الترسانات - التي كانت تعمل أيضاً في صناعة السفن التجارية (ولنا معها وقفة في فصل آخر) - ستظل تمارس نشاطها في القرن الحادي عشر وستسمح لإمارات صغيرة جداً - مثل ألمرية ودانية - بالاعتماد في معظم مواردها على النشاط البحري : تجارياً كان أم قرصانياً .

الدفاع عن السواحل : -

لا حاجة لنا هنا بتكرار ما قلناه عن امتداد أعمال القرصنة في القرن العاشر إلى كافة أنحاء الحوض الغربي للبحر المتوسط ، ولا عن الذعر الذي أثاره القرصنة

الإسبان - مسلمون ومسيحيون - فى الجزر الكبيرة لذلك الحوض وفى شواطئ فرنسا وإيطاليا ، ومع هذا تجدر الإشارة إلى أن نشاط هؤلاء القراصنة ، علاوة على الخوف من إررار فاطمى أو هجوم نورماندى جديد ، هو الذى دفع حكومة قرطبة لا إلى الإسراع بتبنى نظام دفاعى للسواحل الأندلسية أو تعزيز أسطولها فحسب ، بل أيضاً لإقامة سلسلة من الاستحكامات فى النقاط الساحلية التى يُظن أنها عرضة للهجوم أكثر من غيرها ، ومن بداية ذلك العصر ، شُيّدت فى أماكن عديدة على ساحل البحر المتوسط أبراج مراقبة (طليعة) تستطيع تبادل الإشارات والقذائف الضوئية أثناء الليل لتحذير جنود السواحل فى حالة الخطر .

كما شُيّدت فى نفس الوقت - وفى بعض الأماكن التى يسهل اختراقها - استحكامات ذات حرم مُسَوَّر كان يطلق عليها « رابطات » (مفردتها : رابطة) يتولى الحراسة بداخلها - مثل بعض قلاع الثغر الأعلى - متطوعة (يتم تجنيدهم على فترات) يمارسون حياة المتصوفة (١٠٢) ، وأشهر تلك الاستحكامات الدينية (الأديرة المُحصَّنة) على شاطئ المتوسط كان يقع على الطرف الشمالى لخليج ألمرية الصغير ويسمى « القابطة » ، وقد قام الحكم الثانى بزيارته عام ٩٦٤ م (٣٥٢ هـ) ، وهناك « رابطة » أخرى شهيرة تسمى « التوبة » كانت تطل على مضيق جبل طارق وترتفع فى مواجهة « ولبة » بالقرب من مصب « النهر الأحمر » (Rfo Tinto) : وفى نفس مكانها القديم يوجد حالياً دير « الرأبضة » وكأنه تجسيد حى للتراث الإسلامى فى نهاية العصر الوسيط (١٠٣) .

ويحق لنا فى النهاية طرح هذا التساؤل : أكان باستطاعة هذا النظام الدفاعى (الذى لا نعرف عنه سوى القليل) توفير الحماية الفعّالة للسواحل الأندلسية الممتدة - شرقاً وجنوباً وغرباً - لمئات الكيلومترات ؟ بالطبع لا ، ولهذا ، فقد كان على سكان السواحل - المتجمعين فى قرى معلقة على المرتفعات التى تفصلها مسافة عن الشاطئ - تحمل عبء الدفاع عن أنفسهم ضد الهجمات المباغتة لأنهم أول من سينوق ويلاتها ، سواء كانوا يعيشون فى العصر الأموى أو العصور اللاحقة (١٠٤) .

هوامش الفصل الثاني

(١) أسهمت النصوص التي اكتشفها أو نشرها حديثاً ليفي بروفنسال في تقديم كم لا بأس به من البيانات الجديدة عن النظام العسكري لإسبانيا الأموية ، وغيّرت في الوقت نفسه كثيراً من المفاهيم التي أوردتها بروفنسال في Esp. mus. X^o siècle, PP. 121-156 .

ومع ذلك نوصي القارئ بالاستمرار في استشارة هذا الكتاب .

لا توجد حتى الآن سوى دراسات قليلة عن النظام العسكري للإمبراطورية العربية في الشرق خلال القرن العاشر . انظر بهذا الخصوص :

- Mez: Ren. Isl., trad. Vila, pàgs. 386-388 .

وبالنسبة للإمبراطورية البيزنطية ، انظر :

- Diehl : Histoire du Moyen Age de Glotz, III, P. 463 y sigs.

أما بالنسبة لإسبانيا المسيحية فيمكن العثور على بعض المعلومات الموجزة في : -

- Sánchez - Alborno: Estampas, págs. 80-107.

- L. G. de Valdeavellano : Hist. de Esp., I, PP. 597 y 689-690.

ولمزيد من الاطلاع ، انظر :

- - S. Estébanez Calderón : De La milicia de los árabes en España, en Revista Militar, t. IV, Madrid, 1849.

(٢) تحدث الحميدى في نقده لـ « نَقَطُ العروس » لابن حزم (طبعة شوقي ضيف ، القاهرة ، ص ٨١ - ٨٢) عن النهاية المأسوية لغالب بالتفصيل .

(٣) انظر :

- Lévi- Provençal: Le rôle de la Marche Superieur dans l'histoire politique de l'Espagne califfienne, en pirienos, publicación del Instituto de Estudios Pirenaicos, núm. 15-16, Zaragoza, 1950, PP. 35-52.

(٤) كانت تسمى في العصر الوسيط « قلعة خولان » .

(٥) لهذه القلعة عدة أسماء ، أقدمها « قلعة أسطالير astalir » ، ثم « قلعة يحصب » (نسبة إلى قبيلة يمنية استقر أحد أفرادها بالمكان بعد الفتح مباشرة) ، ثم « قلعة بنى سعيد » (« انظر نفع الطيب » للمقرئ ، الجزء الأول ، ص ٦٨١) .

- (٦) وكما نرى فكلمة « قلعة » تأتي عادة متبوعة باسم شخص (علم) ، كما توجد حالات أخرى لاتندرج تحت هذه القاعدة ، مثل : « قلعة التراب » ، « قلعة النسور » ... الخ .
- (٧) سواء كان مسبوقاً بكلمة « حصن » أم لا ، ، وعلى سبيل المثال Iznajar بإقليم غرناطة (وهو يساوي العلم الجغرافي العربي « حصن أشر » (Hisn Ashar) .
- (٨) أورد ابن عذارى هذا التعبير في « البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب » ، الجزء الثالث ، ص ٢١ . انظر :

- Lévi-Provençal: Esp. mus. X^o siècle, p. 151 .

- (٩) انظر الفقرة التي أوردها ابن عذارى في « البيان المغرب » (الجزء الثالث ، ص ٧) وترجمها بروفنسال في المرجع السابق (ص ١٥١) بشأن تزويد العامري « المظفر » لـ « حصن ممقصر » (Monmagastre) بحامية عام ١٠٠٢ م (٣٩٢ هـ) .
- (١٠) أمدتنا « مذكرات ملك غرناطة الزيري » عبد الله « باسم معقلين من هذه المعازل : « صخرة دومس » و « صخرة حبيب » ، ونشير في إيجاز إلى أن كلمة « معقل » كان يستخدمها مزروخو الأندلس بدلا من « حصن » للإشارة إلى « القلعة » ، لكن هذه اللفظة (معقل) لم تطلق على أي علم جغرافي .
- (١١) لو أخذنا بمقولة ابن بشكوال (« كتاب الصلة » ، ص ٩٨٠) فقد تم في عهد المنصور بن أبي عامر (سنة ١٠١٣ م - ٤٠٣ هـ) ترميم قلعتي : « ويكاس » (Huecas) و « مكادة » (Maqueda) الواقعتين شمال غرب طليطلة ، على نفقة رجل البر الطليطلي « أبو نصر فتح بن إبراهيم الأموي » كما ينسب للرجل نفسه بناء مسجدتين أخيرين بطليطلة .

J. A. Gaya Nuño: Gormáz, Castillo califal, en Al-Andalus, VIII, 1943, PP. (١٢) 431-450 .

(١٣)

- L. Torres Balbás : Los adarves de las ciudades hispano- musulmanas, en Al-Andalus, XII, 1947, pp. 164-193.

وعن العمارة الحربية في إسبانيا الأموية ، انظر كذلك :

- G. Marçais: Manuel d'art musulman, I, págs. 248-252.
- H. Terrasse: L' art hispano- mauresque, págs. 153-162.

(١٤) انظر : مقدمة ابن خلدون ، الجزء الثاني ، ص ١٩ .

(١٥) انظر ابن عذارى « البيان المغرب .. » الجزء الثالث ، ص ٦٢ .

- Lévi- Provençal: Esp. mus. X^o siècle, p. 129 y nota I.

(١٦) نفس الأسلوب كان يتبعه الأغلبية ومن بعدهم الفاطميون في إفريقيا ، انظر :

- Dozy : Suppl, dict. ar., I, 290 .

- Rev. Et. Isl., Paris, 1936, págs. 169-170.

(١٧) يشير (Ei Calendario de Córdoba ، ص ٢٢) إلى أنه بمجرد انصرام شهر فبراير كانت تُرسل التعليمات من العاصمة إلى ولاية الكُور لكي يقوموا بتجميع « الحشود » التي ستشارك في الحملات المزمعة خلال الصيف (الصوائف) .

(١٨) ندين بالفضل في معرفة هذه المعلومات لابن عذارى لأنه أوردنا في الجزء الثاني من « البيان المغرب » (ص ١١١ - ١١٢ في النص الأصلي ، ص ١٧٨ - ١٧٩ في الترجمة) ؛ لكنها موجودة الآن في الجزء المكتشف حديثاً من المجاز الأول لمقتبس ابن حيان (fol. 254 Vo) .

(١٩) ابن الخطيب « الإحاطة في أخبار غرناطة » ، انظر طبعة القاهرة المختصرة (مركز الإحاطة) ، ص ١٩ ، وانظر أيضاً :

- Lévi - provençal : Esp. mus. Xo siècle, p. 132, 133:

- Dozy : Recherches 3, I, págs. 81-89 y apéndice II, pp. VIII-X.

(٢٠) ابن حوقل : « كتاب صورة الأرض » ، طبعة Kramers ، الجزء الأول ، ص ١٠٨ - ١٠٩ ، ص ١١٣ . يمكن مقارنة الرأي المتحامل لابن حوقل بأخر أعنف نسبة القاضي الأشهر « أبو حنيفة النعمان » إلى الخليفة الفاطمي « المعز » (« كتاب المجالس والمسائرات » m.s.n. o 2606 بمكتبة جامعة القاهرة ، الجزء الأول ، ص ٢٤٨ - ٢٨٦) ؛ وأورده كذلك كل من حسن إبراهيم ، طه أحمد شرف في كتابهما : « المعز لدين الله » (القاهرة ، ١٩٤٨ (١٣٦٧ هـ) ، ص ٣٢٧ - ٣٣٨ وصفحة ٣٣٣ على وجه الخصوص .

(٢١) هذا ما نستشفه من إشارة ابن عذارى (المنقولة عن ابن حيان) إلى عهد الأمير محمد الأول (« البيان المغرب ... » ، الجزء الثاني ، ص ١١١ - ١١٢) يذكر ابن حيان في الجزء المكتشف من «المقتبس» (fol. 254Vo) أنه أخذ هذه المعلومة عن المؤرخ الأموي الأصيل ، « معاوية بن هشام » . والجدير بالذكر أن أعمال هذا المؤرخ - بالإضافة إلى أعمال كل من أحمد الرازي وابنه عيسى - كانت من المصادر الأساسية لابن حيان .

(٢٢) انظر : Lévi-provençal: Esp. mus. Xo siècle, págs. 129, 130

ومبادرة الحكم الأول هذه أوردنا - من خلال ابن حيان - كل من : ابن عذارى ، ابن الأثير ، النويري ، ابن خلدون والمقري .

(٢٣) نستخلص من فقرة غامضة جاءت في « أخبار مجموعة » (ص ١٠٩ من النص ، ص ١٠١ في الترجمة) أن عبد الرحمن الأول اتخذ لنفسه حرساً من السود ، وقد أسمتهم المونة « عرافة السود » .

(٢٤) عانت كلمة « عجم » من التفسير الخاطئ زمناً طويلاً ، فعندما تناول دوزي (Sppl. dict. ar.l. p. 291) عصر المرابطين سجل لها المدلول التالي : « الكتائب المرتزقة » ، وفي الفترة التي تفصل بين عصر الخلافة وعصر المرابطين كانت هي اللفظة الوحيدة المستخدمة للدلالة على « الفرق التي لها رواتب » ، وقد ظهرت بهذا المدلول في نصوص القرن الحادي عشر التاريخية ، وفي مقدمتها « مذكرات » ملك غرناطة الزيري « عبد الله » ، وفي بداية توسع الموحدين بالمغرب كانت تطلق عليهم وعلى أتباعهم ، وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن الجمع « عَجَم » (المقابل لـ « أجناد ») مذكور في « المقتبس » لابن حيان (الجزء الثالث ، fol. 105 v°) .

(٢٥) أخذنا هذه اللفظة من « أخبار مجموعة » (ص ١٠٩ من الأصل ، ص ١٠١ في الترجمة) ، كما ورد بنفس المونة (ص ١٢٩ من الأصل ، ص ١١٦ في الترجمة) أن الحرس الخاص للحكم الأول كان يضم ألفي فارس ، مقسمين إلى عشرين فصيلة ، بكل منها مائة رجل على رأسهم « عريف » .
(٢٦) انظر المجلد الرابع (الفصل الخامس) .

(٢٧) كان معظم الحرس الخاص للملوك المرابطين في القرن الثاني عشر من المرتزقة المسيحيين المجلوبين من « قطلونية » وجنوب فرنسا ، ومن أبرز قواد هذا الحرس « (ريفيرتر Riverter) نائب كونت برشلونة الذي تميز بشدة ولائه - روحاً وجسداً - لسانده المسلمين .

(٢٨) نقصد أحد فصول المجلد الثالث من « المقتبس » (١٠٧ r° - ١٠٥ fols) - المحفوظ بأكاديمية التاريخ الملكية ، مدريد - والذي قام إميليوجارثيا جومث بنشره مع ترجمة إلى الإسبانية تحت عنوان :

Al- Hakam II y los Berebéres, según un texto inédito de Ibn Hayyan, en Al - Andalus, XIII, 1948, págs. 209-226.

(٢٩) انظر « المقتبس » لابن حيان (الجزء الثالث ، ص ١٢١ - ١٢٢ ، ص ١٤١ و ١٤٧ من طبعة M. Antuna والتي تتناول الأعوام التالية : ٢٨٤ ، ٢٩١ ، ٢٩٩ هـ) . ويتحدث الجزء الخاص بعام ٩١١ م (٢٩٨ هـ) (والذي أورده ابن عذاري في « البيان المغرب ... » الجزء الثاني ، ص ١٥٢ في الأصل ، ص ٢٢٤ - ٢٤٥ في الترجمة) عن عصيان مزدوج للبربر الطنجيين عندما ذهبوا إلى جنوب الأندلس وانضم بعضهم إلى ابن حفصون والبعض الآخر لابن هذيل ، ومع بداية القرن الحادي عشر أخذوا يطلقون في إسبانيا لفظ « غازي » (جمعها : غزاة) على الجنود أو المرتزقة أو المتطوعة للجهاد الوافدين من شمال إفريقيا وبخاصة المغرب (ابن عذاري « البيان المغرب ... » ، ص ٧٥ ، السطر الأخير) ، وعندما جاء الموحدون تبنا اللفظة وأطلقوها على إحدى شرائعهم الاجتماعية (طبقة كتائب الجهاد) ، وفي القرن الرابع عشر - خلال عهد بني نصر - لعب الغزاة المغاربة ، الذين كانوا في خدمة المملكة الغرناطية ، دوراً أساسياً هاماً ومشنوفاً .

(٣٠) علي بن عبد الرحمن بن هذيل « تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس » ، طبعة :

- L. Mercier (L' ornement des âmes et la devise des habitants d'el Andalus) Paris, 1936, págs. 24-25.

(٣١) يخبرنا ابن الأبار (الحلة السيرة ، ص ١٤٠) أن الناصر منح هذا اللقب ، عام ٩٥٤ م (٢٤٣)
هـ لعبيد الله (ابن القائد أحمد بن يعلى) .

(٣٢) تشهد بهذا كثير من البيانات الموثقة في المدونات التاريخية وكتب التراجم الأندلسية ، وعلى سبيل المثال ، فقد حدثنا ابن حيان (« المقتبس » ، الجزء الأول ، ص ٢٥٦) عن الفقيه « عباس بن ناصح » الذي اعتاد القدوم على فترات إلى إقليم « وادي الحجارة » لتأدية واجب « الرِّباط » ومن جهة أخرى ، لم يُجمع الجغرافيون العرب على إطلاق مصطلح « دار الجهاد » على بلد في الغرب الإسلامي مثلما أجمعوا على إطلاقه على إسبانيا . انظر :

- Lévi - provençal : Péninsule Ibérique, p. 6.

(٣٣) عن مدلول هذا التعبير ، انظر :

- G. Marçais, en la Enc. Isl., III, págs. 1231-1232.

(٣٤) تكفى الإشارة حالياً إلى أن كلمة « مُرابط » التي تطلق على المسلم في حالة « الرِّباط » ، كان يُراد بها في نهاية القرن الحادى عشر سلالة المرابطين الذين شيدوا « اللامتونات » (Los Lamtuna) في جنوب المغرب ، كانت كلمة « رباط » تحمل في إسبانيا نفس معنى « وَقَف النفس على أعمال البر والتقوى » الذى كان يُمارس على الحدود البحرية (وهى مثل الثغور) داخل أسوار محصنة يطلق عليها « رابطات » . انظر :

- G. Marçais:Note sur les ribâts en Berbérie, en Mélanges René Basset, Paris, 1925. II, págs. 395-430.

- Lévi - provençal : Esp. mus. X^e siècle, págs. 138- 139:

(٣٥) في بداية القرن الحادى عشر وخلال عهد العامرى « المظفر » كان معظم المتطوعة من المغاربة المستعدين دائماً لتلبية نداء حكومة قرطبة . انظر : ابن عذارى « البيان المغرب » ، الجزء الثالث ، ص ٤ ؛ والمرجع السابق لـ ليفى بروفنسال ، ص ١٣٨ وملاحظة رقم ١ .

(٣٦) تعزز هذه المعلومة فقرة أخرى أوردها ابن حيان ، انظر :

- Lévi - provençal : Fragments historiques, p. 10.

(٣٧) انظر المجلد الرابع (الفصل السادس) .

(٣٨) المرجع السابق (الفصل السادس) . كما وردت هذه المعلومة أيضاً في :

Fragments historiques, p. 44.

(٣٩) انظر المجلد الرابع (الفصل السادس) . حيث يذكر أن الدعوى لم تُوجَّه للزيريين لعبور المضيق والمجىء لإسبانيا إلا عند موت المنصور .

(٤٠) توجد هذه الصفحة في بداية المذكرات .

(٤١) انظر ، على وجه الخصوص : ابن عذارى « البيان المغرب » ، الجزء الثاني ، ص ٢٩٣ ، ٢٩٩ ، ٣٠٨ ، ٣١٦ (في النص الأصلي) ، ص ٤٥٥ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٧٨ ، ٤٩٠ (في الترجمة) .

- ابن خلدون « كتاب العبرديوان المبتدأ والخبر .. » ، الجزء الرابع ، ص ١٤٧ .

- المقرئ « نفع الطيب » ، الجزء الأول ، ص ١٨٦ ، ٢٥٨ .

(٤٢) يبدو أن إسبانيا الإسلامية تبنت منذ القرن التاسع نظام إعفاء المواطنين من الخدمة العسكرية مقابل تسديدهم لضريبة خاصة تسمى « حشد » ، انظر ما أورده البكري وأثبته ليفي بروفنسال في كتابه « شبه جزيرة إيبيريا » (ص ٢٥٠ - ٢٥١ ، ٢٦٢) . كما يبدو أن هذا النظام ظل متبعاً في عصر الخلافة عند التعبئة للصوائف ، حيث كان يتم « استتجار » بديل (نائب) نظير مبلغ من المال يُسدد نقداً .

(٤٣) وأوردها ابن الخطيب في « كتاب أعمال الأعلام فيمن يبيع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام » ، من ص ١١٥ إلى ص ١٢٠ .

(٤٤) رأينا من قبل ، كيف كان العاجل - خاصة في القرن التاسع - يتولى بنفسه قيادة معظم هذه الصوائف ، وفي تخلفه لسبب من الأسباب ، كان يعهد بها لواحد من أبنائه أو إخوته ، وفي الحالة الأخيرة كان يتولى القيادة العامة قائد حربي متمرس ، ويرافق الأمير مستشار سياسي « مُدَبِّر » ، وهذا ما نستخلصه من بعض البيانات التي تتضمنها الملونات التاريخية ، وعلى سبيل المثال ما جاء في الجزء الأول من « المقتبس » لابن حيان .

(٤٥) ومن تلك « الشتويات » نذكر التي جرت وقائعها في عهد عبد الملك (المظفر) عام ١٠٠٧ م (٣٩٨ هـ) ، والتي أشار إليها ابن عذارى في « البيان المغرب » ، الجزء الثالث ، ص ٢١ .

(٤٦) انظر - على سبيل المثال - ما تم في صائفة ٩١٩ (٢٠٦ هـ) ضد « البلدة » (Belda) ابن عذارى « البيان المغرب » ، الجزء الثاني ، ص ١٨١ (١٧٢) في النص الأصلي ، ص ٢٨٨ في الترجمة .

(٤٧) انظر المرجع السابق ، ص ١٧٤ - ١٧٥ (١٦٧ - ١٦٨) في النص الأصلي ، ص ٢٧٩ في الترجمة وأيضاً :

- Lévi - provençal : Esp. mus. X^o siècle, págs.. 139- 140:

(٤٨) لدينا بهذا الخصوص شهادة قيمة تنسب لابن حيان وأوردها ابن الخطيب في « كتاب أعمال الأعلام » (ص ١٤٥) . وطبقاً للمؤرخ القرطبي فإن المنصور عندما قرر في عام ٩٨٥ م (٣٧٤ هـ) إرسال حملة إلى برشلونة أراد أن يتأكد بنفسه من مخزون القمح في صوامع الدولة ، ولما وجده يربو على مائتي ألف قدح ، صاح في عنجهية : « بصوامعي غلال أكثر مما لدى المسيح ذاته » . ومع هذا فلم يمر وقت طويل حتى أتت سنوات عجاف على ذلك المخزون ، لدرجة أن الديكتاتور فكر في إرسال حملة إلى شمال إفريقيا ، الذي لم

يلحقه الجفاف ، لجلب الزاد والمؤن للأندلس . وبعد انقضاء فترة الجفاف العصبية عمل المنصور جاهداً على زيادة عدد الصوامع ، وخصص جزءاً كبيراً من ميزانية الدولة لشراء الغلال .

(٤٩) المرجع السابق ، ص ١١٥ .

(٥٠) ثبت استخدام المصطلح الأخير (عارض الجيش) في عهد العامريين . انظر « نفح الطيب » ، الجزء الثاني ، ص ٤٢٢ .

(51) A. González Palencia : Hist. Esp. Mus., 2ª ed., p. 199

(٥٢) في إحدى النواذر التي ينسبها المقرئ للمنصور (نفح الطيب ، الجزء الأول ، ص ٢٧٢) ، استخدم العامري كلمتي « عارض » و « تمييز » بمعنى واحد .

(٥٣) شاع استخدام هذا المصطلح في العالم الإسلامي طوال العصر الوسيط انظر :

- Lévi - provençal : Esp. mus. X^o siècle, p. 142- 142 nota 2 .

(٥٤) طبقاً للمقرئ (نفح الطيب ، الجزء الثاني ، ص ١٨٠) فإن القوات كانت تتجمع للعرض بعد سماعها لصوت النقيز .

(٥٥) يبدو أن كلمة « عَرْض » كانت تساوى في الدلالة كلمة « ديوان » خلال القرن العاشر . يقول ابن حيان (Fragments historiques, p. 20) : ألحق المنصور «البربر الأفارقة بالقوات المغربية العاملة » (عرض المغاربة) .

(٥٦) كان مصطلح « دار الصناعة » يطلق على مصانع الأسلحة الرسمية وعلى ورش تصنيع السلاح الخاصة وعلى ترسانات بناء السفن .

(٥٧) ستختفي هذه الكلمة ذات الأصل الفارسي من الغرب الإسلامي ابتداءً من القرن الثاني عشر ، لتفسح المجال أمام الكلمة البربرية « أفراج » التي استخدمت في المغرب للدلالة على ساتر القماش الذي يفصل معسكر العامل (المَكُون من خيام حاشيته) عن مَحَلَّات الأشراف . انظر : -

- Dozy : Suppl. dict. ar., I, pág. 647 b.

(٥٨) انظر : - Lévi-Provençal : Esp. mus. X^o siècle, p. 141 y nota 1

(٥٩) أشار ابن حيان في « المقتبس » (الجزء الأول ٢٥ fol. 284) إلى احتفال « لعقد الأولية » تم في عهد الأمير محمد الأول في مسجد قرطبة الجامع بمناسبة الحملة البحرية لعام ٨٧٩ م (٢٦٦ هـ) .

(٦٠) انظر : - Lévi-Provençal : péninsule Ibérique, p. 131 y nota 2

(٦١) طبقاً لـ (El Calendario de Córdoba, p. 14) فقد كانت تُوجَّه تعليمات بهذا الغرض خلال شهر مارس لموظفي المالية بالأقاليم .

(٦٢) أثبت المرجع السابق (ص ٢٧ ، ص ٤٧) وجود مزارع الأفراس المذكورة ، وبالنسبة لـ « المدائن » (جزر نهر الوادي الكبير التي تسمى حالياً Menor ، وكانت تعرف في القديم باسم Captel y Mayor) ، انظر :

- Lévi - provençal : Péninsule Ibérique, p. 27 y nota 3-Seville musulmane, p. 153, nota 118.

(٦٣) تحدث ابن حيان (النقتبس ، الجزء الثالث ، fol. 150 Vo) عن استخدام السرج الإفريقي أيام الحكم الثاني وأشار إلى شيوعه في عهد المنصور . انظر أيضاً : -

- E. Carcía Gómez : Al-Hakam II y los beréberes, en Al-Andalus, XIII, 1948, p. 214 del texto, 221 de la trad.

(٦٤) انظر مؤلفه عن الطب البيطري للخيول بعنوان « حلية الفرسان وشعار الشجعان » الذي طبعه وترجمه وعلق عليه :

- L. Mercier : La parure des cavaliers et l'insigne des preux, paris, 1922-1924.

(٦٥) في اللغة العربية « سائس » .

(٦٦) أعد (Pérès : Poésie andalouse, PP. 352-354) قائمة بأسماء الأسلحة الدفاعية والهجومية التي وردت بقصائد شعراء الأندلس خلال القرن التاسع . أما الفصل الذي يشتمل عليه الكتاب التالي : -

Manuel d' art musulman : Arts plastiques et industriels, de G. Migeon, paris, 1977, I, PP. 408-425.

فينصح بتوخى الحذر عند الرجوع إليه وخاصة فيما يتعلق بإسبانيا الإسلامية أما بالنسبة للأسلحة المستخدمة في إسبانيا المسيحية خلال القرن العاشر ، انظر :

- Sánchez - Albornoz : Estampas, pp. 92-94 y notas 42, 47.

- Aguado Bleye : Man. Hist. Esp., I, p. 536 .

(٦٧) أثبت ابن القوطية استخدام المقلع في عهد عبد الرحمن الثاني ضد القراصنة النورمانديين .

انظر :

- Dozy : Rech. 3, II, pp. 262 y LXXX .

- Fagnan : Extraits inédits, p. 211.

(٦٨) طبقاً لـ (El Calendario de Córdoba, p. 67) فقد كانت الحكومة تنظم مطاردات للصيد خلال شهر يونيو من كل عام وذلك بغرض الحصول على قرون الأيائل لاستخدامها في صناعة الأقواس ، كما كان يستخدم لهذا الغرض أيضاً خشب « الزنب » المجلوب من غابات إقليم « شقورة » (Segura) انظر :

- Lévi - provençal : Péninsule Ibérique, p. 129 .

(٦٩) انظر : ابن هذيل « حلية الفرسان ... » ص ٢١١ - ٢١٢ (في النص الأصلي) ، ص ٢٥١ - ٢٥٢ (في ترجمة Mercier) .

- (٧٠) المرجع السابق ، ص ٢٣١ - ٢٣٣ (فى النص الأصلي) ، ص ٢٦٩ - ٢٧١ (فى الترجمة) .
- (٧١) Lévi - provençal : Esp. mus. X^e siècle, p. 145 y nota 2- Péninsule Ibérique, (٧١) P. 106 y nota I.
- يقدم أبو حامد الغرناطى فى « تحفة الألباب » (طبعة وترجمة Ferrand ، باريس ١٩٢٥ ، ص ٤٢٨ - ٤٢٩ ، وملاحظة رقم ١) معلومات هامة عن التروس المصنوعة من جلد « اللامت » (Lamt) .
- (٧٢) معظم مسميات الأسلحة الهجومية والدفاعية التى تحدثنا عنها موجودة فى ملخص تاريخ العامرين الذى أعده ابن حيان وأورده ابن الخطيب فى « كتاب أعمال الأعلام » .
- (73) Lévi-Provençal : Inscriptions arabes d' Espagne, núm. 204, p. 189 y nota 60.
- (٧٤) انظر : ابن الخطيب « كتاب أعمال الأعلام ... » ، ص ١١٨ .
- (٧٥) انظر المرجع السابق ، ص ١١٦ .
- (٧٦) تسبب الاعتماد على ما أورده الكاتب المشرقى ابن خلكان عند وصفه لمعركة « الزلاقة » (Enc. Isl., IV, p. 1273) فى شيوع مغالطة مفادها : أن إشبانيا كانت تخلو من الجمال قبل مجيئ المرابطين إليها فى القرن الحادى عشر . وفى هذا المقام نذكر بأن جثمان الأمير « المنذر » نقل إلى قرطبة على ظهر جمل عام ٨٨٨ م (٢٧٥ هـ) .
- (٧٧) لاندري هل تشير كلمة « غوازى » (مفردھا : غازية) - فى فقرة ابن حيان المذكورة - إلى حريم القائد العام ، أم أن المقصود بها - كما هو محتمل - النساء الساقطات اللاتى يعرفن فى مصر الحديثة بالغوازى ؟ انظر :
- Dozy : suppl. Dict. ar., II, p. 212 b.
- (٧٨) كان يطلق على الضابط الذى يتولى ، فى كل مرحلة من مراحل الطريق ، إعداد معسكر القائد العام اسم « صاحب الأبنية » ، وهو يختلف عن « صاحب البنيان » الذى كان مكلفاً بصيانة وترميم المباني الملكية انظر : ابن عذارى « البيان المغرب » ، الجزء الثالث ص ، ١٠ .
- (٧٩) تجدر الإشارة إلى أن البربر المتحالفين مع سليمان المستعين عندما طلبوا مؤناً من « شانجة غرسية » (كونت قشتالة) عام ١٠٠٩ م (٣٩٩ هـ) ، فإنه أرسل إليهم - من بين أشياء أخرى - ألف عربة محملة بالدقيق (ابن عذارى ، « البيان المغرب » ، الجزء الثالث ، ص ٨٦) . ويبدو أن استعمال العربة ذات العجلات كان خاضعاً فى الغرب الإسلامى لنوع من التحريم خلال العصر الوسيط ، ونتمنى لوفسر لنا أحد هذا بشكل مقنع .
- (٨٠) انظر : J. Oliver Asín, en Al-Andalus, XV, 1950, p. 154
- (٨١) علينا ألا ننسى الخطة العسكرية المحكمة التى استطاع بها المنصور تحقيق النصر فى معركة « ثيبيرا » (Cervera) عام ١٠٠٠ م (٣٩٠ هـ) .
- (٨٢) طبقة القاهرة ، ص ١٥٥ .

الترجمة الإسبانية : M. Alarcón : Lámpara de las príncipes, II, p. 332

(٨٣) انظر :

- Lévi - provençal : Esp. mus. Xo siècle, págs. 147-148

حيث توجد قصة مترجمة عن الطرطوشي (طبعة القاهرة ، ص ١٥٢ - ١٥٣ ، ص ٣٢٠ - ٣٢٢ فى ترجمة « الأركون » الإسبانية) تصف مبارزة فردية بين بطل مسيحي وآخر مسلم أثناء إحدى حملات المنصور . وبما أن هذه القصة قد وردت أيضا فى « تحفة الأنفس .. » (طبعة Mercier ، ص ٦٩) لابن هذيل ، وقام دوزى بترجمتها (Rech. 3, II, Págs. 235-237) فلا داعى إذن لإعادة ترجمتها هنا .
(٨٤) وفوق « مظلة » القائد العام كانت تخفق الراية أو البيرق .

- Dozy : Suppl. dict. ar., I, p. 536 a (٨٥) انظر :

(٨٦) تتسم إشارات المؤرخين عن تكتيك حرب الحصار فى إسبانيا خلال القرن العاشر بالإيجاز الشديد ، أما البيانات الأكثر دقة ، بالرغم من إيجازها الشديد ، فتوجد فى الجزء الثالث من « البيان المغرب » لابن عذارى ، وتتعلق بالحملة التى سبّرها عبد الملك « المظفر » عام ١٠٠٢ م (٣٩٣ هـ) إلى « قطلونية » .
(٨٧) انظر المجلد الرابع (الفصل الخامس) .

(٨٨) انظر كتاب « الجزيرة » (fol. 59 V°) .

(٨٩) انظر المجلد الرابع (السادس) .

(٩٠) تشير هنا إلى المفاوضات التى جرت فى عهد الأمير محمد الأول لفدية القائد « هاشم بن عبد العزيز » الذى أسر عام ٨٧٨ م (٢٦٢ هـ) وظل سنتين محجوزا فى « أوبييدو » ، كما يخبرنا ابن حيان (المقتبس ، الجزء الأول ٣٥ fol.) بإهداء الحكم الأول لسكان منطقة على الحدود بعض الذين أسرهم فى إحدى حملاته لكى يستفيدوا منهم فى المقايضة بمن وقع أسيرا من نوريهم فى أيدي جيرانهم المسيحيين .
(٩١) انظر كتاب « الجزيرة » fol. 60 ٣٥ .

(٩٢) انظر : ابن الفرضى « تاريخ علماء الأندلس » ، رقم ٩٥٢ ، وطبقا لنفس القائمة التى أعدها ابن الفرضى (رقم ٧٤) فقد قام رجل بر مسلم من « وشقة » (توفى عام ٩١٩ م = ٣٠٧ هـ) بافتداء ١٥٠ أسيرا من ماله الخاص .

(٩٣) وردت أيضا أخبار الحملة البحرية على هاتين الجزيرتين الرئيسيتين فى أرخبيل « البليار » (عامى : ٢٣٤ - ٢٣٥ هـ) فى الجزء المكتشف حديثا من « المقتبس » لابن حيان (الجزء الأول 189 fol.) . وطبقا للمعلومات التى ذكرها المؤرخ ، فإن أهالى الجزيرتين نقضوا اتفاق الولاء لنظام قرطبة ، ولم يكفوا عن مهاجمة السفن الإسلامية المارة بالقرب من سواحلهم ، وأفرغت الحملة الأموية - عند عودتها - عددا كبيرا من الأسرى وكميات هائلة من الغنائم فى ميناء بنسبية ، ويعد ذلك بقليل طلبت « ميورقة » العفو من عبد الرحمن الثانى ، وتعهدت له بالولاء .

(٩٤) وردت في الجزء المكتشف حديثاً من « المتبس » لابن حيان (الجزء الأول ٢٠ fol. 283) مبادرة الأمير محمد الأول التي لم يكتب لها النجاح .

(٩٥) انظر ابن خلدون « كتاب العبر .. » الجزء الرابع ، ص ١٣٩ (سنة ٩١٤ م - ٢٠٢ هـ) .

(٩٦) لابد من مراجعة تاريخ الصراع بين الأمويين والفاطميين في القرن العاشر - وخاصة الصدامات التي جرت بينهما في الحوض الغربي للبحر الأبيض أيام الناصر والمعز - على ضوء الوثائق والمعلومات الواردة في « كتاب المجالس والمسائرات » لأبي حنيفة النعمان ، وبالرغم من النبرة الحادة للكتاب إلا أنه يقدم التفاصيل التي تقطع بوجود مفاوضات بين قرطبة وبيزنطة خلال ذلك العصر ، كان الغرض منها تحييد نفوذ الفاطميين الحربي قدر الإمكان .. وهكذا ، فقد تزامنت الحملة الفاطمية على « أُمريّة » (٩٥٥ م - ٣٤٤ هـ) مع هزيمة أسطول آخر ، أرسله المعز لغزو « كورسيكا » ، على يد البحرية اليونانية . انظر الجزء الخاص بعهد المعز في كتاب إبراهيم حسن وأحمد شرف (خاصة الصفحات ٣٣٧ - ٣٣٨) .

(٩٧) انظر الترجمة الكاملة في :

- Lévi - Provençal : Esp. mus. X^o siècle, pp. 85-86

(٩٨) ابن خلدون « المقدمة » ترجمة De Slane, II, pp. 40-41

(٩٩) ابن الخطيب « الإحاطة في أخبار غرناطة » ، القاهرة ، الجزء الأول ، ص ٢٠٦ .

(١٠٠) انظر : -

- Lévi - Provençal : Esp. mus. X^o siècle, pág. 154-péninsule Ibérique, p. XXX.

(١٠١) انظر

- Lévi - Provençal : Inscr.. ar. D' Esp. Núm. 86, págs. 86-84

(١٠٢) انظر

- L. Torres Balbás : Rábitas hispano-musulmanas, en Al-Andalus, 1948, pp. 475-491.

(١٠٣) انظر

- Lévi - Provençal : Péninsule Ibérique, p. 81.

- L. Torres Balbás : Rábitas hispano-musulmanas, P. 485.

(١٠٤) انظر ، على سبيل المثال ، للقرن الرابع عشر

- Lévi - Provençal : Levoyage d'Ibn Battuta dans le royaume de Granade (1350), en Mélanges William Marçais, Paris, 1950, págs. 202-211.

الفصل الثالث

النظام القضائي^(١)

عناوين الفصل الثالث :

١ - القضاء :

المؤلفات التي تتناول القضاء والقضاة - قاضى قرطبة وقضاة الأقاليم (الكُور) -
ممارسة القضاء - بوائز الاختصاص غير القضائية - المكانة الاجتماعية البارزة
لقاضى قرطبة .

٢ - هيئات القضاء الفرعية :

خطتا « الرّد والمظالم » - « صاحب السوق » - « صاحب المواريث » .

٣ - عقوبات الزجر والرّد :

الشرطة واختصاصاتها - صاحب المدينة - العقوبات . .

- حواشى الفصل الثالث .

١ - القضاء

المؤلفات التي تتناول القضاء والقضاة :

لا يختلف اثنان على توافر كمّ هائل من المعلومات عن نظام القضاء فى قرطبة الأموية مصدره أدب التراجم والدراسات الشرعية المتعلقة بالغرب الإسلامى فى العصر الوسيط، ولا غرابة فى هذا إن علمنا أن القضاء « كخطة دينية » قد حظى فى جميع بقاع العالم الإسلامى - وعلى مر العصور - بأهمية كبرى؛ كما أنه - خاصة فى الأندلس والمغرب المالكين اللذين استأثر فيهما بالقسط الأعظم من النشاط الثقافى - لم يكن مجرد هدف للعديد من الدراسات التحليلية، بل لأن أبطاله (القضاة) وجدوا دائماً متسعاً لهم سواء فى كتب التراجم العامة أو فى المؤلفات المقصورة عليهم، ولهذه المؤلفات أهمية وثائقية كبيرة بالنسبة لإسبانيا الإسلامية حتى القرن الحادى عشر، ذلك لأن محتواها أكثر غنى وحيوية وأقل « رسمية » من محتوى المدونات التاريخية التى كانت تدور حول العاهل وحاشيته من الطبقة الأرستقراطية، وفى مقابل هذا نجد أن الأعمال الموجهة إلى القضاء والقضاة لم تأنف من الشغل بأشد الطبقات بساطة فى المجتمع أو من الكشف عن الخصائص النفسية وطبائع الشرائع المختلفة من الناس، وبالرغم من أن هذه الأعمال تفتقر فى كثير من الأحيان إلى الجاذبية - خاصة عند خوضها فى منهاج القضاء ومسائله الفنية - إلا أنها تعتبر معيئاً لا ينضب لدراسة التاريخ الاجتماعى وديقائق الحياة اليومية.

بالرغم من عدم مناسبة المكان لتعداد المؤلفات الشرعية القديمة التى أفردت معظم صفحاتها لدراسة مظاهر القضاء المختلفة، إلا أننا لا نستطيع غض الطرف عن اسمين من أسماء من قاموا بالترجمة لقضاة الأندلس ووصلت إلينا - لحسن الحظ - أعمالهما « محمد بن الحارث الخشنى » الذى عاش فى القرن العاشر؛ ومؤلف غرناطى أحدث منه بكثير لكنه اعتمد مباشرة على المصادر القديمة، ونعنى به « أبا الحسن النباهى »، كان الأول قاضياً على القيروان، واستقر به المقام فى إسبانيا أيام الحكم الثانى الذى كلفه بكتابة تاريخ قضاة قرطبة (وقد قام المستشرق الإسبانى

« خوليان ريبيرا » بنشره عام ١٩١٤ (٢) ، أما كتاب النباهى فيضم جميع قضاة الأندلس حتى عصر « بنى نصر » ، ملوك غرناطة التى ولى النباهى قضاها فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر .

ويكتسب كتاب النباهى الذى يحمل عنوان « المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا » - المنشور عام ١٩٤٨ (٣) - أهمية كبرى لأنه يعتبر تكملة لأخبار الخشنى التى توقفت عند منتصف القرن العاشر ، ولأنه - من جهة أخرى - اعتمد على مصادر أساسية فى نفس الموضوع لكنها فقدت ولم تصل إلينا ، وأبرزها كتاب القرطبى « أحمد بن عبد البر » الذى أُعدم سنة ٩٥٠ م (٣٣٨ هـ) لاشتراكه فى المؤامرة التى دبرها عبد الله ضد أبيه الناصر .

وبجانب كتاب التراجم هؤلاء سندرك فى الصفحات التالية مدى الفوائد التى يمكن استخلاصها من الدراسات المتخصصة ذاتها ، مثل مجموعات الفتاوى الشرعية ومنها ما قام بإعداده ابن سهل (٤) وما أعده ابن عبدون فى « الحسبة » (٥) ، وأخيراً صيغ المحررات أو العقود المؤلفة لخدمة العاملين فى هذا المجال (٦) ، وكل هذه الأعمال التى كتبها مؤلفون أندلسيون والموجهة لقراء أندلسيين كانت مخصصة لتحديد ماهية القضاء ودوائر الاختصاص العادية والاستثنائية المنوطة بالقاضى فى إسبانيا الإسلامية خلال العصر الوسيط .

قاضى قرطبة ، وقضاة الأقاليم (الكُور) :

كالعهد فى بقية العالم الإسلامى ، فإن عاهل قرطبة - مثمما كان يُسند إلى « الحاجب » ممارسة بعض سلطاته فى رئاسة الحكومة - فقد كان يفوض كذلك قاضى عاصمته فى ممارسة ما يخصه من القضاء بين جماعة المسلمين ، وهذا التفويض (الإنابة) يعتبر بمثابة الركيزة الأساسية للنظام القضائى (٧) ، ذلك لأن القاضى المَفُوض من قبل العاهل كان يتولى بدوره - على الأقل فى البداية - تفويض القضاة المحليين ، سواء فى عواصم الكُور أو فى المدن الكبيرة بالثغور ، فى تحمل أعباء العدالة بتلك الأماكن ، لكن سلطة القاضى هذه سرعان ما أصبحت مجرد حبر على ورق ، وذلك لأن الحكومة المركزية كانت هى التى تقوم بالفعل (بموافقة القاضى المسبقة أو بدونها) بتعيين قضاة الدوائر الإقليمية .

ومثل بقية دول العالم الإسلامى ، فإن مبدأ السلطة المطلقة يخول للعاهل - بصفته « إمام » جماعة المسلمين - الفصل فى القضايا المختلفة بالرغم من وجود قاضٍ مُعَيَّن من قَبْلِه لهذا الغرض ، لقد ظل العاهل - بالفعل - الحكم الأعلى للنزاعات والقضايا التى تتضمن الشريعة حلولا لها ، وفى هذا الصدد ، فقد قام بعض أمراء بنى أمية - من بينهم الأمير عبد الله - بإحياء سنة أسلافهم فى تخصيص لقاء أسبوعى برعاياهم ، مهما كانت طبقاتهم الاجتماعية ، يستمعون فيه لشكاويهم ويبادرون بحلها ، ويبدو أن هذه العادة قد توقفت أثناء حكم عبد الرحمن الثالث لأن عظمة وجلال الخلافة لا يتناسبان بأى حال مع المشهد البسيط والعائلى لهذه المحكمة الملكية التى نحسب أنه لم يكن بمقدورها إلا الفصل فى النذر اليسير من دعاوى شعب تزيد أعداده يوماً بعد آخر .

أُطلقت فى العصر الأموى ثلاثة مسميات على قاضى قرطبة : قاضى الجُند ، قاضى الجماعة وقاضى القضاة . وفيما يلى سنتناول كلاً منها على حدة .

كانت التسمية الأولى (قاضى الجند) - وعليها ألا نخلط بينها وبين وظيفة « قاضى العسكر » التى يقوم صاحبها بالقضاء بين القوات أثناء الحملات العسكرية (٨) - تُطلق على القضاة القرطبيين حتى زمن الأمير محمد الأول ، هذا ما نستخلصه من عبارة ابن القوطية التى يقول فيها إن أول من تلقب فى قرطبة « بقاضى الجماعة » هو « عمرو بن عبد الله بن ليث » ، وقد اختار له الأمير محمد الأول هذا اللقب عندما عينه لأنه كان « مولى » ينتسب للجند السوريين المقيمين بشبه الجزيرة (٩) ، وقد كان القضاة حتى ذلك التاريخ يُختارون من بين طبقة الجند ولذلك كان يطلق على من يتولى قضاء قرطبة « قاضى الجند » .

لكن « الخشنى » له رأى آخر (١٠) ، يقول فى تاريخه لقضاة العاصمة الأندلسية إن عبد الرحمن الداخل عندما أسس ملك المرwanيين فى الأندلس وجلس على عرشه فى قرطبة لم يعزل قاضى الجند « يحيى بن يزيد التوجبى » بل أبقاه فى منصبه وخلع عليه اللقب الجديد : « قاضى الجماعة » ، والحقيقة أن اللقبين ظللا يستخدمان معاً لفترة من الزمن ، ذلك لأن « محمد بن بشير » - القاضى الشهير للحكم الأول ، المتوفى عام ٨١٤ م (١٩٨ هـ) - كان يُفضل فى جلساته اللقب القديم على الجديد (١١) .

على أى حال ، فقد تأصل فى إسبانيا استخدام مصطلح « قاضى الجماعة » فى نفس الوقت الذى شاع فيه استخدام « قاضى القضاة » فى الامبراطورية العباسية ، ويحتمل أن يكون الأخير منقولاً من المصطلحات القضائية والكهنوتية الساسانية ^(١٢) ، لكن على خلاف التعبير الشرقى الذى يقصد به قمة السلك القضائى ، فإن التعبير الأندلسى لا يعنى الشئ ذاته مهما حاول النباهى فى سذاجة ^(١٣) تفسير كلمة « الجماعة » بمجلس القضاة ، لكى يُضفى على قاضى قرطبة سلطة تعيين زملائه فى الأقاليم ، وهذا لم يحدث أبداً طيلة عمر الخلافة القرطبية ، وأقصى ما وصل إليه « قاضى الجماعة » هو التحقيق - ويأمر صريح من الأمير - فى تصرفات بعض القضاة الذين كثرت شكاوى الناس ضدهم ، ودون تعقيد يمكن أن تفسر إطلاق هذا اللقب (قاضى الجماعة) على قاضى قرطبة خلال القرنين التاسع والعاشر على أنه مظهر من مظاهر رغبة الأمويين الإسبان فى تفادى نسخ الألقاب المستخدمة عند خصومهم الشرقيين ؛ علينا ألا نحمل كلمة « الجماعة » ما لا تحتمل من المدلولات لأن مصطلح « قاضى الجماعة » يعنى ببساطة - دون إشارة إلى أية مرتبة كانت - أن صاحبه مُفَوَّض من قبل الرئيس العام لجماعة المسلمين الأندلسيين فى تحمل أعباء العدالة بدلا منه .

لم يظهر مصطلح « قاضى القضاة » فى إسبانيا إلا بعد سقوط الخلافة القرطبية ، وكان القاضى « أحمد بن ذكوان » هو أول من تلقب به عام ١٠١٠ م ، ثم تبناه من بعده خلفه « يحيى بن وفيض » ، لكن هذا التغيير فى لقب قاضى العاصمة - والذى جاء تقليداً للشرق ، طبقاً للنباهى ^(١٤) وآخرين - لا يعنى أن قاضى القضاة القرطبى قد أصبحت له ولاية على زملائه فى الأقاليم بل ظل الوضع على ما كان عليه قبل التغيير .

بالرغم من عدم وجود قائمة كاملة فى أى مرجع للدوائر القضائية أثناء عصر الخلافة الأموية ، إلا أن فهارس الترجمة - وبخاصة كتاب ابن الفرضى - قد أتاحت لنا إعداد قائمة شبه كاملة لها ، كما سمحت لنا فى الوقت ذاته ، حسب المتوقع ، من التحقيق من وجود قاض فى كل عاصمة من عواصم الكور ومناطق الثنور ، وسنقدم فيما يلى قائمة مفصلة بأسماء المدن التى كانت توجد بها مقار للمحاكم الإقليمية :

فى الجنوب : « إستجة » (١٥) ، و « قبيرة » (١٦) ، و « أشونة » (١٧) ،
و « قرمونة » (١٨) ، « إشبيلية » (١٩) ، و « شذونة » (٢٠) ، و « الجزيرة
الخضراء » (٢١) ، و « مالقة » (٢٢) ، و « البيرة » (٢٣) ، و « جيان » (٢٤)
و « بجانة » (٢٥) . وفى الشرق : « مرسية » (٢٦) ، و « بلنسية » (٢٧) ،
و « طرطوشة » (٢٨) ، وفى الغرب : « باجة » (٢٩) ، و « يابيرة » -
« شنترين » - « لشبونة » (٣٠) ، و « بطليوس » (٣١) ، « أكشونة » (٣٢)
(شنتمية الغرب) ، وفى الشمال والثغر الأوسط : « فحص البلوط » (٣٣) ،
و « طليطلة » (٣٤) ، و « وادى الحجارة » (٣٥) ، و « مدينة سالم » (٣٦) ،
و « طلييرة » (٣٧) ، وفى الثغر الأعلى : « سرقسطة » (٣٨) ، و « قلعة أيوب » (٣٩) ،
و « وشقة » (٤٠) ، و « تطيلة » (٤١) .

وملزلنا نحتفظ بأسماء عدد من القضاة الذين عينهم العاهل الأموى فى مدن
شمال إفريقيا مثل « سبته » و « مليلة » اللتين انتقلتا خلال القرن العاشر ولبعض
الوقت لسيادة قرطبة (٤٢) ، عندما تحولت غالبية هذه العواصم الإقليمية - فى القرن
الحادى عشر - إلى مقار حكومات ممالك الطوائف الصغيرة ، قام حكام هذه الممالك
بتعيين قضاة لم يتردوا فى اتخاذ لقب « قاضى الجماعة » أو « قاضى القضاة » .

مارسة القضاء :

لم يكن قاضى قرطبة - بغض النظر عن اللقب الذى يحمله - يختلف عن زملائه
بالأقاليم إلا بنوعية القضايا التى تعرض عليه وبتوسع دائرته القضائية ، لقد كان
مثلهم مكلفاً بنفس المهام داخل الحدود الإدارية للعاصمة ؛ فقط اقترابه من العاهل
والبلاط كان يتيح له بعض المميزات علاوة على قيامه بدور المستشار ، وبوجه عام ،
فقط كان رجل شرع متمرس وخبير بأحكام الشريعة وفقاً لتفسير المدرسة المالكية ،
لكن هذه الصفات لم تكن كافية فى حد ذاتها لأن العاهل والرأى العام لا يهتمان بها
قدر اهتمامهما بحسن شمالكه ، نادراً ما كان يتحول إلى أرستقراطى ، بل يظل فى
الغالب رجلاً بسيطاً سواء على مستوى حياته الشخصية أو سلوكياته أو تعامله مع
المتخاصمين ، من أهم صفاته : الكرامة ، والاستقامة والنزاهة ، لقد كان القاضى
الاندلسى دائماً مسلماً نموذجياً يقترب من حد التصوف ، لا يقبل أن يوجهه أحد

أو يؤثر عليه ، ويتمتع من بين الجميع بميزة الدخول على العاهل فى أى وقت يشاء ، والتحدث إليه بحرية ودون موارد ، وتعيينه كان يفرض على الأمير أو العاهل لا عن طريق دسائس ومؤامرات البلاط بل نتيجة للضغط الجماهيرى الذى قد يتسبب أيضاً فى عزله ، نادراً ما كان يرتشى ؛ ولم يكن يقبل المنصب إلا بعد رفضه مرات ومرات وبعد أن يستخدم العاهل معه كافة أساليب الإقناع لتبديد هواجسه وشكوكه ، وبعد تنازله وقبوله المنصب يستمر فيه - رغماً عنه - وقتاً طويلاً ؛ وبعد ممارسته - كرهاً - للقضاء لفترة طالت أم قصرت يطلب تعيين بديل له حتى لا يخاطر بنجاته فى الدار الآخرة ، لقد كان القاضى موقناً بأنه يسلك درياً مليئاً بالأشواك ، ويعتقد بأنه لو ارتكب أدنى هفوة - ولو دون قصد - فإنه سيُسأل عنها أمام الخالق .

لم تكن وظيفة القضاء مصدرراً للدخل ، وبالرغم من تحديد راتب لها - مثل بقية دول العالم الإسلامى (٤٣) - وإلا أن القاضى عادة ما كان يتنازل عنه ويفضل العيش من موارده الذاتية .

لاشك أن السمات التى ذكرناها أنفاً كانت قاسماً مشتركاً بين قضاة الإسلام خلال العصر الوسيط ، ومن السهل العثور فى إفريقيا وبلاد الشرق (٤٤) على أخبار ونوادير مماثلة للشائع منها فى إسبانيا عن بعض القضاة نوى المهابة المشهورين بصرامتهم وعدم تساهلهم فى الحق ، وبالرغم من هذا ، يبدو أن القاضى الأندلسى قد حافظ - لفترة أطول من زملائه المشاركة - على المفهوم القديم لمهمة القضاء ، وظلت صورته حتى منتصف القرن العاشر أقرب إلى صورة القاضى فى صدر الإسلام : حساس ، لاتفوته شاردة ولا واردة ، حاد ، ويوبخ أحياناً ؛ لكنه فى جميع الأحوال مثال للبر والتقوى والعفة والطهارة . مضى الزمن وحده هو الذى جعله يهتم بأمور الدنيا قليلاً : فلم يعد يشح بوجهه عن مواطن الفخر ولا يعترض على تعيينه وزيراً واستلام العطاء المفروض له (٤٥) ، بل إنه اشترك مع وجهاء البلاط فى تشكيل مجلس الحكومة وقبل القيام بالمهام ذات الطابع السياسى (٤٦) .

وعندما حلت نكبة القرن الحادى عشر وعينته الجماهير لتولى إدارة المدينة بكاملها واتخاذ التدابير التى تقتضيها الظروف ، تحول حينئذ إلى رئيس حقيقى مثماً حدث فى إشبيلية وبلنسية وقرطبة .

بعد بيان المقومات الأخلاقية اللازمة - فى البداية - لتعيين القاضى الأندلسى ، يبدو من قبيل الإطالة التى معنى لها الخوض فى مجمل دوائر اختصاص القاضى المترتبة على تفويضه من قبل « إمام جماعة المسلمين » ، وفى هذا المقام يلزم التنبيه إلى ضرورة الفصل أو التمييز - مثل بقية العالم الإسلامى فى العصر الوسيط - بين الاختصاصات القضائية التقليدية (القديمة) للقاضى وبين أخريات غير قضائية لكنها ألحقت شيئاً فشيئاً بالأولى ، سنتحدث أولاً بإيجاز عن الاختصاصات التقليدية القديمة ، ونحيل من يبغي تفاصيل أكثر عنها إلى الدراسات الفنية المتخصصة فى هذا المجال .

قام الكتاب الذى نَظَرُوا للحقوق الإسلامية العامة - مثل الموردي وابن خلدون (٤٧) - بتحديد دوائر اختصاص القاضى ، أما فى إسبانيا - دون ذكر النباهى الذى درسها بعناية واحدة واحدة - فقد تكفل الفقهاء دائماً بالمهمة .

وابن سهل (٤٨) - على سبيل المثال - يحدد اختصاصات القاضى الأندلسى قائلاً : إنه كان ينظر فى جميع القضايا المتعلقة بالمواريث والطلاق والتحجير والأحباس ، والقاضى الأندلسى لا يختلف فى هذا عن زملائه المشاركة إذ كان يحكم مثلهم فى كافة أنواع القضايا المتعلقة بالأفراد وفى النزاعات على العقارات والمنقولات التى تكون الدولة طرفاً فيها ولا يوجد قانون إدارى يحكمها ، وعلى خلاف ما تقدم فلم يكن القاضى يتدخل فى الدعاوى بين الذميين ، لأن هؤلاء - كما سنرى فى فصل آخر - كان لهم قضاتهم ، ولأن القاضى المسلم غير مُلَمَّ بقوانينهم الخاصة ؛ كان تدخله يقتصر فقط على القضايا التى يكون أحد الرعايا المسلمين طرفاً فيها .

لكى يفى القاضى بتلك المهام القضائية المتعددة - فضلاً عن القضايا ذات الطابع الخاص أو المتعلقة بإدارة بعض المؤسسات الدينية - فإنه اضطر للاستعانة بمستشارين (أو مساعدين) كان يكلفهم بالفصل فى الدعاوى الأقل أهمية ، ووجود « أصحاب الأحكام » هؤلاء فى المدن الكبرى مثل قرطبة وإشبيلية وطلليطة ثابت ومؤكد (٤٩) وسيتحدث عنه ابن عبدون فى بداية القرن الثانى عشر بالتفصيل ؛ ويحتمل وجود واحد منهم بكل حى من الأحياء .

وقد أشار ابن سعيد^(٥٠) إلى وجود قضاة صغار فى زمنه (أى أصحاب اختصاصات محدودة يطلق على الواحد منهم لفظ « مُسَدِّد ») مكلفين بحل النزاعات البسيطة فى القرى ، ومما لا شك فيه أن القرن العاشر قد شهد شيئاً مماثلاً .

فى ظل المدرسة المالكية أصبح القاضى يستعين فى هيئته القضائية بلجنة استشارية (شورى)^(٥١) مكونة من عدد من رجال الشريعة يطلق على الواحد منهم « فقيه مُشَوَّر » ، كان عدد أفراد اللجنة (المعينين بمرسوم ملكى) يتراوح - تبعاً للزمن وحجم المدن - بين اثنين (أو فرد واحد فى القليل النادر) وأربعة ؛ ولم يكن نشاطهم الرسمى يمنعهم من التصدى للفتوى (أو الفتيا) ، وعلى هذا فقد كانوا يقومون بمهمة الشورى والفتيا ، علاوة على إمكانية قيامهم بتحرير المحاضر القضائية أو الكتابة لقضاتهم ، أما الاستشارات التى يطلبها منهم القاضى فقد كانوا يردون عليها كتابة ويحفظون الردود فى أرشيف خاص^(٥٢) .

أدى نظام فرض استشارة « الفقيه المُشَوَّر » وحرية هذا الأخير فى الفتيا فى المسائل المعروضة عليه إلى توافق كم هائل من الآراء المدونة المدعومة بالأسانيد عن القضاء الإسلامى / الإشبانى ابتداء من القرن التاسع مما ساهم فى تحديد ملامح هذا القضاء فى أمور التقاضى المتشعبة ، ومن أبرز مجموعات الفتاوى (التى تعتبر بمثابة يوميات حقيقية للقضاة والفقهاء الأندلسيين ويرجع معظمها لعصر الخلافة الأموية والفترة التى تسبقه مباشرة) ما قام بجمعه « أبو الأصبغ بن سهل » المتوفى عام ١٠٩٣ م - ٤٨٦ هـ) .

والاطلاع على هذه الوثائق (التى لا تقتصر أهميتها على دراسة تطور الممارسة القضائية فى الغرب الإسلامى خلال صدر العصر الوسيط بل فى عرض الأسباب التى اقتضت تحريرها) يمدنا بفيض من المعلومات غير المعروفة عن الحياة الاجتماعية القرطبية وعن طبيعة العلاقات بين فئات الشعب المختلفة ، وسنجد أنفسنا لا حقاً مضطرين للاستعانة بهذه المعلومات (علاوة على ما تتضمنه صيغ العقود المدونة أيضاً

بالأندلس فى نهاية القرن العاشر) التى تقدم لنا التفاصيل الكثيرة عن المجتمع والحياة الاقتصادية فى الفترة الأخيرة من الخلافة ونبحث عنها دون جدوى فى مؤلفات المؤرخين والجغرافيين الذى اهتموا بالغرب الإسلامى .

ومثل بقية دول العالم الإسلامى فى العصر الوسيط ، لم يكن يوجد - لا فى قرطبة ولا فى المدن الأخرى - أبنية مخصصة لجلسات القاضى ، بل كانت تُعقد بأحد ملاحق المسجد الجامع ، أو بالمسجد ذاته أو بمنزل القاضى ^(٥٣) ، كانت المحكمة غاية فى البساطة : القاضى يجلس القرفصاء أو يتكىء على وسائد محاطاً بمستشاريه وكتابه ، وطرفا النزاع ماثلان أمامه بينما ينتظر الباكون دورهم الذى يعلن عنه الحاجب ، وبإمكان المتخاصمين الاستعانة بوكلاء عنهم ، كان لدى القاضى « أعوان » للحفاظ على النظام فى الجلسة وللنداء على الخصوم ، كما كان فى متناول يده حافظة (خريطة) تحوى ما هو جوهرى فى أرشيفه ليلجأ إليها عندما يترد التحقيق من شىء معين ^(٥٤) ، لا يوجد مشهد أشد بساطة وتواضعاً من هذه المحكمة (مجلس الحكم) المرتجلة التى تتدافع أمامها جموع المتخاصمين الذين تقدموا مسبقاً بدعائهم وحرصوا على تعضيدها بالشهود العُدول ، كما هو الحال فى « فاس » حتى وقتنا الراهن ، فقد كان هؤلاء الشهود ينتظرون (داخل خيام منصوبة فى حارة قريبة من المسجد الجامع : سباط العُدول) استدعاء القاضى لهم قبل النطق بالحكم .

ووجود هؤلاء الشهود الذين يضطلعون بمهمة « الشهادة أو العدالة » ^(٥٥) يعتبر من الأمور البديهيّة فى محيط اجتماعى يرتكز أغلب منهاجه العدالى على البيّنة والقسم ^(٥٦) ، ومن صفاتهم الأساسية : التمتع بأخلاق فوق مستوى الشبهات والإلزام بالثقافة القضائية اللازمة للترقية - فى بعض الأحيان - إلى « مجلس الشورى » ، كانوا يكسبون قوتهم من الأجور التى يدفعها لهم المتنازعون مقابل تحرير قرائنهم أو بيّناتهم لأن القضاة كانوا يفضلونها عادة على الشهادة الشفهية ، كما كان نشاطهم يمتد أيضاً إلى تحرير الأنواع المختلفة من العقود (مثل الزواج ، والطلاق ، والتبرعات الخيرية ... إلخ) وإلى اعتماد شهادات العُسْر (عُدْم) وحسن السير والسلوك ^(٥٧) ، ولهذا السبب ما يحدث الخلط - سواء فى عصر الخلافة أو بعده - بين « الشاهد العُدل » و « الوثائق » ^(٥٨) .

كان حكم القاضي نافذاً وعدالته مجانية ، إذ لم يكن المدعى أو المدعى عليه يتحمل سوى رسوم زهيدة ، وإن كان هذا لا يمنع من تعرضهما لا بتزاز أعوان القاضي أو الوكلاء الذين يتولون الدفاع عنهم . وبما أننا لا نملك رقما محدد الراتب القاضي ومساعدته (حاكم) خلال القرن التاسع والعاشر نظن أنه ظل لفترة طويلة متواضعا للغاية (٥٩) .

بالرغم من أن القضاء الإسلامى لم يعتد تشكيل محاكم للاستئناف إلا أن « القانون الإسلامى عندما سمح - فى بعض الحالات - بتعديل الحكم (بواسطة نفس القاضي أو غيره) ، وقبل عَرْض القضية على قضاة آخرين ، يكون قد ترك الباب مفتوحاً أمام الدعاوى الجديدة ، وهذا لا يختلف كثيراً عما تقوم به محاكم الاستئناف » (٦٠) ، وبالفعل ، فقد كشفت لنا مجموعة الأحكام القضائية الأندلسية عن مراجعة العديد من القضايا على النحو ، حيث عادت ثانية إلى ساحة قاضى قرطبة بعد الفصل فيها من قضاة الكُور ، وكان قاضى قرطبة يلجأ أحياناً إلى إطالة إجراءات التقاضى إذا أحس بوجود مسألة مماثلة تناولها الفقه المالكى ، ومن ثم فإنه لم يكن يتردد فى الاستعانة برأى زملائه فى الأقاليم - خاصة طليطلة وإشبيلية - حتى أنه كان يلجأ لقضاة غير أندلسيين مثل قضاة فاس أو القيروان .

ومن جهة أخرى ، فقد كان بوسع القاضي - للاستئانة برأى فقهاء العاصمة - دعوة « مجلس الشورى » للانعقاد وأحياناً كانت تُفرض عليه الدعوى من قبل العاهل ، وعلى سبيل المثال ، فقد قام القاضي « منذر بن سعيد » (أيام عبد الرحمن الثالث) بدعوة مجلس الفقهاء (مجلس الشورى) للانعقاد ليعرض عليه دعوى رفعها مُشْتَرٍ يطالب فيها بتطبيق حق « الشفعة » على بيع جزء من حمام مملوك على المشاع ، ولما أصدر المجلس قراراً سلبياً لجأ المشتري إلى الخليفة فكتب الأخير بخط يده وتوقيعه أمراً القاضي بعقد مجلس السورى من جديد والأخذ برأى الإمام مالك فى هذه المسألة ، وبالفعل ، اجتمع المجلس ثانية وأفتى بأحقية المدعى فى الشفعة ، فحكم له القاضي بذلك (٦١) . يبقى لنا ونحن نتحدث عن بواثر الاختصاص القضائية (٦٢) الإشارة إلى العقوبات المتضمنة إقامة الحدود : بالنسبة للخفيف منها (مثل الضرب أو الجلد أو الشُّهرة) كان القاضي يأمر مرفُوسيه بتطبيقها ؛ أما المَغلُظ منها فقد كان يُحال إلى السلطة المركزية المنوط بها تنفيذ الأحكام الصادرة .

دوائر الاختصاص غير القضائية :

بالإضافة إلى دوائر الاختصاص القضائية المذكورة آنفاً ، كان يُعهد للقاضي (مثل دول العالم الإسلامي الأخرى) بإدارة المؤسسات العامة التي يضبط الشارع ميكانيزم تأسيسها وأنشطتها .

وفى مقدمة هذه المؤسسات تأتي إدارة « بيت مال المسلمين » ؛ وقد نبهنا فى حينه إلى فداحة الخط - عند الحديث عن الخلافة القرطبية - بين « بيت المال » الذى يديره القاضى وبين الخزانة العامة للدولة (خزانة المال) التى تشكل الجباية أهم روافدها ويقع عبء إدارتها على عاتق الإدارة المالية التابعة للحكومة المركزية ، لقد ظلت هاتان المؤسسات منفصلتين تماماً ولم يحدث أن أزيلت بينهما الحواجز - إلا نادراً - حتى فى العصور الأشد اضطراباً من تاريخ الأندلس . كان « بيت المال » ملكاً عاماً لجماعة المسلمين ولم يكن للدولة - ولو نظرياً - أية سلطة عليه ؛ وروافده تتمثل فى العائد من إدارة ثروة الغائب (أى المسلم الذى يغادر وطنه دون تعيين وكيل لإدارة ممتلكاته) ، لكن معظمها كان يأتى عن طريق « الوقف » (٦٣) و « الحبوس » ؛ والمسمى الأخير هو الذى شاع استخدامه فى الغرب الإسلامى منذ نهاية العصر الوسيط ولدينا توصيف هام للوقف ينسحب على إسبانيا الإسلامية خلال العصر الذى نحن بصددده : الوقف - طبقاً للمذهب المالكى - عبارة عن مؤسسة دائمة ، فى الغالب ، ذات أهداف دينية ، يتنازل فيها المالك أثناء حياته (أو العاهل حين يتعلق الأمر بملكية عامة) عن عائد منقولات أو أملاك عقارية لصالح الفقراء وأعمال البر والإحسان ، ونظراً لإمكانية جعل المؤسس لأى شخص ثالث أو ورثته حائزاً وسيطاً على وقفه ، يمكن القول أن الوقف كان إحدى الوسائل المضمونة والسهلة ، لا لتأمين الموارد للمتفعين به فحسب ، بل أيضاً للتحايل على نظام الموارث ولحفظ الثروة من التعرض للمصادرات التى كانت شائعة فى ذلك الوقت (٦٤) .

كانت أرصدة « بيت المال » تحفظ فى أحد ملاحق المسجد الجامع (٦٥) وللقاضى حرية السحب منها للإنفاق على « مصالح العامة » المتمثلة فى إعانة الفقراء أو الإنفاق على المساجد وتسديد أجور العاملين بها (من أئمة ومؤذنين وخدم ... إلخ) ، وأفضل

ما لدينا من معلومات مفصلة عن خزانات مؤسسات البرّ ندين به للفقيه « ابن عبدون »^(٦٦) بالرغم من أنها تتعلق بفترة متأخرة كثيراً عن عصر الخلافة ؛ وطبقاً لتلك المعلومات فقد كان من حق القاضي سحب أموال من خزانات مؤسسات البرّ لمساعدة الأمير في الحملات الموجهة إلى أرض الكفار أو لترميم قلعة من قلاع الثغور ، وإدارة الأوقاف تتطلب - بالطبع - توافر عدد من العاملين والمشرفين (ناظر الأوقاف)^(٦٧) لمساعدة القاضي ، كانوا يتلقون الأوامر من القاضي مباشرة ، وحظوا ببعض التسهيلات للاستثمار الأمثل للثروات الموقوفة مثل احتكار تأجير الخيام في الأسواق التي كانت تقع - عادة - بالقرب من المسجد الجامع .

ومن الاختصاصات غير القضائية التي ينوب فيها القاضي عن العاهل إمامة الصلاة بالمسجد الجامع وخطبة الجمعة ، وإمامة المصلين في صلاتي عيد الفطر والأضحى اللذين كانا يُقامان في مصلى بالخلاء على مشارف العاصمة ، كما كان يؤم صلوات الجماعة الاستثنائية مثل صلاة الاستسقاء^(٦٨) ، ولهذا أطلق عليه « صاحب الصلاة »^(٦٩) بالإضافة إلى لقبه المعهود (قاضي الجماعة) ، أما لقب « الإمام » فقد ظل مقتصرًا على العاهل وحده ، ومع هذا فقد كان من الممكن أن يتولى إمامة المصلين شخص آخر غير القاضي ، خاصة في القرن التاسع الذي لم تخفت فيه حدة النزعة العرقية في المجتمع القرطبي ، وبالتالي حساسيته الشديدة لقيام « مولى » بإمامة « صلاة الجماعة »^(٧٠) .

وأخيراً ، فقد كان القاضي هو الشخص الوحيد المخول بالتثبّت من ظهور الهلال (ارتقاب الأملة) في مطلع ونهاية شهر رمضان^(٧١) .

المكانة الاجتماعية البارزة لقاضي قرطبة :

لا زالت دراسة القضاء في إسبانيا الأموية تحتاج لتحليلات فنية مطولة ، لكن المجال لا يسمح بالخوض فيها هنا ، نكتفي بالإشارة إلى أن قاضي قرطبة (قاضي الجماعة) كان خلال القرن العاشر واحداً من الشخصيات الرئيسية في الدولة^(٧٢) . وكان يحتفظ - في مواجهة العاهل الذي عينه - بحرية رأى وصراحة في القول لا يتوافران لغيره ، كانت هذه الاستقلالية شرطاً جوهرياً لقبوله منصبه ، وإذا

أحس بتقلصها سارع بتقديم استقالته (استعفاء) ، لم يكن يتردد فى الانتصاف للضعفاء من الأقوياء والحكم لصاحب الحق حتى لو كان خصمه أحد رجالات البلاط أو الأمير ذاته ، لهذا أجلَّته الجماهير وأكبرته وبالغت فى احترامه والحفاوة به ، كانت العامة تضع فيه أملها لتوصية الخليفة - كلما دعت الحاجة - بالتواضع والإنعاش ذاكراته بسيرة المجتمع الإسلامى الأول القائم على الديمقراطية والمساواة . أورد المؤلفون الأندلسيون العديد من المواقف التى انتصب فيها القاضى القرطبى ناقداً للعاهل ومدافعاً عن حقوق الرعية .

نبهنا إلى أن قضاة قرطبة كانوا يُختارون فى عصر الإمارة من العرب الخُلص ، بالرغم من وجود « مولى » على الأقل بينهم ، وفى القرن العاشر تولى عبد الرحمن الثالث عن هذه العصبية وفكر فى تنصيب « مؤلّد » - اعتنقت أسرته الإسلام حديثاً - قاضياً ، لكن مشروعه باء بالفشل فى النهاية لاعتراض فقهاء العاصمة (علماً بأنهم لم يضعوا أية عراقيل أمام تعيين قضاة من أصول بربرية) .

ومنذ عهد الحكم الثانى أخذ قضاة قرطبة يمارسون السياسة من أوسع أبوابها وأصابوا شرف الوزارة بما يشتمل عليه من امتيازات ، كان بعضهم أرسقراطياً مثل « ابن فطيس » الذى يقدمه لنا كُتّاب التراجم على أنه رجل واسع الثراء ، مُتِمّ بالكتب القيمة ، ويؤثر الاعتكاف فى مكتبته المطلية باللون الأخضر والمترعة بالمخطوطات النادرة ^(٧٣) . عاصره « ابن ذكوان » ^(٧٤) و « ابن وفيض » ^(٧٥) اللذان اجتهدا فى إخماد الصراعات الدموية القرطبية أيام الفتنة : أبان الأول منهما عن موهبة دبلوماسية حقيقية واكتسب شعبية بين بربر « سليمان المستعين » ؛ وعلى خلاف هذا كره الناس الثانى وأطلقوا عليه لقب « قاضى المسيحيين » وعندما دخل الأفارقة قرطبة ساموه سوء العذاب ولم يمنعه حظ النجاة من غضب فقهاء المدينة من قضاء نخبه سريعاً بين قضبان السجن .

تولى القضاء للمنصور خاله : « ابن برطل » ^(٧٦) ، وظل الحكم الثانى طوال سِنِي حكمه راضياً عن قاضيه « ابن السليم » الذى عينه بعد موت آخر قضاة والده (القاضى الأشهر : منذر بن سعيد البلوطى) ^(٧٧) ؛ لكن « ابن السليم » لم يسلم فى العهد التالى من الانتقادات الحادة ^(٧٨) .

من الشخصيات القضائية المثيرة للإعجاب والدهشة شخصية « منذر بن سعيد البلوطى » الذى ترجع أصوله لإحدى قبائل البربر الإفريقية ، كان من عائلة بسيطة تقيم منذ عدة أجيال فى منطقة « فحص البلوط » الواقعة شمال قرطبة ؛ درس أولاً فى إسبانيا ثم فى الشرق بعد ذلك ؛ اختاره الخلفية الناصر فى أواخر عهده قاضياً (٧٩) لما عُرف عنه من نزاهة وفضل ، لم يكن قاضياً وفقياً ضليعاً فحسب (٨٠) ، بل - أيضاً - أديباً لا يُشَقُّ له غبار ، يمتلك ناصية الشعر والنثر فى براعة ويُسَر ، وخير برهان على هذا ما جرى فى حفل الاستقبال الذى أعده عبد الرحمن الثالث لسفراء « قسطنطين السابع » عام ٩٤٩ م (٣٣٨ هـ) ، فى تلك المناسبة ران الصمت على الأدباء الحاضرين المدعوين أساساً لا رتجال ما يروونه فى مدح الإسلام وخليفة الأندلس ؛ حتى « أبى على القالى » ، الفيلسوف الشهير الذى أحضره ولى العهد آنذاك (الحكم) من المشرق خصيصاً لهذا الغرض ، لم ينبس هو الآخر ببنت شفة ، لكن « منذر بن سعيد » كان موجوداً بالقاعة ، فطلب الإذن بالكلام وألقى الخطبة التى ينتظرها الجميع فى نثر رصين مسجوع ، فى العام التالى - وبالرغم من تقدمه فى العمر - عُيِّن قاضياً للجماعة وبقي فى منصبه حتى توفى سنة ٩٩٦ م (٣٥٥ هـ) عن اثنين وثمانين عاماً ، كثيراً ما غضب الناصر من تصرفاته الفظة نوعاً ما ، ومن ضربه ببروتوكولات الملك عرض الحائط ، كان العاهل فى أوج عظمته هدفاً لمداينة الجميع والثناء بحماس منقطع النظير على أنفه ما يصدر عنه من أشياء ، بينما لا يتورع القاضى عن زجره ، ويعنف أحياناً ، كان الخليفة يثور عندئذ ويتوعد القاضى ويهدده ، لكنه لا يجد فى النهاية بداً من التسليم ، وفى هذا المقام تكفى الإشارة الموجزة لتلك الواقعة الشهيرة (٨١) : بنى الناصر قاعة استقبال جميلة فى مدينة الزهراء وألُمت به نزوة ترصيع قببها بالذهب والفضة ، ولما انتهى العمل وجّه الدعوة لأشراف العاصمة وجوهراتها لحضور حفل الافتتاح ، وبينما كان الإبهار والنشوة يسيطران على المدعوين وصل « ابن سعيد » مكفهاً ، وعندما سأل الناصر عن رأيه فى المبنى انفجر القاضى قائلاً : « واللّه ، يا أمير المؤمنين ، ما ظننت الشيطان ، لعنه الله ، يبلغ منك هذا المبلغ ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين ، حتى ينزلك منازل الكافرين » . لا شك أن هذه الانطلاقة التى جاءت مشفوعة بالآية القرآنية المناسبة (٨٢) تحتاج إلى

(*) الآية القرآنية المقصودة هى قوله تعالى : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون » صدق الله العظيم (المترجم) .

غير قليل من الشجاعة . هاج الخليفة وماج ، لكنه تاب إلى رشده فى النهاية وأمر بتغيير القبة المتلألئة بأخرى عادية .

لكن هذا المويخ الصلد ، الذى كانت على طرف لسانه دائماً الآية القرآنية الحاسمة التى لا تقبل الرد ، كان أيضاً يعرف المزاح والدعابة فى الوقت المناسب ، كانت كلماته لذاعة ^(٨٢) قريية الشبه بسخریات « يحيى الغزال » (سفير وشاعر عبد الرحمن الثانى) ، لم يسلم الفقهاء أنفسهم من سخرياته التى كانت تصممهم بالتجاوز والروتين وضربهم بالعلم والضمير عرض الحائط عند إبدائهم للرأى .

كان القاضى ، دون التباهى الزائد بالانتماء لمذهب المعتزلة (مذهب مشكوك فيه تعرض للقمع الرسمى ، وسنحاول فى فصل آخر بيان كيفية تسله إلى قرطبة ^(٨٣)) ، يمارس الاجتهاد ، وفى جميع المسائل التى تُعرض فى مجلسه يحاول تكوين رأى مستقل يعتمد عليه فى الحكم بدلا من الرجوع إلى الحالات المشابهة التى نظر فيها القضاة الأقدمون ؛ ومن هنا فهو يختلف عن زملائه السابقين الذين كانوا يأخذون بمبدأ « التقليد » . كانت صفة الاجتهاد هذه (الغريبة على مجتمع محافظ لأقصى درجة) كفيلة برفع شأن صاحبها الذى يتحدث بصوت عال دون حرج من الزملاء أو العاهل ؛ كما كانت فى الوقت ذاته إحدى السمات الأشد تعبيراً وروعة ^(٨٤) للقاضى الأندلسى فى عصر الخلافة ^(٨٥) .

٢ - هيئات القضاء الفرعية

خُطتا «الرّد» و « المظالم »

فى مقابل فيض الوثائق التاريخية والفنية التى تتناول القضاء وقضاة قرطبة فى القرنين التاسع والعاشر لا نجد سوى معلومات هزيلة تفتقر إلى الدقة عن الهيئات القضائية الأخرى الأقل أهمية ، ولذا يمكن القول إنه ما يزال ينقصنا الكثير للتعرف على طبيعتها أو تحديد أنشطتها .

ومن الدوائر الاستثنائية الملحقه بالقضاء نشير فى المقام الأول إلى اثنتين : « خطة المظالم » (التى لها مثال فى الشرق واجتهد مُنظرو الحقوق العامة فى الإسلام فى شرح قواعدها بالتفصيل ، لكن يبدو أن تلك القواعد لم تكتمل أبداً فى إسبانيا الأموية) ؛ و « خطة الرّد » (التى تقتصر على الغرب ولا يوجد نظير لها فى الشرق) ، كانت الخطتان منفصلتين فى البداية وعلى رأس كل منها صاحبها ، ثم اتحدتا بعد ذلك تحت رئاسة واحدة ، وهذا يكشف مقدماً عن مدى ارتباطهما الوثيق ، فى القرن التالى لسقوط الخلافة الأموية عُدَّ « ابن سهل » ^(٨٦) الخطط التى يحق لأصحابها إصدار الأحكام ، وكانت كما يلى :

القاضى ، وصاحب الشرطة ، وصاحب المظالم ، وصاحب الرّد ، صاحب المدينة وصاحب السوق ، ولنا وقفة فيما بعد مع الخطة الثانية والرابعة والخامسة .

يخبرنا « ابن سهل » أن « صاحب الرّد » سُمى هكذا لأنه كانت تُرد إليه بعض الأحكام ، ولأنه لم يكن يصدر أحكامه إلا فى المسائل « المشكوك فيها » ^(٨٧) التى يتفادها القضاء ، وبما أن « ابن سهل » يستخدم صيغة الماضى ويعتمد فيما يقول على حديث شفهي سمعه فى شبابه يمكننا التكهن بأن « خطة الرّد » كانت قد ألغيت - على أيامه - فى إسبانيا وأنها أدرجت فى « المظالم » ؛ على أى حال ، يبدو أن التعريف الذى قدمه « ابن سهل » للرد أفضل من التعريف الذى سقناه من قبل ^(٨٨) ، ذلك لأن القاضى الذى يمارس مهامه فى إطار الحدود الصارمة لاختصاصاته القانونية بإمكانه التملص من الحكم فى مسألة يراها مشوشة وغير

واضحة ، وعلى سبيل المثال إذا لم يتقدم المدعى بمستند يعضد ادعائه . فى هذا المقام لا مفر من طرح السؤال التالى : ما هى اختصاصات « صاحب الرد » الذى ستؤول إليه القضية ؟ هل كان من سلطته إصدار الأحكام أم أنه مجرد وسيط يحول القضية برمتها إلى دائرة اختصاص أخرى ؟ للأسف لا يوجد لدينا حالياً ما يعيننا على تقديم إجابة شافية عن هذا السؤال .

يقدم لنا مؤلفو التراجم بعض أسماء من تولوا « خطة الرد » منذ عهد الحكم الثانى فى القرن العاشر ، ومن بينهم نذكر : « محمد بن تمليح التميمي » ^(٨٩) الذى عهد إليه الحكم الثانى - بالإضافة إلى « خطة الرد » - بإدارة أعمال التوسعة بمسجد قرطبة الجامع ، تحت إشراف الفتى الصقلبي « جعفر » ؛ « عبد الملك » (أحد أبناء القاضى « منذر بن سعيد البلوطى ») وقد صُلب عام ٩٧٩ م (٣٦٨ هـ) ^(٩٠) وحل محله « عبد الله بن حرثمة بن ذكوان » ^(٩١) الذى مات فى إحدى الصوائف بعد سنتين من ولايته القضاء ؛ وبعد وفاة الأخير وليَ أحد أبنائه ويدعى « أحمد » ^(٩٢) وقد كان قاضياً على « فحص البلوط » حتى عام ١٠٠١ م (٣٩٢ هـ) ، وفى عام ١٠١١ م (٤٠١ هـ) ولَّى هشام الثانى على « الرد » رجلاً يدعى « يحيى بن عمر بن نبيل » لكنه توفى يوم ولايته ^(٩٣) . وبالنسبة « لخطة المظالم » فمن المعروف ^(٩٤) أنها تختلف فى إسبانيا عن الشبرق العباسى لأنها كانت فى الأخير تضم اختصاصات واسعة قد تتجاوز الجانب الشرعى ، ومن المعروف أن مفهوم المظالم فى الإسلام ^(٩٥) يطلق على كل ما ينتهك الحقوق للفرد وعلى الأضرار الناجمة عنه ، ولنع أمثال تلك الانتهاكات ولتعويض المضارين منها فإن « خطة المظالم » تتطلب سلطات وصلاحيات أوسع مما لدى القاضى الذى يجد نفسه فى موقف يستحيل عليه فيه إجبار أحد الخصوم على المثول أمامه أو إجباره على تنفيذ الحكم الصادر ضده طبقاً للقواعد الشرعية ، وهذا ما يشير إليه بالفعل المؤرخ المشرقى « المقرئى » عند تحديده لخطة المظالم : تطبق على تلك القضايا التى لا يستطيع القاضى الفصل فيها ويتركها لمن هو أقوى منه ^(٩٦) .

بالرغم من أن بعض أمراء بنى أمية كانوا يسعدون بالقيام بدور « صاحب المظالم » إلا أنهم تخلوا عنه بعد تأسيس الخلافة ، ومع هذا لا يوجد ما يمنع من الظن

بأن عبد الرحمن الثالث ومن جاؤا بعده ظلوا يهتمون شخصياً بالشكاوى التى تصلهم عن السُّلب والنهب والتعسف فى استخدام السلطة ، ولكى يكونوا على بينة بما يجرى من هذه الأشياء فقد عينوا قضاة مخصوصين ، اختاروهم من بين الفقهاء الأعضاء فى مجلس الشورى ، ويغلب الظن بأن هؤلاء القضاة المخصوصين هم الذى حملوا لقب « صاحب المظالم » (أو : « صاحب أحكام المظالم » ، بتعبير أدق) خلال الفترة التى نعرض لها بالدراسة ، وأنه كان من سلطتهم إصدار الأحكام طبقاً لإجراءات استثنائية تختلف عن إجراءات القضاء العادى . يروى لنا مترجمو المنصور بن أبى عامر إحدى الوقائع المعبرة فى الخصوص : قدم ذات يوم رجل من العامة إلى « حاجب القصر » ليشتكوا إليه من ظلم ضابط صقلبى يعمل فى حرس المنصور الخاص ، قال الرجل إنه تعرض للسُّلب والنهب من الضابط ، ولما ذهب وشكاه إلى القاضى « ابن فطيس » رفض المثول أمامه ، عندما علم المنصور لم يرسل الخصمين إلى القاضى بل أرسلهما إلى « صاحب المظالم » وأوصاه بإنزال أقسى العقوبة بالضابط فى حال ثبوت التهمة عليه (٩٧) .

لدينا أسماء بعض من تولوا « خطة المظالم » - فى القرن العاشر وبداية الحادى عشر - قبل دمجها فى « الرِّد » ، أحمد بن محمد بن حضير « (٩٨) شقيق موسى ، الحاجب الشهير للناصر) الذى حمل لقب وزير وتوفى عام ٩٣٩ م (٣٢٧ هـ) ؛ « عبد الرحمن بن فطيس » ، قبل ولايته القضاء عام ١٠٠٤ م (٣٩٤ هـ) ؛ « أبو حاتم محمد بن عبد الله » (٩٩) ، وهو من عائلة « بنى ذكوان » ، وكان قبل ذلك « مُشَوِّراً » وقاضياً على « فريش » (Firrish) (الواقعة شمال قرطبة) ، وهو الذى كشف لعبد الملك المظفر أبعاد المؤامرة التى حاكها ضده الوزير « عيسى بن سعيد » عام ١٠٠٦ م (٣٩٧ هـ) ؛ وأخيراً ، « محمد بن على بن عبد الرؤوف » ، المتوفى عام ١٠٣٣ م (٤٢٤ هـ) (١٠٠) .

ونشير فى النهاية إلى الافتراض الذى ذهب إليه « خوليان ريبيرا » (١٠١) منذ ستين عاماً ، ومفاده : أن « خطة المظالم » باختصاصاتها المعروفة فى إسبانيا الإسلامية قد انتقلت برُمَّتْها إلى التشريع البدائى لنبلأ « أرغن » (Argón) تحت مسمى « العدالة الكبرى » (١٠٢) ، ومن جانبنا نرى أن الإعارة محتملة لكنها غير

مؤكدّة ، خاصّة إذا وضعنا في الاعتبار أن المسميات العربية لرجال القضاء والهيئات القضائية قد انتقلت إلى اللغة الإسبانية وأصبحت جزءاً منها ، ونضرب مثالا على هذا بتعبير « صاحب المدينة » التي انتقل إلى اللغة الإسبانية في هذه الصورة (zalmedina) ، لكنه لا يعنى بأى حال العدالة في المدن الأرغونية .

« صاحب السوق »

الهيئة القضائية التي أطلق عليها في إسبانيا الأموية « صاحب السوق » هي نفسها التي عرفها الغرب الإسلامي منذ القرن الحادى عشر باسم « أحكام الحسبة » التي يرأسها « المحتسب » ، ولا تزال كلمة « المحتسب » (التي انتقلت إلى اللغة الإسبانية في هذه الصورة (almotacén o almotazaF) تستخدم حتى الآن في المغرب نتيجة لوجود هيئتها القضائية فيه ، وذلك على خلاف البلدان التي وقعت تحت سيطرة الإمبراطورية العثمانية مثل تونس والجزائر .

تعتبر « الحسبة » (ومثلها قاضى الجماعة) من الهيئات القضائية التي يتوافر عنها كمّ هائل من المعلومات (١٠٣) خاصة بعد اكتشاف ونشر كتابين ألفهما في إسبانيا - بعد سقوط الخلافة الأموية بحوالى قرن تقريباً - محتسبان بغرض خدمة زملائهما في العمل ، وبالرغم من هذا الفاصل الزمني الكبير إلا أن كلا الكتابين - سواء ما ألفه « ابن عبدون الإشبيلي » (١٠٤) أو « السقطى المالقى » (١٠٥) - يعكس أوضاعاً لم تتغير كثيراً عما كانت عليه أثناء ازدهار الخلافة القرطبية ، ونظراً لما يحتوى عليه الكتابان من إشارات عملية وممارسات فعلية - بغض النظر عما يصحبها عادة من أفكار تنظيرية - فإنهما يعتبران أثري وأوفى ما لدينا من مصادر عن الحياة في المدن الأندلسية خلال تلك الحقبة التاريخية ، ومن ثمّ فإنّه من المستحيل دراسة الأنشطة الصناعية والتجارية لسكان تلك المدن دون الرجوع إلى هذين الكتابين باستمرار .

وكما هو معروف ، فإن « الحسبة » في العالم الإسلامي تنبع من التزام المسلم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الوسط الاجتماعى الذى يتحرك فيه . إنها الصيغة القرآنية الشهيرة التي اتخذها الموحدون ركيزة لحركتهم الإصلاحية في القرن

الثانى عشر ، ولما كان من الصعب الاعتماد على المبادرات الفردية لتطبيق هذه الصيغة فى الدولة المنظمة ، دعت الحاجة إلى هيئة قضائية خاصة (الحسبة) التى تكمن مهمتها الأساسية فى مراقبة سلوكيات المسلمين فى التجمعات الحضرية طبقاً لما يمليه نظام الأخلاق الإسلامى ، بحيث تشمل التصرفات الشخصية والمتبادلة مع الآخرين ، ومن هذا المفهوم الحرفى للحسبة يتضح أن دوائر اختصاص صاحبها كانت واسعة جداً لدرجة الإفراط ، لكنها سرعان ما انحصرت فى إسبانيا - التى ثبت وجودها فيها منذ عهد هشام الأول - على مجال التعاقدات التجارية ، وأسندت إلى قاضى قرطبة وقضاة الأقاليم ، أو اضطلع بمسئوليتها « صاحب الشرطة » .^٩

وبالفعل ، توجد ثلاث حالات^(١٠٦) تثبت ولاية قضاة قرطبيين - سواء فى عصر الإمارة أو الخلافة - لأحكام الشرطة والسوق معاً ؛ والجمع بين الوظيفيتين يعنى أن صاحبهما يمارس فى الوقت ذاته السلطات الإجرائية للقضاء المدنى والجنائى . ويبدو أن التقليد كان متبعاً فى إسبانيا الإسلامية حتى عهد عبد الرحمن الثانى الذى ينسب إليه المؤرخ ابن حيان تنظيم الخدمات البوليسية والأمنية والإدارة الحضرية لعاصمته ، وكانت جميعها موكلة - قبله - إلى (صاحب السوق) بصفته المسئول الأوحد أمام السلطة المركزية عن الحفاظ على النظام العام وعن الإبلاغ الفورى عن أية حركة تمرد تطل برأسها بين الطبقات الدنيا للشعب القرطبى .

وبالرغم من عدم العثور على أى نص نستطيع من خلاله التعرف على دقائق اختصاصات « صاحب السوق » فى القرن العاشر إلا أننا نعتقد بأنها مماثلة لاختصاصات « المحتسب »^(١٠٧) فى القرون التالية ، وهى تكمن بالدرجة الأولى فى مراقبة النشاط الاقتصادى فى قرطبة والمدن الرئيسية الأخرى . وصاحب الوظيفة أشبه بـ « رئيس جماعة التجار » ويتمتع بثقافة دينية وقضائية واسعة تضمن له التطبيق الجيد لقواعد الإسلام الصارمة التى تحكم الأنشطة التجارية .

ومن المهام الرئيسية المنوطة بصاحب السوق نذكر : تلافى الغش ، والتأكد من نزاهة المصنعين والبائعين ، والتأكد من جودة المعروض للبيع أو الشراء ، التحقق من سلامة الموازين والمكاييل ، وربما تحديد الأسعار اليومية للسلع المختلفة . كما كان حقه فى التفتيش والمتابعة يمتد إلى أمور أخرى مثل الأشغال العامة وسلوكيات

الجماهير ، لقد كان بهذا الشكل خير معين للقاضى لأنه كان يرسل المجرمين إليه ، ولديه أعوان ينقلون إليه كافة المخالفات ذات الطابع المدنى أو الجنائى ، ومن جهة أخرى ، فقد كان بإمكانه الحكم بالسجن وبالعقوبات الجسدية ، علاوة على تسديد الديون الصغيرة بين المشتريين والبائعين .

« صاحب المواريث » :

ومن الهيئات القضائية فى عصر الخلافة الأموية تجدر الإشارة إلى مكتب التركات الشاغرة (ليس لها وريث شرعى) (١٠٨) الذى يرأسه « صاحب المواريث » . ولفظ المواريث يطلق بالفعل (فى المذهب المالكى) على الأملاك التى يموت عنها صاحبها ولا يوجد من يخلفه فيها من الورثة الشرعيين (الأقارب من العصب ، أو السيد المعتق بالنسبة للعقيق) ؛ ولهذه القضايا فى التشريع الإسلامى نظام خاص يتسم بالدقة والصرامة لا يتسع المجال للتطرق إليه هنا . فى حالات التركات الشاغرة (سواء كانت لمسلمين أو ذميين أو مستعربين أو يهود) يغلب حق الدولة على حقوق أقارب المتوفى من غير نوى العصب (الأقارب من جهة الأم ، مثلاً) . نظراً لما تمثله التركات الشاغرة من أهمية بالنسبة لخزانة الدولة ، فقد أعدت لها فى إسبانيا الأموية هيئة قضائية خاصة ، تابعة للقاضى ، تخول له سلطة الحكم بتحويلها إلى الخزانة العامة ، ومما لا شك فيه أن « صاحب المواريث » كان يدير - تحت رقابة القاضى - هذه التركات ويودع إيراداتها فى الخزانة المركزية ، أو يوجهها - مثل نظائر الأوقاف - إما إلى خزانة الأعمال الخيرية أو إلى « بيت المال » .

توجد فى قوائم التعيينات الرسمية التى أعدها المؤرخ « عارب » للقرن العاشر بعض أسماء الذين تولوا إدارة المواريث ، من بينهم نذكر الفتيين الصقليين : « دُررى » (Durri) و « قاند » (Qand) ، اللذين مارسا المهمة منذ ٩١٤ م (٣٠٤ هـ) فى بداية عهد عبد الرحمن الثالث (١٠٩) ، وبعد نصف قرن تقريباً - فى ٩٦٨ م (٣٥٧ هـ) - تولى المهمة ابن أبى عامر فى بداية مشواره المكلل بالغار ، وفى بعض الحالات - مثلما حدث مع العامرى - كان من الممكن الجمع بين هذه المهمة ومهام إدارية وقضائية أخرى ، وفى هذا الشأن نضرب مثلاً بفتية قرطبة جمع (حسبما جاء فى ترجمته) بين وظيفة « صاحب الشرطة » و « صاحب الصلاة » والخطبة فى المسجد الجامع والإشراف على التركات الشاغرة (١١٠) .

٣ - عقوبات الزجر والردع

« الشرطة » واختصاصاتها :

أثبتت الوثائق الوجود المبكر لهذه المؤسسة في امبراطورية الشرق العربية ، كما كتب عن مهامها مُنظَرُ الحقوق العامة في الإسلام - خاصة المواردى - كثيراً من التعليقات الفنية التي لا يتسع المجال لسردها ^(١١١) ، تكفى الإشارة إلى أن القاضى ، عندما كان يعجز عن إصدار حكم فى قضية معينة لصعوبات تعترضه فى الإجراءات الشكلية للدعوى أو فى استخلاص القاعدة الشرعية المناسبة لها ، فإنه كان يحولها إلى دائرة « الشرطة » ، بمعنى أن القاضى عندما لا يجد ما يستند عليه للحكم بأى نوع من العقوبات الشرعية المسماة « بالحدود » فإنه يحيل المسألة إلى دائرة قضائية أخرى أكثر مرونة تعتمد على الاجتهاد لاختيار العقوبة التقويمية الملائمة (تعزيز) . و « صاحب الشرطة » هو المُفَوَّض من العاهل للاجتهاد فى تقدير تلك العقوبات التى تَخَفَّف القاضى من عبء البت فيها ، إنه نوع من القضاء العلمانى ، يشبه القائم عليه « حَكَمْدَار البوليس » غير المطالب بمراعاة الحدود الشرعية الصارمة ، ولديه حرية تتبع الجرائم المرتكبة ضد الأفراد أو الصالح العام ، وإنزال العقاب الملائم بمقتضى فيها ، من منطلق معيار اجتهادى ينسجم (نظراً لأخذه فى الاعتبار الطبقة الاجتماعية للمتهم) مع ما يمليه الوضع السياسى القائم .

ظهرت هذه الدوائر القضائية فى إسبانيا الأموية منذ القرن التاسع ^(١١٢) ، فقد ذكر ابن حيان - كما أشرنا من قبل - أن عبد الرحمن الثانى هو أول من بادر بإدخالها ضمن الخطط القضائية لمملكته ، واقتطع اختصاصاتها من مهام « صاحب السوق » ، المسئول الأوحد - حتى ذلك الوقت - عن الحفاظ على الأمن العام بالعاصمة الأندلسية ، ويضيف المؤرخ القرطبى قائلاً : إن مسمى « أحكام الشرطة » الذى أطلق عليها حين ظهورها بإسبانيا قد تغير فى عصره إلى « ولاية المدينة » ^(١١٣) . ستظل هذه البلبلة فى التفرقة بين صاحبي « الشرطة » و « المدينة » - بالرغم من الفصل الواضح بينهما فى قائمة ابن سهل الخاصة بالخطط القضائية - ماثلة فى التعريفين اللذين قدمهما مؤرخان متأخران للغرب الإسلامى : ابن سعيد وابن خلدون . يشير الأول ^(١١٤) إلى أن المكلف بخطة الشرطة كان الشعب يسميه « صاحب المدينة »

أو « صاحب الليل » وأن مهمته تكمن في التحقيق في الدعاوى والجرائم التي لا تدخل في اختصاص القاضي ، ومن سلطته الحكم حتى بالإعدام على من وجب عليه ذلك دون استئذان العاهل . أما ابن خلدون فقد كان أكثر وضوحاً ^(١١٥) حين قال بأن « صاحب الشرطة » يفصل في الجرائم التي تشملها دائرة القضاء المدني ذى الصبغة السياسية ، وأن هيئة قضائها كانت موجودة في زمنه ، ويطلق على من يمارسها في تونس لفظ « حاكم » وفي غرناطة « صاحب المدينة » ، وطبقاً لراييه ، فإن هذه الهيئة لم تكتسب شهرة وسمعة بقدر ما اكتسبت في قرطبة الأموية ؛ يقول ابن خلدون موضعاً : « وقد تنوعت وظيفة صاحب الشرطة بحسب طبقات الناس في الأندلس ، فصاحب الشرطة العليا (أو الكبرى) ينظر في أمور الخاصة ، وله الحكم على أهل المراتب السلطانية والموظفين والضرب على أياديهم وأيادي أقاربهم ومن ينتمون إليهم من أهل الجاه ، أما صاحب الشرطة الصغرى فكان مخصصاً بالعامه ، وكان صاحب الشرطة الكبرى يجلس في فسطاطه المضروب أمام بوابة قصر العاهل محاطاً بأعوانه الذين لا يغادرون مجلسهم إلا لتنفيذ أوامره » ويختم المؤرخ كلامه مشيراً إلى رفعة مرتبة الشرطة العليا التي كثيراً ما كانت تحمل صاحبها إلى الوزارة أو الحجابة .

سنسعد أيما سعادة بالمعلومات السابقة لو اتفقت مع بيانات علم التاريخ المعاصر للخلافة ، وخاصة قوائم التعيينات الرائعة التي أعدها « عارب بن سعيد » للفترة من ٩١٢ م (٣٠٠ هـ) - سنة جلوس عبد الرحمن الثالث على العرش - إلى ٩٣٢ م (٣٢٠ هـ) ، فتلك القوائم تقدم ، من جهة ، البرهان القاطع - في النصف الأول من عهد الناصر ، على الأقل - على أن الذين تولوا منصب « الشرطة » مغايرين تماماً لمن أسندت إليهم مهمة « صاحب المدينة » ^(١١٦) ؛ كما تفيد ، من جهة أخرى ، بأن الشرطتين (الكبرى والصغرى) قد أضيفت إليهما منذ عام ٩٢٩ م (٣١٧ هـ) ^(١١٧) هيئة أخرى تسمى « الشرطة الوسطى » ظلت تمارس نشاطها لما لا يقل عن نصف قرن ، ذلك لأن ابن أبي عامر (منصور المستقبل) بدأ مشواره بهما عندما عينه عليها الحكم الثاني سنة ٩٧٢ م (٣٦١ هـ) ^(١١٨) .

إذا أردنا تفسيراً لاجتماع هذه الهيئات الشرطية الثلاثة في عاصمة الخلافة يتعين علينا فهم النظام الطبقي السائد في العالم الإسلامي خلال ذلك العصر ، والتسليم ، مثل ابن خلدون ، بالرغم من صمت المؤرخين المُطبّق ، بأن كل واحدة من هذه الهيئات لم تكن تمارس نشاطها إلا على فئة معينة من الشعب القرطبي .

لن نتجاوز حقنا دون ريب لو اعتقدنا أن واقع الفصل بين الطبقات الاجتماعية (تمشياً مع التمييز القديم بين سكان المدينة الإسلامية وتقسيمهم إلى « خاصة » و « عامة ») هو الذى استوجب فى إسبانيا - مثل الشرق - ازدواج هيئة الشرطة ودفع الأمويين لتقليد خصومهم العباسيين فى تفويض شخصين مختلفين للحكم فى قضايا الزجر والردع (تعزيز) ، بحيث يختص أحدهما بالمخالفات التى ترتكبها الشخصيات الهامة فى الدولة ، ويتكفل الآخر بما يخص العامة من المولدين والذميين ، وإذا كان من الطبيعى ظهور طبقة وسطى (نوع من البرجوازية (أعيان) المؤلفة من التجار وصغار الموظفين ومساعدى القضاة) فى عصر الازدهار الكبير للعاصمة والنمو المطرد لسكانها ، فمن الطبيعى كذلك أن يفكر عبد الرحمن الثالث فى تشكيل شرطة خاصة بها ، لكننا لا نستطيع التشبث بما ذهبنا إليه فى هذه المسألة نظراً لخلو الساحة حتى الآن من نص يعضده .

تكتسب القائمة التى أعدها « عارب » أهمية خاصة لأنها أوضحت لنا الصفة الاجتماعية لرؤساء هيئة الشرطة ، التى وليها فى البداية رجال ينتمون إلى عائلات شهيرة مثل « بنى أبى عبدة » . أسند عبد الرحمن الثالث بعد ذلك « الشرطة الكبرى لمولاه الصقلي « درى » الذى ظل فيها لسبع سنوات متتالية : من ٩٢٠ إلى ٩٢٧ م (٣٠٨ - ٣١٥ هـ) ، وبعد هذا التاريخ يبدو أن الحد الفاصل بين منصب القاضى ومنصب « صاحب الشرطة » قد تلاشى ، ذلك لأن كلتا المهمتين كان يقوم بهما شخص واحد مثلاً حدث مع « أحمد بن عبد الله بن موسى » الذى جمع فى سنة ٩٧٧ م (٣٦٧ هـ) ^(١١٩) بين القضاء على كورتى « إستجة » و « قرمونة » وبين منصب الشرطة « : أو « عبد الرحمن بن مشأت » الذى عينه المنصور بن أبى عامر صاحباً للشرطة وقاضياً على الكورتين السابقتين ومسجلاً عاماً ، ونشير فى النهاية - اعتماداً على ما أورده بعض المدونات التاريخية - إلى أن المنصور كان معجباً بعمل صاحب الشرطة وكان يدعوه لحضور مجالسه (١٢٠) .

« صاحب المدينة »

يحق لنا التساؤل بداية : ما هى الاختصاصات الممكنة لصاحب المدينة فى ظل وجود ثلاث هيئات للشرطة ؟ قد لا تكون هناك مطلقاً إجابة على هذا التساؤل ، على الأقل بالنسبة لعصر الخلافة الذى وُجدت فيه هاتان الهيئتان ، وكانتا منصهريتين

في واحدة كما حدث على الأرجح في نهاية القرن العاشر . وبالنسبة للعشرين سنة الأولى من حكم عبد الرحمن الثالث يزودنا « عارب بن سعيد » بأسماء سبعة ينتمون جميعاً لعائلات قرطبية شهيرة تولوا منصب « صاحب المدينة » (١٢١) .

يحتمل أن « صاحب المدينة » كانت له ولاية على الإدارة والشرطة المدنية ؛ لكن لا بد أن تكون اختصاصاته محددة بدقة حتى لا يحدث تداخل بينها وبين اختصاصات أجهزة الردع والزجر ؛ وعن هذا لم تتفوه المدونات التاريخية لذلك العصر بكلمة واحدة ، إنها تقتصر على إخبارنا بوجود قاض يحمل هذه التسمية ، لا في قرطبة وحسب بل أيضاً في مدينة الزهراء ثم في الزاهرة بعد ذلك ، وأن العاهل عندما كانت الظروف تضطره للغياب عن العاصمة لمرافقة حملة عسكرية أو لأي سبب آخر فإنه كان ينبى عنه أحد أولاده للنهوض بأعبائه وكان « صاحب المدينة » ملزماً بالبقاء إلى جواره وعدم مفارقتة (١٢٢) .

وكما نرى ، فكل ما سبق ذكره يكتنفه الغموض ، ومع هذا يمكن القول بأن دور « صاحب المدنية » كان غاية في الأهمية (١٢٣) ذلك لأن المنصب ظل مشغولاً على الدوام في إسبانيا الإسلامية حتى بعد سقوط الخلافة وانتقل أيضاً إلي مملكتي « رغن » و « نيرة » تحت مسمى (Zalmedina) الذي يراد به القاضي المعين من قبل الملك المسيحي ويتمتع باختصاصات إدارية وقضائية (١٢٤) .

العقوبات :

يقع على عاتق « صاحب الشرطة » و « صاحب المدينة » ، أو كليهما معاً ، تنفيذ العقوبات الصادرة عن القضاء الشرعي والتي تبدأ من مجرد السجن المصحوب بالتعذيب البدني (مثل الضرب بالسوط) وتنتهي بالإعدام (١٢٥) .

في حرم قصر قرطبة نفسه كان يوجد سجن شهير تحت الأرض (مُطَبَّق) تستقبل زنازينه المحكوم عليهم بالسجن المؤبد (١٢٦) . أما سجن العاصمة فكان يقع - طبقاً لابن حوقل (١٢٧) - بالقرب من المسجد الجامع . كان النظام الإصلاحي - الذي أفاض ابن عبيدون في وصفه خلال عصر المرابطين (١٢٨) - صارماً ، ويتمادي السجانون في تطبيقه (مثل ربطهم المساجين في الأعمدة وتطويقهم بالأغلال) لكي يُجبروا السجناء على دفع الإتاوات لهم ، وبالطبع كان السجناء يتلقون ما يقيم أودهم من خارج السجن حتى لا يقضون نحبهم جوعاً . كان يتم العفو أحياناً عن بعض المسجونين بمناسبة عيد الفطر أو الأضحى أو الاحتفال بنصف شعبان .

كانت لدى « صاحب الشرطة » فرقة من الجالدين (المأمورين القضائيين) لتطبيق العقوبات البدنية التي كانت تنفذ غالباً في حضرته وخارج مبنى « مجلس الشرطة » وأمام جمهور من محبى الاستطلاع ، أما العقوبات التي تستدعى الجِدْع (مثل قطع يد السارق) فيبدو أنها كانت تتضاءل باستمرار في إسبانيا الإسلامية حتى اقتصر تطبيقها على الحالات الاستثنائية ، وعلى خلاف هذا ، فقد شاع تنفيذ عقوبات الإعدام المسبوقة عادة بتعذيب المجرم ^(١٢٩) وتجريسه (التشهير به) في شوارع المدينة حيث كان يُطاف به راكباً (فى وضع عكسى) على ظهر حمار أو جمل لينال نصيبه الوافر من سفالات واعتداءات الرعاع ، كانت وسيلة الإعدام الشائعة تتمثل فى قطع رقبة المجرم بالسيف ، ليتم بعد ذلك تعليقه بمسامير على خشبة تشبه الصليب ، وأحياناً يتم صلبه مقلوباً ^(١٣٠) ، أما الخنق فقد كان أقل شيوعاً ، ولم يكن يتم التعليق على المشانق إلا بعد الإعدام ، كانت جثث المعدمين تظل مصلوبة - فى بعض الأحيان - لعدة أشهر ، عُرِضة لإهانات السوق المتعطشة لمثل هذه المشاهد ، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بمتمردين أو مسيحيين تطاولوا على الدين الإسلامى ، أما المرتدون عن الإسلام من المسلمين الجدد فقد كان جزاؤهم الحرق أحياء . وصف بعض المؤرخين عدداً من هذه المشاهد الدامية ^(١٣١) ، ولنا أن نتخيل طابور الصلبان الطويل الممتد على رصيف نهر الوادى الكبير بمحاذاة سور القصر ، تذكرة وعبرة للقرطبيين (سواء فى عصر الإمارة أو الخلافة) بالمصير الذى ينتظر كل من تسول له نفسه التطاول على العاهل أو قضاته .

فى المدن الإقليمية - حيث لا تقل أساليب الردع قسوة - كان الوالى هو الذى يباشر عادة - باسم الأمير - تنفيذ الأحكام التى لا يشملها القضاء الشرعى ، وبهذا الشكل كان يضيف إلى اختصاصاته الإدارية سلطة القضاء الجنائى والشرطة المدنية اللتين يتولاهما فى العاصمة صاحباً « الشرطة » و « المدينة » .

هوامش الفصل الثالث

(١) توجد في الفصل الثالث من (Esp.mus. X^o siècle, pp. 79-96) لمحة عامة عن مهام الدوائر القضائية والمؤسسات الشرطية في عصر الخلافة الأندلسية ، تعتمد على المصادر المتاحة وقتها (أى منذ عشرين سنة) ، ومنذ ذلك الحين اتسعت دائرة المصادر بفضل اكتشاف معظم الجزء الأول من « المقتبس » لابن حيان ، واكتشاف كتاب النباهي المعنون : « المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا » .
وعلاوة على ما تقدم ، فقد قام E.Tyan في مؤلفه :

Histoire de l'organisation judiciaire en pays d'Islam, 2 vols., paris, 1938 .

بدراسة القضاء والهيئات القضائية في العصور الإسلامية الأولى دراسة مفصلة ، أما بالنسبة للفصل الذي خصصه Mez (Ren. Isl., trad. Vila, pp 267-289) للحديث عن القاضي والقضاء المدني ، فلا يزال يحتفظ بجاذبية خاصة نظراً لملاحظاته الغنية المستقاة من الأدب العربي ، وبالنسبة للغرب الإسلامي ، فبالإضافة إلى المقدمة الرائعة التي استهل بها « خوليان ريبيرا » طبعته وترجمته لـ « كتاب قضاة قرطبة » للخشنى ، يمكن الاطلاع على ما يلي :

- J. López Ortiz : Derecho musulmán, Colección Labor, Barcelona-Buenos Aires, 1932.pp.67-106.

(٢) انظر

Julían Ribera : Historia de los jueces de Córdoba de Aljoxant, Madrid, 1914

(٣) نشره ليفي بروفنسال تحت هذا العنوان :

- Histoire des juges d' Andalousie intitulée kitab al - Marqaba al - 'ulya, Cairo (ed. Del Seribe égyptien), 1948 .

هذه الطبعة التي لم يُقدر الناشر مراجعة بروفانتا بنفسه تحتوي على أخطاء جوهرية سيتم تصويبها في الطبعة التالية التي استفادت كثيراً من اقتراحات H.Z. في مجلة « الشرق » ، بيروت ، ١٩٤٨ (من ص ٤٦ إلى ٧٣) ، ومن مخطوطة عظيمة القيمة اكتشفت وقتها بالمغرب .

(٤) عن هذا المؤلف (المتوفى عام ١٠٩٣ م - ٤٨٦ هـ) وعن عمله المعنون « ديوان الأحكام الكبرى » ، انظر :

- Lévi-Provençal:Esp.Mus. X^o siècle, p. 80 y notas l,2.

اعتمد « أحمد الونشريزي » (فقيه فاس في القرن الخامس عشر) على أحكام ابن سهل اعتماداً كبيراً عند تأليفه لـ « كتابه الولاية » الذي قام بنشره وترجمته H.Bruno y Gaudefroy-Demombynes تحت عنوان :

(Le livre des magistratures d' el Wancherisí, Rabat, 1937).

أنفس المؤلف مجموعة ضخمة من الفتاوى الشرعية تحمل هذا العنوان المطول :

« كتاب المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقيا والأندلس والمغرب » ، وقد طبع هذا الكتاب في اثني عشر جزءاً في نهاية القرن التاسع عشر بمدينة فاس .

(٥) انظر ، على وجه الخصوص :

- E. Lévi- Provençal y E. García Gómez : Sevilla a Comienzos del siglo X 11
El tratado de Ibn Abdun.

(٦) انظر

- J. López Ortiz : Formularios notariales de la España musulmana, en la revista
La Ciudad de Dios, El Escorial, Vol, CXLV, pp. 260-273

(٧) انظر :

- Tyan : Org. Jud., I, p. 140 y sigs.

(٨) انظر المرجع السابق (من ص ٢٨٩ - ٣٠٦) . يشير المؤلف في صفحة ٢٩٤ إلى قاضي عسكر
عنه عبد الرحمن الأول قاضياً للجماعة عام ٧٨٦ م (١٧٠ هـ) ، إنه يقصد « جدار بن عمرو المذحجي »
حسبما أشارت معظم المونيات التاريخية ومنها نذكر « البيان المغرب » لابن عذارى (الجزء الثاني ، ص ٥٠
(٤٨) في الأصل ، ص ٧٤ في الترجمة) ؛ « نفع الطيب » للمقرئ (الجزء الثاني (ص ٢١ ، ٢١) .

لن نعث في المونيات التاريخية بعد ذلك على ما يفيد بوجود هذه الوظيفة في إسبانيا الأموية .

أما إشارة Tyan (المرجع المذكور ، ص ٢٩٤) التي تفيد بأن « قضاء العسكر يعتبر وظيفة عادية في
نهاية العصر الأموي » فلا أساس لها من الصحة لأنها اعتمدت على معلومة لا علاقة لها بعصر الخلافة
الأموية وردت في « صبح الأعشى » للقلقشندي .

(٩) ابن القوطية « تاريخ الأندلس » (ص ٧٣ في النص ، ص ٥٨ - ٥٩ في الترجمة) انظر أيضاً :
Dozy : Suppl. dict. ar., I, p. 363 b

(١٠) الخشني : « قضاة قرطبة » (ص ٢٧ - ٢٨ في النص الأصلي ص ٣٥ في الترجمة) ، انظر
أيضاً النباهي « المرتبة العليا » ، ص ٢١ طبقاً لـ

- Tyan : Org. Jud., I, p. 155 Y 185 .

(١١) النباهي « المرتبة العليا » ، ص ٢١ ، مُسَمَّى « قاضي الجند » الذي أطلق على « مُصعب بن
عمران » في النصف الأول من القرن التاسع ، أثبتته المؤرخ ابن حيان في « المقتبس » (الجزء الأول ، fol.
١20 ٢٥) . كما قام بكتابة ترجمة مطولة عن القاضي « محمد بن بشير » (fol.120r, 124v) الذي تولى
قضاء قرطبة خلال عهد الحكم الأول .

(١٢) انظر :

- M. Guidi, en Enc. Isl., III, p. 617 .

- Tyan : Org. Jud., I, págs. 182-185 .

(١٣) النباهى « المرتبة العليا ... » ، ص ٢١ . وعن « قاضى الجماعة » ، انظر أيضاً :
Tyan : Org. jud., I, Pàgs. 185 - 191 .

- (١٤) النباهى « المرتبة العليا » ، ص ٢١ .
(١٥) ابن الفرضى : « تاريخ علماء الأندلس » ، رقم ٢٥٣ .
(١٦) المرجع السابق ، رقم ١٣٣٥ .
(١٧) المرجع السابق ، رقم ٩٨٦ .
(١٨) المرجع السابق ، رقم ٥٢٢ .
(١٩) المرجع السابق ، رقم ٢١٥ ، ٦٠٢ .
(٢٠) المرجع السابق ، رقم ٨٠٦ .
(٢١) المرجع السابق ، رقم ٤١٤ ، ١٢٠٨ .
(٢٢) المرجع السابق ، رقم ١٩٧ ، ١٠٣٣ ، ١٣٨٨ .
(٢٣) المرجع السابق ، رقم ٤١٢ ، ١٢٢٩ ، ١٢٥١ .
(٢٤) المرجع السابق ، رقم ١٦٥ ، ١٣٨٨ .
(٢٥) المرجع السابق ، رقم ٤٩٨ ، ١٢٥١ ، ١٤٧٥ .
(٢٦) المرجع السابق ، رقم ١٠٧٧ .
(٢٧) المرجع السابق ، رقم ٣١٧ ، ٣٢٠ .
(٢٨) المرجع السابق ، رقم ١٠٧٥ .
(٢٩) المرجع السابق ، رقم ٤٤٩ .
(٣٠) المجتمع فى إقليم واحد مع بداية القرن الحادى عشر . ابن بشكوال « كتاب الصلاة » ، رقم ٣٤٧ .
(٣١) ابن الفرضى : « تاريخ علماء الأندلس » رقم ٢١٨ ، ٤٤٩ ، ١٠٨١ .
(٣٢) المرجع السابق ، رقم ١٢٢٤ .
(٣٣) المرجع السابق ، رقم ١٠٤٥ .
(٣٤) المرجع السابق رقم ١١٠ ، ١٦٨ ، ٣٥٩ ، ١٠٨١ .
(٣٥) المرجع السابق ، رقم ٢٧٣ ، ١٠٣٣ ، ١٠٧٧ .
(٣٦) المرجع السابق ، رقم ١٦٧٨ .
(٣٧) المرجع السابق ، رقم ٧٢٥ .
(٣٨) المرجع السابق ، رقم ٢٠ ، ٢٩٦ ، ٣٠٦ ، ٧٥٧ ، ٨٠٥ .
(٣٩) المرجع السابق ، رقم ٧٥١ .

(٤٠) المرجع السابق ، رقم ١١٤٧ ، ١٤٥٩ .

(٤١) المرجع السابق ، رقم ١٨٦ ، ٢٩٩ ، ٤٤٢ ، ٩٥٢ ، ١٦٧٨ .

(٤٢) المرجع السابق ، رقم ٢٠٠ . ظل « أحمد بن الفتح » في منصبه قاضياً على « مليلة » بموجب المرسوم الذى أصدره الخليفة عبد الرحمن الثالث عام ٩٢٧ م (٣٢٥ هـ) ، ومن جهة أخرى نذكر فى هذا المقام أن ابن أبى عامر عندما أرسل عام ٩٧٣ م (٣٦٢ هـ) للانضمام إلى القائد « غالب » فى المغرب ، عُنِ قبل رحيله قاضياً على جميع المواقع التابعة للخلافة القرطبية فى المغرب .

(٤٣) انظر :

- Mez : Ren. Isl., trad. Vila, Págs. 272-275 .

- Tyan : Org . Jud., I, Págs. 501-513.

(٤٤) انظر بالنسبة للقبروان « رياض النفوس » لأبى بكر المالكى (طبعة حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥١) ، وبالنسبة لمصر انظر « كتاب الولاة والقضاة » لأبى عمر الكندى ، طبعة :

Rhuvon Guest, Leiden - Londres, 1912 .

(٤٥) انظر :

- lévi-Provençal : Esp. mus. X^o Siècle, P. 82 y nota 2.

أما لقب « الوزير القاضى » الذى يظهر باستمرار فى مؤلفات الفقيه ابن سهل فقد أُطْلِق صراحة على « محمد بن عمرو البكرى » (ابن الأبار « كتاب التكملة لكتاب الصلة » ، رقم ٣٧٢) .

(٤٦) هذا ما جرى - على سبيل المثال - مع « محمد بن عمرو البكرى » حينما كلفه المنصور بن أبى عامر بإدارة مفاوضات الهدنة مع ملوك إسبانيا المسيحية ؛ ومع القاضى « محمد بن أبى عيسى » فى زمن الناصر ، عندما قام بعدة زيارات تفتيشية للمواقع الإسلامية على الحدود (النباهى « المرتبة العليا » ص ٦٠)

(٤٧) انظر :

- Tyan : Org. Jud., II, p. 14 y sigs .

(٤٨) من الوثائق الهامة فى هذا الموضوع نص المرسوم الذى أصدره الحكم الثانى بتاريخ ١٥ شعبان ٣٥٣ هـ (٢٧ أغسطس ٩٦٤ م) بخصوص تعيين « محمد بن إسحاق بن السليم » قاضياً على قرطبة (النباهى : « المرتبة العليا » ، ص ٧٥ - ٧٦) . فى النص المذكور يوصى الخليفة القاضى الجديد بما يلى : التحقق من الأدلة والبراهين المقدمة إليه ؛ العناية باليتامى والمحافظة على ثرواتهم من خلال المتابعة المستمرة للأوصياء عليهم ورقابة إيرادات ممتلكاتهم ؛ تحمل مسئولية عفة وطهارة مساعديه ؛ استشارة العامل فى الأمور الغامضة أو المشكوك فيها .

(٤٩) خاصة فى أحكام « ابن سهل » ، انظر أيضاً :

- Tyan : Org. Jud., II, Págs. 345-350 .

أما بالنسبة للقرن الحادى عشر فلدينا تراجم كثيرة لمستشارين (مساعدين) أندلسيين مارسوا فى عواصم ممالك الطوائف وظيفته « صاحب الأحكام » ، وينطبق الشئ نفسه على عصر المرابطين .

(٥٠) عن المقرئ في « نفح الطيب » (الجزء الأول ، ص ١٣٤) انظر :

- Lévi-Provençal: Esp. Mus. X^o Siècle, p. 83 .

- Tyan : Org. jud., II, p. 348

(٥١) عن الشورى في إسبانيا الإسلامية ، انظر :

- Tyan : Org. jud., I, pags.. 339-348 .

(٥٢) كان هذا هو النظام المتبع منذ ٩٠٣ م (٢٩١ هـ) على الأقل . انظر: الخشنى « قضاة قرطبة » ، ص ١٧٦ من النص الأصلي ، ص ٢١٧ من الترجمة الإسبانية .

يروى الخشنى أن القاضى « أحمد بن محمد بن زياد » ألزم ، فى التاريخ المذكور أنفاً ، كل « مُشَوَّر » بالرد على الاستشارات المطلوبة منه كتابة .

(٥٣) انظر على سبيل المثال ، الخشنى « قضاة قرطبة » (ص ٩٠ - ٩٤ من النص ، ص ١١٠ - ١١٤ من الترجمة الأسبانية) ، وفى فقرة أخرى للخشنى (أوردها ابن خيَّان فى « المقتبس » ، الجزء الأول (fol. 121 V) يتحدث فيها عن « محمد بن بشير » (قاضى الحكم الأول قائلاً : « إنه كان يجلس للحكم بين الناس فى قاعدة منخفضة تقع بالقرب من الطرف الجنوبي لمسجد يسمى « مسجد أبى عثمان » عند مدخل الحى الغربى المواجه للقصر ، وكان منزل القاضى يقع فى نفس الحى داخل حارة تطل على جنوب ذلك المسجد » .

(٥٤) للتعرف على إجراءات جلسات القاضى ، انظر :

- Tyan : Org. jud., I, pags.. 412-422 .

(٥٥) عن الشهادة فى النظام القضائى ، انظر المرجع السابق ، ص ٣٤٩ - ٣٧٢

(٥٦) انظر :

- Brunschvig: Berbérie orientale, II, p. 127

(٥٧) نجد نماذجاً لهذه الشهادات فى كتاب صور المحررات والعقود للجزيرى (fol.24 r y 101 r)

(٥٨) كان لدى عبد الرحمن الثالث « وثائق » خاص يحمل لقب « صاحب الوثائق السلطانية » ، انظر : ابن الفرضى « تاريخ علماء الأندلس » ، رقم ١١٩٩ .

(٥٩) لم يشر ابن عبيدون أبداً - بالرغم من تأخره - إلى راتب القاضى ، بينما قام بتخصيص فقرة كاملة للحديث عن راتب القاضى المساعد (انظر : « إشبيلية فى بداية القرن الثانى عشر » ، ص ٥٨ ، ٥٩) (٦٠) انظر :

- Brunschvig: Berbérie orientale, II, pags. 129-130.

(٦١) وردت هذه الفتوى الهامة فى مجموعة الصيغ القانونية لـ « العيسى » (fol. II v) .

(٦٢) تشير فى عجلة إلى أن وظيفة « قاضى الأنكحة » التى ظهرت فى أفريقيا خلال النصف الثانى من القرن الثالث عشر لم توجد فى إسبانيا الإسلامية سواء فى عصر الخلافة أو الطوائف ، أما ما ورد

فى أدب التراجم الأندلسى عن تخصيص أحد مساعدى القاضى لتحرير عقود النكاح فإنه يتعلق بالعهود المتأخرة .. والحقيقة أن كل النزاعات المترتبة على الزواج تقع فى دائرة اختصاص القاضى .

(٦٣) عن الوقف فى الإسلام ، انظر :

Heffening, en Enc. Isl., Isl., IV, págs. 1154-1162 .

(٦٤) انظر :

- Brunschvig: Berbérie orientale, II, p. 190

(٦٥) فى مقصورة مسجد قرطبة الجامع ، طبقاً لابن عذارى « البيان ... » الجزء الثالث ، ص ٩٨ .

(٦٦) انظر :

- E. Lévi-Provençal y E. Garcia Gómez : Sevilla a comienzos del siglo XII, págs. 56-58 y passim .

(٦٧) فى ترجمة ابن الفرضى لسيرة فقيهين (« تاريخ علماء الأندلس » ، رقم ١٣٦٠ ، ١٢٩٤) ذكر أنهما وليا فى القرن العاشر تحت إشراف قاضى قرطبة وليفة « ناظر الأوقاف » فى العاصمة الأندلسية ، وطبقاً لما ذكره ابن الأبار فى « كتاب التكملة .. » (رقم ٢٨٤) فقد تولى شخص يدعى « محمد بن أحمد بن مشأت » (المتوفى فى بداية القرن العاشر) الإشراف على الأوقاف التى وقفها القائد الشهير « جعفر الصقلبي » (الحاجب الأول للخليفة الحكم الثانى) .

(٦٨) يروى كُتَاب تراجم القضاة الأندلسيين أن قاضى الجماعة القرطبي كان يؤم صلوات الاستقاء ، ومن هؤلاء القضاة نذكر « منذر بن سعيد البلوطى » فى عهد عبد الرحمن الثالث ، انظر : النباهى « المرتبة العليا » (ص ٧٠ - ٧١) - المرقى « نفع الطيب » الجزء الأول ، ص ٣٧٦ .

وانظر أيضاً

- Lévi-Provençal: Péninsule Ibérique, p. 169.

(٦٩) عن إقامة الصلاة ، انظر :

- Tyan : Org. jud., II, págs. 74, 75.

- Lévi-Provençal: Esp. Mus. X^o siècle, p. 84 y nota 2.

(٧٠) نشير فى عجالة إلى هذه النادرة التى أوردها النباهى (« المرتبة العليا » ، ص ٥٨-٥٩) عند ترجمته لسيرة « سليمان بن الأسود النافقى » قاضى قرطبة و « صاحب الصلاة » فى عهد الأمير محمد الأول .

كان هذا القاضى فى بيته وجاء لزيارته ذات يوم رجل لا يستسيغه القاضى لوليه الشديد بتولى منصب « صاحب الصلاة » بدلا منه . لما علم القاضى بقدمه أمر غلامه بإخبار الزائر أن سيده يعانى من سكرات الموت ، عندما علم الرجل بهذا رجع متلهلاً ونشر الخبر فى جميع أنحاء المدينة ، ثم اتجه من فوره إلى القصر وطلب من بعض معارفه تدبير ما يرويه مناسباً لى يخلص القاضى ؛ لكنه اغتم بعد ذلك عندما أدرك أن الأمر لم يكن سوى مزحة من النوع الثقيل .

(٧١) انظر على سبيل المثال : النبامي « المرتبة العليا » ، ص ٧٨ ، وبالنسبة لإفريقيا الحفصية ،

انظر :

Brunschvig : Berbérie orientale, II, pp. 118-119

(٧٢) طبقاً للمؤلف المجهول لـ « كتاب الزهرة المنتورة » فإن كيان الخلافة في القرن العاشر كان

يستند على ثلاثة عمد : قاضى الجماعة ، قائد الثغر الأعلى وقائد الجيش . انظر :

- Lévi -Provençal: Esp. Mus. X^e siècle, págs. 85.86.

(٧٣) عن الحياة المرفهة لهذا « الوزير القاضى » وثروته ، انظر : ابن بشكوال « كتاب الصلة » (رقم

٦٧٩) - النبامي « المرتبة العليا » (ص ٨٧ - ٨٨) .

(٧٤) عن الدور السياسى الذى لعبه هذا القاضى فى الفترة السابقة لسقوط الخلافة ، انظر ، ابن

بشكوال « كتاب الصلة » (رقم ٦٣) .

(٧٥) انظر : ابن بشكوال « كتاب الصلة » (رقم ٦٣) - النبامي « المرتبة العليا » (ص ٨٨) .

(٧٦) لهذا القاضى ترجمة طويلة فى « تاريخ علماء الأندلس » (رقم ١٣٨٨) لابن الفرضى .

(٧٧) للتعرف على سيرة هذا القاضى ، انظر ابن الفرضى « تاريخ علماء الأندلس » (رقم ١٤٥٢) -

النبامي « المرتبة العليا » (ص ٦٦ - ٧٥) . وعن أصله البربرى ، انظر : « جبهة الأنساب » (ص ٤٦٥)

لابن حزم .

(٧٨) انظر : ابن الفرضى « تاريخ ... » (رقم ١٣١٧) - النبامي « المرتبة العليا » (ص ٧٥ - ٧٧)

(٧٩) يخبرنا ابن الأبار فى « كتاب التكملة » (رقم ١٤١) أن « منذر بن سعيد » قبل توليه قضاء

قرطبة كان يجمع بين القضاء على الثغور الشرقية وبين الإشراف على « عمال » المالية بها وبين وظيفة الرقابة

على المسافرين القادمين من بلاد الإفرنج ، وطبقاً لابن الفرضى (« تاريخ علماء الأندلس » ، رقم ١٠٤٥) فقد

كان للمنذر بن سعيد أخ يدعى « عبد الله » ولى قضاء « فحص البلوط » عام ٩٤٢ م (٣٣٠ هـ) ومات بعد

هذا التاريخ بخمس سنوات ، وقد اشترك أحد أبناء منذر بن سعيد (ويسمى « عبد الملك ») فى المؤامرة التى

دبرت عام ٩٧٩ م (٣٦٨ هـ) للإطاحة بهشام الثانى ، وعندما اكتشفت المؤامرة أمر المنصور بن أبى عامر

بصلبه ، وستحدث فيما بعد عن ثلاثة أبناء آخرين لمنذر بن سعيد ، من بينهم « الحكم » الذى كان الممثل

الرئيسى فى إسبانيا لمذهب « ابن مسرة » فى نهاية القرن العاشر وبداية الحادى عشر .

(٨٠) لا ندرى على ماذا اعتمد ابن خلدون (المقدمة ، الجزء الأول ، ص ٤٥٢) ليدرج « منذر بن سعيد »

فى قائمة القضاة الذين كانوا « يتولون قيادة عسكرية فى حملات الجهاد » ، هذا على الرغم من أنه يحدثنا

عن بعض القضاة الذين شاركوا - خاصة فى القرن التاسع - فى الصوائف قائلاً : إنهم كانوا على ما يبدو

« متعلوكة » ولم يتولوا القيادة لأنهم فى مثل هذه الحالات كانوا يستقيلون مؤقتاً من مناصبهم . نعرف -

على سبيل المثال - أن قاضى « بلنسية » « الجحاف بن يُمْن » (سلف قاضى بلنسية الشهير « ابن الجحاف »

الذى أحرقه السيد القمبيطور) شارك عام ٩٣٩ م (٣٢٧ هـ) فى الحملة على « شنت منكش »

واستشهد فيها .

(٨١) انظر : الفتح بن خاقان « مطمح .. » (ص ٤٥ - ٤٦) - المقرئ « نفع الطيب » (الجزء الأول ،

ص ٣٧٨) .

(٨٢) انظر ، على سبيل المثال ، رده الحاد على الحكم الثانى عندما دعاه ذات يوم شديد الحرارة لخلع ملابسه والاستحمام فى البركة مع الفتى الصقلي « جعفر » (النبأى « المرتبة العليا » ، ص ٧٢ - ٧٣) .

(٨٣)

- Asín Palacios : Abenhazm de Córdoba, I, Págs. 132-134.

(٨٤) عند حديثنا فيما بعد عن ملابس المسلمين الإسبان فى العصر الأموى سنشير إلى زى القضاة ورجال القضاء . عندما قام Tyan بدراسة أزياء القضاة المشاركة حتى نهاية العصر الوسيط فإنه اقتصر على تقديم بيانات موجزة عن ملابس القضاة الأندلسيين انظر (Tyan : Org. jud., I, págs. 311-312) .

(٨٥) نقدم فيما يلى قائمة بأسماء من تولوا قضاء قرطبة منذ عهد عبد الرحمن الثالث حتى سقوط الخلافة ، وقد اعتمدنا فى إعداد هذه القائمة على مؤلفات كل من : - الخشنى ، اولنبامى ، وعارب وابن الفرضى وابن بشكوال :

- أحمد بن محمد بن زياد اللخمى « (الملقب بالحبيب) ، وقد عينه الأمير عبد الله عام ٩٠٤ م (٢٩١ هـ) وظل فى منصبه حتى ٩١٣ م (٢٠ جمادى الثانى ، سنة ٣٠٠ هـ) .

- أسلم بن عبد العزيز بن هاشم أبو الجعد « (من ٩١٣ م حتى ٩٢١ م - ٣٠٠ - ٣٠٩ هـ) . وفى خلال تلك الفترة ولى « محمد بن أبيابة « منصب « صاحب الصلاة » .

- أحمد بن محمد بن زياد « ، ولى للمرة الثانية من ٩٢١ م (٣٠٩ هـ) حتى وفاته عام ٩٢٤ م (٣١٢ هـ) .

- أسلم بن عبد العزيز « ، ولى للمرة الثانية من عام ٩٢٤ م (٣١٢ هـ) حتى ٩٢٦ م (٣١٤ هـ) . توفى عام ٩٢٩ م (٣١٧ هـ) .

- أحمد بن بقرى بن مخلد « ، من ٩٢٦ م (٣١٤ هـ) حتى وفاته عام ٩٣٦ م (٣٢٤ هـ) .

- أحمد بن عبد الله الأصبغى ، من ٩٣٦ م حتى وفاته عام ٩٣٨ م (٣٢٦ هـ) .

- محمد بن عبد الله بن أبى عيسى كثير بن وسّلاس المصمودى « ، من ٩٣٨ م حتى وفاته عام ٩٥٠ م (٩٣٩ هـ) .

- منذر بن سعيد البلوطى « (أبو الحكم) ، من ٩٥٠ م حتى وفاته عام ٩٦٦ م (٣٥٥ هـ) .

- أبو بكر محمد بن إسحاق بن السليم « ، من ٩٦٦ م حتى وفاته عام ٩٧٧ م (٣٦٧ هـ) .

- أبو بكر محمد بن يئقى بن زذب « ، من ٩٧٨ م (٣٦٧ هـ) حتى وفاته عام ٩٩١ م (٣٨١ هـ) .

- محمد بن يحيى بن زكريا بن برطل التميمى « ، من ٩٩١ م حتى ١٠٠١ م (٣٩٢ هـ) ، توفى عام ١٠٠٣ م (٣٩٤ هـ) .

- أحمد بن عبد الله بن نكوان « ، من ١٠٠١ م حتى ١٠٠٤ م (٣٩٤ هـ) .

- أبو المطرّف عبد الرحمن بن محمد بن فطيس « ، من ١٠٠٤ م حتى ١٠٠٥ م (٣٩٥ هـ) ، توفى عام ١٠١٢ م (٤٠٢ هـ) .

- « أحمد بن نكوان » ولي للمرة الثانية من ١٠٠٥ م إلى ١٠١٠ م ، توفي عام ١٠٢٣ م (٤١٣ هـ) .
- أبو بكر يحيى بن عبد الرحمن بن وفيض « عُين في ١٠١٠ م (٤٠١ هـ) ومات في السجن عام ١٠١٤ م (٤٠٤ هـ) . وظلت قرطبة دون قاض حتى تعيين هؤلاء : -
- « أبو المطرف عبد الرحمن بن أحمد بن بشر » ، من ١٠١٦ م (٤٠٧ هـ) إلى ١٠٢٨ م (٤١٩ هـ) .
- توفي عام ١٠٢١ م (٤٢٢ هـ) .

- « أبو الوليد يونس بن عبد الله بن الصقار » من ١٠٢٨ م حتى وفاته عام ١٠٢٨ م (٤٢٩ هـ) .
- (٨٦) ابن سهل « الأحكام الكبرى (fol. 2 v ; ms. de Argel. for 4r) ، مذكور في :

Bruno y Gaudesfroy- Demombynes : le livre des magistratures d' el Wancherisí, págs. 8-9, nota I.

- (٨٧) المرجع السابق : « إنما كان يحكم صاحب الرد فيما استغريه القضاة وردوه عن أنفسهم » .
- (٨٨) انظر :

- Lévi -Provençal: Esp. Mus. X^o siècle, págs. 91-92.
- Tyan : Org. jud., II, p. 350 y nota I.

(٨٩) انظر : ابن الفرضي « تاريخ علماء الأندلس » ، ١٢٩٩ .

(٩٠) المرجع السابق ، رقم ٨٢١ .

(٩١) المرجع السابق ، رقم ٧٢٢ .

(٩٢) انظر : ابن بشكوال « كتاب الصلة » ، رقم ٦٣ .

(٩٣) المرجع السابق ، رقم ١٣٩٩ .

(٩٤) انظر :

- Tyan : Org. jud., II, págs.. 281-288.

وعن هيئة المظالم في إفريقيا الحفصية ، انظر :

- Brunschvig : Berbérie orientale, II, págs. 143-146 .

(٩٥) العرض الكامل لمفهوم « المظالم » في الإسلام نجده في المرجع التالي :

- Tyan : Org. jud., II, págs.. 141-288.

(٩٦) المقرئ « خطط ... » الجزء الثالث ، ص ٢٣٦ : ذكره Tyan في المرجع السابق ، ص ١٤٧ .

(٩٧) انظر : ابن عذارى « البيان المغرب » (الجزء الثاني ، ص ٣١٠ - ٣١١ في النص الأصلي ،

ص ٢٨١ - ٢٨٢ في الترجمة) - المقرئ « نفع الطيب » ، الجزء الأول ، ص ٢٦٧ .

(٩٨) انظر : ابن الفرضي « تاريخ علماء الأندلس » ، رقم ١١٧ .

(٩٩) المرجع السابق ، رقم ١٦٧٣ .

(١٠٠) المرجع السابق ، رقم ١٧٠٠ .

(١٠١) انظر :

Julian Ribera : Orígenes del Justicia de Aragón, Zaragoza, 1897 .

(١٠٢) عن هذه الهيئة القضائية ، انظر :

- R. Fawtier, en Hist. Du Moyen Age de Glotz VI, 1^a Parte, págs. 168-169.

- Aguado Bleyé : Man. Hist. Esp., I, págs. 905-906.

(١٠٣) انظر

- Lévi-Provençal: Esp. Mus. X^o siècle, pp. 181-185

وبالنسبة للعالم الإسلامي ككل ، انظر :

- Tyan : Org. jud., II, págs.. 436-484 .

(١٠٤) النص العربي نشره ليفي بروفنسال مصححاً بمقدمة في :

Journal Asiatique, t. CCXXIV, 1934, págs. 177-299.

تحت عنوان :

- Un document sur la vie urbaine et les corps de métiers à Seville au début del XII siècle : Le traité d'Ibn Abdun .

وقد ترجم الكتاب إلى الفرنسية ليفي بروفنسال عام ١٩٤٧ (باريس) .

أما ترجمته إلى الإسبانية فقد قام بها إميليو جارتيا جومث وظهرت في مدير عام ١٩٤٨ تحت عنوان :

Sevilla a comienzos del siglo XII

(١٠٥) نشره مع مقدمة له كل من G. S. Colin وليفى بروفنسال تحت عنوان :

- Un manual hispanique de hisba : traité d' Abu ' Abd Allah Muhammad b. Ali Muhammad as- Sakati sur la surveillance des corporations et la répression des fraudes en Espagne musulmane, Paris, 1931 .

(١٠٦) انظر ابن الفرضي « تاريخ علماء الأندلس » ، رقم ٣ ، ١١٠٥ ، ١٦٥ .

(١٠٧) يبدو أن مصطلحي « صاحب السوق » و « المحتسب » ظلا يطلقان دون تفرقة خلال فترة طويلة

في إسبانيا على القائم بالتفتيش على الأسواق . يخبرنا ابن بشكوال (كتلة الصلة ، رقم ٦٧٥) في الترجمة التي أعدها لعبد الرحمن بن مشأت (المعاصر للمنصور) أن الحسبة في زمنه كانت لاتزال تعرف باسمها القديم : (أحكام الحسبة المدعوة عندنا بولاية السوق) .

(١٠٨) عن هذه الهيئة في العالم الإسلامي ، انظر :

- Tyan : Org. jud., II, págs.. 319-328 .

- (١٠٩) ابن عذارى « البيان المغرب » ، الجزء الثانى ، ص ١٧٣ (١٦٧) فى النص ، ص ٢٧٧ فى الترجمة .
- (١١٠) ابن بشكوال « كتاب الصلة » ، رقم ١٩١ . يتضح من فقرة موجزة وردت فى « التكملة » (رقم ١٣٦) لابن الأبار ، أن أفراد العائلة المالكة كانت لهم أثناء عصر الخلافة إدارة خاصة للموارث . (١١١) انظر :
- G. Wiet : *Materiaux pour un corpus Inscriptionum Arabicarum*, 1^o partie, Egypte, II, fasc. I, Cairo (M. I. F. A. O. t. III), págs. 51-62.
 - Tyan : *Org. jud.*, II, págs.. 352-435.
- (١١٢) انظر :
- Lévi-Provençal: *Esp. Mus. X^o siècle*, págs. 88-93 .
- (١١٣) ابن حيان « المقتبس » ، الجزء الأول (fol. 142 vo) : « أحكام الشرطة المسماة عندنا بولاية المدينة » .
- (١١٤) فى فقرة أوردها المقرئ « نفع الطيب » ، الجزء الأول ، ص ٣٥ - ٣٦ .
- (١١٥) ابن خلدون « المقدمة » ، ترجمة Slane, II, págs. 35-36 .
- (١١٦) انظر إشارة « البيان » لابن عذارى فى :
- Lévi-Provençal: *Esp. Mus. X^o siècle*, p. 90 .
- (١١٧) المرجع السابق ، ص ٩١ ، ملاحظة ١ .
- (١١٨) المرجع السابق ، ص ٩١ ، ملاحظة ٢ ، ٣ .
- (١١٩) انظر :
- Lévi-Provençal: *Inscriptions arabes d'Espagne*, num. 30, pp. 37-38.
- (١٢٠) انظر : ابن عذارى « البيان المغرب » ، الجزء الثانى ، ص ٢١١ (٢٨٩) فى النص الأسمى ، ص ٤٨٢ فى الترجمة . المقرئ « نفع الطيب » ، الجزء الأول ، ص ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٣ .
- (١٢١) انظر :
- Lévi-Provençal: *Esp. Mus. X^o siècle*, p. 90 y notas 7 a 12 .
- (١٢٢) المرجع السابق ، ص ٩٤ ، الملاحظات من ١ إلى ٤ .
- (١٢٣) طبقاً لابن حيان (« المقتبس » ، الجزء الأول (fol. 142 V^o) فإن « والى المدينة » كان يتلقى فى عصر عبد الرحمن الثانى راتباً شهرياً قدره ١٠٠ دينار .
- (١٢٤) بالإضافة إلى مصطلح (Zalmedina) فقد كان يعرف أيضاً بـ (Alcalde) ، والكلمة الأخيرة مشتقة من كلمة al-qadi العربية ، انظر :
- L. G. De Valdeavellano : *Hist. de Esp.*, I, pág. 952 .

(١٢٥) عن العقوبات الجنائية في الشرق خلال العصر نفسه ، انظر :

- Mez : Ren. Isl., trad. Vila, pags. 439-448 .

(١٢٦) لا بد وأن تكون عقوبة السجن المؤبد هي نفسها التي يطلق عليها مؤرخو الحكم الأول « الدورية » (al-Duwaira).

(١٢٧) طبعة :

- Ed. Kramers, I, p. 113, lineas .

(١٢٨) انظر :

- Sevilla a comienzos del siglo XII, págs. 74-78 .

(١٢٩) انظر : ابن عذارى « البيان المغرب » ، الجزء الثالث ، ص ١٢٢ (بالنسبة لقتلة على بن حمود) وصفحتي ٧٣ - ٧٤ (بالنسبة للتمثيل بجثة عبد الرحمن شنجول) .

(١٣٠) كثيراً ما كانت تُنبت رأس الذي نُفذ فيه الإعدام في طرف رمح ويتم الطواف بها في أنحاء المدينة . انظر - على سبيل المثال - « نفح الطيب » للمقرئ ، الجزء الأول ، ص ٢٧٤ .

(١٣١) انظر - على سبيل المثال - وصف المؤرخين لصلب ابن حفصون وولديه في :

Crónica de al - Nasir, p. 58 .

والنص الأكثر تعبيراً في هذا الشأن نجده في « طوق الحمامة » لابن حزم ، طبعة :

Pétrof, p. 126; traducción García Gómez., p. 268 .

[lévi-provençal, en relisant le " collier de la colombe " en Al-Andalus, XV, 1950, p. 358, n. I in fine] .

وفيه يقول عن المولى (*) الذي ظفر به محمد المهدي وأمر بصلبه : « فلمعهدي به مصلوباً في المرج على النهر الأعظم وكأنه القنفذ من النبل » .

(*) المولى المقصود هنا هو خلف ، مولى يوسف بن قنقام (القائد الشهير) ، وقد أورد ابن حزم قصته على هذا النحو : « فهذا خلف مولى يوسف بن قنقام القائد المشهور ، كان مع هشام بن سليمان بن الناصر ، فلما أسر هشام وقتل ، وهرب الذين وإنزوه ، فرَّ خلف في جملتهم ونجا ، فلما أتى القسطلات لم يطق الصبر عن جارية كانت له بقرطبة ، فكَرَّ راجعاً ، فظفر به أمير المؤمنين المهدي ، فأمر بصلبه فلمعهدي به مصلوباً في المرج على النهر الأعظم وكأنه القنفذ من النبل » .

ابن حزم « طوق الحمامة » ، تحقيق د. الطاهر أحمد مكي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٣ ، ط ٥) - المترجم .

الفصل الرابع

المجتمع الأندلسى

عناوين الفصل الرابع :

١ - خصائص سكان إسبانيا الأموية :

العدد التقريبى للسكان - توزيع السكان . .

٢ - تركيبة السكان المسلمين :

العناصر الوافدة (البربر) - العناصر الوافدة (العرب) - العناصر الوافدة (السود والصقالبة) - المسلمون الجدد من الإسبان - امتزاج السلالات وتخلق النموذج الأندلسى .

٣ - هيكل المجتمع الأندلسى :

الطبقات الاجتماعية (الخاصة) - العائلات الكبيرة لأصحاب المقام الرفيع - الطبقة الوسطى وعامة الحضر - الطبقة العاملة فى الريف ونظام توزيع الأراضى - الرقيق ، العتقاء والموالى .

٤ - الذميون فى دولة الخلافة الأموية :

المستعربون - اليهود .

١ - خصائص سكان إسبانيا الأموية

العدد التقريبي للسكان :

عندما تتم فى المستقبل دراسة الوثائق المتعددة التى تحتوى عليها السجلات الموجودة بشبه جزيرة إيبيريا والمتعلقة بالفترة الأخيرة من « حرب الاسترداد » أو ما يليها مباشرة ، ربما نتعرف وقتها بشكل دقيق نسبيا على تعداد سكان ممالك إسبانيا المسيحية وخاصة مملكتى « نبرة » و « رجون » فى القرن الرابع عشر والخامس عشر (١) .

أما بالنسبة لإسبانيا الإسلامية فى العصر الأموى وعصر الطوائف أو فى عصور تبعية الأندلس لامبراطوريتى شمال أفريقيا البربريتين ، فإن بحثاً من هذا النوع يبدو عديم الفائدة لأن تقاعس الجغرافيين العرب فيما يخص المادة الديموجرافية قد حرمانا من أقل القليل من البيانات الإحصائية ، لقد تم تقديم رقم جزافى دون شك (٢) لسكان إسبانيا الرومانية خلال القرن الميلادى الأول ، وهو ٦ ملايين ، ولابد أنه وصل إلى تسعة فى عهد « ماركو أوريليو » ليعاود الارتفاع بعد ذلك فى العصر القوطى نتيجة لقدم جماعات المحتلين البرابرة ، لكن ، إلى أى رقم وصل - بعد عدة قرون - مجموع سكان الأندلس ، بما فيها الثغور ، أثناء عصر الخلافة الأموية ؟ لا نجرؤ على تقديم رقم محدد ونقتصر على الظن بأن ذلك الرقم يمكن أن يكون مساويا - بفارق بضع مئات من الألوف - للرقم الخاص بإسبانيا القوطية فى بداية القرن الثامن ، ذلك لأن الزيادة المتمثلة فى إقامة الغزاة المسلمين بشبه الجزيرة توازى تقريباً النقص الناجم عن نزوح أفواج من المستعربين إلى الأراضى المسيحية فى الشمال تلبية لنداء ملوك أشتوريش وليون لإعادة تعمير « الأراضى الخالية » الواقعة على تخومهم الجنوبية مع الدولة الإسلامية .

قد نقع فى محذور آخر لو أردنا تقديم نسبة تقريبية بين عدد سكان الأندلس المسلمين وبين مجموع السكان الذميين (المسيحيين واليهود) ، وكل ما يمكن قوله فى هذا الصدد هو أن عدد الذميين المستعربين قد تناقص بمرور الوقت وبفعل الدخول فى الإسلام بنفس القدر الذى ارتفع به عدد المسلمين الجدد أو المولدين .

وبما أن معلوماتنا عن الطبقة الريفية العاملة هي في غاية التشوش كذلك ، فإننا لا نستطيع التكهن حيالها بما إذا كان عدد الفلاحين المستعربين يفوق تعداد المولدين أو العكس .

وفي المدن ، وبالرغم من المساندة العارضة لبعض إشارات علم الآثار ، إلا أن مشكلة الرقم الإجمالي لسكانها واختلاف تعدادهم من قرن لآخر تظل هي الأخرى معلقة في الهواء دون التوصل فيها إلى حل مقنع ، الشيء الوحيد المؤكد هو أن كل كتلة حضرية كانت تضم بداخلها - سواء في القرن العاشر أو فيما بعده - مجتمعاً مسيحياً وآخر يهودياً يقل عدده بالتأكيد - باستثناء حالات متفرقة - عن بقية السكان ، ومع هذا لا يوجد بيان إحصائي يفيدنا في تقدير نسبة كل مجموعة بالقياس ببقاى المجموعات .

توزيع السكان :

إذا تصدينا الآن لمسألة توزيع سكان الأندلس وكثافتهم في الأقاليم المختلفة فلن تواجهنا صعوبات تذكر ، ذلك لأن الوضع القائم حالياً يلقي الضوء على صورة الماضى ، فمهما كان حجم التغيرات التى شهدتها شبة جزيرة إيبيريا ، جيلاً بعد جيل ، من قدوم أفواج الغزاة والانتقال الجماعى للسكان من مكان لآخر فإن الطبيعة الجغرافية للبلد كانت سيدة الموقف ، وهى التى تحكم دائماً فى عملية التوزيع السكانى وكثافتها تبعاً لارتفاع السطح وخصوبة الأرض ووفرة مياه الرى ، ومن المؤكد أن المحافظات الإسبانية الحالية ذات الكثافة المنخفضة بالنسبة لمساحتها مازالت تحتفظ بوضعها القديم عندما كانت كورا فى مملكة قرطبة الأموية .

وكما هو الحال اليوم ، فإن المناطق الساحلية وأحواض الأنهار - خاصة نهري « إبره » و « الوادى الكبير » - كانت هى الأعلى كثافة فى القرن العاشر . كانت بساتين « مرسية » والشرق المورقة تتناقض حينذاك وقحولة الهضبة الوسطى الشاسعة ، وكما يحدث الآن أيضاً ، فقد تحكم توزيع السكان - طبقاً للإمكانات الزراعية للأرض - ليس فقط فى نظم الملكيات الخاصة ، بل فى انتشار الفلاحين

وتمركزهم فى تجمعات حضرية تضرب بأطنابها فى أعماق الماضى ومازال الكثير منها يحتفظ إلى الآن بآثار الاحتلال الإسلامى .

ومن مجرد النظر إلى التجمعات الحضرية الموجودة اليوم بكثافة فى جنوب وشرق شبه الجزيرة نخرج بانطباع مفاده أن عدد سكانها فى القرن العاشر لم يكن يقل إلا بنسبة ضئيلة جداً عن العصور المتأخرة ، وأن بعض عواصمها الإقليمية (مثل « جيان » ، « الجزيرة الخضراء » و « ألمرية » ، حتى لا نذكر حالة « قرطبة » الواضحة للعيان) كانت تعيش بها أثناء الخلافة الأموية أعداد تفوق بكثير أعداد سكانها حالياً .

٢ - تركيبة السكان المسلمين

العناصر الوافدة (البربر) :

عرضنا فى حينه ، وفى خطوط عامة ^(٢) عملية احتلال العرب والبربر للأندلس فى القرن الثامن وأسلمتها ، وأشرنا إلى أنه من بداية ذلك القرن (نتيجة لاقتحام جيوش طارق بن زياد وموسى بن نصير للأراضى الإيبيرية وانتصاراتها المدوية فيها) طرأت زيادة ملموسة على سكان شبه الجزيرة (الذين كانوا خاضعين وقتها للنظام القوطى المتعسف) نتيجة لانضمام العناصر الوافدة إليهم : الموجات العربية الغازية علاوة على بربر شمال أفريقيا .

وقد استقر هؤلاء فى المناطق التى استولوا عليها دون نية فى العودة إلى بلادهم الأصلية ، وأعانهم الزواج بإسبانيات على ترسيخ أقدامهم فى الوطن الجديد ، استطاعت الموجة العسكرية الأولى ، بالرغم من محدودية أعدادها ، تغيير القسماات الاجتماعية للأندلس تغييرا جذريا ، ذلك لأن المنتصرين هذه المرة كانوا دعاة ومبشرين بدين جديد وقدموا للمهزومين فرصة المساواة بهم بمجرد اعتناقهم لهذا الدين ، وتبعت الموجة الأولى موجات هجرة أخرى ظلت تترى خلال ما تبقى من القرن الثامن . وبرغم عدم استطاعتنا حصر أعداد تلك الهجرات بدقة إلا أنها كانت كفيلة نظراً لأهميتها واستمراريتها بإحداث تغيير سريع وعميق فى التركيبة السكانية لإسبانيا ولناطقها الأكثر ازدحاما ، ومن جهة أخرى ، فقد سعى المهاجرون الجدد لأسلمة جزء كبير من الكتل السكانية الأصلية ومن طبقة الملاك نوى الأصول الإسبانية أو القوطية الذين انضموا طواعية تحت لواء النظام الجديد أو أبدوا رغبتهم العارمة فى التصالح معه .

ومن أهم تلك الموجات بالنسبة للهجرة العربية نذكر مجموعة جند « بلج القشبرى » ، ثم المنفيين الأمويين وأتباعهم الذين قدموا لإسبانيا فى السنوات التى تلت تأسيس عبد الرحمن الداخل لإمارة قرطبة الأموية .

أما بالنسبة للبربر ، فقد ساعد قرب شبه الجزيرة على تدفق الهجرات الاختيارية من شمال المغرب ، الطامحة - ويحق - فى العيش فى ظروف حياتية أفضل من

ظروف قراهم المكتظة بالسكان ، خاصة وأن الطبيعة الجغرافية على الجانب الآخر من مضيق جبل طارق لا تختلف كثيراً عن طبيعة الأرض التي تركوها ، ونظراً لإجبار العرب لهم على الإقامة بالمناطق المرتفعة ، والعيش نتيجة لذلك فى ظروف غير مواتية عرضة للجفاف والجوع فى السنوات العجاف ، فقد اضطرت مجموعات من هؤلاء البربر للعودة إلى أفريقيا ، ومع هذا يغلب الظن بأن هؤلاء المغاربة كانوا يمثلون فى نهاية القرن الثامن ، بالإضافة إلى المولدين ، الأغلبية الساحقة لسكان الأندلس المسلمين ، وتكفى مجرد إطلالة على الخارطة الإجمالية التى أعدها مؤلفون أندلسيون لتوزيع السكان خلال السنوات التى سبقت تأسيس الخلافة القرطبية لى نعى هذه الحقيقة ، فى تلك الخارطة ، إذا نحينا جانباً الأراضى الساحلية (من الطرف الجنوبى الغربى للبرتغال الحالية حتى أقاصى نهر « إبره » الخصيب) ، نجد أن التجمعات السكانية المتمركزة على جانبى مجرى نهر « وادى يانه » (*Guadiana*) ونهر « التاجه » يتألف معظمها من البربر والمولدين ولا يوجد فيها للعرب سوى مواقع صغيرة متفرقة لأنهم (أى العرب) كانوا يتجمعون فقط فى عدد من المدن الهامة ، مثل : « باجه » (*Beja*) و « ماردة » (*Mérida*) و « طليطلة » . وتوجد شواهد كثيرة تقطع بأن هذا الوضع كان قائماً قبل قرن من تأسيس الخلافة القرطبية وظل بعدها لقرن آخر على الأقل .

لقد تأسس بربر الجبل والريف المغربى (الذين لا تفصلهم عن الشاطئ الأندلسى سوى عدة سويحات من الإبحار بالشرع أو المجدف) بسرعة تفوق الوصف ، ونسوا بعد أجيال قليلة استخدام لغتهم الوطنية (« لغة الغرب » أو « اللسان الغربى ») واستبدلوها - بون صعوبة - باللغة العربية وبالرومانثية أيضاً .

ومن المحتمل أن اللغة البربرية لم يعد أحد يتحدث بها منذ القرن التاسع ، ولاتوجد أية إشارة تقوض هذا الافتراض المدعم ، بالإضافة إلى ذلك ، بالغياب التام أو شبه التام لأعلام جغرافية تحمل مسميات بربرية ^(٤) ، كان لابد من الانتظار حتى عصر الديكتاتور العامرى لى نشهد لبعض الوقت فى العاصمة الأندلسية ظاهرة غريبة تتمثل فى استخدام البربرية إلى جانب العربية والرومانثية (الأعجمية) نتيجة لوجود الكتابب العسكرية المجندة من قبائل زناتة والزييريين الصنهاجيين وطوائف إفريقية أخرى ، وظلت البربرية حية خلال القرن الحادى عشر فى عدد من القصور

الإقليمية الصغيرة (خاصة غرناطة) ، واستمرت لبضع عشرات من السنين بعد ذلك حول الحكام اللمتونيين الذين كانوا يمثلون عاهل مراكش المرباطى فى إشبيلية وقرطبة وبلنسية .

ومن جهة أخرى ، تجدر الإشارة إلى أن الإقليم الشمالى للمغرب (الذى مون إسبانيا حتى عصر الخلافة بأهم عناصره البربرية) قد خلع رداء بربريته فى العصر الوسيط واتخذت مدنه وقراه لهجة عربية قريبة الشبه من العربية الإسبانية المستخدمة فى شبه جزيرة إيبيريا (٥) ، وهذا على خلاف التجمع « الريفى » الواقع أقصى الشرق (بالقرب من سهول وهران الشاسعة الملائمة لحياة الترحال) الذى ظل - تقريباً - بكامله - وفياً للهجته البربرية .

ونلاحظ أيضاً أن معظم هجرات البربر إلى إسبانيا قد أتت من التجمعات الحضرية وليس من تجمعات الرعاة الرُّحْل أو نصف الرحل الذين يهيمنون على وجوههم فى المساحات الشاسعة طلباً للعشب والكلأ ، ولذا يغلب الظن بأن مساهمة وسط المغرب فى الهجرات البربرية خلال القرنين التاسع والعاشر كانت شبه معدومة ، وأن الفلاحين المغاربة (٦) كانوا هم الذين عبروا إلى الضفة الأخرى من المضيق ليواصلوا ممارسة أنشطتهم الزراعية التى ورثوها عن الأجداد : فلاحا البساتين ، وزراعة أشجار الزيتون والتين والفاكهة ، وتربية الأبقار والماعز ، وصناعة الفحم . وسرعان ما شكل هؤلاء نوعاً من البروليتاريا القروية التى لا تختلف كثيراً عن مزارعى شبه الجزيرة الأصليين من المسلمين الجدد أو المستعربين ، وبمجرد إخماد مراكز التمرد وإحلال السلام الشامل نسوا أصولهم المغربية وانصهروا فى كتلة الأندلسيين المسلمين التى زادت تجانساً .

ولسنا بحاجة إلى القول بأنه كان يوجد سكان من أصل بربرى فى معظم مدن المملكة الأموية ، وخاصة فى قرطبة ، وبالرغم من أن معظمهم كان يمارس مهناً متواضعة إلا أن بعضهم تميز فى العلوم الشرعية وأصبح من الفقهاء المشهورين ، وتذكر على سبيل المثال اثنين فقط : يحيى بن يحيى الليثى ، الذى أدخل المذهب المالكى فى إسبانيا أثناء ولاية الحكم الأول ، والقاضى « منذر بن سعيد البلوطى » الذى عاصر الخليفة الناصر ، كما عمل عدد منهم فى الإدارة المركزية للخلافة ، ووصل آخرون إلى أعلى الرتب العسكرية وتقلدوا منصب الوزارة . وإلى جوار تلك

الشخصيات الشهيرة التي لا تخفى - فى الغالب - أصولها البربرية ، يوجد رجال قانون آخرون وبرجوازيون أثرياء تتخفى أصولهم الأفريقية - البعيدة أو القريبة - تحت أسماء عربية نتيجة لرابطة الموالاة ، وبعد اندماجهم فى الشعب الأندلسى لم يكونوا أقل من غيرهم فى التمرد والعصيان ، بصحبة مواطنيهم من ذوى الدم العربى أو الإيبيرى ، ضد القادة المغاربة والأفارقة (بالرغم من وحدة الجنس والسلالة ^(٧)) الذين جلبهم العامريون خلال النصف الثانى من القرن العاشر (فترة القلاقل التي سبقت انهيار الخلافة القرطبية) .

العناصر الوافدة (العرب) :

تمدنا صفحة غير منشورة لمؤلف أندلسى مجهول - نقلتها إحدى التراجم القديمة للعائلات الفاسية الشهيرة ^(٨) - بمعلومات غاية فى الأهمية عن الأصول العريقة للمجتمع الأندلسى وعن التخصصات المهنية أو الزراعية لكل فرقة من الفرق التي يتألف منها المجتمع الإسلامى فى نهاية عصر الخلافة . وطبقا لذلك المؤلف ، فإن الشعب المسلم كان يتألف من أربعة أجناس : البربر - الوافدين من المغرب وإفريقيا - المسيحيين الإسبان المعتنقين للإسلام ، اليهود المعتنقين للإسلام وفوق هؤلاء جميعا العرب ويمثلهم الهاشميون (نسبة إلى بنى هاشم ، قبيلة الرسول) ثم بقية القبائل العربية بفروعها المختلفة (شراذم) ، وإلى كل طبقة من هذه الطبقات تنتسب مجموعات - نقل أو تكثر - من « الموالى » أى العتقاء والأشياء .

وكما تذكر نفس الوثيقة ، فإن العرب المقيمين بإسبانيا ينتمون لبلاد متعددة : الحجاز ، واليمن ، والعراق ، وسورية ، ومصر ، وليبيا ، وإفريقيا ، والمغرب ، حتى بلاد السوس (Sus) البعيدة ، وكان هؤلاء العرب يتجمعون فى المدن الهامة ، ويتفادون بقدر الإمكان الأعمال المتواضعة قليلة الشأن ، ويحتلون الوظائف بمكاتب الدولة وهيئة القضاء ، كما اتجه آخرون منهم إلى قطاع الأعمال الحرة أو إلى الاستثمار فى الأراضى الزراعية .

لأشياء مما سبق يخفى علينا ، وتكفى مجرد نظرة على الخريطة السكانية لإسبانيا المسلمة فى نهاية القرن التاسع لندرك أن العرب الوافدين قد اغتتموا الفرصة بالإقامة فى المناطق الغنية الخصبة التي حبتها الطبيعة بجميع المزايا بالأقاليم الساحلية أو التالية لها بجنوب وشرق شبه الجزيرة ، حيث تملكوا أجود الأراضى التي وفرت لهم عائداتها العيش فى بحبوحة داخل ضياعهم الريفية أو بالعواصم الإقليمية

أو في المدن الكبيرة مثل إشبيلية وبلنسية وسرقسطة ، أو في العاصمة ذاتها خلال القرن العاشر مفتونين بمباهج الحياة الفخمة التي يحياها الأثرياء في مقر البلاط الخلافي .

في ذلك العصر تلاشت بالكامل ظاهرة التناحر بين العشائر العربية (التي غطت كما رأينا - شطراً كبيراً من حياة الأندلس السياسية ، سواء في عصر الولاة أو في عصر الإمارة الأموية) ، وأخمدت حمية عبد الرحمن الثالث ، شيئاً فشيئاً ، نزوات التمرد وعنف ردود أفعال الزعماء العرب المشكوك في ولائهم حتى ذلك الوقت ؛ ومثلما جرى مع البربر ، فسرعان ما تأسبن العرب بمضى الوقت ، برغم عدم نسيانهم التفاخر بالانحدار من « البلديين » أو « الشاميين » لأن هذه النبالة تخول لهم - من وجهة نظرهم - معاملة خاصة من جانب الذين يسكنون بمقاليذ الحكم . لكن بالرغم من تشبث هؤلاء العرب بمسمياتهم العرقية وحديثهم المستمر عن قبائلهم وعشائرتهم وعما إذا كانوا ينتمون إلى الجماعة القيسية أو اليمينية ، فمن الواضح - كما يذكر صراحة المؤرخ ابن غالب ^(٩) - أنهم لم يستطيعوا الحفاظ على نقاوة دمهم العربى لاقتранهم منذ بداية الفتح بالنساء والمحظيات الأجانب ، وعلى هذا يمكن القول بأن العروق التي كان يتباهى العرب بنسبتها في القرن العاشر إلى القيسية أو اليمينية كانت تجرى بها دماء أوروبية وإفريقية (وحتى سوداء) أكثر من الدم الأسبوي .

وقد قرر المنصور بن أبي عامر (وعربيته لا تقل عن الآخرين) القضاء قضاء مبرما على نبالة الدم لما تمثله من خطر على النظام الحاكم حينما ساوى بين العرب ومواليهم وبين بقية الأندلسيين في الحقوق والواجبات العامة ، وألقى نظام « الجند » القديم (المتهاك حينذاك) بما يتضمنه من مزايا ، لقد كان العصر مناسباً -دون شك - لإحداث إصلاح جذري كنا بحاجة إلى معلومات مستفيضة عنه ، إذا كانت عصبية العرب الأندلسيين لم تفقد - منذ تأسيس الخلافة . على الأقل - ما تبقى لها من روح عدوانية ، فلنا أن نتخيل مدى ما أحدثته قرارات المنصور الثورية من ردود أفعال عنيفة ، وعما قريب ستتحول العصبية العربية - نظراً لبعض الأحداث - إلى مفهوم جديد للاتحاد وستنتصب مكانها العصبية الأندلسية في مواجهة العناصر الجديدة الوافدة إلى شبه الجزيرة ، ونعنى بهم الصقالبة والمرتزقة البربر على وجه الخصوص ، وعندما تخور قوى الخلافة وتصبح إسبانيا المسلمة ، لما يقرب من قرن ، مسرحاً

للاقتسامات المريعة لن نجد من بين « الأحزاب » المتصارعة حزباً واحداً يقوم على العصبية العربية ، سنجد طائفة أندلسية وطائفة بربرية وطائفة صقلبية ، ولن نعثر على طائفة عربية واحدة (١٠) .

لا نعتقد فى صحة ما أورده ابن خلدون فى مقدمته (١١) من أن الضعف والتلاشى بعد ذلك لروح العصبية العربية الأندلسية كان السبب الرئيسى لتدهور الخلافة الأموية وسقوطها فى السنوات الأولى من القرن الحادى عشر ، ومرة أخرى تكذب بيانات التاريخ الفعلية التعميمات النظرية للمؤلف المغربى الكبير الذى اعتمد على معلومات مضللة عن الحوليات الإسبانية / الأموية ، حتى عن تاريخ أجداده الذين ثاروا فى إشبيلية ، فى نهاية عصر الإمارة ، بالتعاون مع عائلة « بنى الحشاش » إلى أن أعادهم عبد الرحمن الثالث إلى جادة الصواب .

كان مؤلّد من أصل إسباني صرف (ابن حزم) هو الذى قام فى القرن الحادى عشر بالحديث (فى جمهرته) ليس فقط عن الأصول العرقية التى تنتمى إليها الجماعات العربية الرئيسية ، بل عن أماكن إقامتهم فى كور الأندلس المختلفة وثغورها أيضاً . كما فعل الشيء نفسه بالنسبة لتحديد مواقع البربر وبعض مجموعات المولدين الهامة ، وخاصة « بنى قاسى » . ويدفعنا ما سبق ذكره لطرح السؤال التالى : ألم يكن يدور بخلد ابن حزم إبطال مزاعم بعض العائلات الأندلسية الشهيرة بالانتساب إلى أصول عربية خالصة عندما أغفل ذكر أسمائهم فى العمل المشار إليه ؟ يمكننا ، من جهة أخرى ، تفسير مشروع ابن حزم (الذى لم يخن أبدا قضية الأمويين ، أولياء نعمته) على أنه أثر أريد به تمجيد شأن المرwanيين فى إسبانيا وتحسين صورتهم - المنهارة حينذاك - والإعلاء ، بالتالى ، من قدر العرب الباقين بشبه الجزيرة (١٢) ، على أى حال ، فإن البيانات التى قدمها لنا - شأنها فى ذلك شأن بيانات ابن غالب المتأخر عنه - ليست وافية ، وقيمتها كانت ستتضاعف ، بالفعل ، لو جاءت مصحوبة بتقديرات عديدة حتى ولو كانت تقريبية ، ومع هذا سنظل ندين بالشكر لمساهمة ابن حزم القيمة فى دراسة سكان شبه الجزيرة أثناء عصر الخلافة ، فالمعلومات التى ذكرها عن المجموعات شديدة التحفظ - مثل « البلويين » الذين قاوموا التحدث بالرومانشية وظلوا أوفياء للغتهم وحرصوا على التزاوج فيما بينهم (١٣) - تلقى الضوء على التاريخ الاجتماعى للأندلس والذى أغفلته تلك المدونات القاحلة الخالية من نبض الحياة والتى لا تُجيد سوى الحديث عن الأمير الحاكم وأفراد حاشيته المقربين .

العناصر الوافدة (السود والصقالبة) :

مازال فى بوتقة السلالات الغريبة لقرطبة القرن العاشر متسع لعنصرين أجنبيين على طرفى نقيض فى الجنس واللون : الزوج السودانيون والصقالبة ، كان بعضهم خصيان لخدمة الحريم والبعض الآخر مرتزقة فى الحرس الخاص بالخليفة ، وبالرغم من جلبهم كعبيد إلا أن الصقالبة كان بوسعهم - من خلال العتق - التمتع بحقوق الأحرار والزواج والإنجاب إن سلموا من الخصى .

تطلق الوثائق العربية على السود المجلوين من « بلاد السودان » المسمى الشائع « عبيد » (مفردا : عبد) . وعلى ما يبدو ، فقد استعان الحكام الأمويون فى كل العصور - خاصة فى عهد الحكم الثانى - بالسود فى حرسهم الخاص ، الذى كان يختار بعناية ويسلح بأفضل المعدات كما تشهد بذلك عروضهم فى حفلات الاستقبال الرسمية أو عند أخذ البيعة ، كان الحرس يتألف من المشاة والفرسان ، وعندما جاء المنصور ابن أبى عامر ضاعف أعداد السود فى الحرس ، وجند السودانين المشهورين بقوة التحمل والركض السريع ليؤلف منهم طائفة من سعاة البريد (رقاص) كانوا يتبعونه فى جميع حملاته .

أما الإماء الزنجيات فكانت أعدادهن فى المدن الأندلسية تفوق بكثير أعداد الرجال من بنى جنسهن ، وسنرى فيما بعد أنهن كن يتمتعن بشهرة كبيرة فى الأعمال المنزلية وأن سادتهم كانوا يفضلونهن كمحظيات ، وفى هذا يكمن سر كثرة الملونين بين أفراد الطبقتين المسلمتين - الأرسقراطية والبرجوازية - خلال القرن العاشر (كما هو الحال فى المغرب الآن) ، ولم يكن هؤلاء يشعرون أبداً بالدونية بسبب لونهم لا فى العصر الوسيط ولا فى أيامنا هذه .

أما بالنسبة للصقالبة ، فقد تحدثنا عنهم كثيراً فى المجلد الرابع وتتبعنا وصولهم إلى المراكز المتقدمة فى الدولة وتدخلهم المستمر فى الشؤون السياسية ، ومع هذا تجدر الإشارة إلى الفضائل السياسية والحربية الجمة التى تحلى بها بعضهم وخاصة أولئك « الضباط الكبار » الذين أخلصوا للنظام الأموى وقدموا لساداتهم خدمات لا تقل أهمية عما كان يفعله نظراؤهم للنظام الفاطمى فى ذلك الوقت .

ومن بين بضعة الآلاف الصقلبية التي كانت تدور فى فلك الخلافة الأموية كان هناك الكثيرون الذين لم يصيبوا مجداً ولاثروة ويبدو أنهم لم يندمجوا بما فيه الكفاية فى بقية الأجناس بل احتفظوا - داخل الموزايك السلالي للأندلس - بنوع من التجانس و « الحس الأوربى » بالرغم من إسلامهم الظاهرى وتأقلمهم مع الوسط الاجتماعى الذى استطاعوا احتلال مكانة متميزة فيه . ولهذا السبب ، سارع هؤلاء عند سقوط الخلافة بتكوين طائفة صقلبية بعد تجمعهم من جديد فى الجزء الشرقى من شبه الجزيرة إلى أن آل بهم الأمر إلى الانصهار فى بقية الشعب الأندلسى ؛ ومثل الجماعات النورماندية المتناثرة هنا وهناك ، فقد ساهم الصقلابة - بفضل الدور الاجتماعى الهام الذى اضطلعوا به فى القرن العاشر والحادى عشر - فى إضفاء صبغة خاصة على المجتمع الأندلسى ميزته عن بقية مجتمعات العالم الإسلامى ، بالرغم من روابط الأندلسيين الوثيقة بالشرق وحرصهم على احترامها .

لا يقتصر إطلاق المسمى الشائع « صقلابة » على القادمين من أطراف أوروبا البعيدة (الجرمانيين ، والإسكندنافيين أو السلافيين) ، بل يشمل كذلك الأسرى المجلوين من بلدان قريبة (إفرنجة غسقونيا ولنجدوك والثغور الإسبانية) ، كانت الحملات الحربية تجلب أيضاً الإفرنجيات اللاتى يشتد عليهن الطلب فى قرطبة لياض بشرتهن وشقرة جدائلهن .

ومن بين الإفرنجيات والأسيرات البشكنسيات كان الأمراء الأمويون يختارون المحظيات المدلات ، اللاتى يتحولن بعد ولادتهن إلى أميرات حقيقات (أمهات ولد) نوات نفوذ وتأثير ، وعلى استعداد دائماً لتدبير المؤامرات السرية الشائكة بمعاونة الخصيان الصقلابة ، ولم يكن سيل الإفرنجيات يصب فقط فى حريم القصر ، بل كان يصيب منه وجهاء « الخاصة » وأثرياء البرجوازية فى المدن الكبرى حيث يبعن بمثل وزنهن ذهباً ، وكما بيّضت الشركسيات فى العصر الحديث - وبشكل يثير الدهشة - وجوه الطبقات العليا فى المجتمع الإسلامى الشرقى ، فقد ساهمت الفرنجيات القرطبيات - بثقافتهن ورقتهن وعذوبتهن - فى إضفاء طابع خاص ومتميز على المجتمع الأندلسى ، وفى تحسين وضع ومكانة المرأة فيه .

المسلمون الجدد من الإسبان :

عندما تحدث المؤلف الأندلسي (فى النص المذكور عن الأجناس المختلفة لشعب شبه الجزيرة المسلم) عن مجموعة الإسبان التى اعتنقت الإسلام قام بتقسيمها إلى ثلاثة عناصر : المنحدرين عن إسبان خضعوا سلباً للمنتصرين ودخلوا دينهم واستمروا فى مواقعهم القديمة ، المنحدرين عن إسبان خضعوا عنوة وتحولوا إلى عبيد وقت الفتح ثم اعتنقوا الإسلام وظلوا كذلك فى نفس أماكنهم السابقة ، وعنصر المنحدرين عن مستعربين دخلوا الإسلام بعد الفتح والأسرى المجلوين بواسطة الحملات العسكرية واعتنقوا الإسلام واستقروا نهائياً فى الأندلس ، يبدو أن هذا التصنيف مطابق للواقع ، ذلك لأن التحول إلى الإسلام لا يعنى المساواة الكاملة فى الحقوق بين من أسلموا صلحاً وبين من أسلموا نتيجة لحرب هزموا فيها (عنوة) .

يقدم النص المذكور المسلمين الجدد - « المولدين » ، و « المسالمة » أو « الأسالمة » (١٤) - وكأن أنشطتهم تقتصر على الزراعة وتربية القطعان ، فى الريف ؛ وفى المدن على المهن والحرف والأعمال المتواضعة .

بالرغم من عدم المصادقية الكاملة لهذه الملاحظات إلا أنها تبرز الدور الهام الذى كان يضطلع به « المولدون » (الكتلة السكانية الأكثر عدداً فى المجتمع الأندلسي) فى اقتصاديات الدولة ، كما تشير ، من جهة أخرى ، إلى أنهم كانوا - بجانب المستعربين والبربر - أكثر العناصر الفاعلة وأفضلها تكيفاً مع مواصفات الحياة على أرض شبه الجزيرة ، وقد أحسن الأمويون صنعةً عندما أتاحوا الفرصة لتطور هذه الطبقة ، وسمحوا للكثيرين منها بالثراء والاندماج المتنامي فى المجتمع الإسلامى الذى كانت تشكل الأرسقراطية العربية أقلية واضحة فيه . لقد سلك حكام إسبانيا العرب نفس المسلك فى القرن الثامن ، وبهذا الشكل استطاعوا - بمعاونة سكان البلد القدامى - السيطرة على أراضٍ مترامية الأطراف لم يكن بوسعهم توفير القوات اللازمة للاحتفاظ بها ، والتصدى كذلك لانتفاضات شعب كان ينتهز أول فرصة تلوح له ليحاول إزاحة نير الاحتلال عن كاهله .

وهناك ظرف آخر موات للإسلام تمثل فى قسوة النظام القوطى وشدة عسفه بعامه الشعب الإشباني فى بداية القرن الثامن ، لقد رضى الشعب الإشباني - كرهًا أو عن طيب خاطر - بالسيادة الجدد على أمل خلاصهم من الوضع المزرى والتدابير القمعية التى عانوا منها جيلاً بعد جيل .

لقد مثَّل الغزاة بكبرياء وغطرسة المنتصر الذي لا يقهر ، لكنهم قدموا لهذا الشعب فرصة حقيقية لتحسين أوضاعه بمجرد قبوله - دون إكراه - اعتناق الدين الجديد ، وقد أعطت سياسة التحول إلى الإسلام - المنفذة بمهارة عن طريق الترغيب لا الترهيب - ثمارها سريعاً وأمدت النظام الأموى ، بمجرد استقراره ، بكتلة هامة من الرعايا المستقيمين ساهمت ، بفضل ولائها وإخلاصها ، فى تحييد بذور الشقاق السياسية بين العناصر الوافدة (العرب والبربر) مرات عديدة ، وفى التصرف كمسلمين غيورين على عقيدتهم أقوىاء الشكيمة ، حتى عند احتكاكهم بجماعات المستعربين أو بممالك الشمال المسيحية عند الثغور ، لا يوجد ما يمنع من التأكيد بأن نجم الأندلس إذا كان قد سطع بشدة منذ بداية القرن العاشر فى سماء الإنتاج الفكرى فالفضل فى ذلك يرجع إلى العمق المولدى الكامن فى شعبها وشخصية بارزة مثل شخصية ابن حزم - وغيرها كثير - هى خير دليل على المكانة التى كان يحتلها المسلمون الجدد فى ساحة النشاط الثقافى الأندلسى مع نهاية عصر الخلافة .

وبالطبع فإن المولدين عندما تعربوا شعروا أحياناً بالرغبة فى إخفاء أصولهم الإسبانية والدخول - من بوابة مصيدة « الولاء » - فى العائلة العربية الكبيرة التى تربطهم بها زيجات لا تعد ولا تحصى ، ودون الذهاب بعيداً ، فقد ادعى ابن حزم نسبته إلى أصول فارسية ، وهذا ما جعل مؤرخاً صارماً مثل ابن حيان يسخر منه ويتندر (١٥) ، وفى الاتجاه المقابل ، شهدت الساحة الثقافية تَخَلُّق عصبية إسلامية جديدة (١٦) نتيجة لاتهام بعض المولدين بدونية العنصر (ولهذا السبب قام « أبو عامر ابن غرسية » بتدوين رسالته الشهيرة فى القرن الحادى عشر (١٧)) ، مثلما ساهم عامل الأخوة العنصرية فى تشكيل برجوازية جديدة - زمن الأمير عبد الله - لمواجهة التعسف العربى فى إقليمى البيرة وإشبيلية .

ومثلما فعل المستعربون ، فقد ساهم المولدون أيضاً فى تثبيت اللغة الرومانثية (الأعجمية) - المشتقة من اللاتينية المستخدمة من قبل فى شبه الجزيرة - وعملوا على انتشار استخدامها فى كل الأقاليم والعصور إلى جوار اللغة العربية الأندلسية (١٨) . لقد انتهى المطاف بتلك اللغة (الرومانثية) (١٩) - التى كانت تكتب فى المناطق التى استردها المسيحيون بحروف عربية، طبقاً لنظام الخط الأعجمى (Aljamiado) - إلى تبنى عدد كبير من المفردات العربية ، مثلما تبنت العربية فى ذات الوقت كلمات رومانثية لا تقل عدداً ، ويعتبر هذا دليل آخر على الاستخدام المزيج لكلا اللغتين فى الأندلس ، وخاصة فى القرن العاشر .

احتفظ كثير من المولدين نوى الأصول القوطية أو الإيبيرية بألقابهم أو أسماء آبائهم الرومانشية واستخدموها أسماء لعائلاتهم ، ويمكن - بمساعدة فهارس التراجم الأندلسية - إعداد قائمة طويلة بتلك الأسماء الرومانشية فى العصر الأموى ، وهامى بعضها على سبيل المثال : « بنو أنخيلينر » و « بنو ساباريكو » بإشبيلية (٢٠) ، و « بنو قومس » و « بنو كارلومان » ، و « بنو غرسية » ، و « بنو بارون » ، ... إلخ (٢١) .

وهناك مولدون آخرون مسجلون فى المؤلفات الأندلسية بألقابهم الرومانشية ، وعلى سبيل المثال نذكر الأديب القرطبى المتوفى عام ١٠٠٠ م (٣٩٠ هـ) الذى كان يسمى « إسكوبا » " Escoba " (٢٢) ، ومن جهة أخرى ، ففى الشجر الأعلى - وخاصة فى زمن بنى قاسى - كان كثير من المولدين يعرفون بأسماء لاتينية محرفة إلى العربية (مثل فيليكس المتحول إلى سعيد ، وبيكتور المتحول إلى ظاهر) أو بأسماء من الإنجيل (مثل موسى ، وهارون ، وعيسى) أو حتى بأعلام بشكنسية (مثل فورتون ، لب) .

تجدر الإشارة هنا أيضاً إلى أن أعداداً كبيرة من العائلات الإسلامية الجديدة اتخذت - أثناء عهد الإمارة القرطبية ، وبهدف تقليد العائلات العربية والبربرية - أسماء أو ألقاباً تحمل فى نهايتها علامة التكبير الإسبانية Un (ón) : وبهذا الشكل تحول حفص إلى حفصون ، غالب إلى غلبون ، عبد الله إلى علبون ، الأزرق إلى زرقون ... إلخ .

ونشير فى النهاية إلى أن بعض المولدين كانوا يتباهون بما تحمله أسماؤهم من أصول قوطية : فالكاتب ابن القوطية يدعى نسبته إلى الأميرة سارة ، ويتحدث عدد من فقهاء قرطبة فى القرن العاشر عن انتمائهم للكونت الشهير يوليان ، وبنو قاسى - بدورهم - يدعون أنهم ينحدرون من كونت قوطى .

امتزاج السلالات وتخلق النموذج الأندلسى :

لن نضيف جديداً لو قررنا أن العامل الحاسم فى الانصهار التدريجى بين العناصر والسلالات المتعددة التى ذكرناها آنفاً يكمن فى الانضمام إلى دين مشترك ، وفاعلية هذا الدين لا تقتصر - مثل بقية الأديان - على توحيد أداء الشعائر والفروض ، بل لأنه (أى الإسلام) يضع لمعتقديه - بالإضافة إلى التزاماتهم الأخلاقية - مجموعة

مفصلة من الأحكام تضبط إيقاع تصرفاتهم العامة والخاصة فى شتى الاتجاهات . حتى فيما يبدو أنه من توافه الأمور ، ولأنه يحكم حركة الأفراد وعلاقاتهم الاجتماعية ؛ ولأنه يخول للسلطة القائمة مباشرة الإدارة الروحية والحياتية للرعية دون تفرقة على أساس طبقة أو عنصر . وبالرغم من وقوع بعض الحوادث التى لا يمكن تفاديها ، فإنه بمجرد رسوخ العقيدة الجديدة بين غالبية المسلمين الجدد ، أخذت عملية الانصهار لشعب متنافر الأجناس مثل الشعب الأندلسى تتم - بفضل روابط الزواج والمصالح المشتركة - بإيقاع سريع ويكتمل عنفوانها جيلا بعد جيل ، وبشكل أكثر وضوحاً فى المدن عنه فى الريف .

لا مناص من الاعتراف بأن منتصف القرن العاشر قد شهد (فى ظل انتشار السلام السياسى على يد عبد الرحمن الثالث والإخماد التام لبؤر التمرد فى قلب الأندلس) انصهار جميع عناصر الشعب المسلم الوافدة وغير الوافدة بنجاح نجم عنه توازن اجتماعى غير مصطنع كان مؤهلاً - دون شك - للاستمرار رداً طويلاً من الزمن لولم تتبثق على غير المتوقع - بعد عدة عقود - معاول هدم عجلت بقطيعة لا رجعة فيها بين الأجناس .

على أى حال ، فإن الثقل الواضح للإضافة الإسبانية على كتلة رعايا الدولة القرطبية قد طبع المجتمع الأندلسى ، منذ القرن التاسع ، بطابع شديد الخصوصية أقر به كل الرحالة القبروانيين والبغداديين الذين زاروا شبه الجزيرة ، وبالرغم من عدم إحساس هؤلاء الرحالة بالغربة فى بيئة يتمتع فيها كل ما هو عربى بأفضلية مطلقة ، بيئة تجعل من الثقافة الشرقية أنموذجاً لا يقبل النقاش وتنزل لغة القرآن منزلة عالية لا يطاولها فيها ما عداها من اللغات المحلية ، إلا أن دهشتهم بالتأكيد كانت كبيرة عندما شاهدوا أناساً مختلفى الألوان والأجناس متآلفين فى الشوارع والأسواق ، يتحدثون لغة واحدة ويعيشون فى تكافل وانسجام مع الذميين المسيحيين واليهود ، المخلصين أيضاً للنظام ، وأيا كانت ردود أفعال هؤلاء الرحالة عند اكتشافهم لوسط غريب بعض الشيء عنهم ، لابد أنهم عابوا على المسلمين الإسبان فتورهم الدينى ووهن تضامنهم مع الروحانيات المثالية فى بقية العالم الإسلامى المتشدد .

لم يكن حبل الصلة الذى يربط قمة صارى الإسلام الإسبانى بزمرة المجتمع الإسلامى المتراعى الأطراف متيناً بما يكفى لمنع بزوغ الحس القومى بين زهرة

المجتمع الأندلسي أو - توخياً للصواب - ولادة حس بالتلاحم والارتباط ببيئة جغرافية معينة ، وربما أيضاً بانكفاء على الذات لا يبتعد كثيراً عن الأثرة . كانت هذه الاتجاهات أو الأحاسيس غير واضحة المعالم في بدايتها ، لكنها أخذت تتبلور شيئاً فشيئاً عندما سلطت العزلة السياسية للدولة الأموية (في مواجهة التهديدات العباسية والفاطمية) الضوء على طبيعتها الإقليمية وحبستها في زنزانة حدودها الطبيعية . يبدو أن المسلم الإسباني قد بدأ يعي - منذ منتصف القرن العاشر ، على الأقل - طبيعة شخصيته . إنه بالرغم من جذوره الشرقية أو المغربية - أنموذج متفرد ، « أندلسي » تأصل نهائياً في أرض شبه الجزيرة ، في وطن سيذوب فيه عشقاً إلى الأبد حتى عندما لا يعرف الدفاع عنه ويضطر ، أولاً ، لتركه يتجرع كؤوس عبودية السادة الأفارقة ، ثم لمغادرته بعد ذلك إلى غير رجعة قبل أن تتمكن من عنقه ربة «الاسترداد» المسيحي (٢٣) .

لم يكن الأندلسيون يتمتعون بالكثير من مواصفات الرجولة ، كانوا متحدثين عظماء وخبراء في المباحكة والجدال ، لكن كانت تنقصهم أحياناً الجسارة الوطنية أو الجراءة مجردة ، استحق جبن بعضهم ووهن تدينه لعنات واحد مثل ابن حيان أو الحكم السلبى لآخر كابن حوقل ، لكنهم ، وبالرغم من ضعف جبلتهم الشعرية وقلة حيلتهم في استخدام ما لديهم من قلم ، كانوا لا يضاهون في تنظيم الاحتفالات القرطبية ومسابقات المتعة على ضفتى الوادى الكبير .

استطاعوا التعبير عن إحساسهم بالطبيعة أفضل كثيراً من معاصريهم المشاركة ، لكنهم لم يتردبوا مثلهم في غمر رعاة الفن والأدب بفيض من الإطراء والمديح المبالغ فيهما ، طمعاً في الحماية أو لكسب لقمة العيش .

لابد أنهم شكلوا ، في القرن العاشر والحادى عشر ، أنموذجاً متفرداً للمسلم كى يستطيع واحد منهم أن يكتب ضارباً بتاريخ العرب الأقدمين ومفاخرهم الملحمية عرض الحائط : « دعنى من أخبار العرب والمتقدمين ، فسبيلهم غير سبيلنا ، وقد كثرت الأخبار عنهم ، وما مذهبى أن أنضى مطية سوى ، ولا أتلى بحلى مستعار » ، وأن يتجاسر على الاعتراف - في صيحة معبرة - بأنه قد غنى عن كافة الأحجار الكريمة « بياقوتة الأندلس » (٢٤) .

٣ - هيكل المجتمع الأندلسي

الطبقات الاجتماعية (الخاصة) :

فى القرن العاشر كان المجتمع الأندلسى يتألف - قبل انصهاره المؤقت - من عدد من الطبقات الاجتماعية التى تشبه نظائرها فى العالم الإسلامى خلال ذلك العصر : الرجال الأحرار ، الموالى والعبيد - وعلى شكل هرم متدرج يتوزع الأحرار حيث تمثل الأرستقراطية (الخاصة) ذروته والعامّة قاعدته .

تضم طبقة « الخاصة » القرطبية ذوى الأصول العربية ، وبخاصة أولئك الذين يمتون بصلة قرابة - مباشرة أو غير مباشرة - للأمير الحاكم ، لكنهم ينتمون مثله لفرع المروانيين من بنى أمية (٢٥) ، كان يطلق عليهم أحياناً - للإشارة إلى تمتعهم بنبالة الدم ، طبقاً لنظرية « علم الأنساب » العربى - « بنو هاشم » لكن المسمى الذى عرفوا به فى الغالب كان « أهل قریش » ، لو أنعمنا النظر فى إنجاب غالبية الأمراء القرطبيين لعدد وافر من الأولاد الذكور ، سندرك إلى مدى وصل تكاثر « أهل قریش » فى العاصمة خلال فترة الخلافة ، وإلى أى مدى وصل نموهم المضطرد ، كان يفرض لكل واحد من هؤلاء القرشيين (علاوة على تمتعه بالإعفاء الضريبى) معاش (رزق) من خزانة العاهل الخاصة ، ويبدو أن القرشيين - الذين كانوا يمثلون نسبة كبيرة من سكان العاصمة - كانوا بعيدين تماماً عن الوظائف العامة ، وكان عبء إدارة شئونهم يقع على عاتق « النقيب » ، كان « النقيب » - علاوة على هذا - يعتبر ممثلهم المسئول وحلقة الوصل بينهم وبين الأمير الحاكم (٢٦) .

وعلى فترات كانت تنضم إلى هذه الأرستقراطية مجموعات أخرى من المروانيين القادمين من الشرق للعيش فى كنف قريبهم البعيد ، وقد شهد القرن العاشر قدوم مجموعتين رئيسيتين منهم (٢٧) : مجموعة « العبيدلين » التى أتت فى عهد الحكم الأول ومنحها « قطائع » فى حى « الرقاقين » وحى « سان أنيسكلو » بقرطبة ؛ أما مجموعة « القدرين » فإنها لم تستقر بقرطبة إلى أن جاء عبد الرحمن الثالث وسمح لها بسكنى العاصمة ، متفاضياً بذلك عن انحدارها من صلب أحد أحفاد الخليفة العباسى « المهتدى » (٢٨) .

فى الآثار الوصفية التى تركها لنا المؤرخون الأندلسيون (٢٩) عن الاحتفالات الرسمية التى كانت تعد أثناء عصر الخلافة بقصر قرطبة أو فى مدينة الزهراء بمناسبة تولية العاهل أو تنصيب ولى العهد أو استقبال السفارات أو بمناسبة الأعياد الدينية ، كان « أهل قريش » يأتون دائماً - طبقاً لقواعد البروتوكول - على رأس قائمة المدعوين ، وبعدهم يأتى الوزراء وكبار موظفى الدولة ثم رجال القضاء الجنائى والمدنى بزعامة قاضى العاصمة .

وينتمى لطبقة « الخاصة » كذلك شاغلو الوظائف الهامة فى الإدارة المركزية « طبقات أهل الخدمة » سواء كانوا من سلالات عربية أو من وجهاء الصقالبة ، وبالتأكيد كان ينتمى إليها أيضاً ، منذ القرن التاسع ، أصحاب المناصب التشريعية الذين تمكنوا بثرواتهم - الموروثة أو المستحدثة - وبما أنفقوا من ذهب من شراء مكان لهم فى هذه الطبقة الاجتماعية الأكثر تميزاً فى المملكة ، لو أخذنا فى الاعتبار أنه جرت العادة فى ذلك الزمان على منح الامتيازات فجأة ودون سابق إنذار ، وعلى سلبها بنفس الطريقة من أصحاب المقام الرفيع الذين أمضوا رداً طويلاً من الزمن فى خدمة النظام الملكى ، لأدركنا أن « الخاصة » كانت تمثل أقلية داخل المجتمع الأندلسى ؛ أقلية لاتختار بعناية فحسب ، بل غير مستقرة فى الوقت ذاته لاعتمادها - فى المقام الأول - على مزاج وهوى الحاكم ، وبمثابة التعويض عن هذا الوضع المتقلب ، فإنها كانت تستأثر - بالمقارنة ببقية طوائف الشعب - بمعظم المنافع المادية والمعنوية ، لقد كان لها الحق فى معاملة متميزة من جانب ممثلى السلطة ، ويتمتع فوق هذا - كما رأينا - بقضاء خاص على المستويين المدنى والجنائى .

العائلات الكبيرة لأصحاب المقام الرفيع :

لم يكن الدور الذى لعبته العائلات الكبيرة « بيوتات » (التى يتوارث فيها الأبناء عن الآباء المناصب العليا فى الدولة) داخل المملكة القرطبية فى القرن العاشر يقل عن مثيله فى امبراطورية الشرق العربية (٣٠) ، لو تصفحنا المدونات التاريخية وألقينا نظرة على التعيينات بالوظائف الرسمية الهامة ، لوجدنا أن أسماء العائلات المحظوظة لم تتغير منذ القرن التاسع حتى نهاية عهد الناصر ، ومن ثم نستطيع القول إن هناك عدداً محدوداً من العائلات كان يحتكر بالوراثة المناصب المرموقة فى الإدارية المركزية.

من بين هذه العائلات التى ذاع صيتها فى عصر الإمارة والخلافة توجد خمس - على الأقل - من أصول شرقية :بنو أبى عبدة ، وبنو حضير (Hudair) ، وبنو شهيد ، وبنو عبد الرؤوف وبنو فطيس ، وقد ربطت هذه العائلات - التى تتحدّر جميعها من العرب السوريين أو من الموالى المروانيين - مصائرهما بمصير السلالة الحاكمة فى قرطبة منذ زمن طويل (٢١) ، نستطيع فى يسر تتبع المشوار المكمل بالغار لمعظم تلك العائلات من خلال مدونة « عارب بن سعيد » التى تغطى عهد عبد الرحمن الثالث ، وعلى سبيل المثال نرى فى القرن العاشر أصحابا للشرطة وحكاما للكور من عائلة بنى عبدة ، كما أمدت عائلة « بنى جهور » (وهى فرع من العائلة السابقة) الأمويين بموظفين أوفياء ، لدرجة قيام أحدهم عند سقوط الخلافة - بدافع فرض النظام فى العاصمة التى تناثرت أشلاء وفرقا ، وإعادة تجميع ما تبقى من شعبها المشوش المضطرب - بتأسيس حكومة صغيرة للجهوريين ظلت قائمة لفترة طويلة من القرن الحادى عشر ، ولم يكن بنو حضير ، وخاصة موسى بن محمد بن حضير وأخاه أحمد ، أقل حظا من غيرهم بالنسبة للوظائف الكثيرة التى شغلوها ، أما بنو شهيد فكان ممثليهم الأشهر « أحمد بن عبد الملك » أول من تلقب عام ٩٣٩ م (٢٢٧ هـ) « بصاحب الوزارتين » ، وقد خلع عليه الخليفة الناصر هذا اللقب الجديد مكافأة - أو على الأصح ، فى مقابل - مجموعة الهدايا الثمينة التى تلقاها منه ، أما بنو عبد الرؤوف وبنو فطيس فيظهرون دائما فى المدونات التاريخية مزينين بالألقاب الرسمية التى تنتمى لأرقى المناصب الإدارية والعسكرية (٢٢) .فى عهد الناصر ، وأثناء احتفاظ الأرستقراطية العربية بالمواقع المتقدمة فى الدولة ، نلمح صعود نجم وجهاء من الموالى مثل الشهير « بدر بن أحمد » الذى انتصر على « أوردينو الثانى » (Ordoñoll) فى موقعة « ميتونيا » (Mitonia) (٢٣) ، وعينه عبد الرحمن الثالث فى منصب الحاجب وظل فيه حتى وافاه الأجل بعد تسع سنوات (٩٢١ - ٣٠٩ هـ) ، وبعد موته باشر ابنه عبد الله وعبد الرحمن العديد من اختصاصه ، ولكن الفتيان الصقالبة هم الذين أظهرت الأيام قيمتهم وأبرزت مواهبهم فى الإدارة والتخطيط الاستراتيجى ، وهكذا نرى فتيانا مثل « درى » ، أفلح ، طرفة أو جعفر ، يقدمهم لنا المؤرخون على أنهم أبناء الخليفة بالتبنى . بالفعل ، لقد أعطاهم

الخليفة حريتهم قبل أن يرفعهم إلى أعلى الدرجات الاجتماعية ويساويهم بممثلي البيوتات العربية القديمة ، الذين أحسوا - بالتأكيد - بتقلص العديد من امتيازاتهم المتوارثة نتيجة لهذا الاقتحام الفجائي ، بعد ذلك (فى عهد الحكم الثانى ، وبداية عهد ابنه العاجز هشام الثانى) بزغ نجم المصحفى (الحاجب) ثم منصور المستقبل : محمد بن أبى عامر (٣٤) .

نعتقد أن أصحاب المقام الرفيع هؤلاء - وجميعهم يتحلى بلقب « وزير » ويصرف راتبه - كانت لديهم ثروات طائلة فى شكل مخزون من المعادن النفيسة أو ضياع شاسعة ، كان العاهل يلزم من تظهر عليه منهم أمارات الغنى الفاحش فى مدة وجيزة بكشف حساب تمهيداً لمصادرة ثروته ، لكنهم كانوا يتفادون ذلك بالمسارعة بتقديم جزء كبير من ممتلكاتهم للعاهل قبل التفتيش عليهم ، كانت هذه الطريقة العملية لدرء المصادرة المتوقعة للثروات المجموعة فى وقت قصير بمثابة تقليد متبع - كما هو الحال فى الشرق - بين أصحاب المقام الرفيع القرطبيين .

عندما استأثر المنصور بمقاليد السلطة فى القرن العاشر رجع عبد الملك بن شهيد (أحد أعضاء عائلة بنى شهيد التى تحدثنا عنها) إلى قرطبة ، بعد قضائه تسع سنوات فى منصب الوالى على كورتى مرسية وبلنسية ، وهو يحمل ٤٠٠,٠٠٠ دينار نقداً وأوان ذهبية قيمتها ١٠٠,٠٠٠ دينار ، ومائتين من العبيد الصقالبة ، هذا بخلاف أملاكه من البساتين والضياع التى تحتاج إلى خمسمائة عامل يومياً ، ويضيف المؤرخ الذى أعطانا هذه الأرقام (٣٥) قائلاً : إن بيته وخيله فقط كانوا يحتاجون شهرياً سبعين قدحاً من القمح وثمانين حملاً من الشعير ، حسناً : عندما قدم ابن شهيد حمولته الدسمة للمنصور ، لم يكتف الأخير برفض الهبة - بلباقة وأناقة - بل أمر باعطاء ابن شهيد كمية ضخمة من الغلال الموجودة فى أقرب صوامع الدولة (٣٦) .

الطبقة الوسطى وعامة الحضر :

ماذا يبقى لجماهير الشعب من نصيب فى بلد يُجرى فيه بعض المحظوظين الذهب أنهاراً كما رأينا .. لتلك العامة التى لا يتحدث عنها المؤرخون إلا بمزيج من الاشتمزاز والنفور على اعتبار أنها حثالة المجتمع ؟ (٣٧) ، ألا يزال هناك متسع بين

العامة الفظة المضطربة وبين أرستقراطية الخاصة ، طبقة وسطى يشكل رجال القضاء والتجار والأغنياء قوامها فى المدن ، ويمثلها أصحاب الملكيات الكبيرة فى الريف ؟ .

على السؤال الأخير - وبالنسبة للتجمعات الحضرية ، على الأقل - تجيب النصوص التاريخية بالإثبات ، وعلى هذا ، ففى بعض المناسبات نجد « أعيان » أحياء وأسواق قرطبة (أى التجار الذين استطاعوا - بفضل عائدات أعمالهم - ارتقاء السلم الاجتماعى شيئاً فشيئاً ، ومن المحتمل أنهم كانوا جميعاً من المولدين والمنحدرين عن اليهود المعتنقين للإسلام) يحتلون ذيل قائمة المدعوين ، طبقاً لقواعد البروتوكول .

الشيء الذى لا يمكننا التعرف عليه بوضوح من المدونات التاريخية هو طبيعة دور الطبقة الوسطى فى المدن ، فعلى الرغم من تمتعها فى بعض الأوقات - وبشكل مشابه للطبقة الأرستقراطية - بهيئة شرطية خاصة ، إلا أنها على ما يبدو لم تكن منظمة ، ولم تستفد من أهميتها فى اقتصاديات مجتمع المدينة لكى تطالب السلطة المركزية بمجموعة من اللوائح الخاصة أو بإعفاءات ضريبية معينة ، وفى كلمات أخرى نقول إنها (أى الطبقة البروجوازية أو الوسطى) كانت موجودة بالفعل ، ولكن غير معترف بها رسمياً ، وهذا الوضع لم يشكل أبداً حجر عثرة فى طريق ازدهارها المستمر أو اضطلاعها بدور حاسم فى التطور الاقتصادى والثقافى للأندلس خلال القرن العاشر .

أما طبقة العامة فكانت تضم الحرفيين وأصحاب المهن المتواضعة وعمال اليومية من البربر والمولدين والعتقاء ، وتمثل - علاوة على المستعربين واليهود من نفس النوعية - قاع المجتمع فى المدن الكبيرة ، ونحن على يقين بأنهم كانوا يعيشون حياة صعبة للغاية نظراً لثقل التكاليف الضريبية وكونهم هدفاً للنكايات اليومية من جانب السلطات الحضرية التى لا تثق - وبحق - فيهم ؛ هذه العامة الفظة المتهتكة ، المتحفزة دائماً للتمرد والعنف (٢٨) كانت تستحق بالفعل الرقابة الصارمة والضغط المستمر ، كان أول شيء يعنى به الأمراء القرطبيون عند توليهم السلطة هو التأكد من إذعان هذه البروليتاريا الحضرية المتشوقة للعصيان ، ولأن هؤلاء الأمراء كانوا يودون فى نفس الوقت رفع أسهمهم بين أوساط تلك الطبقة فإنهم كانوا يسارعون بإصدار عدد من

القرارات الرحيمة مثل تخفيض حصة الضرائب أو إسقاط المتأخر منها (٣٩) ، يلزم التنويه هنا إلى المفهوم القديم للتوازن في المجتمع الإسلامي خلال العصر الوسيط والذي لا يمل المؤرخون من تذكرتنا به - وخاصة ابن حيان - إنما ينصرف بكامله تقريباً إلى الأقلية التي تمارس السلطة أو تتمتع بالثروات العريضة ، وأنه لا يكاد يشمل الأوساط المتواضعة سواء كانت من سكان المدن أو الريف .

الطبقة العاملة في الريف ونظام (توزيع) الأراضي :

ما زالت وثائقنا عن الطبقة العاملة في القرى وعن سكان الريف الأندلسي بوجه عام (ويغلب الظن الذي لا يعززه حتى الآن سند تاريخي أن معظمهم كان من المستعربين : أى من الإسبان المسيحيين الذين لم يسلموا) فى غاية الشح والعوز . وإذا تصدينا لدراسة هذه الطبقة الاجتماعية والحال هكذا ، فلا مفر من الاختصار فى معظم الأحيان على مجرد افتراضات ، والتوغل بحذر فى مسالك لم تطرق من قبل إلا لماماً ، وبما أن دراسة طبيعة حياة طبقة الفلاحين فى عصر الخلافة الإسبانية (٤٠) لا يمكن فصلها عن دراسة قانون العقارات ونظام الملكية الزراعية ، يتعين علينا البدء بالمسألة الأخيرة ومعالجتها فى ضوء ما تسمح به الظروف .

يمكننا القول بأن مسألة توزيع أراضي شبه جزيرة إيبيريا بعد الفتح الإسلامى مباشرة لم تتقدم منذ دوزى (٤١) ، وهو أول من تعرض لها مسترشداً بعدد من المصادر العربية المتفاوتة القيمة ، لكنه لم يعمد - بفطنته وحذره المعهودين - إلى استخلاص أحكام نهائية من تلك المصادر الشحيحة ، ومن جانبنا ، فإن محاولة تكوين رأى بهذا الخصوص تقتضى التعرف أولاً على المبدأ الإسلامى الخاص بمشكلة توزيع الأراضي وكيفية تغلبه عليها فى البلدان التى دخلها العرب قبل إسبانيا .

يفرق الفقهاء المسلمون عند حديثهم عن الغنائم المستولى عليها من الأعداء فى الجهاد بين الأملاك المنقولة (المنقولات) وبين الأراضي المحتلة . فالأملاك المنقولة (التى يدخل فيها ، بالإضافة إلى أسلحة ومطايا المهزومين ، الأسرى أنفسهم) « غنيمة » توزع أربعة أخماسها - وينسب متفاوتة بين الفارس والراجل - على القوات

التي اشتركت في المعركة ، أما الخمس الباقي فله ، أى للسلطة القائمة ، أو بمعنى آخر للدولة .

وبالنسبة للأراضي المحتلة « فى » فتؤول بكاملها إلى المجتمع الإسلامى ، وفيها يجب التمييز بين حالتين : الأراضي المحتلة « عنوة » والتي يمكن لشاغليها القدامى الاستمرار فيها بصفة مؤقتة لزراعتها وتسديد حصة سنوية من غلتها للسلطات المسلمة (خراج) ، والأراضي التي استسلم أصحابها للمنتصرين دون قتال من خلال معاهدة « صلح » يقومون بموجبه بتسديد « الجباية » الدورية بالإضافة إلى الرسوم المقررة على الأشخاص (جزية) (٤٢) .

وبالطبع ، فإن قيمة هذه التفاصيل تنصرف إلى الجانب النظرى ؛ لأن مبدأ الفصل بين « الغنيمة » و « الفئ » - من جهة - وبين أراضي « العنوة » وأراضي « الصلح » من جهة أخرى إذا كان قد تم احترامه بالفعل في عصر الفتوحات الكبرى (أى فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب) إلا أن المحتلين أنفسهم قد أعرضوا عنه بعد ذلك - على الأقل جزئياً - لما وجدوا فيه من تشعيب وضالة فائدة ، وساد لديهم الاعتقاد بأن لهم فى الممتلكات العقارية نفس حقوق المنقولات ، ويبدو أن الاتجاه الأخير هو الذى كان سائداً بعد مضى قرن على فتوحات الإسلام الأولى ، أى عندما جاء الدور على الأندلس .

النص الذى يرجع الفضل فى اكتشافه لدوزى ولا يزال يعتبر الوثيقة الأساسية المتاحة للتعرف على نظام توزيع الأراضي على المنتصرين إبان دخولهم إسبانيا ، كان محفوظاً لدى كاتب مغربى فى نهاية القرن التاسع عشر يدعى « محمد الوزير الغسانى » (٤٣) ، وقد احتفظ به قبله مؤلف أندلسى من عصر الطوائف يسمى « محمد بن مزين » (٤٤) ، والأخير أخذه بدوره عن مؤرخ أكثر قدماً . وطبقاً لتلك الوثيقة الهامة ، فقد قام موسى بن نصير بعد إتمام فتح إسبانيا بتوزيع الأسرى والمنقولات وأراضي السهول على قواته بعد خصم حصة الدولة منها (الخمس) ، وعلى هذا « الخمس » من الأراضي الخاصة بالدولة أبقى الفلاحين الخُلص القدماء - كعمال زراعيين - لاستثماره لصالح « بيت المال » . وقد أطلق مسمى « الأخماس »

على هؤلاء المزارعين ، بينما عرف أولادهم وأحفادهم « بينى الأخماس » (٤٥) ، وبالنسبة لبقية المسيحيين الذين كانوا يقيمون بالمواقع الحصينة أو فى الأراضى الجبلية العالية فقد سمح لهم موسى بن نصير - طبقاً لابن مزين - بالاستمرار فى مواقعهم مع الاحتفاظ بدينهم وجزء من ممتلكاتهم المنقولة (المنقولات) مقابل دفع « الجزية » ، ويضيف المؤرخ نفسه قائلاً إنه باستثناء ثلاث مناطق (أراضى «سنترين» (Santarén) ، و « قلمرية » (Coimbra) فى الغرب ، وأراضى « مرسية » فى الشرق) وهذا ما يجعلنا نعتقد بأن المنطقتين الأولى والثانية تمتعتا بنظام خاص شأنهما فى ذلك شأن إمارة « تيودمير » فى الشرق) فإن بقية مناطق شبه الجزيرة المحتلة بالقوة (ولنا أن نتصور ما تعنيه كلمة « بقية » فى بلد يتميز باستواء أرضه) قد وزعها موسى بن نصير بعد خصم الخمس منها ، فى حضرة من كان معه من التابعين (أى الجيل التالى لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، على الفاتحين لتصبح أملاكاً خاصة لهم يتوارثونها جيلاً بعد جيل .

تعنى الإشارة السابقة أن جميع الأراضى « النافعة » فى إسبانيا - أى السهول الخصبة الصالحة للزراعة - قد انتقلت منذ بداية القرن الثامن لأيدى الفاتحين ، بينما ظلت أراضى المناطق العالية - أو على الأقل جزء منها - فى حوزة الملوك القدامى ، أما الخمس الذى احتفظت به السلطة المركزية فقد استخدم كإقطاعيات للتعزيزات العربية التى قدمت إلى إسبانيا تحت قيادة الحاكم « السمع بن مالك الخولانى » ، أى بعد أعوام قليلة من عودة موسى بن نصير إلى الشرق .

تخبرنا فقرة أخرى من مدونة تاريخية قديمة ، أوردها ابن الخطيب (٤٦) ، أن الجند السوريين الذين جاؤا إلى إسبانيا بعد خمسة وعشرين عاماً من الفتح تحت قيادة « بلج بن بشر القشيري » قد استقروا فى أراضى تابعة للخمس .

وإزاء ما تقدم يحق لنا طرح السؤال التالى : هل بقيت بعد ذلك مساحات كبيرة من الأراضى التابعة للدولة (أراضى الخمس) عندما قامت الخلافة الأموية فى قرطبة ؟ .. إجابة ابن مزين على هذا السؤال قاطعة ، إذ أكد - اعتماداً على مؤلف آخر لم يذكر اسمه - قائلاً إن أراضى الخمس ظلت دائماً تزرع لصالح الدولة ، سواء فى عصر الحكام أو فى العهود الأموية ، وإن كان الأمويون قد استثمروها لصالحهم .

لا يوجد لدينا ما يشكك فى أصالة البيانات السابقة ، ربما تعتمد فى أساسها على الحقيقة التى نسج حولها المؤرخون - كالعادة - الكثير من نتاج خيالهم ، ومع هذا ، فقد رفضها برمتها ابن حزم ^(٤٧) فى منتصف القرن الحادى عشر ، وإن كان رفضه هذا قد دفع أحد الفقهاء المعاصرين له لنعته بالكذب ^(٤٨) ، لقد قام ابن حزم بالفعل فى رده المكتوب على طلب لفتوى قضائية (لم ينشر هذا الرد إلا منذ سنوات) بهدم الاعتقاد السائد فى عصره من أن موسى بن نصير هو الذى بادر بتوزيع أراضى الأندلس طبقاً للشريعة الإسلامية واحتفظ للدولة بخمسها ، فى ذلك الرد يعلن ابن حزم أن نظام التملك كان خاضعاً فى وطنه ومنذ بداية الفتح الإسلامى لمنطق القوة دائماً ، فالمحتلون القادمون من المغرب وإفريقيا ومصر فرضوا سيطرتهم بالقوة على معظم المناطق الزراعية دون الالتزام باللوائح الإسلامية الخاصة بتوزيع الأراضى ، ومن بعد هؤلاء جاء « الجند » السوريون وطردوا - دون سند قانونى - معظم البلديين (العرب والبربر) من الأراضى التى آلت إليهم من عشرات السنين عن طريق الوراثة .

يتضح مما سبق عرضه مدى التخطئ فى التعرف على قانون الأملاك العقارية التى قُسمت بمقتضاه أراضى إسبانيا الإسلامية ، ومدى الصعوبة - بالتالى - فى إصدار أحكام عامة عنه ، بالطبع كانت توجد فى القرن العاشر أملاك خاصة بالدولة ، لكن هل هى مُتَمَخِّصَةٌ عن « الخمس » المفروض لها فى بداية الفتح ، أم أنها تتعلق « بمستخلص » الخلافة (أى ملكية العاهل الخاصة) ؟ .. لا يوجد لدينا من الوثائق ما يجعلنا نقرر هذا أو ذاك ، كل ما يمكن التكهن به هو : اختلاف نظام تملك الأرض تبعاً لطبيعة الإقليم : فإذا كانت الأرض فى الأقاليم الوسطى مقسمة بطبيعتها إلى قطع صغيرة ، وبالتالي فى أيدي ملاك صغار (معظمهم من البربر أو من أصل إسباني) ، فإن الوضع كان مختلفاً تماماً فى الأقاليم الأشد خصوبة وأكثر إنتاجية حيث يملك الفرد الواحد مزارع شاسعة ، إقطاعيات حقيقية كانت تشكل - منذ القرن التاسع ، على الأقل - مصدر ثروات عدد كبير من الأرستقراطية الأندلسية ذات الأصل العربى (الحقيقى أو المنتحل) ^(٤٩) ، وهذه الضياع الكبيرة ما زالت موجودة إلى أيامنا هذه فى أندلوثية الحالية ، وفى شرق إسبانيا ببساتينه الممتدة ، وفى أراضى طليطلة (المنتجة للغلال) وفى حوض نهر إبرة .

كانت المزارع مقسمة إلى ضياع ، وفى كل ضيعة يقيم الفلاحون مع عائلاتهم على مقربة من الأراضى التى يزرعونها ، لم يكن حال هذا العامل الزراعى - الجاثم من غابر الأزمنة فوق أرض لا يمتلكها - يختلف كثيراً عما كان عليه فى العصر القوطى : مجرد فلاح مستعبد ^(٥٠) يربطه بصاحب المزرعة عقد مزارعة ضمنى لا يستطيع الفكك منه ، ولم يكن هذا العقد يخول له سوى نسبة ضئيلة من المحصول (الربع أو الثلث أو النصف فى حالات استثنائية) لا تكاد تكفيه هو وأسرته ، مقابل خدمتهم . وبالرغم من أنه كان حراً - أو يعتبر هكذا - إلا أنه كان يكلف ، بالإضافة إلى عمله اليومي ، بالمهام الشاقة ، وخاضعاً للتفتيش والرقابة الصارمة ، ومطالباً فى الوقت نفسه بتقديم عشر ما تغله الأرض لجامعى الضرائب ^(٥١) ، نعتقد أنهم كانوا يعيشون عيشة متواضعة (حتى لا نقول بائسة) وأنهم فى مقابل هذا كانوا يتمتعون بالحماية الفعلية من جانب سيدهم .

يبدو أن المزارع الأكثر اتساعاً وأعلى إنتاجية فى القرن العاشر كانت من نصيب الخليفة ، كانت ممتلكات الخليفة العقارية (مستخلص) من الاتساع بحيث تحتاج لإدارة عرمرم ، مقرها المركزى بمدينة قرطبة وعلى رأسها « صاحب الضياع » ، وبهذه المناسبة نكرر السؤال السابق : ما هو الحد الفاصل بين هذا « المستخلص » وبين أملاك الدولة ؟ كانت أملاك الدولة تتضخم بلا هوادة نتيجة لإضافة أراضى جديدة باستمرار إليها ، ونقصد بها الأراضى المصادرة من أصحابها لحصولهم عليها بطرق مشبوهة أو لتراجع ولأنهم للنظام الحاكم ، كما كانت هناك مزارع أخرى « وقف » تُستثمر لصالح « بيت مال المسلمين » (أى لمؤسسات البر) يديرها « نظار » تحت إشراف القضاة ، أما الأراضى « الموات » فكانت تتبع الدولة طبقاً للقانون ، وكان الخلفاء يقطعونها - بقصد إحيائها - لمن يبدى استعداداه لاستصلاحها وتوفير العمالة الزراعية اللازمة لاستثمارها ^(٥٢) .

لأشك أن نظام ملكية الأرض قد أخذ ينحوش شيئاً فشيئاً إلى الاعتدال ، وخضعت الملكيات الكبيرة لتوزيع منطقى بين شاغليها ، وهذا بفضل المذهب المالكي المعروف بحساسيته الشديدة لكل ما يتعلق بالتعاقدات وقضايا الملكية ، وخير دليل على تقلص الملكيات الكبيرة كثرة عدد الملاك الزراعيين الصغار الذين كانوا يقيمون فى قرطبة -

كطلاب علم أو رجال قانون - وكانوا يغادرونها على فترات منتظمة (كما أخبرنا كُتَّاب التراجم أحياناً) إلى ضياعهم لمحاسبة الفلاحين وجلب ما يحتاجون إليه من المؤن والزاد .

على أى حال ، يبدو أن المجتمع الريفي - الذى لانعرف عنه فى النهاية سوى القليل بالرغم من تمثيله للعنصر الأكثر عدداً وتماسكاً ومحافظة من بين سكان الأندلس - ظل منذ منتصف القرن العاشر بعيداً عن الهوس السياسى ، وبالرغم من أنه لم يكن مدعناً بالكامل لقدره البائس إلا أنه كان أسلس قياداً من عامة المدن^(٥٣) التى كانت تتضخم عاماً بعد آخر نتيجة لفرار المزارعين المضطرد من الخدمة وهجرتهم إلى المدينة ، لاشك أن الخلافة الإسبانية تدين بجزء كبير من ازدهارها المادى وسمعة منتجات أراضيها فى بقية أنحاء العالم الإسلامى وفى الغرب المسيحى لتلك الطبقة المُمَهِّسة من عمال القرى الزراعيين .

الرقيق . العتقاء والموالى :

كانت دولة الخلافة القرطبية تضم - مثل بقية الدول الإسلامية المعاصرة لها - بين سكانها عدداً كبيراً من كافة أنواع الرقيق : ذكورا وإناثا ، بيضاً وسوداً ، من أصول أوروبية أو سودانية ، تم جلبهم عن طريق الحملات الصيفية على إسبانيا المسيحية أو القرصنة البحرية أو بالشراء من التجار المتخصصين فى هذا النوع من التجارة .

لدينا كم هائل من المعلومات عن تجارة الرقيق فى حوض البحر الأبيض المتوسط خلال القرن العاشر ، ندين بالفضل فيه لعدد من الجغرافيين العرب ، خاصة "المقدسى" ، وطبقاً لهؤلاء ، فلم تكن إسبانيا مجرد سوق داخلى كبير لهذه التجارة^(٥٤) بل أيضاً مركز تجميع ومعبراً لهذه البضاعة البشرية (من الإماء البيض والخصيان ، على وجه الخصوص) نحو بقية دول حوض البحر المتوسط الإسلامية .

تعرضنا فى المجلد الرابع عند حديثنا عن صقالبة بيت الخلافة لعمليات الخصى كما وصفها المقدسى ، كما أشرنا فى حينه إلى شغف الأرستقراطية القرطبية بالمحظيات الفرنجيات والبشكنسيات دون أن يحط هذا من قدر الإماء السوداوات عند هذه الطبقة ، وأسعار هؤلاء كانت فى الغالب مرتفعة وتصل إلى أرقام خيالية حينما

يتعلق الأمر بشابات تربين وتعلمن فى أسبانيا أو الشرق وأصبحن مغنيات أو فنانات ، كانت الإماء تتكيفن بسرعة مع العلانات اللاتى انضممن إليها مصادفة ، ويتلقين فيها معاملة حسنة خاصة إذا حالفهن الحظ بإنجاب ابن أو عدة أبناء لسيدهن ، وبالرغم من أن المالك كان يعطيهم الحرية فى حياته أو يتمتن بها نظرياً بعد موته لأنهن أصبحن "أمهات ولد" إلا أنهن عادة ما يبقين مرتبطات بالمحيط العائلى ، دون أدنى رغبة منهن فى العودة إلى وطنهن السابق الذى انقطعت صلتهم به نهائياً ولم يعدن يذكرن عنه شيئاً محدداً .

كانت أعداد العبيد فى المدن أقل من أعداد الإماء ، لكنهم - على خلاف هذا - يكثرون فى الريف حيث يعيشون حياة صعبة وإن كانت لا تزيد صعوبة - حسبما نعتقد - عن حياة الآخرين من المزارعين الأحرار ، ومعظم العبيد تم أسرهم فى إسبانيا ذاتها أثناء الحملات الموجهة إلى الممالك المسيحية (خاصة فى زمن المنصور) ولم تتمكن عائلاتهم من استرداد حرياتهم إما لعدم اهتدائهم لمكانهم أو لافتقارها إلى المال اللازم لذلك ، وبعض هؤلاء الأسرى ينتمى إلى عدد من الأقاليم الأندلسية قبل عودتها إلى حظيرة الدولة وحلول السلام بها ، وهكذا نرى كيف تم بيع عدد كبير من المسيحيين الأحرار زمن تمرد ابن حفصون^(٥٥) ، كان هؤلاء العبيد - باستثناء المملوكين منهم للمستعربين واليهود ، الذين كان لهم الحق أيضاً فى شرائهم^(٥٦) - يسارعون باعتناق الإسلام على أمل قيام سادتهم بعقبتهم ، ولعلنا نذكر كيف أصبح بعض هؤلاء العبيد من الصقالبة والسود حرساً خاصاً للخلفاء ، وعليه فقد كانوا يتمتعون بميزات يحسددهم عليها الكثيرون من أحرار العامة القرطبية .

وبعد العبيد تأتى مرتبة اجتماعية أخرى يمثلها الموالى ، أى الأفراد الخاضعين للولاء ، علماً بأنهم لا ينبثقون جميعاً من وعاء العبودية . تتألف غالبية هذه الطبقة من العبيد الذين أعتقهم مالكوهم أثناء حياتهم أو بعد موتهم بموجب وصية ، ويظل العبد بعد تحريره مرتبطاً بمالكة القديم أو بورشته بما يشبه الرباط العائلى الذى يلزمه بواجبات معينة نظير استفادته بالحماية المعنوية ، وتتقل رابطة الولاء - سواء بالنسبة لمن يمارسها أو الخاضع لها - من الآباء إلى الأبناء ، ويمثل الموالى (سواء المحررون من قيد العبودية أو المولودون الذين دخلوا فى حماية شخص عربى منذ أجيال قريبة

أو بعيدة) نسبة كبيرة من سكان إسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر ، وبما أن الموالي كانوا ينتحلون أسماء سادتهم القدامى ، فبمرور الوقت أصبح من العسير التعرف على أصولهم ، ويتحمل كتاب التراجم الأندلسيون جانباً من المسؤولية في هذا الصدد لأنهم عند حديثهم عن بعض الموالي الذين بزوا أقرانهم لم يكونوا يكلفون أنفسهم في الغالب عناء تحديد تواريخ تبنى العائلات العربية لأسلاف هؤلاء المشاهير ولا حتى الإشارة إلى عمداء عائلاتهم الذين نعموا في البداية بمظلة الولاء ^(٥٧) ، وبالإضافة إلى ما تقدم فقد قام بعض العتقاء الصقالبة من حاشية العاهل القرطبي أو من "قهرمانات قصر" العامريين بالانتساب إلى سادتهم القدامى واعتبروهم آبائهم (ومن هنا أطلق عليهم المسمى الشائع "أبناء") أو اتخذ اسم أمير أو أميرة - أو أى شخص آخر أعطاهم الحرية - كلقب عائلى لهم .

جرت العادة على ترجمة "مولى" (بمدلولها الذى يعنى المستفيد من رابطة الولاء) إلى "عتيق" دون التفكير بأنه كان يوجد خلال القرنين التاسع والعاشر - فى المجتمع الإسلامى الغربى ، على الأقل - نوع آخر من الرابطة يسمى "اصطناع" ، وبالرغم من أن ابن خلدون عاش فى القرن الرابع عشر إلا أنه أشار فى مقدمته ^(٥٨) إلى وجود فارق بين "المولى" و "المصطنع" ، ولكنه لم يوضح لنا أين يكمن هذا الفارق ، كما لم يكلف المؤرخون الأقدمون أنفسهم عناء التدقيق فى هذه المسألة ، ربما يفيد فى هذا الشأن لو قلنا إن كلمة "مصطنع" العربية ^(٥٩) مساوية تماماً للفظلة اللاتينية BENEFACTUS ^(٦٠) ، هل يمكننا ، بالتالى ، سوق افتراض - لا يستند بأى حال على قاعدة صلبة - مفاده أن "الاصطناع" الأندلسى (الذى برهن على وجوده فى مطالع القرون الوسطى علم التاريخ العربى / الإشباني أكثر من مرة) كان امتداداً لأحد أشكال الحماية التى عرفتتها إسبانيا القوطية بدورها من قانون الحماية الرومانى (Patrocinium) ؟ .

وعلى أية حال ، تجدر الإشارة هنا إلى أن لوائح مملكة أشتوريش/ليون قد سجل فيها - أثناء عصر الخلافة القرطبية - نوع متطور من الرابطة التى تصل الطبقة القوية بالطبقة الفقيرة أو المتواضعة : وقد أطلق على هذه الرابطة Benefactoría أو Behetería ^(٦١) .

٤ - الذميون فى دولة الخلافة الأموية

المستعربون :

كان تاريخ المستعربين ^(٦٢) هدفاً - داخل أسبانيا ومنذ قرن من الزمان - لدراسة موسعة وعميقة ^(٦٣) اجتهدت فى تتبع مشوار الجالية المسيحية بالاندلس ، خطوة خطوة ، طوال فترة الهيمنة الإسلامية حتى نهاية "حرب الاسترداد" .

وهناك دراسة أخرى قام بإعدادها علامة أسباني ^(٦٤) وإن كان حجم الوثائق بها لم يزد كثيراً عن سابقتها ، ومن جانبنا ، سنكتفى هنا بتزويد القارئ بعدد من الإشارات المجلدة المدعومة ببعض البيانات المحددة المفيدة .

أشرنا من قبل إلى عدم قدرتنا فى ظل الوثائق الحالية على وضع رقم تقديرى لأعداد المستعربين فى إسبانيا الإسلامية ، لكن هذا لا يمنع من الظن بأنهم كانوا يشكلون فى المجتمع الريفى نسبة معتبرة أخذت بمرور الوقت تتناقص تدريجياً نتيجة للدخول فى الدين الجديد أو للهجرة إلى الممالك المسيحية فى شبه الجزيرة .

معظم البيانات المتوافرة لدينا عن المستعربين فى عصر الخلافة تتعلق بتجمعاتهم بالمدن الرئيسية لمملكة الأندلس (مثل طليطلة وإشبيلية وقرطبة) وتوجه جل اهتمامها - كما هو متوقع - لرجال الكنيسة لا إلى المدنيين .

أما بالنسبة لعصر الإمارة ، فإن تاريخهم غالباً ما يختلط بتاريخ إخوانهم فى اللغة والدم من المولدين الذين لم يكونوا قد تأسلموا بعمق وقتها وكانوا دائمي التمرد على السلطة المركزية ، ومما لا شك فيه أن مستعربى جبال "رندة" و "مالقة" قد شاركوا - مثل المسلمين الجدد (المولدين) بتلك المناطق الجبلية - فى حركة التمرد التى اندلعت هناك خلال الثلث الأخير من القرن التاسع بتحريض من عمر بن حفصون ، صادفت تلك الفترة (التي حكم فيها عبد الرحمن الثانى ومحمد الأول) موجة الهوس الدينى بين أفراد التجمع المسيحى فى قرطبة والتى أدت فى النهاية إلى الاستشهاد التطوعى للكثيرين منهم ، لكن تلت هذا القرن العاصف - عندما تمكن عبد الرحمن الثالث من إخماد نيران الفتنة فى طليطلة (حاضرة المستعربين) عام ٩٣٢م (٢٢٠ هـ) فترة هدوء طويلة لم تشهد فيها الجالية المسيحية ما يعكر صفوها الدينى أو المدنى ، وقد أدى هذا إلى حدوث تقارب بينها وبين النظام الحاكم ، استمر هذا الوضع طيلة عصر الطوائف إلى أن تسبب استيلاء "ألفونسو السادس" على طليطلة وما تبعه من

دخول المرابطين إسبانيا الإسلامية فى الهجرات الجماعية للمستعربين نحو الأراضى المسيحية (٦٥) .

لا يعنى ما تقدم أن الهجرات نحو شمال إسبانيا كانت معدومة قبل هذا التاريخ لأن "ألفونسو الثالث" - كما نعلم - كان قد أغرى جماعات من المستعربين بالهجرة إلى مملكته لكي يعيد بهم إعمار الأراضى التى استولى عليها من المسلمين (٦٦) ، كما أنه استعان عام ٨٩٣ م (٢٨٠ هـ) بالمسيحيين الفارين من طليطلة فى تأهيل ثغر سرقسطة المنيع ، ونفس العاهل هو الذى رحب بأسقف "إيركايكا" (Ercávica) و "سبستيان" (Sebastian) المطرود من الأندلس وأنزله فى "أورينسى" (Orense) (٦٧) .

وبعد "ألفونسو الثالث" سجلت الوثائق المسيحية هجرة مجموعات من رجال الدين المسيحى إلى أراضى مملكة "ليون" : ففي عام ٩٢٥ م قدم من الأندلس شماس يدعى "ألفونسو" بصحبة بعض القساوسة ليؤسسوا سوياً دير "سان فاكوندو" (حالياً "سأهاجون") ؛ وقبل هذا التاريخ بسنوات قام رهبان قرطبيون - فى ٩١٣ ، ٩١٦ ، ٩٢١ ، على التوالي - بإعادة إعمار ثلاثة أديرة شهيرة ، وهى : "سان ميغيل دى إسكالادا" (الذى يبعد عن مدينة ليون بحوالى ٢٠ كيلو متر جهة الشرق) ، و"سان ثيبريان دى هاثوتى" (الواقع على بعد ١٠ كيلو مترات من شمال غرب بلد الوليد) و "سان مارتين دى كاستانييدا" (وتفصله عن غرب "أسترقه" مسافة كبيرة) (٦٨) ، واستقر حول هذه الأديرة مستعمرون من أصول طليطلية وأندلسية هاجروا متخفين أو قارين من الخدمة فى الحملات العسكرية (ورد على سبيل المثال ذكر رجل قرطبى يدعى "الحكم" كان يعمل فى "سأهاجون" عام ٩٦٤ م) (٦٩) ، ثم أخذ إيقاع الهجرة يتنامى مع بداية القرن الحادى عشر ، بدليل كثرة الأسماء المستعربة فى الوثائق الليونية (نسبة إلى مملكة ليون) والقشتالية التى وصلت إلينا ، فى تلك الوثائق نجد ما لا يقل عن ١٨ اسماً عربياً لرؤساء أديرة ورهبان وراهبات ، نذكر منها : هشام ، ومالك ، وهلال ، وعبد ... إلخ (٧٠) ، لم ينعكس هذا "الاستعراب" المتنامى فى مملكتى ليون وقشتالة على الأسماء المحلية فقط بل تعداها إلى مصطلحات المؤسسات ومسميات الأثاث والملابس والحلى ، كما تشهد القوائم المستقاة من سجلات أديرة القرن العاشر (٧١) . إذا كان المستعربون المهاجرون قد أثروا بهذا الشكل فى مملكتى ليون وقشتالة ، فلنا أن نتخيل حجم التأثير العربى فى الجاليات المسيحية على أرض الأندلس نتيجة طول عهد مخالطتها لأصحاب البلاد وللمولدين المعتنقين للإسلام ، والدلائل التى لدينا عن هذا التعريب لا تحصى ، ولعل أشهرها ما تركه لنا "ألبارو القرطبى" فى Indicu- lus luminosus .

كان المستعربون يستخدمون مثل المولدين اللهجة الرومانشية الذائعة الصيت ، لكن الكثيرين منهم - خاصة فى المدن - كانوا يتكلمون العربية ويكتبون بها ، لو نحينا جانبا الحالة الاستثنائية للقومس (ابن انتونيانو) زمن الأمير محمد الأول ، سنجد فى عصر الخلافة جمعاً من الكتبة المستعربين واليهود يعملون فى المكاتب المالية التابعة للإدارة المركزية ، لقد شغل بعضهم ولفترات مديدة مواقع هامة ، مما يثبت أنهم لم يتعرضوا طوال القرن العاشر لأية بادرة نفور أو كراهية من جانب العاهل ، ولا من جانب الدكاتاتور العامرى أو الخاصة القرطبية لشدة حرص الجميع على توفير كافة الأسباب المادية والمعنوية لتألفهم مع النظام الحاكم . لقد سمح هذا التجانس للحكام الأمويين - أيام مجدهم - بتحجيد النشاط السياسى لمالك الشمال المسيحية ، كما شجع المستعربين على الحفاظ على ولائهم للنظام ، وإن لم يكن صادقاً فى بعض الأحيان .

كان المستعرب بصفته معاهداً ينتمى للطبقة المعروفة بأهل الذمة ، مطالباً - مثل اليهودى - بدفع جزية سنوية ، كما كان ملزماً - فى القرن التاسع على الأقل (طبقاً لشهادتى "إولوخيو ، ليوبيلدو) - بتسديد ضريبة استثنائية مع مطلع كل شهر عربى ، ومن قوائم الإحصاء المُعدّة أساساً لتحصيل الضرائب ، يتضح أن الرعايا المسيحيين كانوا مقسمين - داخل كل إدارة إقليمية - إلى مجموعات ، كانت الحكومة المركزية تعين على كل مجموعة منها رئيساً مختاراً من بين أفرادها يدعى "قومس" ، كما كانت تعين لها أحياناً محامياً يتولى الدفاع عنها ، وبالرغم من أن معلوماتنا عن الجالية المسيحية فى قرطبة تفوق ما عداها بكثير ، إلا أننا لا نعرف سوى بضعة أسماء لمن تولوا وظيفة القومس فيها ^(٧٢) ، لعلنا نذكر فى هذا المقام الدور الذى لعبه ، فى عهد الحكم الأول ، القومس ربيع بن تيوولفو ، وابن القوطية ، من جهته ، يخبرنا باسم "قومس" آخر من القرن العاشر يدعى "أبو سعيد" ، وهو ينحدر مباشرة من الكونت القوطى "أردابستو" (Ardabasto) ، ابن غيطشة ^(٧٣) ، وفى النهاية يكشف لنا ابن حيان عن "قومس" قرطبة فى عام ٩٧١م (٣٦١ هـ) : معاوية بن لب .

ولكى يقوم رؤساء الجاليات المستعربة بجميع الضرائب من أفرادها ، فقد كانت تعمل تحت إمرتهم طائفة من الموظفين يطلق على كبيرهم "مستخرج" ^(٧٤) ، أما بالنسبة للنزاعات التى تنشأ بين المتسعرين ، فقد كان يفصل فيها قاضى خاص بهم (قاضى النصارى" أو قاضى العجم) ، احتفظ لنا ابن القوطية ^(٧٥) باسم أحدهم وهو "حفص بن ألبارو" (وهو من أحفاد غيطشة أيضاً) . ومن جهتنا نضيف قاضيين آخرين من

عهد الحكم الثاني توافرت لنا بعض المعلومات عنهما : أولهما "وليد بن خيزران" ، الذى قام بمهمة الترجمة لأوردونيو الرابع عندما جاء (عام ٩٦٢م - ٣٥١هـ) لزيارة العاهل القرطبى فى عاصمته ، أما الثانى فهو "أصبغ بن عبد الله بن نبيل" الذى عينه بعد ذلك (عام ١٠٠٤م - ٣٩٤هـ) حاجب القصر العامرى "عبد الملك" حكما للصراع الدائر بين كونت قشتالة (شانجة غرسية) وبين "مينندو جونثالث" الوصى على ألفونسو السادس (ولى عهد "ليون" الشاب) ، هؤلاء القضاة ، الذين طبقوا حرفياً فى أحكامهم القانون القوطى المعروف باسم (Fuero Juzgo) كانت صلاحياتهم تقتصر على النزاعات التى يكون طرفاها من المستعربين ، لأن النزاع بين المسلم والمسيحى كان يحول إما إلى القاضى أو لصاحب الشرطة ، تبعاً لنوعية القضية ^(٧٨) .

لا شك أن التجمعات الهامة للمستعربين كانت تتألف من طبقات مختلفة تأتى على رأسها طبقة النبلاء بينما تحتل سفحها طبقة الرقيق ، لأن المسيحيين واليهود فى إسبانيا كان لهم الحق - كما رأينا - فى امتلاك كافة أنواع العبيد .

وقد خلدت بعض شواهد القبور ذكرى أصحابها من المسيحيين الأثرياء الذين توفوا فى عصر الخلافة ، ومنها نذكر على سبيل المثال شاهد قبر مات صاحبه فى "أتارفى" (Atarfe) (بالقرب من غرناطة) عام ١٠٠٢م كتب عليه "النبيل ثييريانو" ^(٧٩) ، لكن الأرستقراطية الحقيقية داخل مجتمع المستعربين كان يمثلها رجال الإكليروس .

ظل التقسيم الكنسى موجوداً فى أسبانيا الإسلامية على ما كان عليه فى العصر القوطى ، وعلى هذا الأساس كانت الأندلس تضم ثلاثة أقاليم حضرية بكل منها مقر مطرانى (نسبة إلى مطرانية) والعديد من الأبرشيات ، والأقاليم الثلاثة هى : طليطلة ، "لوزيتانيا" (Lusitania) و "باطقة" (Bética) ، كانت تتبع حاضرة طليطلة عشرون أسقفية ، بعضها موجود فى شمال العاصمة القوطية القديمة (مثل : وخشمة ، بالنثيا (Palencia) ، والبعض الآخر فى شرقها (مثل : بلنسية ودانية وشاطبة وألش (Elche) أما الباقى فكان يقع على تخوم أندلوثية (مثل لورقة Lorca ، بسطة Baza) .

أما إقليم "لوزيتانيا" فقد كان مقره فى "ماردة" ، ويضم - بالإضافة إلى "سلمنقة" و "قورية" (Coria) - كل الأراضى الجنوبية للبرتغال الحالية : من "قلمرية" (Coimbra) إلى "أكشونبة" (Ossonoba) .

وبالنسبة لإقليم "باطقة" فقد كان مقره فى اشبيلية وتتبعها الأسقفيات الموجودة فى "إيتاليكا" (Itálica) ، "شنونة" (أو "مدينة ابن السليم" Medina Sidonia) ،

"لبلة" (Niebla) ، "إستجة" (Écija) ، وقرطبة ، و"قبرة" ، و"إلبيرة" ، و"مرتش" (Martos) و"مالقة" .

أما بقية الأقاليم الكنسية لأسبانيا - "طركونة" (فى الشمال الشرقى) ، "براجا" (Braga) «فى الشمال الغربى» - فقد كان معظمها فى نهاية القرن التاسع محرراً من السيطرة الإسلامية (٧٨) .

بالرغم من أن أعداد المسيحيين بالعاصمة الأندلسية لا تقارن بأى حال مع مثيلاتها فى المدن الأندلسية الكبرى مثل طليطلة وإشبيلية ، إلا أننا نتوقع كثرة الحديث عن أبرشيات قرطبة والقائمين عليها نظراً لأن أسقفها كان - بحكم إقامته - يمثل الكنسية المستعربة ويتحدث باسمها أمام السلطة الإسلامية المركزية ، لكن ما حدث هو العكس تماماً ، إذ احتفظت لنا الوثائق باسم مطران طليطلة (خوان) المتوفى عام ٩٥٦م (٧٩) ، وبالاسم العربى للمطران الذى خلفه (عبد الله بن قاسم) فى حين أننا لا نعرف عن قساوسة قرطبة سوى قس واحد من عهد الحكم الثانى يدعى : عيسى بن منصور .

الوحيد من بين وجهاء السلك الكنسى الذى نعرف عنه أخبار أثناء عصر الخلافة هو "ربيع بن زيد" (واسمه المسيحى : (ريثيثموندو) ، ولعلنا لم ننس (٨٠) أنه كان عالماً مستعرباً قرطبياً يجيد العربية واللاتينية ، وأنه رأس السفارة التى أرسلها عبد الرحمن الثالث إلى ملك ألمانيا "أوردونيو الأول" عام ٩٥٥م ، وتم تعيينه بهذه المناسبة - بناء على رغبة العاهل - فى منصب أسقف "إلبيرة" الشاغر وقتها ، وقد شجع إتمامه المهمة السابقة بنجاح الناصر لأن يرسله - بمجرد عودته إلى إسبانيا - إلى القسطنطينية ، وسوريا لجلب التحف والقطع الفنية التى سيزين بها العاهل مقر إقامته بمدينة الزهراء ، ظل "ربيع بن زيد" يضطلع بدور هام فى عهد الحكم الثانى الذى كان معجباً بمعارفه الفلسفية والفلكية وطلب منه تنوينها فى كتاب (المؤلف المقصود هو "كتاب الأنواع" وستحدث عنه بالفصيل فى الفصل التالى) .

يبدو أن منصب أسقف "إلبيرة" الذى أُسند إلى "ريثيثموندو" كان شرفياً ؛ هذا لأن رحلاته المتكررة لحساب الخليفة القرطبى لم تترك له وقتاً ليدير شئون أبرشيته ، على أى حال ، لقد ذكرنا أن تدخل الناصر كان سبب تعيينه أسقفاً ، وهذا ما يجعلنا نعتقد أن أمانة سر الدولة المسلمة كان يؤخذ رأيها فى التعيينات بالمناصب الكنسية الهامة مثل منصب المطران أو الأسقف .

كان أصحاب المناصب الكنسية الرفيعة يُضيفون لأسمائهم اللاتينية - شأنهم في هذا شأن القساوسة والرهبان - أسماء عربية كاملة تشتمل على اللقب والكنية .

ظلت الشعائر الدينية تُمارس بنفس طريقة "إيسيدور" في العصر القوطى والتي أقرها البابا "خوان العاشر" بعد تمحيصها عام ٩٢٤م^(٨١) ، وما تزال تلك الطريقة موجودة حتى الآن تحت مسمى "الطريقة المستعربة" ، كانت مظاهر الفخامة والأبهة المصاحبة لأداء بعض الطقوس الدينية تثير فضول المسلمين الأندلسيين المعتادين على بساطة شعائرهم وخلوها من التعقيدات .

فى بداية القرن الحادى عشر أبدى "أبو عامر بن شهيد" - فى أحد أعماله النثرية^(٨٢) - دهشته للحماس الدينى الذى كان يؤدى به المسيحيون إحدى صلواتهم المسائية داخل كنيسة قرطبية مزدانة بأغصان الريحان .

يبدو أن الرأى السائد فى قرطبة مع بداية القرن العاشر (نتيجة لفتوى مجموعة من الفقهاء المسلمين) كان يقضى بالسماح للمسيحيين باستخدام كنائسهم الموجودة داخل المدينة ، وبعدم التصريح لهم ببناء كنائس جديدة إلا خارج الأسوار حيث يعيش المستعربون فى أحياء متجاورة المساكن ومنعزلة عن تجمعات المسلمين السكنية^(٨٣) ، ومن المحتمل أيضاً أن القرار الخاص بمنع قرع الأجراس قد ألغى فى ذلك العصر الذى ساد فيه تسامح نسبى ، لا نجد شيئاً يفيد - بالرغم من بعض التلميحات الشعرية التى يصعب الاعتماد عليها^(٨٤) - بأن المستعربين واليهود كانوا ملزمين فى عصر الخلافة بحمل شارة تحقيرية (مثل شريط أو حزام من لون معين «زُّنَّار») لتمييزهم عن المسلمين ، لقد طالب ابن عبدون فى عهد المرابطين بحمل مستعربى إشبيلية لهذه الشارة^(٨٥) ، لكنها لم تُفرض عليهم إلا فى عصر الموحدين .

إذا كانت المدن الكبيرة ، التى ترتفع بها نسبة السكان المستعربين ، مثل طليطلة^(٨٦) و "ماردة" وإشبيلية^(٨٧) حافلة بالكنائس (البَيْع) ، فقرطبة وضواحيها كانت تضم أيضاً العديد منها^(٨٨) : فيها هى كنسية "حى الطرازين" التى تضم رفات "سان زويلو" والشمَّاس "سبرنيديو" (Spernaideo ، وعلى مقربة من "حى الرقاقين" - فى غرب المدينة - توجد كنيسة "سان أثيسكلو" (Acisclo) ، وتلك كنسية أخرى تسمى "القديسون الثلاثة" ("فارستو" ، "خينارو" ، "مارثيال") تحتل المكان الحالى لكنيسة "سان پدرو" ، وفى سهل العاصمة وأراضيها كانت ترتفع كنائس كثيرة ، نذكر منها : كنيسة "سان مارتين دى تور" وكنيسة "سانتا إولاليا" ، كان ملحقاً بمعظم الكنائس

الموجودة بالأرباض أديرة ، وقد انتقلت بعد ذلك - بسبب التوسع العمرانى - إلى سفح الجبل المطل على العاصمة الأندلسية ، وهذا ما جرى مع دير راهبات "كوتاكلارا" (Cutaclara) ، و "بينيا مياريا" (Peña mellaria) ، و "تابانوس" (Tábanos) ، و "أرميلات" (Armillat) ، وبالقرب من الدير الأخير - الواقع فى وادى نهر "جوادا مياتو" ، بين قرطبة و "القليعة" ، على الطريق المؤدى إلى طليطلة - مات ولدا المنصور بن أبى عامر : عبد الملك المظفر (عام ١٠٠٨م) وعبد الرحمن شنجول فى العام التالى .

لا نضيف جديداً لو أشرنا إلى أن المستعربين كانت لهم مدافنهم الخاصة والقريبة ، أيضاً ، من التجمعات العمرانية ، ويبدو أن أحدها كان مجاوراً لمدافن المسلمين المسماة "مقبرة متعة" بقرطبة ، صحيح أنه صدر قرار فى بداية القرن العاشر (نتيجة للشكوى التى قدمها "محتسب" العاصمة) يقضى بمنع المستعربين من اختراق "مقبرة متعة" بعرباتهم للوصول بموتاهم إلى مدافنهم المجاورة ^(٨٩) .

فى عصر الخلافة وعصر الطوائف اتهم بعض المؤلفين المسلمين المتشددون (من بينهم شعراء) مسيحي قرطبة بالعادات المبتذلة ^(٩٠) ويتحويل العديد من دور عباداتهم إلى حانات أو مواخير ؛ لكن علينا ألا نأخذ هذا الاتهام على محمل الجد ^(٩١) لسببين : لأنه نابع من التعصب ، ولأن المجتمع الإسلامى حتى ذلك الوقت لم يكن قد برأ بعد من أنفة الاندماج العفوى مع غيره من الملل .

اليهود :

إذا كانت لدينا معلومات وفيرة عن أحوال اليهود الاجتماعية فى إسبانيا القوطية وعن مساعدتهم للمسلمين فى فتح شبه الجزيرة ، فإن تاريخهم بين القرن الثامن والحادى عشر لا يحظى منها إلا بالقليل النادر ^(٩٢) ، لو نحينا جانباً سلسلة الأخبار الملفة التى يتشدد بها ويكررها عدد كبير من المؤرخين المعاصرين عن يهود إسبانيا ، فلن يبق لنا سوى النذر اليسير من البيانات الصحيحة التى تتناول تنظيم الجالية اليهودية فى أندلس عصرى الإمارة والخلافة والدور الذى لعبته فى اقتصاديات المملكة القرطبية ، لا مفر من الوصول إلى الفترة التى تسبق انهيار ممالك الطوائف (نتيجة لاستيلاء ألفونسو السادس على طليطلة وتدخل المرابطين) لكى نستوعب فى شىء من الوضوح - على ضوء بعض المصادر العبرية والقشتالية والعربية - الدور الذى لعبه اليهود سواء فى إسبانيا الإسلامية أو المسيحية ، ومن بين المصادر العربية تجدر الإشارة إلى "مذكرات" الأمير المخلوع "عبد الله" المكتشفة حديثاً ، والتى تمدنا

بمعلومات جديدة تماماً وفي غاية الأهمية عن نشاط العنصر اليهودي في مملكة غرناطة الزيرية خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر (وسيكون اعتمادنا على هذه المعلومات كلياً عندما يأتي الدور عليها) .

من الصعوبة بمكان تقديم رقم ولو تقريبي لأعداد اليهود في الأندلس خلال القرن العاشر أو لمضاهاته بأعدادهم داخل إسبانيا المسيحية ، الشيء الوحيد الذي يمكن التأكيد عليه هو أن أعدادهم كانت تكثر بمعظم المدن الهامة (على هذا الجانب أو ذاك من الحدود الإسلامية) وأنهم كانوا يعيشون في أحياء سكنية خاصة بهم ، في طليطلة - على سبيل المثال - كانوا يقيمون بعيداً عن التجمعات المسلمة والمستعربة في منطقة تسمى "مدينة اليهود" ، وطبقاً لأحد المؤرخين العرب ، فقد قام "مهاجر بن القنيل" (المنشق على السلطة الأموية) بحصار تلك المدينة عام ٨٢٠ م (٢٠٤هـ) (٩٣) .

قبل تدهور "البيرة" (عاصمة الكورة المسماة باسمها) كان اليهود يشكلون نسبة كبيرة من سكان مدينة غرناطة الصغيرة التي حولها الزيريون إلى عاصمة لملكهم في القرن الحادي عشر ، وفي عصر الطوائف (وربما في زمن الأمويين أيضاً) كانت مدينة "اللسانة" (Lucena) تعتبر - بعد قرطبة - حاضرة لليهود وواحدة من مراكزهم التجارية الهامة لقريها النسبي من ميناء "المرية" .

وبالنسبة للعاصمة (قرطبة) يغلب الظن أن اليهود ظلوا يعيشون ، حتى طردهم نهائياً من إسبانيا ، في حيهم القديم الذي كان يقع بين شارع "القنطرة" الكبير (المجاور لقصر الخلافة) والصور الغربي للمدينة لأن هذه المنطقة لا تزال تحمل إلى اليوم اسم "الحى اليهودي" (Juderia) وشريانها الرئيسى يفضى إلى معبد يهودى يرجع تاريخه - طبقاً لوثيقة عبرية - لبداية القرن الرابع عشر ، ومن المحتمل أنه بُنى مكان معبد آخر أقدم منه (٩٤) ، ومن إطلاق مسمى "باب اليهود" (والذى كان يطلق أيضاً على روض مجاور) على أحد أبواب سور قرطبة ، نستنتج - بالرغم من صمت المؤرخين - وجود حى آخر لليهود في تلك البقعة علاوة على حيهم المجاور لقصر الخلافة ، وبفضل إشارة عشوائية لأحد كتاب التراجم (٩٥) تبين أن مدافن اليهود كانت تقع شمال قرطبة ويفصلها عن أحد المدافن الإسلامية مجرد طريق أو شارع .

يفرد النص الذى يتحدث عن المراتب العرقية لسكان الأندلس المسلمين ، مساحة هامة لليهود المعتنقين للإسلام ولولاتهم ، كما يعدد بالتفصيل المهن المختلفة التى كانوا يمارسونها فى المدن الأندلسية ، وبعضها يحتاج لمهارة يدوية معينة ، كما يشير النص

السابق إلى أن هؤلاء المسلمين الجدد كانوا قد نزحوا من تجمعاتهم القديمة في شبه الجزيرة قبل دخول الإسلام ، أو من إفريقيا وآسيا بعد الفتح الإسلامي ، لاشك أن أعداد اليهود المعتنقين للإسلام كانت أقل من أعداد المسيحيين ، وأن ظاهرة تحولهم إلى الدين الجديد قد استمرت طيلة العصور الوسطى .

المصنفات الفقهية مُقلّة في الحديث عن علاقة الذميين اليهود بالسلطة المركزية التي سمحت لهم بممارسة شعائهم الدينية بحرية تامة داخل معابدهم ، ويوقف أجزاء من ممتلكاتهم عليها ، كما تشهد بذلك فتوى مجلس الشورى القرطبي التي أوردها ابن سهل (٩٦) .

ونعتقد بأن كل تجمع يهودي كان يُعين من بين أفرادهِ من يمثله أمام السلطة المسلمة ، على غرار "القومس" بالنسبة للمستعربين ، وهذا ما حدث في القرن العاشر مع "ناصر أبو سيف حسداى بن إسحاق بن شبروت" ، الشخصية اليهودية الوحيدة التي لم يطبق عليها النسيان مثل بقية أفراد جماعته (٩٧) .

ذكرنا شيئا عن هذه الشخصية عند حديثنا عن المهام الدبلوماسية التي كلفه بها عبد الرحمن الثالث ، خاصة إلى "أردونيوس الثالث" ملك ليون ، وإلى "تودا" ملكة "نبرة" .

ولد ابن شبروت عام ٩١٥ م ، وتوفي سنة ٩٧٠ م بعد استحواذه على إعجاب البلاط القرطبي بما يملكه من ثقافة واسعة ومهارة طبية ومواهب إدارية ودبلوماسية متميزة ، وكما نعرف فهو الذى ترجم إلى اللغة العربية مؤلف "دياسقوريدس" (Dioscórides) الطبى (٩٨) الذى أهده الامبراطور البيزنطى "قسطنطينو السابع" لعبد الرحمن الناصر عام ٩٥١ م كما كان يشغل - بالفعل - إحدى الوظائف الإدارية الهامة لمكاتب الخزانة القرطبية .

وبالرغم من المكانة الرفيعة التي وصل إليها فى البلاط القرطبي إلا أن لابن شبروت منزلة أرفع فى التراث العبرى ، إذ يعزى إليه إعادة الحيوية لليهودية الأندلسية وجعل قرطبة مركزاً نشطاً للدراسات التلمودية فى نفس الوقت التي بدأت تخبو فيه جنوبها فى الأكاديميات الحاخامية بكل من سوريا والعراق (٩٩) .

وطبقا لما ورد فى "كتاب التراث" لإبراهيم بن دافيد (١٠٠) فقد غادر الشرق أربعة أحبار يهود بقصد الطواف على التجمعات اليهودية لجمع التبرعات للجالية اليهودية فى الشرق ، لكنهم أُسروا فى عرض البحر على يد الأدميرال الأموى "عبد الرحمن بن رماحس" وبعد ذلك تم بيع أحدهم (موشى بن هنوك) فى سوق العبيد بقرطبة ، لكن

الجالية اليهودية بالمدينة افتدته بأموالها ، لم يعد موسى للشرق ثانية بل ظى فى قرطبة وأسس فيها أكاديمية لدراسة التلمود ، وفى خلال فترة وجيزة تمكن - بمعاونة العلماء اليهود فى إسبانيا - من استنباط نظام تشريعى خاص ، وبهذا الشكل تخلصوا من تبعيتهم لنظام بغداد ، وكان لابن شبروت باع طويل فى تلك الدراسات ، ومن جهة أخرى ، فقد ساهم ابن شبروت - بفضل رعايته للثقافة والمثقفين اليهود - فى ظهور العديد من كتاب أبناء جنسه ومنهم شاعران كانا يكتبان باللغة العبرية : "مناحم بن سَرُوق" (من طرطوشة) و "وناش بن لابات" (١٠١) .

كان مناحم بن سَرُوق شاعراً وعالم لغة ، وهو الذى كتب الرسالة النثرية المسجوعة الشهيرة التى بعث بها ابن شبروت إلى ملك "الخزر" (Jázaros) يستفسر منه عن حقيقة اعتناق رعاياه للديانة اليهودية (١٠٢) .

أما "وناش بن لابات" فقد قام بتبنى العروض العربى واستخدامه فى الشعر العبرى ، ولم يقف عند هذا الحد بل أجبر معاصريه من بنى جلدته باتباع نهجه ، ومن يومها اقتفى الشعر العبرى أثر الشعر الأندلسى خطوة بخطوة .

وبالرغم من عدم تسليط المصادر التاريخية للضوء على دور التجمعات اليهودية فى إسبانيا الإسلامية إلا أن هذا الدور لابد وأن يكون على قدر كبير من الأهمية ، خاصة منذ عصر الخلافة . كان اليهود المقيمين فى الأندلس على صلة مستمرة بإخوانهم المقيمين فى الممالك المسيحية بشبه الجزيرة ، وكل فريق منهما كان يكلف بمهمة الاتصال بالشرط الآخر سواء على صعيد المجال السياسى أو بالنسبة لعمليات التبادل التجارى ، وبالتأكيد ، كانوا جميعاً يعرفون - بالإضافة إلى العبرية (لغة علومهم ولا هوتهم) - اللغة العربية (١٠٣) والرومانشية (الأعجمية) ، وأنشطتهم وأعمالهم التجارية كانت تقتضى منهم القيام بالرحلات الطويلة إلى الشرق الإسلامى أو إلى القارة الأوروبية على الجانب الآخر من البرانس لجلب الجلود والأسرى والخصيان لزبائنهم ، لقد كان يهود القرن العاشر رواداً لليهود "السيفارديّة" (Sefardí) فى القرون التالية ، والتى تركت أثراً عميقاً فى الاقتصاد الاجتماعى لإسبانيا والبرتغال فى العصر الوسيط والعصور اللاحقة .

هوامش الفصل الرابع

(١) انظر ملاحظات كل من :-

- J.M. Lacarra en Actas du IX^o Congrès internacional des Sciences historiques, Paris, 1951 , págs. 42-43.

Torres Balbas, en Al-Andalus XVI, 1951, págs 167-168 .

- R. Carande : La huella económica de las capitales hispano musulmanas, en Moneda y Crédito, Revista de Economía, núm. 29 Madrid, 1949 , págs. 3-19

2 - M. Torres, en Hist De España, dirigida por R. Menéndez Pidal, III, pág. 155.

- Lévi- Provençal : Esp. mus. X^o siècle, piágs. 18-39. (٣) انظر :

(٤) انظر المرجع السابق ، ص ١٩١ وهامش ٢ ، ٣

(٥) إنها اللهجة "الجبيلية" التي تناولها بالدراسة W.Marçais بالنسبة لطنجة ، وبالنسبة لشمال فاس "ليفى بروفنسال" ، وبالنسبة لـ "تازة" G.S. Colin

(٦) طبقاً للمعلومات الجديدة التي أمدنا بها الجزء المكتشف حديثاً من "المقتبس" لابن حيان ، فإن معظم سكان الوادي الأوسط لنهر "وادي يانه" وشرق البرتغال الحالية كانوا من البربر "البرانس" والبتر والمصمودة

(٧) يطلق ابن جزم فى نصه الهام الذى نقله ميغل أسين بلاثيوس فى دراسته :

Un códice inexistente del cordobés Ibn Hazm, en Al- Andalus, II, 1934, pág. 30, línea, 21 (trad. Española, pág. 41)

مصطلح "البلدين" على العرب والبربر الذين استقروا فى إسبانيا فى بداية الفتح .

(٨) هذه الترجمة التى ترجع للقرن الخامس عشر تحمل عنوان : "ذكر مشاهير أهل فاس فى القديم" .

انظر :

Lévi Provençal : Islam d'Occident, I, pág. 39 , núm. 45

يوجد مخطوط من هذه الترجمة بمكتبة الرباط المغربية (رقم ١٣٩٤) ، والنص المقصود هنا موجود

بصفحة ٢١

(٩) فى فقرة من كتابه "فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس" ، أوردها المقرئ فى "نفح الطيب" ، الجزء

الأول ، ص ١٨٦ . انظر :

- Lévi - Provençal : Esp. mus. X^o siècle, pág. 20 y nota 2.

(١٠) انظر المرجع السابق ، ص ١٩-٢٠ . وأيضاً "بيريث" : الشعر الأندلسى ، ص ١٥

De Slane, I, págs. 320-322

(١١) مقدمة ابن خلدون ترجمة :

(١٢) انظر :

- Lévi-Provençal : En relisant le "Collier de la Colombe", en Al - Andalus, XV, 1950, págs. 345-353 .
- Garcia Gomez : El Collar de la paloma (trad. Española del Tawq al - hamama), Madrid, 1952, introd., p. 3 y sigs .

(١٣) أشار إلى حديث ابن حزم في "الجمهرة" عن البلويين كل من :-

- Julian Ribera: Disertaciones y opúsculos, I, pág. 34.
- R. Menéndez Pidal: Orígenes del español, 3ªed., pág. 423 y nota2.

(١٤) يعتبر ابن حيان ("المقتبس" ، الجزء الأول ، Fol. 129^و) لفظ "أسالة" الذي يطلقه على أهل الذمة الداخلين في الإسلام مساوياً لمصطلح "مولدين" .

عن هذه المصطلحات وطريقة نسخها في اللاتينية ، انظر :

- Simonet: Hist . de los Mozárabes, págs. XIV-XVI.

(١٥) انظر "الخيرية" لابن بسام (١-١ ، ص ١٤٢ ، ١٤٣) ؛ وما هي كلمات ابن حيان : "وقد كان من غرائبه انتماءه في فارس ، واتباع أهل بيته له في ذلك بعد حقبة من الدهر تولى فيها أبوه الوزير المعقل في زمانه ، الراجح في ميزانه ، أحمد بن سعيد بن حزم لبني أميه أولياء نعمته ، لا عن صحة ولاية لهم عليه ، فقد عهده الناس خامل الأبوة ، مولد الأورمة من عجم لبلة ، وجده الأدنى حديث عهد بالإسلام .." .

(١٦) وصف ابن الفرضي ("تاريخ علماء الأندلس" ، رقم ١١٤٧) أحد قضاة "وشقة" (Huesca) ويدعى "محمد بن سليمان بن طالب المعافيري" (المتوفى عام ٩٠٨م - ٢٩٥هـ) بالتعصب للمولدين ، بالرغم من أنه ينتسب لعائلة من المسلمين الجدد (إذ كان حفيداً لمولى رجل عربي من قبيلة معافير) .

- Pérès: Poésie andalouse, págs. 286-287.
- (١٧) انظر

(١٨) كانت خصائص هذه اللهجة العربية الإسبانية (التي زادت معرفتنا بها في السنوات الأخيرة بفضل الدراسات التي أجريت على الشعر الشعبي الأندلسي) هدفاً في القرن التاسع لتأملات ابن حزم القيمة التي وردت في "الإحكام في أصول الأحكام" . (القاهرة ، ١٣٤٥-١٣٤٧هـ ، الجزء الأول ، ص ٣١ ، ٣٢) ، وقد قام "بيريت" بترجمتها تحت عنوان :

- Pérès: L'arabe dialectal en Espagne musulmane, en Melanges William Marçais, págs. 291-293.

يمكن الاطلاع في هذا العمل (ص ٢٩٤ وماמש ٤) على إشارة إلى فقرة موجزة للجغرافي "المقدس" ، يتحدث فيها عن لغة أهل الأندلس .

(١٩) عن ازدواج اللغوي لإسبانيا الإسلامية ولهجات المستعربين الرومانثية ، انظر :

- R. M. Pidal: Orígenes del español, 3ªed., pp. 418-419 y 422-423
- Valdeavellano: Hist. De Esp., I, Pág. 695.

(٢٠) ترجم ابن الفرضى ("تاريخ علماء الأندلس"، رقم ٩١٦) لأحد أفراد هذه العائلة الإشبيلية ويدعى "على بن حسن بن ساباريكو"، يقول عنه: إنه استقر في "بطلوس" (Badajoz) وبني فيها مسجداً يحمل اسمه، وكانت وفاته في بداية عهد عبد الرحمن الثالث.

(٢١) للتعرف على عدد آخر من الأسماء الرومانشية التي كان يحملها المولودون الإسبان، انظر:-

- Simonet : Hist. de los Mozarabes, introducción P.XLVI, núm.6.

- F. Codera : Apodos y sobrenombres de moros españoles, en Mélanges Hartwig Derenbourg, paris, 1909, págs. 326-334

(٢٢) طبقاً لابن الفرضى ("تاريخ"، رقم ١٩٢) فقد كانت العامة في قرطبة تطلق على محمد الثاني اللقب الرومانشي "مانجاس" (Mangas) بقصد السخرية منه.

(٢٣) عن تأثير الإسلام في طبيعة الشعب الإسباني على مر العصور، انظر المقال التالي:

- A. González Palencia: Huellas islámicas en el carácter español, Apud, Hispanic Review, VII, 1939, pp. 185-204.

(٢٤) الجملة الأخيرة مستقاة من بيت شعري لابن حزم يقول فيه:

ويا جواهر الصين سحقاً فقد غنيت بياقوتة الأندلس

انظر: ترجمة جاريثا جوث لطوق الحمامة (مدريد، ١٩٥٢) ص ٧٠، ١٦١

(٢٥) بالنسبة للشرق العباسي، انظر:

- Mrez: Ren Isl., trad. Vila, pp. 190-199.

(٢٦) انظر المرجع السابق، ص ١٩١

عن "تقيب" أعضاء العائلة الحاكمة (وهي وظيفة كانت موجودة أيضاً بالمغرب)، انظر أيضاً:

Tyan: Org. jud., II, págs. 329-341.

يطلق الموردي (الأحكام السلطانية، ص ٩٢) على هذه الوظيفة المسمى التالي: "النقابة على نوى الأنساب".

(٢٧) أخذنا هذه البيانات من "المقتبس" (الجزء الأول، ص ١٣٨ fol.) لابن حبان.

وقد أورد نفس المؤرخ (في الجزء المكتشف حديثاً من كتابه المذكور، ص ٢١٤ fol.) أسماء عدد من الروائيين القادمين من الشرق واحتفى بهم الأمير عبد الرحمن الثاني: أبو القاسم بن بكار وابن أخيه (وكان يصرف لكل واحد منهما معاشاً شهرياً قدره ٣٠ ديناراً)، سلمه ابن عبد الملك (الذي وصل عام ٨٥٠م - ٢٣٦هـ)، وأخيراً، أصبح بن محمد بن هشام، الذي استقر في مدينة إشبيلية.

(٢٨) وطبقاً لابن حزم ("جمهرة.."، ص ٢٣) فهذا الحفيد يدعى: إسحاق محمد بن عبد الوهاب بن محمد المهتدي، وقد استقبله الناصر بحفاوة بالغة وأجرى له راتباً سنوياً حتى وفاته عام ٩٤٤م (٣٣٣هـ)، ويذكر ابن حزم أيضاً أن لأبي إسحاق هذا أخ مات في صقلية، وأن كلا الأخوين ولدا في إفريقية بعد زواج والدهما (المنفي في القيروان) من إحدى أميرات الأغالبة.

(٢٩) خاصة في الجزء الثالث من "المقتبس" لابن حيان ، والذي يغطي عهد الحكم الثاني ، أما بالنسبة للصور المتأخرة فقد تناولها ابن عذارى في الجزء الثالث من "البيان المغرب" (ص ٩ ، ص ٦٠) .

توجد في الجزء المكتشف حديثاً من "المقتبس" (الجزء الأول ، fol. 236) بيانات هامة تتناول ما فعله الأمير محمد الأول مع إخوته الكثيرين عند توليه السلطة ، فمن المعروف أن عبد الرحمن الثاني كان له أولاد من كثير من النسوة (حرائر أو إماء ضمن حريم القصر) ، اشترى العامل الجديد (محمد الأول) بيوتا داخل قرطبة وضياعاً في المناطق المجاورة للعاصمة وأنزل فيها إخوته الأمراء وخصص لهم رواتب شهرية (أرزاق هلالية) وهبات سنوية ، لكنه لم يقبل بقاء واحد منهم للعيش في حرم القصر ، كما فعل نفس الشيء مع أولاده .

ويواصل ابن حيان سرد بعض التفاصيل عن مراسم دفن الأمراء الذين ماتوا خلال عهد محمد الأول وعن البروتوكولات المتبعة في مثل هذه الظروف : كان الأمراء الموتى ينقلون إلى المقابر في نعوش جديدة مُصممة بالمسك والعنبر ، وكان يتقدم النعوش حشد من المشيعين ، يسير في مقدمته أعمام وأخوة أو أبناء المتوفى ، يليهم الوزراء وكبار موظفي الدولة والفقهاء ، وفي المؤخرة وفد من العامة يضم التجار والحرفيين ، وخلال بضعة أشهر لا تنقطع قراءة القرآن فوق قبر المتوفى .

(٣٠) لمزيد من التفاصيل عن ممثلي كل عائلة من هذه العائلات الكبيرة ، انظر :

- Lévi- Provençal: Esp. mus. X^e siècle, págs. 99-111.

(٣١) انظر "المقتبس" لابن حيان (الجزء الأول ، ٣ fol. 223) .

(٣٢) ومن العائلات الكبيرة يمكن أن نذكر عائلة "بنى الطينى" ، وكان عميدهما "محمد بن الحسين" قد ترك طبنة بإقليم الزاب ، واستقر في قرطبة عام ٩٤٢م (٣٣١هـ) ، انظر :

- Lévi- Provençal: En relisant le " Collier de la colombe", en Al-Audalus, XV, 1950, págs. 335-356 .

(٣٣) أمكن تحديد مكان هذه الواقعة بفضل العثور على خبر في وثيقة بدير ساهاجون :

- V. Vignau: Indice de los documentos del monasterio de Sahagún, Madrid, 1874, núm. 467.

وقد أمدني بهذا الخبر شاكراً الأستاذ Beltrán Villagrosa وطبقاً له فالبقعة المقصود هي :

Villafranca del Bierzo التي يرويها نهر "ميديونا" الصغير .

(٣٤) أشرنا في المجلد السابق إلى بعض من تسلقوا درج الوظائف العليا في الدولة من المواطنين القرطبيين نوى الأصول البربرية ، وإلى من تولوا منصب القضاء في العاصمة أو المدن الإقليمية الكبرى ، قبل جعفر المصحفي ، أمدت عائلة زناتية عبد الرحمن الثالث بثلاثة موظفين كبار : محمد بن عبد الله الخروبي ، وابنيه عبد الله وأحمد .

(٣٥) انظر : ابن بسام « الذخيرة .. » (الجزء الأول - ١ ، ص ١٦٦ - ١٦٧) .

(٣٦) قدم الفتى الشهير الخصي « جعفر الصقلي » (الذي جمع ثروة طائلة وتبرع بها لمؤسسات البر في قرطبة) لسيد الحكم الثاني ، بمناسبة توليه السلطة ، مجموعة من الهدايا القيمة : كتيبة تضم مائة مملوك إفرنجى ، مسلحين من أخصم القدم إلى أعلى الرأس ، ومعهم جيادهم ، هذا دون حساب الدروع والخوذات والرماح والتروس وقرور الجاموس المذهبة ، انظر : المقرئ « نفع الطيب » ، الجزء الأول ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨

(٣٧) شاع بين المؤرخين - وخاصة ابن حيان - إطلاق تعبير « الفوغاء » على جماهير الشعب ومدلول الكلمة في اللغة العربية يعنى « الكثرة الصاخبة الحقيمة » .

(٣٨) ذكر النباهى فى « المرتبة العليا » (ص ٧٨ - ٧٩) قصة تظاهرة غاضبة لاهمء قرطبة ضد القاضى « ابن زرب » ، فى نهاية القرن العاشر ، لأن صلاة الاستسقاء التى أمها لم تؤت ثمارها المرجوة : أى لم تسفر عن المطر المنتظر تجمعت الفوغاء للتشكيك فى صدق إيمان القاضى ولاتهامه بشرب الخمر ، ولما أخذت المظاهرة طابع العدوانية ، اضطر القاضى للاحتماء بمقصورة أحد الأضرحة فى مقابر حى الرىض . عندما تعين على القاضى إمامة صلاة استسقاء جديدة ، أمر المنصور فرقة من الخيالة بحراسة المصلى . (٣٩) انظر المجلد السابق (الفصل الأول) .

(٤٠) بالنسبة لإسبانيا الإسلامية حتى حرب الاسترداد ، انظر :

- Ch. Verlinden : La condition des populations rurales dans l'Espagne medievale, en el volumen de comunicaciones presentadas a la Société Jean Bodin bajo el título " Le Servage " , Bruselas, 1937-, pp. 172-176 y 196 .

إلى هذا العمل الذى لا يقدم جديدا عن الفترة التى تهمنى نضيف الصفحات المكثفة لأحد فصول العمل الضخم لـ « سانتشث ألبرنوث » ، بالرغم من أنها غير مقنعة تماماً :

- C. Sánchez- Albornoz : En torno a los orígenes del feudalismo, parte segunda, Los árabes y el régimen prefeudal carolingio, III, Mendoza, 1942, págs. 165-215 .

(٤١) انظر :

- Dozy : Rech.³, I, apéndices I y II, págs. I-IX.
- Simonet : Hist. de los Mozárabes, págs. 60-68.
- Lévi-provençal : Esp. mus. X^o siècle, págs 160-162 .

(٤٢) لمزيد من التفاصيل حول هذه المسألة ، نحيل القارئ إلى الأعمال التالية : -

« كتاب الخراج » لأبى يوسف - « الأحكام السلطانية » للموردى .

- Th. W. Juynboll : Enc. Isl., II, págs. 41-42 (fal'), y II, págs. 148-149 (ghanima).

وبالنسبة للشرق فى العصر الوسيط ، انظر :

- Mez : Ren. Isl., trad. Vila, págs. 141-143 .
- Gaudefroy-Demombynes : Le monde musulman jusqu' aux Croisades, págs. 195-204 .

(٤٣) انظر على وجه الخصوص :

- Lévi-provençal : Les historiens des Chorta, paris, 1922, pp. 284-286 .

نشر هذا النص فى إسبانيا عام ١٨٦٨ م فى نهاية « تاريخ افتتاح الأندلس » لابن القوطية ؛ كما قام « خوليان ريبييرا » بترجمته إلى الإسبانية (مدريد ، ١٩٢٦ ، ص ١٦٥ - ١٨٤) .

(٤٤) استمد هذا المؤرخ البيانات التي يعرضها من كتيب لحمد الرازي عنوانه « كتاب الرايات » وقد اكتشفه عام ١٠٧٨ م (٤٧١ هـ) بإحدى مكتبات إشبيلية ، وابن مزين هذا كان أبوه أميراً على « شلب » وعزله المعتمد بن عباد في عصر الطوائف ، انظر :

- pons Boigues, Ensayo núm. 134, p. 171 .

(٤٥) نشير في عجالة إلى نظرية « أميريكو كاسترو » (ونحن لا نتفق معها) الواردة بكتابه :

España en su historia : cristianos moros y judíos, Buenos Aires, 1948, págs. 71-78 y 686-689 .

والتي يقول فيها إن كلمة (hidalgo) الإسبانية (وأصلها fijoaligo) مأخوذة مباشرة عن المصطلح العربي « بنو الأخماس » ، لكن نظريته هذه لم تلق استحساناً من المشتغلين بالدراسات العربية (المؤرخين منهم واللغويين) مما اضطره للدفاع عنها بمقالين آخرين ، وقد قام « سانتشيث ألبرنوث » مؤخراً بدحضها ورفضها كلية في مقاله المعنون :

De los « banu al-ajmas » alas «fijoaligas» ?, en Cuad. Hist. Esp., XVI, 1951, págs. 130-145.

(٤٦) طبعة القاهرة المختصرة لـ « مركز الإحاطة » الجزء الأول ، ص ١٨ - ١٩ .

(٤٧) انظر :

- M. Asín Polacios : Un códice inexplorado del cordobés Ibn Hazm, en Al- Andalus, II, 1934, p. 36 .

(٤٨) إنه الفقيه « أبو جعفر أحمد بن نصر الداوودي » الذي ورد اسمه في « فهرسة » ابن حزم ، وصاحب الكتاب المحفوظ بمكتبة الإسكوريال عن القضاء الإسلامي (رقم ١١٦٠) ، استخرج « سيمونيت » الفقرة المشار إليها هنا من كتاب : (Hist. De los Mozárabes, p. 68, n.1) ، وفيما يلي ترجمتها : « أما بالنسبة لأراضي الأندلس فقد خصها أحد الأشخاص بحديث لا صدق فيه ، إذ زعم أن البلد أو شطراً كبيراً منه قد فتح عنه ، وأن أراضيه لم تخضع للتوزيع ولا لنظام الأخماس ، بل استولت كل مجموعة من الفاتحين على جزء من الأرض بالقوة ، ولم تنتظر تلقى نصيبها (إقطاع) المخصص لها من السلطة المركزية » .

(٤٩) من بين هذه المزارع الكبيرة نذكر مزارع « الشرف » (Aljarafe) الواقعة غرب إشبيلية ، وكانت تعتبر أكثرها إنتاجية .

وقد ورد ذكر مزرعة « مريانات الفافقين » (نسبة إلى أحفاد الحاكم « عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ») مرتين في « تاريخ افتتاح الأندلس » لابن القوطية (ص ١٢ ، ٧٦ من النص الأصلي ، ص ١٠ ، ٦١ من الترجمة) . انظر :

- Fagnan : Extraits inédits, p. 220 .

(٥٠) بالنسبة لإسبانيا المسيحية في بداية العصر الوسيط ، انظر :

- L. G. Valdeavellano : Historia de España, I, págs. 475-478 .

(٥١) نستشف من فقرة وردت في « الحلة السيرة » لابن الأبار (ص ١٦٢) أن شاغلي الضياع في نهاية القرن العاشر كانوا ملزمين بأداء « العشر » بالإضافة إلى ضريبة « الحشد » .

(٥٢) من أمثلة هذه الاقطاعات ما ورد في مجموعة الصيغ القانونية للجزيري (fol. 38 r) عن منح العامل لمساحة من الأرض « الموات » لأحد الأشخاص تقديرًا لحرصه على المشاركة في الجهاد وتفانيه في خدمة الإسلام ، وقد كان النتح متضمنًا - طبقًا لما ورد بتعليق الكاتب - شرط إحياء هذه الأرض الموات وزراعتها والتوطن فيها .

(٥٣) يخبرنا ابن حوقل (« صورة الأرض » طبعة Kramers ، ص ١١١ ، ص ٧٦ من طبعة De Goeje) أن إسبانيا الإسلامية في عصره « كانت تعتمد في استثمار أراضيها على مجموعات من المزارعين لا تعرف شيئًا عن حياة الحضر وتدين بالمسيحية » ، وفي موضع آخر يضيف قائلاً إن « تلك العمالة الزراعية كانت تتمرد أحيانًا وتعتصم بإحدى القلاع القريبة ، وتظل تقاوم حتى تفنى عن بكرة أبيها » .
لا شك أن هذه الصورة القائمة مبالغ فيها ومتعمدة ، لكنها تعكس الوضع البائس للمزارع الأندلسي خلال القرون الأولى من العصر الوسيط .

(٥٤) سنتحدث في الفصل التالي عن أهمية تجارة الرقيق في النشاط الاقتصادي للخلافة القرطبية .
(٥٥) أخذنا هذه المعلومة من ابن سهل « الأحكام الكبرى » (Fol. 46 r مخطوط الرباط) وفي نفس العمل (fol. 134r) يوجد نص فتوى يتعلق بزوجة مسيحية أسر ابن حفصون زوجها واحتجزه في « ببشتر » (Bobastro) .

(٥٦) عن الرق في إسبانيا المسيحية خلال القرون الأولى من العصر الوسيط ، انظر :
- Ch. Verlinden : L'esclavage dans le monde ibérique médiéval, en An. Hist. Der. Esp., XI, 1934, págs. 365-447.

(٥٧) يعتبر ابن الفرضي (« تاريخ علماء الأندلس » ، رقم ٢١٤) « ولاء النعمة » مرادفًا لـ « ولاء العتاقة » ، والتعبير الأول له صلة بالآية القرآنية رقم ٢٧ من سورة « الأحزاب » (التي تشير إلى عتق الرسول لمولاه زيد) ، هذا ما أخبرني به زميلي وصديقي R. Brunshvig ، وطبقًا لما أمدني به فإن « المذهب المالكي يعتبر الولاية الناجمة عن تحرير العبيد الولاية الوحيدة من بين الأخريات التي يترتب عليها أثر شرعي (مثل الإرث والتضامن الجنائي) . أما بالنسبة للأحرار من غير العرب الذين اعتنقوا الإسلام فيعتبرهم ولاء للمجتمع الإسلامي ككل وليس للشخص أو المجموعة التي تعاهدت معها على الولاء ؛ وهذا يعني أن هؤلاء المسلمين الجدد وأحفادهم لا يتمتعون في المذهب المالكي بلوائح شرعية خاصة » .

(٥٨) انظر مقدمة ابن خلدون (الجزء الأول ، ص ٣٢٠ - ٣٢٢) ، ص ٣٧٢ - ٣٧٤ من ترجمة De-Slane .

(٥٩) وعلى خلاف كلمة « مصطنع » يبدو أن كلمة « صنيعة » لم يكن لها أبداً قيمة فنية خاصة .
(٦٠) El Vocabulista على سبيل المثال يقدم كلمة *benefacere* اللاتينية كترجمة للفعل العربي « اصطنع » .

(٦١) كتب « سانتشث ألبرنوث » مقالين هامين في هذه المسألة في :

Anuario de Historia del Derecho español, I, 1924, págs. 158-336 .

انظر أيضا :

- Valdeavellano : Historia de Esp., I, págs. 551-553 .

Aguado Bleye : Man. Hist. Esp., I, págs. 514-515.

(٦٢) بالإضافة إلى العاملين اللذين سنشير إليهما فى الهامشين التاليين ، توجد دراستان هامتان عن المستعربين ودورهم فى إسبانيا المسيحية :

“ Las iglesias mozárabes ”, de M. Gómez Moreno, Madrid, 1919 y

“ Los orígenes del español ”, de R. Menéndez Pidal, 3ª edición, Madrid, 1950, págs. 415-424.

(٦٣) انظر :

- “ La Historia de los Mozárabes de España ”, de F. G. Simonet, Madrid, 1897-1903 .

(٦٤) انظر :

I. De las Cagigas : Los Mozárabes, 2 Vols., Madrid, 1927-1949.

(٦٥) انظر على وجه الخصوص :

- Menéndez Pidal : Orígenes 3, págs. 425-431

(٦٦) عن النتائج الاقتصادية لإعادة إعمار تخوم إسبانيا المسيحية ، انظر :

- L. G. Valdeavellano : Hist. de Esp., I, p. 529 y sigs .

(٦٧) انظر :

- Gómez Moreno : Iglesias mozárabes, p. 107 .

(٦٨) المرجع السابق ، ص ٢٧ ، ص ١٢٧ .

(٦٩) المرجع السابق ، ص ١١٧ وملاحظة رقم ٢ .

(٧٠) المرجع السابق ، ص ١٠٨ - ١١٠ ، من الأسماء الواردة بهذا العمل يتضح أن المستعربين بالرغم من احتفاظهم فى الأراضى المسيحية بأسمائهم العربية إلا أنهم كانوا يتبعونها باسم آخر أعجمى ، أو العكس.

(٧١) المرجع السابق ، ص ١٢١ - ١٢٥ .

(٧٢) لا يعتبر من قبيل اللغو إذا أشرنا إلى أن أحد ميادين قرطبة فى القرن العاشر كان يسمى « سويقات القومس » . انظر : ابن بشكوال « كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس » ، ص ١٩٦ .

(٧٣) ابن القوطية « تاريخ افتتاح الأندلس » (ص ٥ من النص الأسمى ، ص ٣ من الترجمة) .

(٧٤) انظر :

- Simonet : Hist. de los Mozárabes, p. 122 y nota 4 .

(٧٥) ابن القوطية « تاريخ ... » (ص ٥ من النص الأسمى ، ص ٣ من الترجمة الإسبانية) .

(٧٦) الشيء نفسه كان يحدث بالنسبة للقضايا العقارية . فقد ورد بإحدى الأحكام المتعلقة بالقرن التاسع التى نكرها ابن سهل (« الأحكام الكبرى » ، fol. 168ro ، من مخطوطة الرباط) أن القاضى فصل فى النزاع بين امرأة مسلمة وبين « قومس قرطبة » بصفته ممثلاً لرهبان دير « بلطيش » ، حول ملكية قطعة من الأرض .

(٧٧) شاهد القبر هذا، المدون عليه ثمانية أبيات شعرية ، محفوظ بمتحف قرطبة للآثار الإقليمية . انظر :

- Gómez Moreno : Iglesias mozárabes, págs p. 367 .

- R. Menéndez pidal : Orígenes 3, p. 421 .

(٧٨) عن التقسيم الكنسى لشبه جزيرة إيبيريا فى عصر الخلافة ، انظر :

- Simonet : Hist. de los Mozárabes, 122, 808-812.

وبالنسبة للعصر القوطى ، انظر :

- M. Torres, en Hist. de Esp. de Menéndez pidal, III, págs. 278-279 .

(٧٩) انظر :

- Simonet : Hist., de los Mozárabes, p. 604.

(٨٠) للتعرف على هذه الشخصية ، انظر « كتاب السير » لـ Juan de Gorz (ص ٢٤٣ - ٢٥٠) ،

(ص ٥٧ - ٦١ من طبعة Paz y Melía) .

(٨١) انظر :

- Simonet : Hist., de los Mozárabes, págs. 693-696.

(٨٢) أخذ المقرئ هذه الفقرة « نفع الطيب » ، الجزء الأول ، ص ٣٤٥) عن « الفتح بن خاقان »

(مطمح ... ، ص ١٨-١٩) ، وقد ترجمها pérès فى كتابه المعنون « الشعر الأندلسى » (ص ٢٧٧ -

٢٧٨) ، نقل « الفتح بن خاقان » هذا النص من « رسالة التوابع والزوابع » لابن شهيد ؛ كما نقل ابن بسام

جزءاً منها فى « النخيرة » (الجزء الأول - ١ ، ص ٢٢١ - ٢٢٢) . انظر طبعة « رسالة التوابع والزوابع »

التي أعدها بطرس البستانى (بيروت ، ١٩٥١ م ، ص ١٤٢ - ١٤٣) .

(٨٣) ابن سهل « الأحكام الكبرى » (fol. 213 V^o ، من مخطوطة الرباط) .

(٨٤) انظر :

- Pérès : poésie andalouse, págs. 278-283 .

(٨٥) انظر :

- E. Lévi-provençal y E. García Gómez : Sevilla a comienzos del siglo XII, p. 157.

(٨٦) فى الجزء المكتشف حديثاً من « المقتبس » لابن حيان (fol. 269 V^o) يخبرنا المؤلف أنه عند

سقوط منذنة مسجد طليطلة الجامع ، طلب أهالى طليطلة من الأمير محمد الأول التصريح لهم بإعادة بنائها من أموال « الخراج » كما طالبوه « بضم الكنيسة المجاورة للمنارة إلى المسجد » .

(٨٧) يبدو أن مدينة « طريانة » (Triana) الواقعة على الضفة الأخرى لنهر الوادى الكبير كانت تضم

أعداداً كبيرة من المستعربين فى بداية القرن الثانى عشر . انظر :

- E. Lévi-provençal y E. García Gómez : Sevilla a comienzos del siglo XII, p. 172.

(٨٨) عن كنائس قرطبة والأديرة المجاورة لها ، انظر :

- Simonet : Hist., de los Mozárabes, págs. 615-617.

- R. Castejón : Córdoba califal, págs. 77-85.

(٨٩) طبقًا لابن سهل (« الأحكام الكبرى » fol. 214 r^o) فالفقهاء القرطبيون الذى أصدروا هذه

الفتوى هم : ابن لبانة ، أيوب بن سليمان ، وابن الوليد .

(٩٠) انظر :

- E. Lévi-provençal y E. García Gómez : Sevilla a comienzos del siglo XII, págs. 150-151.

(٩١) عندما يأتى الوقت المناسب سنشير إلى أن التهلك والخلاعة لم يكونا أقل فى الأندلس عنهما فى

إسبانيا المسيحية خلال القرن العاشر .

(٩٢) تعتبر أعمال Y.F.Baer فى طليعة الأعمال التى يعتد بها لمعرفة تاريخ يهود إسبانيا فى القرون

الأولى من العصر الوسيط ، لكن الوثائق التى نشرها Baer تحت عنوان : (Die Juden in christlichen Spanien, vols. I y II, Berlin, 1929-36) لا تشير - لا من قريب ولا من بعيد - إلى عصر الخلافة .

توجد لوحة موجزة لكنها معبرة عن تاريخ يهود إسبانيا حتى القرن الحادى عشر فى المصدر التالى :

- J. M^a MilláVallicrosa : La poesía sagrada hebraicoespañola, 2^a ed., Madrid-Barcelona, 1948, p. 19 y sigs.

انظر أيضا :

- Ballesteros : Hist. de Esp., II, págs. 106, 169, 170 .

- Valdeavellano : Hist. de Esp., I, págs.995 y sigs., y p. 1014.

أما بالنسبة لمجلة " Sefard " التى تطبع فى مدريد وقامت بنشر العديد من المقالات عن الأنشطة

المتعددة لليهود فى إسبانيا العصر الوسيط ، فلن يتمكن الكثيرون من الاستفادة منها لأنها تصدر باللغة العبرية .

(٩٣) ابن حيان « المقتبس » ، الجزء الأول (fol. 114 r^o) .

(٩٤) انظر :

- R. Castejón : Guía de Córdoba, Madrid, 1930, pág. 28-32.

(٩٥) ابن بشكوال « كتاب الصلة » ، ص ٣٠٠ (رقم ٦٧٢) .

(٩٦) ابن سهل « الأحكام الكبرى » (fol. 152) ، من مخطوطة الرباط (والفتوى المذكورة تتعلق بوقف

بيت على معبد يهودى .

(٩٧) بالإضافة إلى دراسة Jacob Mann عن « حسداى » يمكن الإشارة إلى البحث الذى كتبته

بالعبرية S.M. Stern ونشر فى القدس بمجلة Ziom (العدد ١١ ، ص ١٤١ - ١٤٦) .

(٩٨) انظر

- M. Meyerhof : Esquisse d'histoire de la pharmacologie et botanique chez les Musulmans d'Espagne, apud, Al-Andalus, III, 1935, págs. 8-10.

(٩٩) طبقاً لشهادة ابن حزم (« الفصل » ، طبعة القاهرة ، ١٣٢١ هـ = ١٩٠٣ م ، الجزء الأول ، ص ٩٨-٩٩) والتي أوردها « أسين بلاثيوس » فى : (Los caracteres y la conducta) (مدريد ، ١٩١٨ ، ص ٨٠) : فإن مذهب « القرائين » اليهودى كان له عدد من الأنصار فى إسبانيا خلال القرن الحادى عشر .

(١٠٠) طبعة .

- Neubauer : Medieval Jewish Chronieles, Oxford, 1887, I, p. 67 .

(١٠١) عن هذين الشاعرين اليهوديين ، انظر :

- Millás Vallicrosa : Poesía sagrada hebraicoespañola, págs. 28-34.

(١٠٢) انظر :

- Millás Vallicrosa : Op. Cit., p. 28 y nota 2

كما يوجد مقال آخر لـ (M. Landau) فى مجلة (Zion) (العدد ٨ ، ١٩٤٣ ، ص ٩٤ - ١٠٣) يناقش فيه حقيقة هذه الرسالة .

(١٠٣) عن الثقافة العربية ليهود الأندلس ، انظر الطرفة التى أوردها ابن بسام (« الذخيرة » ، الجزء الأول - ١ ، ص ١٩٩ - ٢٠٠) وتتعلق بالأديب اليهودى القرطبى « يوسف بن إسحاق الإسرائيلى ... » وعصر ملوك الطوائف ، انظر :

- Pérès : Poésie andalouse, págs. 266-273.

الفصل الخامس

النشاط الاقتصادي (١)

عناوين الفصل الخامس :

- ١ - مصادر التاريخ الاقتصادي للأندلس :
الأدب الجغرافى - الأدب الفنى (أو الاصطلاحى) .
- ٢ - أدوات الحياة الاقتصادية :
الموازين والمكايل والمقاييس - المسكوكات النقدية .
- ٣ - الزراعة :
الملامح الزراعية للأندلس - الأسلوب المتبع فى استثمار الأراضى ونظام
المزراعة - زراعة الغلال والطواحين - محاصيل أراضى السَّقى وزراعة
الأشجار - قطعان الماشية والنباتات الطبيعية - أعمال الفلاحة فى "تقوم قرطبة"
٤ - استغلال الموارد الطبيعية :
المعادن والتعدين - استخراج الملح والصيد .
- ٥ - الإنتاج الصناعى والتبادل التجارى :
النظام الاقتصادى - المهن فى الحَضَر - الصناعات الرَّاقية وتسويقها تجارياً -
تجارة الرقيق - طرق الملاحة والتجارة .

١ - مصادر التاريخ الاقتصادي للأندلس

الأدب الجغرافى :

بلغت إسبانيا الإسلامية - فى ظل السلام الذى عمّ أراضيها أثناء عصر الخلافة القرطبية - قمة عنفوانها الاقتصادى ، بهذه الحقيقة تشهد كافة النصوص القديمة ، سواء كانت من المدونات التاريخية أو الأعمال الجغرافية ، وبما أن التفاصيل الواردة بالآخيرة تمثل القسط الأكبر والجوهري من معلوماتنا عن دولة الأندلس وعن استثمارها لمواردها الطبيعية خلال أهم فترات تاريخها السياسى ، فمن الضرورى التوقف - ولو قليلاً - عند هذا الأدب الجغرافى ^(٢) ومحاولة إبراز قيمته الوثائقية .

وطبقاً للتسلسل الزمنى فقد كانت كتب "المسالك" ^(٣) هى الأولى التى أفسحت لإسبانيا مكاناً فيها ، وأقدم هذه الكتب يحمل عنوان "كتاب المسالك والممالك" ، وينسب لبغدادى من أصل فارسى يدعى "ابن خرداذبة" ، وكان معاصراً للأمير القرطبى عبد الرحمن الثانى ، وبعد ذلك - فى النصف الثانى من القرن التاسع - تبنى هذا النوع من التأليف كاتبان عاصرا "ابن خرداذبة" وهما : اليعقوبى بن الفقيه الهمذانى ^(٤) وعمر ابن روسته (RUSTEH) .

وأهمية معلومات المؤلفين الثلاثة عن شبه جزيرة إيبيريا تعزى فقط إلى أقدميتها ، إذ لم تتعرض إلا لتوزيع الأجناس على أرضها وللأنهار الكبرى بينما جاء ذكر المسالك فيها مختلطاً بالأسطورة مما يجعلنا نعتقد بأن الجزء الأقصى من غرب العالم الإسلامى ظل يعانى حتى القرن العاشر من نقص معرفى واضح فى الأوساط الثقافية للامبراطورية العباسية .

بعد تأسيس الخلافة الأموية فى قرطبة اتسمت الوثائق الجغرافية الشرقية بشيء من الدقة وإن كانت لم تتخلص من طابعها الهزيل والرتيب ، وفى هذا الصدد نورد ثلاثة أسماء : الإسطخرى ، ابن حوقل والمقدسى . توفى الأول عام ٩٣٤م (٣٢٢هـ) ، وفى حديثه عن الأندلس ساق العديد من الملاحظات الهامة ، خاصة ما يتعلق بعناصرها السكانية وبإنتاج بعض مناطقها ("البيرة" ، على سبيل المثال) وبتجارة العبيد ، وقدم - فى النهاية - أربعة عشر دليلاً للمسافر اتخذت قرطبة نقطة انطلاق لمعظمها ^(٥) .

يَقْضِلُ ابن حوقل ^(٦) الاسطخرى فى أمرين جوهريين : قيامه بزيارة إسبانيا بنفسه خلال عهد عبد الرحمن الثالث ، واهتمامه - عند تحرير مسالكة - باستكمال معلوماته من الأندلسيين المارّين بالشرق ، ولعلنا أدركنا فى الفصول السابقة قيمة وأهمية بعض التفاصيل التى زودنا بها هذا الجغرافى ، خاصة ما يتعلق بموضوع الضرائب ، بالرغم من ميله - الذى لا يداريه - إلى الفاطميين مما جعله يصيب بعض فقراته بصبغة التحيز (وإن لم تصل إلى حد التشويه) مثل تعريضه بجهل الأندلسيين بفن ركوب الخيل أو عدم خبرتهم فى القتال ، ومع هذا يعتبر عمل ابن حوقل أول تجربة رشيدة ، غنية ومتماسكة لوصف المملكة الأموية بمواردها الرئيسية وتجاريتها وصناعاتها ومسالكها وطرقها الأساسية ، وهو فى هذا يقف على طرفى نقيض من البيانات العجولة المبهمة لزملائه المشاركة المتقدمين عليه .

وينفس الموصفات السابقة تقريباً تتسم الصفحات القليلة التى خصصها الرحالة السورى "المقدسى" ^(٧) فى نهاية القرن العاشر لشبه جزيرة إيبيريا فى كتابه عن الأربعة عشر "مناخاً" التى يتألف منها - طبقاً لرأيه - مجمل العالم الإسلامى ، وإن كان لا يتمتع مثل ابن حوقل بميزة الطواف بإسبانيا وإمكانية وصفها - بالتالى - دون حاجة إلى الاستعانة بمعلومات آخرين قد لا تكتمل مصداقيتهم ، على أى حال ، يعزى إلى هذا الجغرافى ، ذى الروح الوثابة المنهجية ، القدرة على المفاضلة بين الوثائق المتوافرة لديه وانتقائه لأحسنها مما لم يسبق نشره ، علماً بأن عمله الأسمى قد تعرض - لسوء الحظ - للتحوير والتبديل ، وعلى خلاف ابن حوقل ، لم يقم "المقدسى" بوصف الأندلس من منظور سلبي ، ولا شك أن موضوعية وجدية معلوماته تضافى على لوحته عن الغرب الإسلامى قيمة من الظلم الانتقاص منها ، بالرغم من عدم قدرته على التمييز أحياناً بين المؤسسات الأموية ومثيلاتها الفاطمية ، ومن جهة أخرى ، تكتسب ملاحظاته عن المدارس الشرعية واللغة والمناخ وتجارة العبيد (السود والصقالبة) أهمية خاصة نظراً للزمن الذى دُوّنت فيه .

علينا أن ننعى بمزيد من الأسى (ورجاؤنا ألا يطول) فقدان النص العربى لوصف إسبانيا الإسلامية على يد أحد أبنائها فى عهد عبد الرحمن الثالث ، ونعنى به المؤرخ الشهير أحمد الرازى (المتوفى عام ٩٥٥م - ٣٤٤هـ) ^(٨) ، وهو الوصف الذى قدم به

لُؤْلَفِه التارِيخِي عن الأندلس والذي أكمله بعد ذلك ابنه عيسى ، ولحسن الحظ ، فقد استخدم هذه المقدمة الجغرافيون المتأخرون ، خاصة "ياقوت الحموي" (٩) في فهرسته الضخمة للأعلام الجغرافية ، كما احتفظت لنا بجزء منها الترجمة التي أعدها "جيانجوس" عام ١٨٥٢م تحت عنوان "مُدونة الرازي التارِيخِيَّة" (١٠) ، وترجمة "جيانجوس" هذه اعتمدت على ترجمة برتغالية - مفقودة حالياً - كان قد كلف بها ملك البرتغال ("ديونيس") قسيساً يدعى "خيل بيريث" (١١) ، من هنا تتضح مدى صعوبة الاستفادة من وصف الرازي عن طريق ترجمات متتالية ، يُضاف إلى عدم وفائها الحتمى للنص الأصلي تحويرها - الذي لا يمكن تفاديه - لمعظم مسميات الأعلام الجغرافية ، ومما يُرثى له أيضاً - بالنسبة لمعارفنا عن إسبانيا خلال القرن العاشر والحادي عشر - عدم العثور حتى يومنا هذا على الجزء الخاص بالأندلس في عمل الجغرافي "أبي عبيد البكري" الذي لا يوجد لدينا منه سوى بدايته وبعض الإشارات المتأخرة (١٢) عن صاحبه المتوفى بقرطبة عام ١٠٩٤م (٤٨٧هـ) : أى وقت دخول المرابطين شبه الجزيرة ، عندما نتأمل عن قرب ما وصل إلينا من وصفه الرائع للمغرب وإفريقيا (١٣) بما يحتوى عليه من منهجية في التفكير ودقة في التفاصيل وجدية في المعلومات نشعر أننا أمام منجم ثرٍّ من المعلومات المحددة المستقاة من الحياة الواقعية كان بالإمكان أن يتوافر لنا مثلها عن الأندلس لو سلم هذا الجزء من الضياع ، وهو فقد لا يعوضه بأى حال الوصف الرائع لإسبانيا الذي ألحقه "الإدريسي" (١٤) في النصف الثاني من القرن الثاني عشر بمؤلفه الجغرافي الضخم الذي كتبه في "باليرمو" ملك صقلية النورماندى "روجير الثاني" (Roger II) .

أما "أبو عبد الله بن عبد المنعم الحميرى" الذي كان يعيش بمدينة "سبته" في النصف الأول من القرن الرابع عشر ، فقد قام بتجميع أخبار ومعلومات من مؤلفين قدامى لم يشير إلى أىٍّ منهم ، وأعد منها مؤلفاً تاريخياً جغرافياً عن العالم الإسلامى ، لكنه اعتمد في أخباره عن الأندلس على مقتطفات من البكري والإدريسي ، وبالرغم من أن اقتباساته من الإدريسي ليست إلا مجرد قراءة جديدة وجيدة للنص الأصلي ، إلا أن المقتطفات التي أخذها عن البكري تعتبر عظيمة القيمة لأنها ساعدتنا على رسم صورة - ولو جزئية - لعمله المفقود ، ولقد قمنا عام ١٩٣٨م بنشر وترجمة الأخبار

الأندلسية الواردة بكتاب "ابن عبد المنعم الحميري" ولذا نشير إلى أننا سنعتمد عليها فيما نورده من معلومات عن جغرافية إسبانيا في عصر الخلافة ، خاصة ما يتعلق بمدنها ومواردها الطبيعية ونشاطها الصناعى ، هذا بالإضافة إلى إشارات المؤلفين القدامى التى جمعها مغربى آخر من القرن السابع عشر (المقرئ) ^(١٥) فى مؤلفه الضخم عن إسبانيا الإسلامية .

الأدب الفنى (أو الاصطلاحى) :

إلى جانب الأدب الجغرافى الذى رسمنا ملامحه فى خطوط عريضة ، لا يمكن الاستغناء فى موضوعنا الحالى عن استخدام مجموعة من الأعمال ذات الطابع الفنى والتى سنحاول فيما يلى الإلمام سريعاً بأهمها .

أقدم هذه الأعمال وأجملها فى نفس الوقت ما يعرف بـ "التقويم القرطبى لعام ٩٦١م" ^(١٦) ، والذى قام دوزى بنشر نصه العربى معتمداً على مخطوطة عبرية وترجمة لاتينية ، يبدو أنها متأخرة جداً ، يضم هذا الكتيب المخصص للحكم الثانى تقويمين (يشتمل كل منهما على الفلك والمناخ والأعمال الزراعية) تم تأليفهما فى عصر واحد : أحدهما عربى قام بإعداده "عرب بن سعيد (الذى أكمل مدونة الطبرى التى تحتوى على معلومات هامة عن حاشية عبد الرحمن الثالث) ؛ والآخر لاتينى أعده الوجيه الكنسى "ريثيموندو" (Recemundo) (إلياس ربيع بن زيد ، وهو الذى كلفه عبد الرحمن الثالث بمهام دبلوماسية فى كل من ألمانيا وبيزنطة وعُين أسقفاً على "إلبيرة" ، والنسخة العربية من "التقويم القرطبى" لا تتطابق كلية مع النسخة اللاتينية ، لأن الثانية بها بعض الأخبار الزائدة ، التى يتعلق معظمها بمجتمع المستعربين فى العاصمة وبأديرتهم وبيعتهم ، لكن الأهمية الرئيسية لهذه الوثيقة - التى سنعتمد عليها فى هذا الفصل عند حديثنا عن الأنشطة الزراعية فى إسبانيا الإسلامية - تكمن قبل كل شئ فيما تتضمنه من بيانات عن الحياة فى الريف وعن الأعمال الخاصة بكل فصل من فصول السنة ، وغالباً ما تأتى هذه البيانات فى نهاية آخر يوم من الشهر حسب التقويم الشمسى .

ومنذ القرن الحادى عشر على الأقل ، يظهر ميل الأندلسيين للعمل من خلال التطور الذى شهدته شبه الجزيرة ، كما يشهد بذلك نوع خاص من الأدب الفنى : سواء

ما يتعلق منه بالمؤلفات الزراعية^(١٧) (والأقدم منها - خاصة مؤلف "الطجنارى" الغرناطى - يعطى الانطباع بأنه استمرار لتقليد قديم متبع ، ولذا فهو يستحق الدراسة المتأنية) ، أو ما يتعلق بمؤلفات علم النبات^(١٨) التى تقدم لنا قائمة عريضة بالزهور البرية أو المزروعة فى أراضى الأندلس وبأسمائها العربية والرومانشية الدقيقة^(١٩) .

وبالرغم من هذه الإطلالة السريعة إلا أننا لا يمكن أن نمر مرور الكرام على عدد من المؤلفات الفقهية أو الشرعية لما لها من فضل لا ينكر على التاريخ الاقتصادى لإسبانيا الإسلامية ، أشرنا من قبل إلى مجموعة "النوازل" وبعضها يعتبر - خاصة ما أعده "أبو الأصبغ عيسى بن سهل" فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر - بمثابة تعويض عن النقص الناجم عن التسجيل والحفظ (الأرشيف) لأنها تورد القضايا التى رفعتها السلطة المركزية إلى "مدرسة الفقهاء" ؛ هذا بالإضافة إلى عدد لا بأس به من الفتاوى التى تمدنا ببيانات هامة عن الحياة الاجتماعية ، والشئ نفسه ينسحب على عدد من صيغ المحررات والعقود ، خاصة ما يتعلق منها بالتكنولوجيا الاقتصادية ، وقد قام بإعداد مجموعتين منها - طبقاً للصيغ المتعارف عليها فى القرن العاشر - كل من "أبو محمد القيسى" و "ابن القاسم الجزيرى" ، وكلا العاملين يستحق وقفة متأنية^(٢٠) ، وسندرك فى الصفحات التالية مدى أهميتها من استمرارية اعتمادنا عليهما .

أما مؤلفات "الحسبة" المدونة فى إسبانيا بواسطة القضاة الذين تولوا هذه الوظيفة (المحتسبون) لكى يرجع إليها من يأتى بعدهم أو زملائهم فى المدن الأخرى ، فتشكل هى الأخرى مصدراً أساسياً لمعارفنا عن التاريخ الاقتصادى للأندلس ، وأقدم مؤلفين وصل إلينا من هذا النوع يخصان الإشبيلية "ابن عبدون" و "السقطى" المالى (نسبة إلى مالقة) وكلاهما متأخر عن عصر الخلافة بل عن عصر الطوائف كذلك . ومن الواضح أن هدف العاملين يكمن فى اقتراح بعض الإصلاحات فى العلاقات الاجتماعية والتعاقدات ، ومحاولة منع الغش فى التجارة وتلافى العديد من صور الاستغلال المتروك الحبل فيها على الغارب ، وبالرغم مما يتضمنه العمالان من اتهامات وتحذيرات لأصحاب النوايا السيئة إلا أنهما يسلطان الضوء - من منظور عام ينسحب أيضاً على القرن الحادى عشر بل على القرن العاشر كذلك - على المشهد اليومى لحياة الشارع بأسواقه العامرة التى يتدافع فيها الزبائن بالمناكب .

٢ - أدوات الحياة الاقتصادية^(٢١)

الموازين والمقاييس والمكاييل :

لن نتمكن - بالاعتماد على الوثائق المعاصرة وحدها - تقديم لوحة متكاملة لنظام الوزن والكيل والقياس في عصر الخلافة القرطبية ، بل لا بد من الأخذ في الحسبان المنظور العام للحياة الاقتصادية ، وبإحدى ذى بدء نقول إن الأندلس لم تحدث تجديداً في نظم الوزن والكيل ولا في النظام النقدي ، بل احترمت في القرن العاشر - وما سبقه وما لحقه أيضاً من قرون - النظم التقليدية المتبعة في بقية العالم الإسلامي ، وتبنت على أرض الواقع - مثله أيضاً - وحدات القياس والوزن المتعارف عليها في القرن الهجري الأول ، ما حدث فيها لم يزد عن التنويع والتوسع نتيجة لتغير الزمان والمكان ولطبيعة الأشياء المستهدفة بالوزن والقياس ، ولهذا السبب ذاته قد تفتقر معلوماتنا لبعض الدقة . بالرغم من المصطلحات التي تغص بها النصوص ، إلا أنها لا يمكن أن تعوض النقص الواضح في وحدات القياس والوزن الأصلية الخاصة بتلك الفترة لأنها الوحيدة التي نستطيع من خلالها عمل موازنات وتقديرات رقمية لإقليم بعينه في فترة معينة ، ومن ثم علينا أن نقنع بإمكانية تعداد الوحدات الأساسية للوزن والاستيعاب والطول والمساحة (التي أثبتت الدلائل وجودها في عصر الخلافة والقرن التالي له حتى الاحتلال المرابطي) ومحاولة مضاهاتها - ولو مؤقتاً - بنظم الوزن والكيل المستخدمة حالياً في أوروبا .

كان "الرطل" هو وحدة الوزن الأكثر شيوعاً ، سواء داخل إسبانيا أو خارجها ، ويحتوى على ١٦ "أوقية" ، وبما أن القيمة التقديرية العادية للأوقية تساوى ٣١,٤٨ جراماً ، فقد كان "الرطل" يساوى في البداية ٥٠٤ جرام ، ونسبة ١٦ إلى ١ (الرطل = ١٦ أوقية) التي يتحدث عنها "السقطي" في مألقة في بداية القرن الثاني عشر^(٢٢) لم تكن ثابتة بالضرورة ، وهكذا نجد - على سبيل المثال - أن جغرافيا مثل "البكرى"^(٢٣) عندما تحدث عن أربعة موانئ مغربية خاضعة بشدة للتأثيرات الأندلسية (ناقور ، ومليلة ، و"أرشجول" ، و"تنس") أشار إلى أن الرطل المستخدم فيها على أيامه يساوى ٢٢ أوقية ، كما أن القيمة التقديرية للرطل ذاته كانت تختلف تبعاً لنوعية البضاعة الموزونة : فالرطل في الجزيرة (رطل جزائري) كان يساوى ٦٤ أوقية

أى أربعة أمثال الرطل العادى^(٢٤) ، والمائة رطل يشكلون "قنطاراً" ، وعلى هذا فربيع القنطار (رُبْع) يساوى ٢٥ رطلاً ، وقد كانت البضائع العادية - خاصة المنتجات الغذائية الجامدة والصلبة - توزن بالرطل أو "الرُبْع" ، باستثناء الغلال الخاضعة للكيل دائماً ، وعملية الوزن كانت تتم بالميزان القبانى (الوارد وصفه بالتفصيل فى مؤلفات الحسبة) وبواسطة "سَنَجَة" من الحجر أو الحديد أو الزجاج كانت تحمل فى البداية علامة (دمغة) القاضى المكلف بشرطة السوق ومنع الغش والتدليس ، أما وزن المعادن النفيسة والعملات الذهبية والفضية ، علاوة على بعض المواد النادرة مثل الأفاويه ، فكان يتم بوحدات متفرعة عن الأوقية مثل "المثقال" (الذى كان أكثر استخداماً فى الذهب) و "الدرهم" بالنسبة للفضة ، ودرهم الوزن - وعلينا ألا نخلط بينه وبين درهم النقد - يساوى ١٤٨ ، ٣ جرامات ، أى عُشر أوقية ، وهذه النسبة يمكن أن تتغير (كما هو الحال بالنسبة للأوقية ذاتها) ، والسقطى من جهته يخبرنا فى القرن الثانى عشر أن الأوقية تساوى ٢٠ درهماً فضياً^(٢٥) ، أما "المثقال" فوزنه القانونى يعادل ٤ , ٧٢ جرامات ، أى أنه كان يحتاج فى البداية إلى $\frac{2}{3}$ مثقال ليصل إلى أوقية ، لكن مسمى وحدة الوزن هذه (مثقال) كان يستخدم أيضاً - كما سنرى بعد قليل - للإشارة إلى وحدة نقدية تقل قيمتها قليلاً عن الدينار ، أما الموزونات التى تتطلب كثيراً من الدقة فنجد لها كذلك تفرعات أقل من "المثقال" و "الدرهم" مثل "القيراط" (وهو يساوى نصف درهم) و "الجرام" (حَبَّة) .

أما بالنسبة لمكاييل السَّعة فكانت على نوعين تمشياً مع طبيعة المادة الخاضعة للكيل : جامدة أو سائلة ، كانت وحدة كيل النوع الأول (مثل الغلال والدقيق والمنتجات الجافة الأخرى) قريبة الشبه من "المد" القديم أو "المد النبوى" المعروف الحجم منذ بداية الإسلام ، وكذلك أربعة أضعافه المسمى بـ "الصَّاع" الذى يتم به تحديد كمية الحبوب التى يتصدق بها المسلم نتيجة إفطاره أثناء شهر الصيام ، و "المد النبوى" يوازى فى أيامنا ٠ , ٧٥ من اللتر ، بينما يسع الصاع ٢ لترات^(٢٦) ، لكن "المد" المستخدم فى الغرب الإسلامى - طبقاً للمؤلفات الشائعة - كان حجمه أكبر بكثير ، والبكرى - على سبيل المثال - يقدر مدّ "أرثيلاً" بعشرين مدّاً نبوياً ، ومدّ "مليلة" بخمسة وعشرين^(٢٧) ، أما المد القرطبى فى نهاية القرن العاشر فكان يساوى - طبقاً للنويرى ٢ , ٥ "قفيز" من المستخدم فى القيروان^(٢٨) .

والمكيال الأخير بجزئياته هو الذى كان سائداً فى عصر الخلافة القرطبية لو أخذنا بكلام المقدسى (٢٩) الذى يخبرنا أن "القفيز" المستخدم فى الأندلس يعادل ٦٠ رطلاً وزناً ، وأن ريعه المسمى "فنيقة" (faniqa) يساوى ١٨ رطلاً ، لابد أن الأمر يتعلق بنسبة الحجم إلى الوزن فى مادة معينة (القمح ، دون شك) لأن ربع "القفيز" يساوى - طبقاً لكلام المقدسى السابق - ١٥ رطلاً وليس ١٨ رطلاً كما ذُكر ، كما يحدث خلط بين "الفنيقة" وجزء "القفيز" المستخدم فى إسبانيا ، ونعنى به "القدح" الذى يعادل - طبقاً للسقطى (٣٠) - ثلاثين رطلاً بالنسبة للدقيق والذرة المكسبة ، ولا بد أن سعة القدح قد تقلصت بعد ذلك لأن البكرى عند حديثه عن "أرثيلاً" يقول (٣١) إن مدّ هذه المدينة (الذى يساوى ٢٠ مدّاً نبوياً) يعادل ١٥ رطلاً وزناً ، وهو نفس وزن "الفنيقة" القرطبية ، وبعد انتقال إشبيلية لأيدى المرابطين نجد أن "القدح" فيها كان يساوى - اعتماداً على ما أورده ابن عبدون (٣٢) - الربع وزناً ، وللتخفيف من آثار عدم انضباط نظام الكيل فقد كانت تُقبل أحياناً ، بدلاً من "الكيل بالمسوح" (٣٣) ، زيادة فوق حافة المكيال على سبيل التعويض .

أما السوائل ، وفى مقدمتها الزيت ، فكانت لها مكايل من الفخار عليها (دمغة) "صاحب السوق" ، وفى تجارة التجزئة كان يستخدم "الثمن" الذى يعادل وزنه زيتاً ٢,٢٥ رطل (٣٤) ، أى أكثر قليلاً من ١١٢٥ جراماً ، ولا يزيد حجمه عن ١٢٢,٢٨ سنتيلتر نظراً لكثافته ، ومضاعفات "الثمن" تمثلها "القلّة" التى تسع ١٢ "ثمناً" ، أى ٢٧ رطلاً ، وفى مدينة "أرثيلاً" - طبقاً للبكرى (٣٥) - فإن "القليلة" كانت تعادل ١١٢ أوقية ، أى ٧ أرطال ، أما الكميات الكبيرة فى تجارة الجملة فكانت لها أنية كبيرة تسمى "خابية" ومحتواها يقترب من ٢٠ ربيعاً ، كما كانت هناك "أثمان" خاصة للعسل والخل واللبن : و "ثمن" اللبن يزيد بمقدار النصف عن "أثمان" السوائل الأخرى (٣٦) .

كانت وحدة قياس الطول فى الأندلس - مثل بقية العالم الإسلامى - هى "الذراع" القديم ، وطول "الذراع" فى الأندلس - الأطول قليلاً من الذراع العراقية المعروفة بالأمونية (نسبة إلى المأمون) - يعادل بالضبط طول الذراع الموجود على مقياس النيل بجزيرة الروضة بالقاهرة ، وقد أحضر نسخة من هذا المقياس إلى قرطبة ، فى عهد عبد الرحمن الثالث ، رجل يدعى "محمد بن فرج الرشاش" وقام برسمه على إحدى

أعمدة مسجدها الجامع ، ومنذ ذلك الحين ظل هذا "الذراع" (المسمى بالرشاشى) يستخدم فى إسبانيا حتى نهاية عصر الخلافة على أقل تقدير ، وقد اعتمد كل من البكرى والإدريسى على هذا الذراع فى تقدير أبعاد الآثار التى تعرضا لها بالوصف ، وعلى سبيل المثال "فنار" الإسكندرية وجامع قرطبة ^(٢٧) ، وجزئيات الذراع الأندلسى تتمثل فى "الشبر" (٢٣٧ ملليمتر) ، و "القبضة" (٧٩ ملليمتر) ، وبما أن الذراع الرشاشى يحتوى على ٣ أشبار فإن طوله يعادل ٠,٧١ متر ، وبالإضافة إلى الذراع الرشاشى أثبتت الوثائق وجود نوعين آخرين فى الأندلس : أحدهما عادى يساوى شبرين (أى ٠,٤٧ متر) ، والآخر كبير (ذراع كبير) يساوى ٣,٥ أشبار (أى ١,٠٧ متر) ، أما المقياس المضاعف للذراع - الذى يستخدم فى مصطلحات البناء - فيسمى "قالة" (Qala) وهو يساوى ٧ أذرع ، وفيما يخص "اللوح" (الذى يطلق على القالب العلوى من الجدار) فلا نعتقد أنه كان يزيد عن الذراع ^(٢٨) ، كما توجد وحدة قياس مضاعفة للذراع تسمى "القصبة" وهى تعادل أربعة أذرع .

أما بالنسبة لقياس المسافات إسبانيا الإسلامية فقد كان يستخدم (علاوة على "الرحلة" غير الدقيقة بالمرّة) "الميل" ويمكن تحديده بـ ١٤٢٠ متراً لأنه يعادل (طبقاً لما ذكره أحد المؤرخين عن الخندق الذى حُفر حول قرطبة أيام الحرب الأهلية السابقة لانهايار الخلافة) ٢٠٠٠ ذراع عادى (والذراع العادى يساوى كما نعرف ٠,٤٧ متر ^(٢٩)) كما كانت المسافات البحرية تقاس أيضاً بالميل ^(٤٠) .

لم تكن توجد - على ما يبدو - مقاييس خاصة بالمساحة : وعلى سبيل المثال فقد كان يستخدم الذراع المربع فى البناء ، وبالنسبة للمقاييس الزراعية كان يعرف "المرجع" وهو يساوى ٢٥ ذراعاً مربعاً ، و "الزوج" (يساوى ألف ذراع مربع) وسمى هكذا لأن هذه المساحة هى ما يمكن حرثه فى فصل الخريف بمحراث يجره "زوج" من البهائم .

وقبل أن نختم حديثنا عن المكايل والموازين والمقاييس (التي ظلت كما هى فى الأندلس حتى القرن الخامس عشر بالرغم من تعرض معاييرها لبعض التعديلات الطفيفة) تجدر الإشارة إلى أن معظم مصطلحاتها قد انتقل فى العصر الوسيط لإسبانيا المسيحية وأنه طغى على ما كان بها من مصطلحات ، وما زالت اللغة الإسبانية تحمل حتى يومنا هذا كثيراً من هذه المصطلحات التى نذكر منها أربعة فقط على سبيل

المثال : رُبْعٌ أو رُبْعَةٌ (arroba) ، "فنيقة" (fanega) ، "قفيز" (Cahiz) ، "مَرَجَع" (marjal) .

المسكوكات النقدية :

على خلاف الإبهام المسيطر على معايير الوزن والكيل والقياس ، لدينا - بفضل علم المسكوكات - معلومات دقيقة عن النقد المستخدم في الأندلس خلال القرن العاشر ، وبالفعل ، أجريت - منذ نهاية القرن التاسع عشر - كثير من الدراسات الإسبانية عن النقد المستخدم في إسبانيا خلال العصر الإسلامي ^(٤١) ؛ وفي الولايات المتحدة الأمريكية صدرت مؤخراً دراسة مستفيضة عن "المسكوكات" في عصر الإمارة والخلافة الأموية قتلت الموضوع بحثاً ^(٤٢) وإليها نحيل كل من يرغب التوسع في المعلومات الموجزة التي نقدمها هنا .

عَرَجْنَا في الفصل الأول من هذا المجلد على التاريخ النقدي للأندلس حتى بداية الخلافة الأموية ، وأشرنا إلى أن احتكار الدولة لسك الذهب والفضة خلال عهد عبد الرحمن الثالث ومن جاؤا بعده كان يشكل أحد الروافد الهامة للخزانة العامة ، وفي الفترة من منتصف القرن الثامن حتى عصر الخلافة اقتصر السك في الأندلس على الدراهم أو القطع الفضية ، وإذا نحينا جانباً بضع عشرات من الدنانير التي يرجع تاريخها لعهد حكام الأندلس الأول ^(٤٣) يمكن القول إن العملات الذهبية الأولى التي سَكَّت في قرطبة كانت بأمر من الناصر وتحمل اسمه ، ومن هذه الدنانير - التي يرجع تاريخ أقدمها لعام ٣١٧ هـ (٩٢٩م) وينتهي أحدثها بسنة ٤٠٣ هـ (١٠١٣م) (زمن سليمان المستعين) - يوجد أكثر من خمسمائة نموذج متعرف عليها ومثبتة في قوائم .

لكن الدراهم المسكوكة في الأندلس - سواء في عصر الإمارة أو الخلافة - وعُثِرَ عليها يزيد عددها بكثير ، إذ يتجاوز مجموعها ١٦٠٠٠ درهماً ، نجد منها (بالنسبة لعصر الإمارة) ما يرجع تاريخه لجميع السنوات المحصورة بين ١٤٦ هـ (٧٦٣م) و ٢٧٩ هـ (٨٩٢م) ؛ ثم تتباعد تواريخها في السنوات التالية حتى تتلاشى نهائياً بعد عام ٣١٥ هـ (٩٢٧م) : أي في عهد الأمير عبد الله وبداية عهد عبد الرحمن الثالث ، ولما تولى عبد الرحمن الثالث الحكم وبادر بتأسيس الخلافة الأموية -

فى مواجهة الفاطمية - اهتم بوضع لقبه المهيّب على العملات المسكوكة فى مملكته ، فلم تعد هناك حواجز معنوية من أى نوع لكى يتخذ هذا القرار ، ولم يعد يناسبه بعد إعلان الخلافة الاكتفاء - مثل أسلافه - بإصدار عملات لا تحمل لهم أية إشارة .

ومنذ ذلك الحين و "دار السكة" تقوم بسك الدنانير والعملات الفضية ، ومن عام ٢١٦ هـ (٩٢٨م) ودرهم عصر الخلافة تشكل سلسلة تاريخية متصلة وتغطى ، عاماً بعد آخر ، بقية القرن الرابع الهجرى حتى ٤٠٦ هـ (١٠١٦م) على الأقل ، وعندما نقل الناصر مقر إقامته إلى مدينة الزهراء أنشأ فيها (علاوة على أجهزة الخدمات المركزية الأخرى) مصلحة للنقد عام ٢٢٦ هـ (٩٤٨م) - طبقاً لما ذكره أحد المؤرخين (٤٤) - ، وبالفعل فمنذ هذا التاريخ وحتى ٣٦٤ هـ (٩٧٥م) تحمل الدراهم والدنانير الأندلسية المحفوظة إلى الآن - باستثناء حالات نادرة - على أحد وجهيها ما يفيد بسكه فى مدينة الزهراء ، وخارج نطاق الفترة السابقة ، يبدو أن جميع الإصدارات كانت متمركزة فى العاصمة بالرغم من عدم ظهور اسم قرطبة - باستثناء حالة واحدة لم يتوصل فيها لرأى قاطع (٤٥) - على النقود المسكوكة فى عصر الإمارة والتي كانت تحمل فقط ما يفيد بسكها فى الأندلس ، وقد حملت بعض الدنانير التى يرجع تاريخها للفترة من ٢٧٨ إلى ٣٨٤ هـ (٩٨٨-٩٩٥م) (أى فى عهد هشام الثانى) ما يفيد بسكها فى "سيشيلماسا" (٤٦) . أما بالنسبة للدراهم التى عثر عليها وتخص الفترة من ٣٦٧ هـ إلى نهاية القرن الرابع الهجرى ، فبعضها تم سكها فى مدينة "فاس" (٤٧) ، بينما يحمل البعض الآخر - الذى يتراوح تاريخه بين ٣٧٢ هـ و ٣٩٧ هـ (٩٨٢ - ١٠٠٧م) - اسم مدينة "ناقور" الصغيرة الواقعة على الساحل الشمالى للمغرب (٤٨) .

إلى هذه البيانات الإحصائية يمكن إضافة ما يتعلق بوزن وحجم القطع النقدية ، وكذلك الطريقة المستخدمة فى الكتابة والنقش عليها ، وبصفة عامة فقد كانت القطع الذهبية أصغر حجماً من الفضية وأسمك منها بقليل ، ولو نحينا جانباً الكسور النحاسية (مثل "الفلس" الذى يعادل - طبقاً لابن الفقيه (٤٩) - واحداً على ستين من الدرهم) لعدم العثور إلا على أعداد قليلة منها مؤرخة (٥٠) ، يتضح عدم وجود معيار ثابت بين الدنانير والدراهم بالنسبة للحجم والوزن ، فالقطر المتوسط للدرهم فى عصر الخلافة يتراوح - تبعاً لعهد صاحبه - بين ٢٤ و ٢٦ ملليمتر ؛ والوزن المتوسط

الذى كان ٢,٨٣ جرام فى عهد عبد الرحمن الثالث ، و ٢,٧٧ جرام فى عهد الحكم الثانى وصل إلى ٣,١١ جرام فى عهد هشام الثانى ومن جاؤا بعده ، وفيما يخص معيار السبك فإن معلوماتنا عن متوسط نسبة المعدن الخالص المستخدم هزيلة جداً ، ولا يمكننا - بالتالى - إثباتها كقاعدة ، لكننا نستطيع الجزم - وعلى خلاف ما ذهب إليه المؤرخون - بأن تلك النسبة لم تكن عالية لا فى الذهب ولا فى الفضة أيضاً (٥١) .

وفيما يخص القطع الذهبية فالمسألة أشد تعقيداً ذلك لأننا أمام قطع ذات أوزان وأحجام متفاوتة وجميعها يحمل نقشاً يفيد بأنه "دينار" دون أية إشارة أو علامة تبين أنه كسر أو تضعيف له ، وغياب هذه العلامة لم يكن عائناً فى الاستخدام اليومي للاعتياد على التمييز من أول وهلة بين الدينارات الصحيحة وبين أنصاف أو أثلاث أو أرباع الدينار ؛ وربما كانت موجودة أيضاً تضعيفات للدينار يستخدمها العاهل - مثلاً - فى هداياه لرجال البلاط فى مناسبات معينة . على أى حال ، فنحن نعرف قطعاً ذهبية يبلغ متوسط قطرها ٢٤ ملليمتر وأخرى تبلغ ١٢ ملليمتر (أى النصف) ، وفيما يخص الوزن - ونحن فى هذا نعتمد فقط على إصدارات مدينة الزهراء - فإنه كان يتراوح فى الدينار بين ٣,٤٣ و ٤,٤٠ جرام ، ولا يزيد فى النصف عن ١,٢٦ جرام ؛ ومع هذا توجد دينارات يزن الواحد منها ٤,٨٠ جرام (٥٢) ، سيؤول بنا الأمر إلى التخبط بين هذه الأرقام إذا لم ندرك أن الهدف الأساسى من السك الرسمى للعملة يكمن فى تجنب المستخدم العملات المغشوشة ، وفى حث المتعامل على إجراء الوزن المسبق إذا كان الدفع سيتم بالمعدن النفيس .

كانت الدراهم والدنانير الأندلسية - تحمل مثل نظائرها فى بقية العالم الإسلامى خلال العصر الوسيط - نقشين على كل وجه من وجهيهما ، يحتل أحد النقشين الوسط ويأتى النقش الثانى دائرياً على الحافة . يتألف النقش الأوسط على وجه العملة من ثلاثة أسطر تقول : "لا إله إلا الله ، وحده ، لا شريك له" ؛ بينما يشير النقش الأوسط على ظهرها ، وفى ثلاثة أسطر أيضاً (وأحياناً أربعة فى حالات نادرة) إلى وصف العاهل الحاكم بالإمام ، ثم اسمه ، ثم صفته كأمر للمؤمنين ، وأخيراً لقبه التشريفى ، ونذكر على سبيل المثال ما ورد بالنسبة لخليفة قرطبة الثانى : "الإمام/الحكم/أمير المؤمنين/المستنصر بالله" ، وفوق أو تحت هذا النقش الأوسط

المزدوج يمكن أن يظهر اسم شخص ما دون ذكر صفته : إذا جاء على وجه العملة فمن المعتاد أن يكون لرئيس مصلحة النقد ؛ وإذا جاء على ظهر العملة يكون - من بداية عهد الحكم الثانى - لواحد من أصحاب المقام الرفيع : فى البداية كان جعفر الصقلبى ، ثم خلفه ونظيره "جعفر المصحفى" ^(٥٣) ؛ وبعد ذلك - بين العامريين - ظهر المنصور فى البداية على إصدارات هشام الثانى (من خلال الإشارة المقتضبة "عامر") ^(٥٤) ، ثم ابنه عبد الملك ^(٥٥) ؛ وفى نهاية عصر الخلافة ظهر اسم ولى العهد ^(٥٦) ، وفى الدنانير كانت علامة " الشرطة " (-) أو الدائرة تفصل بين النقش الأوسط (سواء على الوجه أو الظهر) وبين النقش الموجود على الحافة ؛ أما الدراهم فلم يظهر فيها الخط الفاصل إلا منذ النصف الثانى من القرن العاشر وكان على الظهر فقط ، وكان النقش على وجه العملة يشير بعد البسملة (بسم الله) إلى مكان وتاريخ السك : "هذا الدينار (الدراهم) سَكُ فى الأندلس (فى مدينة الزهراء) عام" ، أما النقش الدائرى الموجود على حافة الظهر فكان يحمل - دون استثناء - الآية القرآنية رقم ٩ من السورة رقم ٦١ ^(٥) .

هذه باختصار البيانات التى أمدنا بها علم المسكوكات عن النقد فى عصر الخلافة القرطبية ؛ لكن هذه البيانات لا تكفى وحدها لإلقاء الضوء على الجانب العملى من استخدام تلك النقود فى الصفقات العادية ، وفى هذه النقطة بالذات تواجهنا مشاكل عدة لا تقل عما واجهناه فى نظم الكيل والوزن والقياس والأندلسية .

والمشكلة الأولى تكمن فى استحالة تحديد قيمة الفضة المسكوكة قياساً إلى الذهب المسكوك ، لأننا لا يمكن أن نُعول بأى حال على النسبة النظرية التى تحدد قيمة الدراهم ب $\frac{1}{7}$ دينار ، والإشارة الوحيدة التى لدينا عن عصر الخلافة القرطبية لم يثبت سلامتها لأن مصدرها أقوال متضاربة لابن حوقل : فبينما يعلن - فى الفقرة المشار إليها من قبل - أن الدراهم الأندلسية يساوى $\frac{1}{17}$ من الدينار ، نجده يقر فى موضع آخر بأن "دينار الذهب فى الدول الإسلامية خلال العصر الوسيط يساوى ما بين ١٠ و ١٢ درهماً" ^(٥٧) ، ليس أمامنا - بالتالى - خيار سوى البحث والتنقيب فى النصوص

(*) السورة القرآنية المقصودة هى «سورة الصف» ، والآية التاسعة منها هى قوله تعالى : "هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون" ، صدق الله العظيم (المترجم) .

العربية التى تتناول وسيلة الدفع فى عصر الخلافة القرطبية سواء كانت بالذهب أو الفضة ، ومحاولة استخلاص بعض النتائج منها ، وبعد فحص تلك المصادر ومواجهتها ببعضها اتضح أن الدفع كان يتم بالذهب أو الفضة على حدة ، وليس بهما معاً ؛ وهذا يشير إلى الحرص الدائم على الوزن الفعلى للمعدن المسكوك أو تقويمه - على الأقل - طبقاً للنظام المتبع (٥٨) .

كما يلاحظ أيضاً أن الدفع بالذهب خلال القرن العاشر والحادى عشر لم يكن يحدث إلا فى حالات قليلة ؛ وهذا أمر طبيعى إذا أخذنا فى الاعتبار أن دوران العملات الذهبية فى الأسواق الأندلسية كان أقل بكثير من العملات الفضية .

أما بالنسبة للصفقات الأقل أهمية فكانت الوحدة المستخدمة فيها هى الدرهم المصطنع أو ما يسمى "بالدرهم القاسمى" ذى القيمة التقديرية الثابتة ؛ ولا بد أن تسميته جاءت نسبة إلى شخص يدعى "قاسم" لا نعرف عنه شيئاً (٥٩) ، على أى حال ، فقد كان استخدام هذا الدرهم شائعاً فى عصر الخلافة لأنه ظهر فى وثائق مملكة "ليون" (Kazimí, Cathmí) عند حديثها عن الدراهم القرطبية المستخدمة فى إسبانيا المسيحية خلال الفترة نفسها (٦٠) ، ومن جهة أخرى ، فقد أورد ابن عذارى فى مدونته قيمة النفقات التى صرفها الناصر على بناء منارة مسجد قرطبة الجامع وعلى إعمار "مدينة الزهراء" بالدراهم القاسمية (٦١) .

وبالإضافة إلى "الدرهم القاسمى" توجد وحدة أخرى كانت تستخدم فى دفع المبالغ الكبيرة وهى : "دينار دراهم" (وستظهر هذه الوحدة فى النظام النقدى للغرب الإسلامى ثانية خلال عصر متأخر وستطلق عليها النصوص الأوربية كلمة "بيزنطى" (٦٢) ، وطبقاً لإشارة يعتمد عليها (٦٣) فإن "دينار الدراهم" هذا كان يساوى فى الأندلس ١٢ درهماً ، أى ١٢ درهماً قاسمياً على الأرجح ، لكن جرت العادة أن يأتى مصطلح "دينار الدراهم" هذا مصحوباً فى كتب المحررات والعقود بنعوت ملفزة مثل "أربعينى" أو "نخل" أو - فى معظم الأحيان - بتعبير يجمع بينهما "بدخل أربعين" ، والتعبير الأخير (الذى حير - وبحق - العديد من المستشرقين) ظهر عام ٩١٥ م (٣٠٣هـ) فى فقرة من مدونة "عرب بن سعيد" (٦٤) تتحدث عن الثمن الذى بلغه فى إحدى سنوات الجفاف "قفيز" القمح فى قرطبة ، ولحسن الحظ فقد ورد شرح التعبير فى كتاب

صور المحررات والعقود لمحمد القيسى وفى المؤلف النقدى الذى وضعه فى فاس خلال القرن الرابع عشر رجل يدعى "المديونى" ^(٦٥) ، ومما يقوله المؤلفان يتضح أنه لكى يتم تقدير مبلغ من الدينارات التى يحتوى كل منها على اثنى عشر درهماً ، يجب حذف قيمة الدرهم المسمى "دخل" عند التحويل إلى الدرهم القانونى الموزون (درهم كيل) ، وبهذا الشكل ينخفض "دينار الدراهم" إلى $\frac{5}{7}$ ؛ وفى كلمات أخرى نقول أنه بإضافة ٤٠٪ من قيمة "درهم الدخل" إليه (إدخال أربعين) نحصل على "درهم كيل" .

وفىما يخص الدفع بالذهب ، فمن المحتمل أن الدينانير الأصلية (الملكية) ، من النوع المسمى "بالجعفرى" ^(٦٦) (قد تكون التسمية نسبة إلى أحد حاجبى الحكم الثانى) أو "السيشيلماسى" (Sichilmassí) (المسكوك فى "سيشيلماسا") ^(٦٧) ، كانت متحررة القيمة فى النصف الثانى من القرن العاشر ، وفى أغلب الأحيان كان الدفع يتم أيضاً بنقود عُدية كالمثقال الذى تبلغ قيمته $\frac{15}{16}$ من الدينار ، وفى القرن العاشر والحادى عشر يرد ذكر المثقال الأندلسى مصحوباً بالنعته (قرمونى) ^(٦٨) ؛ كما يوجد أيضاً - وإن كان نادراً - تعبير "مثقال محمدى" ، لكننا لانستطيع حالياً تقديم تفسير مقنع لآى من النعتين .

٣ - الزراعة (١٩)

الملاحم الزراعية للأندلس :

لا ننوى تحت هذا العنوان تقديم لمحة - ولو سريعة - عن الجغرافيا الطبيعية لإسبانيا ولا عن تضاريسها المعقدة ولا عن وعورة مرتفعاتها التى تجعل منها واحدة من أشد بلاد الدنيا ارتفاعاً وتعرضاً للمخاطر ، فى هذا المرتفع المربع الأبعاد الذى لا تربطه ببقية أوربا سوى بوابة البرانس ويكاد يلامس جنوبه القارة الإفريقية وتشرف منه واجهتان بحريتان طويلتان على الأطلنطى والمتوسط تتداخل آلاف التأثيرات فى تحديد مناخه ومواسم أمطاره ومجارى أنهاره ؛ وهذا ما يضيف على الكتلة الإيبيرية طابعها المتنوع الخاص ، من درجات حرارة شديدة التفاوت ، ومناظر طبيعية عنيفة الاختلاف ، وأقاليم طبيعية جلية التناقض : من العرى الصارم للهضبة إلى وفرة أراضي السقي وكثافة الجنان فى الوديان والمناطق الساحلية ، هكذا فجأة دون تدرج فى الرؤى ، فإلى جوار إسبانيا الرطبة ، الخاضعة مباشرة لمظاهر حلم الأطلنطى وجوده (والتي لا تغطى سوى ثلث المساحة الإجمالية لشبه الجزيرة) ، تمتد إسبانيا جافة لا تقوى فيها ، الأمطار القليلة العاجزة - لتبخرها - على نفع غلة الأرض العطشى التى ياكلها التشقق (٧٠) .

باستثناء غرب البرتغال الحالى ومنطقة الثغر الأدنى ، يمكننا القول إن معظم الجزء الخاضع من شبه الجزيرة للسيطرة الإسلامية أثناء حكم الأمويين كان يقع فى إسبانيا الجافة بملاحها الطبيعية شديدة التنوع منذ القدم وبالتناقض المائل فيها من إقليم لآخر ، والمجهود البشرى وحده هو الذى استطاع على نحو ما - كما يحدث الآن - التخفيف من غلظتها الطبيعية وترويض قحولة أراضيها ، ومع هذا ، فإلى جوار الأراضي الجرد للهضبة ، توجد فى جنوب "أندولوثيا" وفى الشرق ، على طول وديان بعض الأنهار - مثل الوادى الكبير و "الشنيل" خاصة - الغوطات والبساتين وأراضى السقي الملائمة للزراعات الكثيفة .

لكن التنوع الشديد للأرض الأندلسية وافتقارها إلى التجانس (الذى يجعلها غريبة عن جغرافية أوربا وقريبة الشبه من بلاد بربر شمال إفريقيا) لم يصدم الغزاة المسلمين أو يقلل فى أعينهم قيمة ما أقدموا عليه من فتح ، فلم تكن سنوات الجفاف جديدة عليهم

وربما أملت عليهم قناعتهم أن الهضاب والمناطق القاحلة للأراضي المرتفعة والكتل الجبلية الحادة تعتبر المقابل الطبيعي أو الحتمى للمناطق المباركة التى فتحتها أسلافهم من قبل وتمكنوا من استغلالها وتحويلها إلى جنان فيحاء ، ومع هذا لا نجد بين شعراء إسبانيا الإسلامية الموهوبين واحداً تغنى بالقمم الخربة ولا بالمساحات الشاسعة التى تعصف بها الرياح ، بل إنهم اتجهوا - ومعهم الجغرافيون - صوب إسبانيا "النافعة" وتفننوا فى وصفها والحفاوة بها .

لا نجد - بالفعل - مؤرخاً أو جغرافياً ، من المشرق أو المغرب ، وصف الأندلس ولو فى بضعة أسطر وسلم من الثناء على غنى أراضيها ومكنون ثرواتها ، وما هو مؤلف أندلسى لا يتردد - فى إحدى فقراته ذائعة الصيت - فى مقارنة وطنه بأوطان حبتها الطبيعة بخيرها العميم مثل سوريا واليمن وبلاد فارس والهند والصين (٧١) ، وقد سبق العرب فى الإشادة بإسبانيا وتمجيدها الكثيرون مثل "بوليبىو" و "إسترابون" و "بلينيو" ، وأخيراً إيسيدورو "الإشبيلى" ، وإذا كان العرب قد ردوا رجوع هذا الثناء فى القرون التالية فقد كان ذلك لإحساسهم بأنهم لم يعودوا غرباء عنها ، ولأنها - فى نهاية المطاف - تعتبر من أفضل البلدان التى شهدت فيها حضارتهم تطوراً ملموساً بالرغم من طبيعتها غير المتجانسة ، ومن باب الإنصاف نقول إنه بدون الخبرة الزراعية للفلاحين المولدين والمستعربين والبربر لتحولت الأندلس إلى أرض جرداء تقريباً ، ولما أصبحت مثل غوطة دمشق ، أو وداى النيل ، أو وديان دجلة والفرات .

والمؤلفات الزراعية العربية هى وحدها التى أبرزت النوعيات المختلفة للأرض الأندلسية ، وألقت الضوء على الجهود المبذولة فيها والعناية المستمرة بها : من تسميد وري إلى العمل اليومى ، أو من استئصال الحشائش الضارة إلى الكفاح ضد الآفات والطيور والجراد . تعتبر هذه المؤلفات الأدب الوحيد الذى يحمل عبق الأرض ومذاقها ، ومع هذا فقد عانى حتى اليوم من الإهمال والنسيان الظالمين ، وبالرغم من أن هذه المؤلفات تنتسب إلى عصر متأخر نسبياً ، إلا أنها تجعلنا نعتقد بأن التقنية الزراعية - الموروثة عن إسبانيا الرومانية والقوطية - قد نضجت واكتملت بسرعة تحت السيطرة الإسلامية ، ولا يقتصر الأمر على هذا فحسب بل أدخل العرب فيها - منذ القرن التاسع ، مصطلحاتهم الخاصة التى انتقل جزء كبير منها إما إلى اللغة الإسبانية

أو إلى اللجئات المحلية في "أندلوثيا" والمنطقة الشرقية أو "رغون" (Aragón) ، على أي حال ، فقد كانت الحواف الجنوبية والشرقية من الهضبة في زمن الخلافة القرطبية - كما هو الحال الآن - عبارة عن مناطق شاسعة خالية من السكان ، وأراضى حرث ، وتلال وغابات سنديان وصنوبر ، أما الجزء الأندلسي الخاضع لتأثيرات البحر المتوسط (أندلوثيا والمنطقة الشرقية) فكان عبارة عن مناطق جافة (أراضى بعل) تصلح فقط لزراعة الكروم ، والزيتون ، والبقول ، والغلال .

وفي مناطق "السقي" (الغوطات الأندلسية ، بساتين مرسية وبلنسية) تزدهر المزروعات التي تعتمد على الري ، حتى المدارى منها ، وتدر محاصيل وفيرة ، وبالطبع ، فقد كانت طبيعة العمل الزراعى تؤثر فى شكل الحياة الريفية ، كما كان منهاج الزراعة الخاص بكل إقليم يتدخل فى تحديد التجمعات البشرية ونظام ملكية الأرض ، وعلى هذا ، فالأراضى "البعل" القريبة من المتوسط التى يملك معظمها إقطاعيون من الأرستقراطية الأندلسية ، والضياع المتوسطة التى يملكها المواطنون الأغنياء ، كانتا مناسبتين لنمو المراكز الحضرية ذات الطابع الريفى المحمية دائماً بقلعة من القلاع ، وعلى خلاف ما تقدم ، ففي المناطق التى يسمح فيها نظام الري باستمرار الزراعة وعدم توقفها وتقتضى بالتالى التواجد الدائم للمزارع (المُعمر) كانت الضياع (وتسمى فى الأندلس Cortijos^(٧٢) ، وفى بلنسية alquerías ، وفى "رغون" torres^(٧٣)) تتناثر فى الحقول ، وأينما توجه البصر يلمح ألوانها البيضاء أو السمراء المائلة للسواد بين الخضرة اليانعة ، لكن كانت تكفى بضع سويحات من الصعود فى طريق متعرج لكى ننسى المنظر السابق ونلتقى من جديد بالفراغات الموحشة للهضاب العالية بأنهارها الجافة ورياحها العاصفة وقممها المديبة ؛ وهذا الخواء الخرب هو الذى يضفى كثيراً من الهيبة والصرامة على المشاهد الطبيعية الإسبانية فى قشتالة وإكستريمادورا وشمال أندلوثيا .

الأسلوب المتبع فى استثمار الأرض ونظام المزارعة :

يُطلق على من يستثمر الأرض فى إسبانيا الإسلامية - سواء كان مالكا أو مستأجرها - لفظ "عامر" ، والقاموس العربى / اللاتينى لذلك العصر^(٧٤) يسوق ثلاثة مرادفات لهذه الكلمة : مزارع ومُناصف ومشارك ، ومن الكلمة الأخيرة اشتقت

(exaricus) اللاتينية التى تظهر فى العديد من وثائق مملكة "رغون" من بداية القرن الثانى عشر^(٧٥) ، والمسميات الثلاثة السابقة وإن كانت تعتبر كافية فى حد ذاتها للدلالة على أن نظام المزارعة فى الضياع كبيرة الحجم والمتوسطة كان شائعاً فى كافة الأراضى الأندلسية إلا أن المؤلفات الفقهية تعضد هذا أيضاً من خلال التزامها الدائم بإفراد جانب من صفحاتها للحديث باستفاضة عن هذا الضرب من المشاركة الزراعية وتحديد نواعها .

وإضافة إلى التععيد النظرى من جانب الفقهاء القرطبيين ، هناك نماذج صيغ العقود التى لا تخلو منها أيضاً . ومن البنود والشروط المدرجة بتلك النماذج نعتقد أن نظام المزارعة قد تطبع على أرض إسبانيا الإسلامية منذ القرن العاشر - على الأقل - وأنه كفل للطبقة الريفية العاملة العديد من الحقوق والضمانات التى كانت محرومة منها حتى ذلك الوقت .

تدور نماذج تلك العقود حول كيفية الشركة (المسماة فى الفقه الإسلامى "مزارعة"^(٧٦)) وتحديد مدتها بالسنوات ، ومن خلال البنود المدرجة بالعقود يتضح التزام كل من المالك والمزارع بتقديم كمية متساوية من البذور - سواء كانت قمحاً أو شعيراً أو سلتاً أو فولاً أو بقوليات أخرى - ، والكيل المستخدم فيها هو "قفيز" قرطبة ، يقوم الاثنان بخلط ما قدماه من بذور ، ويتعهد المزارع بحرث وزراعة الأرض (موضوع التعاقد) وحصاد المحصول ودرسه ثم توزيعه بالتساوى بينه وبين صاحب الأرض ؛ كما يتكفل المزارع بجميع مستلزمات العمليات السابقة مثل توفير الحيوانات اللازمة للعمل أو الاستعانة بالعمال الزراعيين ، وتوجد شروط خاصة أخرى تلزم المزارع بتقديم الكباش والخراف المسمنة لمالك الأرض فى عيدى الفطر والأضحى ومطلع العام الجديد ، كما تلزمه بأن يحمل لبيت المالك - بالمدينة التى يقيم فيها - القمح اللازم لاستهلاكه العائلى على أن يتولى طحنه بالمطحن الذى يروق له ، وفى بعض الأحيان تكون شروط العقد مجحفة بالنسبة للمزارع لأنها لا تجعل له الحق إلا فى ربع المحصول فقط ، وأحياناً تكون كريمة معه وتمده بثلاثة أرباع البذور بالإضافة إلى ثور للعمل ، على أن يقوم بإكمال الباقي من بذور وحيوانات^(٧٧) .

وإلى جانب نظام المزارعة الخاص بأراضي "البعل" توجد المشاركة فى أراضي "السقى" (المعروفة بالمساقاة) التى لا يتلقى فيها المزارع أكثر من ثلث المحصول (٧٨) ، وهناك نوع آخر من العقود يخص زراعة الأشجار : عقد مغارسة ، ويحتوى على سلسلة طويلة من الاشتراطات الإضافية وجميعها لصالح مالك البستان (٧٩) .

وفى الضياع الكبرى للمستخلصات الملكية (التى يشرف عليها - كما نعرف - إدارة من الموظفين تحت رئاسة "صاحب الضياع" ومقره قرطبة) يبدو أن استثمار أراضيها لم يكن يتم عن طريق المزارعة أو كان يتم من خلالها لكن بشكل مختلف ، أما بالنسبة للأراضي الموقوفة على المساجد - خاصة مسجد قرطبة الجامع - فتوجد إشارة أوردها ابن سهل (٨٠) تفيد بأنها كانت تُؤجر للمتقبلين (مفردها : متقبل) الذى كانوا يتعاقدون بدورهم مع طرف ثالث لاستثمارها .

وإشارة ابن سهل السابقة تخوض - علاوة على ما تقدم - فى مسألة هامة تتعلق بالأحكام القرطبية الخاصة بالآفات الزراعية (جائحة) التى تتسبب فى فسخ عقد الإيجار أو إبطال بعض بنوده على الأقل ، ويسوق المؤلف التقرير الذى كتبه الخبراء فى يوليو ١٠١٦م (٤٠٧هـ) (أى فى بداية حكم "على بن حمود") بتكليف من قاضى قرطبة "أبو المطرف عبد الرحمن بن بشر" ، لقد تلقى القاضى ، المعين حديثاً ، التماساً من متقبلي البساتين وأراضي "الحبوس" الخاصة بمسجد قرطبة الجامع يشكون فيه من تعرض أراضيهم لغزو الطفيليات نتيجة للأمطار الغزيرة التى هطلت فى شهر مارس من العام المذكور ، ومن عدم استطاعتهم رى زراعاتهم فى منطقة "الرملة" (شمال العاصمة) خلال شهر أغسطس من العام السابق لعسكرة الجيش الإسلامى والمرتقة المسيحيين بها (٨١) ؛ كما يشكون فيه أيضاً من تخريب الأرناب لبساتينهم الواقعة شمال وغرب قرطبة ، أجرى الخبراء تحرياتهم وبعد تأكدهم من صدق دعاوى المتقبلين أوصوا بوجوب إعفائهم من ثلث أو ربع الإيجار (قبالة) .

تعدد المحررات وصيغ العقود الحالات التى يعتبرها الفقه المالكى أسباباً مقبولة لإعادة النظر فى شروط عقد الإيجار وهى : الجفاف ، والسيول ، والصقيع ، والتلوج ، والجراد والطفيليات ، والأضرار الناجمة عن الطيور والعصافير ، ومما لا شك فيه أن عقود الرعى كانت تتضمن هى الأخرى ما يخص الأوبئة الحيوانية التى تُنزل الخسائر الفادحة بقطعان الأغنام والأبقار .

زراعة الغلال والطواحين (٨٢) :

مثمًا يفعل المزارعون الإسبان حالياً ، فقد كان الأندلسيون يميزون بين نوعين من الأراضي : أراضي "البعل" وأراضي "السقي" ؛ وفي الأولى تكثر زراعة الغلال بينما تندر في الثانية .

وفي أراضي "البعل" جرت العادة على تبوير الأرض سنة كل سنتين على الأقل ، وفي خلال تلك السنة تجوبها القطعان بحثاً عما يتناثر فيها من عشب قصير ، وكالحال في شمال إفريقيا ، كان نظام الحرث بدائياً للغاية ، يبدأ الفلاح عمله بعد أمطار الخريف ، وإذا رأى أن الزراعة لا تبشر بالمحصول المرجو أطلق بهائمہ لرعيها خضراء (قصيل) ، وإذا توسم فيها خيراً انتظر موسم الحصاد الذي لا يبدأ إلا بعد زيارة "الخُرَاص" (٨٣) لتقدير الزكاة المستحقة ، وفي بعض الأقاليم يمكن زراعة الغلال المتأخرة في الربيع مثل الذرة الشامية أو المكسسية ، أما السُّلت فكان يزرع في عدد من المناطق الباردة ، وعلاوة على القمح والشعير كانت تزرع - أيضاً - في أراضي الحرث ، البقوليات ، خاصة الفول والحمص والفاصوليا التي كانت تستهلك بكثرة خلال العصر الإسلامي ، ولم تكن المملكة الأندلسية تنتج ما يكفي لسد حاجاتها من القمح الذي يعتبر سلعتها الضرورية ، بل والاستراتيجية أيضاً ، ولهذا كانت سنوات الجفاف تقض مضاجع النظام الحاكم لأن قلة القمح تعنى جيشان ثائرة شعب جانع .

سجل "عرب" - علاوة على مدونة الناصر التاريخية - أربع سنوات عجاف (٨٤) بين ٩١٥ و ٩٢٩ م (٣٠٢-٣١٧هـ) ، وبعد ذلك في (٩٩١ م «٣٨١هـ») واجه المنصور نتائج جائحة الجراد التي أهلكت المحاصيل (٨٥) ، لكن قائد الدولة المحنك هذا - المشهود له بالحيلة وبارتفاع أسهم شعبيته بين الرعية - هدته فطنته إلى الإكثار من صوامع التخزين الاحتياطية ، ويذكر أنه أودع فيها عام ٩٨٥ م (٣٧٤هـ) ما لا يقل عن مائتي ألف "قفيز" من القمح تحسباً للأزمات الطارئة (٨٦) ، على أى حال ، من المعروف أن الأندلس اتجهت لاستيراد القمح الإفريقي منذ القرن التاسع ، وفي المجلد السابق رأينا كيف عمل عبد الرحمن الثاني على تحسين علاقاته بأئمة "تاهرت" الرستميين بالرغم من انتمائهم لفرقة الإبضية (وهذا بالتأكيد من أجل ضمان إمداد رعيته بالغلال) ، وكيف داومت السفن الأندلسية على زيارة موانئ إمارتهم

(تتس" و "أوران" Orán) لجلب شحنات القمح والغلل الأخرى ^(٨٧) ، ولم يتغير الحال في القرن العاشر ، إذ يروى ابن حوقل أن بحارة إسبانيا الإسلامية اعتادوا الإبحار لنفس الغرض إلى ميناء "أريج" (على الساحل الأطلسي للمغرب) ^(٨٨) وإلى ميناء "طبرقة" ، هناك بعيداً على الساحل التونسي ^(٨٩) ، استمر هذا النشاط التجاري حتى أثناء عصر الطوائف ، كما يشهد بذلك البكري عند وصفه لشمال إفريقيا .

اشتهرت بعض أراضي الأندلس بجودة قمحها وشعيرها ، ومنها نذكر على سبيل المثال : قمح "سجنونية" (Sangonera) الممتاز (بإقليم "لورقة") ، و قمح طليطلة الذي كان يقال عنه إن بإمكانه مقاومة العطب قرناً كاملاً بعد تخزينه ^(٩٠) . كان القمح والشعير يزرعان في مساحات شاسعة بأراضي "بياسة" (Baeza) و "استجة" و "شريس" ، "أبدة" (Ubeda) و "تطيلة" (والأخيرة بإقليم "رغون" ^(٩١)) ، وبالرغم من تواضع المحصول بصفة عامة (لا يزيد متوسط عائده حالياً عن عشرة قناطير للهكتار) إلا أن بعض الأراضي المخصصة لزراعته - مثل حقول "فحص الفوندون" (Fundun) (بإقليم "لورقة") ، وحقول "بلاطة" (بين "شنترين" و "لشبون") - كانت تكافئ مزارعيها عن سعة . توجد أنواع مختلفة من القمح ، ويميز السقطي ، في مؤلفه عن الحسبة ، بين نوعين منها : النوع الأول يسمى "درمك" (Darmak) ويمتاز بجودته الفائقة ودقيقه الناصع البياض ، والثاني "مذون" (Madhun) ^(٩٢) ، وهناك أنواع أخرى من القمح عُرفت في العصر الوسيط بأسماء رومانية (أعجمية) مثل : "ريون" (ruyun) ولونه أحمر مذهب ، "تريجال" الذي يزرع عادة في الربيع و "أركة" (Araka) وحبته طويلة صفراء ضاربة للحمرة ^(٩٣) .

ولأن الخبز كان عنصراً أساسياً في غذاء الشعب الأندلسي فقد شهدت صناعة المطاحن نشاطاً ملحوظاً في إسبانيا الإسلامية حيث اشتهر الطحانون بفسادهم الذي لا يُرجى إصلاحه ، وقد أفرد السقطي صفحات طويلة من مؤلفه للحديث عن الحيل الإجرامية التي كان يلجأ إليها أصحاب المطاحن لسرقة جزء من قمح زبائنهم ، ومن تلك الحيل خلط القمح بالأتربة المعدنية أو بمسحوق عظام الحبار ^(٩٤) .

لم يذكر الجغرافيون ، عند وصفهم لإسبانيا ، شيئاً عن طواحين الهواء - باستثناء طواحين "طركونة" ^(٩٥) - ومع هذا يغلب الظن بأنها كانت موجودة (كالعهد

بها حالياً) فى المناطق الأكثر عرضة للهواء مثل السهول الشاسعة للهضبة ، كانت الطواحين التى تحركها حيوانات الجر معروفة أيضاً ، لكن طواحين الماء (رحى) المقامة على حواف التيارات المائية خلف السدود كانت هى الأكثر شيوعاً ، ونظام عمل هذه الطواحين قديم ويتمثل فى دفع تيار الماء لعجلة أو عجلتين بقادوس "صينية" (والكلمة الإسبانية aceña مشتقة منها) لكى تنتقل الحركة بعد ذلك إلى رحى الطاحون ، كانت بعض الطواحين تتوقف خلال فصل الصيف نتيجة لقلّة الماء ، بينما كان الموجود منها على الأنهار الكبيرة (مثل الوادى الكبير أو التاجه) يعمل على مدار العام ، كما كانت موجودة على نهر "إبره" (بسرقسطة) ونهر "شُقورة" (بمرسية) ^(٩٦) طواحين متنقلة مقامة على طُوف ، وبالقرب من المدن الكبرى كانت هناك الطواحين المتخصصة التى لا تعمل إلا فى أصناف معينة ؛ ففي نهر قرطبة مثلاً - طبقاً لابن سهل ^(٩٧) - كانت توجد طواحين للحنّاء التى تعمل فى الصيف لحساب العطارين الذين يبيعون بضاعتهم أوراقاً أو طحيناً (كما يحدث حالياً فى فاس وتونس) .

زراعة الكروم والزيتون :

إذا كانت إسبانيا الإسلامية لم تنتج من القمح - كالحال فى أيامنا هذه - ما يسد حاجتها فإنها حظيت - فى المقابل - بمحصول جوهرى فى غذاء شعبها ، ونعنى به زيت الزيتون الذى كانت تصدر منه سنوياً الفائض عن استهلاكها إلى جميع دول حوض البحر المتوسط ، القرية منها والبعيدة أيضاً ^(٩٨) ، وعلاوة على شجرة التين كانت شجرة الزيتون (el olivo) هى أفضل شجرة أندلسية ، وإذا كانت شبه الجزيرة قد احتفظت باسمها اللاتينى فإن ثمرتها (الزيتون) وخلصتها (الزيت) ما يزالان يحملان فى اللغة الإسبانية (aceituna yaceite) واللغة البرتغالية (azeitona, azeite) مسمياتهما العربية القديمة . يأتى معظم إنتاج زيت الزيتون الإشباني حالياً من مقاطعة "أندولوثيا" (من محافظات إشبيلية وقرطبة وجيان ومالقة ، أى من أطول المناطق خضوعاً للتأثير الإسلامى) ، وبالرغم من أن عمليات تكريره واستخلاصه قد تقدمت وتحدثت فى المراكز الحضرية الكبيرة إلا أن العديد من الأماكن ما يزال يحتفظ بالكثير من تقنيات العصر الوسيط .

كان الإقليم الأكثر شهرة في الأندلس بأشجار زيتونه هو إقليم "الشرف" الذي يطلق على سلسلة من التلال الممتدة غرب إشبيلية والتي كانت مغطاة - على أيام البكرى والإدريسى - بأشجار "كثيفة لا تكاد تخترقها أشعة الشمس لتشابك أغصانها" (٩٩) ، لكن أشجار الزيتون كانت تشغل أيضاً مساحات شاسعة في كافة المناطق القريبة من ساحل المتوسط (نفس الأراضي الحالية ، بكل تأكيد) ، وهى تزيد عن مليون ونصف هكتار تدر حوالى ثلاثة ملايين قنطار من الزيت ، كان يتم الاحتفاظ بجزء ضئيل من المحصول لتخليله في الماء المالح ولا استخدامه في وصفات الطعام بينما يوجه الباقي للعصر .

ونظراً لمئات ورسوخ شجرة الزيتون الأندلسية فقد كانت تتطلب عناية خاصة مثل التقليم الدورى للجذيرات المنبتقة من سيقانها والعزق المستمر حول جذعها لكى تحتفظ الأرض بأكبر قدر من الرطوبة الممكنة ، أما بالنسبة لتقنية صناعة الزيت فكانت لا تختلف كثيراً عن المتبع حالياً في جبال شمال المغرب وفي المناطق القريبة من مدينة فاس (١٠٠) ، كانت الأساليب المستخدمة في استخلاص الزيت بدائية ، وتختلف جودته تبعاً لنوعية الزيتون المعصور ، وأفضله على الإطلاق يسمى - كما هو الحال الآن - "ليتشين" (Lechin) ويمتاز بطول حبه .

عُرف مكان عصر الزيتون بالمسمى الشائع "معصرة" (ومنها الكلمة الإسبانية almazara) ، كما كان يطلق عليه في بعض الأحيان "بَدَّ" ، والكلمة الأخيرة من أصل آرامى ، ولذا يقال إن جند بلج القشيري هم الذين أدخلوها إسبانيا في القرن الثامن (١٠١) ، كان الزيت على ثلاثة أنواع : "زيت الماء" وهو أفضلها جميعاً ؛ و"زيت البَدَّ" (المتوسط الجودة) ؛ وأخيراً ، "الزيت المطبوخ" (الذى يحتل الدرجة الأخيرة في الجودة) ، و "زيت الماء" عبارة عن القطفة الأولى للزيتون المعصور الذى غسل قبل عصره بالماء الساخن ، أما النوع الثانى فيستخرج من عصر الزيتون المهروس في الأحواض بعد بقاءه فيها المدة اللازمة لعطنه ، ليتم نقله بعد ذلك إلى أوعية لتصفيته ، ثم يعبأ في دنان ، أما النوع الأخير فيستخرج من فضلات وبقايا العصرة الأولى التى تؤخذ وتوضع في الماء المغلى ثم تعصر ثانية ، ولهذا السبب سمي بالزيت المطبوخ .

كانت مزارع الزيتون الهامة مزودة بالمنشآت اللازمة لاستخراج الزيت من محاصيلها ؛ وعلى مقربة من المدن الكبرى تنتشر الطواحين التي يحمل إليها المنتجون الزيتون على ظهور الدواب ليبيعونه (وزناً) من خلال وسطاء . وتحت السفوح المغطاة بأشجار الزيتون عادة ماتمتد أحزمة واسعة من الأراضي المزروعة بالكروم ، وكانت مزارع الكروم منتشرة في أراضي "البعل" الأندلسية ، بالرغم من تحريم تعاطي المسلمين للنبذ . صحيح أن معظم العنب كان يستهلك طازجاً وتظل بعض أنواعه حتى دخول فصل الشتاء ، وأن كثيراً منه كان يتم تجفيفه (زبيب) ^(١٠٢) لاستخدامه في العديد من الأطباق الأندلسية ^(١٠٣) ، ومع هذا فكل فئات المجتمع كانت - بلا استثناء - تشرب النبيذ ، وبالرغم من استعداد ابن حزم الدائم ^(١٠٤) لإثارة غيرة الأمراء الدينية إلا أنهم لم يحركوا ساكناً لمحاربة هذه الظاهرة فيما عدا الحكم الثاني الذي فكر عندما تقدمت به السن في استئصال كافة مزارع الكروم من مملكته لكن المحيطين به لم يجدوا صعوبة في إثائه عن عزمه . ولا يمكن أن ننسى في هذا المقام سوق النبيذ التابعة للدولة التي كانت موجودة في عهد الحكم الأول على أبواب قرطبة ذاتها (في "شقندة") ، وأغلب الظن أن صاحب امتياز السوق كان أحد أفراد الجالية المسيحية بالعاصمة ، ولا شك أنه كان يخرج - من وقت لآخر - بعض الفقهاء المتشددین ليثيروا زوبعة حول تساهل النظام الحاكم في هذه المسألة ^(١٠٥) ، ومع هذا كان النبيذ موجوداً في جميع الحانات ولم تخل منه مدينة من المدن الكبرى (بما فيها قرطبة) ، ونادراً ما كانت تنتهي حفلات السمر والمتعة بين الأوساط الراقية - سواء في عصر الخلافة أو ملوك الطوائف أو المرابطين بعد ذلك - دون سكر وعريضة .

كان النبيذ يصنع سراً - أو جهراً على يد المستعربين - في كل مكان ، وبالرغم من هذا لم يصلنا خبر واحد عن كيفية تصنيعه ، لقد أحجم الجغرافيون العرب عن الحديث عن عصر العنب الأندلسي واكتفوا بالاستخفاف طرئاً أمام الشهرة العالمية للزبيب الأندلسي ، خاصة زبيب "مالقة" وما تنتجه جزيرة "يابسة" (Ibiza) .

محاصيل أراضي السقي وزراعة الأشجار :

بالإضافة إلى الغلال والزيتون والكروم ، هناك مزروعات أخرى ، تعتمد على الري ، بلغت في إسبانيا مكانة مرموقة . في تلك الأراضي التي تتوافر فيها المياه

على مدار السنة أو في مواسم معينة ، وصلت الزراعة - بفضل ترشيد استخدام نظم الري - إلى درجة لا تنكر من التطور لا تختلف في مجملها عما وصلت إليه حالياً ، يجب التنويه إلى أن انتقال كثير من المصطلحات العربية الخاصة بنظم الري إلى اللغة الإسبانية يعتبر دليلاً دامغاً على أهمية التأثير الإسلامى فى هذا المجال وإن كان هذا لا يعنى بالضرورة أن نظم الري كما عرفها وطبقها الأندلسيون خلال قرون عديدة فى غوطات وبساتين شمال وجنوب شبه الجزيرة كانت جميعها من اختراع العرب (١٠٦) ، ذلك لأن إسبانيا الرومانية والقوطية لم تخلوا قبل الغزو الإسلامى من المزروعات التى تعتمد على الري ، ومع هذا لا يوجد ما يمنع من الظن بأن المسلمين قد طوروا النظم الهيدروليكية (المائية) التى وجدوها بالبلد عند احتلاله ووصلوا بها إلى حد الاتقان مستعينين فى ذلك بالتقنيات الآسيوية ، ومما يرشح هذا الظن التشابه الكبير بين عجلات الرفع فى إسبانيا والمغرب وبين اللاتى تعملن حتى وقتنا الرهن فى سوريا والعراق على ضفاف نهري العاصى والفرات ، ويبدو أن تلك العجلات قد اخترعها الشرق منذ أمد بعيد (١٠٧) .

توجد فى العالم العربى نظم متعددة للري ، ويبدو أنها استخدمت جميعاً فى إسبانيا الإسلامية ، وهذه النظم - التى وصفها بإيجاز الجغرافيون (١٠٨) وأصحاب المؤلفات الزراعية - تتشابه إلى حد كبير مع المتبع حالياً فى نفس المناطق وفى بعض أقاليم المغرب (١٠٩) .

وأقل النظم تعقيداً - وأشدّها فاعلية فى الوقت نفسه - النظام المستخدم حالياً فى أراضى "السقى" بالحزام الساحلى الشرقى لإسبانيا ، فى هذا السهل الساحلى ، من دلتا نهر "إبره" حتى نهاية نهر "ناو" (Nao) ، ينتشر عدد لا يحصى من السواقي التى تديرها - بفعل التفاوت فى المنسوب فقط - المياه المباركة (الجارية أو المخزونة) لأنهار "ميخارس" (Mijares) والوادي الكبير و "شُقَر" (Jucar) أو نهر "طورية" (Turia) . وهناك تشريع قديم ينظم حقوق المنتفعين الذى يشكلون نقابة تنبثق منها "محكمة الماء" (جمعية تحكيمية) ، مهمتها الفصل فى النزاعات الناجمة عن توزيع حصص الماء أو انتهاك الاستخدامات المقررة ، وأحكامها شبه مقدسة لالتزام الجميع بها ، وقد كشفت لنا فقرة للمؤرخ ابن حيان (١١٠) عن وجود تشريع مماثل فى إسبانيا خلال عصر

الخلافة وعصر ملوك الطوائف ، إذ ذكرت أن اثنين من الموالى العامريين ، يتبعان مباشرة إدارة قرطبة المركزية ومسئولين أمامها ، كان يقع على عاتقيهما مهمة الإشراف على نظم الري (وكالة الساقية) ؛ والموليان المقصودان هما : الصقليان مبارك والمظفر ، اللذان سيؤسسان بعد فترة وجيزة ولحسابهما الخاص ، إمارة قصيرة الأمد فى بلنسية وشاطبة .

إذا استبعدنا حالات الجفاف الطارئة يمكن القول بأن الري فى المنطقة الساحلية الشرقية كان دائماً ، أما بالنسبة لإقليم "مرسية" فقد كان مختلفاً بعض الشيء لأنه يخص - باستثناء بساتين "لقنت" - تجمعات مائية داخلية بعيدة تماماً عن البحر تلتف حولها سلسلة من الواحات المتاخمة لمناطق جرداء وجافة ، وفى إقليم "لورقة" (أقصى الغرب) يتسم نظام الري بالبداية الشديدة لعدم وجود الماء الكافى ، إذ لا يسمح المتوفر منه إلا بثلاث أو أربع "ريّات" فى السنة لحقول الغلال ، وهى المحاصيل الوحيدة التى يتوافر لزراعتها بالمنطقة بعض عوامل النجاح ، وهكذا كان الوضع فى العصور الوسطى المتقدمة لأن الجغرافيين العرب لا يملّون من الإشادة بقمح "سنجونية" (Sangonera) ، والمسمى يخص - كما هو معروف - النهر المار بأراضى "لورقة" .

فى أقصى شمال إقليم "أندلوثيا" (الذى نتحدث عنه) ، وفى وديان أنهار : "وادي يانه" و "التاجه" و "الإبره" لا يمكن الري إلا بواسطة ماكينات رفع تقوم بسحب المياه (من الأنهار أو فروعها أو الآبار) وصبه فى أحواض كبيرة (برك) ، كانت هذه الماكينات - على اختلاف أنواعها - بدائية ومعقدة إلى حد ما ، والأساسى منها عبارة عن رافعة بعوارض متقاطعة (قوائم خشبية دوارة ، مثبت على طرفها الطويل سطل وعلى الطرف القصير ثقل مضاد ^(١١١)) ، أما جهاز الرفع الذى تطلق عليه اللهجات الرومانثية (Cigueñal) (زارع التدوير أو الكرنك) فهو أكثر تطوراً من جهاز (Cabria) (الونش) ومن الجهاز الذى يعمل بالبكرة (garrucha) ، وإسبانيا الإسلامية تطلق على الجهاز السابق "خطّارة" ، لكن المسمى الأخير كان يطلق أيضاً على عجلة هيدروليكية خفيفة شاع استخدامها على ضفاف الجداول الصغيرة ، خاصة فى إقليم إشبيلية ^(١١٢) .

وهناك آلات رفع أكثر تعقيداً مثل "الناعورة" (ومنها الكلمة الإسبانية *noria*) التي يحركها تيار الماء مباشرة ، وعجلات الرفع التي يدفعها حيوان وتتحرك دائرياً ("دولاب" أو "صينية" ومن الكلمة الأخيرة اشتقت اللفظة الإسبانية *aceña*) ، وقد قامت بعض الأعمال بوصف كافة أنواع هذه الروافع الهيدروليكية وصفاً دقيقاً وإليها نحيل القارئ (١١٣) .

اشتهر إقليم "بلنسية" بزراعة الأرز ، وبالرغم من ورود هذا المحصول ضمن المحاصيل التي ذكرها "تقويم قرطبة" إلا أنه - على ما يبدو - لم يُزرع بكثرة إلا في عصر متأخر نسبياً . لا شك أن خصوبة الأرض ووفرة المياه بهذا الإقليم قد ساعدتا على زراعة محصولين أو ثلاثة في السنة ، لكن وفرة المياه استخدمت كذلك في العصر الإسلامي لرى أعداد لا تحصى من أشجار الفاكهة التي تتنافس الجغرافيون والشعراء في التغني بثمارها (الطازجة أو المجففة) وعلى وجه الخصوص كرز "قلمرية" ، تفاح وكمثرى "سنترة" (*Cintra*) و "شلب" ووادي نهر "إبرة" ، رمآن (١١٤) ولوز "مالقة" و "البيرة" ، ومع هذا فقد كانت شجرة التين ، بثمارها الفاتكة الجودة ، هي الأكثر شيوعاً ، خاصة في إقليم إشبيلية الذي اشتهر بإنتاج هذين النوعين : "القوطى" و "الشعري" (١١٥) ، نادراً ما كان يطلق في إسبانيا الإسلامية على أشجار التين مسماها الكامل ، بل يكتفى - عادة - بلفظ "أشجار" (١١٦) ، وقد أفاض أصحاب المؤلفات الزراعية في الحديث عن العناية الخاصة التي تتطلبها شجرة التين كما أسهبوا في الحديث عن تقنية تأبيرها .

عرفت إسبانيا الإسلامية عدداً من المزروعات المدارية في بعض الأحزمة الساحلية المحمية خلف المرتفعات ، خاصة جنوب "جبال التلج" وأسفل وادي النهر الكبير بين إشبيلية والبحر ، حيث كانت تتجاوز أشجار الموز مع حقول قصب السكر سواء في منطقة "مُتريل" (*Motril*) أو "بلش" (*Veléz*) - مالقة (١١٧) ، كما أشار الجغرافيون المشاركة إلى مناطق زراعة النخيل ، خاصة في "ألش" (*Elche*) المشهورة حتى اليوم بنخيلها من بين كافة أنحاء شبه الجزيرة (١١٨) .

تجدر الإشارة أيضاً إلى الحمضيات التي تشكل - علاوة على الأرز - أغلب الإنتاج الحالي لبساتين المنطقة الشرقية ، في القرون الوسطى المتقدمة كان يُزرع على

ساحل المتوسط الليمون الحلو والليمون الحامض ، وأزهارهما كانت تُقَطَّر بينما تستخدم ثمارهما فى عمل الحلوى (بعد خلطها بالسكر) أو فى تخليل الزيتون ، أما البرتقال الحلو - الذى ترجع أصوله إلى الشرق الأقصى - فإنه لم يُزرع فى العالم العربى إلا متأخراً ، ويبدو أن زراعة أشجار البرتقال والتأرنج دخلت إسبانيا خلال عصر الخلافة القرطبية (١١٩) .

تحتل زراعات النباتات العطرية ونباتات الصبغة والنسيج مكاناً هاماً فى الاقتصاد الزراعى لإسبانيا الإسلامية (١٢٠) ، ومن بين النوعين الأولين نذكر : "الزعفران" (وهو من التوابل الإجبارية فى معظم الأطباق الأندلسية) ، "العُصْفَر" (الذى يستخدم فى الصبغة أو التحضير للزينة) ، "الكمون" ، و"الكزبرة" و"الحناء" ، ومع أن "الزعفران" و"وَسْمَةُ الصباغين" (ورد النيل) كانا يزرعان فى كافة أنحاء "أندلوثيا" إلا أن أراضى طليطلة اشتهرت بإنتاج أجود الأنواع منهما .

أما بالنسبة لزراعة نباتات المنسوجات فقد كانت هدفاً للتوسع فى كثير من الأحيان ، وأهمها : "الكتان" (الذى كانت تنتج منه محافظة "إلبيرة" كميات ضخمة تسمح بالتصدير إلى دول عديدة فى الشرق والغرب) و"القطن" (الذى كان يزرع فى محافظتى إشبيلية و"وادي أش" ويصدر الفائض منه إلى المغرب) .

أما تربية دودة القز (الحريز) فكانت مزدهرة فى أى مكان تكثر به أشجار التوت ، خاصة فى أراضى "بياسة" و"جيان" وفى سلسلة "جبال البشرات" بين غرناطة والبحر المتوسط ، لقد شهدت تربية دودة الحريز - التى تخصصت فيها النساء - نجاحاً كبيراً فى أماكن عديدة (١٢١) .

قطعان الماشية والنباتات الطبيعية :

لم يكثر الجغرافيون الأندلسيون من الحديث عن تربية الحيوانات ، سواء المستخدمة فى الركوب أو لإدرار الألبان واللحوم ، لا توجد المراعى الجيدة إلا فى أماكن متفرقة من إسبانيا الجافة ، لكنها تكثر فى المقابل بإسبانيا الرطبة ، وعلى هذا فلم يكن أمام أصحاب القطعان سوى إمداد مواشيهم بما تجود به المراتع من عشب قصير متناثر بين الأحجار ، كانت أنسب منطقة لتربية الخيول هى الواقعة أسفل الوادى الكبير حيث

ينمو الكلابسرعة مذهلة فى منعطفات النهر ، ولعلنا نذكر أن المنصور قد أقام بهذه المنطقة مزارع للأفراس وحظائر لاحتياطييه من الخيول ، كان البغل - كما هو الحال الآن - هو الحيوان الأكثر تأقلماً مع المناخ ، وفى الجرّ والتحميل كان الأكثر شيوعاً وشهرة فى الأندلس (١٢٢) بالإضافة إلى الحمار والأتان ، قبل مجيئ المرابطين كانت الجمال قليلة فى أسبانيا ، ونحن نعرف أن المنصور أمر بجلب بعضها من إفريقيا لاستخدامها فى قوافله الحربية ، وأنه كان يتركها - بين كل صائفة وأخرى - فى سهوب مرسية (١٢٣) .

كانت الأبقار موجودة فى كل مكان ، وتستخدم فقط فى أعمال الفلاحة لأن المسلمين - فى الغرب ، على الأقل - يعافون لحومها ، والخنزير - المحرم فى الإسلام - كان موجوداً فى الأراضى العالية لاستهلاك المستعربين الشغوفين بلحمه ، أما الأغنام التى تتحمل الظروف المناخية الصعبة ويمكنها البحث عن الكلاب المتناثر فى طريقها ، فلا بد أنها كانت موجودة بكثرة كما هو الحال الآن . اشتهرت منطقة جبال "وادي الرملة" (الواقعة أقصى شمال طليطلة) بطيب أغنامها وثيرانها (١٢٤) ، كما اشتهرت نجاج أراضى الشرق العليا بنعومة صوفها الذى يستخدم فى نسيج الأقمشة والبُسُط ، لم يكن غريباً فى أسواق المدن بيع لحوم الماعز إلى جوار لحوم الأغنام ، كما كانت المدن تستهلك كميات كبيرة من الطيور الداجنة ومن الأرناب البرية التى يتم صيدها فى كمانن وذبحها بعد ذلك .

فى بلد يستهلك العسل الأبيض ومشتقاته بكثرة مثل إسبانيا الإسلامية لا بد وأن تكون عنايته بتربية النحل فائقة ، لقد قدم واضعو المؤلفات الزراعية تفاصيل هامة عن تربية النحل وعما تتطلبه خلاياه من رعاية ، وفى زمن الإدريسي ذاع صيت إقليمى "جيان" و "قصر أبى دانس" (أو "قصر الفتح" «البرتغال») فى إنتاج عسل النحل (١٢٥) وأحمد الرازى ، بدوره ، أشاد فى القرن العاشر بجودة عسل أراضى "لشبونة" ، كانت خلايا النحل تُصنع عادة من قطع مستطيلة من القلّين الذى يكثر فى البرتغال وجنوب إسبانيا .

نادراً ما كانت تخلو ضيعة من برج أو أكثر للحمام الذى يستفاد بلحمه ويستخدم زَرْقُهُ فى تسميد الأرض أو تغرية الجلود ، كانت أبراج الحمام ويقع الأشجار بمثابة الشَّارات البهية وسط الخضرة الممتدة للأراضى الزراعية .

وعلى ضفاف الجداول والترع والقنوات اهتم الفلاحون بزراعة الأشجار المختلفة (الحُر ، الصفصاف ، والسُرُو ، والدردار .. إلخ) التي تتكاثر لرسم لوحة طبيعية أندلسية متناغمة الألوان فواحة الخضرة ، مخالفة تماماً - كما هو الحال الآن - للمناطق العارية الجرداء أو السفوح المغطاة بأشجار الزيتون بألوانها القاتمة المكفهرة .

إذا لم تكن الأشجار المذكورة تغطي سوى مساحة محدودة من أرض إسبانيا ، فإن الأشجار القصيرة أو الأحراج (الشُّعْرَاء) كانت تغطي - حسبما يُقال - عُشر مساحة البلاد .

بالرغم من إحجام الجغرافيين العرب عن تقديم المعلومات المفصلة حول استغلال الغابات في الأندلس إلا أنه يغلب الظن أن المناطق الجنوبية (مثل "رُنْدَة" و "مالقة") كانت تغص بالغابات التي استثمرت في صناعة الأخشاب ، ومن الأنواع الرئيسية نذكر أشجار القسطل والبلوط ، والأخيرة كانت تغطي شمال قرطبة بالكامل (ولذا عُرف باسم "فحص البلوط") وأراضى "وادي أش" ، كما كانت أشجار الصنوبر تغطي مساحات شاسعة في المناطق الجبلية التي تشرف على الشمال حيث تُلقي جذوعها المقطوعة في التيارات المائية لحملها حتى ساحل البحر لكي تتحول هناك إلى كميرات وصواري للسفن (١٢٦) ، ومن جهة أخرى ، فقد ساهمت أشجار الصنوبر المتوافرة في المنطقة القريبة من "قصر أبي دانس" (على الساحل البرتغالي) وفي "شلطيش" (في الغرب) وفي "طرطوشة" (بجوار مصب الإبره) في إمداد ترسانات هذه الموانئ الثلاثة بالأخشاب اللازمة لصناعة السفن (١٢٧) ، وفي مناطق الغرب والشمال الساحلية - وكذلك جزر البليار - كانت تكثر أشجار الخروب التي تستخدم ثمارها كغذاء تكميلي لقطعان الماشية ، وبالنسبة للأحراج "الشُّعْرَاء" التي يجويها الحطابون والصيادون فكانت مكاناً مناسباً لإعداد الفحم المستخدم في الأغراض المنزلية أو الصناعية ، أما سهوب مرسية الواسعة فكانت مغطاة بالهلفاء (التي أعطت لإقليم "قرطاجنة" اسمه المعروف : "قرطاجنة الهلفاء" (١٢٨)) التي يستخرج منها الجَمَّار وتستخدم البوص والأسل - اللذان يكثران في المستنقعات الراكدة للأنهار الأندلسية - في صناعة السِّلَال والأكواخ الخفيفة .

أعمال الفلاحة فى " تقويم قرطبة " :

أشرنا أنفاً إلى أهمية " تقويم قرطبة " (لعام ٩٦١م) بالنسبة لدراسة النشاط الزراعى أثناء الخلافة القرطبية ، فأخبار هذه الوثيقة القيمة عن الحياة فى الريف الأندلسى تأتى مصحوبة عادة بتواريخها الشهرية المحددة ، كما تورد فى نهاية كل شهر ملخصاً للأعمال الشائعة فيه ، إنها تتسم بالدقة المتناهية وتتفق مع الإشارات المبثوثة فى كتابات الجغرافيين والمؤلفين الزراعيين المتأخرين ، لذلك تستحق تلك اللوحات التلخيصية لأعمال الفلاحة فى مواسم العام الزراعى الترجمة الكاملة ، لكننا سنكتفى بترجمة موجز شهر واحد وإلقاء الضوء على ملخصات باقى الأشهر :

"فى مارس - يذكر" تقويم قرطبة" (١٢٩) - يتم ترقيع أشجار التين ، ترتفع سيقان الغلال المبكرة ، تورق معظم أشجار الفاكهة ، وفى الشهر نفسه تضع إناث الصقور البلنسية بيضها فى جزر النهر ثم تحتضنها ثلاثين يوماً ، يُزرع قصب السكر وتظهر بواكير الورود والزنايق ، تتشكل قرون الفول فى البساتين ، يطل السمان من أوكاره ، يخرج دود القز من شرنقته ، وتتسابق طيور الحفش والشابل فوق الأنهار ، يُزرع الخيار والقطن والزعفران والباذنجان ، تُردُّ الرسائل الدورية إلى ممثلى المالية بالأقاليم لشراء الخيول للحكومة ، يأتى الجراد وتصدر الأوامر لمقاومته والقضاء عليه ، يُزرع الترنجان وريحان داود ، يتزاوج اليمام والقلق والرؤمى وكثير من الطيور .

فى يناير وفبراير ينهمك الفلاحون - طبقاً لتقويم قرطبة - فى وضع مساند لأشجار الزيتون والرمان وتقليم الكرّم وتكويم قصب السكر وترقيع أشجار الكمثرى والتفاح ؛ بينما تعكف النساء على حضانة بيض دود القز ، يشهد أبريل غرس فساتل الياسمين ، زراعة الحناء والحبق والأرز والفاصوليا ، وفى مايو يتم جمع بعض الحبوب الزيتية ، ثم يأتى الصيف الذى يكفى بالكاد للحصاد والدراس وقطف الفاكهة ، وفى سبتمبر وأكتوبر يتم جنى العنب والزيتون وحرث الأرض ، أما نوفمبر فهو شهر محصول الزعفران وجمع القرنفل والقسطل من الغابات ، بينما يشهد ديسمبر بذر الحبوب فى البساتين (١٣٠) .

تأتى هذه الإشارات مصحوبة بمعلومات قيمة عن تربية الدواجن والصقور ، وعن طرق العناية بزراعة الزهور ، كما يُظهر بعضها مدى المعرفة بأحوال الأندلس الإدارية ، وعلى سبيل المثال فقد كانت تحذر المزارعين من مواعيد المصادرات ، وهى المواعيد التى يتلقى فيها ممثلو الضرائب بالأقاليم الأوامر من قرطبة لجمع الخيول أو قرون الوعول (لتصنيع الأقواس) أو الحرير ومنتجات الصباغة (لمصانع النسيج الحكومية) ، ويخبرنا التقويم أيضاً أن شهر فبراير كان يشهد تجمع الجنود الذين سيشاركون فى صائفة ذلك العام ، ويقدم لنا التقويم - قبل المؤلفات الزراعية بوقت طويل - البرهان على أن بعض تواريخ السنة الشمسية التى تعتبرها بلاد المغرب حالياً كتواريخ مواتية أو مشئومة للعمل فى الحقل ، كانت معروفة لدى الفلاحين الأندلسيين فى القرن العاشر ؛ وأن العديد من الاحتفالات والأعياد الزراعية المرتبطة بالتقويم الشمسى كانت تتم أثناء الخلافة القرطبية بطريقة مشابهة لما يجرى حالياً منها فى بلدان شمال إفريقيا .

٤ - استغلال الموارد الطبيعية

المعادن والتعدين (١٣١) :

المعلومات المتوافرة عن استغلال المعادن في الأندلس تقل بكثير عن مثيلاتها في العصر الروماني ، ومن المعروف أن استغلال المعادن المختلفة الموجودة في باطن الأرض الإيبيرية يرجع لعصور سحيقة ، وأن الحلى والأسلحة الإيبيرية كانت لهما شهرة قديمة . عملت روما على تحقيق أقصى استفادة من ثروات شبه جزيرة إيبيريا الطبيعية من خلال استثمارها على المستويين : الحكومي والخاص (١٣٢) ، واستخرجت الذهب والفضة والنحاس والزنبق ، علاوة على الحديد ، لكن إيقاع استغلال تلك المعادن هبط خلال العصر القوطي (١٣٣) ، وعندما جاء المسلمون لم يكن عليهم سوى استخدام المنشآت الموجودة واليد العاملة المتخصصة ، ولا بد أن يكون هذا ما حدث بالفعل لأن الجغرافيين العرب أشاروا باقتضاب إلى استغلال المعادن وتصنيعها ، بينما أفاضوا في الحديث عن الكنوز التي تحتوى عليها باطن الأرض الإسبانية وقدموا - بوجه عام - تفصيلات دقيقة عن مواقع طبقات المعادن المختلفة (١٣٤) .

كان الذهب يأتي ، تحديداً ، من عروق الرمال المذهبة الموجودة في عدد من التيارات المائية ، خاصة نهر "سيجرى" (Segre) الذي يمر بمدينة "لارده" (١٣٥) ونهر "حدره" (Darro) الذي يصب في "الشنيل" (Genil) علي مقربة من غرناطة . وعلى الأطلسي ، في مواجهة لشبونة ، عند مصب "التاجه" ، كان شاطئ "المادا" (Almada) يحتوى على شذور الذهب التي يجرى البحث عنها خلال مواسم الأمطار .

كانت الفضة تستخرج من أقاليم "مرسية" و "ألحامة" و "أورناتشويلوس" (Hornachuelos) و "توتاليكا" (Totalica) « بمقاطعة باجة » ، ومناجم الحديد الرئيسية كانت موجودة بالمنطقة الجبلية التي يحدها من الشمال وادي النهر الكبير ، بين غرناطة وإشبيلية : في "كونسطنطينة" (Constantina) و "قلعة الحديد" ("قریش" القديمة) ، أما الزنبق المشهور المستخرج من منطقة "المعادن" (Almaden) ، الواقعة على بعد ١٢٥ كم من شمال قرطبة (بمحافظة "المدينة الملكية" (Ciudad Real) حالياً) فلا يزال يحتفظ بالسمي العربي لمنطقته ، وبالإضافة إلى منجم الزنبق السابق (الذي

استغله الرومان من قبل) يوجد منجم آخر فى "Mestanza" وثالث فى "Ovejo" القريبة من العاصمة ، وقد زار الإدريسى المنجم الأخير خلال القرن الثانى عشر (١٣٦) ، وطبقاً للجغرافى المذكور ، فقد كان يعمل بهذا المنجم ألف عامل موزعين على أربع مجموعات : المجموعة الأولى مختصة باستخراج المعدن ، والثانية بنقل الوقود اللازم ، وتقوم الثالثة بتصنيع أوعية تقطير وتنقية الزئبق بينما تعمل الرابعة فى بناء الأفران وإشعالها ، كان المنجم يقع على مسافة تزيد عن مائة ذراع تحت الأرض .

أما "التوتياء" و "الزنجفر" فكانا يستخرجان من إقليم "شَلُوبَائِيَّة" (Salobreña) على ساحل المتوسط .

وبالنسبة للنحاس فكان يُستخرج من منطقتى طليطلة وإلبيرة ، كما كان يُستخرج بالتأكيد - بالرغم من إغفال الجغرافيين العرب لذلك (١٣٧) - من المناجم الشهيرة بمنطقتى "النهر الأحمر" و "طرسييس" (Tarsis) (شمال غرب "وَلْبَة") ، أما "حجر الشبّة" و "سلفات الحديد" فكانا يُستخرجان من "وَلْبَة" ؛ والقصدير من "أكشونبة" ، ومن المناجم الواقعة فى أراضى "طرطوشة" و "بَسْطَة" كان يستخرج الكُحْل (أو الغالينا) المستخدم فى قطرة العين .

ولإزالة البقع والعناية بالشعر كانت إسبانيا تستهلك كميات كبيرة من "الطّفْل" المستخرج من محاجر "مجان" (Magán حالياً) القريبة من طليطلة ، بالإضافة إلى نوع من الصلصال يشبه "العلك" (١٣٨) ، كما كانت توجد بعض المحاجر التى تقطع منها أحجار البناء فى جبال قرطبة ، ومن تلك المحاجر جُلبت معظم الأحجار المستخدمة فى بناء مدينة الزهراء ، ومن "جبال الشّارات" كان يستخرج الرخام الأبيض ، ومن أراضى غرناطة العقيق الأحمر والأصفر ، وأجود أنواع الرخام الأبيض هو المستخرج من "مكائل" (Macael) (شمال "المرية") وكان يستخدم فى صناعة البلاط ونحت شواهد القبور ، ولا زالت بعض نماذج الجميلة التى يرجع تاريخها إلى القرن العاشر والحادى عشر موجودة حتى الآن .

ومن مشاهدة العديد من الآثار يتضح أن الرخام الأبيض كان يتم استيراده أيضاً - عن طريق البحر - من إفريقيا ومن بلدان أبعد منها ، ولا شك أن أحجار الكلس ، المستخدمة فى صناعة أربطة الجص (الرخام المصطنع) كانت تستخرج بكميات ضخمة من أماكن متفرقة .

أشاد الجغرافيون العرب كذلك بالأحجار الكريمة لإسبانيا الإسلامية ، وعلى سبيل المثال نذكر : البللور الصخرى واللازورد (من "لورقة") ، ياقوت "مالقة" الزعفرانى ، وياقوت "المرية" الأحمر ، وأحجار "مرسية" المغناطيسية ، وأحجار الدم (من جبال قرطبة) ، ولأحجار اليهودية (من "ألبونت") ، وأحجار "ماركثيتا" (Marcasitas) المستخرجة من "أبدة" (١٣٩) .

لو نحينا جانباً المعلومات الجافة التى أوردها الإدريسى عن مناجم الزئبق فى (Ovejo) وعن ورشة التعدين بجزيرة "شلطيش" (أمام "ولبة") حيث كان يتم معالجة الحديد الخام ، فلن نجد شيئاً يوضح لنا المنهاج أو الطريقة المتبعة لاستغلال الثروات العديدة الكامنة فى باطن الأرض الأندلسية ، لا شئ يفصح لنا عما إذا كانت الدولة هى التى كانت تقوم باستغلال هذه الثروات أو تؤجر حقوق استثمارها للغير ، فالفقهاء عند حديثهم عن المعادن المستخرجة من باطن الأرض يقتصرون على الإشارة إلى مقدار الزكاة الشرعية الواجبة فيها (الخمس) . لا يوجد ما يمنع من الظن - إذن - بأن المنهاج أو الأساليب المتبعة قديماً ظلت سائدة فى العصر الإسلامى مع قليل من التحوير ، استحوذت الينابيع المعدنية (الحارة) ، بما لها من خواص علاجية ، على اهتمام الجغرافيين المسلمين ، خاصة البكرى والإدريسى ، وأوضح دليل على شيوع استخدام الأندلسيين لتلك الينابيع أن مسماهما العربى (الحمّة) قد أطلق على كثير من المناطق الموجودة بها ، وهكذا نجد "حمّات" محافظات "ألمرية" ، وغرناطة ، ومرسية ، وسرقسطة المشهورة بمياهها التى تحتوى على الحديد وبيكربونات الكالسيوم ، والتى كان يستخدمها الرومان قبل المسلمين (١٤٠) .

استخراج الملح . والصيد :

كان الملح الصخرى يُستخرج من كل مكان يتواجد به داخل شبه الجزيرة ، خاصة فى إقليم سرقسطة ، وعلى سواحل الأطلسى والمتوسط كانت تستخرج كميات ضخمة من الملح البحرى الذى يستخدم فى الأغراض المنزلية وحفظ الأغذية ، كما كانت هناك ملاحات كبيرة فى جزيرة "يابسة" (Ibiza) ، لكن مستنقعات المياه المالحة فى أقاليم "قادس" و "ألمرية" و "لَقْنَت" كانت هى التى تزود إسبانيا الإسلامية - كما يجرى حالياً - بمعظم الملح اللازم لا استهلاكها (١٤١) .

كان الصيد البحرى فى القرن العاشر بمثابة صناعة رائجة تخصص فيها سكان المناطق الساحلية ، خاصة على شواطئ "أندلوثيا" وفى مضيق جبل طارق المشهور بوفرة أسماكه ، كان الصيادون يستخدمون الشباك التى تُطرح من على الشاطئ أو "المضارب" (ومنها الكلمة الإسبانية almadrabas ^(١٤٢) المزودة بسياج من خيوط الحلفاء المتشابكة ويعوامات من الفلين والحجارة ، وكانت مخصصة لصيد سمك التونة ، لكن السردين (الذى تحتفظ اللغة الإسبانية بمسماه العربى) كان يمثل أعلى نسبة بين الأنواع السمكية الأخرى ، وكان يتم نقل كميات كبيرة منه إلى المدن الداخلية ، خاصة قرطبة ، وطبقاً لأحد المؤرخين ، فقد أراد الحكم الثانى - ذات مرة - معرفة كميات السردين التى تُباع فى عاصمته ، وبعد إجراء الحصر اللازم لها اتضح أن قيمة المبيعات اليومية تصل إلى حوالى ٢٠ ألف دينار ^(١٤٣) ، وبالرغم مما يمكن أن يحيط بهذا الرقم من شكوك إلا أنه يعتبر مؤشراً للحجم الذى كانت تمثله الأسماك البحرية فى غذاء حاضرة الأندلس التى كانت تستهلك كذلك كميات كبيرة من "الشابلات" (أو "الصابوغات") نظراً لسهولة صيدها من الأنهار وروافدها خلال موسم عودتها إليها من البحر لى تضع بيضها .

لم يذكر الجغرافيون العرب شيئاً ذا بال عن تقنية الصيد فى الأندلس ، لكنهم أشاروا إلى وفرة الصيد فى "مالقة" و "المنكب" وجزيرة "شلطيش" التى كانت تمتد إشبيلية باحتياجاتها من الأسماك ، تحدث البكرى عن صيد سمك التونة من ساحل إقليم "شنونة" عند مروره من الأطلسى إلى المتوسط خلال شهر مايو ^(١٤٤) ، لم يتوقف نشاط صيد التونة فى هذا الإقليم منذ ذلك العصر ، خاصة فى مضارب "الزهراء" (ميناء صيد صغير على بعد ١٥ كم من شمال غرب جزيرة طريف) والدليل على ذلك انتقال صدها إلى الأدب القصصى للعصر الذهبى ^(١٤٥) .

وقبل أن ننهى حديثنا عن الصيد نذكر أن ساحل الأطلسى قد شهد عمليات البحث عن العنبر ، سواء فى (Setubal) أو فى "الغرب" أو فى "شنونة" ^(١٤٦) ، كما كان يستخرج المرجان من المتوسط ، خاصة فى "بيرة" (Vera) القريبة من "ألمرية" .

٥ - الإنتاج الصناعى والتبادل التجارى

النظام الاقتصادى :

لم تنظم الخلافة الإسبانية حياتها الاقتصادية بشكل مختلف عن بقية دول العالم الإسلامى المعاصرة لها ، صحيح أن صفتها الزراعية ، وعمرانها النسبى بالسكان ، ويعدها عن الشرق الإسلامى ، وطبيعتها الجغرافية الخاصة ، وتحرش جيرانها المسيحيين والمسلمين بها قد جعلها لا تعمل كثيراً على الخارج سواء بالنسبة لاكتفائها الغذائى أو الصناعى ، ومن هنا فقد عملت جاهدة لى تعتمد على نفسها بقدر الإمكان فى تلبية احتياجاتها ، وعكفت على أرضها لتستخرج منها المنتجات اللازمة لحياة سكانها والمواد الأولية التى تتطلبها صناعاتها ، وبالرغم من هذا الطابع المغلق لاقتصادها إلا أنها وجدت خارج حدودها متسعاً لبعض منتجاتها الطبيعية والصناعية وأقامت بالتالى علاقات تجارية مع الدول الأخرى لحوض المتوسط أخذت فى التطور - رويداً رويداً - على مدار العصر الوسيط .

وفى كل الأحوال ، لم تنهج الأندلس - للوفاء باستهلاكها أو التصدير أحياناً - نهجاً مغايراً للمتبع وقتها فى بقية العالم الإسلامى ، وعلاوة على هذا ، فإن عمليات التبادل الناجمة عن الصناعة كانت محكومة دائماً بالأخلاقيات التجارية الموروثة وبالقواعد الشرعية الصارمة التى تهدف إلى سلامة التعاقدات مما يؤدي إلى إلغائها أو يضيف عليها صفة المخاطرة .

وبالطبع ، فإن هذه الأخلاق التجارية المثالية لم تكن تُطبق بالحرف داخل المجتمع الإسلامى ، ولذا وجد السوق (مكان التعاقدات وإبرام الصفقات ، بكل ما تتسع له الكلمة من معان) نفسه خاضعاً لرقابة نواب السلطة المكلفين بالتحقق من جودة المنتجات الصناعية أو التى تُباع وتُشترى ، والتصدى للغش والتدليس وتتبع المخالفات وإنزال العقوبة بمرتكبيها ^(١٤٧) ، لكن "صاحب السوق" و "المحتسب" - من بعده - سرعان ما تقلصت اختصاصاتهما نتيجة لصدور مؤلفات "الحسبة" القيمة التى تمثل - كما ذكرنا - مصادرها الأساسية (المفصلة والجديرة بالتصديق) لدراسة الصناعة والتجارة ونظمهما فى إسلام العصر الوسيط .

ومما يرثى له حقاً أن المؤلفات الأندلسية - سواء كانت لابن عبدون أو السقطي - تعرض علينا أوضاعاً متأخرة عن عصر الخلافة بما لا يقل عن قرن ، لكنها ظلت تقريباً على حالها بعد ذلك في الغرب الإسلامي حتى العصر الحديث (ومعرفة أحوال المدن المغربية ذات التقليد الإسباني ما تزال حتى الآن دليلاً على لفهم طبيعة عمل المحتسبين الأندلسيين) ، ولهذا السبب لا نجد حرجاً في اعتبار الصورة التي تقدمها لنا هذه الأعمال بمثابة سند للعصر السابق لتأليفها ولعصر الطوائف بل للقرن العاشر أيضاً .

جرى العرف في العهد الأموي على اعتبار العمل ، الذي لا يكون بطبيعته زراعياً أو الذي لا يستهدف استغلال ما في باطن الأرض أو النباتات الطبيعية ، عملاً حضرياً (مدنياً) ، نفس هذا المفهوم كان سائداً في المغرب وإفريقيا ، لكنه كان أشد وضوحاً في إسبانيا لكثرة تعداد سكان مدنها وقراها ، لم يكن على المجتمع الحضري تزويد سكانه بقوتهم اليومي أو مستلزماتهم من المواد المصنعة فحسب ، بل كان مقرراً أيضاً لتعاقدات سكان القرى المحيطة به ، وهذا يفسر توجهُ جلِّ وصف الجغرافيين إلى الدور الذي تضطلع به كل مدينة أندلسية كسوق لقطاعها الإقليمي .

يبدو أن الأندلس لم تعرف - بالفعل - السوق الريفي الأسبوعي كالذي يُقام حتى الآن ، في أيام معينة ، بعيداً عن التجمعات العمرانية (عند مفترق طرق ، في العادة) على طول امتداد الشمال الإفريقي ، أما "الأسواق الجامعة" في الأندلس فكانت تقام دائماً على أبواب المدن مثل أسواق : "جيان" و "شَوْدَر" (Jódar) و "قرمونة" ، وموعد سوق الأخيرتين - طبقاً للبكري - كان الثلاثاء والخميس (على التوالي) (١٤٨) ، بعض المدن كانت تضم أيضاً "سوقاً للدواب" وما زال نفس المسمى يطلق على سوق طليطلة الشهير (Zocodover) .

وهناك عادة أخرى ، يبدو أنها أندلسية خالصة ، تتمثل في تأجير السوق من خلال مزاد عام لعدد من "المتقبّلين" ، كان أسلوب "القبالة" هذا ، (بالرغم مما قد يجره من حيف) ، هو المفضل في إسبانيا الإسلامية لأنه يسهل مهمة موظفي الضرائب المكلفين بتحصيل "المكوس" التي لا تطبق على البضائع في الأسواق فقط بل على الداخل منها أو الخارج من بوابات المدينة ، وكما ذكرنا ، فجميع إيرادات السوق (زكاة السوق)

كانت تصب مباشرة فى خزانة العاهل الخاصة ، كما كانت تؤجر "سقائف" السوق ؛ أما الورش والحوانيت فكانت إما تابعة للدولة أو أملاك وقف .

تقدم لنا النصوص التاريخية ما يفيد بوجود طوائف حرفية (نقابات) (المصنعون والتجار والمهنيون الذين يبيعون منتجاتهم للزبائن مباشرة) فى قرطبة وبقية المدن الأندلسية منذ القرن التاسع على الأقل ، لكن النقابات الأندلسية كانت عارية - على ما يبدو - عن المواصفات والسمات الملزمة لمثيلاتها فى العالم الإسلامى الشرقى (حيث يخضع الانضمام إليها لمراسم حقيقية) أو العالم الغربى المسيحى (الذى حصلت فيه الطوائف الحرفية على إعفاءات من البلدية ، وساهم نشاطها النقابى فى إبراز الشقاق بين أصحاب الأعمال والجمعيات العمالية) ، لا نجد شيئاً من هذا بين الطوائف الحرفية للغرب الإسلامى خلال العصر الوسيط ، إذ اقتصر هدفها - فيما يبدو - على الحصول على اعتراف السلطة بأمانة رجل منها ("أمين" ، ومنها الكلمة الإسبانية : *almán*) يتولى تمثيل النقابة التى ينتمى إليها أمام السلطة المدنية ، وبالتحديد أمام "المحتسب" ، ويصبح هذا "الأمين" (النقابى) المسئول الأول أمام "المحتسب" (الذى قام باختياره وتعيينه) عن أى خطأ يرتكب داخل نقابته ضد قواعد وأسس النزاهة التجارية .

كان يتم بكل مدينة - داخل بعض أحيائها الوسطى أو فى الأطراف - تحديد أماكن التصنيع والبيع لكل نقابة ؛ لكن غالبية النقابات كانت تتجمع فى السوق الممتد على مقربة من المسجد الجامع ، والذى التجارى فى قرطبة كان يشغل - على امتداد النهر والحائط الشرقى للمدينة - كل المساحة الواقعة بين المسجد الجامع وحي "الشرقية" (*Ajarquía*) ، كان السوق - الذى يتألف من دكاكين أو حوانيت وطيئة عبارة عن متاهة من الحارات الضيقة ، وكل نقابة لها حارة تحمل اسمها ، وفى بعض المفاقر هنا وهناك ، توجد ميادين صغيرة مربعة ("رَحْبَة" أو "تربيعة") ينتشر فوقها ظل شجرة عتيقة .

أما المتاجر الراقية فكانت تتجمع فى "قيسريات" (ومنها الكلمة الإسبانية *alcaic-erías*) ، وهى عبارة عن أفنية واسعة محاطة بأروقة تضم محلات متواضعة أمام كل منها ممر مسقوف^(١٤٩) ، وعلى نفس هذا النظام كان "سوق الملابس" الذى عُرف بالاسم الرومانثى *Marqatal* (ولا يزال المسمى يطلق حتى الآن على سوق الملابس بمدينة فاس (١٥٠)) .

لم يكن يجرى فى حوانيت السوق وملحقاته بالأحياء سوى البيع بالتجزئة (القطاعى) ؛ أما تجارة الجملة فكان يحتكرها التجار المختصون بهذا النوع من التجارة والوكلاء التجاريون أو السماسرة (الجلّاس) الذين يشترون البضائع الجاهزة من المصنعين أو المستوردين ثم يبيعونها لحسابهم عن طريق الدالين ، وكما يحدث فى المدن المغربية حالياً ، فالبيع عن طريق "الناداة" (ومنها الكلمة الإسبانية Almoneda) لم يكن خاصاً بالبضائع القديمة بل يشمل الجديدة كذلك ، ولنا أن نتصور مدى الحركة التى يبتثها رواح ومجبيء الدالين فى الشريان التجارى ، وكما يجرى أيضاً فى المغرب حالياً ، فقد كان تجار الجملة يشنونون بضائعهم فى مخازن (فنادق) (١٥١) .

بالرغم من شيوع استخدام كلمة "فندق" (funduq) فى الأندلس خلال العصر الوسيط ، إلا أنه كان يُفضّل أثناء الخلافة القرطبية إطلاق كلمة "خان" (ذات الأصل الفارسى) على هذه المخازن ، يتألف "الخان" - كما هو الحال فى الشرق - من أربعة أجنحة من المباني المتعددة الطوابق ذات الأروقة ، وتطل أروقة الأجنحة على فناء مستطيل يتوسطها ، يتم الدخول إليه عن طريق دهليز ، كانت غرف الدور الأرضى مخصصة لتخزين البضائع ، بينما تُؤجر غرف الأدوار العليا للمسافرين العابرين (١٥٢) ، أما الفندق فكان مخصصاً - فى الغالب - لتخزين الحبوب التى اشتراها دلالو الغلال (ميار) من الريف ولبيع القمح - حباً أو طحيناً - فى مزاد عام .

فى الطائفة المهنية يجب التمييز بين "المُعَلِّمين" و "الصُنَّاع" و "المتعلمين" ، كان صاحب العمل يستثمر ماله الخاص ، لكن غالباً ما كان يتعاقد اثنان أو أكثر على المساهمة فى رأس المال والاشتراك فى حانوت واحد ، كان الأمر يجرى على هذا المنوال فى الورش الصناعية التى تحتاج لآلات باهظة التكاليف مثل ورش الحدادة والمصابغ والمدابغ وأنوال النسيج ، أما بالنسبة لرقابة "المحتسب" الدائمة فإنها لم تكن تفرق بين "آرباب الصنائع" أو التجار (أهل السوق) (١٥٣) .

المهن فى الحضر :

لا ننوى تحت هذا العنوان استعراض كافة المهن التى كانت موجودة خلال القرن العاشر فى التجمعات الحضرية الهامة مثل قرطبة وإشبيلية (١٥٤) ، ذلك لأننا سنعرض عدداً منها عند حديثنا عن المظاهر المختلفة لحياة المواطن الخاصة فى عصر الخلافة ،

ومن ثم سنقتصر هنا على تقديم لمحة سريعة عن الطوائف الحرفية الرئيسية مكتفين بالإشارة إلى ما يتعلق منها بالأغذية وصناعة الملابس .

شاهدنا من قبل كيف كان تجار التجزئة يشترون الغلال والبقول الجافة والدقيق من تجار الجملة ، كانت العائلات البروجوازية تعجن خبزها فى البيت ثم ترسله إلى الأفران العامة لإنضاجه (١٥٥) ، كانت الأفران منتشرة فى الأحياء الرئيسية وتستخدم حرّم أفرع الشجر أو أعشاب الأحراج كوقود ، ولما كان أجر الفرن عبارة عن قطعة من العجين الذى سينضجه فإنه كان يُعدّ من العجين المتجمع لديه خبزه الخاص ويبيعه فى السوق أو أمام مخبزه ، كان يوجد بكل حى من الأحياء شارع تجارى به محلات الجزارة (التي تبيع لحوم الضأن والماعز ، وأحياناً لحوم الأبقار) والخضروات والفاكهة والبقالة (التي تبيع ، بالإضافة إلى التوابل مثل الملح والفلفل والزعفران وغيرها من الأفاويه ، الزيت والزبدة المملحة والبيض والسكر والعسل) ، أما الأطعمة الجاهزة فكانت من الأنشطة الرائجة فى ذلك الزمان (كما يحدث حالياً فى فاس وتونس) ، وكان الحلوانية والطّاهة يعدونها أمام أعين الزبائن المصطفين لطلب رؤوس الأغنام المشوية فى الأفران والسّمك المقلّى والسجق والعجائن المقلية والحلويات ، بالإضافة إلى أنواع أخرى من الأطعمة سنعرض لها عند حديثنا عن غذاء الأسرة الأندلسية ، وبالطبع ، فإن هذا النوع من النشاط - الذى يسهل فيه خداع المشتري - كان يتطلب عناية خاصة من المحتسب وأعوانه .

أما صناعة وتجارة الملابس (الثياب وأغطية الرأس والأحذية والنعال) - الخاضعتان ، مثل غيرهما ، للرقابة والقوانين الصارمة - فكانتا تحتكران الشطر الأكبر من الأنشطة المهنية بكل مدينة ، كان نسج أقمشة الكتان والقطن والأغطية والسجاد يتم فى ورش خاصة تعرف (مثل مصانع الحرير والاستبرق الملكية) بدور "الطراز" (١٥٦) ، قدمت صناعة النسيج وصناعاتها التكميلية (مثل تمشيط الصوف والغزل وإعداد القماش والصباغة) ألقاً من فرص العمل للعمال المحترفين والمتعلمين الذين كانوا يمارسون أعمالهم فى شوارع عديدة يحمل كل منها اسم النقابة (الطائفة الحرفية) الموجودة فيه ، احتلت صناعة النسيج فى العاصمة حياً كاملاً يضطرب بحركة العمال المولدين والمستعربين : حى "الطرازين" ، كان المصنعون يبيعون القماش بالقطعة للمشتريين ، ويقوم هؤلاء بتسليمها للخياطين لقصها وحياتها ، كما كان

بالإمكان أيضاً شراء الملابس الجاهزة من الـ Marqatal أو الملابس المستعملة من شارع "السقاطين" (وما زال هذا الاسم يطلق على أحد شوارع غرناطة الحالية : Zacatin).

ومن جهة أخرى ، فقد أتاحت صناعة الجلود والفراءات العمل لكثير من الطوائف الحرفية : الدباغين ، مصنعي الفراءات المبطنة والرقّ ونجاد السيوف . أما مصنعو الأحذية (وقد ثبت أن الكلمة الفرنسية : cordonniers مشتقة من اسم العاصمة الأندلسية نتيجة لشهرة جلود قرطبة في أوروبا الغربية خلال العصر الوسيط) فكانوا يصنعون الأحذية طبقاً لمواصفات معينة بيّنتها مؤلفات الحسبة ؛ لكنهم كانوا يلقون منافسة شديدة من مصنعي "الصنادل" ذات النعال الفلينية (المتخذة من الفلين) التي يقبل عليها الفقراء ، ومن جهة أخرى ، وجد الإسكافيون ومصنعو نعال الخيش والحلفاء متسعيناً لأنشطتهم .

لصناعة الحلفاء حيزٌ لا بأس به في الاقتصاديات الصناعية والزراعية للمدن ، لأن الحلفاء وجُمّار النخيل - بالإضافة إلى الأسل - كانت تستخدم في صناعة الحُصر والسُّلال وباقي الأوعية الخاصة بالمنتجات الجافة ، أما السوائل والشحوم فكانت ورش الفخّار والخزف تصنع لها أوعيتها ؛ إذ يقوم الفخّارون والزجاجون في أفرانهم القريبة من سور المدينة - من الداخل أو من الخارج - بتسوية الجرار المزججة الكبيرة (للزيت) ، والدوارق والقوارير ، والجفان (لعجين الخبز وغسيل الملابس) ، والصُّحاف والأطباق والفناجين ومواسير الصرف الصحي ، والبلاط الصغير (للتبليط) (١٥٧) ، وصناعة التزجيج التي تضيفى البريق المعدنى على بعض هذه القطع كانت معروفة أيضاً ، وكذلك صناعة الزجاج العادى والكريستال .

بعض الطوائف الحرفية كانت متخصصة في البناء والتشييد ، ومن بينهم الحَجَّارون (العاملون بالمحاجر) الذين يقومون بقطع الحجارة ونقلها ، والطوّابون (صنّاع الآجر) وصنّاع الأسقف (السقافون) بورشهم المجاورة لورش الخزافين وأفران الجبّاسين والجصّاصين ، وفنّ البناء يحتاج إلى بنائين متمرسين (١٥٨) ، لأن المهندسين حتى ذلك الوقت لم يكن يُستعان بهم لإعداد رسم هندسى مسبق للمباني .

كانت الكمرات والحوامل اللازمة - من خشب البلوط أو الصنوبر - تُنشر في مكان العمل بواسطة النجارين الذين يقع على عاتقهم أيضاً صناعة الأبواب والمشربيات ، أما الأبواب الحديدية والصناديق فكانت من عمل الحدادين الذين يصنعون كذلك العدد والمسامير والسلاسل والقضبان الحديدية . وهكذا ، كان صخب الحدادين والنحاسين يدوى في الشوارع المجاورة ولا يتوقف إلا مع دخول الليل .

وفى تلك الساعة يفرغ السوق شيئاً فشيئاً ، وتُنزل جماعة بعد أخرى أبواب محلاتها ، كان التجار يبادرون بالعودة إلى بيوتهم قبل أن يغلق أعوان "المحتسب" أو "صاحب المدينة" أبواب القيسريات والشوارع القريبة ، وخلال الليل يطوف العسس بالحي التجاري ويقبضون على المشتبه فيهم ، ومع هذا كانت السرقات والاعتداءات الليلية هي حديث كل يوم في قرطبة خلال القرن العاشر ، لدرجة أن المنصور اتخذ سلسلة من الإجراءات القمعية بهدف نشر الأمن والأمان (١٥٩) .

الصناعات الراقية وتسويقها تجارياً :

في أواخر عهد عبد الرحمن الثالث أخذت عاصمة دولته (المشهوره في الغرب المسيحي وبيزنطة والامبراطورية العربية الشرقية) تنافس بغداد في الصناعات الراقية وفي تجارتها ، لم يكن يزاحم قرطبة في هذا المجال على المستوى المحلى سوى ميناء "ألرية" (الذى سيحل محلها بعد سقوط الخلافة مباشرة) وجارتها إشبيلية ، ففي القرن العاشر كانت "ألرية" المكان الذى تخرج منه معظم الصادرات الأندلسية المتجهة إلى إفريقيا وشرقى المتوسط وآسيا ، وتحط فيه الواردات المجلوبة من العراق أو بيزنطة قبل نقلها إلى قرطبة ، ومن جهتها ، كانت الممالك المسيحية في شمال شبه الجزيرة تمثل أسواقاً هامة للصناعات الأندلسية الراقية ولل بضائع التى تمر أولاً بالعاصمة الأموية ليعاد بيعها على الجانب الآخر من الثغور بواسطة السماسرة اليهود أو المستعربين ، تقدم لنا وثائق لا تحصى البراهين القاطعة على التأثير الذى تركته قرطبة في ذلك العصر على ملابس وأثاث بيوت أرسقراطية إسبانيا المسيحية ، ولم يفصح هذا التأثير عن نفسه فقط في تبنى وجهاء بلاط مملكة "ليون" لحياة الخاصة الأندلسية الفارهة ، بل في كثير من المفردات والمصطلحات المستعارة من اللغة العربية ؛ وهذا أبلغ دليل على المكانة المرموقة التى كانت تحتلها المنتوجات الراقية للصناع القرطبيين أو البغداديين

المهرة . من الشواهد المعبّرة - على سبيل المثال - ظهور السلع الراقية (مثل الأقمشة المقصبة الفاخرة ، المنسوجات المطرزة ، الديباج والمصنوعات الأخرى لنور "الطراز" الأندلسية) فى وثائق "ليون" متبوعة دائماً بوصف "بغدادى" أو "بصرى" إلى غيرهما من النعوت العربية (١٦٠) .

ومما سبق ذكره يتضح أن صناعة نسج الأقمشة (المخصصة لتلبية احتياجات الجهاز الحاكم وطبقة الخاصة من ملابس ، والقصور من أثاث) كانت - كالحال فى بغداد وبيزنطة خلال ذلك العصر - تمثل القسط الأعظم من أنشطة التجارة الفاخرة فى الخلافة القرطبية ، وقد ساهمت طبيعة البلاد الجغرافية فى تطوير هذه الصناعة ، فالأندلس - كما نعلم - كانت تنتج بوفرة معظم خامات النسيج والأصباغ الضرورية ، وعلى سبيل المثال لم يكن إنتاجها من الصوف [فى الأقاليم المخصصة لتربية الأغنام مثل "شنتجيلة" (Chinchilla) و "قونقة" (Cuenca)] يسد حاجتها فحسب بل يفي أيضاً بالطلبات الخارجية ، اشتهرت سرقسطة بالأقمشة الكتانية ، لكن المصنوعات الحريرية هى التى أفسحت للأندلس مكان الصدارة (١٦١) .

ومنسوجات الديباج والقصب القرطبية اكتسبت شهرة مستحقة ، وكانت تصنع فى دور الصناعة الملكية ، وتُظهر العينات القليلة الباقية حتى الآن من دار "طراز" العاصمة (١٦٢) مدى ما وصل إليه نساجو المصانع الرسمية من فخامة وإتقان ورفاهية فى التصوير عندما صنعوا هذه السجاجيد السمكية التى رسموا فوقها بخيوط من ذهب اسم العاهل الحاكم ، كما كانت توجد ورش معتبرة للصناعات الحريرية فى "بسطة" و "قنيانة" (شمال غرب وجنوب "وادي آش" حيث تكثر أشجار التوت وتنتشر تربية دودة القز) ، وقد تخصصت الأولى فى صناعة المصليات ، بينما اتجهت الثانية لصناعة أغطية رؤوس النساء ، وكانت هذه الأغطية مطلوبة بشدة فى مملكة "ليون" وعرفت فيها باسم (alfiniane) (١٦٣) .

كما شهدت صناعة الجلود والفراءات تطوراً ملموساً فى الأندلس لقسوة الشتاء فيها ، خاصة فى المناطق العالية ، عن بقية الغرب الإسلامى ، وقد تحدث الرحالة الذين وصفوا إسبانيا فى القرن العاشر عن تصدير جلود "الحارود" و "السُمُور" التى اشتهرت بها سرقسطة (١٦٤) ، أما جلود "بنات عرس" و "السنباب" فكانت تلقى رواجاً

شديداً فى كل من قرطبة و "ليون" (١٦٥) ، كما كانت معاطف الفرو المبطنة - سواء المتخذة من جلود الأغنام أو الأرانب - مجالاً خصباً لقيام صناعة وتجارة نشطتين تحدثت عنهما مؤلفات الحسبة (١٦٦) ، ومن الصناعات الراقية الثابتة فى عصر الخلافة صناعة الخزف والبللور ، وقد كشفت التنقيبات فى مدينة الزهراء عن نماذج رائعة منها ، تجدر الإشارة فى هذا المقام إلى أن قرطبة من النصف الثانى للقرن التاسع (عباس بن فرناس) هو الذى اكتشف سر صناعة البللور ، وأنه أجرى تجاربه العملية عليه فى أفران العاصمة الأندلسية ، لا شك أن "قلعة أيوب" و "مالقة" قد اشتهرتا بأطباقهما المذهبة المنقوشة ، لكن إقليم "بلنسية" (خاصة ورش "بطرنة" و "منيسس" (Manises) التى يعمل بهما كبار الخزافين المهرة) هو الذى أعطى للخزف العربى/الإسبانى (ومنه نماذج رائعة محفوظة فى عدد من المتاحف الأمريكية والأوربية) الشهرة الأبدية .

فى القرن العاشر كانت الأندلس تنافس - ويحق - بيزنطة فى المشغولات الذهبية والفضية والأحجار الكريمة ، لم تكن قرطبة متخصصة فقط فى تشكيل ونقش الحلى والعقود والأساور والأقراط ، إلى غيرها من المشغولات الذهبية (١٦٧) ، بل أيضاً فى شغل الكهرمان الأسود (سبج) والجلود المزخرفة بنقوش بارزة (وتسمى "غدامس" نسبة إلى الواحة الليبية المسماة بهذا الاسم) والعاج (عظم النيل) (١٦٨) ، وتكشف تعشيقات الخشب المطعم بالصدف والعاج ، ولب المجوهرات المستديرة أو الأسطوانية المرصعة بالعاج والمزينة بالأشكال البارزة (خاصة مشاهد الصيد) والمنقوش على أفاريزها كتابات بالخط الكوفى ، عن تقنية متقدمة للغاية تضارع فن النحت على الأحواض والفناجين التى نملك منها أيضاً نماذج جميلة ترجع لعصر الخلافة .

ويمكن إدراج الورق والرقاع (الرق) فى الصناعات الراقية ، كان "الرق" (١٦٩) يصنع عادة من جلود الأغنام المكشوفة المغرأة ، لكن "رق" الغزال المجلوب من الصحراء كان أكثر متانة ورقة ، ويشير المقدسى (١٧٠) إلى براعة الأندلسيين فى صناعة الورق خلال القرن العاشر (خاصة إقليم "بلنسية") ، وأجود أنواع الورق ما يعرف بالشاطبى (نسبة إلى "شاطبة") وكانت أوراقه السميكة المصقولة تصنع - على الطريقة الشرقية - من عجينة غزول الكتان والقنب المعطونة فى ماء الكلس المضغوط ، وبعد عصر الخلافة اختفى استعمال "الرق" من كافة أنحاء الأندلس تقريباً وحل محله الورق (١٧١) .

تجارة الرقيق :

عندما تحدثنا عن هيكل المجتمع الأندلسى فى عصر الخلافة أشرنا إلى أهمية تجارة الرقيق (البيض والسود ، خاصة الخصيان) فى الاقتصاد العام للدولة ، وإذا كنا نعود الآن لنتناول نفس الموضوع فلكى نضيف إلى هذه التجارة بعض التفاصيل الفنية المستخلصة من صيغ العقود والمحركات (١٧٢) ومن مؤلف "السقطى" فى الحسبة (١٧٣) الذى أفرد لها فصلاً كاملاً . كان للنخاسين بكل مدينة هامة - من بينها قرطبة ، بالطبع - معارض خاصة لبيع وشراء "الرقيق" من الجنسين ، وكانوا يتبعون فى ذلك نفس الطريقة التى صورها المؤلفون المشاركة للعصر ذاته عند حديثهم عن مدن الامبراطورية العباسية (١٧٤) .

بالنسبة للإناث يجب التمييز بين "المُرْتَضَعَات" وبين "وحش الرقيق" ، ويتم تصنيف البيضاضوات تبعاً لأصولهن : فرنجيات ، جليقيات أو بربريات ، بينما تعتبر كل سوداء سودانية ، ولم تكن السودانيات أقل حظاً من غيرهن لرغبة الكثيرين فى اتخاذهن محظيات أو للخدمة فى البيوت ، ومن بين البيضاضوات كانت الأسعار العالية من نصيب "الجوارى" الفرنجيات والصقلبيات اللاتى مازلن يجهلن تماماً لغة المشتريين وعاداتهم ، وبعد رسو المزاد على السعر الأعلى يقوم صاحبه - قبل إتمام الصفقة - بفحص بضاعته بدقة متناهية تحسباً لأى غش محتمل ، لكن مهمة فحص الجارية المباعة وتدوين ما يمكن من بياناتها الشخصية كانت تقع عادة على كاهل القابلات (والأطباء ، أحياناً) ، وكل قابلة (أمينة) كانت تتلقى تكليفاً خاصاً من "المحتسب" لإمداده بكافة المعلومات عن الصفقات التى يتوقع أن ينجم عنها خلاف ، كما أن محضر البيع ذاته يتضمن كافة التفاصيل - حتى التافه منها - عن الأسيرة البائسة وغيوبها الخلقية وكأن الأمر يتعلق بدابة من الدواب ، ولهذا الغرض كان موثقو العقود يستخدمون نماذج تحتوى على بنود مخصصة للعيوب الجسمانية وملامح الجمال (نعوت) فى الرقيق ، وما زلنا نحتفظ بأنموذج من هذه العقود وعليه توقيع فقيه قرطبى مشهور (١٧٥) معاصر لعبد الرحمن الثالث ، وبالرغم من تلك الاحتياطات ، كان المشتري يقع أحياناً فى شرك الخداع كما تشهد بذلك النادرة اللطيفة التى رواها السقطى فى مؤلفه (١٧٦) عن الأندلسية التى بيعت لساذج من "إلبيرة" على أنها أسيرة مسيحية من أصول عريقة

لا تعرف سوى اللغة "الرومانشية" (الأعجمية) ، لكن أمرها افتضح بعد ذلك عندما أخطأت ولم تمسك لسانها وتحدثت في الطريق بالعربية إلى تاجر عجوز تعرّف عليها وكشف الحيلة التي اشتركت في تدبيرها مع بائعها الغشاش ، ومع هذا ربحت صفقة المشتري المخدوع لأنه اتبع نصيحة الفتاة وحملها إلى "ألرية" حيث باعها بمبلغ يزيد عما أنفقه في شرائها .

سنشير في كلمات قليلة إلى كلف الأمراء والأرستقراطية القرطبية بالقيينات الجلويات - بمبالغ طائلة - من الشرق حيث تدربن وأتقن فنون الرقص والغناء ، لو نسينا فلن ننسى الثلاث مدنيات (نسبة إلى المدينة المنورة) ، محظيات عبد الرحمن الثانى (وله من كل منهن ولد) اللاتى كن يدرن "أوركسترا" (جوقة) من الجوارى الموسيقيات ، وإن ننسى كذلك الحسناء "قمر" ، المغنية البغدادية ، التى اشتراها "إبراهيم بن الحشاش" (أحد سادة إشبيلية فى نهاية القرن التاسع) من الشرق ودفع فيها مثل وزنها ذهباً . فى عصر الخلافة شهدت قرطبة مقدّم عدد من المغنيات الشهيرات فى الشرق^(١٧٧) ، وهذا - على ما يبدو - أمر غريب لأن العادة جرت على تدريب المغنيات داخل البلد ذاته حيث ترك زرياب وتلاميذته - منذ القرن السابق - عدداً من المدارس الفنية المنتشرة فى قرطبة وفى بعض عواصم الأقاليم .

فى عصر الطوائف استمر تهافت الأمراء المسلمين على الجميلات العارفات بفنون الغناء الأندلسى ، وكذلك على الجوارى المثقفات (فى علوم اللغة والأدب والعلوم) ، وكان المعلمون المحترفون يتولون تعليمهن ثم يبيعهن من جديد بأسعار طائلة .

لدينا فى هذا المقام شهادة أوردها ابن بسام^(١٧٨) تفيد بتباهى الطبيب الأندلسى "ابن القطّانى" فى بداية القرن الحادى عشر ، بتعليمه أربع فتيات مسيحيات كافة العلوم والفنون : من الفلسفة والفلك حتى العروض وعلم الخطوط ، وقد باع إحداهن بمبلغ خيالى (ثلاثة آلاف دينار) لأول حاكم استقل بإمارته عن دولة الخلافة ، ونعنى به البربرى "هذيل بن رزين" ملك "سهلة" ("شنتمرية الشرق" أو "شنتمرية ابن رزين") ، وكما يروى المؤرخون ، فقد كانت هذه الجارية بمثابة ريحانة حريم هذا الملك الذى أنفق ثروات طائلة على شراء أفضل مغنيات الأندلس ، وتلميذة "ابن القطّانى" هذه كانت - بالإضافة إلى مواهبها الطبيعية وثقافتها الأدبية - بارعة فى فن الشعوذة وممارسة الألعاب البهلوانية بالأسلحة الحادة .

طرق الملاحة والتجارة :

لا شك أن النشاط التجارى المتواصل فى كافة أنواع البضائع - سواء كانت للاستهلاك المحلى أو للتصدير والاستيراد - يتطلب الحركة الدائبة على الطرق بين الأقاليم المختلفة للأندلس ، لا تهدأ تلك الحركة إلا فى الظروف المناخية السيئة ، وفيما عداها تجوب حيوانات النقل طرق الاتصال الرئيسية سواء كانت متجهة من قرطبة إلى المدن الكبرى الأخرى أو إلى موانئ التصدير العديدة مثل "الجزيرة الخضراء" و "مالقة" و "ألمرية" ، ناهيك عن شغف الأندلسيين بالسفر ، بالرغم من عدم اشتغالهم بنقل البضائع أو البريد ، وكما هو معروف ، فرحلات الذهاب والإياب بين إشبيلية والعاصمة كانت بمثابة إنكاء مستمر للحركة على الطرق التى تربط بين هاتين المدينتين العامرتين بالسكان ، سواء على امتداد نهر الوادى الكبير أو على الطريق المار بمدينة "إستجة" .

للقيام برحلة أو لنقل شىء ما كان يتعين الاتصال بوكالات السفر التى تؤجر المطايا ودواب الحمل ، وتبين العقود المحررة بهذا الشأن^(١٧٩) طبيعة حمولة كل دابة بما فيها الفُرش والزاد وأدوات المطبخ اللازمة للرحلة ، ويلتزم الحوذى الذى سيرافق الحملة باتباع خط سير محدد ، والبيات فى خانات معينة ، والتزود بالماء الكافى ، والتوقف عندما تحين الصلاة والسهر على سلامة الأفراد أو الأغراض المكلف بنقلها .

كانت المسافة التى تقطعها الدواب فى اليوم لا تتجاوز - فى الغالب - الثلاثين كم ، ولذا كانت الرحلات شاقة وطويلة ، كانت المسافة من "الجزيرة الخضراء" إلى قرطبة تتطلب [اعتماداً على الوقت الذى قضاه القائد "غالب" فى قطع نفس المسافة عند عودته من المغرب عام ٩٧٤م (٣٦٤هـ)] حوالى أسبوع ، وفى الطرق الرئيسية العامرة بالحركة يتوقف الركب فى نهاية اليوم عند استراحة (منزل)^(١٨٠) للمبيت بغرفة الوطينة ولتناول الطعام فى حالة وجوده ، كما كانت الأديرة الموجودة على الطرق تؤوى ليلاً المسافرين العابرين بما فيهم المسلمين .

كانت خطوط السير (المراحل والمنازل على الطرق) بين المدن الأندلسية الرئيسية مشابهة إلى حد كبير للطرق الرومانية (١٨١) ، وهذه الخطوط التي وصفها في البداية الجغرافيون المشارقة العرب هي نفسها الموجودة في الدليل المفصل الذي دونه الإدريسي في القرن الثاني عشر مع بعض التعديلات الطفيفة في المراحل اليومية أو الطرق الجانبية ، لكن تجدر الإشارة إلى أن الطرق المستخدمة في العصر الأموي كانت تميل في الغالب إلى اختصار المسافة بالسير في منخفضات الوديان ، بينما كانت الطرق القديمة تفضل الدوران حول المرتفعات ولذا كثرت بها التدرجات ، كانت الطرق الرئيسية في النصف الأول من القرن العاشر - طبقاً للإسطرخى (١٨٢) - أربعة عشر طريقاً ، وجميعها ينطلق من العاصمة الأموية : من قرطبة إلى "إشبيلية" و "إستجة" ، من قرطبة إلى "سرقسطة" و "تطيلة" و "لاردة" ، من قرطبة إلى "طليطلة" و "وادي الحجارة" ، من قرطبة إلى المنطقة الجبلية على جانبي الوادي الأوسط لنهر "تاجة" (التي يسكنها بربر "مكناسة" و "هواره" و "نقرة") ويمتد حتى "سمورة" ، ومن قرطبة إلى "قورية" حيث يلتقى مع طرق أخرى في "شنترين" و "ماردة" و "باجة" ، من قرطبة إلى "غافق" (في "فحص البلوط") ثم إلى "لبلة" ، ومن قرطبة إلى "إشبيلية" يوجد طريق ثان يمر بمدينة "قرمونة" ، وباتجاه الشمال تخرج من قرطبة ثلاث طرق : إلى "بجانة" و "ألرية" ، إلى "مرسية" ، وإلى "بلنسية" ، ومن "بلنسية" يمتد الطريق بمحاذاة الساحل الشرقي حتى "طرطوشة" ، وفي مقاطعة "أندلوثيا" ذاتها يوجد طريقان عرضيان يربط أحدهما "إستجة" بمدينة "مُورور" و "شنونة" (أو "مدينة ابن السليم") ، بينما يصل الآخر بينها وبين "أرشدونة" و "مالقة" ، كما كان يوجد طريق ساحلي يؤمن الاتصال بين "شنونة" و "الجزيرة الخضراء" و "مالقة" و "ألرية" و "مرسية" ، ويمتد من المدينة الأخيرة حتى "لقنت" و "بلنسية" (١٨٣) .

رأينا من قبل كيف أدى التهديد النورماندي أولاً ثم الحظر الفاطمي ثانياً إلى اهتمام حكام الأندلس منذ القرن التاسع - وفي العاشر بصورة أشد - ببناء السفن الحربية (التي كانت تشق عباب مضيق جبل طارق جيئةً وزهاًباً) وبتزويدها بالأطقم المناسبة من البحارة ومعظمهم كان من المولدين والمستعربين المجندين من بين سكان المناطق الساحلية في كورتي "بجانة" و "الشرق" (Levante) . وإلى جانب "دور

الصناعة المنهمكة فى بناء السفن الحربية ، قامت إسبانيا الإسلامية - لمواجهة النشاط التجارى المتزايد - بإنشاء ترسانات لبناء السفن التجارية سواء للملاحة على شواطئ المملكة أو للاتصال "بجزائر البليار" أو للرحلات البعيدة صوب الموانئ الإفريقية والمصرية .

وبالإضافة إلى البضائع التى يمكن أن تحملها السفن التجارية إلى "طبرقة" أو "سوسة" أو "الإسكندرية" فإنها كانت تُقل الركاب الذين تتضاعف أعدادهم قبيل موسم الحج إلى الأماكن المقدسة الإسلامية ، وقد شهد هذا النشاط الملاحة تزايداً ملحوظاً بانضمام أعمال القرصنة إليه (تحدثنا عنها بالتفصيل فى المجلد السابق) ، وستتسع هذه الأعمال بعد سقوط الخلافة لدرجة السماح لصقلى مثل "مجاهد" (المولى العامرى) بتكوين إمارة بحرية حقيقية تشمل المنطقة الواقعة بين "دانية" و "جزائر البليار" .
قد لا نضيف جديداً لو أشرنا إلى أن السفن المبنية والمجهزة فى الأندلس لم تكن تستوعب كافة تجارتها البحرية ، وأن سفناً إفريقية ومصرية كانت تأتى بصفة دورية إلى الموانئ الأندلسية على سواحل البحر الأبيض المتوسط لنقل البضائع والمسافرين إلى البلاد القادمة منها ، ولا شك أن الشيء نفسه كان يحدث فى ذلك العصر مع الوحدات البحرية المسيحية لموانئ الثغور الإسبانية - مثل "برشلونة" و "أمبورياس" (Ampurias) - التى ستزاحم ، فى القرون التالية ، أساطيل "بيزا" (Pisa) و "جنوة" التجارية ، وينتهى بها المطاف إلى ابتلاع تجارة الأندلس البحرية .

تناولت صيغ ومحركات العقود الملاحة البحرية وأفردت الصفحات اللازمة للحديث عن بناء السفن أو تأجيرها للغير للقيام برحلات معينة ، وأهمية تلك الوثائق تكمن فى التفاصيل الفنية التى تسوقها عن معدات وتجهيزات تلك المراكب وقواعدها وصواريخها وأشرعتها ، ومن أسماء القطع البحرية المتداولة آنذاك (مثل "زورق" ، و"شانى" ، و"حراق" ، و"مركب" ، و"سفينة" .. إلخ) يتبين لنا أنه لم يكن يوجد حتى ذلك الوقت تمييز واضح بين المراكب التجارية والحربية ، وذلك لإطلاق المسميات المذكورة عليهما دون تفرقة ، ومع هذا ، وفى حالة عرض أى مركب للبيع أو الإبحار يتعين وضعه جافاً على الشاطئ لكى يقوم المهتم بفحص بدنه (غاطسه) والتعرف على حالة جلفطته (١٨٤) .

لا نعرف إلا القليل عن الملاحة النهرية التي لم تكن تُمارس إلا فى حدود ضيقة باستثناء النشاط على نهر "الوادي الكبير" بين قرطبة وإشبيلية (١٨٥) .

وفيما عدا هذا ، تتحدث الوثائق الفنية أو القانونية - أحياناً - عن اجتياز نهر "الوادي الكبير" على مشارف هاتين المدينتين بواسطة "المعديات" (القوارب) ، كانت هناك "مراسى" مخصصة لهذا الغرض ، ويتولى قيادة "الطوافات" بحارة متمرسون ("نوتية" ، مفردها "نوتى") ، وفى هذه العملية كان أعوان "المحتسب" مكلفين بمنع "المعديات" من تجاوز الحمولة المسموح بها ، وبالتحقق - إذا استدعى الأمر - من هوية الركاب (١٨٦) .

عرفنا من قبل أن المسافات البحرية كانت تُحسب بالميل ، أما بالنسبة لأخطار ونوازل الإبحار فى المتوسط فليس أمامنا من سبيل للتعرف عليها سوى انتظار الحكاية التى رواها الأندلسى "ابن جبير" عن رحلته إلى الشرق ، وإن كان الشاعر السفير "يحيى الغزال" قد سبقه فى القرن التاسع ووصف - بواقعية شديدة - العاصفة الهوجاء التى اجتاحت السفينة التى نُقله إلى العاصمة البيزنطية (١٨٧) ، ونشير فى النهاية إلى أن اجتياز مضيق جبل طارق (بين "الجزيرة الخضراء" و "سبتة") ، وبرغم قصر المسافة ، كان - فى ظل الظروف المناخية السيئة - مصدرًا للرعب والفرع ؛ أما فى حالة اعتدال الجوفإن رحلة العبور لم تكن تستغرق - مع الرياح المواتية - إلا ثلاث سويعات فقط (١٨٨) .

هوامش الفصل الخامس

(١) قدم «ليفى بروفنسال» لوحة مفصلة عن الحياة الاقتصادية في عصر الخلافة القرطبية ، فى كتابه :
Esp. mus. X^o siècle, págs. 157-194 .

انظر أيضاً :

- Aguado Bleye : Man. Hist. Esp., I, págs. 452-455.

- L. G. De Valdeavellano : Hist. de Esp., I, págs. 639-643 .

ومن جهة أخرى يمكن استشارة نتائج بحث César E. Dubler عن المظاهر المختلفة للحياة الاقتصادية فى شبه جزيرة إيبيريا من القرن الحادى عشر حتى الثالث عشر ، المنشور فى المجلد الثانى والعشرين من :

RománicaHelvética, Ginebra-Zurich, 1943 .

(٢) عن الأدب الجغرافى الخاص بإسبانيا الإسلامية لا يزال العمل التالى يعتبر الأفضل فى هذا المجال بالرغم مما يحتوى عليه من قصور :

- J. Alemany Bolufer : La geografía de la península Ibérica en los escritores árabes (extractos de la Rev. Centro Est. Hist. de Granada, Granada, 1921).

سبق هذا العمل كتاب آخر للمؤلف بعنوان :

- La geografía de la península Ibérica en los textos de los escritores griegos y latinos (extrcto de la R. A. B. M., Madrid, 1911).

كما جاء بعده عمل آخر لنفس المؤلف تحت عنوان :

- La geografía de la Península Ibérica en los escritores cristianos desde San Isidoro hasta el siglo XIX (extracto de le Rev. centro Est. Hist de Granada, Granada, 1923).

انظر أيضاً المقالات المخصصة لادن الأندلس وإقليمها فى (la Enc. Isl) ، ومقدمة ليفى بروفنسال فى :
La Péninsule Ibérique au Mayen Age .

(٣) نشر المستشرق الهولندى M.J.De Goeje جميع هذه الكتب فى :

Bibliotheca Geographorum Arabicorum, Leiden.

(٤) انظر ترجمة G. Wiet : Les pays, Cairo, 1937, págs. 217-221 وأيضا

Alemany, op. cit. Págs. 7-11

(٥) انظر :

B. G. A., V, págs. 37-46. Cf. Alemany, op. cit., págs. 14-19

(٦) B. G. A., II, págs. 74-79. cf. Alemany, op. cit., págs. 19-28 الجديدة لابن حوقل التي نشرها :

J. H. Kramers, t. I, Leiden, 1938.

طبقاً لمخطوطة « إسطامبول » التي تحمل عنوان « كتاب صورة الأرض » .
(٧) انظر :

B. G. A., III, págs. 215-248. Cf. Alemany, op. cit., págs. 35-44

(٨) انظر :

- Alemany, op. cit., págs. 28-35

- Lévi-Provençal : Esp. mus. X^o siècle. pág. 117 .

(٩) انظر :

- Alemany, op. cit., págs. 78-122

(١٠) في « مذكرات الأكاديمية الملكية للتاريخ » (الجزء الثامن ، مدريد ، ١٨٥٢) كملحق للعمل الذي يحمل العنوان التالي :

Memorias sobre la autenticidad de la Crónica denominada del

Moro Rasis, págs. 33-63 .

(١١) ألحقت صورة من ترجمة Gil Peres بـ « مدونة التاريخ العام » لسنة ١٢٤٤ ، وقد تم نشر الاثنتين مؤخراً بواسطة L. F. Lindley Cintra تحت عنوان : Crónica general de Espanha de 1344, II , Lisboa, 1952 (public. de la Academia Portuguesa de Historia).

(١٢) انظر :

- Lévi-Provençal : La Péninsule Ibérique, pp. XXI-XXI V y 245-252 .

(١٣) ترجمة ونشر :

- M. G. De Slane : Description de l'Afrique septentrionale (nueva ed., Argel, 1911, trad. Argel, 1913).

(١٤) انظر :

- Description de l'Afrique et de l'Espagne, ed. y trad. Francesa por

R. Dozy y M. J. De Goeje, Leiden, 1866

- E. Saavedra : La geografía de España de Idrisi, Madrid, 1889.

أما الجزء الخاص بإسبانيا في « نزهة المشتاق » للجغرافي الشهير ، فيستحق طبعة نقدية جديدة تبرز أفضل القراءات له وتسمح لنا - بالتالي - بترجمة أدق وأوفى من ترجمة لوزي و « دي جوج » (De Goeie)

(١٥) خاصة في المجلد الأول من الطبعة الجزئية التي نشرها كل من :

R. Dozy, Dugat, Krehly Wright ، تحت عنوان :

Analectes sur l'histoire et la littérature des Arabes d'Espagne, Leiden, 1855-1861. Cf. Alemany, op. cit., págs. 182-187 .

(١٦) عن هذه الوثيقة انظر :

- Simonet : Hist. de los Mozárabes, págs. 612 sigs .
- Lévi-Provençal : Esp. mus. X^o siècle. pág. 171 .
- Dubler : Wirtschaftsleben, pág. 48 y nota 7.

أما النص اللاتيني فقد نشره لأول مرة :

- Lirri : Histoire des sciences mathématiques en Italie, Paris, 1838, I, págs. 393 y sigs .

وطبعة « ليدن » للتقويم القرطبي هذا قد نفذت منذ فترة وتستحق الطبع من جديد .

(١٧) عن الأدب الزراعي الأندلسي نحيل إلى العرض الرائع لإميليو جارتيا جومث ، بعنوان :

- Sobre agricultura arábigoandaluza : Cuestiones bibliográficas, en Al- Andalus, X, 1945, págs. 127-146.

وفي نفس المجلة نذكر المقالات التالية :

- C. E. Dubler : Posibles fuentes árabes de la " Agricultura general " de Gabriel Alonso de Herrera (VI, 1941, págs. 145 y sigs.) y los de J. M^a Millás Valligrosa, La traducción castellana del " Tratado de agricultura " de Ibn Wafid (VIII, 1943, págs. 281-332), y la traducción castellana del (Tratado de agricultura " de Ibn Bassál (VIII, 1948, págs. 347-430).

(١٨) انظر على وجه الخصوص :

- M. Meyerhof : Esquisse a'histoire de la pharmacologie et botanique chez les Musulmans d'Espagne, en al-Andalus, III, 1935, págs. 1-41 .

(١٩) انظر :

- F. J. Simonet : Glosario de voces ibéricas usadas entre los mozárabes, Madrid, 1888.

- M. Asín Palacios : Glosario de voces romances registradas por botánico anónimo hispano-musulmán (siglos XI-XII), Madrid-Granada, 1943 .

يعتمد العمل الثاني على مخطوطة مدريدية عبارة عن فهرسة أبجدية للمصطلحات النباتية ، ولدى G. S.

Colin نسخة منها .

(٢٠) لا نعرف حتى الآن سوى مخطوطة واحدة لكل عمل من هذين العملين ، والمخطوطتان موجودتان

في مدريد بمدرسة الدراسات العربية التابعة لمعهد آسين بلاثيوس ، وقد تم اكتشاف المخطوطتين في

« الموناسيد دي لا سيرا » (رغون Aragón) عام ١٨٨٤ م ، وقام « خوليان ريبيرا » و « أسين بلاثيوس » بوصفهما وصفاً مفصلاً والتعليق عليهما في العمل التالي :

Manuscriptos árabes y aljamiados de la Biblioteca de la Junta, Madrid, 1912, núm. V, págs. 17-33 y num. XI, págs. 57-69 .

ومؤلف صيغ العقود الأول (ومخطوطة مدريد لا تحتوي إلا على جزئه الثاني ويون عنوان) من إعداد : « أبو محمد عبد الله بن فتوح بن عبدالواحد الفهرى القيسى » فقيه « البونت » (Alpuente) المتوفى عام ١٠٧٠ م (٤٦٢ هـ) الذى تحدث عنه ابن بشكوال فى « كتاب الصلة » (رقم ٦١١) ، وقد جُمع المؤلف مادة كتابه من مجموعات للصيغ تنسب لأربعة فقهاء مشهورين أقدم منه، ثلاثة منهم توفوا عام ١٠٠٩ م (٣٩٩ هـ) وهم : « محمد بن أبى ثمانين » (ابن الفرضى ، « تاريخ علماء الأندلس » ، رقم ١٦٦٦) ، « محمد بن العطار » (المرجع السابق ، رقم ١٦٦٧) و « أحمد بن الهندى » (ابن بشكوال ، « كتاب الصلة » ، رقم ١٩) ؛ والفقيه الرابع هو « موسى بن أحمد الوائد » (المتوفى عام ٩٨٧ م - ٣٧٧ هـ) (ابن الفرضى ، « تاريخ » ، رقم ١٤٦٣) ، أما مجموعة الصيغ الثانية فهى بعنوان : « المقصد المحمود فى تلخيص العقود » وصاحبها هو : « أبو الحسن على بن يحيى بن القاسم الصنهاجى الجزيرى » ، قاضى « الجزيرة الخضراء » المتوفى عام ١١٨٩ م (٥٨٥ هـ) ، وقد تحدث عنه ابن الأبار فى « كتاب التكملة لكتاب الصلة » (رقم ٢٣٧٨ ، طبعة Mis-celánea. والمجموعة الثانية تورد أيضاً صيغاً يعود معظمها إلى الفترة الأخيرة من الخلافة القرطبية .

(٢١) عن المقاييس والموازن فى العالم الإسلامى خلال العصر الوسيط نحيل إلى ما يلى -

- H. Sauvare : Matériaux pour servir a l'histoire de la numismatique et de la métrologie musulmane, en Journal Asiatique, 1879, I; 1881, 2; 1882, 1; 1884, 1-2; 1885, 1.

- J. A. Decourdemanche : Traité pratique des poids et mesures des peuples anciens et des Arabes, paris, 1889 .

وبالنسبة لإفريقيا الحفصية ، انظر :

- R. Brunschvig : Berberie orientale, II, págs. 249-253.

(٢٢) انظر :

- Manuel hisp. de hisba, pág. 13 .

(٢٣) انظر :

- Descr. de l'Afr. sept., texto, págs. 62-87; trad., págs. 129, 158, 179-183

(٢٤) انظر :

- Manuel hisp. de hisba, p. 37 y glosario, p. 19 .

وطبقاً لـ Bakri, Descr. De l'Afr. sept., texto, p. 62; p. 129 فإن رطل اللحم فى « تنس » (Tenes) كان يساوى ٦٧ أوقية .

(٢٥) Manuel hisp. de hisba, p. 13 - الأمر يتعلق « بدراهم الفضة الإمامية » .

(٢٦) انظر :

- A. Bel , en Enc. Isl., IV, pág. I (Sa').

- Wiliam Marçais : Textes arabes de Tanger, paris, 1911, pp. 464-465 .

ربما تكون « مدأ نبويًا » طاسة البرونز المحفوظة بمتحف الآثار بقرطبة ، والتي عُثر عليها في «موريكيل» (مكان مدينة « الزاهرة » القديمة) : وهذا ما يجعلنا نعتقد أن تاريخها يرجع لنهاية القرن العاشر ، وقطر الطاسة يبلغ ١٢ سنتيمترًا ، وقد نُقشت عليها عبارة « الملك لله » ، انظر :

M. Gómez-Moreno : El arte árabe español hasta los Almohades, págs. 336.

(٢٧) انظر :

- Descr. de l'Afr. sept., texto, pp. 89, 112, trad. pp. 179, 211

(٢٨) انظر :

- B. G. A., III, pág. 240 (trad. Pellat, pág. 51)

(٢٩) انظر :

- Dojzy : Suppl. dict. ar., II, págs. 575-576.

(٣٠) 11 págs. Manuel hisp. de hisba, - وطبقًا له فإن « قدح » القمح يزن ما بين ٣٠ و ٢٤ رطلًا بينما يبلغ قدح الشعير أو السكت ربع قنطار .

(٣١) انظر :

- Descr. de l'Afr. sept., texto, pág. 112; trad., pág. 221.

(٣٢) انظر :

- Sevilla a comienzos del siglo XII, pp. 91, 92y 221.

(٣٣) انظر :

- Manuel hisp. de hisba, pág. 19 y glosario, p. 64.

(٣٤) المرجع السابق ، ص ٣٩ .

(٣٥) انظر :

- Descr. De l'Afr. sept., texto, p. 112, trad. p. 221

(٣٦) يقدم لنا السقطي في (Manuel hisp. de hisba, pág. 13) مقدار مكيال « الثمن » بالنسبة لبعض السوائل : ثمن الخل = ٢, ٥ أو ٠, ٧٥ رطل ؛ ثمن الحليب = ٣, ٢٥ رطل .

(٣٧) انظر :

- Lévi-Provençal : Péninsule Ibérique, glosario, págs. 265-266.

ومع هذا تجدر الإشارة إلى أن الأبعاد المذكورة لمسجد قرطبة الجامع لا تتناسب مع تصميمه الحالي إلا إذا اعتبرنا أن الذراع المستخدم للقياس طوله ٠, ٤٧ من المتر .

(٣٨) انظر

- Lévi-Provençal : Inscr. ar. d'Espagne, pág. 102 y nota I.

(٣٩) يشير « ابن الخطيب » (« أعمال الأعلام » ، ص ١٢١) أن طول ذلك الخندق المحفور في الجانب الشرقى والشمالى الغربى من العاصمة قرطبة كان يبلغ ٤٧٥٠٠ ذراع (أى ١٥ ميل) ، كما كان يستخدم لقياس المسافات الأقصر « الشطر » الذى يساوى نصف ميل ، ولا يبدو أنه قد استخدمت أثناء الخلافة القرطبية مقاييس المسافات الشرقية مثل « الفرسخ » (٣ أميال) أو « البريد » (٤ فراسخ) .

(٤٠) وعلى سبيل المثال فقد ذكر فى العصر الوسيط أن المسافة المباشرة بين « دانية » وجزيرة « يابسة » ١٠٠ ميل ؛ وبين « يابسة » و « ميورقة » ٧٠ ميلاً ؛ وبين « ميورقة » و « منورقة » ٤٠ ميلاً . انظر :

glosario, pág. 260

(٤١) وهما هى بعض المصادر الأساسية بالنسبة لهذا الموضوع :

- F. Codera : Tratado de numismática árabe-española, Madrid, 1879 .

- J. de la Rada y Delgado : Catálogo de monedas árabes españolas que se conservan en el Museo Arqueológico Nacional, Madrid, 1892.

- A. Vives y Escudero : Monedas de las dinastías árabe-españolas, Madrid, 1893 .

(٤٢) انظر

- George C. Miles: The Coinage of the Umayyads of Spain, Hispanic Numismatic Series, Monograph number I, Nueva York, 1950 (2 vols. Y 15 Iams).

(٤٣) انظر المرجع السابق ، ص ١١٣-١١٧ .

(٤٤) ابن عذارى « البيان المغرب » ، الجزء الثانى ، ص ٣٢١ (٢١٥) من النص الأسمى ، ص ٣٥٦ من الترجمة .

(٤٥) انظر :

- Miles : Coinage, págs. 50-51 .

(٤٦) المرجع السابق ، ص ٤٦ - ٤٧ .

(٤٧) المرجع السابق ، ص ٤٩ - ٥٠ .

(٤٨) المرجع السابق ، ص ٥٠ - ٥٣

(٤٩) انظر :

- B. G. A., VI, pág. 88 (trad. Hadj-Sadoc, pág. 51)

(٥٠) انظر :

- Miles : Coinage, pág. 564 .

(٥١) المرجع السابق ، ص ٩١ - ٩٢ .

(٥٢) أخذنا جميع هذه الأرقام من قائمة الأوزان التي أعدها Miles في : y 551 Coinage, págs. 551 y 552.
sigs.

(٥٣) المرجع السابق ، ص ٥٩ ، رقم ١٥ .

(٥٤) المرجع السابق ، ص ٦٧ - ٦٩ ، رقم ٤٥ .

(٥٥) المرجع السابق ، ص ٧٤ ، رقم ٥٧ .

(٥٦) المرجع السابق ، ص ٨٥ ، رقم ١٠٢ .

- R. Brunschvig : Esquisse d'histoire monétaire almohade hafside, en (٥٧)

- Mélanges William Marçais, Paris, 1950, p. 70 n. 2.

Miles : Coinage, pág. 90 y 91 : انظر : « ، بالوزن » ، nota 2.

(٥٩) المرجع السابق ، ص ٧٥ ، رقم ٦٦ ؛ ص ٧٦ ملاحظة ٢ .

(٦٠) انظر

- A. Vives : La moneda castellana, Madrid, 1901, págs. 8-9.

- C. Sánchez-Albornóz : La primitiva organización monetaria de León y Castilla, Madrid, 1929, págs. 10-12.

ونظام الوزن المسبق للعملة كان معروفاً أيضاً في مملكة ليون خلال القرن العاشر .

(٦١) ابن عذارى « البيان المغرب » ، الجزء الثاني ، ص ٢٤٦ (٢٣١) من النص ؛ ص ٢٨١ في الترجمة - المقرئ « نفع الطيب » ، الجزء الأول ، ص ٢٧٤ .

(٦٢) انظر ، على وجه الخصوص :

- R. Brunschvig : Esquisse d'histoire monétaire, pág. 70.

(٦٣) كتاب محمد القيسي لصور المحررات والعقود (fol. 46 v^o) .

(٦٤) انظر : ابن عذارى « البيان المغرب » ، الجزء الثاني ، ص ١٧٤ (١٨٦) من النص الأصلي ، ص ٢٧٩ من الترجمة .

(٦٥) كتاب محمد القيسي لصور المحررات والعقود (fol. 46v^o) .

(٦٦) ظهر هذا النعت في كتاب محمد القيسي (fol. 135 r^o) ، وفي مذكرات الملك الزيري « عبد الله » (مجلة الأندلس ، الجزء الرابع ، ١٩٣٦ ، ص ١١٣) .

(٦٧) قام ابن عذارى « البيان المغرب » ، الجزء الثاني ، ص ٢٤٦ (١٣١) من الأصل ، ص ٢٨٢ من الترجمة (بتقدير قيمة أحجار وأعمدة الرخام المستوردة من إفريقيا لبناء مدينة الزهراء بالدنانير السيشيلماسية (Sichilmassies) .

(٦٨) ورد هذا النعت بكثرة في « الأحكام الكبرى » لابن السهل (مخطوطة الرباط ، fols. 106 r^o ، 108 v^o، 110 v^o، 111v.o, etc. بالنسبة للنصف الثاني من القرن الحادى عشر ، ولو عرفنا القيمة الفعلية للمثقال القرمونى لامكننا تقدير تكاليف الحياة فى نهاية عصر الخلافة وعصر الطوائف ، ونذكر فيما يلى - من منطلق وثائقى - بعض الأرقام التى ترجع إلى ٤٥٧ هـ ، ٤٥٨ هـ (١٠٦٥ - ١٠٦٧ م) :

أمة سوداء	=	١٦٠ مثقالاً	-	بيت فى قرطبة	=	١٦٠ مثقالاً
جارية	=	٢٨ مثقالاً	-	بيت فى قرطبة	=	٢٨٠ مثقالاً
بستان فى قرطبة	=	٢٤٠ مثقالاً	-	جواد	=	٢٤ مثقالاً
بغل	=	٦٠ ديناراً				

(٦٩) عن الاقتصاد الزراعى لإسبانيا المسيحية فى العصر الوسيط انظر :

- L. G. De Valdeavellano : Hist. de Esp., I, pág. 532.

يبدو أن صورة هذا الاقتصاد تختلف اختلافاً جذرياً عن صورته فى إسبانيا الإسلامية : فبينما قامت الأندلس بتحسين طرق الزراعة واستيراد وأقلمة النباتات الغريبة وتطوير نظم الري والاستفادة بالمياه الجوفية ، ظل المصدر الرئيسى لثروة إسبانيا المسيحية يتمثل - كما كان فى العصر الرومانى ثم القوطى - فى تربية القطعان وزراعة الغلال والعنب .

(٧٠) استطلع أحمد الرازى وابن النظم التمييز بين الإشبانيتين ، خاصة فيما يتعلق بهطول الأمطار واتجاه الرياح ومجارى الأنهار . انظر : المquiry « نفع الطيب » الجزء الأول ، ص ٨٤ - ٨٥ .

- Alemany : Geografía de la península Ibérica en los escritores árabes, pág. 188 .

كما توجد ملاحظات قيمة وهامة عن الملاحم الزراعية لإسبانيا فى العمل التالى :

- L. Torres Balbás : La vivienda popular en España, inserto en el t. III (págs. 139-502) de Folklore y costumbres de España, publicado bajo la dirección de F. Correrias y Candi, Barcelona, 1933. Véanse, Sobre todo, las págs. 169-171.

(٧١) المؤلف المذكور هو « أبو عبيد البكرى » ، وقد أورد كلامه « المquiry » فى « نفع الطيب » (الجزء الأول ، ص ٨٢) ، كما ذكر نفس الفقرة ابن عبد المنعم الحميرى (ليفى بروفنسال ، شب جزيرة إيبيريا ، ص ٥) ، وأبو حامد الغرناطى فى « تحفة الأكباب » (طبعة Ferrand ، باريس ، ١٩٢٥ ، ص ٢٠٠) ولابد أن البكرى نفسه قد أخذ هذه المقارنة عن معلّمه « أحمد بن عمر العذرى » (انظر : ليفى بروفنسال ، شب جزيرة إيبيريا ، ص ٢٤ وملاحظة رقم ٢) .

(٧٢) يبدو أن كلمة Cortijo التى تطلق فى أندلوثيا حالياً على العزب المتناثرة فى الحقول ، تساوى الكلمة العربية الإسبانية القديمة « مجشار » أو « مدشار » انظر :

J. Oliver Asín : Orígenes y nomenclatura árabe del cortijo sevillano, en Al-Andalus, X, 1945, págs. 109-126.

— (٧٣) لابد أن هناك ارتباط وثيق بين هذه التسمية لبيوت الريف في « رغون » و « نبرة » (torres) وبين عبارة البكرى التي يقول فيها إن جميع بيوت الريف (ضياع أو عزب) في « لاردة » كانت مزودة ببرج دفاعي متصل بسرداب يفر إليه المزارعون عندما يتعرضون لهجوم من الأعداء . انظر :

- Lévi-Provençal : Péninsule Ibérique, pág. 203 .

(٧٤) ظل الاعتقاد بنسبة تأليف هذا القاموس (ومخطوطته الجميلة بمكتبة « ريكارديانا » بمدينة فلورنسا) إلى المنطقة الشرقية من إسبانيا خلال القرن الثالث عشر ، بعد عودة بلنسية النهائية إلى المسيحية ، سائداً حتى عام ١٩٣٩ ، وهو العام الذي خرج علينا فيه G. S. Colin بنظرية أخرى (أيده فيها « مينندث بيدال » في كتابه « أصول اللغة الإسبانية » ، الطبعة الثالثة ، ص ٢٩٦) تفيد بنسبة تأليفه إلى منطقة « رغون » على أي حال ، وأياً كانت المنطقة التي ينسب إليها هذا القاموس اللاتيني / العربي الضخم ، فإنه يعتبر منجماً ثراً للتعرف على اللهجة الأندلسية المستخدمة في تلك الحقبة من العصر الوسيط والتي تزخر بكثير من مفرداتها مؤلفات ابن عبدون (الإشبيلي) والسقطي (المالقي) في الحسبة ، وأيضاً أزجال القرطبي ابن قزمان .

(٧٥) انظر :

- Dozy : Suppl. dict. ar., I, pág. 752 .

(٧٦) عن هذا النوع من المشاركة والمساقاة ، انظر على وجه الخصوص « الميردي » ترجمة .

Les statuts gouvernementaux, Argel, 1915, pág. 416 : Fagnan

(٧٧) المعلومات المذكورة مأخوذة عن صيغ القيسي 117V.0 - 110V.0 fols .

(٧٨) المرجع السابق 121r.0 fol. 118 .

(٧٩) المرجع السابق ، fol. 126 ro .

(٨٠) « الأحكام الكبرى » FOL. 203 V.0 (من مخطوطة الرياط) .

(٨١) أي خلال فترة الحكم الثانية لسليمان المستعين .

(٨٢) انظر :

- Lévi-Provençal : Esp. mus. X^o siècle, págs. 162-163 .

- Dubler : Wirtschaftsleben, págs. 51-55.

(٨٣) انظر :

E. Lévi-Provençal y E. García Gómez : Sevilla a Comienzos del siglo XII, pág.

43

(٨٤) انظر : ابن عذارى « البيان المغرب » ، الجزء الثاني ، ص ١٧٣ (١٦٦) ، ١٧٤ (١٦٧) ، ٢٠٤ (١٩٢) ، ٢١٣ (١٩٩) من النص الأصلي ؛ ص ٢٧٥ - ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٣١٧ ، ٣٣١ من الترجمة .

(٨٥) انظر : ابن أبي زرع « روض القرطاس » ، ص ٧٣ من ترجمة Tornberg .

(٨٦) طبقاً للمقرئ (« نفح الطيب » ، الجزء الأول ، ص ٢٤٨) فقد وصل ثمن « ربيع » القمح إلى دينار في سنوات الجفاف التي شهدتها إسبانيا في عهد المنصور .

(٨٧) ابن حوقل : « صورة الأرض » ، طبعة Kramers ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

(٨٨) المرجع السابق ص ٨١

(٨٩) المرجع السابق ، ص ٧٤ .

(٩٠) انظر :

Esp. mus. X^osiécle, pág. 162 y notas 2 y 3 .

(٩١) انظر :

- Lévi-Provençal : Péninsule Ibérique, pág. XXIX.

(٩٢) انظر :

Manuel hisp. de hisba, págs. 21, 29 del texto .

(٩٣) مصنف القيسي (fol. 60 V.^o) والجزيري (fol. 60 V.^o) ، والنوعان الأولان وردا في « كتاب الفلاحة » لأبي الخير الإشبيلي (طبعة فاس ، ص ٩٦ ، ١٣٢ - ١٣٣) انظر :

García Gomez, en Al-Andalus, X, 1945, págs. 127 y sigs .

(٩٤) انظر :

Manuel hisp. de hisba, pág. 22 del texto .

(٩٥) انظر :

- Lévi-Provençal : Péninsule Ibérique, pág. 153.

(٩٦) انظر :

Descr. de l'Afrique et de l'Espagne, texto, pág. 19- trad., pág. 237 .

- Lévi-Provençal : Péninsule Ibérique, pág. 220.

(٩٧) « الأحكام الكبرى » fol. 114 r.^o من مخطوطة الرياط .

(٩٨) انظر :

Péninsula Ibérique, págs. 27, 125.

(٩٩) المرجع السابق .

(١٠٠) انظر :

- A. Bel : La fabrication de l'huile d' olive à Fés et dans la région, en Bulletin de la Soc, de Geographie d'Alger, XXII, 1917, págs. 121-137.

- Dubler : Wirtschaftsleben, págs. 56-57.

(١٠١) انظر : Dozy : Suppl. dict. ar., pág 56 a . تشتمل مجموعة صيغ العقود والمحركات القيسي (fols. 16ro, 17ro) على عقد إيجار طاحونة زيت بمعمرتها وبنائها ومخزنها .

(١٠٢) تحديث القيسي في مُصنّفه (fol. 18r^o) عن خمسة أنواع من الزبيب .

(١٠٣) كان يصنع في إسبانيا أيضاً شراب عالي الكثافة من عصير العنب المطبوخ يسمى « رُب » (ومنها تأتي الكلمة الإسبانية arrope والفرنسية tob) ، وعند إذابة هذا النوع في الماء يتحول إلى شراب غير مسكر قريب الشبه من « العسل المطبوخ » .

(١٠٤) « نقط العروس » ، ص ١٤ من طبعة Seyrold . وطبقاً لشهادة ابن حزم فلم يشرب أحد من أمراء بني أمية « نبيذ العنب » ، بل « العسل المطبوخ » .

(١٠٥) انظر النادرة الواردة بـ : Esp. mus. X^o siècle, pág. 168 والمذكورة أيضاً في : Pérès : poésie andalouse, págs. 365-377 .

(١٠٦) انظر ، على وجه الخصوص :

J. Ribera : El sistema de riegos en la huerta valenciana no es obra de los árabes, en Disertaciones y opúsculos, II, págs. 309-313.

(١٠٧) عن هذه المسألة نحيل القارئ إلى هذه الدراسة المختارة :

L. Torres Balbás : Las norias fluviales en España. en Al-Andalus. V. 1940, págs. 195-208.

(١٠٨) خاصة الإدريسي . انظر :

Esp. mus. X^o siècle, pág. 166 y nota 4.

(١٠٩) انظر ، على وجه الخصوص :

G. S. Colin : La noria marocaine et les machines hydrauliques dans le monde arabe, en Hespéris, XIV, 1932, págs. 22-60

(١١٠) أورد ابن عذاري هذه الفقرة في « البيان المغرب » (الجزء الثالث ، ص ١٥٨) انظر :

- Lévi-Provençal : Esp. mus. X^o siècle, pág. 167 y nota I.

(١١١) انظر :

G.S. Colin : La noria marocaine, pág. 35

(١١٢) المقرئ : « نفع الطيب » ، الجزء الثاني ، ص ٣٠٧ .

(١١٣) انظر المرجعين المذكورين في الهامش رقم ١٠٧ ، والهامش رقم ١٠٩ .

(١١٤) أشهر أنواع الرمان هو المسمى « صفارى » أو « رصافى » ، وقد أطلقت عليه هذه التسمية لأن الذى جلبه من سوريا لإسبانيا - بتكليف من عبد الرحمن الأول - يدعى « صفر بن عبيد القلعى » ، وقد تمت زراعته أولاً فى حدائق الرصافة بقرطبة . انظر :

- Dozy : Suppl. dict. ar., I, pág. 559.

- Pérès : poésie andalouse, pág. 191 .

وكلمة « رمان » العربية احتفظت بها اللغة البرتغالية على هذا النحو romao ، لكن اللغة الإسبانية لم تتبناها .

(١١٥) عن هذه الأنواع من التين ، انظر :

- Dozy : Suppl. dict. ar., I, pág. 156 b.

ويكتاب دوزي السابق فقرة لـ Avignon يبرهن فيها على بقاء مسميات هذه الأنواع في إسبانيا لفترة طويلة بعد «حرب الاسترداد» . ولا يزال التين « الشعري » و « القوطي » معروفين حتى الآن في شمال المغرب . كما يوجد نوع آخر مشهور يسمى « دونيجال » وقد دخل إسبانيا - طبقاً للمؤلف الزراعي : أبى الخير الإشبيلي (ص ١١١ ، من طبعة فاس) - على يد « الغزال » عندما كان سفيراً لعبد الرحمن الثاني في بلاط الامبراطور البيزنطي ، انظر :

García Gómez : Sobre agricultura arábigoandaluza, en Al-Andalus, X, 1945, pág. 134 .

كما كانت « مالقة » مشهورة أيضاً بإنتاجها من التين ، وأفضل الأنواع فيها يطلق عليه « رى » (نسبة إلى كورة « ريه ») انظر :

- Lévi-Provençal : Péninsule Ibérique, pág. 215 y nota 5.

(١١٦) انظر ، على سبيل المثال : « تقويم قرطبة » - ص ٤١ ، وكتاب القيسي (fol. 125r^o) . ونفس الشيء يحدث حالياً في بعض مناطق شمال المغرب .
(١١٧) انظر :

Péninsule Ibérique, pág. XXIX.

(١١٨) انظر الدراسة التالية :

H. Pérès : Le palmier en Espagne musulmane. Notes d'après les textes arabes, en Mélanges Gaudefroy-Demombynes, Cairo, 1935-1945, págs 225-239.

(١١٩) عن هذه المسألة ، انظر :

Dubler : Wirtschaftsleben, págs. 60 y nota 2

تسببت إحدى الخرافات التي تدور حول « النارنج » في تحريم إمارات الطوائف لزراعته خلال القرن الحادي عشر . انظر :

- Pérès : poésie andalouse, pág. 192-193 .

(١٢٠) انظر :

- Lévi-Provençal : Esp. mus. X^o siècle, págs. 169-170 .

- Lévi-Provençal : Péninsule Ibérique, pág. XXIX.

- Dubler, op. cit., pág. 64 .

(١٢١) انظر « تقويم قرطبة » ص ، ٢٢ من النص العربي .

(١٢٢) عن تربية البغال في إسبانيا الإسلامية ، انظر : ابن حوقل « صورة الأرض » ، طبعة Kram-ers ، الجزء الأول ، ص ١١٤ - ١١٥ .

وطبقاً لهذا الجغرافي فقد كانت تربي البغال في جزيرة « ميورقة » بقصد التصدير ، وأن بعض البغال الأندلسية كان يتراوح سعر الواحد منها ما بين مائة ومائتي دينار .

(١٢٣) اتفق المؤرخون على أن المرابطين هم الذين أدخلوا الجمال في إسبانيا عام ١٠٨٦ م ، لكن الشواهد تثبت وجود الجمال بها قبل هذا التاريخ بكثير (بأعداد قليلة بالطبع) .
(١٢٤) انظر :

- Lévi-Provençal : Péninsule Ibérique, pág. 160.

(١٢٥) المرجع السابق ، ص ٨٨ ، ١٩٣ .

(١٢٦) انظر :

Esp. mus. X^o siècle, pág. 165 .

(١٢٧) كان مسجد قرطبة الجامع مسقوفاً - طبقاً للإدريسي - بألواح شجر الصنوبر المجلوب من إقليم « طرطوشة » ، انظر :

- Lévi-Provençal : Péninsule Ibérique, pág. 184.

(١٢٨) الصحيح « قرطاجنة الحلفاء » وليس « قرطاجنة الخلفاء » كما حسبها كثير من المؤلفين العرب . انظر المرجع السابق ، ص ١٨١ ، ملاحظة ١ .

(١٢٩) ص ٤١ من « تقويم قرطبة » الذي تنسب اللاتينية إلى « ريثيموندو » (واسمه العربي : ربيع بن زيد) .
(١٣٠) انظر :

Esp. mus. X^o siècle, pág. 172 .

(١٣١) انظر الدراسة التالية عن المعادن والتعدين في إسبانيا الإسلامية .

Antonio Carbonell : La minería y la metalurgia entre los musulmanes de España, en Boletín de la Academia ... de Córdoba, núm. 25, 1929, Págs. 179-217.

(١٣٢) انظر :

- M. Torres, en Historia de España dirigida por Menéndez pidal, II, págs. 332-341

(١٣٣) المرجع السابق ، المجلد الثالث ، ص ١٦٥-١٦٧ .

(١٣٤) المعلومات الرئيسية جمعها المقرئ في « نفع الطيب » ، الجزء الأول ، ص ٩٠ ، ١٢٣ .

(١٣٥) أشار ابن حزم في أحد كتيباته إلى تنقية استخراج الذهب من رمال نهر لاردة . انظر :

- Asín Palacios : Un código inexplorado del cordobés Ibn Hazm, en Al-Andalus, II, págs. 35, 40 y nota I.

(١٣٦) انظر :

- Description de l'Afrique et de Espagne, texto, págs. 213-214; trad., págs. 265-266.

- Péninsule Ibérique, pág. 15.

(١٣٧) كان النحاس الإسباني مشهوراً في العصر الوسيط انظر : الدمشقي « الإشارة إلى محاسن التجارة » ، القاهرة ١٣١٨ هـ ، ص ٢٨ .

(١٣٨) قارن هذا الاستهلاك بما يقوله Mez عن الشرق :

- Mez : Ren. Isl., trad. Vila, p. 519.

(١٣٩) انظر : « نفع الطيب » للمقرئ (الجزء الأول ، ص ٩٠ - ٩١) .

(١٤٠) انظر :

- Dubler : Wirtschaftsleben, págs. 35-39

(١٤١) المرجع السابق ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(١٤٢) المرجع السابق ، ص ٩٨ .

(١٤٣) ابن الخطيب « أعمال الأعلام » ، ص ١٢١ - ١٢٢ .

(١٤٤) انظر :

Péninsule Ibérique, pág. 124.

(١٤٥) وعلى سبيل المثال نذكر قصة La ilustre fregona للكاتب الإسباني الشهير « ثريانتس » .

(١٤٦) لدينا في الخصوص شهادة « المسعودي » (الواردة في « نفع الطيب » للمقرئ ، الجزء الأول ، ص ٩١-٩٢) والتي يقول فيها إن أوقية العنبر التي يصل ثمنها في القاهرة إلى عشرة دنانير تُباع في قرطبة بثلاث مثاقلات فقط .

(١٤٧) في تقليد منها لهذا النظام الإسلامي ، قامت إسبانيا المسيحية بفرض الرقابة الرسمية على الأسواق ، وأولت المهمة لنواب حملوا نفس المصطلح العربي (صاحب السوق) مع قليل من التحريف . انظر :

- L. G. De Valdeavellano : El mercado : apuntes para su estudio en León y Castilla durante la Edad Media, en An. Hist. der. esp., VIII, 1931, págs. 201 y sigs.

(١٤٨) انظر :

- Lévi-Provençal : Péninsule Ibérique, págs. 89, 143, 191.

(١٤٩) عن « القيسريات » الأندلسية / المغربية ، انظر الدراسة التالية :

- L. Torres Balbás : Alcaicerías, en Al-Andalus, XIV, 1949, págs. 431-455.

(١٥٠) انظر :

- Sevilla a comienzos del siglo XII, pág. 223 .

- (١٥١) استقينا المعلومات السابقة من كتاب الحسبة للسقطى (ص ٥٨ من النص) .
- (١٥٢) يوجد فى مجموعة الجزيرى (fol.50r^o) نموذج عقد إيجار لفندق به غرف مخصصة للمخازن فى الدورين : الأرضى والأول .
- (١٥٣) انظر مؤلف السقطى فى الحسبة ، ص ٤٢ .
- (١٥٤) لاستحضار بعض مظاهر الأنشطة التجارية فى حواضر إسبانيا الإسلامية نوجه عناية القارئ إلى هذا المثال المفيد :
- L. Torres Balbás : plazas, Zocos y tiendas de las ciudades hispanomusulmanas, en Al-Andalus, XII, 1947, pp. 437-476.
- (١٥٥) توجد نماذج من عقود إيجارات هذه الأفران فى صيغ « القيسى » (fols. 76 v^o 77 v^o) و « الجزيرى » (fol. 50 r^o) . وعن تعاطى الأجر من جنس المخبوز ، انظر :
Sevilla a comienzos del siglo XII, pág. 115.
- (١٥٦) انظر :
- W. Marçais : Textes arabes de Tanger, Paris, 1911, págs. 296-297.
- (١٥٧) توجد بكتاب القيسى (fols. 24 r^o, 25 r^o) قائمة هامة بالأوانى والأوعية التى يصنعها الفخّارون الأندلسيون .
- (١٥٨) احتفظ لنا كتاب « الإعلام بأحكام البيان » (الذى طبع فى فاس عام ١٢٣٢ هـ) للتونسي ، الأندلسى الأصل « ابن الرأى » بمسميات ومهام كبار معلمى الحرف المختلفة . ونشير فى هذا المقام إلى انتقال كثير من مصطلحات البناء العربية إلى اللغة الإسبانية .
- (١٥٩) انظر : ابن عذارى « البيان المغرب » ، الجزء الثانى ، ص ٢٨٤ (٢٦٦) من النص ، ص ٤٤٢ فى الترجمة .
- Esp. mus. X^o siècle, págs. 232-233
- (١٦٠) انظر :
- Gómez - Moreno : Iglesias mozárabes, p. 126 y sigs., p. 321 y sigs .
- Sánchez - Albornoz : Estampas, págs. 186-189.
- (١٦١) أثبت ابن حوقل فى « صورة الأرض » (طبعة Kramers ، الجزء الأول ، ص ١١٠) تصدير دور « الطراز » الأندلسية للأقمشة الحريرية لكل من مصر وخراسان ، وفى فقرة أخرى (ص ١١٤) يقدم لنا الجغرافى معلومات قيمة عن منسوجات الصوف والحرير والكتان الأندلسية ، لكن مصطلحاتها الفنية تستعصى على الفهم أحياناً .، ويذكر - على سبيل المثال - سجاد اللباد الذى يتراوح سعر الواحدة منها ما بين ٥٠ ، ٦٠ ديناراً ؛ منسوجات الحرير الخام (خرز) بأنواعه المختلفة من بينها نوع يسمى « مُجَمِّم » يستخدم فى المعاطف الواقية من المطر ؛ منسوجات الكتان ، خاصة المصنوعة فى « بجانة » والتى تصدر لمصر ومكة المكرمة واليمن .

ونذكر أخيراً ما قاله « القاضي النعمان » في « المجالس والمسائرات » (طبقاً لإبراهيم حسن وأحمد شرف في كتابهما « المعز لدين الله ، ص ٣٢٩) بشأن عبد الرحمن الثالث عندما فاخر المعز بجودة وفخامة منسوجات الحرير التي تصنعها دور « الطراز » الأندلسية ، فما كان من الخليفة الفاطمي إلا أن رد عليه ردّاً عنيفاً ساخراً .

(١٦٢) خاصة سجادة الحرير التي عليها اسم الخليفة هشام الثاني ، والمحفوظة في الأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد . انظر :

- Lévi-Provençal : Inscr. ar. d'Espagne, núm. 211, pág. 192 y nota 8.

(١٦٣) انظر :

Sánchez - Albornoz : Estampas, pág. 142 y nota 11.

(١٦٤) انظر :

Esp. mus X^o siècle, pág. 184 y notas 2, 3 y 4.

(١٦٥) انظر :

Sánchez - Albornoz : Estampas, pág. 186.

وقد ورد مصطلح Alphneke o Alfanego بمعنى « جلد بنات عرس » لكنه من الكلمة العربية « فك » التي يراد بها في شمال إفريقيا نوع من الثعالب الصغيرة الضاربة للصفرة التي تحدث عنها الجغرافيون العرب خاصة البكري :

[Descr. de l'Afr. sept., trad., pág. 49, nota 3]

(١٦٦) انظر :

E. Lévi-Provençal y E. García Gómez : Sevilla a Comienzos del siglo XII, pág. 212

(١٦٧) انتقلت بعض مسميات هذه المشغولات (الذهبية) إلى اللغة الإسبانية وما تزال تستعمل حتى اليوم ، ونذكر منها على سبيل المثال : Alhaja (حلي) ، Aljorca (خخال) ، Arracada (قُرْط) .
(١٦٨) انظر هذه الدراسة المستفيضة :

- J. Ferrandis : Marfiles y azabaches esoañoles, Barcelona - Buenos Aires, 1928.

(١٦٩) عن « الرق » الجديد والمستعمل انظر :

Sevilla a comienzos del siglo XII, págs. 21-220.

وقد ورد في « تقويم قرطبة » (ص ٥٨) أن « رق » جلود الوعول والغزلان كان يتم إعداده في شهر ماي ويؤنيه .

(١٧٠) طبعة De Goeje (ص ٢٣٩) - ترجمة pellāt (ص ٤٩) ، والفقرة غير واضحة تماماً لأن كلمة « راق » العربية التي يستخدمها الجغرافيون يمكن أن تطلق على صناعة الورق أو على مهنة ناسخ المخطوطات ، سواء بسواء .

(١٧١) عن صناعة الورق في إسبانيا الإسلامية ، انظر :

- Esp. mus. X^o siècle, pág. 185 .
- Sevilla a comienzos del siglo XII, pág. 150 .
- Dubler : Wirtschaftsleben, págs. 81-84.

(١٧٢) انظر كتاب « القيسى » (fols. 20, 33, 36) والجزيرى (fols. 43-44) .

(١٧٣) انظر :

- Esp. mus. X^o siècle, págs. 191-193.

(١٧٤) انظر الفصل الحادى عشر من

Mez : Ren. Isl., trad. Vila, págs. 200-212.

(١٧٥) القاضى المذكور هو « أحمد بن سعيد بن حزم بن يونس الصدفى » ، المتوفى عام ٩٦١ م (٣٥٠ هـ) ، وقد ترجم له « ابن الفرضى » فى « تاريخ علماء الأندلس » (رقم ١٤٠) . يمكن مقارنة رسالة هذا القاضى عن المزايا والعيوب الخلقية فى الرقيق (التى ضمنها القيسى مؤلفه fols. 28 v.^o 31 r.^o) بدليل الطبيب المسيحى « ابن بطران » (القرن الحادى عشر) المذكور فى :

Mez : Ren. Isl., trad. Vila, pág. 205.

(١٧٦) ص ٥٤ - ٥٥ من النص الأسمى ؛ وترجمتها الفرنسية موجودة فى :

Esp. mus. X^o siècle. pág. 193 y nota 2 .

أما ترجمتها الإسبانية فيمكن الإطلاع عليها فى المصدر التالى :

Sánchez - Albornoz : Esp. mus. según los autores isl. Y crist. medievales, I, págs. 297-299.

(١٧٧) روى « أحمد الشروانى » فى « حديقة الأفراح » أن المنصور بن أبى عامر اشترى مغنية بفدائية ، لكنها انتقلت من حريمه إلى حريم وزير من « مالقة » فى بداية القرن الحادى عشر .

(١٧٨) انظر :

Pèrès : poésie andalouse, págs. 383-385 .

(١٧٩) انظر صيغ « القيسى » للمحررات والعقود (fols. 87 v.^o, 88r.^o) .

(١٨٠) انظر :

- Saqatí : Manuel hisp. de hisba, glosario, págs. 66-67.

- Idrisi (Descr. de l'Afrique et de l'Espagne, texto, págs. 201-202; trad. págs. 245, 246, 247).

وقد ذكر منزلين من هذه المنازل : أحدهما فى « منبوخار » (Mondujar) يمكن شراء الخبز والفاكهة وأسماك النهر منه ، والآخر فى « دِجْمَة » (Diezma) .

(١٨١) عن شبكة الطرق الرومانية في إسبانيا ، انظر :

- M. Torres : Hist. de Esp. dirigida por Menéndez Pidal, II, págs. 569-571.

(١٨٢) انظر :

- B. G. A., I, pág. 46; cf. Alemany : Geog. de la pen. Iber., en los escr. arabes, págs. 17-19.

(١٨٣) وهناك طريقان أخران أشار إليهما ابن حوقل في القرن العاشر (طبعة Kramers ، الجزء الأول ، ص ١١٦ - ١١٧) وهما : الطريق من قرطبة إلى إشبيلية والغرب ، والذي يتجه بعد ذلك إلى « وادي أنه » في « شنترين » ، ثم إلى وادي نهر « تاجه » لكي ينتهي في طليطلة ، أما الثاني فيبدأ من قرطبة وينتهي في « مدينة سالم » ويمر على « قلعة رباح » و« طليطلة » و« وادي الحجارة » .

وتوجد خريطة للطرق بين قرطبة وطليطلة خلال العصر الإسلامي في المصدر التالي :

- F. Fernández Jiménez, en Al-Andalus, IX, 1944 .

(١٨٤) انظر محركات وصيغ « القيسى » (fols. 88r.^o, 89v.^o) والجزيري (fol. 47 v.o).

(١٨٥) لدينا في « المقتبس » لابن حيان (في الجزء الخاص بالحكم الأول وعبد الرحمن الثاني ومحمد الأول - ١٩٤ ر^o y ١٥٨ fols) دليلان على الملاحة النهرية بين قرطبة وإشبيلية في القرن التاسع : تتحدث الفقرة الأولى عن شخص يتجول على شاطئ الوادي الكبير بقرطبة ويشاهد المراكب المتجهة إلى إشبيلية ؛ بينما تشير الثانية إلى ما فعله عبد الرحمن الثاني وهو على فراش الموت عندما أمر بحمله إلى شرفة القصر ليلقي نظراته الأخيرة على السفن الرائحة والغادية في الوادي الكبير . أما المحطات على الخط الملاحي بين إشبيلية وقرطبة - والتي أشار إليها الإدريسي فيما بعد (Descr. de l'Afr. et de l'Esp. ، ص ٢٠٧-٢٠٨ من الأصل ، ص ٢٥٦ في الترجمة) - فكانت كالتالي : « قنطلانة » (Cantillana) ، « القليعة » ، « لوره » (Lora) ، « حصن المدور » (Almodóvar del Río) .

(١٨٦) انظر « الأحكام الكبرى » لابن سهل (مخطوطة الرباط ٢١٣ ر. fol.) . كان الفلاحون المتجهون بثيرانهم إلى ضياعهم الموجودة بمنطقة Campiña يجتازون النهر من « مرسى بَلَش » القريب من العاصمة .

(١٨٧) انظر :

- Lévi-Provençal : Islam d'Occident, I, pág. 91.

(١٨٨) هذا هو الزمن الذي استغرقه بالفعل « عبد الملك » (ابن المنصور) في اجتيازه للمضيق بعد

عودته من المغرب عام ٩٩٩ م (٣٨٩ هـ) ، طبقاً لابن حيان . انظر :

- Lévi-Provençal : Fragments historiques sur les Berbères au Moyen Age, pág. 43.

الفصل السادس

النهضة العمرانية في قرطبة خلال القرن العاشر الميلادي

عناوين الفصل السادس :

- ١ - السمات العامة للمدن في أسبانيا الإسلامية :
المسميات العمرانية والأنماط المختلفة للمدن - ملامح المدينة ونموها العمراني .
- ٢ - المدن الكبرى في المحافظات والثغور :
مدن الأندلس الغربية وإقليم الغرب Algarve - مدن شرق الأندلس والساحل الشرقي - المدن في مناطق الثغور .
- ٣ - قرطبة خلال القرن العاشر الميلادي :
وصف قرطبة الإسلامية - محيط قرطبة وتعداد سكانها خلال عصر الخلافة - سور المدينة وبواباتها - المدينة القديمة ونموها ناحية الشرق - الأحياء الشمالية والغربية - الجسر وما حوله - المسجد الكبير .

THE HISTORY OF

THE HISTORY OF THE

THE HISTORY OF THE

THE HISTORY OF THE

THE HISTORY OF THE

THE HISTORY OF THE

THE HISTORY OF THE

THE HISTORY OF THE

THE HISTORY OF THE

THE HISTORY OF THE

THE HISTORY OF THE

THE HISTORY OF THE

THE HISTORY OF THE

THE HISTORY OF THE

THE HISTORY OF THE

THE HISTORY OF THE

THE HISTORY OF THE

THE HISTORY OF THE

THE HISTORY OF THE

THE HISTORY OF THE

THE HISTORY OF THE

THE HISTORY OF THE

١ - السمات العامة للمدن في أسبانيا الإسلامية : (١)

المسميات المعمارية والأنماط المختلفة للمدن :

يعتبر تنوع المراكز العمرانية - المدن ذات الكثافة السكانية العالية وكبريات القرى - أحد الملامح البارزة في الأندلس الإسلامية على مختلف مراحلها ، هذه السمة ، التي جعلت أسبانيا - منذ أواخر العصور الوسطى - مختلفة من أغلب البلاد التي وقعت تحت السيطرة الإسلامية ، وخاصة إقليم البربر المجاور لها ، لم تغب عن انتباه علماء الجغرافيا العرب الذين وصل الأمر ببعضهم إلى إحداث نوع من التصنيف حيث أطلقوا لفظة "أم" على العواصم الهامة في شبه جزيرة أيبيريا ، ولفظه "بنت" على المدن الأقل أهمية (٢) ، وعندما تحدث الجغرافيون عن المدن الأندلسية فقد عنوا بالحديث عن جذورها القديمة ، كما ندين للبكرى - في المقام الأول - باتجاهه للبحث عن أصول لغوية - ولو أنها خيالية في أغلب الأحوال - لأسماء الأعلام الجغرافية المستخدمة في العصر السابق على الإسلام (٣) .

من المعروف أن أغلب المراكز العمرانية في الأندلس كانت موجودة قبل القرن السابع ثم احتفظت بأسمائها الأصلية (الأيبيرية أو اللاتينية) بعد الفتح الإسلامي ، ويعد ذلك دخل عليها القليل من التحريف في اللغة العربية ، ونذكر بعضاً منها مثل : Istiggi استجة Ecija ، Malaca مالقة Iliberris البيرة ، Ilici (ألش) Taletum (Iliche) (طليطلة) Ilerida لاردة Osca (وشقة Huesca) ، كما نذكر بعض الأعلام ذات الأصل اللاتيني Emerita ثم تحول اللفظ إلى María ثم Mérida (ماردة) ، وهناك Pax Iulia ثم إلى Brja (باجة) و Italica إلى طليقة Taliqa و Valentia إلى بلنسية ، و -Caesa raugusta إلى سرقسطة Zaragoza ، أما المدن ذات الاسم العربي الذي يتسم بأنه وصفي ، مثل الجزيرة الخضراء Algeciras "La torre de vigia" برج المراقبة إلى المرية Almeria ، والمينا (المدينة) Almaden - فقد كانت نوعاً من الاستثناء ، كما توجد أسماء أخرى تذكرنا بالمؤسس الحقيقي أو المفترض للمدينة مثل مدينة سالم (Medinaceli) (٤) ، وقلعة أيوب Calatayud ، وبلد الوليد Valladolid ، أو مسميات تحمل اسم شخصية لها ارتباط بحدث تاريخي يعود إلى عصر الفتح الإسلامي : جزيرة طريف Tarifa وجبل طارق Gibraltar ، كما أن أسماء بعض القبائل أو البربر

أو العرب يمكن أن تطلق على بعض المراكز العمرانية مثل مكناس (Mequinenza) فى الشجر الأعلى ، وغافق Gafiq شمال قرطبة ، وبالى Poley .. الخ (٥) أما فى الساحل الشرقى فنجد أن الكثير من القرى لازالت تحمل حتى الآن أسماء العائلات العربية أو المولدة التى كانت تعيش فيها خلال العصور الوسطى ، فهنا - على سبيل المثال - بنوقاسم Benicasim ، وبنو غانم Beniganim وبنو حيون Benifay ، وبنو كارلو Beni-carlo ، وبنو غانم Beniganim ، وقد كانت أسماء الأعلام أيضاً عبارة عن منازل ترافق اسم أحد العرب مثل منزل نصر Masanasa ومنزل علا Misalta ، كمال رأينا أن بعض أسماء الأعلام (٦) ، تذكرنا بوجود موقع استراتيجى ، سواء كان طبيعياً أم مصطنعاً وقد التفت حوله المباني ثم أصبح منطقة أهلة بالسكان ، وهذا ما نجده فى قلعة الجذولة Alcala de los Gaziles وقلعة يحصب ، والثانية عن Alcalá la Real ، وهاتان المحلتان كانتا عبارة عن قلعتين لمجموعتين انفصلتا ، الأولى منهما عن القبيلة العربية يحصب والقبيلة البربرية الجذولة - ، هناك أيضاً قلعة رباح Caltrava ، وحصن اللوز Iznalloz ويمكننا أن نذكر الكثير من الأمثلة وأن يسترعى انتباهنا أن اللغة البربرية لم تكد تخلف أثر لها فى أسماء الأعلام فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، ورغم كل ما سبق فإن أسماء الأعلام ذات الأصل اللغوى السابق على دخول الإسلام أكثر بكثير من تلك الأسماء ذات الأصل العربى المحض .

كانت أغلب هذه التجمعات السكانية تتسم فى عصر الخلافة بأنها ذات طبيعة "ريفية" ، وظلت محتفظة بذلك الطابع من اليوم (٧) ، وقد أسرنا فى السطور السابقة إلى أن إقامة من يفلح الأرض ، سواء لحسابه الخاص أو لحساب طرف ثالث ، فيها لم تكن عادة شائعة الانتشار اللهم إلا إذا كانت الأراضى ذات الرى الدائم ، الأمر الذى يستلزم وجود صاحب المزرعة لرقابة عملية الرى ، أما الفلاح الذى يزرع الأرض التى تروى بماء المطر ، وكذلك العمال الذين يعملون معه ، فكانوا يلجأون إلى السكنى فى أقرب تجمع سكنى سواء كان قرية أو ضيعة ومعنى هذا عدم الأمن كان يجبر المزارعين على أن يتجمعوا وأن يضعوا محاصيلهم تحت قلعة أو إحدى التحصينات ، وانتهى الأمر بالكثير من هذه الأرباض إلى تحويلها إلى مراكز حضرية صغيرة سواء كانت ضئيلة الأهمية أم غير ذلك ، وهذا يرتبط بدرجة خصوبة الأرض أو الناحية التى

يعيشون فيها ، وقد لعب هذا المفهوم "الناحية" distrito ، الذى لم يكن قاصراً على أسبانيا الإسلامية ، دوره فى تكوين المراكز الحضرية أو شبه الحضرية فى الحقول الأندلسية ، ويقدم لنا رواية السير والمؤرخون البرهان على ما نقول حيث يطلقون على مثل هذه المناطق لفظة "الإقليم" وهى لفظة كانت تعنى "الطقس" فى المناطق المأهولة (٨)

ولا زالت المغرب حتى الآن تميز بين أهالى "الكورة" وأهالى "المدن" ، ومما لا شك فيه أنه نوع من السلوكيات الموروثة عن التقاليد الأندلسية ، ومن المحتمل أن تكون عواصم الدوائر المدنية والعسكرية - فى أسبانيا - الشديدة الكثافة السكانية والقائمة فى معظمها على أطلال مناطق حضرية قديمة ، هى التى تحولت إلى المدن بالمعنى المفهوم والذى يتضمن كافة المواصفات الحضرية الإسلامية مثل : السور وبواباته والمسجد الكبير والسوق ومقر إقامة الأمير أو الحاكم الذى يمثله والأحياء الداخلية ووجود الأرياض فى بعض الحالات ، الكائنة خارج الأسوار مع الملحقات الصناعية .

غير أنه توجد اختلافات بين العواصم الأندلسية ذات الصبغة الحضرية ، ويمكن أن ترجع فى ذلك الموقع الجغرافى والطقس السائد وكذا الارتفاع أو الموقع ، فهناك المدن التى تقع فى السهول وتلك التى تقع فى المناطق الجبلية وهذه الثالثة التى تقع فى أحد الأطراف الساحلية أو هى عبارة عن ميناء بحرى ، وهذه المدن كلها يمكن أن تكون عواصم الكُور ، غير أنه رغم الاختلاف العمرانى فيما بينها تلتقى فى أنها تقدم للزائر صورة فيها شئ من الأسرية ، وهى سمة يمكن أن يلاحظها الرحالة - غير الخبير - حتى اليوم بين فاس - المدينة الجبلية - وتونس - الميناء البحرى - أو القيروان المدينة السهلية .

ومن الأمور المكررة المعادة الإشارة إلى الصعوبات القائمة اليوم أمام إعادة تصور ما كانت عليه تلك المدن الأندلسية فى الفترة المتأخرة من العصور الوسطى والأمر هو أن المعلومات التى يسوقها ناقلو الأخبار العرب ، والتى علينا أن نرجع إليها ، لعدم وجود ما هو أفضل ، تتسم عادة بالتكرار والرقابة وأحياناً ما تتناقض مع بعضها البعض ، وفى الوقت الذى خطت فيه الأبحاث خطوات عملاقة بشأن المدن الإسلامية فى المشرق خلال العصور الوسطى سواء من الناحية التاريخية أو الأثرية -

وهذا يرجع إلى دراسة الكثير من الآثار التى لا زالت كما هى وكذلك إلى الكتابات المستفيضة والإحصاءات وأسماء الأعلام الجغرافية التى ورد ذكرها لدى الرحالة - فأنت تجد أن المدن الواقعة فى الغرب والتى تنسب إلى نفس الفترة التاريخية ، لا تحظى بنفس الشيء حيث توصلت الدراسات إلى نتائج مخيبة للآمال ، وليس أمامنا إلا اللجوء إلى المصادر غير المباشرة أو جزائرات الأخبار التى لا تسهم فى الإيضاح بقدر ما تسهم فى إلقاء الظلال وإذا ما استثنينا قرطبة فإن الأندلس والمغرب لم تحظيا - مثل مصر - بوصف المؤرخين لمدنهما أو أن يهتم بهما مؤرخ على نفس القدر الذى عليه المقرئى ، ويصل الأمر فى المغرب إلى إنه حتى وقت قصير لم يؤثر مرور الزمن والتطور على مدنها التى ظلت طوال ألف عام محتفظة بطابعها الإسلامى فى بلد يتسم بأنه بلد محافظ وظل لفترة طويلة مسدود الأبواب أمام التيارات الخارجية ، أما الوضع فى إسبانيا فإن العواصم القديمة مثل إشبيلية وقرطبة وماردة وبلنسية وطركونة أو سرقسطة عاشت إما مرحلة تطور عمرانى جديدة عندما تم إعادة بنائها خلال العصر المسيحى ابتداء من القرن السادس عشر ، وإما عصر انحطاط ، لكنها جميعها تعرضت - مع مرور الزمن - لتغيير فى ملامحها ، وكان التغيير عميقاً لدرجة يصعب معها أن نعثر فى مخططاتها الحالية على البيانات الهامة واللازمة لإعادة تصورها - مهما كانت درجة الافتراضية فيها - خلال العصر الإسلامى ، وليس أمامنا إلا الرجوع - فى حدود المتاح - إلى الصور الإيقونية القديمة واللجوء إلى المخططات العمرانية السابقة على الأعمال المعمارية خلال القرن التاسع عشر فى حال وجودها ، وقد تم اللجوء إلى تلك الوسائل فى الآونة الأخيرة - لكن دون نجاح - فى بعض المدن فى كل من نبرة وأرغن وكذلك الأمر فى قرطبة خلال عصر الخلافة (٩) .

ملامح المدن ونموها العمرانى :

عندما نقوم بمضاهاة البيانات الضئيلة ، التى نعثر عليها من وصف الجغرافيين والمؤرخين وكتاب السير ، بالمخططات الحالية للمدن الأندلسية يمكن أن نخرج بعدة استنتاجات حول الشكل العمرانى لتلك المدن خلال العصر الإسلامى ، وأحياناً ما تؤدى المقارنة ببعض المدن المغربية ذات الطابع العمرانى الأسباني إلى الحصول على بعض النتائج ، فمن المؤكد أن مدينة مثل فاس لا زالت حتى اليوم الانعكاس الحى لما

كانت عليه أغلب عواصم الأندلس منذ عشر قرون مضت ، حيث تقع تلك المدن - مثل فاس - على ضفتي أحد الأنهار وتحيط بها الأراضي الخصبة من كل ناحية ، كما كانت الحياة اليومية والاقتصادية تسيران بنفس الإيقاع وتعيش نفس الاحتياجات التي تولدت عن مؤثرات متشابهة ، وأبرز أوجه الشبه تكمن في توزيع الأحياء السكنية والأحياء التجارية ومخططات الشوارع والأسوار ، وهذا ما نجده في قرطبة الخلافة وأشبيلية الموحدين أو غرناطة الناصريين ، حيث احتفظت تلك المدن ، لحسن الحظ ، بمدن أخرى تضاهيها وتعتبر نسخة منها على الجانب الآخر من جبل طارق ، وجاء ذلك التشابه في المكونات الأساسية المتمثلة في نسيجها المعماري وأنشطة السكان داخل الأسوار .

وليس علينا أن نلح هنا كثيراً على تلك المكونات التي تُسهم في إعطاء "المدينة" الكلاسيكية العربية - سواء في المشرق أو المغرب - الملامح المشتركة التي لم تتأثر بمرور الزمن فهذا موضوع لا يدخل في نطاق دراستنا ، كانت المدن الإسلامية الكبرى تضم حياً رئيسياً في المركز وهو الحى التجارى والأكثر نشاطاً ويبدأ في المنطقة المجاورة للمسجد الكبير ، وإلى جانب تلك البقعة العمرانية التي تمتد إليها الشوارع الرئيسية المتصلة بالبوابات هناك أحياء أخرى ثانوية يعيش فيها أغلب السكان الذين يمارسون أنشطة عادة ما تكون الأنشطة الحرفية أو غيرها ، أما المنازل الواقعة في المناطق المجاورة للأسوار فعادة ما تكون متناثرة نظراً لكبر رقعة الأراضي وهنا تعيش الارستقراطية ، يحدث أحياناً أن تعيش المدن حالة نمو سكاني سريع وبالتالي تتجاوز حدود السور ، وهنا تجد الأرباض التي سرعان ما تشكل جزءاً من المساحة العمرانية للمدينة بالمعنى الاصطلاحي ويتطلب الأمر بناء سور جديد ، وإذا لم يكن هناك عائق طبيعى - مثل نهر أو هضبة - فإن النمو العمرانى عادة ما يدور حول المركز ، أى حول المدينة ، وتطلق لفظة "الربض" على الأحياء الجديدة أو التوسعات العمرانية الجانبية ، غير أن كل واحد من تلك الأحياء يحتفظ بطابعه الخاص ويصبح مدينة مُصغرة .

وقد سادت تلك الخطوات في النمو العمرانى في أسبانيا الإسلامية ، ولم تكن هناك رغبة في قطع الصلات سواء في هذا الجانب أو غيره ، مع ما يحدث في المشرق ، وعلى ذلك فإن المدينة الأندلسية قد خططت بحيث تكون مخارج الطرق

الترابطة فيما بينها مؤدية إلى المخارج الرئيسية للمدينة ، أما فى حالة المدن الأقل أهمية فقد تفرعت عن "السكة الكبرى" ^(١٠) بعض الأزقة التى تتفرع عنها بعض الحارات الضيقة (الدروب) القصيرة والمتعرجة والتى تنتهى بتجمع سكانى مسدود ، وكان الهدف هو ربط مختلف أجزاء المدينة ببعضها ^(١١) ، ويمكن أن تشكل تلك الشوارع والحارات أحياء (حومات) أو أحياء صيغرة (حارات) وعادة ما تحمل تلك الحارات والشوارع أسماء المساجد الصغيرة الكائنة بها والتى يؤدى فيها السكان شعائر الصلاة ، وفى قرطبة يمكن أن يقال عن شخص إنه يعيش فى ذلك الحى الذى به هذا المسجد ^(١٢) ، كما أننا لليوم بحاجة إلى التعمق فى معرفة التفاصيل العمرانية وتشابكاتها وتقاطعاتها التى نادراً ما تأخذ مساحة متسعة وتتحول إلى ميادين حتى لا نتوه فى الدروب ، وهذا ما يحدث فى المدن السهلية .

من الطبيعى غيبة تخطيط عمرانى يحكم نمو المدن خلال العصور الوسطى ، فلم يكن إلا محصلة المبادرات الذاتية ، فقد كان لكل شارع مجراه الرئيسى الذى يلقى فيه السكان بالمياه المستعملة والذى تجرى فيه مياه المطر ، وكثيراً ما يتحول هذا الشارع إلى مساحة من الأوحال خلال الشتاء أما فى الصيف فهو عبارة عن تلال من التراب والنفايات ، وعادة ما يتم الاتفاق بين سكان كل حى من الأحياء على كيفية التخلص من النفايات الذهاب بها إلى خارج المدينة فى مكان ليس يبعد عن الأسوار ، وهذا ما يفسر وجود بعض المدن الواقعة فى الجوار والقائمة على هضاب صناعية تصل فى ارتفاعها - أحياناً - إلى سيطرتها على المركز العمرانى ^(١٣) ، أما فيما يتعلق بنزح المراحيض فقد كان يقوم به أناس يستخدمون أجراساً - وهم يعملون حتى يبتعد عنهم المارة ^(١٤) .

كان من الضرورى عبور تلك الشوارع ذات الرائحة الكريهة والخروج من إحدى بوابات السور ^(١٥) حتى يستطيع المرء أن يشم الهواء النظيف ، وكان لكل مدينة أندلسية شارعاً عريضاً ^(١٦) له عدة استخدامات : فقد تم تخصيص جزء منه للسوق الأسبوعى ، وجزء آخر به محراب لأداء الصلوات فى الهواء الطلق (مصلى) وخاصة فى الأعياد الإسلامية وصلوات الابتهاال إلى الله طلباً لحاجة معينة مثل صلاة

الاستسقاء^(١٧) ، وكانت أشجار الحور تمتد إلى جوار تلك الشوارع^(٢١) ، حيث يجلس من يرغبون في الراحة ومن يقومون بالتنزه ، وكانت المقابر تقع خارج أسوار المدينة ، وكان يقصدها الكثير من السكان لزيارة قبور أقيانهم وأحياناً ما يلتقون هناك للحديث والحوار أو يتخذونها ملتقى للعشاق^(١٩) ، أما المنية القاصرة على الخاصة والمروانيين من العائلة المالكة فقد كانت لهم حدائقهم (الحائر) المفتوحة للزوار^(٢٠) ، كما كان يوجد بالقرب من المدينة ربض المرضى ، الذي كانت تنفق عليه مؤسسة إنسانية^(٢١) .

إننا نعتقد أن الأنسب لهذه الدراسة الاقتصار على الاعتبارات السابقة التي تعتبر العناصر المشتركة للمدن الأندلسية ، ومن البديهي أنه بالرغم من وجوه الشبه بين تلك المدن - فيما يتعلق بالخطط العام لكل واحدة سواء في الشوارع أو المنطقة المحاطة بالسور والمناطق الواقعة خارجه - فإن كل مدينة كانت لها ملامحها وسماتها الخاصة بها ، وسوف نقوم فيما يلي بدراسة هذه المدن الكبرى دراسة موجزة قبل أن نخرج على دراسة أكثرها أهمية وهي مدينة قرطبة خلال عصر الخلافة .

٢ - المدن الكبرى فى المحافظات والشغور

مدن الأندلس الغربية وإقليم الغرب :

كانت أشبيلية ، خلال عصر الأمويين ، هى المدينة الأندلسية الأكثر ازدهاراً بعد قرطبة (٢٢) ، تقع المدينة على صفاف نهر الوادى الكبير (ذلك الاسم العربى الذى لم يتغير حتى الآن) وتعتبر حاضرة إقليم اشتهر بخصوبة أرضه وتنوع موارده الزراعية. وقد عرفت المدينة - خلال الفترة التى تلت عصر الخلافة - المزيد من الازدهار عندما تحولت خلال القرن الحادى عشر إلى عاصمة لمملكة بنى عباد ، وازدادت تلك الازدهار عندما دخلها الموحدون ، وهجروا قرطبة ، المدينة التى كان يفضلها المرابطون ، وحولوها إلى مقر إقامتهم المفضل وأنشأوا فيها مسجداً جامعاً آخر ضخم المساحة وبه منئذنة على نفس الدرجة من الأبهة ألا وهى الخيراندا الحالية ، ويحدثنا الكبرى (٢٣) - القرن الحادى عشر - عن التاريخ المعمارى لمدينة أشبيلية بمزيد من التفاصيل ، وفى نفس هذه الفترة أو بعدها بقليل يطلع علينا ابن عبدون بملحق رائع بعنوان "الحسبة" ، ويشير ذلك الجغرافى إلى أن تلك المدينة المسماة قديماً Hispalis الأيبيرية أصبحت العاصمة الثانية حيث قرر ذلك يوليوس قيصر ووضع لها اسماً هو رومية يوليش (Colonia Iulia Romula) وأحاطها بسور بناء من الحجارة ، كما تولى قيصر إقامة مدينتين حصينتين داخل السور وأطلق عليهما الأخوان ، وبعد الفتح الإسلامى أصبحت أشبيلية من الكور التى تتبع جند Emesa ، وفى عام ٨٤٤م (٢٣٠هـ) تعرضت الهجوم النورماندى الشهير ، وعندئذ أمر عبد الرحمن الثانى بأن يبنى حولها سور قوى البنيان لحمايتها من هجمات محتملة قد يقوم بها هؤلاء القراصنة (٢٤) وهذا ما جعلنا نفكر بأن الأسوار الرومانية لم تكن قائمة ، وينسب الكبرى للأمير نفسه قيامه ببناء المسجد الكبير فى المدينة عام ٨٣٠م (٢١٤هـ) وأشرف على الأمر القاضى عمر بن عباس ، غير أن البناء لم يكن إلا عبادة عن بلاطة واحدة ومنئذنة ، ويتوفر لدينا النص الذى يذكرنا بهذه الأعمال ، كما تتوفر لدينا - منذ فترة - البراهين الدالة على أن ذلك المسجد الكبير مقاماً فى المكان الذى توجد عليه فى الوقت الحاضر كنيسة سلبادور Salvador (٢٥) ، كما أن ذلك الجغرافى هو الذى يبلغنا السور الذى بناه عبد الرحمن الثانى ثم هدمه عام ٩١٣م (٣٠١هـ) وقام بذلك وإليها ابن السالم عندما عادت أشبيلية إلى كنف الأمراء بعد التمرد الذى أشرنا إليه فى معرض الحديث

عن فترة حكم عبد الرحمن الثالث (٢٦) ، وكان الهدف من وراء ذلك هو الحيلة دون قيام أهل المدينة بتمرد جديد ، وقد قام ذلك الحاكم (الوالى) ببناء مقر (دار الإمارة) يحيط به سور به أعمدة ، ويضيف البكرى أن هذه المدينة قد ضرب حولها سور بعد سقوط الخلافة رغم أنه كان مبنياً بقوالب الطوب .

كما أن الاطلاع على المخطوطات السابقة على عصر الموحدين يساعدنا على أن نضيف إلى هذه المعلومات الضئيلة معلومات أخرى أكثر ضالة وتتعلق فقط بالأسماء العمرانية ، التى هى عبارة عن أسماء البوابات والمقابر والمساجد والأحياء ، وإذا ما كانت هناك بوابات أشبيلية - مثل : بوابة قرطبة ، وقرمونة ، و Jerez "شريش" ، واسم آخر له أصول رومانية هو باب ماكرينا ويطلق عليه اليوم Puerta Macarena - التى حملت نفس المسميات منذ القرن العاشر يجب أن نؤكد على افتراضية تحديد الأحياء التى يذكرها الجغرافيون وكذلك المساجد الصغيرة ، ويجب أن نشير أيضاً إلى أن تلك الملاحظة قابلة للتطبيق على كافة مدن أسبانيا الإسلامية ، ويمكننا فى هذا المقام - على سبيل الاستثناء - أن نحاول تحديد بعض الأماكن ضمن المخططات الحالية ، وعيونا فى هذا هذا المقام على المصادر العربية ، ولهذا فرغم أننا نرى أن من المفيد أن نضع أمام عيني القارئ رسماً كروكياً لأهم المراكز العمرانية فى الأندلس خلال العصر الوسيط المتأخر ، إلا أننا لم نكتب فيها إلا الأسماء الخاصة بالمباني أو الأماكن التى من المحتمل أن تكون تلك هى مواقعها بالفعل .

وبالنسبة للمسافر الذى ينتقل من قرطبة إلى إشبيلية متخذاً الطريق الجنوبى ، الذى عادة ما يتم السير فيه ، فإنه يمر واستجة Ecija (٢٧) وهذه الأخيرة تقع الضفة اليمنى لنهر شنيل Genil وكانت تحتفظ ببقايا من موقعها ، المزدوج السابق على العصر الإسلامى ، وكذلك بعض البوابات حيث تدين بالفضل للبكرى فى معرفة أسماء أربعة منها وهى : باب السويقة (الواقعة فى الشمال) ، وباب الجسر (الواقع فى الشرق) ، وباب أشونة Osuna (الجنوب) ، وباب الرزق (الواقع فى الغرب) ، كما كان لها مسجد جامع به خمس بلاطات وبالقرب منه نجد كنيسة ، الأمر الذى يؤكد أهمية طائفة المستعربين خلال تلك الفترة ، وغرب ذلك الموقع وعلى بعد خمسة فرسجاً نجد قرمونة Carmona التى تقع على سفح هضبة استراتيجية تسطير على وديان خصبة ،

ويشتهر حصنها بأنه منيع ، وكذلك أسوارها الرومانية وبواباتها التي كانت تسمى :
بوابة قرطبة ، أشبيلية ، قلشانة ، وكان مسجدها الجامع يتكون من سبع بلاطات
تفصل بينها أعمدة ودعامات قديمة (٢٨) .

والى جنوب اشبيلية ، فى الوجهة المؤدية إلى جبل طارق ، نجد أن الطريق كان
محفوظاً بأشجار الزيتون ويأخذ اتجاهه صوب الأقاليم الجبلية وقرى صيون Sidona
حيث كان قد استقر فيها جند فلسطين خلال القرن الثامن ، وبعد تجاوز شريش Jerez
de la Fronera بحيث تكون محافظة قادش فى الجهة الغربية (٢٩) نصل إلى العاصمة
قلشانة Calsena الأهلة بالسكان اليوم ، وبعد ذلك نمر بمدينة سالم وهى الوقت
الحالى تسمى M Sidonia (٣٠) ثم نمضى عبر ميدان المعركة الشهيرة "معركة الخندق"
ونصل إلى طريف التى بنى فيها عبد الرحمن الثالث قلعة حصينة (٣١) وأخيراً نصل
إلى الجزيرة الخضراء .

عاشت الجزيرة الخضراء حياة مزدهرة خلال القرون الوسطى نظراً لموقعها فهى
فى طرف أحد ألسنة اليابسة الداخلة فى البحر ويحيط بها جبل طارق من الناحية
الشرقية ، ويرجع ذلك الازدهار - فى المقام الأول - إلى نشاط حركة الملاحة بين
مينائها وميناء سبته ، وطنجة و Alcazarseguer فى المغرب ، وعندما أوشك عهد
الخلافة على الإنتهاء قام الحموديون بتحويلها هى ومالقة إلى مقرهم فى الأندلس
وجعلوا الترسانات الأموية المنيعة الأسوار قصوراً لهم ، وكانت المدينة تقع ، متلما هو
عليه الحال اليوم - على مرتفع من الأرض يسيطر على نهير هو وادى العسل ، وكان
فى الجزيرة الخضراء - إلى جوار الترسانات - مسجد جامع به خمس بلاطات يقع
فى أعلى مكان ويحيط به السوق الذى يمتد حتى البحر ، كما كان هناك مصلى آخر
يطلق عليه مسجد الأعلام M.de las Banderas وذلك لتخليد ذكرى الأنزال النورماندى
الذى وقع عام ٨٥٩م (٢٤٤هـ) ، وقد كان للمدينة عدة بوابات وكذلك باب آخر يطلق
عليه باب الخوخة (٣٢) .

وعند تجاوز المشارف المحيطة بالجرف Aljarafe الواقعة غرب اشبيلية ، سرعان
ما نرى فى أفق السماء الأبراج العالية لحصن لبلة Niebla (٣٣) ، وهى مدينة تخلفت
كثيراً اليوم على احتلال مكانتها القديمة ، هناك أيضاً مدينة الحمراء التى سميت بذلك

نظراً للون الأراضى التى أقيمت عليها وكانت تسمى لبلا وقديماً إيليبلا Illipia وكانت إحدى المدن التى خصصت لجند إيميسا Emesa ، وكانت هذه المدينة لا زالت تحتفظ بالكثير من الآثار الرومانية حتى القرن العاشر الميلادى ، وبعد ذلك يمكن للمسافر أن يعبر منطقة التعدين التابعة ولبه Huelva ، فيأخذ مركباً ويعبر مصب نهر وادى يانه ثم يرى أمامه الطريق المؤدى إلى منطقة الغرب Algarve ، وهذا الطريق يمر بقرية أكشونبة Ocsonoba ، وأول المدن التى يراها فى مسيرته بعد المرور بكل من قرية قسطة دراج Cacella وقرية طبيرة Tavira ، يجد نفسه فى سانتا ماريا Santa Maria (٢٤) التى أصبحت تسمى اليوم فارو Faro والواقعة على حافة منطقة مليئة بغابات الصنوبر (٢٥) ، وكانت تلك المدينة مليئة بالحيوية ويشغلها الكثير من العرب من نوى الأصول اليمنية - طبقاً لأقوالهم - كما كانت تشتهر بمينائها النهري ورساناتها ويتسم أهلها بالدقة اللغوية وكذلك المناطق المحيطة ، وباتجاهنا صوب الشمال نجد مدينة باجة Beja - المسماة قديماً Pax Iulia - التى كانت ترتبط بمدينة أشبيلية بطريق عبر سلسلة جبال أراثينا Aracena ، كما كانت مقراً لأحد الحكام (٢٦) ثم تتفرع الطرق ابتداء من هذه المدينة لنصل إلى يابرة Évora ولشبونة وبعد ذلك إلى شنترين Santar-en ثم قلمرية Coimbra .

وقد صور لنا البكرى لشبونة (أشبونة) (٢٧) على أنها مدينة يحيط بها سور مجاور لنهر التاج ، ويفتح فى هذا السور عدد من الأبواب أو المداخل الضيقة ويقدم لنا أسماء تلك الأبواب (٢٨) ؛ ولا نعرف إلا القليل عن عاصمة البرتغال - فى المستقبل - خلال العهد الإسلامى ، وإذا ما كانت قد جذبت انتباه الجغرافيين فهذا يرجع إلى إنه قد أبحر من مينائها هؤلاء الذين أطلق عليهم "المغامرين" (٢٩) الذين حاولوا خلال منتصف القرن التاسع القيام باكتشاف المحيط الأطلنطى إلا أنه يبدو أنهم لم يتجاوزوا حدود جزر الكنارى .

مدن شرق الأندلس والساحل الشمالى :

عندما ننطلق من الجزيرة ونسير بمحاذاة شاطئ البحر المتوسط نصل إلى عبر المرور بإشبونة Estepona مربلة Marbella وسهيل Fuengirola إلى كورة رية Reyro - التى حرف اسمها - نو الأصل اللاتينى Regio (٤٠)، وكانت عاصمتها مالقة Malaga

الواقعة على شاطئ البحر فى موقع حصين ويحيط بها من الخلف جبل فارو Gibrafaro الذى يبلغ ارتفاعه ١٧٠ متراً ، الجنوبى الغربى لهذه الصخرة ، وفوق منطقة مرتفعة ، كانت هناك قصبة منيعة فى عصر الخلافة ، وهى قصبة أعيد بنائها بشكل جزئى ، وهى اليوم قد تم ترميمها بالكامل ، كانت القصبة مقراً للوالى ، كما كان بها مسجد أسس فى عهد عبد الرحمن الداخل وينسب بناؤه إلى القاضى معاوية بن صالح الحضرمى ، كان هذا القاضى أحد المهاجرين السوريين فقد كان الثقافه لدى أول أمير قرطبى (توفى عام ١٧٧٥-١٥٨هـ) ^(٤١) ، كانت المدينة تمتد كما هى عليه اليوم بين القصبة ومجرى نهر متقطع الثروة المائية ، أما المسجد الجامع الذى تقع الكاتدرائية الحالية مكانه ، فقد كان قريباً من البحر ويعود بناؤه إلى عصر الأمير محمد الأول كما كانت له خمس بلاطات طبقاً لرواية البكرى الجغرافى الذى أشار أيضاً عن الرىض دون أن يذكر اسمه ، غير أننا نعرف أنه خلال القرن الحادى عشر ، بل وقبل ذلك بكل تأكيد كان يطلق عليه اسم نو أصل رومانثى هو فونتانيا Fontanella ، كما كان يمتد خارج إحدى البوابات التى كانت تحمل نفس الاسم (باب فونتالا) ^(٤٢) .

ومروراً بالطريق الساحلى الضيق الذى نجد فيه آخر سلسلة الجبال المجاورة لجبل شلير - Mons Solarius - وهى اليوم Sierra Nevada نتقل من مالقة لنجد بيثمليان Bezmiliana والمنكب Almuñecar ودالياس Dalias ثم نصل إلى الميناء الأندلسى الكبير المرية Almeria الذى حل خلال القرن العاشر محل عاصمة القورة القديمة المسماة بتشينيا Pechina الواقعة إلى الداخل على بعد عدة كيلومترات ، وظلت المرية ، مثل مالقة ، مدينة إسلامية حتى عام ١٤٨٧م ، إذا ما استثنينا استعادتها طوال أربعين عاماً خلال القرن الثانى عشر ، وقد ظلت المدينة محتفظة بطابعها الإسلامى حتى بعد العصور الوسطى ، ورغم أهمية مينائها ومناخها الرائع فليست اليوم إلا مدينة من الدرجة الثانية والسبب فى هذا هو قلة الطرق المواصله بينها وبين باقى الأندلس ، كما أن نواحيها لم تكن كثيرة الخصوبة وبالتالي نرى الأرض قاحلة بمبعد عنها ، وهذا ما يتناقض مع المساحات المجاورة لها مباشرة .

يقدم لنا الإدريسى أكمل وصف لمدينة المرية ^(٤٣) ، لكن البكرى كان قد أشار إليها قبل ذلك عند الحديث عن طبوغرافيا العصر الإسلامى ، ويعد أن تحدث الجغرافى

الأندلسى عن الوظيفة الاستراتيجية لبرج المراقبة (مرية) فى بجانة Pechina وكذا الرباط المجاور له قدم لنا التاريخ الدقيق لبدء تلك المنطقة العمرانية على يد الخليفة عبد الرحمن الثالث (٩٥٥م - ٣٤٤هـ) (٤٤) ، كانت البداية - كما هو معهود - متمثلة فى بناء السور وتحديد مكان المسجد على نفس المحور الذى يربط بين بيتشيننا والبحر ، وكان ذلك الطريق يتصل بالمرية عبر باب يطلق عليه "باب بجانه" ، وهو باب ذكره الكثير من كتاب السير العرب ويقع مكانه اليوم فى وسط المدينة ، لكنه يحمل اليوم اسماً جديداً هو "باب بورشيننا" Purchena - عبارة عن قرية مزدهرة تقع على بعد سنتين كلبو متراً شمال المرية - وهنا نجد وجه شبه بين المسميين ونعرف أيضاً السر فى التدهور السريع الذى لحق بعاصمة الكورة القديمة ، علينا أن نضع جغرافياً ، ربح المصلى Oratorio فى Puerta de Pechina ، وقد قام العبد خيران الذى حكم المدينة خلال الفترة من ١٠١٢م إلى ١٠٢٨م (٤٠٣-٤١٩هـ) بإحاطته بسور من الطين وأنشأ فى الوقت ذاته قناة لتوصيل المياه من بئر قريب ، أما الربح الثانى الواقع فى الجهة الغربية ، أى بين البحر وهضبة جبل لحام فهو "ربح الحوض" Estanque ، وأخيراً نجد القصبه التى تسيطر على المكان بمبانيها الصلدة ، وكان لهذه القلعة بوابتان وممرًا للحراسة يحيط بالمنطقة الوعرة ، كما كانت مقراً للوالى الاموى قبل أن تضم داخل أسوارها - خلال القرن الحادى عشر - قصور الأمراء .

التجيبين عندما تحولت ألمرية إلى عاصمة لمملكتهم الصغيرة (٤٥) .

وعلى الجانب الآخر من سلسلة جبال الثلج Nevada وعلى نفس المسافة من كل من مالقة والمرية تقع مدينة البيرة Elvira فى واد نهر يطلق عليه شنيل Genil وفى سفح منطقة جبلية (٤٦) ، كما قامت المدينة على الأطلال القديمة التى ترجع إلى العصرين الأيبيرى والرومانى ، وكان اسمها آنذاك Iliberris ، وعندما نتجاوز المكان نتجه بضعة كيلو مترات نحو الشرق نصل إلى تلاقى شنيل حدره Darro وهناك نجد غرناطة وقلعة الحمراء التابعة لها ، لم تكن آنذاك إلا منطقة عمرانية قليلة الأهمية وكان أغلب سكانها - كما قلنا ، سلفاً - من اليهود ، لكن هذه المدينة التى ستصبح فيما بعد عاصمة الناصريين لم تعيش حالة التحول والأزدهار إلا مع بداية النصف الأول من القرن الحادى عشر وذلك عندما قام الصنهاجى / الزاوى بن زيرى بجعلها عاصمة إمارته

وفضلها على ألبيرة التى يرى أن دفاعاتها سيئة ، ومنذ تلك اللحظة أصبحت عاصمة القورة القديمة غير أهلة بالسكان وتهدمت مبانيها ، وهكذا كان شأن الكثير من المحلات الأسبانية التى اختفت من الوجود ، وإذا ما لنا أن نحكم عليها انطلاقاً من الآثار المتأثرة فى نواترها العمرانية لقلنا إنها كانت مدينة مزدهرة ، وقد أسهم الأمير عبد الرحمن الأول فى تطويرها وجعل بعض مواليه يقيمون فيها ، كما أن المسجد الجامع فيها الذى ينسب بناؤه إلى التابع الشهير حنش الصنعانى ثم ترميمه وتوسيعه بناء على أوامر محمد الأول فى نهاية عام ٨٦٤م (٢٥٠هـ) .

كانت ألبيرة تجاور ، من الناحية الغربية ، بلدة أرشيدونا Archidona (٤٧) ، وهى عبارة عن مدينة بها حصن وقد ضربت مولها الأسوار - التى هدمت خلال القرن الحادى عشر - أما من الناحية الشرقية فهناك جيان Jaen ، وعندما نرحل من ألبيرة فقد كان هناك طريق يقودنا إلى مركزين عمرانيين هامين : وادى أش Guadix ، وبسطة Baza ، كان هذان المراكزان يشتهران بصناعة الحرير ، كانت جيان عاصمة مزدهرة وتشتهر بينايبعتها وطوائنها وحدائقها ، وكانت مشيدة - كما هو حالها اليوم - على سفح هضبة وعدة تتوجها القصبية ، أما المسجد الجامع فيها فقد كان يتكون من خمس بلاطات وقد شيد فى عهد عبد الرحمن الثانى (٤٨) .

ومن المرىة نتجه نحو الداخل لنصل إلى لوركا Lorca وبعد ذلك نصل إلى مرسية Murcia التى كانت تقع فى Teodomiro خلال العصر القوطى ، وأصبحت بعد ذلك خلال العصر الإسلامى دائرة Tudmir ، فكما نعلم أنشئت مرسية (٤٩) ، عام ٨٢١م - ٢١٦هـ (٥٠) ، تلبية لأوامر صدرت عن الأمير عبد الرحمن الثانى لتكون بمثابة عاصمة الحكومة فى تلك الدائرة وتحل بذلك محل العاصمة القديمة Ello التى هدمت بعد ذلك بوقت قصير ، وقد كان الوالى جابر بن مالك بن لبيد هو الذى قام بتنفيذ الأوامر الصادرة من قرطبة ووضع مخطط الرقعة العمرانية الجديدة ، ورغم هذا فلا نعرف إلا القليل عن تاريخها العمرانى ، غير أننا من خلال روايات السير نعرف أن مرسية كان بها عدة مساجد وأن البوابة الرئيسية فى الناحية الغربية ، هى بوابة ابن أحمد وتقودنا البوابة إلى مسجد يسمى جامع الجرف وكذلك إلى المقابر .

وإذا ما غادرنا مرسية وسرنا بمحاذاة شاطئ البحر حتى نصل إلى مصب نهر إبرة فسوف نلاحظ أن ذلك الشاطئ الشرقي Levante كان به عدد من الموانئ النشطة مثل لقنت Alicante دانية Denia وكذلك بعض المدن الهامة وخاصة شاطبة Ja-tiva فى الجنوب ، وطرطوشة Tortosa فى الشمال كما نجد أهم وأبرز مدينة فى شرق الأندلس وأكثرها كثافة ألا وهى بلنسية Valencia التى عاشت المزيد من الازدهار حتى بعد سقوط الخلافة ، وكان ذلك فى البداية فى عصر السيد Cid وبعد ذلك خلال الفترة التى سبقت عودتها النهائية إلى حظيرة المسيحية ، وكان يوجد بها خلال القرن العاشر الكثير من المساجد والأسواق ، أما بواباتها الرئيسية الأربعة فهى : باب القنطرة فى الشمال الغربى (الآن باب Puente) حيث يؤدى إلى الجانب الآخر من مجرى نهر وادى البيار Guadalavivar وهناك نجد دبض (ألكودية Alcudia ، وهناك باب الحنش فى الناحية الغربية Las Serpientes حيث توجد خارجه المقابر ، أما الباب الجنوبى فهو باب بيت الله Boatrlla^(٥١) ، وفى الشرق نجد باب الشريعة المؤدى إلى الشارع الخارجى للمدينة والذى كان يقودنا من الناحية الجنوبية الشرقية إلى ريش الرصافة حيث يذكرنا الاسم - كما هو الحال فى قرطبة - بالحنين إلى سوريا الذى كان يشعر به الأمراء المروانيون فى هذه الناحية^(٥٢) .

المدن فى مناطق الثغور

على ضفاف نهر وادى يانه - فى الثغر الأدنى - تقع مدينة ماردة Mérida^(٥٣) ، وقد ظل العمران فيها نشطاً حتى منتصف القرن التاسع ، وقد كان جسرهما الرومانى المكون من أربع وستين عقداً ، والذى أنشئ من كتل الجرانيت ، محط إعجاب المسلمين ، وكذلك الأمر بالنسبة لباقي الآثار التى ظلت باقية فى العاصمة القديمة لدائرة لوسيتانيا Lusitania ، وفى عام ٨٢٥ م - ٢٢٠ هـ بنى قصر منيع البنيان على أطلال مبنى رومانى قديم يطل على نهر وادى يانه ، تلبية لأوامر عبد الرحمن الثانى ، وقد قام بهذا العمل الوالى عبد الله بن كليب بن ثعلبة أثناء الظروف التى أشرنا إليها عند الحديث عن فترة حكم ذلك الأمير^(٥٤) ، ولا زالت هناك لوحتان تذكاريتان لهذه القلعة التى يطلق عليها اليوم كونبتول Conventual ، ثم أصبح القصر بعد ذلك مقراً لإقامة القائد الشهير هاشم بن عبد العزيز^(٥٥) ، عندما تولى أمر ماردة فترة من الزمن باسم الأمير محمد الأول ، وقد نقل لنا البكرى عن ذلك القائد أنه استولى على

أجمل قطع الرخام فى المدينة وأمر بنقلها إلى قرطبة حيث تم استخدامها فى القصور والحمامات .

فقدت ماردة أهميتها خلال عصر الخلافة وحلت محلها جارتها بطليوس Badajoz التى تقع هى أيضاً على ضفاف نهر وادى يانه ، أى على بعد ستين كيلو متراً باتجاه مصب النهر ، وقد أشرنا قبل ذلك (٥٦) ، إلى الكيفية التى أصبحت فيها هذه المدينة أكثر أهمية ونمت عمرانياً خلال نهاية القرن التاسع ، وقد كان ذلك لاختيارها مقر إقامة للمتمرّد الشهر عبد الرحمن بن مروان بن الجليفى ، وعندما وجد ابن حفيده - الذى يحمل نفس الاسم - نفسه مجبراً على الإذعان لعبد الرحمن الثالث فى عام ٩٢٩ م - ٣١٧ هـ ، أصبحت بطليوس مقر إقامة القائد العام الذى كانت تعينه قرطبة وأخذت المدينة تنمو سواء فى تعداد السكان أم النشاط التجارى ، وإذا ما كان لنا الوثوق فى عبارة ساقها البكرى (٥٧) ، فإن الأمير عبد الله مديد العون لابن جليقى لمدة قصيرة من الزمن حيث أجبره هذا الأخير على بناء المدينة الجديدة وزوده بالمال والبنائين الذين قامو بتسوير المدينة بالطوب وأنشئوا فيها حصناً يقع شمال الرقعة العمرانية - على لسان يسيطر على نهر وادى يانه ، كذلك تم إنشاء مسجد باستخدام الحجارة وكذا منارة وحمامات بعد أن انتقلت القيادة العامة للثغر الأوسط إلى مدينة سامل ، الواقعة بالقرب من الخط الاستراتيجى الذى نهر دويرة ، لم تفقد مدينة طليطلة أهميتها خلال عصر الخلافة فقد كانت واحدة من أكثر المدن غنى وإزدهاراً وكان بها عدد غير قليل من المستعربين واليهود ، وقد أحدث موقعها تأثيراً على الكتاب العرب فى مدينة تقع على هضبة كائنة فى منحنى لنهر التاج الذى يلتف حولها من ثلاثة جوانب ويسير تحت قديمها عبر مسار عميق ؛ ولهذا كانوا يتحدثون عن تفرد موقعها كما قصوا العديد من الأساطير التى سترت فى أنحاء أسبانيا والتى كانت تتحدث عن الثروات والكنوز التى كانت فى المدينة عند استيلاء المسلمين عليها (٥٨) ، إلا أنهم لم يتحدثوا بدقة عن عمران المدينة وآثارها خلال عصر الإمارة والخلافة اللهم إلا الحديث عن الجسر الرومانى الشهير الذى لا يزال يحمل الاسم العربى "القنطرة" حتى اليوم ، وهناك رواية تتحدث عن ترميمه فى خلال نهاية القرن العاشر ، وقد قام المنصور بن ابي عامر بهذا العمل (٥٩) ، كما لا زالت بوابة الجسر Puerta del Puente التى ترجع إلى العصر الإسلامى قائمة فى طرف ذلك الأثر ، ومن المحتمل أيضاً أن البوابة الحالية ، المسماة بويرتا بيبخادى بيساجرا Puerta Vieja de Bisagra ، الواقعة شمال

المدينة ، كانت قائمة فى عصر الخلافة وكان يطلق عليها باب شقراً أو بوابة ساجرا Sagra وهو اسم لدائرة خصبة تؤدى إليها تلك البوابة ، وعلينا أن ننتظر طول القرنين الثانى عشر والثالث عشر حتى نطلعنا الوثائق الخاصة بالمستعربين (٦٠) ، على تفاصيل الطبوغرافيا الطليطلية فى الفترة الثالثة مباشرة لاسترداد المدينة .

وختاماً لجولتنا علينا التوجه إلى الثغر الأعلى وإلى عاصمته سرقسطة Zaragoza (٦١) ، فقد كان اسمها قديماً Caesaraugusta وأطلق عليها العرب أيضاً المدينة البيضاء ، وقد أصبحت المدينة - مثلما هو الحال فى أغلب المدن التى عرضنا لها - عاصمة مملكة مستقلة خلال القرن الحادى عشر وبذلك ازداد إزدهارها ، ومنذ زمن طويل أصبحت الرقعة العمرانية للمدينة محدودة الملامح فهى تقع فى الجانب الأيمن لنهر إبره وبالتحديد على ضفتها حيث يفصلها عنه سور قديم لا زال يتحدى حتى الآن عوامل التعرية ومرور الزمن ، وكان هذا السور يضم مساحة مستطيلة ٩٠٠م × ٦٠٠م تنقسم إلى أربعة أجزاء متساوية ، كما أن الشارعين اللذين يكادان يكونا مستقيمين والمقاطعين يؤديان إلى أربعة بوابات ، وهى شوارع بلغت من الاتساع درجة تثير الاستغراب بالنسبة لمخططات المدن الإسلامية فى الجزء الشمالى الشرقى من المدينة أقام الغزاة مسجداً كبيراً حدد مكانه التابع حنش الصناعى بحيث يكون محل كنيسة قديمة (٦٢) ، وقد تم بناء هذا المسجد خلال القرن الثامن وبعد ذلك تم توسعته نحو الشرق ولما ظهرت الحاجة إلى الإبقاء على محرابه التاريخى الذى وضعه الخليفة الشهير للرسول ، فقد أدخلت التعديلات اللازمة لنقله ووضع فى الحائط الجديد للقبلة ، أما البوابة الجنوبية فكانت تؤدى إلى المقابر والتى كان قد دفن فيها حنش ورفيقه على بن رباح اللخمى ، وفى الجزء الغربى للسور كان هناك باب أطلق عليه باب اليهود طبقاً لرواية ابن الفرضى (٦٣) ، غير أن أحد الأبحاث الحديثة التى تم إجراؤها فى المكان (٦٤) أكدت أن الحى اليهودى فى سرقسطة كان يقع فى الجزء الجنوبى الشرقى للمدينة ، أما حى المستعربين فكان فى الشمال الغربى ، وكان الباب يفتح على مدخل الجسر الذى يرجع إلى العصر القديم وكان يمتد فوق النهر ، حيث نجد اليوم جسر بيدرا Puente de Piedra ، وقد تم ترميم ذلك الجسر عام ٨٢٧م (٢١٢هـ) تنفيذاً لتعليمات الأمير عبد الرحمن الثانى (٦٥) ، أما بالنسبة للقصر الإسلامى "قصر السدة" Zuda (٦٦) فقد كان على صفاف نهر إبره ملاصقاً للحى المسيحى أى فى الركن الشمالى الغربى للسور .

٣ - قرطبة خلال القرن العاشر الميلادي

وصف قرطبة الإسلامي (٦٧) :

مما شك فيه أن قرطبة عاصمة الأمراء والخلفاء الأمويين تحتل مكانه الصدارة بين مدن الأندلس في روايات المؤرخين والجغرافيين ابتداء من القرن العاشر الميلادي ، وقد كان ابن حوقل أول من خصص لها بضعة سطور تتسم بالإيجاز ، ورغم ذلك فهي تقدم لنا بعض التفاصيل عن موقعها ورقعتها وعدد بواباتها ومساحتها خلال عصر الخلافة (٦٨) ، وخلال نفس الفترة ، - طبقاً لتأكيد ابن حزم (٦٩) - خصص أحمد الرازي المؤرخ الشهير للأسرة الروانية كتاباً كاملاً تضمن الوصف الطبوغرافي للعاصمة الأندلسية وأوضح مكان إقامة العائلات الأرستقراطية فيها ، وقد اعتمد في ذلك على المناهج التي سار عليها أحمد بن أبي طاهر ، خلال القرن السابق عليه ، عند وصفه لمدينة بغداد ، لكن "خطط قرطبة" هذه لم تصل - لسوء الحظ - إلى أيدينا ، وإذا ما أمكننا ذات يوم العثور على تلك المخطوطة لأصبح من السهل التوصل إلى حل الكثير من المشاكل التي تواجهنا عند دراسة طبوغرافيا قرطبة قبل سقوط الخلافة ، وهي مشاكل مستعصية على الحل كما رأينا حتى الآن ، وإذا ما كنا شديدي الأسف لضياح ذلك الكتاب فليس أمامنا إلا وسيلة وحيدة لرسم لوحة ممكنة للمدينة الأندلسية وحدودها ، وتتمثل في عملية المضاهاة والاعتماد على البيانات المتناثرة في الأدب الأسباني العربي وخاصة في السير وخاصة تلك التي كتبها ابن الفرضي ابن بشكوال والضبي وابن الأبار ، ونحن في ذلك لم نذكر إلا الأسماء الهامة .

أما المقرئ - المغربي - الذي كان يعيش خلال القرن السابع عشر ، فقد خصص لقرطبة وتاريخها حتى سقوطها في يد الممالك المسيحية كتاباً كاملاً هو الجزء الرابع لمؤلفه الشهير نفح الطيب (٧٠) ويعتبر هذا الجزء أحد المصادر الأساسية في معلوماتنا عن عدد كبير من الاستشهادات ، سواء كانت كاملة أو ناقصة ، التي أخذها من مؤلفين سابقين ينسبون إلى عصور مختلفة بدءاً من ابن حوقل وانتهاء بابن سعيد ، لكنه لم يورد لنا رواية أحمد الرازي ، وعلى أية حال فإن الانطباع الذي يخرج به المرء بعد قراءة هذا المؤلف البلاغي هو الشعور بخيبة الأمل ، فالمؤلف الغربي الذي هاجر إلى المشرق يتحدث عن بلد أصبح فيه الوجود الإسلامي ماضياً انتهى منذ زمن طويل وإذا

قمنا بحذف التكرار وكافة الفقرات التي لا تتضمن معلومات حدودية من تلك الصفحات وكذلك بعض القصائد الشعرية والشطحات الأدبية فلن يتبقى أمامنا إلا القليل من المادة النافعة والتي يمكن أن ننظر إليها على أساس أنها صندوق يتضمن معلومات متناثرة مثل تلك التي نستقيها من كتابات السير .

غير أن قلة المصادر ليست هي العنصر الوحيد الذي يجعل من الصعب تحديد أسماء الأماكن القرطبية بالنسبة للمخطط المدينة في الوقت الحالي ، ذلك أن التسميات في تلك الأخيرة لا تمثل إلا صورة موجزة ومشوهة لعاصمة الخلافة ، نعم هناك ملامح أساسية تجتمع كلها في المناطق المجاورة لنهر الوادي الكبير (مثل المسجد الجامع وموقع القصر) غير أنها تقل في الجهات والنواحي المجاورة (مثل موقع الرصافة وأطلال العصر الأموي في السهل أو النواحي المجاورة للجبال شمال مدينة الزهراء) ، ومع هذا يمكننا أيضاً أن نحدد بوضوح ودقة ، وأسوار المدينة خلال القرن العاشر وكذلك جُلّ الأبواب فيه ، لكن قرطبة تجاوزت كل ذلك الماضي وتغيرت معالمها القديمة بالكامل وخاصة ابتداء من القرن التاسع عشر ، وقد أدت الأعمال العمرانية إلى تغيير ملامحها بالكامل إذا ما استثنينا من ذلك المنطقة المحيطة بالجامع والأحياء للنهر ، ولحسن حظنا يتوفر لدينا مخطط قديم للمدينة (٧١) ، تم رفعه عام ١٨١١م مما يجعلنا نستند إليه أكثر من أية مخططات أخرى حديثة عند محاولة إعادة تصور المدينة الإسلامية خلال عصر الخلافة الأموية في الغرب .

تعداد سكان قرطبة ومحيطها خلال عصر الخلافة :

من المؤكد أن المحيط الحالي لقرطبة ليس إلا جزءاً من ذلك كان يوصف خلال القرن العاشر ، فرغم بناء بعض الأحياء الجديدة في الشمال الشرقي والشمال الغربي فإن إجمالي امتداد المحيط الحالي للمدينة يمكن أن يصل إلى عشرة كيلو مترات ، كما أن الرقعة العمرانية يمكن أن نراها مربعة الشكل بحيث يبلغ طول كل ضلع حوالي ٢,٥ كم ، ورغم هذا فإن تلك الأبعاد لا تتفق - ولو من بعيد - مع ما نقرأه في المؤلفات العربية ، وحتى لو قللنا من حجم الأرقام الذي يذكرونها على أساس أنها مبالغ فيها ، فإنها - أي الأرقام - تجعلنا نرى أن رقعة المدينة في نهاية عهد الخلافة قد وصلت إلى ما هو أكبر مما هي عليه اليوم ، وما يبرهن على هذا هو توافق الروايات التاريخية

والآثارية التي تؤكد أنه بعد استرداد المدينة اختفت أجزاء كاملة من تلك الرقعة التي كان يسكنها المسلمون وهى تلك التي كانت تقع شمال وشرق المدينة الحالية ، وإذا ما أضفنا إلى ذلك عنصراً آخر هو عبارة عن قرار شهير يمنع إقامة المباني ، فإن المدينة لم تتسع رقعتها نحو الجنوب (أى على الجانب الآخر من نهر الوادى الكبير) ابتداء من القرن التاسع ، ومعنى كل هذا أنه يمكننا القبول بتقديرات الجغرافيين والمؤرخين حول محيط المدينة خلال القرن العاشر على الشاطئ الأيمن لنهر الوادى الكبير وعلى الطرف الغربى ، أى باتجاه مدينة الزهراء ، وفى الجانب الشرقى باتجاه المدينة العامرية الزاهرة^(٧٢) ، ونحو الشمال باتجاه الإقامة الشهير الرصافة .

وأول شاهد على مدى اتساع محيط المدينة هو ما رواه ابن حوقل ، ورغم وجهة نظر ذلك المؤرخ بالنسبة للأمويين ومملكتهم فى الأندلس فإنه يشير إلى أن العاصمة كانت تحتل مساحة تساوى أحد جوانب بغداد ، وأنه لا توجد هناك أية مدينة فى المغرب أو سوريا أو مصر تضاهيها فى الاتساع ، ويلاحظ أيضاً أنه بعد تأسيس مدينة الزهراء أخذ ينمو فى الوقت ذاته حتى سكنى يقع بين العاصمة والمقر الجديد لإقامة الخلفاء ، وكذلك ملحقاتها المعمارية - وهى معلومة هامة لتقدير مدى اتساع رقعة المدينة - التى هى عبارة عن أحياء ألحقت بها من الجهات الشرقية والشمالية والغربية وأصبح لك ذلك جزءاً من المدينة ، إذن يمكننا الخروج بنتيجة تقول أنه كان يوجد بين رقعة المدينة وبين أحيائها المجاورة لها مساحات خالية متمثلة فى الحدائق والبساتين والمقابر أو الأراضى غير المخصصة لغرض معين .

ويشير المقرئ إلى كاتب هو ابن غالب^(٧٣) الذى قدر إجمالى طول سور المدينة بحوالى ١٤ ميلاً أى ٢٠ كم ، غير أننا سوف نرى أن هذا التقدير غير سليم وأن ذلك المؤلف قد عمى عليه الأمر بأن خلط بين محيط المدينة بمفهومه الأساسى وإجمالى الرقعة العمرانية ، والرقم الأكثر ثقة هو الذى أورده مؤرخ أندلسى آخر^(٧٤) ، وهو رقم لا يتعلق بمحيط المدينة بل بامتداد الخندق المحفور حول قرطبة عندما تم إعداد الدفاعات عن المدينة ضد البربر الذين حاولوا حصارها فى بداية القرن الحادى عشر ويشير هذا المؤلف إلى أن ذلك الخندق كان يمتد حول ثلاثة جوانب للرقعة العمرانية باستثناء الجانب الرابع القائم فى الجهة الجنوبية - نهر الوادى الكبير - ويصل طوله

إلى ١٤٢٠ متراً وبالتالي يصل إجمالى طول الخندق ٢٢.٥ كم وهذا يبدو محتملاً ، عندما ننقل ذلك إلى مقياس مخطط المدينة فإن ذلك العقد الضخم الذى هو عبارة عن ذلك الخندق يضم داخله ما يقرب من خمسة آلاف هكتار أى أنه ثمانية أضعاف المدينة الحالية (٧٥) .

وقد جمع المقرئ عدة بيانات إحصائية عن قرطبة فى إحدى صفحات الجزء المخصص لها فى مؤلفه (٧٦)، وهى بيانات تبدو فيها المبالغة لأول وهلة رغم ضخامة رقعة المدينة فى نهاية القرن العاشر ، ومع هذا فتلك البيانات منسوبة لاثنتين من المؤلفين الذين لم نألف عنها هذا الغلو وهما ابن حيان والبكرى ، فأولهما يشير إلى أن المدينة كان بها ١٦٠٠ مسجداً ، أما الثانى فيختصر ذلك العدد إلى ٤٧١ مسجداً (٧٧) ، ثم يضيف البكرى أن المنصور أمر بإجراء مسح عقارى للرقعة العمرانية لقرطبة وكانت المحصلة هى على النحو التالى : ٢١٣٧٧ منزلاً يشغلها العامة والطبقة المتوسطة ، ٦٠٣٠٠ منزلاً يشغلها كبار الموظفين والارستقراطية ، وأكثر من ٨٠٤٥٥ محلاً ، وهذا بون أن نأخذ فى الاعتبار الغرف المؤجرة والحمامات والفنادق ، ونحن اليوم نتساءل هل يمكننا قبول تلك الأرقام حتى لو خفضنا العدد إلى مائة ألف كما فعل ابن عذارى (٧٨) ، بشأن البند الخاص بالمنازل المخصصة للعامة ؟ وإذا ما كان الأمر هو بهذا الشكل فإن تعداد السكان يتجاوز المليون نسمة وهذا ما يبدو مبالغاً فيه حتى ولو ضم هذا الرقم طائفتى المستعربين واليهود (٧٩) ، وقد قام ابن الخطيب (٨٠) ، بوصف قرطبة بعد ذلك لكنه لم يتفوه بكلمة واحدة عن عدد سكانها خلال عصر الخلافة واقتصر على الإشارة إلى أن الحكم الثانى قد أبلغ بأنه تباع فى المدينة كميات من السردين المملح تصل قيمتها إلى عشرين ألف دينار (وهذا رقم مبالغ فيه) وأن المنصور أمر بإجراء إحصائية لمعرفة الحاجات اليومية للمدينة من الوقود فكانت النتيجة هى ٦٦٠٠ عبوة وهو رقم مقبول .

سور المدينة وبواباتها :

تتفق المصادر العربية على أن الجزء الرئيسى من الوقعة السكانية للمدينة ، والذى كان يسمى أيضاً بالقصبة كان هو المحاط بالسور طوال كافة عصورها الإسلامية ، وكان السور من الحجر الرملى المقتطع من المحاجر الكائنة فى السلسلة المجاورة ، ومن

نوعاً من الحجارة يتسم بضعف مقاومته لعوامل التعرية ومرور الزمن ، وقد تم وضع الكتل الحجرية فوق الكتل الرومانية القديمة ^(٨١) ، ومن المؤكد أنه كانت تجرى عليه ترميمات دورية أو إعادة بناء جزئى مثلما حدث خلال الأعوام الأولى للقرن الثامن أثناء حكم الوالى السمع بن مالك الخولانى ، ويعد ذلك بخمسين سنة أى عام ٧٧٦م (١٤٩هـ) أثناء حكم الأمير عبد الرحمن الداخل ^(٨٢) ، وقد اختفى اليوم بالكامل هذا السور الذى تم إنشاؤه على أطلال سور رومانى ، ورغم هذا يمكن العثور على بقايا وأطلال له فى أغلب أحزاء المخطط المخطط الخاص به ، وإذا ما كان لنا أن نتق ببعض الروايات اللاحقة على تاريخ استرداد المدينة فقد كان للسور خندق ، إلا أنه لا يجب الخلط فى هذه الحالة بين ذلك الخندق وهذا الأمر الدفاعى الذى أحاط كافة الرقعة العمرانية للمدينة والذى تحدثنا عنه فى مرحلة سابقة ^(٨٣) .

كان سور المدينة على شكل متوازى الأضلاع وقد كان أحد أضلاعه الصغرى هو الذى يجاور الشاطئ الأيمن للنهر بحيث يمتد مسافة ٨٠٠ متراً ، وهو ضلع يحيط بالبوابة المؤدية إلى الجسر الرومانى الممتد فوق نهر الوادى الكبير ، أما من الزاوية الجنوبية الغربية فإن السور يصعد فى أنحناء باتجاه الشمال الشرقى ويبلغ طول ذلك الضلع ١٢٠٠ متراً ، ثم يعرج بعد ذلك باتجاه الغرب - الشرق ليعود للهبوط ، فى خط يكاد يكون مستقيماً نحو الزاوية الجنوبية الشرقية على نهر الوادى الكبير ، إذن لم يكن إجمالى طول السور يتجاوز الأربعة كيلو مترات وهذا ما يتوافق مع تقديرات ابن حوقل الذى أشار إلى أنه قد قام بالطواف حول سور المدينة عدة مرات فى أقل من ساعة ^(٨٤) .

ويحدثنا ذلك الرحالة المشرقى عن وجود شارع ضخم يربط بين الرصافة وجسر نهر الوادى الكبير ، وكان ذلك الشارع بمثابة العصب الرئيسى لحركة المرور فى المدينة التى كان لها سبعة أبواب طبقاً لإجماع المصادر العربية ^(٨٥) .

كانت البوابة الرئيسية قريبة من قصر الخلافة ومن المسجد الجامع ويطلق عليها باب القنطرة Puerta del Puente وكانت تفتح على الرصيف المجاور للنهر (وهو رصيف سوف نتحدث عنه فيما بعد) وتسهل الاتصال بالشاطئ الأيسر للنهر أى الاتصال ببريخ شقنذة Secunda الذى أمر الحكم الأول بهدمه) وكذلك بالأرياف

Campina ، وعند عبور النهر نجد مفترق طرق أحدهما يؤدي إلى أشبيلية عبر استجة Ecija وآخر يؤدي إلى البيرة ، وثالث يؤدي إلى باقى منطقة جنوب الأندلس ، وكان لهذا الباب أيضاً أسماء أخرى هى باب الوادى وباب الجزيرة ، وقد كان فوقه تمثال قديم ، من المؤكد أنه لإحد الإلهات ، غير المسلمين كانوا يقولون عنه إنه تمثال العذراء مريم ، هذا إذا ما أخذنا فى الاعتبار رواية البكرى والتي قال فيها إن العذراء كانت صاحبة قرطبة (٨٦) .

وعندما نسير فى النهر - عكس التيار - نصل إلى الزاوية الجنوبية الشرقية للسور وهناك نجد باباً آخر مفتوحاً أو تم إعادة بنائه خلال عصر الحكم الأول ، وقد كان اسم الباب آنذاك الباب الجديد P. Nueva وهذه تسمية سوف تظل تقاوم مرور الزمن مثل غيرها من التسميات مثلما أوضح ذلك لنا ابن حيان خلال القرن الحادى عشر عندما تحدث عن "ثورة الریض" وذلك بأن جند الأمير استطاعوا عبر هذه البوابة أن يسيطروا على الرملة Rambla إذ هاجموا المتمردين م الخلف ، إذ كانوا يقفون على الجانب الآخر من الجسر وفى مواجهة القصر (٨٧) .

وعندما نتجه صوب الشمال الشرقى وعلى بعد ٦٠٠ متر من البوابة السابقة تجد ثلاثة تفتح على الطريق الرومانى القديم المسمى أوجوست Augusta ، وهو طريق يبدأ من مدينة قادش طبقاً لرواية ابن بشكوال وعندما يصل إلى قرطبة يتفرع نحو كل من سرقسطة طرمونة وأربونة ، وقد أطلق على هذه البوابة ، ردماً من الزمن ، بوابة طليطلة أو بوابة رومية ، إلا أن الاسم الأكثر شيوعاً لها هو بوابة عبد الجبار نسبة إلى عبد الجبار بن خطاب (٨٨). وهو أحد موالى الخليفة الأموى المشرقى مروان بن الحكم ، وبعد الاسترداد أطلق عليها بوابة الحديد Puerta de Hierro ، غير أنها ليست نفس البوابة التى كان له هذا الاسم "باب الحديد" والتي تمت الإشارة إليها فى بعض السير حيث من المفترض أنها فى الحائط الشرقى Ajarqui أما الباب الرابع لمدينة قرطبة فيقع فى أقصى الناحية الشمالية الشرقية للمحور الرئيسى لحركة المرور ، وقد ظل ذلك الباب حتى عام ١٩٠٣م وهو يحمل اسم بوابة أو ساريو Osario أما المؤرخون العرب فيطلقون عليه باب ليون وباب طليبيره وعادة ما نرى مسمى آخر هو باب اليهود ، وأحياناً ما أطلق عليه أيضاً باب الهدى (٨٩) فهل كان هذا الباب يؤدي إلى الحى

اليهودى ؟ هذا أمر ضئيل الاحتمال ، وعلى أية فهو باب كان يؤدي إلى مقابر رومانية قديمة استخدمها المسلمون وكذلك اليهود أيضاً ، وكان يؤدي إلى طريق الرصافة .

أما البوابات الثلاثة الأخرى فقد كانت فى الحائط الشرقى وهى - من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى - بوابة عامر وبوابة الجوز وبوابة إشبيلية أو بوابة العطارين .

وباب عامر هو الباب الذى تم هدمه عام ١٧١١م وكان يطلق عليه آنذاك Puert de Gallegos ، ويرجع اسمه العربى إلى عامر بن عامر القرشى وهو شخص كانت له بعض الشهرة خلال القرن الثامن إذ أسس خارج أسوار المدينة مقبرة حملت اسمه (٩٠) ، ولما كان هذا الباب يؤدي إلى المقابر بسهولة فقد قام عبد الرحمن الثالث باتخاذ قرار بفتحه خلال الشهر فبراير عام ٩١٦م (شعبان ٣٠٣هـ) وبالتالي أخذ اسم المقابر المجاورة (٩١) .

وباب الجوز القديم هو اليوم باب المدور Alomodovar ويورد ابن بشكوال أن الباب كان يطلق عليه باب بطليوس Badajoz أما الباب الحالى ، الذى لازال يحتفظ بالجزء الأسفل منه فيرجع إلى عصر الخلافة ، وقد أجريت عليه ترميمات كثيرة نذكر منها ذلك الذى تم فى عام ١٨٠٢م .

أما الباب الأخير فهو الباب الذى يصعب علينا تحديد مكانه فى مخطط المدينة اليوم وذلك بسبب التعديلات التى أجريت وتجرى منذ عشرات السنين على منطقة القصر الخلافى القديم وكذلك اتساع حى شعبى فى هذه الناحية ، فهل كانت تلك بوابة إشبيلية خلال عصر الخلافة ، والتى لازالت تحمل الاسم حتى اليوم ، أى أنها ترجع فى بنائها إلى العصر الإسلامى كما يبدو ؟ أم هل تم فتح ذلك الباب بعيداً عن النهر أى فى الجهة الشمالية للسور المحيطة بالقصر الأموى ؟ وعلى أى حال فإن الاسم الآخر لتلك البوابة - باب العطارين - (٩٢) يؤكد على أنه كان هناك سوق للعطارين ، يقع داخل سور المدينة كما سنرى ذلك فيما بعد وربما كان يقع خارج السور أيضاً .

وطبقاً لتاريخ الناصر Grónica de al-Naser فقد قام هذا العامل بتقوية بوابات المدينة (٩٣) وذلك بإنشاء بوابات داخلية تسهل عملية الدفاع عنها وتهيئ للحراس

المراقبة الدقيقة للمداخل والمخارج ، إلا أن هذا التجريد وتلك التقوية لمداخل لم يشر إليهما أحد من المؤرخين العرب .

المدينة القديمة ونموها ناحية الشرق :

بدأ سكان قرطبة - ربما اعتباراً من العصر المسمى بعصر الحكام ومن المؤكد حدوث ذلك اعتباراً من بداية عصر المرwanيين في أسبانيا - في الخروج من الإطار الضيق الذي عاشوا فيه منذ العصر الروماني ، وأخذ النمو العمراني يمتد ليس فقط على الجانب الآخر للجسر الذي يمتد على نهر الوادي الكبير بل تعداه إلى إنشاء أحياء جديدة تقع بين الشاطئ الأيمن للنهر والطريق القديم الذي كان ينطلق من بوابة عبد الجبار ويؤدي إلى مدينة القليعة Alcolea ، أطلق على هذا الامتداد الجانبى للرقعة العمرانية ، الذي كان يسير حتى شرق المدينة القديمة اسم الجانب الشرقى وهى تسمية ظلت حتى اليوم رغم التحويل Ajarquía o Ajerquía (٩٤) .

تحتل المنطقة الشرقية نصف قرطبة الحالية ويحدها من الناحية الغربية شارع يكاد يكون مستقيماً أطلق عليه في بداية القرن التاسع عشر شارع السوق Feria ويتوافق مخطط هذا الشارع تماماً ، ابتداء من الميناء وحتى نصل إلى بوابة عبد الجبار وانتهاء بالسور الروماني ، وفي الزاوية الجنوبية الشرقية لهذا الحائط نجد البوابة الجديدة التي فتحتها أو جددتها الحكم الأول وكانت تقوم بعملية تسهيل الاتصال بين المدينة وهذا الامتداد العمراني الكائن على الشاطئ النهر ، كما كانت تساعد على توسعة الأسواق في هذا الاتجاه الذي يعتبر امتداداً مباشراً للمركز التجارى .

وسرعان ما أصبحت تلك الأسواق التي تمتد من الحائط الشرقى للمسجد الجامع ، والتي تختلف في درجة امتدادها ، ضيقة ، ويبدو أنها احتلت ، خلال القرن العاشر ، كل الجزء الأدنى من الجانب الشرقى Ajarquía وخاصة في الحى الصغير المسمى شابولار Shabular (٩٥) الذي كان يحيط بالطريق الموصل إلى المقر العامرى وهى المدينة الزاهرة وإلى الرملة التابعة لنهر الوادي الكبير .

ولما لم نحصل من المصادر العربية على أية وسيلة لإعادة تصور طبوغرافيا مدينة قرطبة خلال عصر الخلافة فلا مناص من اللجوء إلى عون قاصر متمثل في أسماء

الشوارع والميادين من خلال الوثائق التالية لعصر الاسترداد ، فالمخطط الخاص بالمدينة الذي يرجع إلى عام ١٨١١م يزودنا ببعض المعلومات ضئيلة الأهمية (٩٦) حيث يشير إلى موقع القيسرية أو سوق المنسوجات بالتحديد وحوله بعض الشوارع التي لا زالت تحمل طابع العصور الوسطى ، وذلك ما نعرفه من خلال الأسماء (شارع اللحامين والخبازين ، والخباطين ، والنحاسين ..) ، كما نعرف أنه كان يوجد في الجهة الشرقية Ajarquía أسماء يمكن أن تكون ترجمة عن العربية ولها صلة بنوع من الأنشطة التجارية أو الصناعية المشابهة لتلك التي توجد في الدول الإسلامية في المغرب مثل شارع الكتبية Libreros ، والمخللاتية Vinagrerros ، والعقادين Cordoneros ، وأسواق المقاطف Esparteria ، والجبس والقش ، وأكثر هذه الأسماء قلة هي التي احتفظت بطابعها العربي مثل تلك اللفظة التي تطلق على تشابك مجموعة من الحارات Azonalcas (الزنيقة) ، وشارع الموناس (مصنع الصابون) ، وميدان المغرة Almagra ، وعلينا أن نلاحظ أن هناك شارعاً في مدينة فاس يحمل الاسم العجيب Siete Revuel- tas (السبع لويات) وهناك اسم مماثل له في شارع قرطبي هو los siete Rincones "السبعة أركان" ، الأمر الذي يدفعنا إلى التفكير إلى أن اسم الشارع القرطبي هو نسخة طبق الأصل للمسمى العربي القديم (٩٧) .

ويذكر أن ابن بشكوال أسماء ستة شوارع في الجانب الشرقي هي : شالابور الذي يعتبر امتداداً للبوابة الجديدة ، وفرن بيريل ، وشارع البرج ، ومنية عبد الله ، ومنية المغيرة ، والزاهرة ، وندين لهذا المؤلف بالفضل في ذكر أسماء تلك الشوارع في فقرة موجزة نقلها عنه المقرئ (٩٨) ، وهي شوارع كانت في الأرياص التي تمتد على شكل عقد مستدير يحيط بالمدينة ، وتجدر الإشارة إلى أن الشوارع الثلاثة الأخيرة تحمل أسماء دور لعلية القوم والأمراء بنيت وسط الحدائق ، ثم أحاطت بها منازل أخرى رويداً رويداً ، ويمكن تحديد موقع المدينة الزاهرة مكان كنيسة فوينسانتا Fuen- santa وكذلك الحديقة التي تحمل نفس الاسم (٩٩) ، ويمكن تحديد منيتي عبد الله والمغيرة - من الناحية الافتراضية - في حديقتين كبيرتين بعض الشيء هما سان بابلو S. Pablo وسان أجوستين S. Agustin اللتين يشير إليهما المخطط المذكور للمدينة الذي يرجع إلى عام ١٨١١م ، أما حي البرج فقد كان يمتد - طبقاً لما أكدته ابن سهل (١٠٠) -

على طول الطريق الروماني "السكة الرومية" التي كانت تبدأ ببوابة عبد الجبار وتؤدي إلى مقبرة تسمى "مقبرة البرج"، وفي القرن العاشر بدا أنه كان هناك سور مواز في لسور المدينة يحيط بالجانب الشرقي من الناحية الشرقية وبالتالي فإنه يجب أن نحدد في حائط ذلك السور وجود ثلاث بوابات يشير إليها المؤرخون (١٠١) العرب عند مغادرة قرطبة وهي : باب عباس ، وباب الفرج ، وباب الحديد .

ونحن واثقون تمام الثقة أن ابن بشكوال أخطأ عندما ذكر الحى السابع للمدينة العتيقة وهو "الجانب الشرقي"، وقد قام ابن الخطيب (١٠٢)، بتصحيح ذلك الخطأ عندما أكد أن عدد الأرياض القرطبية التي تبلغ ٢١ ريضاً فإنه أشار إلى أن المدينة القديمة أو القصبه هي اثنين من الأحياء : حيث كان الأول يضم المسجد الجامع والمنطقة المحيطة به ، أما الآخر فهو باقى المدينة الواقع داخل السور ، وأضاف أن كل واحد من هذين الحيين كان له عريف (قائد) وكذا مواقع للحراسة (المحارس) .

الأحياء الشمالية والغربية :

يشير كل من ابن بشكوال وابن الخطيب إلى ثلاثة أحياء تقع خارج بوابة ليون أو بوابة اليهود شمال المدينة وهي : الحى الذى كان يحمل اسم البوابة "حى اليهود"، وحى قوته راشو أو مسجد أم سلامة (ريض مسجد أم سلامة) وحى الرصافة ، وهذا الحى الأخير ، الذى يعتبر أبعد الأحياء عن مركز المدينة ، قد تكون حول المقر الأميرى الذى كان يُفضله عبد الرحمن الداخل (١٠٣)، ويعيداً عن هذه الأحياء كان هناك "فحص السرادق" ، المكان الذى تتمركز فيه القوات القيام عند بإحدى الصوائف (١٠٤) ، وللوصول إلى قوته راشو (١٠٥) ، كان لابد من عبور منطقة المقابر الخاصة بمدينة قرطبة وهو طريق كان يؤدي - على ما يبدو - إلى المقابر اليهودية ، ولم يكن حى قوته راشو أكثر من ملحق عمرانى ذى أهمية متوسطة إذ كان يعيش فيه صناع الفخار والقرميد ، ومع هذا كان يسكن فيه جعفر بن حمدون بن الأندلس عندما كان فى قرطبة وهو عبارة عن قصر قدمه المنصور بعد ذلك للزيرى بن عطية .

أما "الجانب الغربى" فهو يعتبر الامتداد الجانبى الأكثر اتساعاً وكثافة سكانية ، إذ كان فى الطريق الموصل إلى مدينة الزهراء (١٠٦) ، ويتفق كل من ابن بشكوال

وابن الخطيب على أنه كان توجد به سبعة أرباض هي : الرقاقين Pergamineros وهو
حي كان يمتد - كما نعرف - من بوابة أشبيلية حتى كنيسة سان أنيسكلو S. Acisclo
وحى مسجد الشفاء ، ومسجد المسرور ، وبلاط مغيث ، والحمام الألبيري ، والسجن
القديم ، وأخيراً حى الروضة الذى من المفترض أن يكون مجاوراً للمقابر الروانية
الواقعة فى داخل القصر ، كما يدل على ذلك اسم الحى .

ومن غير المجدى - فى نظرنا - القيام بتحديد أماكن تلك الأحياء المرتبطة
ببعضها البعض فقد اختلفت بالكامل وأقيمت مكانها عدة حدائق ، غير أن أسماءها
تبرهن لنا على أن امتداد الرقعة العمرانية لقرطبة نحو الغرب قد بدأ خلال القرن
التاسع تحت إمارة الحكم الأول وعبد الرحمن الثانى^(١٠٧) ، أى على الجانب الآخر من
القصور الأميرية بين باب اللوز وبوابة أشبيلية ، أى بالقرب من كنيسة سان أنيسكلو
(الكنسية التى تحصن فيها بعض المدافعين عن المدينة عندما استولى عليها العتيق
مغيث) ومن القصر (البلاط) الذى وهبه موسى بن نصير إلى ذلك العتيق كمقابل
لخدماته^(١٠٨) ، ومن غير المجدى أيضاً القول بأن اثنين من هذه الأحياء الواقعة فى
الجانب الغربى كانا يحملان أسماء المسجدين اللذين أسسا خلال القرن التاسع ، وكان
المؤسسان شخصان معروفان هما أم ولد - أى الشفا - إحدى محظيات عبد الرحمن
الثانى ، والفتى السلافى مسرور وهو أحد كبار القادة للأمير المذكور ، كما أن قائمة
المصليات فى أرباض الجانب الغربى التى يذكرها كتاب السير تؤكد نفس الملاحظات
السابقة ، فخلال عصر الحكم الأول قامت اثنتان من نساء الحكم الأول ببناء مسجدين
فى هذا الجانب الغربى يحملان اسميهما : مسجد عجب ومسجد متعة ، ويقع هذا
المسجد الأخير بجوار مقبرة تأسست من مال تلك المرأة ، كما تأسست مساجد أخرى
خلال عصر الإمارة التالية ، فبالإضافة إلى مسجد الشفاء هناك مساجد المحظيات
طروب ومُعمرة ، وخلف القصر هناك مسجد : أبو عثمان الذى استخدم لأداء صلاة
الجمعة عند القيام بتوسعة مسجد قرطبة أثناء تولى عبد الرحمن الثانى (٨٨٣م -
٢١٨هـ) (١٠٩) .

الجسر وما حوله :

عندما نهبط من الجزء العلوى فى المدينة ونسير فى الشارع الكبير "المحجة
العظمى" الذى يبدأ من بوابة عبد الجبار ويمر بين قصر الخليفة والمسجد الجامع نصل

إلى البوابة الوحيدة التى تفتح فى جنوب السور ونجد الجسر الذى يمتد فوق نهر الوادى الكبير (١١٠) .

وينسب بناء هذا الجسر الشهير إلى الإمبراطور الرومانى أو جوستو ، يبلغ طول الجسر ٢٢٣ متراً وهو جسر ضيق ويقوم على ستة عشر عقداً ، وقد تهدم جزء منه - على الأقل - خلال العصر القوطى ثم أصبح بعد ذلك هدفاً للعديد من أعمال الترميم سواء خلال العصر الإسلامى أو بعد الاسترداد ، ونذكر من بين تلك الأعمال ما تم خلال أعوام ١٦٠٢م ، ١٧٠٣م ، ١٧٨٠م وفى نهاية القرن التاسع عشر وأخيراً فى عام ١٩١٢م ، وقد ترك لنا الجغرافى ، الإدريسى (١١١) وصفاً تفصيلياً لذلك الجسر ، فخلال القرن الثامن قام الوالى السمع الخولانى بتنفيذ أوامر الخليفة عمر بن عبد العزيز بترميم الجسر وذلك باستغلال كتل حجرية ترجع إلى العصر الرومانى ، حيث سقط ذلك الجسر من الجانب الغربى وأعيد بناؤه باستخدام الحجر ، ولم يكن هذا الترميم الذى بدأ عام ٧٢٠م (١٠١هـ) إلا بشكل مؤقت : ففى عام ٧٧٩ (١٦٢هـ) تهدم جزء من الجسر بسبب فيضان تعرض له وبعد ذلك بعشرة أعوام تولى الأمير هشام الأول أمر إصلاحه ، وفى بداية القرن العاشر ٩٠١م (٢٨هـ) تعرض الجسر لفيضان آخر أسفر عن تهدم إحدى دعائمه وقد أشار المؤرخون إلى أعطاب أخرى حلت بالجسر خلال عام ٩٤٢م (٣٢١هـ) - ٩٤٥ (٣٢٤هـ) ، وعلى أية حال فقد تم إصلاح أوضاع الجسر فى عهد الناصر ، كما قام الحكم الثانى بعملية إصلاح خلال فترة حكمه (١١٢) .

ويوجد عند مدخل الجسر من كل جانب - فى المدخل المجاور للمدينة - رصيف تأسس على الضفة اليمنى لنهر الوادى الكبير ومن المحتمل أنه يرجع إلى أصول قوية أو رومانية وعلى أية حال نجده قائماً فى عهد الحكم الأول وخاصة أمام قصر الخلافة ، وقد تولى عبد الرحمن الثانى عام ٨٢٧م (٢١٢هـ) (١١٣) إعادة بنائه بالكامل مستخدماً الكتل الحجرية ، وقد كان الرصيف يغطى بالحركة الدائبة فى الجزء الآخر القائم فى اتجاه مسار المياه ، حيث ندخل منه إلى المسرة وإلى المصلى الرئيسى - فى الهواء الطلق - فى العاصمة وقد أمر عبد الرحمن الثالث عام ٩١٩م (٣٠٦هـ) أو العام التالى له ، أن يبنى فى هذا المصلى قبلة (١١٤) ، وفى المسافة الفاصلة بين المسرة

والمصلى - أى على الرصيف نفسه - كانت تعرض على الملا أجساد الذين حكم عليهم بالإعدام ، وقد ربطت فى كتل خشبية ، كما يمكن الوصول عبر الرصيف إلى الطواحين القائمة على سدة النهر (١١٥) ، وقد كان على سدة شاطئ النهر أيضاً ناعورة ضخمة ، حمل أحد القصور المجاورة خارج القصر اسمها ، وهو هيئة الناعورة ، أما المنية التى تولى الأمير عبد الله بناءها وسط جنة فيحاء - قبل سنوات من توليه الحكم - فقد استخدمت بعد ذلك لتكون مقر الإقامة المفضل لدى عبد الرحمن الثالث قبل أن يؤسس مدينة الزهراء (١١٦) .

ومما لا شك فيه أن منطقة امتداد الرصيف والمسار كانا خلال عام ٩٨٨-٩٨٩م (٣٧٩-٣٧٨هـ) المكان الذى أمر المنصور بن أبى عامر أن يقام فيه جسر ثان يمتد على نهر الوادى الكبير (١١٧) ، ولا تتوافر لدينا أية شواهد غير رواية مؤرخ واحد يحدثنا فيها عن تكلفة الجسر التى تصل إلى مائة وأربعين ألف دينار غير أنه لم يزودنا بأية معلومات تمكننا من تحديد موقعه ، وربما كان موقعه خلف الجسر الرومانى أى فى اتجاه مسار التيار ، وفى منطقة تظهر فيها اليوم أطلال دعامات وذلك عندما يهبط منسوب النهر ، وعلى أية حال فهذا الجسر لم يكن قائماً فى منتصف القرن الحادية عشر (١١٨) .

وعند عبور النهر خروجاً من بوابة الجسر وكذلك مروراً بالجسر نفسه نصل إلى الشاطئ الأيسر للنهر وعلى أحد أطراف المنحنى الضخم الذى يعتبر نهراً أمام الجانب الشرقى Ajarquia نجد الریض الذى لا زال يحمل اسمه القديم وهو ریض شقنדה Secunda (١١٩) ، كما كان اسمه أيضاً الریض ، وقد قام الحكم الأول بهدم ذلك الریض وتسويته بالأرض بعد التمرد الذى قام به السكان فى عام ٨١٨م (٢٠٢م) ، وأصدر أوامره بمنع إقامة أية مباني ، ولم يفكر أى ممن خلفوا الأمير المروانى حتى نهاية القرن العاشر مخالفة تلك الأوامر الصادرة رغم النمو العمرانى الكبير الذى عاشته قرطبة ، وقد فرض هشام الثانى أوامره على قائد القصر الملكى عبد الملك المظفر بأن يتخلى عن فكرة إقامة حى سكنى فى تلك الناحية رغم أن المدينة كانت تغص بعدد كبير من السكان (١٢٠) ، وفوق أطلال الریض القديم تم إقامة قرافة أطلق عليها "مقابر الریض" ، وأخذت تمتد حتى التحمت بتلك الكائنة عند منعطف النهر (١٢١) ، وفى هذه

المنطقة كان هناك مصلى آخر وكذلك منية تعود إلى عصر الإمارة وهي منية نصر التي أقامها الفتى نصر أحد أقرباء عبد الرحمن الثانى وأحد ثقاته ، وبعد الوفاة المأساوية لذلك الفتى تحولت هذه المنية لتكون مقراً لإقامة المغنى البغدادي الشهير زرياب (١٢٢) ثم ضمها الأمير عبد الله بعد ذلك إلى أملاكه وأمر بترميمها (١٢٣) ، وقد قلنا قبل ذلك إن الامبراطور البيزنطى قسطنطين السابع (١٢٤) بروفيرجينتا Profirogenta قد أرسل إلى قرطبة عام ٩٤٩م (٢٢٨هـ) سفارة أقامت فى هذه المنية بعض الوقت .

كان هناك بعيداً عن الربض قصر شهير آخر هو منية عجب ، ويقع ذلك القصر فى اتجاه مسار المياه على الشاطئ الأيسر للنهر ، وقد خُلد اسم عجب ، محظية الحكم الأول ، والتي يطلق اسمها أيضاً على المسجد الذى أمرت ببنائه على حسابها فى "الجانب الغربى" ، وكان هذا القصر محاطاً (١٢٥) بحديقة ضخمة هى عبارة عن وقف يتم استخدام وديعة فى تمويل مصحة لمعالجة مرضى البرص ، الذين تجمعوا فى حى منعزل وقريب ، وهذه هى المؤسسة الخيرية الوحيدة التى نعرفها فى قرطبة خلال عصر الخلافة (١٢٦) ، كما أننا لا نكاد نعثر فى كتب التاريخ أو السير على أى ذكر لمستشفيات أو مصحات للأمراض العقلية أو أية مؤسسة أخرى ذات خدمة جماهيرية اللهم إلا سبيلاً أمر عبد الرحمن الثالث بأن يكون أمام البوابة الشرقية للقصر وأمام المسجد الجامع وكان يأتيه الماء من مجرى العيون الذى يزود القصر حيث تصب فى حوض من الرخام (١٢٧) .

علينا الانتهاء - إذن - من سرد هذه القائمة الطويلة من أسماء الأماكن (١٢٨) الخاصة برقعة العمران القرطبية وهى أسماء ليس لها اليوم - فى أغلب الحالات - ما يدل عليها ، كان من الممكن أن نضيف الكثير إلى ما سبق وخاصة فيما يتعلق بالمساجد غير الشهيرة (١٢٩) ، والتي يرد ذكرها فى السير أو فى الأحكام القضائية ، وكذلك بعض الأسماء الأخرى التى تحدد أسماء الشوارع أو الميادين (١٣٠) وهنا نجد أنه يكاد يكون مستحيلًا تحديد أماكنها اليوم على أرض الواقع (١٣١) ، ولقد مرت عاصمة الخلافة الأندلسية القديمة بقرون كثيرة وعاشت الكثير من الأحداث ويدخل فى باب المعجزات أن نتمكن بعد مرور ألف عام من العثور على جوهرة أثرية ثمينة ، لم تكد تتأثر بمرور الزمن ، لتكون أمامنا بمثابة شاهد على الإزدهار التى عاشته تلك

المدينة ، والتي وصفتها الشاعرة السكسونية Hroswitha - من ديرها البعيد الكائن فى ألمانيا - قائلة بأن قرطبة هى زينة الدنيا (١٣٢) : هذه الجوهرة هى المسجد الجامع الذى يعتبر أبهى وأعظم مسجد يدين به العالم للفن الإسلامى .

المسجد الجامع فى قرطبة :

عندما تحدثنا عن تاريخ الأندلس من البداية وحتى بداية القرن الحادى عشر ، تعرضنا بالإشارة إلى المسجد الجامع فى قرطبة الذى كان يعتبر على نفس الدرجة - وربما أكثر - التى عليها قصر الأمراء والخلفاء الأندلسيين ، والذى كان المحور الأساسى لسلطان الأندلس السياسى والروحى ، وحرصاً على راحة القارئ يبدو لنا من المناسب إعادة جمع كافة تلك المعلومات عن المسجد وسردها حسب التدرج الزمنى فى عجلة تساعدنا على متابعة مراحل بناء ذلك الأثر والتوسعات التى تمت ، وإذا ما أراد القارئ المزيد من التفاصيل فما عليه إلا الرجوع إلى الكثير من الأعمال والدراسات التى خصصت كل صفحاتها - خلال السنوات الأخيرة - لهذا المسجد وقد قام على ذلك متخصصون فى كل من أسبانيا وفرنسا على وجه الخصوص (١٣٣) .

هل من الضرورى أن نشير إلى أن المسجد القرطبى الجامع يضم داخله اليوم كاتدرائية المدينة المستردة ؟ فبعد أيام من دخول فرناندو الثالث إلى قرطبة دخول المظفرين فى ١٢٣٦/٦/٢٩ م وبعد مرور خمسة قرون تحول المكان لأداء الشعائر الدينية الكاثوليكية وتم تقديسه تحت اسم "انتقال العذراء" Asunción de la Virgen وأطلق عليه سانتاماريا لامايور S.M.la Mayor ، وعلينا أن ننتظر مرور ثلاثمائة عام تقريباً حتى نشهد إدخال تعديلات هامة على عمارة المسجد ، وخلال هذه الفترة تم إنشاء مصليات صغيرة بأسلوب مُدَجَّن وخاصة فى عام ١٢٥٨ ، وقد أمر بذلك الأسقف فرناندو دى ميسا F. de Mesa ، وفى عام ١٣٧١م قام إنريكي الثانى دى تراسمارا بنفس الخطوات كما أمر بتزيين البوابة الخارجية للواجهة الشمالية - باب الفرج Puer-ta del Perdon بنفس الأسلوب ، وبعد ذلك - أى فى عام ١٤٨٩م - تم إعادة بناء المصلى الكبير باستخدام العقود المدببة الأمر الذى تسبب فى إثارة احتجاج الملكة إيزابيل الكاثوليكية ، وقد أدت هذه الإنشاءات إلى إحداث تغييرات طفيفة فى داخل المسجد ، وبناء على مبادرة من الأسقف/ ألونسو مانريكي A. Manrique (فى عام

١٥٢٢م) قرر مجمع الكاتدرائي أن يقيم داخل المسجد كنيسة كاملة تتجاوز في بهائها وجمالها العمل المعماري العظيم الذي خلفه المسلمون ، وقد وافق على ذلك الإمبراطور كارلوس الخامس ، ورغم أنه عندما قام بزيارة المسجد بعد ذلك بثلاث سنوات عبر لرجال الدين القرطبيين عن استيائه في جملة طبقت شهرتها الأفاق "لم أكن أعرف ماهية ذلك الأثر ولو كنت أعلم لما سمحت لكم بالاقتراب منه فقد فعلتم ما لا يمكن فعله وحطمت شيئاً كان الفريد من نوعه في هذا العالم (١٢٤) .

تبلغ مساحة المسجد القرطبي اليوم ١٨٠م طولاً × ١٣٠ عرضاً ، وتحتل الصالة المسقوفة ثلثي هذه المساحة أما الصحن فيحتل الثلث الأخير ويطلق عليه صحن أشجار البرتقال P.Naranjos وقد كان خلال القرن التاسع مشجراً ، وقد كان ذلك مثار خلاف فقهي حول شرعية ذلك (١٢٥) ، ويحيط بتلك المساحة سور به شرفات ودعامات موضوعة على مسافات متساوية وكذلك بوابات ضخمة تم وضع أسوار حول معظمها ابتداء من القرن الثالث عشر لتكون بمثابة مصليات صغيرة جانبية ، وقد بنى المسجد على حافة الطريق الروماني الذي كان يبدأ عند الجسر ، كما أنه في مواجهة القصر وبالتالي كان من المستحيل إدخال توسعة عليه من الناحية الغربية .

وينقل لنا الرازي شيئاً عن تاريخ بناء المسجد القديم (في البداية) ، وقد نقل هذه المعلومات المؤرخون اللاحقون عليه (١٢٦) ، وإذا ما كان لنا أن نأخذ برواية ذلك المؤرخ فإن الفاتحين قد ساروا في أسبانيا على نفس النهج الذي رسمه الخليفة عمر ابن الخطاب فيما يتعلق بالمنشآت الدينية : أي تقسيم الكنيسة بين المسلمين والمسيحيين هذا إذا ما استسلمت المدن دون مقاومة ، وقد تم في قرطبة السير على نفس المنوال الذي حدث في سوريا بشأن كنيسة سان خوان في دمشق S.Juan ، فقد تمت مطالبة القرطبيين بنصف كنيسة سان بيثني S. Vicente الواقعة بالقرب من الجسر الروماني ليكون مسجداً ، أما النصف الآخر فقد ترك لهم لإقامة الشعائر الدينية المسيحية ، وقد أصبحت صالة أداء الشعائر كافية - ولو لبعض الوقت - بالنسبة للغزاة ، غير أنه عندما تحولت قرطبة لتكون عاصمة الأندلس زاد تعداد سكانها المسلمين وبالتالي كان حجم المسجد صغيراً ولم يكن هناك مناص إلا إقامة مظلات خشبية على أحد الجوانب تبلغ نصف ارتفاع الجدران .

وعندما قرر عبد الرحمن الأول الإقامة فى هذه المدينة وجعلها عاصمة إمارته الجديدة لم يتأخر قراره فى الاستيلاء على النصف الآخر من كنيسة سان بيننتى وإقامة مسجد جامع فى هذا المكان ، وحتى لا يكون هناك خلل باتفاقية الاستسلام عقد اتفاقاً - اكتتفته بعض الصعاب - مع المستعربين وقدم لهم سعراً جيداً للنصف الآخر من الكنيسة ، ولم يتخل المسيحيون عن موقفهم حتى حصلوا على إذن بأن يبنوا خارج قرطبة دوراً للعبادة محل تلك التى هدمت .

بدأت أعمال الهدم فى ٧٨٥م (١٦٩هـ) وانتهت خلال عام واحد ، ولم يكن المسجد الذى بناه ذلك الوافد إلا عبارة عن تسع بلاطات كما كان متواضع المساحة ، وقد أنفق الأمير ثمانين ألفاً أو مائة ألف مثقال على البناء ، وقد تم الحصول على هذا المبلغ من خمس الغنائم المتحصلة بعد حملة ضد إقليم أربونة ، وبعد عبد الرحمن الأول قام ابنه هشام الأول بإجراء بعض الإصلاحات الداخلية على المسجد الجديد : وهى عبارة عن إنشاء أقسام خاصة بالنساء وكذلك بناء حوض للوضوء ، كما قام بإنشاء منڈنة ، وخلال عهد الحكم الأول لم تكد تجرى أية تعديلات جوهرية على المسجد ، غير أنه ابتداء من عصر عبد الرحمن الثانى أصبح المسجد محطاً للكثير من أعمال التوسعة ، وقد تم ذلك فى فترتين أولاهما : جرت خلال عام ٨٣٣م (٢١٨هـ) ، أما الثانية ، فقد تمت بعد ذلك بخمسة عشر عاماً أى فى عام ٨٤٨ (٢٢٤هـ) .

وعندما تحدثنا عن حكم ذلك الأمير ^(١٣٧) ، أشرنا إلى الكيفية التى تمكنا اليوم من تحديد هاتين التوسعتين (٨٣٣ ، ٨٤٨) وذلك من خلال الأخبار التى جمعها ابن حيان ، فقد تمت التوسعة الأولى بالعرض أما الثانية فبالطول ، وقد تم العمل فى التوسعة الأولى والتى تتمثل فى إضافة بلاطتين ، واحدة فى الشرق وأخرى فى الغرب ، الأمر الذى تطلب هدم الحوائط الجانبية التى تم بناؤها قبل ذلك بخمسين عاماً ثم إعادة بنائها على بعد أمتار سواء فى الصحن أم فى مكان إقامة الشعائر ، وتشير كافة الروايات التى جمعها ابن حيان إلى أن هذه التوسعة كانت بالعرض ورغم ذلك فإن المهندسين والمؤرخين الأسبان المتخصصين فى تاريخ الفن يصرون على رفض هذه الرواية ^(١٣٨) ، وعلى أية حال فإن هذه التوسعة لم تكن إلا حلاً مؤقتاً أمام الزيادة المتعاظمة للمصلين ، وقد أدرك ذلك جيداً عبد الرحمن الثانى ، والدليل على هذا هو أنه

أمر خلال عام ٤٨٤م بإحداث توسعة جديدة للمسجد - بالطول - أى باتجاه الجنوب وتم بناء محراب جديد وتوسعة المسجد بإضافة مساحة تبلغ خمسين ذراعاً إلى الإحدى عشر بلاطة، (ثمانية أخرى) ، وقد بدأت الأعمال تحت إشراف "المعلمين الكبيرين" نصر ومسرور ، أما القاضى محمد بن زياد فقد تولى أمر رقابة الأعمال ، وقد تم افتتاح المحراب الجديد فى ٢٢/١٠/٨٤٨م (٢٠ من ربيع الأول ٢٣٤هـ) وبعد أن تم الإنتهاء من الأعمال الجوهرية للتوسعة عاد الناس يؤنون الشعائر بعد ذلك بشهرين ، ومع هذا فقد ظلت الأعمال التكميلية قائمة حتى وفاة الأمير وبعد تولى ابنه محمد الأول ، إذ سارت الأعمال فى إنشاء ملحقين مخصصين للنساء وبناء منصة محمولة على ثلاثة وعشرين عاموداً (١٣٩) .

وابتداء من عصر محمد الأول أبدى الأمراء الأمويون استعدادهم للحفاظ على ازدهار المسجد الجامع والعاصمة القرطبية وذلك من خلال بعض الأعمال التى ينفقون عليها من أموالهم ، وقد قام خليفة عبد الرحمن الثانى بإصدار الأوامر بتزيين الحوائط الجانبية لصالة إقامة الشعائر وبنى فيها مقصورة من الخشب المشغول حيث كان يدخل إليها لأداء الصلاة (١٤٠) ، وبعد ذلك قام المنذر - الذى دام حكمه وقتاً قصيراً - ببناء مبنى حصين فى أحد ملحقات المسجد لتكون بمثابة مقر لبيت المال أو مخزن المؤسسات الخيرية ، كما قام بترميم حوض الوضوء وكذا الممرات الداخلية ، وأخيراً نجد الأمير عبد الله يقوم باستئناف الأنشطة التى مارسها أجداده السوريون بأن ربط بين القصر والمسجد بباب يمر من فوق شارع الجسر حتى لا يختلط بجموع المصلين (١٤١) .

لقد استمرت خلافة كل من عبد الرحمن الثالث وابنه الحكم الثانى فترة طويلة من الزمن وأثناء ذلك عاش المسجد القرطبى صفحة جديدة من تاريخه حيث تم تزيينه بما نجده عليه اليوم من نقوش تعتبر مثار إعجاب كافة الزائرين ، وقد كان من المعتقد حتى اليوم أن الخليفة الأندلسى الأول كان مشغولاً فقط بتأسيس المدينة الجديدة -الزهراء- التى بنى فيها مسجداً رائعاً ، وبالتالى لم يدخل إلا القليل من الأعمال على المسجد الجامع فى قرطبة طوال خمسين عاماً وهى فترة خلافته ، ورغم أن المؤرخين يشيرون إلى أنه انفق على هذا المسجد مبلغاً ضخماً من المال - حوالى ربع تكلفة المقر الخلفى الجديد - فلا يمكن أن ننسب إلى عصر الناصر إلا بناء مثذنة جديدة لتحل محل المثذنة

القديمة التى أنشأها هشام الأول - وقد كان ارتفاع هذه المئذنة ، التى كانت بمثابة النموذج لماذن أخرى هى مئذنة أشبيلية ومراكش والرباط ، حوالى ٧٥ ذراعاً وكانت مربعة الشكل إذ يبلغ طول كل ضلع فيها ثمانية عشر ذراعاً كما كان لها سلمان داخليان حيث يمكن الصعود من خلالهما حتى الشرفة التى توضع فوقها الرقبة (١٤٢) كما توجد كتابان على أحد جوانب الباب المؤدى إلى صحن المسجد الجامع وهى كتابة تشير إلى أن عبد الرحمن الثالث أمر ، فى عام ٩٥٨م (٣٤٦هـ) ، وزيره عبد الله ابن بدر بترميم وتقوية الواجهة الشمالية لصالة إقامة الشعائر ، وأخيراً نجد أن ابن خلدون هو الوحيد الذى ينسب لذلك العاهل إنشاء مظلة يتم نشرها خلال الصيف لحماية المصلين من أشعة الشمس .

ونعثر فى رواية ابن عذارى (١٤٣) على معلومة جديدة ودقيقة للغاية ، هذه المعلومة تجعلنا نعتقد أن الخليفة قرر فى نهاية حياته - أسوة بسابقيه عبد الرحمن الثانى - إحداث توسعة جديدة على المسجد مجاورة لتلك التى سوف يأمر بالقيام بها ابنه الحكم الثانى ، فهل يمكن لنا أن نصدق ذلك الخبر ؟ وفصل القول فى هذا المقام يتعلق بالمتخصصين فى تاريخ الفن الإسلامى فهم المنوطون - بناء على الدراسات الأثرية للمسجد - بقبوله واستخلاص النتائج المترتبة فى ذلك أو رفضه دون الانسياق وراء مبدأ عدم الثقة الذى ساروا عليه بشأن المعلومات التاريخية المتعلقة بالتوسعة التى أمر بها عبد الرحمن الثانى ، وعلى أى حال فمن الممكن الظن بأن التوسعة الكبرى التى جرت فى عهد الحكم الثانى كانت على وشك البدء أى فى نفس العام الذى تولى فيه الخلافة ، وبالتالي لم يكن ذلك إلا تنفيذاً لخطّة توسعة للمسجد تصورها هو ووافق عليها والده حيث أن عدد المصلين كان فى زيادة مستمرة ، ولم تكن التوسعة لتجرى إلا فى اتجاه القبلة حتى يكون هناك مزيد من الفراغ للمصلين .

وقد بدأت الأعمال فى عام ٩٦١م (٣٥٠هـ) وذلك بعد اجتماع عقده العاهل الأموى فى نفس المكان مع الفقهاء المهندسين ، واتخذوا القرار بتعميق المسجد بحوالى ٩٥ ذراعاً (حوالى ٥٠ متراً) وتم جلب كتل الحجارة اللازمة ووضعها فى مكان إجراء الأعمال ، وعهد الخليفة إلى قائدة الكبير السلافى الحاجب جعفر بن عبد الرحمن إدارة أعمال التوسعة ، وتحت حراسة ثلاثة من كبار رجال الشرطة وهم : محمد بن تملّيح ،

وأحمد بن نصر بن خالد ، وخالد بن هاشم ، وكذلك أمين الشرطة مطر بن عبد الرحمن ولا زالت أسماء هؤلاء الأربعة مدونة بحروف مذهبة على تكسية الفسيفساء القائمة فوق المحراب الجديد .

وقد كانت التكسية باستخدام الفسيفساء واللوحات الرخامية المنحوتة والمزخرفة بالحفر من التجديدات الرئيسية التي تم إدخالها على العناصر الزخرفية المتعلقة بالتوسعة التي جرت في عهد الحكم الثاني ، كما كان ضمن تلك التوسعة وجود مجموعة من القباب على البلاطة الرئيسية والبلاطتين المجاورتين في التريبعة المجاورة للمحراب الجديد ، كما أن المحراب قد تم تزيينه بأعمدة من الرخام المجزع المجلوب من المحراب الذي بنى خلال عهد عبد الرحمن الثاني ، أما الحوائط فقد تم تكسيته بالرخام الملون والسقف عبارة عن طاقية منقوشة بالحفر عبارة عن قطعة واحدة ، أما بالنسبة لتقنية الفسيفساء الملون فقد تعلمها الفنيون الأندلسيون على يد فنى بيزانطى جاء من القسطنطينية وعاش أثناء خلافة الناصر ، كما أن السفارة التي ذهبت لهذا الغرض قد جلبت معها حوالي ٣٢٠ قنطاراً من المكعبات الزجاجية الملونة وقد تم استخدامها لأول مرة في أسبانيا الإسلامية .

وبالإضافة إلى التوسعة التي أشرنا إليها فقد أمر الحكم الثاني بإجراء بعض الترميمات الأخرى في المسجد وهى ترميمات أشار إليها المؤرخون ، أو النصوص المكتوبة في المسجد وقد تم إحداث فتحتين بين ملحقات مكان إقامة الشعائر والمقصورة الواقعة بالقرب من المحراب ، وتم وضع مبنى جديد صنع من الخشب المشغول والمطعم بالعاج ، وبلغت تكلفته ما لا يقل عن ٣٥٠٠٠ دينار ، كما تم مد مجرى العيون القادم من الجبل ، لتزويد القصر بالمياه ، إلى المسجد حيث بنيت فى صحنه أربعة صالات للوضوء وذلك لتجل محل الحوض الوحيد الذى كان يتم تزويده بالمياه من بئر أنشئ هناك منذ مائة وخمسين عاماً .

وقد جرت كافة تلك الأعمال طوال عهد الحكم الثاني ، غير أن الأعمال الكبرى تم الانتهاء منها فى عام ٩٦٦م (٣٥٥هـ) ، وفى هذا التاريخ تم فتح المسجد مرة أخرى للصلاة بعد توسعته صوب الجنوب وتفادياً للانتقادات التي قد يوجهها له رجال كان عليه أن يقدم الدليل على أن الأموال التي أنفقها كانت شرعية المصدر وأنها جزء من الخمس القانونى ، وبلغت التكلفة طبقاً للمؤرخين ١٦١٠٠٠ دينار (١٤٤) .

وبعد ذلك بعشرين عاماً أى من عام ٩٨٨م (٣٧٧هـ) جاء الدور على المنصور بن أبى عامر للقيام بتوسعة أخرى فى الجامع الذى أصبح لا يسع جموع المصلين والسبب فى هذا تجنيد العديد من البربر الذين اتسموا بغيرتهم على الإسلام ، غير أن ذلك لم يكن هو السبب الوحيد الذى حدا "برئيس البلاط" القيام بتلك التوسعة ، بل نظر إليه على أنه عمل تطوعى جديد يهدف إلى تقوية شهرته كسياسى وقائد مظفر وكذلك لإسكات ألسنة السوء التى كانت تتحدث عن ضعف تدينه ، ويشير مؤرخو سيرته أنه بدأ الأعمال بنفسه واستخدم العبيد المسيحيين الذين أسره فى حملاته كيد عمالة ، لقد كانت التوسعة بمثابة دعاية عظيمة للنظام المتشدد الذى استطاع أن يفرض نفسه على المواطنين ، ومن الأمور ذات الدلالة أيضاً هو أنه منع أية نصوص تذكارية ، تشير إلى اسمه والمناصب التى تولاها ، فى التوسعة الجديدة وسرى هذا المنع أيضاً على الخليفة الأسسمى هشام الثانى .

كانت التوسعة التى أمر بها الدكتاتور العامرى نحو الشرق ، فلم يكن ممكناً إحداث توسعة أخرى باتجاه النهر ، وإذا ما كان قد حدث ذلك فإن تعديلات كثيرة لابد أن تجرى على الإصلاحات التى أضافها الحكم الثانى ، ثم مصادرة الأراضى اللازمة والواقعة فى الجهة الشرقية للمسجد ، وبذلك زادت المساحة - سواء فى مكان إقامة الشعائر أو فى الصحن حوالى الثلث ، تم إضافة ثمانية بلاطات جديدة على وجه السرعة أما الزخرفة فكانت تتسم بالإقلال والبساطة ، ولقد وصف الكثير من المؤلفين العرب فى الغرب ، وخاصة البكرى والإدريسى ، هذه الأعمال بصفات فيها الكثير من الحماس الذى يبدو غير مبالغ فيه هذه المرة .

وقد ترك لنا الجغرافى الأخير وصفاً قيماً للمسجد يتسم بالدقة فى جميع تفاصيله ومن المؤكد أنه نقله من وثيقة عربية تعود إلى القرن العاشر أو بداية القرن الحادى عشر ، وهنا نحيل القارئ إلى ذلك الوصف الأمين للأثر من خلال الترجمة التى أعدها كاتب هذه السطور فى عام ١٩٣٨م وأخذ فى الاعتبار الإضافات الجديدة والهامة من خلال المخطوطات التى جمعها ابن عبد المنعم الحميرى (١٤٥) .

وقد هيأت البيانات الجديدة التى سوقها ابن حيان بشأن التوسعة المزدوجة التى تمت فى عهد عبد الرحمن الثانى ، وكذلك البيانات الإحصائية للبكرى والوصف الفنى للأثر وزخارفه على يد الإدريسى إمكانية إعادة تصور مخطط المسجد بشكل يكون قريباً من الواقع ، وهذه البيانات هى جد نافعة حتى لو كان المسجد قد تعرض لأعمال التخريب وعوامل التعرية ومرور الزمن ، وما يحزننا هو أنه لا تتوافر لدينا بيانات تفصيلية ودقيقة عن التنظيم الداخلى للقصور الخلافية وطبوغرافيا الأرباض القرطبية ، ووضع المسجد فى هذه الحالة يتناقض تماماً مع الإقلال فى الإنتاج الأدبى العربى فى الغرب .

هوامش الفصل السادس

(١) المراجع : فيما يتعلق بهذه المسألة لا تتوفر لدينا حتى الآن إلا دراسات موجزة ، يجب أن نضيف إليها الكثير من تحليل التفاصيل التي نُشرت في معظمها على يد تورس بالباس في مؤلفه الرائع "التاريخ الأثري لأسبانيا الإسلامية" *Cronica arqueologica de la Espana Musulmana* حيث نشر في الأعداد نصف السنوية لمجلة الأندلس ، وسوف نشير إليه باستمرار ، أضف إلى ما سبق Notes de *onomastique hispano maghribine* مؤلف هذه السطور (نشر في *Islam d'Occident* I pags. 43-78) ، وما تحدث به مارسى في *La conception des villes dans Islam, en la Revue d'Alger* (t.II, 1945, pags. 517-532), y E. Pauty, *Villes spontanees et villes crees en Islam, en Ann. Inst. Et, Or, d' Alger IX. 1951, pags. 52-75. Vense tambien ibid., VI, 1942-1947 , pags. 5-30 El estudio de L.Torres Balbas. Les rilles musulmanes d'Espana et leur urbanisation, apareido antes en espanol con el titulo Las ciudades hispano-musulmans y su urbanizacion, en Revista de Estudios de la Vida Local, Madrid, I, 1942, pags. 50-80: ef.AI-Andalus, IX, 1944, pags. 235-236 .*

(٢) انظر/ليفى بروفنسال في "شبه جزيرة أبييريا" المعجم ص ٢٥٨ - ٢٥٩ ، "مذكرات عبد الله" في مجلة الأندلس العدد السادس ١٩٤١ ص ٢٦٩ وحاشية رقم ٢٦ في ص ٢٨٧

(٣) شبه جزيرة أبييريا ص ٢١ (الرابع a) الحواشي المذكورة .

(٤) انظر - سابقاً - الجزء الرابع ص ٢٩ - حاشية رقم ٨٦ (من النص الأصلي) .

(٥) يمكننا فيما يتعلق بإقليم تونس أن نعتز حتى الآن على الكثير من أسماء الأعلام التي تكونت بهذه الطريقة وخاصة في المنطقة الساحلية (مثل منزل تميم ومنزل جميل .. إلخ) غير أنه لا يجب أن نستخلص من هذا أن تلك كانت قرى يسكنها مهاجرون أندلسيون .

(٦) انظر - سابقاً - ص ٢٤-٣٥ (من النص الأصلي) .

(٧) فيما يتعلق بأنماط التجمعات السكانية الريفية في أسبانيا المسيحية خلال العصر الوسيط المتأخر يتم الرجوع إلى L.G. de vadeavellano "تاريخ أسبانيا الجزء الأول ص ٤٧٧-٤٨٨

(٨) نشير بصفة خاصة إلى ابن الخطيب - ذلك الفرناطى - من خلال كتابه "الإحاطة" عند الحديث عن أصول الشخصية التي يكتب سيرتها إنه كان أحد سكان تلك القرية في ذلك الإقليم من هذه الدائرة ، وفيما يتعلق بالمفهوم الخاص بلقطة إقليم في إسبانيا الإسلامية والتي عالجها جيداً الجغرافى المشرقى ياقوت ، انظر سابقاً ص ٢٩ وحاشية رقم ٩٩ (النص الأصلي) .

(٩) انظر J. Ma Lacabra "التطور العمرانى لمدينتى نابارة وأرغن خلال العصور الوسطى" تنشر في مجلة Pirineos عدداً ١٥-١٦ سرقسطة ١٩٥٠م (ملخص تم تقديمه للمؤتمر الدولى التاسع للعلوم التاريخية)

(١٠) يلاحظ في النص الأسباني وجود لفظي "Calle mayor" (الشارع الكبير) فقد احتفظنا بنفس التركيبة الكائنة في اللغة العربية .

(١١) انظر تورس بالباس Adarres de las ciudades hispano-musulmanas في مجلة الأندلس العدد XII لعام ١٩٤٧ ص ١٦٣-١٩٣

(١٢) وبهذه الطريقة الخاصة تتم الإشارة إليها في الأحكام القضائية التي نجدتها في "الأحكام الكبرى" لابن سهل ، سواء محل إقامة المدعى أو المدعى عليه .

(١٣) انظر - سابقاً - الجزء الرابع ص ٢٧٩-٢٨٠ فيما يتعلق بحصار أوردينو الثاني لمدينة إيبورا Euora في عام ٩١٣م (٢٠١) (النص الأصلي) .

(١٤) cf ابن عبدون : أشبيلية في بداية القرن الثاني عشر ص ٨٥-٨٨ ، و Saqali السقطي "Mannuel hisp. De hisba" معجم ص ١٨

(١٥) انظر تورس بالباس : "محيط المدن الأسبانية الإسلامية" الأندلس ، العدد الخامس عشر ١٩٥٠م ص ٤٢٧-٤٨٦

(١٦) فيما يتعلق بالشرعية في الغرب الإسلامي أنظر ليفي بروفنسال : الإسلام في الغرب الجزء الأول ص ٦٦-٦٥ ، تورس بالباس "المصلى والشرعية في المدن الأسبانية الإسلامية" مجلة الأندلس العدد الثالث عشر ، ١٩٤٨ ، ص ١٨٠-١٦٧

(١٧) انظر سابقاً - ص ٧٨ - حاشية رقم ٧٤ (النص الأصلي) .

(١٨) هناك شارع شهير في غرناطة أطلق عليه "حور المؤمل" (وهو اسم أحد العتقاء الزيريين الذي انتقل ليكون تحت إمره المرابطين ، اعتباراً من القرن الثاني عشر) ، وما تغني به الشعراء والأدباء (أنظر : مذكرات عبد الله - مجلة الأندلس - العدد الثالث لعام ١٩٣٥ ص ٢٥٧-٢٥٨ وحاشية رقم ٥٥ - انظر تورس بالباس : الأندلس العدد الخامس عشر ١٩٥٠ - ص ٤٧٦

(١٩) الأمر الذي كان مثار انتقادات من جانب ابن عبدون "أشبيلية في بداية القرن الثاني عشر" ص ٥٢-٥٥

(٢٠) انظر - لاحقاً - ص ٢٤٧ حاشية رقم ١٢٨ ، بالنسبة للحائر الجزالي في قرطبة .

(٢١) كان ذلك حال مدينة مثل قرطبة الواقعة بالقرب من منية عجب ، انظر سابقاً - الجزء الرابع ص ١٢١ ولاحقاً ص ٢٤٧ - حاشية رقم ١٢٦ ، ٢٨١ (النص الأصلي) .

(٢٢) انظر تورس بالباس "ملاحظات عن أشبيلية خلال العصر الإسلامي - مجلة الأندلس ، العدد العاشر لعام ١٩٤٥م ص ١٧٧ - ١٩٦ - انظر J. de M Carriazo "أسوار أشبيلية في Archivo Hispalense عدد ٤٨-٤٩-أشبيلية ١٩٥١م .

(٢٣) فيما يتعلق بالحاشية عن "الروض المعطار" (ليفى بروفنسال : شبه جزيرة إيبيريا ص ٢٧-٢٧) .

(٢٤) انظر - سابقاً - الجزء الرابع صـ ١٥٠ (النص الأصلي) .

(٢٥) انظر - سابقاً - الجزء الرابع صـ ١٦٧ (النص الأصلي) .

(٢٦) انظر - سابقاً - الجزء الرابع صـ ٢٦٨ (النص الأصلي) .

(٢٧) شبه جزيرة إيبيريا ، صـ ٢٠-٢١

(٢٨) نفس المصدر صـ ١٩٠-١٩١

(٢٩) نفس المصدر صـ ١٩٥

(٣٠) نفس المصدر ١٧٣ - ١٧٨ : المقتبس لابن حيان الجزء الأول ورقة رقم 256v حيث يقص علينا ،

طبقاً لأحمد الرازي ، أنه قبل عصر المرابطين بزمان طويل حاول الأمير محمد هدم معبد قنادش للاستيلاء على الكنوز المفترض أنها كانت مخبأة هناك ، فعندما كان في رحلة صيد وقنص وصل إلى جوار المعبد فأمر بأن تجمع كمية كبيرة من الأعشاب حول الحائط وأشعل النار فيها ، غير أنه أضاع وقته كما قضت النيران على مخيمة .

(٣١) انظر - سابقاً - الجزء الرابع صـ ٢٤٤ وحاشية رقم ١٥٢ (النصف الأصلي) .

(٣٢) شبه جزيرة أيبيريا صـ ٩١-٩٤

(٣٣) نفس المصدر ٢٠٣

(٣٤) نفس المصدر ١٤٠-١٤١

(٣٥) نفس المصدر ١٢٩-١٣٠

(٣٦) نفس المصدر ٤٥

(٣٧) نفس المصدر ٢٢

(٣٨) ما عدا ما يتعلق بالبوابة الرئيسية التي كانت تفتح على الغرب وكان بها عقود متراكبة وأعمدة

وقواعد من الرخام ، أما باقي البوابات فكانت : باب البحر ، والتي كان يدخل إليها نهر التاج في الثغور العليا ، وباب الخمة الواقع في حي يطلق عليه اليوم حي القاما Alfama ، وباب المقبرة ، وأخيراً باب الخوخة ، ومن السهل حتى يومنا هذا متابعة ورصد مسار السور الإسلامي لمدينة لشبونة وهو سور يستحق دراسة مسهية .

Lef E. LAMBERT . Les anciens quartiers musulmans dans le plan de la ville de Lisbonne, en comptes rendus du Congrès mtern, de Geographe, Lisbonne, 1949 , tomo III, Lisboa, 1951, paginas 397-399 El recinto musulman de Coimbra, cuya principal abertua se llama todavia hoy puerta de Almedina, ha sido objeto de una monografia de A. FERNANDES MARTINS, A porta do Sol. Contribucao pauo o estudo dacerca medieval de Coimbra, en Biblos, vol. XXVII, Combra, 1952.

(٢٩) فيما يتعلق بهذه المحاولة التي قام بها البحارة الأندلسيون لا تتوافر لدينا حتى اليوم إلا رواية قصصية في المقام الأول نقلها لنا الإدريسي (وصف أفريقيا وأسبانيا - النص ص١٨٤-١٨٥ ، والترجمة ص٢٢٣-٢٢٥) ونقلها كذلك مؤلفون آخرون في فترات لاحقة (Cf شبه جزيرة أيبيريا ص٢٣ وحاشية رقم ٢) غير أن هذه الرواية يجب أن تكون مرتبة بمعلومة أشار إليها البكري (نفس المصدر ص٣٦ وحاشية رقم ٣١ ، وطبقاً لهذه الرواية فإن البحارة كان يرأسهم خشخش ، وقد أشرنا إلى تلك الشخصية سابقاً في الجزء الرابع ص٢٢٧ حاشية رقم ١١١ (النص الأصلي) ومن المعروف أنه ابن سعد بن أسود دى بيتشينا Pechina ، كما يظهر أيضاً في الجزء المكتشف أخيراً لابن حيان "المقتبس" والذي يتناول إمارة محمد الول (الجزء الأول ورقة ٢٦٣ ر) وكان اسمه مقروناً بشخصية أخرى اسمها مركشيش ابن شاكرو (٩) - وهم اسم حرفه من قام بالتدوين ، كانت معه على رأس المجموعة الأموية التي أخذت على عاتقها في عام ٨٥٧م (٢٤٥هـ) الإبحار بمحاذاة الشاطئ الأندلسي المطل على المحيط الأطلنطي لمجابهة هجمة جديدة يقوم بها القراصنة النورمانديون (Cf - سابقاً - الجزء الرابع ص٢٠٢-٢٠٣ (النص الأصلي) .

(٤٠) انظر سابقاً ص٢٧ حاشية ١١١ (النص الأصلي) ؟

(٤١) انظر سابقاً الجزء الرابع ص٢٦٤ حاشية رقم ١١

(٤٢) ليفي بروفنسال - شبه جزيرة أيبيريا ص٢١٣-٢١٥

(٤٣) نفس المصدر ص٢٢١-٢٢٣- وخلال القرن الرابع عشر سوف نعرف المزيد من التفاصيل عن طبوغرافيا مدينة المرية من خلال كاتب من أبنائها وهو ابن خاتمة ، وكذا من خلال ابن فضل الله العمري (المؤلف الشرقي) .

(٤٤) انظر - سابقاً - الجزء الرابع ص٢٢٨ (النص الأصلي) .

(٤٥) تم عمل الكروكي الخاص بالمرية الإسلامية والذي ننشره في هذه الصفحات بالاستعانة بمخطط تم إبلاغه لمؤلف هذا الكتاب وتفضل به السيد تورس بالباس .

(٤٦) ليفي بروفنسال - شبه جزيرة أيبيريا ص٢٧-٢٨ وهو آخر ملوك غرناطة من الزيريين ويسمى عبد الله بن بلوغين الذي تحدث في مذكراته عن الظروف التي أحاطت بانحطاط البيرة وانتقال أهلها إلى غرناطة ، وحول التعايش بين المدينتين خلال القرن العاشر انظر - سابقاً - ص٢٩ حاشية ١٢٠

(٤٧) ضمت دائرة (كورة) أرشدونة Archidona في البداية ريه Reygo (مالقة) وفي بداية القرن العاشر نجد أنه بالإضافة إلى العاصمة (انظر شبه جزيرة أيبيريا ص١٧) كان بها بلدًا Belda والتي بدت لنا اليوم بلدة أنتقيرة Antequera (انظر سابقاً الجزء الرابع ص٢٧١ - (النص الأصلي) حاشية ٢٢ * لكن يتضح من خلال بحث آخر حديث أن هذا الربط مستبعد فالمكان القديم لبلدا هو اليوم Cuevas de san Marcos وقد تحدث بذلك Simmonet في تاريخ المستعربين ص١٨٥-١٩٥- انظر تورس بالباس "أنتقيرة" الإسلامية - مجلة الأندلس العدد السابع عشر ١٩٥١ ص٤٣٢ - ٤٣٣ حاشية رقم ١

(٤٨) ليفي بروفنسال - شبه جزيرة أيبيريا ص٨٨-٨٩

(٤٩) نفس المصدر ص٢١٨-٢٢٠ ، انظر أيضاً M. Gaspar Remiro تاريخ مرسية الإسلامية

سرقسطة ١٩١٥

(٥٠) انظر - سابقاً - الجزء الرابع ص١٣٢ - حاشية رقم ٧ (النص الأصلي) .

(٥١) فيما يتعلق بتلك البوابة البلنسية cf. Chr. Seybold, Abbariana II في مجلة مركز الدراسة

التاريخية غرناطة العدد الرابع ١٩١٤م ص٣٥ حاشية رقم ٧ كما قد لنا رامون منديث يبدال في كتابه
أسبانيا السيد ص٤٢٩ مخطط مدينة بلنسية في نهاية القرن الحادى عشر وقد استخدمنا في إعداد
الكروكي .

(٥٢) ليفى بروفنسال : شبه جزيرة أيبيريا ، ص٩٧

(٥٣) نفس المصدر ص٢١٣-٢١٠

(٥٤) انظر - سابقاً - الجزء الرابع ص١٤٠ (النص الأصلي) .

(٥٥) يقدم لنا الجزء الحديث الاكتشاف من المجلد من المقتبس لابن حيان العديد من التفاصيل الهامة

حول حياة هذا القائد . كما تولت Maria Asuncion B كتابة مقال هام بعنوان هاشم بن عبد العزيز - مجلة
Cuad. Hist. Esp العدد السادس عشر ، ١٩٥١م ص١١-١٢٩

(٥٦) انظر سابقاً الجزء الرابع ص١٩٤-١٩٥ (النص الأصلي) .

(٥٧) ليفى بروفنسال - شبه جزيرة أيبيريا ص٨٥

(٥٨) نفس المصدر ص١٥٧-١٦٢

(٥٩) انظر - على سبيل المثال : مانويل جومث مورينو - الفن العربى الأسباني حتى الموحدين ،

ص١٩٧-١٩٨ ، وطبقاً لذلك المؤلف توجد كتابة تذكارية لعملية الترميم الخاصة بالجسر ترجع لعام ١٢٥٩
وتذكرنا بأنه قد انتهى العمل في هذا الترميم عام ٩٩٧م على يد خلف بن محمد العامرى قائد طليطلة بناء
على أوامر الوزير المنصور وزير هشام أمير المؤمنين "أما فيما يتعلق بتوسعة المسجد الجامع القرطبي في زمن
محمد الأول ، انظر سابقاً ص١٢٥ حاشية رقم ١١٥ (النص الأصلي) ، كما أن المسجدين القائمين في أحد
الأحياء قد بناهما أحد أتقياء المسلمين الطليطلين خلال القرن العاشر (انظر سابقاً ص٢٨ رقم ٢١ ، النص
الأصلى) فكان أحدهما في ذلك الجزء من المدينة المسمى "جبل البرد" وكذلك في حى الدباغين ، غير أنه لا يوجد
دليل يؤكد تحديد المكان (انظر مانويل جومث مورينو المصدر السابق ص١٩٧) .

(٦٠) نشر هذه الوثائق A. Gonzalez Palencia "المستعمرون الطليطلون ويمكن أن نطلع على عمل

آخر لنفس المؤلف بعنوان "طليطلة خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، في كتاب بعنوان "المسلمون
والمسيحيون في أسبانيا خلال العصور الوسطى" ص١٨٩-٢٠٨

(٦١) ليفى بروفنسال - شبه جزيرة أيبيريا ص١١٨-١٢٠

(٦٢) انظر سابقاً - الجزء الرابع ص١٨ رقم ٢٦ (النص الأصلي) .

(٦٣) "تاريخ" ص١١١ (ويرى الكاتب أن مقبرة حنش توجد خارج هذه البوابة وليست عند باب القبلة) .

(٦٤) خوسية ماريا لاكرا ، تطور ، ص١٥

(٦٥) المقتبس لابن حيان الجزء الأول - ورقة ١٧٧ ص٧ ، أسفر فيضاً قوياً في نهر إبرة عن حدوث أضرار كبيرة في ذلك العام بالمدن المحيطة وخاصة في سرقسطة حيث هدم جزء من السور ودعامات الجسر ، وقد أصدر الأمير تعليمات لواليه يحيى بن عبد الله أن يهيئ العبور بين شاطئيه النهر من خلال أربعة مراكب في الوقت الذي يجري فيه إعادة تشغيل الجسر من جديد .

(٦٦) بالنسبة لباب السدة في عقد قرطبة والـ Zudas في مدن الثغر الأعلى انظر بحثاً صدر حديثاً لتورس بالبلاس "باب السدة" والـ Zudes في شرق أسبانيا مجلة الأندلس - العدد السابع عشر ١٩٥٢ ص١٦٥-١٧٥

(٦٧) المراجع : الفصل الأخير - المخصص لقرطبة حاضرة الخلافة - في "أسبانيا الإسلامية القرن العاشر ص١٩-٢٣٦ ويغيد ذلك الفصل من الوثائق المتوفرة خلال عام ١٩٣٢ م ومنذ ذلك أدى اكتشاف أو نشر نصوص تاريخية أو بعض السير (وخاصة الجزء الذي يتضمنه المقتبس لابن حيان عن الإمارة ، وكذا الجزء الخاص بالأندلس الوارد في "أعمال العالم لابن خلدون" إلى تزويدنا ببعض المعلومات الجديدة سوف تلجأ إليها في الصفحات التالية وكذا في إعداد الكروكي المرفق - وبالنسبة للسير التي تعرفها منذ عشرين عاماً فهذه لم تات بالمزيد اللهم إلا تفاصيل قليلة حول بعض النقاط ، أما أسهامات كل من د. كاستيغون ومارتينيت دي أريشايا "قرطبة الخلافة - قرطبة العام ١٩٣٠" (أصدار خاص للجريدة Boletín احتفالاً بالالفية الأولى لعصر الخلافة وقد نشرتها أكاديمية تلك المدينة) كذا دليل قرطبة - مدريد ١٩٣٠ ولا زالت هذه الأعمال مفيدة وخاصة في إشارتها إلى التقاليد المحلية والمعرفة الجيدة التي عليها المؤلف بطبوغرافيا قرطبة وإقليمها - ولزيد من المراجع من قرطبة حتى عام ١٩١٢ انظر مقال : قرطبة الكائن في موسوعة دار نشر Espasa الجزء الخامس عشر ص٥٩-٥٩٦- هناك كثير من أعمال الوصف لمدينة قرطبة الإسلامية وقد ظهرت حديثاً ١٩٥٣ وهي لمؤلفين هم مانويل جومث مورينو "الفن العربي الأسباني . ول . تورس بالبلاس في دراسته عن المسجد الجامع والتي سنشر إليها فيها بعد .

(٦٨) سورة الأرض طبعه كرامرز الجزء الأول ص١١٢-١١٣

(٦٩) أورده المقرئ : "نفح الطبيب" الجزء الثاني ص١١٨ ، cf العنبي ، Bugya العدد ٣٢٠ - Pons Boigues, Emsayo bio-bibliografico pag63

(٧٠) نفح الطبيب المقرئ الجزء الأول ص٢٩٧-٤٦٢ وقد تم تلخيص ذلك في المقدمة التي أوردها G.Dugat ص٣٤-٤٤

(٧١) cf : أسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر ص٢٩٤ حاشية رقم ١ ، كما ورد ذلك المخطط أيضاً بمعبّد عن النص أي في الجزء الخاص بعامي ١٩٢٧-١٩٢٨ في حوايل اللجنة الإقليمية للآثار التاريخية والفنية في قرطبة - قرطبة ١٩٢٩

(٧٢) علينا أن نعود في الصفحات التالية لتناول هاتين المؤسستين - انظر سابقاً الجزء الرابع ص٢٣-٢٤٢ ، ٤٠٨-٤٠٩ (النص الأصلي) - وعلينا أن نشير إلى أن جومث موريثو يصير في عمله الرابع والشهير المتعلق بالفن الإسلامي وإسباني حتى عصر الموحدين (ص١٦-١٦٦) على أن المدينة الزاهرة توجد في غرب قرطبة وليس في شرقها ، ويؤيد هذا الرأي R.Castejon .

(٧٣) انظر "نفع الطيب" الجزء الأول ص٢٠٤

(٧٤) ابن الخطيب أعمال ص١٢١ - انظر أيضاً - سابقاً - ص١٣٩ حاشية رقم ٤٥ (النص الأصلي)

(٧٥) أما البكرى (cf شبه جزيرة أيبيريا ص١٨٧) فيشير إلى أن "نور" قرطبة في كمالها يبلغ ٣٠٠٠ ذراع أى عشرة أميال ، وكل ميل ١٤٢٠ متراً (١٤ كيلو متراً - ٢٠٠) وخلال القرن التالي يحدد لنا الإدريسي من قرطبة (وصف أفريقيا والأندلس - النص ص٢٠٨ والترجمة ص٢٥٥ ، شبه جزيرة أيبيريا ص١٨٢) على أنها رقعة سكانية مكونة من خمس مدن متجاورة وتمتد من الشرق إلى الغرب على مسافة ثلاثة أميال أما اتساعها من الشمال إلى الجنوب (من بوابة الجسر إلى بوابة اليهود) فيبلغ ميلاً أى أن محيطها يبلغ ثمانية أميال تقريباً .

(٧٦) نفع الطيب الجزء الأول ص٢٥٦-٢٥٧ cf إسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر ص٢٠٧ حاشية

رقم ١

(٧٧) أو ٤١٩ : cf شبه جزيرة أيبيريا ص١٨٩ وحاشية رقم ٢

(٧٨) البيان - الجزء الثاني ، النص ص٢٤٧ (٢٢٢) : الترجمة ص٢٨٢

(٧٩) فيما يتعلق بصعوبات تحديد عدد سكان مدينة إسلامية خلال العصور الوسطى . cf. MEZ, Ren.

Isl, Vila ص٤٩١-٤٩٢- هناك دراسة صدرت مؤخرًا لـ R. Carande والذي سبقت الإشارة إليه في ص٩٣- حاشية رقم ١ (من النص الأصلي) "انظر L.G.de Valdeia Vellano cf تاريخ إسبانيا الجزء الأول ص٦٢٤ حاشية رقم ١) حيث يرى أن تعداد سكان قرطبة خلال القرن العاشر بلغ حوالي نصف مليون نسمة ، ومن جانبه نجد تورس بالباس في مؤلفه "مسجد قرطبة" ص٤ يرى أن تعداد السكان يصل إلى مائة ألف نسمة وهو رقم يقل بكثير عما يمكن أن يكون عليه سكان العاصمة الأندلسية خلال عصر الخلافة ، كما لا يمكننا تحديد ذلك العدد بالدقة المطلوبة .

(٨٠) الأعمال ص ١٢١ - ١٢٢ سابقاً ص ١٧٥ - ١٧٦ .

(٨١) ينبغي أن نشير بالاتفاق مع تورس بالباس في مؤلفه "مسجد قرطبة" ص٢ أن مستوى الأرض

في قرطبة قديماً كان بالنسبة لوضعها الحالي ما لا يقل عن أربعة أو خمسة مترات وهذا ما يؤكد اكتشاف الكثير من بقايا الفسيفساء والمنحوتات عندما تقوم البلدية بإجراء بعض أعمال الحفر .

(٨٢) انظر - سابقاً الجزء الرابع ص ٨٨ (النص الأصلي) .

(٨٣) يؤكد المؤرخ الرقيق (ابن عذارى - البيان - الجزء الثالث ص ١٠٥) على وجود خندق يسير موازياً لشاطئ نهر الوادي الكبير ، ويحدد المؤرخ عام ١٠١٠ (٤٠١هـ) الذي يعتبر العام الذي وقع فيه فيضان كبير أسفر عن تحطيم ألفى منزل في الحى القرطبي (هل هو الحى الشرقى؟) ومقتل ٥٠٠ نسمة وتهدم جزء كبير من السور الذي ملا الخندق .

(٨٤) سورة الأرض - طبعة كرامرز .

(٨٥) وقد أدى تحديدها ، بعد محاولة أولى وردت في "أسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر" (المخطط الوارد في ص ٢٠) إلى ورود حاشية بغرض التصحيح (هناك تبرير بالنسبة لإحدى البوابات وغير دقيقة بالنسبة لبوابة أخرى) على يد مانويل أوكانيا جومث في "بوابات مدينة قرطبة" - مجلة الأندلس العدد الثالث ١٩٣٥ - ص ١٤١-١٥١ ، وفيما يتعلق بأسماء بوابات قرطبة وكذا ببوابات المدن الغربية أنظر ليفي بروفنسال "ملاحظات حول أسماء الأعلام الجغرافية الأسبانية المغربية" وردت "الإسلام في الغرب" الجزء الأول ص ٤٣-٧٨

(٨٦) انظر - لاحقاً - الجزء الرابع ص ٢٢ (النص الأصلي) "الإسلام في الغرب" ص ٦٩ حاشية رقم ٢١

(٨٧) انظر - سابقاً - الجزء الرابع ص ١٠٨ وحاشية رقم ٨٦ (النص الأصلي) ، الإسلام في الغرب - الجزء الأول ص ٦٩ حاشية رقم ١٧

(٨٨) أنظر ابن الأبار ، التكملة ، العدد ٨٧٠ ، ص ٢٧٩ (أسفل) طبعة كويدرا ، انظر م. أوكانيا فيمينتث . المصدر السابق ص ١٤٧

(٨٩) انظر المقرئ في "فتح الطيب" الجزء الأول ص ٩٨

(٩٠) انظر سابقاً - الجزء الرابع ص ٣٣ (صحح التاريخ) (النص الأصلي) .

(٩١) انظر سابقاً - الجزء الرابع ص ٢٤٤ (النص الأصلي) .

(٩٢) تم ذكر باب العطارين أحد أبواب قرطبة من خلال ابن حزم في طوق الحمامة طبعة Petrof ص ٢١ - ترجمة Bercher ص ٥٧-٥٩ - وترجمة جارثيا جومث ص ١٠٠ ، حيث كانت هذه البوابة ملتقى النساء ، وقد وقع مؤلف هذا الكتاب في خطأ عندما اعتبر البوابة إحدى الفتحات في الواجهة الشرقية للمسجد الجامع في قرطبة (apud "طوق الحمامة" En relisant) مجلة الأندلس ، العدد الخامس عشر ١٩٥٠ ص ٢٥٨ - حاشية رقم ١

(٩٣) في عام ٩١٣-٩١٤ م (٣٠١هـ) : Cf ١٣ ص ١١٤ وحاشية رقم ٥٠ وسابقاً الجزء الرابع ص ٣٤٤ (النص الأصلي) .

(٩٤) كانت هكذا طبقاً للكتابة القديمة Axerquia .

(٩٥) أى أنه يمكن أن نطلق عليه اليوم مسمى arenal : cf سيمونيت : "معجم الأصوات الأيبيرية واللاتينية" ص ٥٧٣ - ليفي بروفنسال : الإسلام في الغرب ، الجزء الأول ص ٧٣ - حاشية رقم ٨٤ - وبالنسبة لما

تحدث به ابن القوطية ، بشأن ذلك الاسم ، انظر افتتاح ص ٢٩ هو شوبولار بينما ينقل المقر عن ابن يشكوال (نفع الطيب الجزء الأول ص ٤٠) أن الاسم هو شابلار ، وربما كان النقل الصحيح هو شابولار نظراً لقربها من اللاتينية ، في عصرها المتأخر ، Sabularia ، وهناك أدلة أخرى على اسم ذلك الحى نعث عليها أثناء عهد الحكم الأول حيث توجد في الجزء الأول للمقتبس لابن حيان passim انظر أيضاً : أسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر ص ٢٠٧ حاشية رقم ٣ (١٥) .

(٩٦) وقد نقلنا ذلك في الشكل المرفق ١٠٢ : ١ - شارع Cuerno - ٢ شارع los leones - ٣ شارع الأركان السبع Siete Rincones - ٤ شارع الجص Yeso - ٥ شارع الزنيقة Azonaicas - ٦ شارع الجزارات Carnicerias - ٧ شارع الأحذية Zapateria - ٨ شارع الملك المنصور - ٩ شارع المكتبات - ١٠ شارع المقاطف - ١١ بوابة اليهود - ١٢ شارع الحمام السفلى Bano Bajo - ١٣ شارع اللحامين Carnicerios - ١٤ - شارع فريا La Feria - ١٥ ميدان Canas - ١٦ ميدان المغرة Almagra - ١٧ شارع المونة Almonas - ١٨ ميدان القش Paja - ١٩ شارع الحجارين Sillería - ٢٠ شارع المخللاتية Vinagrerios - ٢١ شارع لاس باداناس Badanas - ٢٢ Rastro (سوق المستعمل) - ٢٣ النحاسين - ٢٤ سوق الأسماك - ٢٥ شارع الخياطين Alfayatas - ٢٦ ميدان Alhandigas - ٢٧ شارع العقارين Cordoneros ٢٨ - القيصرية - تتوافق البوابة الجديدة مع الفتحة المشار إليها في شرق رقم ٢٢ ، وبالنسبة لبوابة الجسر فرقم ٢٩ ، انظر أيضاً Castrjon في قرطبة الخلافة ص ٢٤٤

(٩٧) هناك أيضاً شارع يسمى شارع السبع لويات Revueltas في أشبيلية (بالقرب من كنيسة سلبادور ، التي كانت المسجد الجامع أثناء عصر الخلافة) وفي كارمونة (بالقرب من بوابة أشبيلية) انظر أيضاً تورس بالياس المدن الإسلامية في أسبانيا وعمرنها ص ١٦ (فيما يتعلق بمالقة) .

(٩٨) نفع الطيب - الجزء الأول ص ٢٠ ، أسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر ص ٢٠٧ حاشية

رقم ٢

(٩٩) انظر مقال "قرطبة" في موسوعة دار النشر Espasa ص ٦٦٥ "وفي غرب وعلى بعد كيلو متر من السور يوجد مصلى La Virgen de Fuensanta الذي بنى في عام ٤٤٢م على أنقاض مقر إقامة الحاجب المنصور" انظر أيضاً - سابقاً - الجزء الرابع ص ٤٠٨-٤٠٩ (النص الأصلي) - ليفي بروفنسال "حول كتاب طوق الحمامة" مجلة الأندلس ، العدد الخامس عشر ١٩٥٠ ص ٣٤٦-٣٤٧ وحاشية رقم ١ ، وص ٢٥٨ حاشية رقم ١

(١٠٠) الأحكام الكبرى ورقة ٢١٢ ص ٧٥ الرباط .

(١٠١) فعلى سبيل المثال نذكر : ابن الأبار - التكملة طبعة Miscelanea - العدد ٢٠٢٩ ص ٦١١ . البيان لابن عذارى الجزء الثالث ص ٧٣ و ٨١ . وإذا ما قبلنا براءة هذا الأخير - الجزء الثالث ص ٦٤ ، فقد كان هناك باب يسمى باب الشكل في الحائط الشرقي للجانب الشرقي Ajarquia وذلك لحراسة الطريق المؤدى إلى المدينة الزاهرة ، وربما أطلق نفس الاسم أيضاً (بوابة الشخصيات P. de las Figuras) على إحدى بوابات قصر الخليفة (نفس المصدر الجزء الثالث ص ٨٩) .

(١٠٢) الأعمال ص ١٢٠

(١٠٣) انظر سابقاً - الجزء الرابع ص ٨٩ وحاشية رقم ٥١ - فالجزء المكتشف حديثاً من المقتبس لابن حيان الجزء الأول أوراق أرقام ٢٤٤^٧ - ٢٤٥^٨ يزودنا بأخبار غير مسبقة عن الترميمات التي أجريت لمنية الرصافة وقد قام بذلك الأمير محمد الأول ، ونعثر في هذا السياق على إشارة أحمد الرازي ، والتي تقول بأن الرصافة الأولى تم بناؤها في فترة سابقة على وصول عبد الرحمن الأول وقام بهذا العمل أحد القادة البربر في زمن الفتوحات واسمه رزين البرنصمي ، وقد ظل اسمه يطلق على بعض أسماء الأعلام القرطبية : فهناك مسجد في الحى الغربى كان يطلق عليه نفس الاسم مسجد رزين - وتعرضت فيه الرصافة لحريق ودمرها البربر في شهر نوفمبر لعام ١٠١٠ (ربيع الأول ٤٠١هـ) عند مصادر قرطبة (ابن عذارى البيان الجزء الثالث ص ١٠٢)

(١٠٤) انظر سابقاً - ص ٥٠ فطبقاً لابن حيان - المقتبس - الجزء الأول - ورقة ١٦٩ فإن فحص الرادق كان يسيطر على قرطبة ويمر من خلال الطريق المؤدى إلى وادى الحجارة .

(١٠٥) فيما يتعلق بهذا الحى (الذى يرجع اسمه إلى الأصول الرومانشية ، وهو اسم غير محدد المفهوم ، وربما يتعلق بـ Cateclara الواقعة خارج أسوار قرطبة ، انظر C.F. Seybold في Hispano-Arabica الجزء الأول ، نشر في مجلة مركز الدراسات التاريخية لغرناطة العدد الثالث ص ٢٧ ، انظر أيضاً سابقاً - الجزء الرابع ص ٤٢٢ (النص الأصلي) . وهناك اسم رومانشى آخر يطلق على حى لم يتم تحديد مكانه في قرطبة وهو Barba lata (٩) ، ويورد هذا الاسم ابن بشكوال ، الصلة ، ص ٤٧٨ n° 1054 .

(١٠٦) من المرغوب فيه القيام بإجراء حفائر منهجية في الحدائق التي تحتل اليوم مكان تلك الأحياء المسماة "بالجانب الغربى" فكل الدلائل تشير إلى أننا سنخرج بنتائج مفيدة للغاية .

(١٠٧) انظر Castejon - قرطبة الخلافة - ص ٤٠

(١٠٨) نفس المصدر ص ٤٤-٤٦ ، ٧٧-٧٩ وأسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر ص ٢٩١ والحاشيتين رقمي ٢ ، ٣

(١٠٩) المقتبس لابن حيان الجزء الأول ورقة ١٧٨^٧ - فيما يتعلق بمؤسسى المساجد الكائنة في الجانب الغربى انظر سابقاً الجزء الرابع ص ١٦٧ - ١٦٨ (النص) .

(١١٠) بالنسبة لجسر قرطبة انظر "إسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر ص ٢٠٢ حاشية رقم ٣ ، كما أشار عيسى (ابن حيان) الرازي إلى الترميم الذى تم فى عهد الحكم الثانى - المقتبس - الجزء الثالث 30 من الترجمة لجارثيا جومث ، انظر - سابقاً - الجزء الرابع ص ٣٦٩ وحاشية رقم ٢ (النص الأصلي) .

(١١١) وصف إفريقيا الأندلس - النص - ص ٢١٢ الترجمة ص ٢٦٢-٢٦٣ . انظر أيضاً المقرئ ونفع الطيب ص ٢١٤-٢٦٧

(١١٢) إذا ما قبلنا بما ورد عن ابن حيان من خلال ابن شكوال فى "الصلة" ، رقم ٧٠٣ ص ٣٢ فإن أحد الفقهاء القرطبيين ويدعى أبو المطرف ابن جورج توفي فى قرطبة فى ذلك العام المذكور وتم دفنه فى

الربض في الشاطئ الأيسر لنهر الوادي الكبير ، وبعد أداء الصلاة على الميت عند باب المسجد الجامع تم وضع جثمانه في مركب لعبور النهر لأن الجسر لم يكن صالحا للمرور آنذاك .

(١١٣) المقتبس لابن حيان - الجزء الأول ، ورقة ١٤٠' ٧ ، حيث ورد ذكر الموظف الذي تولى الإشراف على العمل وهو أحمد العتيبي ، وبعد هذه السطور بقليل (ورقة ١٤٠' ٣٠) يشير نفس المؤرخ أن الرصيف كان يمتد من الزاوية الشرقية للمدينة حتى غرب القصر ثم يمتد حتى "السوق العظمى" ، ويعتبر هذا السوق - بغض النظر عن ذلك الآخر الكائن شرق المسجد الكبير - بمثابة تفسير للاسم وهو باب العطارين (انظر - سابقا - ص ٢٢٨) (النص) حاشية رقم ٩٢ في هذا الفصل) ، وقد ذكر نفس الاسم عيسى الرازي حتى في عهد الحكم الثاني .

(١١٤) Cronica de al- Nasir ، ss28 ص ١٢٦ ، إسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر ص ٢٢٣ ،

حاشية رقم ٢

(١١٥) كانت تشكل مجموعتين يطلق على الأولى منهما أرجاء (وأحيا أرجا) ناصح (الصواني ، في الإدريسي) أو أرجاء كليب ، انظر Castejon قرطبة الخلافة ص ٥٠ ، ٥٢ ، إسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر ص ٢٢ حاشية رقم ٢ ، و Peres "الشعر الأندلسي" ص ١٢٢ حاشية رقم ٢ - ابن عذاري - البيان ، الجزء الثالث ، ص ٤٢٠ وهنا يشير إلى أنه كان يوجد في قرطبة أو ما جاورها قصر ناصح وربما كان نفس المسمى أرجاء ناجح .

(١١٦) انظر سابقاً الجزء الرابع ص ٢٢٤ (النص الأصلي) .

(١١٧) انظر إسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر ص ٢٠٢ حاشية رقم ٢ in fine .

(١١٨) انظر سابقاً - ص ٢٤٤ (النص) حاشية رقم ١١٢ (من هذا الفصل) .

(١١٩) ربما يجب أن نربط بين هذا الاسم "والثاني" "Segundo" ، علامة حجرية للطريق الروماني الذي كان يمتد من قرطبة ويعبر كامبينا Campina ، وفي هذه المنطقة كانت هناك أسماء أخرى يبدو أنها كانت شائعة خلال العصر الإسلامي ، مثل Cuarto ، Tercios Quintos ، (الثالث ، الرابع ، الخامس) انظر Castejón قرطبة الخلافة ص ٢٧ ، وحاشية رقم ٢

(١٢٠) فيما يتعلق بهذه النقطة لدينا شاهد هام من ابن حيان في ذلك الجزء من المقتبس الذي يقص فيه ما حدث خلال عهد الحكم الأول (الجزء الأول ورقة ١١٢) ففي بداية القرن الحادي عشر ، وأثناء "سبوع" عبد الملك بن أبي عامر قام عدد من الناس بالحصول على عدة حدائق واقعة مكان "الربض" القديم والقرية من بلدة Secunda وأخذوا يبنون فيها منازل لهم ، ولكن عندما صعد هشام الثاني إلى إحدى الشرفات العالية في القصر ليمتع ناظره بالمنظر الجميل لاحظ وجود تغيير في هذه الناحية فاخططت مشاعره بين القبول والالتزام بتلك الأوامر الموروثة عن الحكم الأول ، وتم حسم الأمر بإرسال رسالة تائب "لرئيسي بلاط القصر" وأمره أن يقوم فوراً بهدم تلك المباني ، ولم يكن أمام عبد الملك إلا الانصياع لأوامر العاهل .

(١٢١) فيما يتعلق بالمقابر القرطبية المختلفة أنظر "إسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر" ص ٢٠٩ حاشية ، ومن بين أبرز تلك القرافات قبور في قرافة الربض "مقبرة أم سلامة ، ويشير ابن الأبار في التكملة ، رقم ١٦٢٠ أنها كانت توجد خارج باب الهدى (أى باب اليهود) ، ثم مقبرة متعة (انظر سابقاً الجزء الرابع ص ١٢١ - النص الأصلي) ومقبرة معمرة (نفس المصدر ص ١٧١ - النص) كما أن المروانيين أو أهل قریش كانت لهم مقابر قاصرة عليهم تجاور مقابر الربض ، وهناك مقبرة يطلق عليها مقبرة عامر - خارج باب عامر (انظر سابقاً ص ٢٣٧ حاشية رقم ٩١ من هذا الفصل) وقد ذكرها ابن الأبار في الحلة ص ٥٢ ، وكذلك المؤلف نفسه (التكملة طبعة Miscelanea - رقم ٢٠٢٩ ص ٥٦١ حيث يشير إلى مقبرة أخرى يطلق عليها مقبرة السقاية تقع بالقرب من منازل بني حابل ، خارج بوابة عباس وخارج السور الشرقى للجانب الشرقى Ajarqui .

(١٢٢) خبر غير مسبوق ورد في الجزء المكتشف حديثاً من المقتبس لابن حيان الجزء الأول ورقة ١٩٢^و .

(١٢٣) انظر سابقاً الجزء الرابع ص ٣٣ (النص) ، شبه جزيرة أيبيريا ، ص ٢٢٦

(١٢٤) انظر سابقاً الجزء الرابع ص ٣٥١ (النص) .

(١٢٥) هناك منية أخرى منية كنتيش ، فقد تم تشجيرها بأشجار الفاكهة وتزيينها بسرايا خصصت للأمير محمد الأول ، وهذا ما أورده ابن حيان في الجزء الذى تم اكتشافه حديثاً من المقتبس الجزء الأول ورقة رقم ٢٤٦^و ، كما أن موقع هذه المنية الكائنة غرب قرطبة وعلى ضفاف نهر الوادى الكبير ليس له علاقة باسم كنتيش - رغم التشابه في الأسماء - وهى معركة وقعت عام ١٠٠٩ م (٤٠٠ هـ) بين القرطبيين والبربر التابعين لسليمان المستعين (انظر سابقاً - الجزء الرابع ص ٤٦٦ حاشية رقم ١٥ - النص) وكان مكان المعركة في شمال شرق المدينة ، بالقرب من Alcolea ومن المفترض أن منية الأمير كانت في Campina في الطريق الموصل بين أشبيلية وقادش عند العلامة الحجرية "الخامسة" ابتداء من قرطبة إذن فكنتيش في هذه الحالة وكذلك في دائرة Alcolea ليست إلا نقلاً للاسم الرومانى Quintos - وتشير المخطوطة المستخدمة في الطبعة الجديدة ، تحت إشراف G.S: Colin وليفى بروفنسال ، لكتاب البيان لابن عذارى (الجزء الثانى ص ٢٩٩) إلى أسماء ثلاثة مقار إقامة انشأها المنصور بن أبى عامر لنفسه : رحبة الواديين (وربما كانت بذلك في المكان الذى يصب فيه جدول Fuensanto في نهر الوادى الكبير) وأروطانيا (ومما لا شك فيه أن المسمى الرومانى Huertanilla) وأخيراً نجد منية سرور ، وعلينا أن نضيف إلى أنه ورد في البيان - الجزء الثالث ص ٩١ هناك منية العقاب فقد كانت بمثابة مقر إقامة الرجال المسلحين الذين تركهم سانشو جرثيا في قرطبة (انظر سابقاً الجزء الرابع ص ٤٦٧ - النص) ، وفي الجزء الثالث ص ٤٢٦ هناك منية جغفر (أى جعفر السلافى) مقر إقامة هشام الثانى .

(١٢٦) كان يوجد في أغلب المدن الإسلامية حتى قاصر على مرضى البرص (ربض المرض) يقع خارج الأسوار . ولا تتوافر لدينا معلومات عن هذا الحى في قرطبة وخاصة بعد القرن العاشر ، لكنه مذكور ومحدد في الرواية اللاتينية لـ Calendario de Cordoba ص ٧١ عند الحديث عن عيد سان كريستوبل (العاشر من يوليو) :

Et festum eius (Christofori) est in orto mirabili, qui in alia parte cordube, ultra flunium ubi sunt infirmi. Notesede paso la inhabilidad del adaptador del Calendario al traducir Mundayat Achab y la palabra marda- Vease tambien CASTÉJON, Córdoba califal, pág. 39.

(١٢٧) انظر سابقاً الجزء الرابع ص ٢٢٢ (النص) وفيما يتعلق بجلب المياه ومجارى العين والنظر إلى الأمر كما هو الحال في عهد عبد الرحمن الثاني انظر Costejon في قرطبة الخلاصة ص ٦٢-٦٦

(١٢٨) نشير هنا إلى أنه بالإضافة إلى الأسماء الرومانشية المذكورة شابولار ، قونة راسوا وباريالاتا Barba lata و Rabarales أسماء ثلاثة منخفضات أخرى داخل التجمع السكاني كانت جافة في معظم أوقات العام لكنها كانت تتحول إلى برك أثناء فصل الشتاء (غدير) : هناك غدير ثعلبة ، وغدير ابن الشمس ، وغدير أبى الفايد وقد ذكرت جميعها في التكملة لابن الأبار الجزء الأول ، كما أن الثاني يتضمن ذلك من خلال ما نقله ابن حزم في طوق الحمامة ص ١١١ (انظر ليفي بروفنسال "حول طوق الحمامة" ، مجلة الأندلس ، العدد الخامس عشر ١٩٥٠م - ص ٢٥٦ حاشية رقم ٢) وبين بوابة عامر وبوابة اليهود كان يوجد حتى الزجاجة (انظر سابقاً ص ١٠٩ حاشية رقم ٤٧) خارج السور ، وهناك أيضاً الحديقة العامة المسماة حائر الزجالي (انظر سابقاً ص ٢٠٠ - النص) .

(١٢٩) يمكن أن نضيف إلى القائمة الواردة في إسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر ص ٢٠٩ حاشية رقم ٢ (حوالي ٤٥ مسجداً مذكورة) خمسة عشر اسماً آخر من المساجد الصغيرة ، وهي مساجد الأحياء وقد ذكر ذلك ابن حيان وابن سهل وكتاب السير مثل ابن الأبار وابن الزبير ، ومع هذا فالقائمة غير مكتملة بالمرة . (١٣٠) نذكر من بينها رحبة أبان ، ورحبة خولان ، ورحبة ابن درهمين ، وسويقات تسمى سوقية الكميس ، (انظر سابقاً ص ١٢١ - حاشية رقم ٩٦ وسوقية ابن نصير وسوقية ابن أبى سفيان) .

(١٣١) وعندما ندع النقوش الكتابية في المسجد الجامع فإننا لا نكاد نجد في قرطبة أية نصوص تذكارية لمؤسسات ذات تقع عام : هناك شبكة من القنوات بناها عبد الرحمن الثالث في عام ٩٤٠م (٢٢٩هـ) ، وهناك ما قام به أحد الأفراد من بناء مئذنة أحد مساجد الأحياء عام ٩٦٩م (٢٥٨هـ) ، وما قامت به والده الأمير المغيرة من بناء مئذنة وسباط في أحد مساجد الأحياء خلال عصر الحكم الثاني ، انظر ليفي بروفنسال النقوش الكتابية العربية في إسبانيا . أرقام ١٥ ، ١٨ ،

(١٣٢) انظر - سابقاً - الجزء الرابع ص ٢٦٢ حاشية رقم ٢ (النص) ودورى تاريخى مسلمى إسبانيا - الجزء الثاني ص ١٧٤ ، وفيما يتعلق Hroswitha (أو على الأصح Hrotswit) انظر Halphen "البربر" ص ٣٦٧

(١٣٣) ويمكن أن نذكر بعض الأبحاث التي نشرت بعد كل من المختصر Manuel في الفن الإسلامى ، لمارسى ص ٢١٢ - ٢٢٨ ، والفن الإسلامى - المغرب الـ H. تيراسى - الكتاب الثانى (قائمة المراجع ص ٤٧٨) هناك أبحاث لـ K.A.C. كروزويل Early Musbin Architecture, Tomo II, Oxford, 1940 pag 138-161 (فيما يتعلق بالمسجد الأول الذى أنشأه عبد الرحمن الأول) ، ويذكر مانويل جومت مورينو في "الفن العربى الإسلامى حتى عصر الموحدين وفن المستعربين" سلسلة "Arshispanise" ضمن "التاريخ العالمى للفن الإسلامى - الجزء الثالث - مدريد ١٩٥١ م ، وكذلك الدراسة الرائعة التى قام بها تورس بالباس بعنوان "مسجد قرطبة وأطلاق مدينة الزهراء" سلسلة "los monumentos cardinales de Espana" (الآثار الكبرى في إسبانيا) الجزء الثالث عشر مدريد ١٩٥٢م ، وفيما يتعلق بالكتابة انظر ليفي بروفنسال النقوش الكتابية العربية في إسبانيا ، أرقام ١ ، ٩ - ١٤ انظر أيضاً المال الهام الذى أعده لاميرت ورؤية تورس بالباس Bibliography of Spanish Muslim Art 1939-1946 en ars Islamica vol xv. Xvi 1951 pages 1659 sigs ومن نفس المصدر "بيانات جديدة عن مسجد قرطبة المسح ، مجلة الأندلس العدد الرابع عشر ١٩٤٩ ص ٤٥٧-٤٥٨ - ويجدر بنا في نهاية الأمر أن نحيل القارئ إلى بعض التفاصيل وردت

عن ليفي بروفنسال "إسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر" ص ٢١٠-٢٢١ ، وفيما يتعلق بتاريخ المسجد منذ الاسترداد انظر Castejón "دليل قرطبة" ص ٢٨-٤٢ ، ٦٢-٧٢ وهناك ترجمة لوصف الإدريسي يرافقها تعليق أثارى وقد تولى نشرها A. Dessus- Lamare وصف مسجد قرطبة - الجزائر ١٩٤٩ م .

(١٣٤) انظر فى المقام الأول تورس بالباس "مسجد قرطبة ص ١٠-١٠٦

(١٣٥) ابن حيان - المقتبس "الجزء الأول ، ورقة رقم ١27^م ، وابن الفرضى فى تاريخ ، رقم ٦٠٨ ، وابن سهل "الأحكام الكبرى ، ورقة رقم 203^م مخطوطة الرباط .

(١٣٦) خاصة المقرئ فى نفح الطيب الجزء الأول ص ٣٦٨ - انظر أيضاً م. أوكانيا خيمنت "بانيكا سان بيثنتى والمسجد الجامع فى قرطبة "مجلة الأندلس ، العدد السابع ١٩٤٢ ص ٢٤٧-٣٦٦

(١٣٧) انظر - سابقاً - الجزء الرابع ص ١٦٨ - ١٦٩

(١٣٨) انظر ما صدر مؤخراً لتورس بالباس "مسجد قرطبة" ص ٣٦

(١٣٩) والجزء المكتشف حديثاً من المقتبس لابن حيان - الجزء الأول ورقة رقم 242^م - 243^م يضيف إلى الأعمال التى جرت بشأن مسجد قرطبة ، مسجد قرطبة ، خلال عهد محمد الأول ، بعض الأخبار غير المسبوقة ، وأول هذه الأخبار هو أن الأمير أمر بالانتهاء من أعمال التوسعة التى أمر بها والده ويعد ذلك قام بتدعيم وإصلاح الجزء الذى بناه عبد الرحمن الأول ابتداء من الحائط الكائن فى عمق الصحن وحتى الإكتاف الضخمة (الأرجل) المبنية من كتل الحجارة والتى كانت تحدد مكان الحائط القديم للقبلة .

(١٤٠) انظر - سابقاً - الجزء الرابع ص ١٨٥-١٨٦ - وبالإضافة إلى أعمال الترميم التى تمت بناء على أوامر الأمير محمد الأول فى المسجدين الجامعين فى كل من البيرة ومالقة نجد أن ابن حيان يشير إلى التجديدات التى أدخلت ، خلال عهد ذلك الأمير ، على كل من مسجد استجة Ecija ومدينة صيدونيا .

(١٤١) انظر - سابقاً - الجزء الرابع (النص) ص ٢١٢-٢١٣

(١٤٢) فى عام ١٥٩٣م كانت المئذنة الأموية للمسجد مهددة بالسقوط وعندئذ قرر مجلس الكاتدرائية أن يتم ضمها إلى برج الأجراس وانتهى العمل من البرج الحالى عام ١٦٦٤م ، وقد ساعد على هذه الأعمال التى جرت مؤخراً بالفصل بين المبنىين والتى أشرف عليها المهندس فيلكس إيرنانديث ، وقد تم العثور على ترس عليه نقش بالحفر فى البوابة المسماة بوابة سانت كاتالينا (١٥٥٧-١٥٧٢) وكذلك نقاش للمئذنة الناصر - انظر على الأخص ما نويل جومث مورينو - العمل المشار إليه سابقاً ص ٧٧ ، ٨٠ كذلك تورس بالباس ، المصدر المشار إليه ص ٩٦ - ١٠٠

(١٤٣) البيان - الطبعة الجديدة ص ٢٢٨ وقد قام إميليوجارثيا جومث بترجمة تلك الفقرة وصف غير معروف لمئذنة مسجد قرطبة "مجلة الأندلس العدد السابع عشر ، ١٩٥٢م - ص ٣٩٩-٤٠٠

(١٤٤) فيما يتعلق بالوثائق المكتوبة - والتاريخية حول التوسعة التى جرت فى عهد الحكم الثانى انظر "إسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر" ص ٢١٤ - ٢١٨ والحواشى .

(١٤٥) انظر "شبه جزيرة إيبيريا" ص ١٨٣-١٨٧ . E. لامبرت ، نفس المصدر الملحق الثانى ص ٢٥٤-٢٥٤-٢٥٤ كما كان الجمع الدقيق الذى قام به عاملاً حاسماً فى البرهنة على أن البوابتين اللتين تحيطا بالحراب لم تكونا إلا محرابين ثانويين فى الأصل ؛ وهذا يفسر وجود قباب فى البلاطات السابقة عليها .

الفصل السابع

المحيط الاجتماعي^(١)

عناوين الفصل السابع :

١ - الأسرة والحياة الأسرية :

المحيط الأسري - الزواج ، الميلاد ، الوفاة - التعليم الابتدائي .

٢ - إطار الحياة الأسرية :

البيت - الأثاث - الغذاء .

٣ - الملبس ، العناية بالجسد ، الزينة :

ملابس الطبقات الشعبية - ملابس الترف - صحة الجسد - الحمام - النواك والحليّ - الصحة العامة .

٤ - حياة المتعة والأخلاق العامة :

الاحتفال بالأعياد الدينية والفلكية - احتفاليات الشارع - الصيد والألعاب - حرية العادات - الموسيقى والرقص .

١ - الأسرة والحياة الأسرية

El ambito familiar : المحيط الأسري

هل من الضروري أن ننبه القارئ ، ونحن نستفتح هذا الفصل ، إلى أنه سيكون مخطئاً إذا ما افترض أنه في القرن العشرين - كما كانت فترة الإمارة أو تلك التي تلت سقوط الخلافة حتى نهاية حركة الاسترداد المسيحية - عاش المواطنون حياة خاصة في إسبانيا الإسلامية تختلف ، باستثناء تفاصيل بسيطة ، عن تلك التي كان يحياها معاصروهم من أبناء الشمال الأفريقي وشرق المتوسط ؟ إن طابع البلد باعتباره شبه جزيرة ، وهيئته الأوروبية ، والتباين النمطي لسكانه ، كل ذلك تمكن بالكاد ، على مر العصور ، فقط من أن يصبغه في مظاهر معينة من الحياة الخاصة ، طابع "إقليمي" أو ، بخصوصية أكبر ، بطابع "أندلسي" ، ولكن بمقدورنا أن نؤكد على أنه ، عامة ورغم هذه "الإقليمية" التي من الصعب إدراكها ، لم تكن هناك محاولات من قبل سكان مدن شبه الجزيرة للتخلص من احترامهم في غيرة للقواعد التي عرف الإسلام منذ بداياته كيف يفرضها على أتباعه ، حتى ينظم سلوكهم اليومي في محيط الأسرة أو المجتمع ، ويقنن بطريقة منسقة معظم ربود أفعال الفرد أمام الظروف ، الدائمة منها والعرضية ، التي تلف تطور حياته الخاصة وحياة أقاربه .

وعليه ، فلا نعتزم أن نرسم في الصفحات التالية صورة كاملة للحياة اليومية للمسلمين الأسبان ، سواء أكان هؤلاء من الأرستقراطية المنتميين إلى طبقة الخاصة ، أو من أفراد البروليتاريا المنتميين إلى طبقة العامة داخل المدن ، وهذا راجع إلى أسباب كثيرة حيث إن الأدباء العرب الغربيين لم يسمحوا لنا - إلا مرات نادرة - بالدخول ، وهو الأمر الذي كان يتم بطريقة متحفظة للغاية ، إلى عالم الخصوصية المنزلية لبعض الشخصيات التي كانت محطاً للحديث عن حياتها الخاصة من جانب هؤلاء ، نكرر - بالإضافة إلى ذلك - أن هذه التدخلات النادرة في حقل جرت العادة على أن يكون محظوراً أكثر من غيره ، تمثل دعماً لما نذهب إليه من أن الأندلسيين - من عليا القوم ، والبرجوازيين أو من أصحاب الدرجات المتواضعة - بمجرد أن كانوا يختلفون إلى عتبة بيوتهم ما كانوا يعيشون حياة منزلية تختلف في نوعها عن تلك التي كانت يحياها مواطنو أفريقيا ، وسوريا أو مواطنو العراق ، وكذلك فإن هذا النوع من الحياة ، الذي

كانت تحكمه الشريعة الإسلامية فى صرامة معهودة ، والذى ظل بمنأى عن أى تعديل من قبل الجوار المسيحى الذى استوطن إسبانيا ، لم يتأخر كثيراً فى ترك بصماته بطريقة محسوسة على إسبانيا المسيحية ، ونظراً لأخذهم عن الحضارة الإسبانية الأموية مفهوم الحقوق السلطوية لرب الأسرة ، ومفهوم سر البيوت المحكمة السد ، فإن مجتمع مواطني ليون Leon وقشتالة Castilla فى العصر الوسيط قد واجه أعظم قدر من التأثير من قبل جارته الإسلامية ، والتي فى نفس الوقت ، نقلت إليه القاعدة السلوك القديم ، وعلمته كيف يرتقى بزينته ، وملبسه وأثاثه (٢) .

مثلاً كان الوضع فى الشرق وفى أفريقيا الإسلامية ، كان البيت الذى يضم بين جنباته أسرة ما يشكل فى العصور الوسطى عالماً منفلقاً إلى الداخل ، أى يوصد أبوابه ومناذره المطة على خارجه ، ولكن داخل هذا البيت ، منذ الصباح وحتى الليل ، هناك من يكذب ويتعب من نساء وأطفال وأناس ذوى وضع متحرر أو وضع ، وكان رب هذا البيت يمارس على كل من بداخله سلطة لا حدود لها ، كان رب الأسرة - أياً كان وضعه الاجتماعى - بمثابة السيد المطلق فى بيته ، وزوجته ، التى كانت بمثابة خادمتها المتواضعة ، لم تكن تخاطبه إلا بما فيه احترام له ، وخاصة أمام الأبناء ، وهؤلاء - من جانبهم - كانوا يقرّون لأبيهم بالتبجيل الأعظم ، فما كانوا يمكنون إلى جواره إلا بإذنه ، وكانوا يلتزمون الصمت فى حضرته ، وإذا ما كان صاحب البيت يأوى معه أمه العجوز ، فقد كانت هذه تنحى الزوجة جانباً ودائماً ما كانت تقوم بنفسها بأعمال المنزل والمطبخ ، نادراً ما كان أهالى الأندلس يلجأون - سواء أكانوا من الطبقة المتوسطة أو الفقيرة - إلى الزواج بأكثر من امرأة ، فغالباً ما كان من الضروري أن يكون المرء غنياً حتى يسمح لنفسه بترف الزواج من امرأتين أو أكثر ، بالإضافة إلى المصروفات الإضافية التى تجب عليه من أجل إعاشتهن وكسوتهن ، ولكن كان يحدث فى بعض الأحيان أن يقوم رب البيت ، حين يرى المال بين يديه ، ولم تعد زوجته تمثل أية جاذبية بالنسبة له ، بشراء أمة ، بيضاء أو سوداء ، والتى - بالإضافة إلى قيامها ببعض الأعمال المنزلية واندماجها كلية فى المناخ العائلى - كانت تقسم الفراش معه فى بعض الأحيان ، وبهذا يمكن لها أن تتجنب له الأولاد ، الأمر الذى يسمح لها بأن تصبح أم ولد وتنال حريتها ذات يوم ، كانت النساء والشباب والشابات يعيشون حياة

الاختلاط ، ومنذ سنوات عمرهم الأولى ، كان الأبناء يعلمون تماماً حقيقة أمر العلاقات الزوجية ، وإذا ما بلغوا الحُلم لم يكونوا فى حاجة إلى أدنى إرشاد فيما يتعلق بقضايا الجنس (٣) .

كان كل من فى البيت يتنفسون الصعداء حين يخرج رب الأسرة فى الصباح للوفاء بالتزاماته اليومية ، بعد أن يشتري حاجيات البيت ، إما بنفسه يحضرها إلى المنزل أو يرسلها مع أحد الحمّالين ، وفى بعض البيوت المترفة كان يتم التعاقد مع خادمة تقوم بكل شئ ، وقد وصل إلى أيدينا نموذج أندلسى لهذا النوع من التعاقد (الاستئجار) (٤) ، ونرى فيه تحديداً وتوضيحاً لكل نوع من الأعمال المختلفة التى كانت تقوم بها خادمة البيت : فهى مكلفة بعجن الخبز ، وطهى الطعام ، والكنس ، وترتيب الأسرة ، وإحضار الماء من خارج البيت ، وغسل الملابس ، وغزل ونسج الصوف ، كانت تتقاضى مرتبتها سنوياً إلى طعامها وسكنتها وملبسها .

كان البيت الذى تقطنه الأرستقراطية الإسبانية - المسلمة (مثلاً كان يحدث فى مختلف البقاع المسلمة الأخرى ، وعتاده يقعان على كاهل رب هذا البيت ، حيث ينفق عليه من ماله الخاص) يضم العديد من النساء ، وسحابة من الإماء البيضاضاوات والسوداوات ، هذا إلى جانب الخدم من الطواشى الذين يعملون تحت إمرة كبيرهم (القهرمان) (٥) يقتسمون الحجرات الرئيسية والمحلات الأخرى من البيت الفسيح ، الذى كانت ترتفع فيه - أثناء غياب صاحبه - الأصوات بالضجيج والجلبة الناجمة عن المنازعات أو عن الألعاب التى يلهو بها الأطفال ، ولكن ما يكاد يطل رب الأسرة على المنزل ، حتى يحل عليه الهدوء والسكينة ، اللهم إلا من تلك الخطوات الصامتة الناجمة عن سير الخادومات ، وأصوات نافورات المياه ، وهديل التراغل ، فى هذا الوقت تحين ساعة الراحة ، والخلود إلى النوم والمتعة .

إنه عبارة عن ستر متواضع - منزل برجوازي ، أو استراحة أرستقراطية - وكان ذلك الجمع الأسرى الذى يقطن بداخله وأصبح رهين محبسه ، باستثناء المرات النادرة التى خرج فيها إلى الشارع ، يكون ما تعارف عليه المجتمع باسم الحريم ، كانت كل الزيارات - باستثناء زيارات النساء - ممنوعة على الإطلاق ، وحينما كان صاحب البيت يستقبل أصدقاءه ، كان يستقبلهم فى صالة تؤدى مباشرة إلى دهليز المدخل ،

أو حتى إلى الشارع ، متجنباً بذلك أية نظرة طائشة ^(٦) ، وهو الذى أدى - كما فى الشرق الإسلامى - إلى القيام بعمل توزيع خاص لأجراء البيت المختلفة .

داخل تلك الغرف المحكمة السد ، كانت الحياة تسير فى إيقاع رتيب ، وأما الأخبار الخارجية فما كانت تصل إلى داخل البيت قط إلا وقد أكل عليها الدهر وشرب وأصابها كثير من التشويه ، رغم أن الأولاد الصغار كانوا يتحسسونها بالمدينة ويذيعونها ، إلى جانب الأخبار الفاضحة وأشكال الحياة اليومية ، ومن خلال سطح المنزل ، كانت هناك محاولات لتقرب ما يجرى فى بيت الجيران ، وفى أحيان أخرى كانت تحاك بعض الدسائس المعقدة والصبيانة على حد سواء ، ولكن مرت الأيام ، واحداً تلو الآخر ، مفعمة بالأعمال اليومية الكامنة فى تنظيف المنزل ، والرغبة فى إرضاء رب البيت ، والممارسات الدينية ، والانشغال بممارسة بعض أعمال السحر حتى تتجنب الأسرة حسد الحاسدين ، وعمل القاسطين من الشياطين ^(٧) ، وما كان يطرأ على تفكير أحد ، ولا حتى الخدم ، أن يضج بالشكوى من نصيبه الذى قدر له ، وكان على الجميع أن ينتظر إطلالة ظروف معينة ، ينتظرها الجميع بفارغ الصبر ، مثل قدوم الأعياد الدينية ، أو أعياد الميلاد ، حتى تقدم المبررات لخروج الأسرة فى الهواء الطلق ، أما بقية الوقت فما كان هناك غير الزيارات الأسبوعية للمقابر ، للزيارة على مقابر الأهل والأقارب ، أو الخروج مرة أو مرتين فى المساء من كل شهر إلى الحمام ، والتي تمثل فرصة تتاح أمام المرأة "المنتظرة الصابرة" تستغلها للهروب لساعات من إطار حياتها اليومية .

هل كانت المرأة المسلمة الأندلسية ، فى عصر الخلافة وفى العصور التى تلتها ، تحظى بوضع أكثر تميزاً من وضع أخواتها فى المشرق ؟ لقد طرحت هذه القضية ^(٨) ، وساد اعتقاد ينتهى بتأكيد الطرح السابق ، وذلك عن طريق تحميل بعض النصوص الشعرية التى - بطبيعتها - لا يمكن أن تعكس سوى صورة جد بعيدة عن الواقع ، معانى لا تحتتملها ، وإذا ما صدقنا بعض المؤشرات العابرة ، فلربما أن المرأة الأندلسية كانت تتمتع بحرية الحركة بصورة نسبية ، على الأقل فى الطبقة المتوسطة ، ولكن ، هل كان زوجها يعاملها بصورة أفضل وكانت حقاً هى ملكة بيتها ؟ لا أحد يتجرأ على أن يدفع بهذا ^(٩) ، وليس هناك من شك فى أنها كانت محمية من قبل

القانون ضد سوء المعاملة من جانب الزوج ، وأنها ، فى حالة الطلاق ، كانت تضمن الحصول على النفقة ، ولكن مثل هذه الضمانات كانت قاسماً مشتركاً فى كل العالم الإسلامى ، وإذا ما تحسن ، فيما بعد ، وضع المرأة الأندلسية فى المدن بعض الشيء ، فقد كان ذلك راجعاً ، فى المقام الأول ، إلى الاختفاء التدريجى لظاهرة تعدد الزوجات ، وربما أيضاً إلى تأثير البلاطات البربرية فى القرن الحادى عشر وبعد ذلك إلى بلاط المرابطين ، والذين بينهم ، ربما بسبب الوجود المظلم لنظام يعنى بالأمومة ، احتلت المرأة دائماً مكانة رفيعة ، فى المناخ الأسرى والتنظيم الاجتماعى على حد سواء .

El matrimonio, nacimiento y muerte : الزوج والمواليد والوفيات

إن أبرز الأحداث الخاصة بالحياة الأسرية - الزواج والمواليد والوفيات - كانت تأتى مصحوبة فى الأراضى الأندلسية بنفس الممارسات ، الشعيرة أو الخرافية ، التى كانت سائدة فى بقية العالم الإسلامى فى العصور الوسطى ، ولكن بما أنه لا يوجد بين أيدينا أى مصدر إخبارى ذى طابع وصفى أو يتميز بالواقعية بعض الشيء عن هذه الممارسات ، تاركين جانباً بعض أحكام المذهب المالكى ، فلن يكون إسهامنا فى هذا المجال كبيراً .

كانت الاحتفالات السابقة والمصاحبة والتالية للزواج بنفس الطريقة التى يحتفل بها الآن فى المغرب ، حيث تمت دراستها بشئ من التفصيل (١٠) ، تقام فى إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ، كان الإعداد والقيام بهذه الاحتفالات يصيب بيت المتزوجة بحالة من القلق والجلبة ويتسبب فى زيادة الإنفاق بدرجة كبيرة ، وهى أمور هب الفقهاء يواجهونها فى كل عصر ، وقد كان طلب الزيجة يخضع دائماً لبروتوكول موحد ، أياً كانت الطبقة الاجتماعية لزوجى المستقبل : الحديث فى أمر المهر الذى يجب أن يدفعه الخاطب ، إعداد جهاز العروس ، تحديد تاريخ حفل الزواج فى يوم من الأيام السعيدة ، والذى يقدم بتحديدده منجم محترف عن طريق قراءة الطالع ، وحين يأتى الموعد المتفق عليه ، كانت الاحتفالات تقوم على مدى أسبوع كامل ، بداية فى بيت العروس ، التى كانت - بعد أن تزينت كأيقونة - تتلقى غير متأثرة تهانى النسوة من العائلات المقربة أو الصديقة واللأتى أتين للحديث عن سيرة الغير يحملن معهن أصناف الحلوى ، بعد ذلك ، كانت العروس تزف إلى بيت زوجها وسط موكب مهيب

وأنغام الموسيقى ، تتبعها مجموعة من البغال تحمل فوق ظهورها صناديق مترعة بجهاز العروس ، "أذكر - يقول مؤرخ أديب من القرن الحادى عشر (١١) - أننى رأيت موكب عرس يمر فى شوارع قرطبة - يظهر بينها ، جالساً فى كرسيه الناقورى ، صانع المزمار ، يضع فوق رأسه قلنسوة ، يرتدى جلباباً من الحرير (Ubaldi) ، ويمتلى جواداً عليه أطقم ظهرت فى أبهى حلة ، بينما كان يمسك بلجامه خادمة " ، وكما يمكن توقع الأمر ، فقد كان الاحتفال عرضاً عظيماً بالنسبة للمارة الذين ييغون شغل أوقات فراغهم والذين لم تكن تخلو قرطبة منهم .

كانت المواليد أمراً متواتراً ، وخاصة فى بيوت الأثرياء ، حيث كان العديد من الزوجات والحظيات (الجوارى) يقتسمن وصال رب الأسرة ، ولكن مثل هذا الحديث كان يمر ، بعيداً عن الأقارب والأصدقاء المقربين ، وكان شيئاً لم يكن فى العادة ، كانت عمليات الوضع تتم على يد القابلة ، وفى الحالات الحرجة كان لابد من الاستعانة بالنسوة الطبيبات ، المتخصصات فى علم النساء والتوليد واللاتى كن يتقاضين أجوراً باهظة نظير ذلك (١٢) - وأما المولود ، بصرف النظر عن جنسه - فكان دائماً محط ترحيب ، ولكن ميلاد الطفل الذكر كان يعد دافعاً لاحتفالات أكبر فى محيط العائلة ، وقد جرت العادة على أن تحضر مرضعة إلى بيت والد المولود لترضعه ، ولكن فى بعض الأحيان كانت الأسرة تعهد به حتى فصاله إلى قروية ، كانت تحمله معها إلى مجتمع الريف ، وتبين الصيغ العديدة الأندلسية للعقود من هذا النوع أو ذاك ، التى وصلت إلينا (١٣) ، بأن والد الرضيع كان يبدي استعداداه لدفع راتب شهرى وكسوة المرضعة ، والتى لم تكن تتكفل فقط برضاعة الصغيرة ، وإنما كانت تقوم إلى جانب ذلك ، بغسل أقمطته وتحميمه من أن لآخر بصفة يورية .

وفى اليوم السابع من ميلاد الطفل تتم تسميته وقص شعر رأسه لأول مرة (العقيقة) ، وقد جرت العادة على أن يطلق الأهل اسم الجد لأب على الطفل الذكر ، بالإضافة إلى الكنية الملائمة : على سبيل المثال ، فالاسم أحمد ، كان يطلق مصحوباً بكنية "أبو العباس" ، أو على ، مع كنية خاصة وهى "أبو الحسن" ، وقد كانت هذه الكنية تطفى فى الاستعمال الأسرى على اسم الطفل نفسه ، والذى - بدوره - كان يستخدم فى صورة التصغير ، كدليل على الحنان والعاطفة (١٤) ، وبالنسبة للإناث ،

فبنفس الطريقة ، إذا ما أطلق عليهن اسم يرجع إلى مجموعة الأعلام النسائية فى عهود الإسلام الأولى ، فقد كن يُسمين دائماً بكنية مناسبة (على سبيل المثال ، أم كلثوم ، أم الحكم) ^(١٥) ، ولكن يبدو أنه فى أوائل القرن العاشر - بلا شك - على غرار ما كان يصنع فى بغداد ، كانت الأسماء الوصفية ، والتي كانت حتى ذلك الوقت مقصورة على الإماء ، قد أصبحت تستعار لتطلق على الفتيات اللاتي يولدن أحراراً : على سبيل المثال ، شمس أو شمسي ، وكل أسماء الزهور (هناك ثلاث من بنات المنصور أطلق عليهن بهار ، نرجس ، بنفسج) ، مصابيح ، نجيمة ^(١٦) ، وكذلك الاسم الإسباني دونا Duena = Duna ، الذى يعنى المالكة ^(١٧) .

كانت عمليات الختان للأطفال ، والتي كانت عادة ما تجرى عند بلوغهم سن السابعة ، محلاً وهدفاً لاجتماع أسرى ، وكان الأب يدعو أصدقاءه إلى وليمة للاحتفال بمثل هذا الحدث السعيد ، ووفقاً لعادة مكتسبة من الشرق ، فقد كان من حسن الذوق ، الذى يُعد فى نفس الوقت من أعمال البر ، داخل إطار الارستقراطية الأندلسية ، أن يجمع عدد من الفتية من نفس السن ونفس المستوى الاجتماعى أو أدنى لكى تجرى لهم عمليات الختان بدورهم جنباً إلى جنب مع ابن صاحب النسب والجاه ، والذى كان يقع على عاتقه دفع كل المصروفات وتقديم وليمة مهيبة بهذه المناسبة ^(١٨) ، فى القرن الحادى عشر ، قام الملك المأمون بن ذى النون صاحب طليطة بتنظيم عدة حفلات بهذه المناسبة ، وفى قصره ، ظلت ذكراها الجميلة مستمرة لزمان طويل فى إسبانيا ^(١٩) .

كانت البساطة وعدم الأبهة - على العكس - تمثل القاعدة التى سار عليها أهل الأندلس ، مثلما كانت أيضاً بالنسبة لمسلمى الدول الأخرى ، وذلك فى الوقت الذى كانوا يحملون فيه مواتهم إلى مآثرهم الأخير ، لم تكن الشعائر الجنائزية ، والصلاة على الميت ، وغسل الجثمان ، الذى كانوا يلبسونه ملابس جنائزية ويلفونه فى كفن ، والدفن ، تختلف فى شيء عما كان يفعله الآخرون من أتباع المذهب المالكي فى المغرب أو أفريقيا ^(٢٠) ، كان الدفن يتم فى المقبرة الأقرب إلى بيت المتوفى ، وطبقاً لما تذكره قواميس السير الذاتية ، فقد كان بعض الأشخاص يقومون فى حياتهم بنحت مخطوط على حجر تغطى به قبورهم ، والذى لم يكن يظهر سوى تاريخ الوفاة واسم المتوفى ، مسبوقين بآيات قرآنية تتحدث عن الموت ، وأحياناً تذكر معها دعوة لمن يقرأ شاهد

القبر المكتوب ليدعو الله أن يرحم المتوفى (٢١) ، كانت شواهد القبور في إسبانيا عبارة عن بلاطات مستطيلة الشكل ، أو نجمية موشورية (مقابرية) ، أو صُوى أسطوانية (كانت هذه الأشكال الأخيرة هي المستخدمة - خاصة - في طليطلة) (٢٢) ، وفوق القبر كان بالإمكان رفع شاهد تتوجّه قبة (تربة) ، داخل حديقة مسورة (٢٣) .

التعليم الابتدائي : La instruccion elemental :

باستثناء الحالة التي تنتمي فيها الأسرة إلى طبقة اجتماعية وضيعة ، وتحيا حياة بائسة ، فقد كان رب الأسرة التي تقطن المدينة يُصر على أن يتلقى أبنائه ، ذكوراً أم إناثاً ، منذ طفولتهم الغضة نوعاً من التعليم الابتدائي (٢٤) ، وإذا كان رب الأسرة يتمتع بثروة هائلة ، كان يدعو معلماً ومؤدباً يأتى إلى منزله ، وإذا لم تتوفر له هذه الثروة ، كان يرسل ابنه إلى المدرسة (المكتب) القريبة من بيته ، كانت تلك المدارس ، البدائية جداً ، تخضع فقط للرقابة النظرية من قبل محتسب المدينة ، أما المدرس (المؤدب أو المعلم) فقد كان يجمع في حانوت صغير أو المصرية ، التي كانت تتصل بالشارع مباشرة ، عدداً قليلاً من التلاميذ ، الذي كان يعلمهم - مقابل راتب - القرآن ، هذا بالإضافة إلى بدايات القواعد العربية ، وأما برنامج التعليم والتقدم في الدراسة فقد أتت كلها محدودة من قبل الأعراف المعمول بها ، وكان المعلم يلزم نفسه باحترامها .

وقد جرت العادة على أن يقوم رب الأسرة بدفع راتب المؤدب الذي يفد إلى البيت سنوياً ، ولكن مثل هذا الأمر كان يدعو أحياناً إلى تحرير عقد في صورة جيدة (٢٥) ، والذي كان يتضمن شرطاً ، بالإضافة لدفع أجر شهري مادي ، يكّرم بدفع كمية من الدقيق وزيت الزيتون ، كانت العادة السائدة تلزم رب الأسرة بتقديم مكافأة للمعلم في الدراسة في كل من العيدين الرئيسيين للمسلمين ، ومكافأة أخرى أكثر أهمية ، حين يتمكن الطفل من ختم القرآن الكريم وحفظه عن ظهر قلب ، وأما بعض الأسر الثرية فقد كان تتفق مع إحدى المعلمات (٢٦) في مثل هذه الأحوال .

بالنسبة لما يتعلق بالأبوات المدرسية فقد كانت هي نفسها التي تستخدم حتى الآن في مدارس تحفيظ القرآن بالمغرب : الألواح الخشبية ، وأقلام الغاب وحبر الصوف المحروق ، كان التلاميذ يمضون وقتاً طويلاً في مرات عديدة دون أن يكون المعلم بجوارهم ، والذين كانت تشغله عنهم اهتمامات كثيرة أخرى ، في بدايات القرن

الثانى عشر ، قام ابن عبدون بإبداء بعض الملاحظات حول هذا الموضوع مفعمة بالاستياء ^(٢٧) ، ومن خلال الشارع مثلما يحدث - على سبيل المثال - حتى الآن فى مدينة فاس ، يمكن الاستماع إلى الترنيمة الغناء الرتيبة ، والتي تتكرر آلاف المرات ، للنص القرآنى الذى على الطفل أن يحفظه فى ذاكرته ، وذلك إذا لم يكن راغباً فى أن يكون هدفاً لعقاب جسدى يقع عليه أمام رفقاءه ، وشيئاً فشيئاً ، يبدأ الطفل فى تعلم قواعد النحو والصرف ، مستخدماً متونا أولية ، وحين يصل الطفل إلى فترة المراهقة ، فإما أن يلتحق كصبي لتعلم حرفة ما فى إحدى الورش ، وإما أن ينتقل إلى مرحلة أعلى فى حياته التعليمية ويظل يتابع حضوره لدروس كبار المعلمين المشهورين فى الجامع الكبير ، حيث يتعلم الفقه المالكى والأدب ^(٢٨) .

وفيما يتصل بالتعليم فى إسبانيا الإسلامية ، فقد ذكرت أحياناً بعض الملاحظات التى يدرجها ابن خلدون فى مقدمته عن الطرق التربوية التى كانت - فى عهد سابق لعهد - تستخدم فى الغرب الإسلامى ، وطبقاً لما يذكره أكبر مؤرخى القرن الرابع عشر ، معتمداً على فقرة مناسبة وهامة لأبى بكر بن العربى ، فقد كان فى الأندلس ، على الأقل منذ فترة ملوك الطوائف ، نظاماً تعليمياً مختلفاً تماماً عن ذلك الذى أتبع فى المغرب والشرق الإسلامى ^(٢٩) ، والذى يقوم على تقديم دراسة اللغة والشعر على دراسة القرآن ، وذلك حتى يتكون لدى التلميذ زاد من العلم اللغوى يمكنه من التصدى بسهولة أكبر وثمره موجوة لقراءة الكتاب المنزل .

من الممكن أن تكون هذه الإشارة لابن خلدون حقيقية ، رغم أنه لا يوجد بين أيدينا أية وثيقة معاصرة حول الموضوع ، وعلى كل ، فيبدو أن هذه الإشارة تأتى على النقيض بعض الشيء مع ما ذكره مؤلف شهير آخر ، ابن حزم الكبير - والذى يتناول أيضاً مسألة الطرق التربوية فى عمل آخر - لم يطبع إلى الآن ، تحت عنوان : مراتب العلوم ^(٣٠) ، فى هذا التناول يذكر ابن حزم أن دراسة القرآن كانت تأتى فى المقدمة ، بعد أن يكون الطفل قد تعلم ، وهو فى سن الخامسة ، القراءة والكتابة ، وأن دراسة اللغة والشعر كان يتم إرجاؤها إلى فترة لاحقة ، وهو نوع من الدراسة كان يعد مداخلاً لمرحلة من التعليم العالى الحقيقى ومقدمة لتخصص الطالب فى أحد الفرعين الكبيرين بحيث يتمكن من أن يصبح إذا ما كان يتمتع بموهبة وعلم غزير ، فقهياً أو أديباً لأن تذكره الأجيال بعد وفاته ^(٣١) .

٢ - محيط الحياة الأسرية

البيت : La casa

كان البيت الأندلسي ، فى المدن المكتظة بالسكان فى جنوب شبه الجزيرة ، يظهر فى نفس الهيئة التى تظهر عليها بيوت بعض التجمعات المغربية اليوم ، وخاصة مدينة فاس (٣٢) ، أما خارج البيت - سواء أكان يطل على حارة صغيرة أو أخرى مقفلة - فما كان يتميز بشيء عن البيوتات المجاورة ، كان عبارة عن سور يبلغ ارتفاعه بضعة أمتار ، خال من النوافذ ، مطلى بمادة الجصّ اللامعة ، وعلى سطح الأرض ، وأحياناً يكون فى مستوى أقل ، يوجد الباب ، الذى كان مزوداً برتاج قوى (بلش) ، وقد جرت العادة على أن يصنع الباب من الخشب ، وتعلق عليه ضبّة أو مقبض كبير ، من خلال ذلك الباب يعبر الداخل إلى دهلين مظلم ، ومن خلاله يتم الوصول إلى ممر ملتوٍ يؤدي إلى صحن البيت ، فى شكل مربع أو مستطيل ، ومساحة بسيطة ، فى هذا الفناء البسيط ، الذى كانت تفتersh أرضه بالحجارة الصغيرة أو البلاط الجبرى ، وفى مرات نادرة بالرخام ، كان يوجد أحياناً بئر وما كنا نعدم الظل الناجم عن عريش نصب بداخله ، وخاصة فى الأوقات الحارة من أيام الصيف ، وفى هذا الصحن كانت هناك مجموعة من الصالات الطويلة تتصل به ، فى مواجهة بعضها البعض ، والتى كان الهواء يدخل إليها عبر الباب الرئيسى ، المكون من مصراعين عاليين ، والواقع بين مشريبتين ، فى أحد الأركان ، بين حجرات صغيرة كانت تستخدم للطهى ، وتخزين الأبوات المنزلية أو كدورة مياه ، يبدأ السلم الذى - عبر درجاته القائمة الانحدار - كان يؤدي إلى الدور العلوى ، وقد كان هذا الدور العلوى يحتوى على بهو يقع فوق الفناء تماماً ، وعلى هذا النمط ، مع أهمية البيت ، كانت توجد حجرة أو حجرات متعددة ، كان هناك سلم آخر يصعد إلى سطح المنزل ، أو إلى مجموعة من العلبات معلقة أسفل السقف ، إذا ما كان البيت - كما هو الوضع فى أغلب الأحوال - مغطى بوحدات من القرميد .

هذه الصورة ، التى تعد بمثابة الهيئة التى كان عليها المنزل القديم وأصبح قاسماً مشتركاً فى حوض المتوسط عامة ، لم يكد يدخل عليها شيء من التعديل فى أندلسيا بعد حركة الاسترداد ، وكان لابد من الانتظار زمناً طويلاً حتى يمكن التفكير فى

الواجهات المعدة بشيء من العناية المعمارية والمزينة بالنوافذ والشرفات التي تطل مباشرة على الشارع ، وأصبحت المفردات الإسبانية التي تطلق على الأجزاء المكونة للمنزل ثابتة ومعمولاً بها ، من ناحية أخرى - دونما تغيير في المدن الغربية - كما أنها تركت بصماتها في اللغة الإسبانية ، فالحجرة العليا التي كانت موصولة بسلم خاص يؤدي إلى الشارع ، كان يطلق عليها في قرطبة - كما هو اليوم في فاس - المصرية (Masriyya) ، وأحياناً ، كان دهليز البيت يؤدي أيضاً إلى مبنى منعزل ، كان صاحب البيت يستقبل فيه زيارته ، وفي حالة ما إذا كان ذلك الدهليز - كما هي العادة - يطل بجزء منه على الشارع ، فقد كان يطلق عليه البرانية ، كما كان البيت يحتوى في دوره العلوى ، أعلى دور فيه للتمتع بالمناظر الجميلة ، على غرفة عالية مستقلة يطلق عليها الغرفة (gufa) ، والتي كانت تحتوى - بدورها - فى جزء أعلاها شرفة يطلق عليها العلبة .

أما بالنسبة للمهمة التي كانت تقوم بها صالات الاستقبال والحجرات العادية الأخرى بالمنزل ، فقد كانت هي اقتراشها ليلاً للنوم من قبل أفراد العائلة والخدم ، ومن أجل هذا الغرض كانت كل غرفة منها مزودة ، فى كل طرف من أطرافها ، بمساحة مرتفعة بعض الشيء ، تحدد فى سقف الحجرة بواسطة تسنيمية تدلت منها ستارة ، تلك الأجزاء المعلقة من الحجرات كانت تسمى القبة أو المخدع (alcoba) والتي أتت منها الكلمة الفرنسية (alcove) .

وقد جرت العادة على أن البيت الواحد لا تسكنه أكثر من أسرة واحدة ، ولكن الوضع بالنسبة للأسرة الفقيرة كان مختلفاً ، فقد كان من الممكن أن يقتسم كل فرد وزوجته حجرة واحدة فقط داخل البيت ، وهو الأمر الذى كان يعنى على الدوام الاختلاط بين المستأجرين ، وكان يمثل مصدر نزاع دائم ومشاجرات بين الجيران .

ولكن إلى جانب هذه البيوت البائسة والعفنة ، التي كانت مرتعاً خصباً للامراض والصحة والأمراض حتى تفسدها وتهلكها ، فما كانت المدن الأندلسية تعدم وجود بيوتات فسيحة ، جيدة التهوية ، بها حدائق غناء ، وكانت تقام فى الأحياء المكونة لضواحي المدن ، كان النظام العام لبناء وشكل الغرف مشابهاً للبيوت الأخرى ، إلا أن صحن هذه البيوت الحديثة كان يشغل مساحة أكبر ، وكذلك فقد كان يزين برياض

من الزهور أو مجموعة من المروج المفعمة بالحشائش الخضراء (٣٣) ، ولو أن ذلك غير كاف ، فقد كان المكان مزوداً بنافورة مياه وسط حوض أنيق ، كما كانت هناك قنوات صغيرة تعمل على توزيع المياه المستخرجة من البئر بواسطة عجلة مركب عليها مجموعة من القواديس ، بينما هناك قنوات أخرى تعمل على نقل المياه العكرة صوب الجداول الذى كان يجرى بوسط الشارع الذى يطل عليه البيت ، كانت بعض البيوت الأرستقراطية تتمتع فى بعض الأحيان بمجموعة من المباني المنفصلة والموزعة داخل حديقة ، رشقت بمختلف أشجار الفاكهة ، كانت هذه هى الهيئة التى ظهرت عليها المزارع القائمة فى أجوار قرطبة ، على أحد شاطئى نهر الوادى الكبير .

وفى حالة أكثر تواضعاً من تلك التى كانت عليها الاستراحات الفخمة للأثرياء من سكان العاصمة ، كانت البيوت الريفية تنتشر فى أعداد هائلة على سفوح السهلة (Shla) وبين جنبات الكامبينيا ، وكان أفراد البرجوازية يرغبون قضاء وقت طويل نسبياً بين جنباتها - كان الفراغ القائم بين هذه البيوتات أقل من الذى يفصل بين بيوتات المدينة ، وكانت البنايات - المكونة من طابق واحد - تحاط بأحواض الزهور والبساتين ، وذلك باعتبارها نموذجاً للضياع الأصلية للريف الأندلسى الحالى .

فى هذه المزارع الكائنة بأجوار المدينة كان كل شىء معداً لإمتاع النظر ، وهذا هو ما شهد به وصف ذكره ابن ليون الغرناطى (٣٤) ، الذى رغم أنه قد كتب فى القرن الرابع عشر ، يرسم فى بلاغة الذوق ، الذى أتى من الزمن العابر ، واستخدمه الإنسان الأندلسى من قاطنى المدينة فى العناية ببيته الريفى ، هذا بالإضافة إلى أبراج الحمام والحدائق التابعة له ، باعتبارها أماكن يمكنه الاستمتاع فيها بأوقات الفراغ والهروب لفترة ما من الإطار المزيج الذى تتطور فيه حياته اليومية .

لإنشاء بيت بين الحدائق - يقول ، فعلا ، ابن ليون فى قصيدته الزراعية - كان الأندلسى يختار منطقة مرتفعة تجعل من السهل الحفاظ عليه وحراسته ، كانت وجهة البيت صوب الجنوب ، بالقرب من باب المزرعة ، وفى أعلى منطقة من الأرض كان يوجد البئر والحمام ، وأحياناً ، كان من الأفضل إقامة ما يسمى بالساقية التى تتدفق مياهها بين جنبات الأرض الظليلة ، وإلى جوار الحمام كانت تقام الأحواض المزدانة بالخضرة الدائمة ، تسر الناظرين ، وعلى مسافة بعيدة ، مساحات من الأزهار من كل نوع

وأشجار لا تسقط لها ورقة ، ويحاط العقار بمزارع العنب ، والتي تنتشر وسطها العرائش التي تغطي الممرات المختلفة وتطوف الحديقة كما لو كانت سورا ضرب عليها ، وفي الوسط توجد مقصورة يجلس عليها أهل المكان ، لها إطلالة على كل جانب ، ولكنها صنعت بطريقة ، لا تسمح للداخل بسماع الحوار الذي يتداوله الجالسون بين جنباتها ، وألا يصل إليها أحد دون أن يعلم به من بداخلها ، كانت تلك المقصورة تحاط بأشجار الورد المتسلقة ، وكذلك أشجار الريحان ، وكل الزروع التي تزين البستان ، وعادة ما كان البستان مستطيل الشكل ، حتى تتاح الفرصة لامتداد البصر حين يتأمل ما يرى ، فى جانبه السفلى شيدت غرفة خاصة للضيوف والأصدقاء ، بباب مستقل وحمام يتوارى عن الأنظار النازلة إليه ممن يجلسون فى العلية بواسطة مجموعة من الأشجار ، وإذا ما أضيف إليه برج للسكنى ، وآخر لتربية الحمام ، لم يكن لصاحبه أن يطلب أكثر من كل هذا .

الأثاث : El mobiliario

كانت صالات الاستقبال والمعيشة داخل بيوتات المدينة مزودة بنوع من الأثاث الخفيف والذي من السهل نقله من حجرة لأخرى ، وفى هذه النقطة بالذات ظلت المغرب هى الأخرى وفيّة لهذا التراث الأندلسى ، إذ حتى وقت قريب كانت البيوتات البرجوازية الأكثر ثراء تُفرش بأسلوب غاية فى البساطة ، فقد كانت الأرض تفرش بالحصير المصنوع من الحلفاء أو القش ، والذي كان يغطى فى بعض الأحيان بالسجاد المصنوع من الصوف ، الكثيف منه والأملس (البساط) ، أما الصالات - وعلى طول الحوائط بما يقرب من ارتفاع قامة الرجل - فقد كانت تزدان ببساط الصوف المعلق ، الملون منه والحريرى ، وأسفل هذه البُسط مباشرة كانت هناك مساحة مخصصة للجلوس ، يعلو عن الأرض قليلاً ، صنع من الوسائد المرصوفة بعضها فوق بعض ، ومغطاة بالقطيفة أو الإستبرق ، وفوقه تتكدس الوسائد أو المخدات ، المحشوة بالصوف وعليها كسوة رقيقة التطريز ، والتي كانت تستبدل فى الصيف بوسائد كبيرة مستديرة صنعت من القماش (٢٥) ، أو من الجلد (أريكة أو نمروقة) ، كان هناك نوع من المقاعد الغضة التي تستخدم ككرسى ، والتي كانت عبارة عن وسائد كبيرة صنعت من الجلد ، وفيما

يتعلق بالأسرة والفرش التى تتبعها نجد بين أيدينا معلومات كافية عن طريق ما ورد فى مستندات القضايا الشرعية ، والتى دُوّنت فيها الحاجيات التى كان على الزوج أن يقدمها إلى زوجته حين يريد أن يطلقها أو تلك التى يجب ردها إلى السفهاء ، أو الصغار الذين يعيشون تحت كفالته ^(٣٦) ، كان استعمال الأسرة أمراً عادياً وتم وضعها ، كما قلنا آنفاً ، فى حجرات النوم الواقعة على جوانب الصالات : فوق حصير مفروش على خشب السرير ، كانت توضع مرتبة ، مغطاة بأزرار ، مصحوب بمخدة (مرفقة) ، ومنها أتت الكلمة الإسبانية (marfega) ، ولحاف من الكتان المغطى بالصوف ، ويطانية من الصوف أو من اللباد ، كانت الأسرة مرتفعة جداً عن سطح الأرض ، وذلك ، حسب ما يقوله الفقهاء ، حتى يكون من ينام عليها بعيداً عن ضرر العقارب ، والفئران والبراغيث ، ^(٣٧) ، فى الوقت الذى يتم فيه إنزال الستارة عليها ، أما الأطفال فكانوا ينامون فى مهد مزودة بمرتبة صغيرة ^(٣٨) ومنشاف من الجلد .

ولحفظ الملابس لم يكن هناك سوى الصناديق الخشبية التى كانت تعرف بالتابوت ، تقفل بأغلال محكمة ومتينة ، كان صاحب البيت هو الشخص الوحيد المخول بحمل مفتاح حجرة الأطعمة المخزونة ، والتى كانت تحتوى على مخزون الأطعمة اللازمة لمدة عام : الدقيق ، وزيت الزيتون ، والعسل ، والفواكه الجافة ، واللحم المملح أو الموضوع فى الدهن ، كل هذا يحفظ فى الأوانى الفخارية المزججة ، المحكمة الغلق .

أما الإضاءة ، التى كانت بدائية للغاية ، فقد كانت عبارة عن الشموع المصنوعة من الشحوم أو مادة الشمع ، أو قناديل الزيت ، المصنوعة من الطين المحروق أو من البرنز ، أما فى البيوتات التى كان يقطنها الأثرياء فقد كانت تضاء بالثرى ليلاً ، والتى كانت تصنع من البرنز مزودة بأوعية ممتلئة بالزيت أو عدد من الشموع .

لم تكن قضايا التدفئة قد وصلت إلى حد الكمال ، وذلك باستثناء بيوت الأثرياء المزودة بحمامات البخار الخاصة ، حيث يصبح من الممكن فى هذه الحال تركيب مسار للماء الساخن عبر مواسير فخارية ، فى الشتاء جرت العادة على استعمال نوع من الجامر المعدنية من أجل التدفئة ، كما كانت هناك أنواع أخرى صنعت من الطين أو

الآجر ، حيث كان الأهالي يحرقون فيها الفحم الخشبي ، أما في الوادي الأوسط لنهر التاجه Tajo وفي أراجون Aragón ، حيث يكون البرد شديداً ، كان الأهالي يستخدمون في بعض الأحيان نوعاً من المدافئ المتطورة بعض الشيء ، وقد أورد ابن باشكوال Ibn Bashkwal (٣٩) ، خبراً غريباً عن مدرس طليطلي في نهايات القرن العاشر كان يعطى دروساً في بيته لأربعين تلميذاً خلال شهور نوفمبر وديسمبر ويناير في فترة من فترات الشتاء ، وما كان يأخذ على عاقته فقط إطعام هؤلاء التلاميذ ، وإنما بالإضافة إلى هذا ، وحتى لا يشعروا بالبرد ، فقد أعد لهم حجرة من حجرات المنزل ، فُرشت أرضيتها بوسائد من الصوف ، وغطيت حوائطها بقماش من اللباد ، وفي وسطها أشعلت مدفأة عليها فحم كربوني (كانون) ، تصل في علوها قمة الرجل والتي منها أصبح كل حاضر - يوضح لنا بالتحديد - يغترف منها نصيبه من التدفئة .

ولكن ، بما أن الشتاء لم يكن يدوم مدة طويلة ، فقد كان الحر الشديد في فترات الصيف ، وخاصة في أندلسيا Andalusia هو الشيء الذي لابد من تجنبه ، ولهذا ، مثلاً يحدث الآن ، فقد كانت الحالة تقتضي أن يقوم الأفراد منذ ساعات الصباح الأولى ، بالرى المتوافر للفناء المنزلي ، وكانت الحجرات تظل مغلقة تماماً وبإحكام ، وذلك بغرض أن تحتجز قليلاً من الرطوبة .

La alimentacion : الغذاء

بفضل ما ورد في مدونات الحسبة الأندلسية ، نملك بين أيدينا سلسلة من المعلومات عن الغذاء ، والمطبخ في حياة المسلمين الأسبان في الفترة ما بين القرنين التاسع والحادى عشر ، وإذا ما أضفنا إلى الأخبار التي تزودنا بها هذه المصادر عن الطعام الشائع وأعمال الغش التي كان من الممكن أن ترتكب تجاهه أخباراً أخرى يمكن أن نستخرجها من بين ثنايا الشعر الهزلي (٤٠) ، أو في فترة متأخرة بعض الشيء ، ومن أزجال ابن قزمان ، تصبح الظروف مواتية بالنسبة لنا حتى نقوم بعمل حصر للعناصر التي كان يتكون منها المطبخ الأندلسي (٤١) ، الذي مثل تراثاً ظل حياً في المدن الغربية التي كان يقطنها بعض السكان الذين ينحدرون من أصل إسباني ،

وخاصة في تطوان Tetuan وفاس Fez (٤٢) ، وكذلك في تونس (٤٣) ، حيث مازال هذا التقليد يكسب قبولاً ومميزات سامية لم تتمكن الروشتة التركية من إلغائه تماماً ، لقد وصلت إلى أيدينا ، بالإضافة إلى ذلك ، مجموعة من الكتب المتنوعة الأندلسية عن المطبخ ، غير مطبوعة ، ولكنها سابقة على فترة الموحدين ، وتقدم ثلاث روشتات مختلفة عن تحضير الأطباق : الطريقة الأندلسية ، الطريقة المسيحية والطريقة اليهودية ، وكذلك ، فإن المدونات الفنية الزراعية بدورها ، حين تتحدث عن البقوليات والفواكه ، الجافة منها والطارئة ، تقدم بيانات هامة عن طريق إعدادها أو طريقة عمل ، على سبيل المثال ، الزيتون بالماء المالح ، ومربي الباذنجان أو الشام ، أو عصير التفاح أو اللوز ، ومن خلال تمنع كل هذه النصوص الأدبية (٤٤) يمكن التوصل إلى نتيجة مؤداها أن المطبخ الأندلسي كان متنوعاً ومعقداً في نفس الوقت ، وأنه كان في إسبانيا الإسلامية نظام حق للمائدة الطيبة ، فقد كانت الأطعمة جيدة الإعداد تشتمل على قائمة من الأطباق لم يكن يخضع اختيارها للصدفة المحضة "ليس من حسن النوق تقديم نوعين من الطعام ليس بينهما توافق" ، كانت هذه هي كلمات جرت العادة على أن ترد على لسان القاضي القرطبي ابن بياقة (٤٥) ، وفي تأسيس هذا القانون الخاص بالطهي ، فقد رأينا أن البغدادي زرياب في القرن التاسع قد أدلى بدلوه (٤٦) .

وفي بيوت العائلات البسيطة والمتوسطة كانت ربة البيت هي التي تقوم بطهي الأطعمة ، ولكن مثل هذه المهمة في كنف الأسر الأرستقراطية كانت توكل إلى طبابخ محترفات ، كن في الغالب من الإماء السوداوات ، وفي مناسبات استثنائية كان يتم التعاقد مع واحد أو مجموعة من الطباخين المحترفين في إعداد الولائم ، كان العمال يجدون في السوق ، من أجل غذاء يتناولونه ، حانات تطهى منها الأغذية على مرأى من الزبائن ، وهكذا ، فإن من أخذوا على عاتقهم إعداد المشويات والملقيات غالباً ما كانوا يبيعون يومياً عدداً كبيراً من رؤوس الخراف ، وكفتة اللحم ، ومعى محشو باللحم له طعم لاذع (٤٧) ، وسمك مقلّى ومشواة عليها قطع من اللحم ، الكبد وقلب الخراف بالزبدة ، بعض هذه الأشياء كانت تشوى في قرن الآجر (التنور) ، وبعضها الآخر على نار هادئة ، وبعض آخر يقلى في طاس كبير موضوع داخل أحد الأفران ،

كما كانت السوق تعج بأناس يصنعون عجائن الكعك المقلية فى الزيت (إسفنج Isfanch) ثم تغط فى عسل يغلى ، وعجائن الجبن الأبيض (المجبينات) ^(٤٨) ، وأقراص السمن (مسمنات) ، والكعك ، وآلاف الأنواع الأخرى من الحلوى ، وعلى الأخص تلك العجينة المحشوة باللوز والبندق والصنوبر وحبّات السمسم ، تضاف إليها أنواع عديدة من التوابل ، والتي كانت تشبه كثيراً حلوى "الترون" الحالية فى إسبانيا .

وفى الغالب الأعم ، فإن المطبخ كان يشغل فى البيوت مساحة بسيطة جداً ، تطل مباشرة على دهاليزها ، دون أن يكون له أى مصدر آخر للتهوية ، وما كان المطبخ يستعمل أكثر من الأفران الطينية ، المشابهة جداً لتلك التى تصنع إلى الآن فى الشمال الأفريقى ، والتي كانت تعمل بفحم خشبى ، وفى بعض الأحيان ، ولكن بصفة استثنائية - كان الفرن الخشبى يسمح بطهى بعض الأطباق المعقدة ، هذا إلى جانب عمل الخبز .

كان الشاغل الصباحى الأول للطاهية - سواء أكانت ربة البيت أو الخادمة - يكمن فى إعداد العجين لصناعة الخبز اللازم لاستهلاك الأسرة ، وكما يحدث الآن فى شمال أفريقيا ، فقد كان الخبز يصنع فى فرن عام ، حيث كان عامل الطاحونة ، الصبى الصغيره ، يدور على البيت فى ساعة محدودة لكى يجمع منها الألواح التى وضعت عليها قطع العجين ، والتي كانت معلمة بمطبوعات بواسطة أداة خشبية ، علامة مميزة ، ثم يعود إلى تلك البيوتات يحمل الخبز المصنوع ، فيما عدا عدد بسيط من الخبز يحتجزه الخباز نظير ما قام به من عمل ^(٤٩) ، كما كان من الممكن شراء الخبز الجاهز من على أبواب المخازن أو من الأسواق .

وإلى جانب الخبز كان هناك صنف آخر يكون القاعدة الأساسية للطعام ، صنف شائع يسمى الشورية الكثة ، من الدقيق والسميز أو النشويات الأخرى ، مخلوطة أم لا باللحم المفروم ، هكذا كانت الهريسة ^(٥٠) الطبق الشعبى الأكثر شهرة فى أندلسيا ، والذى كان يطهى بطرق متعددة ، عجينة من دقيق القمح (سخينة أو عصيدة) تطبخ مع خليط من خضراوات الفترة التى تطهى فيها (السبانخ أو الخس)

كانت هى الأخرى عماد أحد الأطباق الشائعة وكانت تعد طبقاً إجبارياً يقدم فى بعض الأحداث السرية أو الأعياد الفلكورية ، هذا بالإضافة إلى طبق من نفس العجينة مضافاً إليه حبات الفول أو الحمص ، وفقط فى المناسبات الرنانه - مثل الأعياد ، الأطعمة التى تقدم للمدعوين ، فى الأفراح العائلية - كانت قائمة الأطعمة تبدو أشد تعقيداً ، فى مثل هذه المناسبات ، كانت هناك أطباق تعد سلفاً ، هذا إلى جانب الأطقم المصحوبة بالمناشف الرقيقة (المناديل) ، والتى كانت تحتوى على الزبيب (٥١) وفواكه جافة نزعت عنها قشورها (أنقال) (٥٢) ، والتى كانت تقدم أيضاً فى لقاءات من يجتمعون لتناول الأشربة الروحية ، كانت الولائم تبدأ أول ما تبدأ بالمقبلات الباردة (بوارد) (٥٣) ، لحوم مملحة وأسماك محفوظة فى المورى ، وبعد ذلك يأتى دور أطباق الدجاج أو الخراف المطبوخة على النار الهادئة ثم لحم الطير أو الصيد وحلوائه (البيلاجة) ، الأطعمة البيضاء (إسفيدياج) ، التى كان يطلق عليها فى إسبانيا بصفة عامة اسم (طافايا) (٥٤) ، أصناف من الطعام الشرقى الذى يحتوى على اللحم ، أو الأسماك المخللة (أسكياج) ، أو عجينة مخلوطة بلحم الدجاج المفروم ، أو عجائن محشوة (حشو) بالمعى المفروم أو لحم فرخ الحمام مخلوط بعجينة اللوز أو السمير المحمرة والموضوعة فى العسل ، وحين تكون هناك رغبة فى تقديم مزيد من هذه الأصناف كهدية للضيوف كانت تقدم الكماء (طرفة) (٥٥) المشوية تحت الرماد أو ربع خروف صنع على هيئة اليخنة والمتبل بأنواع التوابل والكمون .

كانت الوجبة الرئيسية تعد فى المساء ، بعد غروب الشمس بقليل ، حين يعود رب البيت إليه ، وإذا ما قام رب البيت بدعوة شخص أو أكثر لتناول الطعام معه ، تقدم الوجبة فى الحجرة المعروفة بالمصرية المطلة على الشارع ، وكانت مهمة إحضار الأطباق وإعدادها على المائدة تقع على عاتق الخادمة ، وما زال الدخان ينبعث منها ، تلك المائدة الوطينة المغطاة بفرش من النسيج أو الجلد ، ما كان الحاضرون يستعملون شيئاً من السكاكين أو الشوك ، ولكن كان هناك نوع من الملاعق الخشبية لتناول الشورية والمعجنات المخلوطة باللحم المفروم ، تقدم فى طاس من الفخار ، وفى حالة غير هذه ، فى الظروف العادية ، لم يكن أفراد العائلة ياكلون مجتمعين ، وإنما كان رب البيت يتناول طعامه أولاً وقبل أى فرد ، من الطبق الذى يقدمونه إليه ، ثم بعد ذلك

يأتى دور الأبناء ثم الأم وبناتها ، لم يكن هناك مشروب سوى الماء ، الذى أضيف إليه عطر الأزهار والورود فى بعض الأحيان ، والشئ الذى كان يستهلك بقدر كبير هو الفاكهة الطازجة : التين ، الرمان ، العنب ، التفاح ، والشمام أو البطيخ .

فى أوقات معينة استثنائية يمكن أن تقدم ولائم^(٥٦) حقيقية لطبقة مجملة من السكان ، كانت قائمة تلك الأطعمة واحدة فى الغالب ، أرباع الخراف أو البقر المشوية وثريد الغلال ، أما الكسكسى ، الذى يرجع إلى أصول سودانية ، والذى أصبح بداية من القرن الرابع عشر أساس الغذاء الذى يتناوله المغاربة وظل طعاماً على موائد من عاصر المملكة النصرىة فى غرناطة^(٥٧) ، فيبدو أنه لم يكن معروفاً بالنسبة للذين شهوا عصر الخلافة أو الطوائف فى إسبانيا .

٣ - الملابس والعناية بالجسد والزينة

ملابس الطبقات الشعبية :

إلى الآن لم تظهر فى الأفق أية محاولة لإنجاز أى نوع من الدراسة المتعمقة ، حول الملابس التى كان يرتديها المسلمون فى الأندلس ، والتى تشمل هذا الجانب منذ الأيام الخوالى للإمارة القرطبية وحتى زمن المملكة النصرية فى غرناطة ، وللحقيقة فإن الشروع فى مثل هذا النوع من الدراسة ينقصه الوثائق الخاصة بعلم الأيقونات والصور الدينية التى تأتى متدرجة على مدى عصور عديدة ، فى الوقت الذى لا نملك فيه بين أيدينا سوى عدد زهيد من الصور ، مثل تلك الصور المحفورة على بعض الصناديق العاجية فى فترة الخلافة ، أو فيما يتعلق بتاريخ متأخر كثيراً ، تلك الصور التى رسمت على جدران وأسقف قصور الحمراء ، على العكس ، فإن المصطلحات الخاصة بالملابس التى كان يرتديها العربى الإشباني التى وصلت إلينا تأتى منسوخة نسيباً ، وتوجد ، إما متناثرة بين النصوص الأدبية أو الشعرية والمذونات القضائية ، وإما فى صورة أكثر راحة ، مجموعة فى معاجم مثل المعجم الغرناطى لبيرو دى ألكالا Pedro de Alcala ، إن المقارنة بين الألفاظ التى يمكن أن نستخرجها من تلك المعاجم ومثيلاتها اللاتينية أو القشتالية (الإسبانية) تسمح لنا بأن نفرط إلى حد ما فى تقدير كيفية تطور الملابس عن الأندلسيين فيما بين القرن التاسع والرابع عشر ، هناك كم هائل من هذه الألفاظ ، التى تشير إلى وحدات الملابس أو ما يتعلق بزينة الرأس أو الأحذية ، قد تم فحصه من قبل بوزى منذ أكثر من قرن (٥٨) فى واحد من أعماله الأولى ، الذى تقادم اليوم ، حيث لم يتمكن المؤلف من جمع الكلمات العديدة المنشورة فى المخطوطات التى لم تكن معروفة آنذاك أو مشاراً إليها فى حديث العرب ، الغربيين أو الشرقيين ، تلك اللغة التى حرص على دراستها علماء اللهجات (٥٩) .

من المهم جداً ، بالإضافة إلى هذا ، انتقاء هذه الألفاظ ، حيث يأتى الكثير منها ، فى صورة يصعب تحديدها ، وذلك لعدم وجود مضمون يمكن أن يفسرها ، على الرغم من أنه من البديهي أن عدداً هائلاً منها يشير إلى الزينة الترفيفية أو الاستثنائية ، والتى لم تكن مستخدمة يوماً ، وكذلك الزينة التى يستخدمها العامة من سكان المدن والريف ، وحتى نخفف من هذا التفاوت يمكن لنا أن نلجأ فى سعادة إلى بعض

المدونات القضائية المؤرخة والمحرة فى أواخر القرن التاسع أو بدايات القرن العاشر ، من قبل مدرسة الإفتاء فى قرطبة ، وعلى وجه الخصوص تلك الفتوى التى صدرت عن الفقيه ابن ألبابة (٦٠) ، والتى نتيبن منها الأثاث الذى كان يعد للعروس ومفروشات الأسرة بشىء من التدقيق ، والتى كانت تقدم إلى الرجال والنساء أو الأطفال الذين كانوا يتمتعون بكفالة غيرهم ، تلك الفتاوى ، والمجموعة كلها فى القرن الحادى عشر من قبل ابن سهل (٦١) ، تعد بالنسبة لهذا الخصوص على درجة من الأهمية ، حيث إنها لم تقدم فقط بأسماء منعزلة ، وإنما أيضاً مجموع القطع التى كانت تكون الملبس الشائع ، فى الصيف والشتاء على حد سواء .

فى الإسلام الذى عاش فى العصور الوسطى ، وبالأشهر فى الغرب ، كان الكثير من قطع الملابس - من نفس النسيج والشكل والاسم - تستخدم بصفة مشتركة بالنسبة للرجال والنساء ، فى إسبانيا ، كان الأشخاص من الجنسين يرتدون فوق جلودهم قميصاً من الكتان أو القطن ، بالإضافة إلى السراويل الطويلة والضيقة ، التى لم تتجاوز الركبة ويتم ربطها إلى الخصر بواسطة حبل أو حزام ، أما القميص ، الذى كان يطوق الجسد تماماً ، كان من الممكن استبداله بنوع من اللباس الواسع ، من القماش الأبيض ، الزهارة ، وفوق قطعة أو أخرى يرتدى الشخص صديرياً أو بلوزة من القماش الرقيق (خلالة أو ملحمة) ، وإلى جانب هذه الملابس الخفيفة كان الأشخاص يضيفون ، رجالاً ونساءً ، فى فترة الشتاء لباساً محشواً أو مبطناً (محشو أو محشة) ، لها شكل الجلباب ، أو سترة كبيرة من جلد النعاج أو الأرناب (الفرو) ، وبالنسبة للأطفال من الجنسين فقد كانت ملابسهم واحدة ، كانت الأقدام والسيقان تغطى بواسطة جوارب أنبوبية من الصوف تصل إلى حد الركبة ، وفوقها يتم ارتداء أحذية صنعت ، إما من الجلد الطبيعى (موق) أو أحذية خفيفة ذات بطانة من اللباد (الخف) ، وكانت هذه الأحذية تستبدل فى الصيف بأخرى ذات نعل خشبى (شنقة) أو أخرى تسمى (البرجة) ، والتى إذا كانت مزودة بنعل من الفلين بدلاً من الآخر المصنوع من الحلفاء ، يطلق عليها اسم " القرق " .

ومنذ الوهلة الأولى ، يصبح التميز واضحاً بين الرجل والمرأة فيما يتعلق بالأشياء التى توضع فوق الرأس ، فالأمر الشائع أن الرجال كانوا يسرون برعوسهم مكشوفة

وفى بعض الأحيان كانوا يدارونها بقبعة بسيطة من الكتان يطلق عليها « الكوفية » أو طاقية من اللباد (الشاشية) ، أما النساء ، فعلى العكس ، فقد كن يحملن فوق رؤوسهن شيئاً أكثر تعقيداً : أولاً : قطعة من القماش ، اللفافة ، تلف بها الرأس ، وعليها يأتى حجاب أوسع ، المكناة ، تتدلى أطرافه فوق الصدر ، أو الخمار ، نوع من المنديل المصنوع من النسيج الرقيق يربط فى خلفية الرقبة ويغطى الوجه من أسفل العينين ، وفى أحيان أخرى ، وبطريقة أقل تعقيداً ، فقد كانت المرأة تضع على جسدها قطعة فضفاضة من القماش (إزار أو ملحفة) تستخدم المرأة طرفيه ، حين يصبح جسدها ملفوفاً به ، فى تغطية الرأس أيضاً (٦٢) .

أما فى المناطق الريفية فقد كان الملابس أكثر بساطة ، ففوق القميص المصنوع من القطن (الدراعة) كان الناس يرتدون جبة من الصوف المغزول الغليظ ، أو جلباباً من الصوف مفتوحاً من الأمام ، إما جزئياً (الجلابية) أو كلياً (السلحامة) ، أما فى الشتاء فكان الأشخاص يضيفون إلى هذه الملابس نوعاً من الصديريات بلا أكمام ، يطلق عليها تشمير ، وبالنسبة للأحذية ، فقد كانت تصنع من الخشب ويطلق عليها « القبقاب » ، أو أحذية غليظة من جلد الغنم أو الأرنب (قرقاصة) ، أو الصنادل (نعال) ، وفى فترة الصيف ، حتى يتم تفادى مواجهة حر الشمس ، كان الأفراد يضعون على رؤوسهم قبعات من القش المفتول ، ذات أجنحة كبيرة .

ملابس الترف : Los vestidos de lujo

منذ بداية القرن التاسع ، قامت الحضارة البغدادية بطبع ملابس الطبقات الثرية من سكان الأندلس بطابع معين ، بنفس الطريقة التى طبعت بها الجوانب المتعددة من الحياة اليومية والمرفهة ، كان المحرك الرئيسى لهذه المظاهر الجديدة هو - كما رأينا - المغنى زرياب ، وذلك خلال فترة حكم الأمير عبد الرحمن الثانى ، وإنه لمن المفيد هنا أن نذكر إشارة ابن حيان التى يسوقها فى معرض الحديث عن التغيير فى الملابس الذى اقترحه زرياب ، والذى تلقاه أهالى قرطبة من الخاصة بترحاب وحماس (٦٣) : « فيما يتعلق بالملابس ، فقد كان تأثير زرياب ملحوظاً سواء فى طريقة التفصيل أو تحديد المهمة التى يرتدى فيها كل ملابس فى الوقت الذى يتناسب معه ، والتحديد المعين لهذا الوقت من العام ، وبهذا فقد تم تحديد بداية اللبس الأبيض فى البداية

والغاء كل ملابس ملون عند بداية « المهرجان » ، الذى كان يحتفل به سكان البلدة باسم « الأنصارة » (عيد انقلاب الشمس الصيفى) ، والذى يأتى موعده قبل نهاية شهر يونيو بستة أيام ، طبقاً للتاريخ الرومانى المستخدم فى إسبانيا ، كان الأهالى يواصلون ارتداءهم لهذه الملابس البيضاء حتى بداية شهر أكتوبر ، أى ، ثلاثة أشهر متواصلة ، أما بقية العام فقد كان الناس يرتدون ملابس ملونة ، وكذلك فى الأيام التى كانت تتوسط الصيف والشتاء ، والتى يطلقون عليها فى إسبانيا الربيع ، كانت الملابس تتراوح بين الملونة (موساج) جلابيب من الحرير الخام (الخز) ، ملابس من سدى الحرير (ملحم) أو من الصوف المخلوط بالحرير (مُحَرر) ، هذا بالإضافة إلى ما يسمى (بالدُرَاعَة) دونما بطانة ، والتى كانت تشبه فى نحافتها الجلابيب البيضاء « الظهارة » التى تلبس فى الصيف ، والتى كانت تستبدل بها حين يشتد الحر ، وإذا ما كانت التوصيات قد وردت بارتداء هذه الملابس الملونة فقد كان هذا ، أولاً ، بسبب أنها خفيفة ، وبالإضافة إلى ذلك ، لأنها بما لها من ألوان متعددة كانت تذكرنا بالمحشآت ، الملابس الذى يرتديه العامة وكانت مبطنة ومزينة بالجلد ، هكذا ، فى نفس الوقت الذى تم فيه تحاشى التباين الصارخ فى الملابس بين الطبقات المختلفة من السكان ، روعيت فى الاعتبار التغيرات الحساسة فى الحرارة والبرد والدفء ، والمطر أو الطقس الجيد ، وذلك حتى اللحظة التى تصبح فيها السماء صافية بلا خلاف وترتفع درجة الحرارة ، فتلزم الناس جميعاً ارتداء الملابس البيضاء .

كان اللون الأبيض - بالإضافة إلى كونه لون الأمويين ، وكما هو معروف (٦٤) - لون الحداد فى إسبانيا الإسلامية ، وربما بسبب تعميمه فى فترة الصيف ، فقد أصبح اللون الأسود هو اللون المميز الذى يرتديه من هم فى حالة حداد ، وذلك وفقاً لما ورد فى بعض الإشارات (٦٥) .

وخلال فترة حكم عبد الرحمن الثانى ، وعلى الأخص ، فى فترة حكم ابنه محمد الأول ، بدأت تظهر فى قرطبة ، على أيدى الرحالة أو التجار الإسبان أو العراقيين (٦٦) منتجات الطراز البغدady ، التى استلهمها بسرعة فائقة المتخصصون الأندلسيون ، بما أن البلاد كانت مفعمة بالحرير الممتاز ، فقد بدأ الديباج والأنسجة الغليظة من الخز تدخل فى وقت قريب مجال المنافسة مع مثيلاتها القادمة من الشرق ، ومنها كان

الحائكون يخطون الملابس الفاخرة ، التى - إلى جانب الجلابب الرقيقة المصنوعة من النسيج الشفاف - كانت تملأ صناديق الأسر الأرستقراطية ، حيث كانت الغلبة لها دائماً على الأخرى القادمة من الشرق .

وكذلك فقد أدت الموضة البغدادية إلى فرض أنواع جديدة من أغطية الرأس على أهالى قرطبة من الرجال والنساء من الخاصة ، قبة عالية عراقية من الحرير الخالص الخام تسمى « قلنسوة » ، قبعات مخروطية من القطيفة المطرزة أو المطعمة بالأحجار الكريمة أو طاقية من الدمقس أو الترتز ، وقد كانت هذه الأغطية التى توضع على الرأس محل نظر من قبل بلاط ليون ، فاتخذتها ، إلى جانب الملابس الترفيفية الأخرى : Adorras (الدُّرات) algupas (الجُبَات) almexias (المكسيات) (٦٧) .

ومنذ بداية القرن التاسع ، أصبحت العمامة هى السمة المميزة لرجال القانون فى إسبانيا (٦٨) ، وكان القضاة الذين يرفضون لبس هذه العمامة يقومون بعمل تشهيرى ضد قرطبة (٦٩) ، وبعد ذلك تم تعميم استخدام تلك العمامة حين وصول بربر إفريقيا ، الذين كانوا يرتدونها ، إلى جانب البرنس الواسع المصنوع من الصوف ، والذى كان يقصر استخدامه حتى تلك اللحظة فى إسبانيا على النساء من علىة المجتمع فقط ، فى الوقت الذى يخرجن فيه ممتطيات ظهور البغال ، وكثيراً ما يُتذكر التمرد الذى حرك فى العاصمة الأندلسية الأمر الذى أصدره عبد الرحمن سانشويلى بأن يقوم العظماء من رجال البلاط بالاستبدال الجبرى لما يرتدونه من قلنسوة شرقية بالعمائم ، وذلك إرضاءً للضباط من أهل البربر (٧٠) ، ولكن حين أتى عصر الطوائف أصبح استعمال العمام أمراً شائعاً فى جميع أرجاء إسبانيا ، وكذلك فقد قام المرابطون والموحدون بالعمل على إرجاع فرض موضة هذه العمامة ، والتى أصبحت فيما بعد - خلال حكم دولة بنى نصر - غطاء الرأس الوحيد المقبول فى أرجاء بلاط الحمراء ، ومع هذا ، فإن ابن سعيد ، حين يصف فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الملابس الأندلسية ، ينبه إلى أن العمامة لم تكن مستعملة حتى الآن فى « ليبنتى » Levante ، فى الوقت الذى كانت تستخدم فيه بين بقية أرجاء إسبانيا الإسلامية من نفس الحقبة (٧٠) ، وخاصة من قبل القضاة والفقهاء ، هذا وقد كان جانب كبير من السكان ، الخاصة والعامه ، يستخدم على حد سواء اللقافة الفضفاضة المصنوعة من النسيج المعروف

باسم الطيلسان ، والتي كانت توضع فوق الكتفين أو فوق الرأس ، أو الطاقية المصنوعة من الصوف (الخفارة) ، ذات اللون الأحمر أو الأخضر ، حيث كان استخدام الخفارة الصفراء يقتصر على اليهود فقط (٧٢) ، والذين منعوا من استخدام العمام ، ومن ناحية أخرى ، فقد كانت الملابس الأندلسية تأخذ طريقها للتقرب من الأشكال المستخدمة من قبل المسيحيين الذين يقطنون الشمال الإسباني ، وخاصة فيما يتعلق بالملابس الرسمية للضباط ، والذين كانوا يعرفون بمعاطفهم القرمزية ، كان المظهر الذي يبدو عليه الرجل الشرقي القادم إلى إسبانيا واضعاً العمامة على رأسه ، يضيف ابن سعيد ، يثير فضول الأندلسيين ، المتمسكين بموضة ملابسهم الخاصة ، وكانوا يفضلون ملابسهم بطريقة خاصة بهم (٧٣) .

النظافة الجسدية " الحمام " : " La higiene corporal. El " hamman" "

إن نظافة الجسد تعد في العالم الإسلامي واجباً دينياً ، والوضوء الذي يقوم به كل مسلم قبل كل صلاة من الصلوات الخمس المفروضة يومياً ، هذا بالإضافة إلى عادة غسل الأيدي ، أو حتى مضمضة الفم قبل وبعد كل طعام ، كانت تعد في الغرب ممارسات ترجع إلى أزمان غابرة ، والملابس وكسوة قطع الأثاث كانت تغسل باستمرار أو يذهب بها إلى المنظف ، وفي البيوت العادية كان الناس ينتظفون مستخدمي الإبريق والإناء ؛ ولكن البيوت التي يقطنها الأثرياء كانت لا تقدم وجود أحواض للاستحمام ، والتي كانت تحمل اسماً فارسياً هو بأبران (٧٤) ، أو كان الأفراد يستخدمون في نظافتهم الشخصية ناؤوساً قديماً من الرخام كان يطلق عليه ، كما هو الآن ، الحوض ، وهناك حالة وحيدة استثنائية وجدت في أحد البيوت البرجوازية ، ألا وهي أنه كان مزوداً بحمام من حمامات البخار ، وهو ترف كان حكراً على قصور وجهاء الطبقة الأرستقراطية ، أما المتوسطة وعامة الناس من الطبقات الدنيا فقد كانوا يرتادون الحمامات العامة (٧٥) .

كان الحمام ، أو « البانيو المغربي » الموروث عن الحمامات الرومانية القديمة ، منتشرًا في إسبانيا الإسلامية ، وما كانت هناك مدينة ، أيًا كانت أهميتها ، تخلو من كم هائل منها ، ففي قرطبة - وفقًا لما يذكره المؤرخون - كان هناك ما يقرب من ثلاثمائة ، أو حتى ستمائة حمام ، في أواخر القرن العاشر ، وكانت المهمة الموكلة إلى

تلك الحمامات هي نفسها التي تؤديها بقية الحمامات في الغرب الإسلامي ، وكانت تلك الحمامات ملكاً خاصاً لخزانة الأوقاف ، تؤجرها لأحد المستثمرين ، يعمل معه فريق من المدلكين (الحكاك) وصبية الحمام (الطيَّاب) يرتدون لباساً خفيفاً يسمى (المنزرد) هذا بالإضافة إلى أحد الأفراد الذين يكلفون بالعناية بثياب مرتادي الحمامات (المسلخ) ويبيع لهم الحجر الصابوني (الطفل) ، الذي ينظفون به شعورهم ، ويؤجر لهم المناشف ، ويرانس الحَمَّام ، وفي المساء ، حين يصبح الحمام وقد مُنِعَ ارتياده من قبل زبائنه من الرجال ، تأتي مجموعة من العائلات لتحل محل الرجال العاملين في الفترة الصباحية والمسائية ، وذلك حتى يقدم نفس الخدمات إلى السيدات من رواد الحمامات .

كانت الهيئة المعمارية التي يقوم عليها الحَمَّام واحدة في كل الأماكن ، فعبر دهلز الحمام يصبح بالإمكان الوصول إلى الصالة الأولى والتي يخلع فيها المستحمون ملابسهم ، يزينها عدد كبير من التماثيل القديمة ^(٧٦) ، ومزودة بسلسلة من الشماعات وعبر هذه الصالة يصل الأفراد إلى الصالة الفاترة ، ومن هذه إلى المدفأة ، والتي نجد في وسطها غلاية الحَمَّام ، يغلى ماؤها بواسطة فرن موضوع في الدور السفلى ، ويوقد بحزم من فروع الأشجار وقلوب النخيل ^(٧٧) ، كانت تلك المدفأة مبلطة بالرخام أو بالحجارة ، وبها قنوات شقت خصيصاً لإفراغ المياه ، وحول جدرانها كان هناك نوع من المصاطب ينبطح عليها الزبائن حتى يقوم الحكاكون بتدليكهم وتصبيبتهم أيضاً من قبل صبية الحَمَّام ، الذين كانوا يزودون الحوض بالأكواب اللازمة من الماء المغلى ، كان مصدر الإضاءة والتهوية ينحصر في سلسلة من الكواء في أعلى الحمام ، حول القبة التي عادة ما كانت تغطي المكان ، وأما الماء فقد كان إخراجُه من البئر يتم عبر ساقية نورة مزودة بمجموعة من القواديس ، وذلك لإخراج ما يلزم من المياه للحفاظ على المستوى المرغوب داخل الغلاية .

كانت المدة التي يقضيها الزبائن في الحَمَّام المغربي ، والتي كانت تطول لساعات عديدة ، سبباً من أسباب التسلية ، وخاصة بالنسبة للسيدات اللاتي ، كما يحدث في الصالونات ، كن يجتمعن مع صديقاتهن ، ويتناولن الطعام في وجبة «الميرندا» كذلك ،

ويحاولون إبهار الأخريات بجمال ورقة ملابسهن البيضاء ، كما كانت الماشطات - نفس السيدات اللاتي كن يُزَيَّن العرائس ليلة زفافهن - تقدم خدماتهن للنسوة اللاتي يقبلن على الحمام ؛ ينتفن شعورهن ، يضعن لهن الحناء ، ويرطبن أجسادهن بالدهانات ، ويدهن شعورهن بالزيوت المعطرة (وخاصة زيت الزباد - أكثر الزيوت تقديراً) ، وكن ييعن لهن كل نوع من الدهن اللازم للعناية بالجلد وغيرها من العبوات الصغيرة المملوءة بالمساحيق المعطرة للثياب .

الزواق والحلى : Afeites y adornos

كانت السيدة القرطبية الراقية تخصص - داخل بيتها - فى كل يوم ساعات عدة لنظافتها الشخصية وزينتها ، حيث إن الزوجة المدلة - أو الجارية المفضلة فى زمانها - كان لزاماً عليها أن تنتظر عودة رب البيت وهى فى أبهى حلة وزينة ، كانت تعد فى بيتها مجموعة من الفرش والأمشاط العاجية أو المصنوعة من العظم لتسهل به شعر رأسها ، هذا بالإضافة إلى مجموعة من الصناديق والعلب الرقيقة تحفظ فيها زينتها : الكحل من أجل الحواجب والرموش ، معجون تنف الشعر (النورة) ، كريات من الزجاج أو الكريستال للزيوت العطرة وخالصة عطر الزهور ، فى مدريد ما زالت هناك مكواة جميلة من المرمر ، يرجع تاريخها إلى فترة الخلافة ، بها تجاويف مستديرة أو مستطيلة ، والتى مما لا شك فيه أنها كانت تشكل جزءاً من متطلبات زينة سيدة أرستقراطية ، وكذلك فقد كانت الأيدى والأقدام هدفاً لمزيد من العناية ، فها هو بن حزم يذكر لنا أنه فى القرن العاشر كانت السيدات القرطبيات يعضغن نوعاً من « المستكة » من أجل تطيبب رائحة الفم ، ولإنعاش لون الشفاه واللثة ، كن يفركنها بقطع بسيطة من جذوع شجر الجوز (السواك) (٧٨) .

كان امتلاك الحلى الكثيرة والفخمة ميزة كبيرة عند نساء البيوتات الثرية ، وكان الخبراء من الجواهرتية (الصانغ) ، الذين كان معظمهم من اليهود ، يكلفون بعمل وتزيين الأطقم الذهبية الثقيلة ، وكذلك الفضة لزيائنهن من سيدات الطبقة الأرستقراطية ، فى البداية ، كانت الحلى تبدو كما لو كانت مرسومة فى إسبانيا

الإسلامية ، وذلك طبقاً للتقاليد القوطية ، من قبل فنانين مستعربين ؛ ولكن رويداً رويداً فرضت الموضة العراقية نفسها فيما بعد (٧٩) ، العقود من اللؤلؤ ، والأحجار الكريمة ، والخواتم والأقراط ، والأسورة (سوار ، دُمْلُج) ، والخلاخيل المعقودة على الكعاب ، والتيجان ، مشابك ، وصدریات و « بروشات » من المصوغات الذهبية المشبكة بالياقوت الأحمر والأزرق ، كل هذا كان يملأ الصناديق العاجية للسيدات الجميلات والأنيقات من أفراد الخاصة ، أما الجواهر التي كانت ترد من بغداد - لتتذكر العقد الشهير المعروف باسم الشفاء (٨٠) - فقد كانت تتمتع بالمكانة الرفيعة التي وهبتها لها البلاد التي تمثل مصدرها ومكونها ، وفي مناسبات معينة ، مثل احتفالات الأسرة ، أو الزيارات بمناسبة الأفراح أو الختان ، كان بإمكان السيدات من طبقة البرجوازية أن يستأجرن الحلى من سيدات متخصصات فى مثل هذا النوع من العارية ، وكان استئجار الحلى لمدة سبعة أيام - طبقاً لما ورد فى بعض العقود (٨١) - والذي كان يحتوى على وصف تام لكل شىء مستعار ، هذا بالإضافة إلى تحديد وزن كل قطعة .

وحتى يقوم أهل الأندلس من الرجال بحلاقة الشعر واللحية ، فقد كان هؤلاء الذين حافظوا لفترة طويلة على الموضة القديمة المتمثلة فى السوالف المتدلية على الأصداء ، من فوق الأذن - يذهبون إلى الحلاقين (الحجامين) ، الذين كانوا يقومون أيضاً بمهمة الفصد (فصاد) وكانوا يمرون بالبيوت ، أو كانوا يجلسون فى الهواء الطلق تحت مظلة أو فى دهاليز الحمامات ، وكذلك فقد كان تأثير المغنى زرياب واضحاً فى طريقة قص شعر الرأس وإعفاء اللحية ، إلا أن التعميم التدريجى لاستعمال العمامة قد جعل رجال الأندلس فيما بعد يصدرون إلى حلق الرأس عن آخرها ، كما هى العادة حتى اليوم فى المغرب .

الصحة العامة : La Salud Publica

فى المدن التي كانت تعاني ازدحاماً فى السكان مثل قرطبة وأشبيلية ، حيث كان معظم الأسر يعيش مكسداً ، وأحياناً فى حجرات قذرة شديدة الرطوبة ، دون هواء أو إضاءة ، كانت الأوبئة منتشرة ، وفى أسابيع قليلة كان بإمكانها أن تسحق العديد من

السكان الذين تناقصت مناعتهم الدفاعية بسبب نقص الوعي الصحى والغذاء ، وما كان المؤرخون يصمتون عن الإشارة إلى مثل هذه الضربات الموجهة فى حولياتهم ، والتى كانت تتميز بالتسمية الشائعة « الوياء » وهو ما ليس بالضرورة إطلاقه على الوياء الناجم عن البثور ، كان الدرن متفشياً فى المدن الأندلسية ، كما كان حتى وقت قريب فى مدينة فاس ، ولكن المرض الذى كان يبعث الخوف أكثر ؛ لأنه لم يكن من الممكن علاجه ، هو مرض الجذام ، وكانت كلمة « المريض » فى الشرق المسيحى تطلق على الشخص المصاب بالجذام ^(٨٢) ، والذى كان يودع مع أقرانه فى مكان لعلاج هذا المرض (رياض المرضى) يقع فى خارج المدينة ويشرف على الإنفاق عليها فى الغالب المؤسسات الخيرية ، مثلما كان يحدث فى القرنين التاسع والعاشر مع مصحة الجذام بقرطبة ، القرية من « منية أجاب » على الشاطئ الأيسر لنهر الوادى الكبير ^(٨٣) ، ومثلما كان يحدث فى بقية العالم الإسلامى ، كان الأفراد المصابون بالجنون . طاماً أن جنونهم لا يمثل خطراً ، يتركون أحراراً لا يقدر على إزعاجهم أحد .

كان الأطباء يكونون هيئة ثرية ، تتألف فى معظمها من اليهود ، وسوف نرى أن اليهود فى القرنين العاشر والحادى عشر - وعلى رأسهم حسداى بن شبروت ، هم أول من حمل ، داخل إسبانيا الإسلامية - مشعل العلوم الطبية عالياً ، وفى تلك الآونة ، كان الناس يفرقون بين الطبيب بكل ما تحمله الكلمة من معنى ، أى الشخص المشهود له بالعلم ، وبين نوع آخر من الموظف الصحى (المتطبب) ^(٨٤) ، والذى كان يعالج بوسائل تجريبية بحتة الآلام الشائعة ، كان يقوم بممارسة العلاج لأمراض الدم (الحجامه) ووسم الجروح ، أما الجراحة - التى كانت ما تزال بدائية - فقد كانت تمارس من قبل بعض المتخصصين ، دون الحديث عن مهنة الجابر والذى كان الناس يفدون إليه لجبر كسورهم وما يصيبهم من خلع .

كان الأطباء يصفون الدواء ويكتبونه للمرضى فى روشتات ، وكان بإمكانهم شراء تلك الأدوية ، المعدنية أو النباتية - المكتوبة فيها من محلات الصيدلانى ، التى كانت توجد بالميادين العامة ، وكان أصحاب الصيدليات يقومون ، بتكليف من الآخرين ، بإعداد المعجون الصيدلى ، واللحوق (المربى) ، والأشربة (شراب) ، والمراهم

والدهانات العديدة ، هناك قصيدة ساخرة لابن مسعود ، يذكرها لنا ابن بسام (٨٥) ، يبدو لنا من خلالها ما كان يضعه الصيدلانى من إعلان عن الأدوية الموجودة بصيدليته وعن مهارته الفائقة فى إجراء بعض العمليات الجراحية الشائعة .

لا نملك بين أيدينا أية إشارات لوجود مستشفيات عامة فى إسبانيا أثناء فترة الخلافة على أرضها ، والتي كانت تجرى فيها ، مثلما حدث فى نفس الفترة فى الشرق عمليات قبول للمرضى ومعالجتهم ، ولو أن مثل هذا النوع من المستشفيات قد وجد فى أشبيلية خلال فترتى الأمويين ، بنى عباد والمرابطين ، فمن المؤكد أن أمراً كهذا لن يفوت ابن عبدون الإشارة إليه والشهادة بوجوده ، ويحلول القرن الرابع عشر وفترة حكم بنى نصر (النصريين) بإمكاننا أن نعثر على إشارة تشيد - لأول مرة - بإنشاء مستشفى (ماريستان) فى غرناطة ، « تم تخصيصه لعلاج مرضى المسلمين المعوزين » (٨٦) .

٤ - حياة المتعة والأخلاقيات العامة

الاحتفال بالأعياد الدينية والفلكية :

فى كل عام كان الشاغل الأكبر - لكل الأسر - يكمن فى الاحتفال فى سرور تام وبالطريقة اللائقة بالعيدين الدينين الكبيرين فى الإسلام ، أى ، عيد الأضحى وعيد الفطر (٨٧) ، كان عيد الفطر ، الأول فى ترتيب التقويم الإسلامى ، يعنى ، بطلوع هلال شوال ، الفراغ من أداء فريضة الصوم السنوية المثلة فى شهر رمضان (٨٨) ، كان هذا الصوم مرعياً بدقة من قبل كل الأفراد البالغين فى الأسرة ، اللهم إلا بعض الإعفاءات التى نظمتها قواعد الدين بصورة محكمة ، وحين يأتى فى الصيف فإنه يعوق بطريقة ما السير الطبيعى للحياة اليومية ، حيث يخصص الصائمون ساعات الصباح ، وحين تشتد الحرارة للنوم ، ولكن على العكس - حين تغرب الشمس - وما كاد الناس يتناولون الوجبة الأولى ، حتى تدب الحياة فى الشوارع ، وتفتح المتاجر أبوابها حتى ساعات متأخرة من الليل ، ويأتى دور الباعة الجائلين لبيع الحلوى والمشروبات الطازجة حتى يكاد كل منهم يكفى حاجة زبائنه ، وفى ليلة السابع والعشرين من رمضان كانت تضاء المساجد جميعها ، حيث تمتلئ بالرواد الأتقياء ، وذلك كإشارة تعلن - بعد طول انتظار - عن قدوم العيد والعودة مرة أخرى إلى إيقاع الحياة الطبيعى .

أما عيد الأضحى ، الذى يحتفل به يوم العاشر من ذى الحجة - بعد التحلل من الصوم بما يزيد قليلاً عن تسعة أسابيع ، فقد كان بالنسبة للأسرة المسلمة دافعاً خاصةً للبهجة ، حيث لا يكف أحد ، من الأغنياء أو الفقراء ، عن الوفاء بواجب الأضحى فيذبح خروفاً على الأقل ، وهكذا فإن مثل هذا الواجب كان يمثل بالنسبة لأرباب الأسر الفقيرة والمحتاجة شاغلاً كبيراً ، ولكنهم كانوا يصرون ، قبل أيام من العيد ، على شراء الخروف العائلى وشراء الملابس الجديدة لزوجاتهم وأبنائهم ، وكان رجال البرجوازية الذين يملكون عدداً من المزارع يتلقون فى هذا اليوم من مزارعيهم ، أكثر من ضأن وعُلف جيداً ، هذا بالإضافة إلى بعض المؤن البسيطة مثل الدجاج ، والبيض والخضراوات والفواكه ، فى القرن الثانى عشر ، قام ابن قزمان القرطبى بعمل وصف مبهرج فى العديد من أزجاله (٨٩) ، متوجهاً إلى أحد حماة الأدب والفنون ،

للاهتمام الذى يوليه غالبية أباء تلك الفترة ، والهم الذى يصيبهم بسبب هذا الشراء السنوى للخروف ، ولكن فى نفس الوقت ، يتحدث عن البهجة التى كانت تعم بسببه فى كل بيت ، وذلك لأن مثل هذا العمل سوف يأتى بوليمة يتناوب عليها الأطفال والكبار من أفراد الأسرة على مدى عدة أيام .

وقدوم العيدين يعنى بالطبع أداء الصلاة الخاصة بهذه السنة فى جماعة ، بالمُصلّى ، الكائن خارج حدود المساكن ؛ وكان يؤم الناس فى هذه الصلاة إما القاضى أو صاحب الصلاة (٩٠) ، ولأداء هذه السنة كان الرجال جميعهم ، وربما النساء أيضاً ينتقلون بالجملة إلى المصلّى فى الهواء الطلق ، حيث ينغمس الجميع فى أعمال الشكر والتدفقات العائلية ، ثم العودة فى الحال إلى المدينة ، حيث قد وصل الاحتفال بالعيد قمته ، وسط نشاط غير معهود .

وبعد حلول القرن العاشر بكثير بدأ الاحتفال بعيد المولد النبوى ، فى إسبانيا الإسلامية والمغرب على حد سواء ، وذلك فى الثانى عشر من شهر ربيع الأول ، وعلى النقيض من هذا ، ويبدو أن ذلك كان يحدث فى كل الفترات الزمنية ، لم يكف الناس عن الاحتفال ، فى المدن والقرى على حد سواء ، بعيدين فلكيين ، عرفاً فى الغرب والشرق باسميهما التاليين : النيروز والمهرجان ، هذان العידان - اللذان ، يرتبط بهما كل من المسلمين والمستعربين بنفس الدرجة ، قد تغلبا على العيدين الدينيين للمسلمين وذلك لحلولهما فى صيف واحد ، حيث أتيا محددين من قبل التقويم القيصرى ، كما رأينا ، كان معمولاً به دائماً فى شبه الجزيرة الإيبيرية لتحديد الفترات المختلفة للعام المالى والزراعى .

وبالنسبة لتاريخ عيد النيروز ، والذى كان فى بدايته محدداً باليوم الأول من السنة الشمسية الفارسية ، فقد عانى ، حين اتخذه العالم الإسلامى عيداً ، العديد من التعديلات المتلاحقة ، ففى إسبانيا يبدو أن الاحتفال به كان يقع فى يوم الاعتدال الربيعى ، دون أن نخلط هذا بالاحتفال برأس العام الميلادى ، أى الأول من يناير من التقويم القيصرى ، والذى ما زال يحتفل به كل فلاحى الشمال الأفريقى ، ويبدو أن المؤلفين الأندلسيين قد نسوا أن يخبرونا عن التاريخ الحقيقى للاحتفال بعيد النيروز فى إسبانيا ، ولكن ، على العكس ، يخبرنا هؤلاء بأن ذلك العيد كان يعتبر أكثر الأعياد

مناسبة لحفلات الزواج ، وأن العادة جرت على تكليف البعض بصناعة عجائن تشكل في هيئته « مدينة » محاطة بسور ، وهو الأمر الذي يعيد إلى أذهاننا دائماً صورة « كحك الملوك » في مناسبة عيد الغطاس (٩١) .

أما فيما يتعلق بعيد المهرجان ، الذي كان الاحتفال به في الرابع والعشرين من شهر يونيو - كما أشار ابن حيان على وجه التحديد في الفقرة التي ذكرناها آنفاً إلى التغييرات التي أدخلها زرياب على الزى - كان يأتي متوافقاً مع « عيد القديس يوحنا » ، وفي القرن العاشر ساد ، من أجل تمييز هذا التاريخ ، اسم « أنصاره » ، وظل حياً إلى الآن ، على التسمية الفارسية القديمة ، كما كان هذا العيد فرصة أيضاً لكي تقوم كل أسرة بإعداد وتناول الولائم الخاصة ، وكذلك الشعائر الدينية ، حيث إن هذا لن يتكرر بعد ذلك طوال العام ، وكما نرى ، فإن الأعياد ، الدينية منها والفلكلورية ، كانت - على وجه الخصوص - بالنسبة للعامة من سكان المدن وسكان الريف على الأقل ، فرصة لتحسين الوضع الروتيني واستبدال الطعام القليل اليومي بأخر يزيد عنه كمّاً ونوعاً (٩٢) .

- احتفاليات الشوارع : El espectáculo de la calle

لم تكن شوارع الأندلس تُعد أيام الحركة والبهجة التي دعت إليها العوددة البورية لهذه الأعياد العديدة ، والتي كانت تلك الشوارع تقدم فيها ، داخل مدنها المختلفة ، إلى أولئك الذين يجدون أوقاتاً لا يشغلهم فيها شيء ، المناسبات العديدة للتسلية والتنزه دون ما هدف محدد ، وفي الشوارع الضيقة المجاورة لسوق الملابس ، وسوق الحرير ، حيث كان الباعة يترصدون الزبائن ، كانت ثلة من الناس تجتمع بعد الغداء لحضور المزاد المنعقد هناك ، والذي كان يعلن عنه من قبل السماسرة ، أما في الميادين ، فقد كان سكان المدينة والفلاحون القادمون إليها لقضاء حاجياتهم يقيمون حلقة حول « المبهرج » البهلوانات الذين ، في تخفيفهم في زى القرويين ، كانوا يقلدوهم في تعبيراتهم البلهاء ودهشتهم في أول لقاء لهم بالمدينة ، وفي مكان آخر ، كان هناك المشعرون ، الذين يحضر إليهم الناس على إثر قرعهم للطبول ، بالإضافة إلى البهلوانات والمُلهين يمارسون ألعابهم الأكروباتية ، وآخرون يعرضون خيال الظل الصيني ، والبعض الآخر الذي يقوم بقراءة الطالع (الحاسب) والحكاون (القاص)

الذين يروون جانباً من سيرة الرسول أو حكايات غريبة وعجيبة أو قصصاً بذينة (١٣) ، كان جمهور الفضوليين يتكون من أناس عديدين يختلط بهم السقاعون ، والنجارون الذين يحملون في أيديهم أطباقاً يتمايلون بها ينبعث منها دخان كثيف ، واللصوص والقوادات ، ودائماً ما كانت تقع المشاجرات ، ويتبادل الحاضرون اللكمات والشتائم ، أو كانت تُسمع صيحات أحد المشتريين حين ينتبه إلى أن حافظة نقوده قد سرقت منه ؛ ولكن حضور بعض رجال الشرطة كان كافياً لإعادة النظام وتفريق جموع الناس .

أما يوم الجمعة ، وهو يوم تخرج النساء فيه ، فقد كان يشهد حضوراً كبيراً للناس في طريق المقابر ، وذلك بمجرد الفراغ من أداء الصلاة في المسجد الجامع ، يشهد حضوراً من الجنسين ، الرجال والنساء ، كان التدفق من قبل رجال ونساء قرطبة يتوجه على وجه الخصوص صوب مقبرة الریض Arrabal ، عابراً المعبر الرومانى ناحية شقنذة ، وفي الطريق ، كانت مجموعة من المتأقين ، فى أبهى حلة وصورة ، تبحث عن المغامرات وتترصد النساء اللاتي يذهبن وحدهن ، فتواتيهن الجراءة على توجيهه الكلمات إليهن ومغازلتهم بكلمات تشبه - بلا شك - تلك التي يوجهها شباب اليوم إلى السيدات فى مدينة الأندلس (١٤) وحين تغرب الشمس يسرع الجميع فى العودة إلى بيته ، وإذا ما أقبل الليل ، ما كان يُسمع سوى وقع أقدام جنود الدورية فى الشوارع ، وبعض رواد الأماكن الليلية الذين يذهبون إلى بيوتهم فى وقت متأخر أو شرذمة من اللصوص التي تسير متأهبة لمهاجمة المارة ، وتجريدتهم من أمتعتهم وهم غافلون .

ولكن الاحتفاليات التي كانت تحظى بحضور عدد كبير من الناس بعيداً عن شوارع المدينة التي تبعث على الضجر والملل ، بالإضافة إلى تنفيذ الأحكام الكبرى (الإعدام) وعرض جثث الذين تم إعدامهم على منصات خشبية ، هى العروض العسكرية ، التي كانت تنظم فى مناسبات وظروف خاصة واستثنائية ، مثل وصول سفير ما أو خروج العاهل لحضور عرض عسكري أو تجهيز ضائقة ، وهى نشاطات كانت تجرى ، داخل قرطبة ، على مسرح مشترك ، ألا وهو الطريق المؤدى إلى مقر إقامة الخليفة فى مدينة الزهراء ، كانت تلك العروض تبهر الجموع الحاضرة ، وخاصة عروض الفرسان المبهرة التي يشترك فيها أفراد الحراسة ، وكتائب السود ، الخيل فى

حرائر ملونة من قبل الفرسان الشابين والملابس القيمة التي كان يرتديها الجنرالات والضباط الذين كانت تلمع فوق رؤوسهم الخوذات الذهبية أو الفضية كما لو كان يشع منها ألف شعاع معكوس^(٩٥) .

- الصيد والألعاب : La caza y los juegos

لقد رأينا كيف أن إسبانيا الإسلامية كانت سوقاً رائجة لاستهلاك قدر كبير من اللحوم الواردة من أنشطة الصيد المختلفة، سواء من الطيور أو غيرها ، فهناك الحجل ، والحمام المطوق ، وعلى وجه الخصوص الأرنب الجبلى ، ولكن بما أن هذه اللحوم لم تكن لتؤكل فى بداية الأمر إلا إذا كانت مذبوحة وفقاً للنصوص الشرعية ، فقد كان هناك من يمارس الصيد فى الخفاء فيصطادها فى شرك ثم يبيعها لتجار المدن .

كانت رحلات الصيد تعد نوعاً من التسلية المفضلة بالنسبة للعاهل الأندلسى ، ولحاشيته ولأفراد الطبقة الأرستقراطية ، وكثيراً ما تحدث المؤرخون عن غزو مجموعات تمتطى ظهور الجياد لرحبة قرطبة أو المساحات التى كانت تغمرها مياه الوادى الكبير ، والتى كانت تلك المجموعات تذهب إليها فى الشتاء ، بحثاً عن الإوز الوحشى ، والبط ، وعلى وجه الخصوص طيور الكركى ، والتى كانت تعد الغنيمة الأثمن منذ القرن التاسع وكان يتم اصطيادها باستخدام الصقور^(٩٦) ، إن تربية الصقور - التى تركت بصماتها فى علم أسماء المدن فى شبه الجزيرة^(٩٧) - كانت أمراً شائعاً جداً فى إسبانيا ، وكانت هناك أنواع كثيرة منها : فما كان يسمى منها " شد هانق " كان يمثل نوعاً خاصاً ، وفقاً لتقويم قرطبة^(٩٨) ، ظهر فى إقليم بالنسيا ، ونوع آخر ، كان الطلب عليه كثيراً أيضاً ، تربى فى منطقة لبله Niebla ، والذى تسمى باسمها ، فأصبح يعرف باسم " اللبلى " أو، النبلى " ،^(٩٩) ؛ وأخيراً ، فقد كانت أراضى لشبونة ، وفقاً لما يذكره أحمد الرازى^(١٠٠) ، تشتهر بصقورها ، التى كانت تحط فى سرعة لا نظير لها حين تنقض على فريستها .

وإلى جانب عمليات الصيد التى كانت تقوم على العنف ، بين المجتمع الأندلسى ، كانت هناك موضة للصيد بالكلاب ، لا تقل أهمية عن تلك ، ففى الأقاليم الوعرة ذات

الأشجار الكثيفة ، وخاصة على سفوح سلسلة الجبال السمرراء المعروفة باسم " سيرامورينا " ، كانت تقام التجمعات للاحتفال بعمليات القنص والصيد الأكبر ، والتي فيها نرى كما هائلاً من الخزائير البرية ، والظباء والأياثل ، بعد إثارتها من قبل أسراب الكلاب السريعة ، تأخذ طريقها ، يرقبها المراقبون ، إلى منطقة مكشوفة من الغابة ، حيث تذبح بالسكاكين^(١٠١) ، وفى بعض الأحيان كان العاهل القرطبى يتغيب عن محل إقامته لعدة أيام لخروجه فى رحلة من رحلات الصيد ؛ ولكن مثل هذا الخروج كان فى الغالب محط نقد كبير من قبل سكان العاصمة^(١٠٢) .

وفى فترتى الإمارة والخلافة على حد سواء ، ساد نوع آخر من أنواع التسلية المحببة والمفضلة بين عليّة القوم ، ألا وهو المتمثل فى لعبة الصولجان ، والتي كانت لعبة شائعة فى نفس الوقت فى الشرق العباسى^(١٠٣) ، من بين آخرين من خلفاء الدولة الإسبانية الأموية ، قام الحكم الأول بممارسة هذه اللعبة وتميز فيها ، وربما أنه فى تلك الفترة ، كما حدث بعد قرون لاحقة فى غرناطة ، كانت تنظم ، فى ميدان محاط بسور خشبى ، بعض مصارعات الحيوانات ، وخاصة تلك التى كانت تدور بين الثيران والكلاب ، وهى ما يمكن النظر إليها على أنها كانت تمثل فى فترة العصور الوسطى النواة الأساسية لمصارعات الثيران ، أما المصارعات التى كانت تجرى فى أماكن مغلقة ، فيبدو أنها ترجع إلى فترة لاحقة على القرن العاشر ، وهو الأمر الذى ينطبق أيضاً على سباق الخيول ، حيث إن فن الفروسية لم يتزايد فى إسبانيا إلا بعد أن قام الفرسان المغاربة ، وعلى وجه الخصوص الضباط الأفارقة ، والذين تم إحضارهم إلى إسبانيا حين زاعت شمس الأمويين ، بتعليم هذا الفن للجنود الإسبان ، وفقاً للطرق والتعاليم الواردة من الشمال الأفريقى .

أما لعبة الشطرنج ، التى أدخلت إلى الساحة القرطبية فى القرن التاسع على يد الموسيقى زرياب أو على يد مهاجر عراقى آخر ، قد حازت بداية من تلك الفترة النجاح الأكبر فى إسبانيا الإسلامية^(١٠٤) ، وتم اتخاذها كلعبة ، إلى جانب المصطلحات الخاصة بسير اللعبة والقطع الموضوعة على اللوحة ، من قبل بلاط ليون ، تحت نفس الاسم الشرقى ، بعد أن اعتراه شيء من التشويه فأصبح ينطق « أخيدريث » وسرعان ما أصبحت الأندلس تعج بالكثير من الخبراء فى هذه اللعبة ، والتى أطلق عليها الغزال « لعبة الشيطان » وذلك فى قصيدة موجهة إلى ابن أخيه ، الذى كان من الشغوفين

بهذه اللعبة (١٠٥) ، وفى القرن الحادى عشر ظل الشطرنج يواصل أهميته حتى أصبح موضة بين الناس ، حتى أن بعض الخلفاء ، مثل المعتمد بن عباد ، كان يملك لوحات خشبية قيمة وأخرى من العاج المطعم بالذهب (١٠٦) .

ولنصف هنا بضع كلمات عن ألعاب القمار ، والتي رغم أنها محرمة من قبل الإسلام إلا أن ذلك المنع والتحريم لم يصل إلى حد التطبيق الحرفى إلا فى حالات استثنائية ، فى الشرق والغرب على حد سواء (١٠٧) ، ولا يوجد بين أيدينا سوى معلومات زهيدة عن مثل هذه الألعاب ، وكل ما يمكن استنتاجه من جملة أطلقها المحتسب (ابن عبيدون) (١٠٨) وبعض الألفاظ المدونة فى المحفوظات هو أنه فى القرن الحادى عشر ، وقبل ذلك بلا شك ، كانت الأندلس بما فيها قرطبة تعج بالعديد من لاعبى النرد ونوع آخر يطلق عليه الداما (القرق) ، وهى ألعاب كانت تؤدى بممارستها إلى حالة من الإفلاس التام فى بعض الأحيان .

- حرية العادات : La libertad de costumbres

كان الرقباء المتشددون ، الذين لم تكن تخلو صفوف الفقهاء منهم فى مختلف المدن الأندلسية ، يحملون فى كل فترة على الحرية التى تنتاب عادات جزء كبير من أبناء وطنهم ، ونظراً لأن هؤلاء الرقباء لم يكن يلحقهم اللوم - ولم يكن ذلك فى كل الأحوال وفقاً لما نملكه بين أيدينا من دلائل - فليس أمامنا إلا أن نعطيهم الحق ، ويبدو - فعلاً - أن المجتمع الأندلسى ، فى القرن التاسع والقرون التالية ، لم يكن يحسد فى شيء ، فيما يتعلق بالعادات الداعرة ، المجتمع البغدادي فى نفس الفترة الزمنية ، وحتى نعى مثل هذا الأمر يكفي أن نقرأ بعض صفحات كتاب « طوق الحمامة » ، والتي يروى فيها ابن حزم بكل سرور طرائف أكثر من وعرة ، دون أن يرد على ذهنه ولو للحظة حذفها من روايته أو تقديمها على أنها أحداث استثنائية .

ومن الخطأ الجسيم أن نعتقد بأن حب المرأة كان يتحكم فى فترة العصور الوسطى فى الحياة العاطفية والجنسية للرجل الأندلسى ، أياً كانت الطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها والوسط الذى نشأ فيه ، ومما لا شك فيه أنه أحب النساء كثيراً ؛ ولكن هذا التوجه كان يكبح داخله فى حالة نادرة وجهة أخرى ، خلقية إلى حد ما ، ألا وهى الميل نحو الشذوذ .

وما إن عرضنا هذه الملاحظة ، يبدو من غير المفيد الإلحاح في هذا الجانب ، وحتى نثبت أن اللواط كان شائعاً بكثرة في إسبانيا الإسلامية بحيث أصبح في فترة معينة أسلوباً طبيعياً للعلاقات الجنسية ، فيكفي أن نذكر ، من بين أحداث أخرى عديدة ، حب الولد للخليفة الحكم الثاني (١٠٩) ، وهو بيت الشعر الساخر الذي أطلقه ضد القاضي بن السالم (١١٠) ، أو الطرفة الغربية - التي يشير إليها ابن حزم بكل تفاصيلها ، وكذلك الضبي كاتب التراجم والسير (١١١) - والتي تتلخص في توضيح كيف أن أحمد بن كليب ، الشاعر والنحوي القرطبي ، قد مات كمدأ في عام ١٠٣٥ (٤٢٦ هـ) بسبب أن واحداً من أبناء بلدته ، من عائلة أندلسية رفيعة ، لم يتجاوب معه في حبه وهواه ، وبعد ذلك ، نرى أن ديوان ابن قرمان يعج بالتلميحات إلى مثل هذا الحب غير المشروع ، والذين أصبح الطواشي من أول المصابين به والبالغين من الإسلافيين الذين طال بهم الأمد في أحضان القصور الملكية وبيوت الأشراف . وكذلك ، فما كانت مدينة مثل قرطبة وبقية المدن الأندلسية الكبرى تعدم وجود المختئين المحترفين (١١٢) ، الذين كانوا يقدمون أنفسهم لمن يدفع أكثر .

وفيما يبدو ، فإن الدعارة الأنثوية لم تتأثر بمثل هذه المنافسة ، حيث كان زبائنها في الغالب يتمثلون في الغوغاء من أهل المدينة ، وخاصة من الفلاحين الذين كانوا يفنون إلى المدينة لشراء حاجياتهم ، كانت العاهرات من النساء يفضلن الخان كمكان لممارسة نشاطهن ، ولكن يكلفن بدفع ضريبة معينة لبيت المال (١١٣) ، وهو الأمر الذي يفسر لنا ذلك الاسم الذي أطلق عليهن في اللغة الإسبانية نظراً لاشتقاقه من العربية ، ولكنه كانت توجد في بعض المدن ، مثل قرطبة على وجه الخصوص ، بيوت دعارة ، أطلق عليها بنفس الطريقة بيوت الخراج (دار الخراج) (١١٤) .

إن سهولة الحصول على الخمر وتناولها في المدن الأندلسية قد أدت إلى تزايد مخاطر حرية العادات (١١٥) ، ولا ننسى أنه في القرن التاسع كان يوجد في مكان يعرف بشقنذة Secunda (١١٦) سوق للخمر استأجره أحد المستعربين (١١٧) ؛ كانت هذه السوق ، التي أعيد فتحها بعد إغلاق لفترة طويلة ، وذلك بسبب العائد الكبير الذي كان يعود على الخزانة العامة من ورائه (١١٨) ، تمون العديد من الحانات ، التي تعمل بإذن رسمي وغيرها على حد سواء ، والتي كانت تمارس نشاطها وتقدم خدماتها

للشاربين فى مختلف أحياء العاصمة ، كانت تلك الأماكن المعدة للشراب (الحانة أو الماخور) ^(١١٩) تعج بالعديد من الزبائن إذا ما قامت على إدارتها بائعات ، جميلات ، غير ضنينات بالغرام والهوى ^(١٢٠) ، فى مثل تلك الحانات والمواخير تواجد الزبائن من المسلمين جنباً إلى جنب مع المستعربين ، فالعديد من الإشارات الأدبية يجعلنا ندرك أنه فى ضواحي المدن ، وخاصة حول الأديرة المسيحية ^(١٢١) ، كانت توجد بعض الأماكن التى تقدم وجبات خفيفة ، شبيهة جداً بالفنادق التى نراها على الطريق فى الوقت الراهن .

كانت صحبة المخنثين أو النساء الساقطات وقضاء الليالى فى الحانات بين مستيريا الثملين بفعل الخمر أموراً ، بداهة ، كثيرة الشيوع فى قرطبة مثلها فى ذلك مثل بغداد أو أى مدينة كبيرة أخرى من مدن الشرق فى نفس الفترة ، وما كانت تغنى ، هنا وهناك ، التهديدات والتوبيخات التى كان يطلقها الفقهاء من أجل إيقاف مثل هذه الإباحية ، كما لم تكن مفيدة فى هذا المجال أيضاً أعمال القمع الوحشية من قبل رجال الشرطة ، كان بعض الفجرة الضالعين يتهمون عن طريق إشهار قانونى بالخسة والدناءة (تجريح) ، وهو الأمر الذى كانوا يعيرونه قليل انتباه ، ولكنه كان يمثل عقوبة شائعة فى إسبانيا ، حيث هناك مدونات ما زالت تحفظ لنا مثل هذه الإجراءات ^(١٢٢) ، وآخرون - الأمر الذى يعد أكثر خطورة - كانوا يتعرضون للاتهام بجرائم الزندقة لكلمات خرجت من أفواههم ضد تعاليم الدين فى لحظة لعبت فيها بنت الراح بعقولهم ^(١٢٣) ، رغم أنها كانت تمثل ، أكثر من كونها تعبيراً ، التنديد العام بحياة فاضحة مكشوفة أمام أعين الجميع ، أما فى الخفاء ، على النقيض من ذلك ، وبرصانة نسبية تعمل على الحفاظ على المظاهر ، فقد كان مسموحاً بخرق قواعد السلوك القويم بصورة أكثر مما هو مسموح به لعامة الشعب ، من قبل الطبقة الأرستقراطية ، وفى قصورهم وأبعادياتهم الواقعة فى أجوار المدن ، كان عليه القوم يقومون دون ما عقاب فى كل الأحوال ودون معرفة بأدنى حدود التوقف - بتكريس أوقات طويلة للشراب ، وإطفاء الظمأ الذى يحسونه تجاه المتع واللذات وإطلاق العنان ، كوسيلة لإطفاء هذا الظمأ ، لزيغ الشهوانية ^(١٢٤) .

الموسيقى والرقص : La musica y la danza

كان الغناء والموسيقى والرقص يمثلون ، فى القرن التاسع ، فى إسبانيا وبقية العالم الإسلامى ، أنواع المتع والتسلية الدنيوية الأكثر اعتباراً وتقديراً ، وما من حفلة راقصة أو مناسبة للمتعة ، إذا ما صدقنا الروايات التى أوردها الشعراء والأدباء ، إلا وظهر فى المقام الأول الاهتمام بالموسيقى والرقص ، أو بالأحرى الغناء ، حيث ما كانت الموسيقى والرقص بين جنبات الشرق أو الغرب الإسلامى ، إلا لازماً من لوازم مثل تلك المناسبات (١٢٥) .

ولقد ترك لنا المؤلفون الأندلسيون ، وخاصة ابن بسام - بالنسبة لفترتى الخلافة وملوك الطوائف - أوصافاً صاخبة وصادقة لبعض الحفلات الليلية ، التى كان يقدمها هذا أو ذاك من أفراد الخاصة بمدينة قرطبة ومدينة أشبيلية أو غيرهما من المدن ؛ وفى تلك الحفلات ، كان المدعوون ، بمجرد أن يتناولوا طعامهم وشرابهم الوفير الذى يلعب بعقولهم ، يشهدون عرضاً غنائياً راقصاً كهديّة إليهم وذلك على إيقاع نغمات تعزفيها فرقة مكونة من العازفين والعازفات ، وأكثر هذه الأوصاف استحضاراً على ما يبدو هو ذلك الذى يذكره أحد المؤلفين الشرقيين (١٢٦) وفقاً لما يرويه أحد الأدباء الذى تواجد فى ملقة عام ١٠١٦ (٤٠٧ هـ) ، أى ، فى فترة حكم على بن حمود التى سرعان ما زالت وتوارت ، فى هذه الحكاية يروى لنا كيف أن هذا الأديب ، الذى تواجد مريضاً أو ساهراً فى سريره ، بعد تأذيه من الصخب الصادر من حفلة ليلية فى أحد البيوت المجاورة ، اختلط فيها الغناء بالأصوات غير المتناغمة الصادرة عن المزاهر والطبول ، وقد وقع فى غيبوبة لسماعه تلك الموسيقى الطائشة والتى كانت تعزف بمخفات ، وأصبحت تدق مسامعه ، نهض من فراشه ، ومن خلال سطح يطل جيداً على البيت الذى يشهد هذه الحفلة الصاخبة ، تمكن من مشاهدة العرض ، الذى يصفه لنا هكذا : « كانت هناك ، فى وسط مبنى هائل ، حديقة كبيرة ، تجمع فى وسطها عشرون شخصاً من المدعوين ، وأمامهم كؤوس الخمر والفواكه ذلت لهم تذليلاً ، مجموعة كبيرة من عازفات المزاهر والطبول وأنوات موسيقية أخرى أمامهن قائمة لا يعزف عليها أحد ، وفى الجانب الآخر ، كانت إحدى الفتيات تجلس ، حاملة المزهر

فوق ركبتها ، كان الحاضرون جميعاً يحدقونها بنظراتهم ، وأما هي ، فبينما كانت تعزف ، أخذت تغنى الشعر ، بيتاً تلو الآخر .

ومما لا شك فيه أنه كان على المرء أن يصبح أميراً أو عظيماً من عظماء القوم حتى يصبح بمقدوره أن يتباهى بمثل هذا العرض الفاخر وتلك الحفلات المبهرة ، والتي كانت فى بهائها تنم عن أصول بغدادية تفوق كونها مجرد عادات أندلسية خالصة . ومن البديهي أن مثل هذه العروض كانت تقدم تنوعاً كبيراً ، قبل أن تصل إلى هذه الدرجة ، قليلاً أو كثيراً ، من الانحطاط الذى أوصلها إلى حد تحولت معه إلى سهرات ماجنة ، كيف لنا أن نتخيل ، ولا حتى فى أكثر صور الخيال جموحاً ، جموع الرقص التى حدثنا عنها ابن خلدون ^(١٢٧) : تلك الراقصات فى زى الرجال ، الممتطيات ظهور الخيل الصغيرة المصنوعة من الخشب (كراج) المعلقة من ظهورها ، فيظهرن ، وفقاً لخطة مسرحية أعدت سلفاً ، كما لو كن فرقة نزال حقيقية ومتفردة ؟

ويبدو أنه - على عكس ذلك - لم يكن منكرراً فى الأوساط الرفيعة ، وكذلك البلاط الملكى نفسه - فالأمير محمد الأول ، من بين آخرين ، كان هاوياً لدرجة كبيرة ^(١٢٨) - الحضور إلى حفلات الموسيقى والرقص بقليل من التطلعات والتي كانت تستبدل فيها الآلات الموسيقية المعقدة المستخدمة من قبل الفرق العراقية بمزاهر بسيطة ذات إيقاع صاخب ، وكذلك البوق فى صحبة الدف وبعض الصناجات البسيطة .

وقد أطلق على مثل هذه الحفلات الموسيقية ، كما هو اليوم ، اسم « زمرة » كانت تكلف مالأً قليلاً ، حتى عند الاستعانة ، إلى جانب العازفين ، بإحدى الراقصات ، خفيفات الحركة والدوران ، واللاتى كن ينتسبن إلى أصول قاديونية ^(١٢٩) ، ذكرها جوينال Juvenal ومارشال Marcial ، وظللن حريصات على هذه الهواية على مدى قرون لاحقة باعتبارها ميراً جميلاً فى كل أرجاء الأندلس ، شهد هذا النوع من الحفلات والمناسبات فى طابعها الأيبيرى الأصيل الغناء والرقص ، ولهذا فقط استدعتها قريحة بن قزمان ، فى القرن الثانى عشر ، فى أزجاله ، بصورة تفوق تلك الأخرى من الحفلات الموسيقية ذات التراث الزيبابى ، وعلى إيقاع المزمار والدف أخذت تتهاذى مواكب الزفاف عبر شوارع قرطبة ^(١٣٠) ، وعلى نفس الإيقاع كان المشعرون والمغنون الجائلون زبائنهم ، ويمقدورنا أن ندرك بأن هذه الموسيقى الحكيمة

(الراقية) ، ذات النمط العراقي ، والتي يطلق عليها فى هذه الآونة « الموسيقى الأندلسية » فى فاس وتونس ، فى الوقت الذى هاجرت فيه إلى مثل هاتين المدينتين مع آخر زمرة من الموريسكيين ، قد كانت مصاحبة لأخرى أطلق عليها « الموسيقى الشعبية » والتي تعد بمثابة تعبير حقيقى وعبرى من نتاج العقلية والعبرية الأندلسية ، بما لها من أقفال بسيطة الإيقاع وتصحبها الرقصات المحتشمة والعفوية التى تشكل إيقاعاتها ونغماتها ، وهى لا تختلف كثيراً عن تلك التى تصحب برفقة الجيتار التطورات الإيقاعية المتوافقة للراقصات الاشبيليات أو الغرناطيات أو تستهل الأغانى الشعبية الأجشة للغناء المعروف باسم « الفلامنكو » .

* * *

هوامش الفصل السابع

(١) تأتي الدراسة الوحيدة التي وردت بشيء من التفصيل عن الحياة الخاصة للمسلمين الإسبان ، تحت الخلافة والعصر الذي تلاها ، والتي حاول الكتاب إنجازها حتى الآن ، هي دراسة قام بها هـ. بيرس H. Peres في الجزء الثالث من الأدب الشعري المعنون : Poesie andaluse (ص ٢٩٢-٢٩٣) وهي دراسة تقوم - خاصة ، على أساس من معلومات في الأدب الشعري ، ورغم أنها من أجل ذلك لاتعكس سوى صورة جزئية ومشوهة في كثير منها عن الحقيقة الواقعة ، لا يمكن الحط من شأنها ، وهناك دراسة أخرى تتعلق بإسبانيا المسيحية في نفس تلك الفترة وهي :

Estampas de la vida en Leon durante el Siglo X de C. Sanchez-Albornoz.

(٢) على الرغم من طابعها الروائي ، وكون قوائم المحققين الثالث والرابع (صفحات ١٨٦ - ٢١١) تنتمي خاصة في صورة قيمة لدراسة مقارنة عن العقار (البيوتات) والملابس ، وكذلك فيمكن الاطلاع على :

- R. Le Tormeau, Fes avant le protectorat, pp. 481 - 568.

- A. Mazaheri, La vie quotidienne des Musulmans au Moyen Age, X au XIII, Siecle, Pavis, 1951.

- حول الأسرة في إسبانيا المسيحية في العصر الوسيط ، يمكن الاطلاع ، خاصة ، على :

- L. G. De Valdeavellano, Hist, de Esp., I, pp. 684-686.

(٢) انظر :

- Levi - Provençal, en relisant le "Collier de la Colombe", apud. Al-Andalus, XV, 1950, p. 344.

(٤) مجموعات القيسى ، ص ٩٧ ، والجزيري ، ص ٥٧

(٥) كانت توجد في قصور الخلافة ، كما يذكر ابن حيان ، في المقتبس ، الجزء الأول ص ١٩٤ ، سيدة تدبر الحركة والأعمال النسائية ، تسمى قهرمانه ، ياتمر بأمرها الطاهيات والخاديات .

(٦) انظر العمل المذكور : صفحات ٢٦٧ - ٢٦٨

(٧) كان المؤلفون الإسبان المسلمون يظهرون رصانة فائقة عند الحديث عن الخرافات العديدة بلا شك ، التي كانت شائعة في أرض الأندلس ، كما هي شائعة اليوم في الأراضى المغربية ، وخاصة بين النساء ، ومن المؤكد أن ممارسات السحر والشعوذة كانت تتمتع بانتشار كبير مثل قراءة الطالع ، وبالإضافة إلى المهتمين بقراءة الأبراج الفلكية ، كان هناك عدد من أولئك الذين يفسرون الأحلام (المعبرون) انظر من أجل هذا : ابن الفرضى ، التاريخ رقم ٤٥٥ ، حيث يورد سيرة أحد المتخصصين في هذا الفن ، والمتوفى عام ٩٩٨ (٣٨٨) ، وكذلك : ابن باشكوال ، الصلة ، رقم ٢١٨ - ولا بد من الاطلاع أيضاً على :

- Peres, Poesie andaluse, pp. 307 - 309.

(٨) انظر :

- Peres, Poesie andaluse, pp. 398 - 400.

(٩) يمكن الاطلاع على بعض الملاحظات القيمة في هذا الصدد مثل التي وردت في :

- C. Sanchez - Albornoz, La manjar espanola hace mil anos, en espana yel islam, Buenos Aires, 1943, pp. 83-141.

(١٠) انظر :

- E. ewtermarckp Les cevenonies du mariage au Maroc, Irad. J. Arin, Paris, 1921; R. Le Tourneau, Fes avant le protectorat, pp. 504-533.

(١١) الضبى ، بغية الملتمس ، ص ١٩٠ ، وكذلك :

- Levi - Provençal, En relisant le "Collier de la Colombe", Apud Al-andalus, XV, 1950, p. 364.

(١٢) وفقاً لما يذكره ابن سهيل ، أحكام كبرى ، ص ١١٥ ، من المخطوط الموجود بالرباط ، هناك طببية تلقت مبلغ أربعة دنانير نظير كشفها الطبى على فتاتين .

(١٣) مجموعة الجزيرى ص ٥٩٠ ، ٦٠ .

(١٤) نفس العمل المذكور ، المجلد الرابع ص ١١٨ ، إشارة رقم ١٠٧ ، لقد رأينا أنه في فترة الإمارة ، كان الأمراء الأمويون يعرفون في أوروبا المسيحية بكنيتهم أكثر من أسمائهم ، وقد استمر الحال هكذا حتى القرن الخامس عشر ؛ وهكذا وصل اسم آخر ملوك بني نصر في غرناطة إلى الأجيال التالية معروفاً بالكنية «أبو عبدالله» أكثر من اسمه «محمد» .

(١٥) خصص ابن قزمان واحداً من أفضل أزجاله لامرأة تدعى أم الحكم (رقم ٦٢) ، كما أن هناك امرأة تدعى نجيمة كانت بطة أغنيته المشهورة والتي تنتهى فيها كل المجموعات باسم مصغر يأتى متسقاً في القافية مع هذا الاسم (رقم ١٠) .

(١٦) في قائمة بنات الأمير عبد الرحمن الثاني ، التي يطرحها ابن حيان ، في المقتبس الجزء الأول ص ١٩٥ ، نجد العديد من الأسماء النسائية العربية تحمل نهاية التصغير أو التكبير ، على سبيل المثال ، فطيمة - تصغير فاطمة) أو عيشونة (تكبير عائشة) .

(١٧) ابن سهل ، الأحكام الكبرى ، صفحات ٧٨ - ٩٩ - ١٥٤ من مخطوط الرباط .

(١٨) العمل المذكور ، المجلد الرابع ص ٢٧٧ .

(١٩) انظر :

- Levi - Provençal, Islam d'Occident, I, p. 119. Peves, Poesie andaluse, p. 294.

(٢٠) ابن باشكوال ، الصلة ، رقم ٣٠٠ (ترجمة فيلا ، ص ٤٧٠ وإشارة رقم ٢) ، يقدم لنا النص الذى كان يقال بصوت مرتفع لحظة الدفن «فقط ستكون الشفاعة العظمى لمن أحب السنة والجماعة الإسلامية» ، انظر ، اشارة مرجعية رقم ٨٤٦ ، وهو يتكلم عن قرطبي توفى عام ١٠١٠ (٤٠١) ، حيث توجد معلومات غريبة

وملفتة للنظر ، تنسب إلى ابن حيان ، وذلك عن الطقوس الجنائزية ، والتي تكن في استعمال عراقية بيضاء من القطن ، بالإضافة إلى الكفن ، هذا بالإضافة إلى عادة تبخير الجثمان باستخدام المجر .

(٢١) حول هذا الموضوع يمكن الاطلاع على :

- Levi-Provencal, Ins Orlptions arabes d'Espagne pp. XXI-XXII.

(٢٢) نفس العمل : صفحات ٢٢ - ٢٥

(٢٣) على سبيل المثال مدفن السيدة مرجان ، في مدافن الأرابال ، التي أشار إليها النبأى ، في مرقبة ، ص ٧٩ ، متحدثا عن القاضي زرب (ابن زرب) (ص ٧٨ ، رقم مرجعي ٧٤) .

(٢٤) قام خ ، ريبيرا Ribera ، بتخصيص دراسة عن التعليم في إسبانيا الإسلامية ومراحله المتعددة وذلك بعنوان :

- La enseñanza entre los musulmanes españoles y reimpressa en las disertaciones y opusculos, I, pp. 229-359.

(٢٥) مجموعات القيسى ، ص ١٠٠ ، ١٠١ ، والجزيري ص ٥٩ ، واستخدمها المؤلف Ribera ، العمل المنكور ص ٣٥٤) .

(٢٦) انظر على سبيل المثال : ابن الفرضي ، تاريخ رقم ١٠٤٢ : ابن الأبار ، التكملة رقم ٣١٢

(٢٧) انظر :

- Sevilla a comienzos del siglo XII. pp. 47-51.

(٢٨) انظر مؤخراً :

- Peres, Poesie andaluse, pp. 24-25.

(٢٩) انظر :

- Prolegomenes, Irad, De Slanf, III, pp. 288-289.

(٣٠) هذه الرسالة التي تستحق النشر والترجمة بكاملها ، تأتي مفعمة بوجهات النظر ذات الأهمية الكبرى ، على الرغم من أنها شخصية للغاية ، وذلك عن صورة العلوم التي سادت إسبانيا في القرن التاسع وعن الأعمال الكلاسيكية التي كانت أساساً للتعليم ، ولاندرى عنها أكثر من نص واحد ، في مخطوط موجود بمكتبة شاهد على باشا باسطنبول قام بتحليله أسين بالاثيوس :

(Un Codice inexplorade del : Cardobes lbnm Hazm, en Al-Andalus, II, 1934.

وأما تحليل مراتب العلوم فيأتى في الصفحات ٤٦ - ٥٦) .

(٣١) في صورة ثانية من التعاقد ، القيسى ، ص ١٠٢ ، يذكر بأن أستاذ المدرسة يصبح لزاماً عليه أن يعلم الطالب القواعد ، والفنون الجميلة والأدب والشعر ، (فيما عدا شعر الخمرية والهجاء) .

(٣٢) انظر على وجه الخصوص :

- J. Gallotti. Le jardin et la maison arabe au Maroc, 2 Vols., Paris, 1925 p R. Le Tourneau, Fes avant le protectorat, pp. 445-499.

ومعه تخطيط هيكلى للدور السفلى بأحد البيوت البرجوازية متوسطة المستوى ، والذي من الممكن أن ينطبق بسهولة على أندلسياً فى العصور الوسطى .

(٢٣) انظر ، على سبيل المثال ، الضبى ، بغية الملتمس ، رقم ١٢٥٤ ، وهو يتحدث عن بعض الأسباب المرتجلة من قبل الشاعر ابن القيسرى .

(٢٤) جاء نص ابن لويون مترجماً إلى الفرنسية فى :

(Esp. Mus., X-sicle) pp. 174-175.

وذلك وفقاً للنص العربى المنشور فى :

- La Crestomatia arabigo - espanola de Ierchundi y simonet, Granada, 1881, pp. 136-137.

كما تمت ترجمة هذا النص عدة مرات إلى الإسبانية ، يمكن الاطلاع ، خاصة ، على :

- E. Garcia Gomez, Silla del Moro, Madrid, 1948, p. 112.

(٢٥) جاء هذا اللفظ خاصاً بالأندلسيين ، وذلك إذا ما صدقنا التعريف الذى يورده المقرئ، نفع الطيب ، الجزء الثانى ، ص ٨٨ ، انظر أيضاً :

- Levi - Provençal, Fragments hist, sur les Berberes, p. 11k Peres, Poesie andalouse, p. 315, nota I.

(٢٦) ابن سهل ص ٦٨ - ٧١ من مخطوط الرباط .

(٢٧) هكذا يقال فى مجموعة الجزيرى ص ٢٤

(٢٨) يمكن الاطلاع على :

- Simonet, Glosario de roces lber-y lat., p. 589.

(٢٩) الصلة ، رقم ٦٩

(٤٠) على وجه الخصوص ، بعض القصائد لابن مسعود ، جمعها أيضاً ابن بسام فى الزخيرة ، ٢٠١ ،

ص ٧٤ - ٧٨

(٤١) انظر أيضاً :

- Peres, Poesie andaluse, pp. 315-316.

(٤٢) انظر :

- Le Tourneau, Fes avant le protectorat, pp. 562-563.

(٤٣) انظر :

- Brunschvig, Berbevie orientale, II, p. 272, nota 7.

(٤٤) انظر :

- M. Rodinson, Recherches sur les documents arabes relatifs a la cuisine, Paris, 1950.

(٤٥) النباهي ، المرتبة العليا ص ٧٩

(٤٦) انظر نفس المرجع ، المجلد الرابع ص ١٧٣ (وفقاً لابن حيان ، المقتبس ، المجلد الأول ص ١٥١) .

(٤٧) حول المرقص يمكن الاطلاع على :

- Saqati, Manuel hisp, de hisba, glosario, pp. 33-34i Sevilla a los comienzos del siglo XII, p. 124.

(٤٨) حول الإسفنج والمجبنات يمكن الاطلاع على :

- Esp. Mus. X siecle, p. 189 y nota I.; Sevilla a comienzos deo siglo XII, p. 125.

(٤٩) انظر نفس العمل ، ص ١٨٠

(٥٠) حول الهريسة يمكن الاطلاع على :

- Sevilla a comenzos de siglo XII, p 117.

(٥١) انتقل هذا اللفظ زبيب ، إلى اللغة البرتغالية ومازال موجوداً بها ، ويتم إطلاقه على المشبهات عامة.

(٥٢) انظر ، على سبيل المثال ، ابن بسام ، الزخيرة ١ ، ٢ ص ١٧٧

(٥٣) يمكن الاطلاع على :

- Conard, op. Cit. p. 101, nota 6.

(٥٤) حول هذا الطعام الأندلسي ، الذي تنسب طريقة طهيهِ أيضاً إلى زرياب ، انظر (ابن حيان ،

المقتبس) .

(٥٥) العمل المذكور ، المجلد الرابع ص ٤٨٥ انظر أيضاً :

- Sevilla a comienzos del siglo XII, p. 114.

(٥٦) وفقاً لما ورد في (Vocabulista, p. 318) فإن مصدراً وليمه كان معمولاً به في إسبانيا

الإسلامية ويطلق على «الأكلات التي تقدم في الأفراح» .

(٥٧) انظر المقرئ ، فتح الطيب ، الجزء الثاني ص ٢٠٢ - ٢٠٥ . وكذلك :

- Brunschvig, Berberie orientale, II,, p. 271.

(٥٨) انظر .

- Dictionnare detaille des noms de vetements chez les Arabes, Amsterdam, 1945.

(٥٩) إن أفضل الأعمال حول الملابس الحديث في الشمال الأفريقي هو الذي قام به :

- G. Marcais, Le costume musulman d'Alger, Paris, 1930.

- Brunschvig, Berberie orientale, II, pp. 276-381.

(٦٠) حول هذا الفقيه القرطبي يمكن الاطلاع على العمل المذكور ، المجلد الرابع ص ١٥٢ - رقم مرجعي ٤٧

(٦١) أحكام كبرى ص ٦٨ - ٧١ من مخطوط الرباط .

(٦٢) يبدو أن عملية حجاب الوجه لم تكن معمولاً بها في الواقع العملي ، ولهذا لم يكن واجباً على المرأة الالتزام به في مدن الأندلس ، فحين التقى الرمادي مع جالوا ، أتت إليه هذه مكشوفة الوجه .

(٦٣) المقتبس ، الجزء الأول ، ص ١٥١ ، وأيضاً المقرئ ، النفع ، الجزء الثاني ص ٨٨

(٦٤) انظر نفس العمل - الجزء الرابع ، ص ٢٥١ ، مرجع رقم ١٥٤

(٦٥) يمكن الاطلاع على :

- Peres, Poesie andaluse, pp. 300-303.

(٦٦) في الجزء الذي تم اكتشافه حديثاً من المقتبس لابن حيان ، الجزء الأول ص ٢٢٩ ، نجد خبراً غريباً حول الأقمشة العراقية التي كانت تصنع سرا في بغداد للأمير محمد الأول ، بحيث يرى اسمه مكتوباً على طرف الثياب باستخدام نفس النسيج .

(٦٧) حول الملابس المتخذة من قبل بلاط ليون في القرن العاشر ، انظر :

- M. Gomez Moreno, Iglesias mozarabes, pp. 126-128.

- A. Steiger, Zur Sprache der Mozaraber, en Romanica Helvetica, XX, 1943, pp. 624-723.

(٦٨) وفي مقابل ما يؤكد تيان ، (Tyan, organisation judiciaire, I, pp. 311-312) يمكن مقارنة ذلك بما ورد في :

- Brunschvig, Breberie orientale, II, p. 279.

(٦٩) الخشني ، قضاة قرطبة ، النص ص ١٠٩ ، وكذلك في المقتبس لابن حيان ، الجزء الأول ، ص ١٢٢

(٧٠) انظر نفس العمل ، المجلد الرابع ص ٤٥٧

(٧١) في جزء يذكره المقرئ ، النفع ، الجزء الأول ص ١٢٧ - ١٢٨

(٧٢) بداية من هذه الفترة فقط يبدو أن اليهود ، بالإضافة إلى المسيحيين ، قد رأوا أنفسهم مجبرين على ارتداء أزياء ذات ألوان خاصة ، ووضع الزنار (النطاق) .

(٧٣) ومن جانبه ، يذكر ابن الخطيب في الإحاطة ، الجزء الأول ، ص ٣٥ ، لامها ، ص (٢١) ويقدم لنا في القرن الرابع عشر بعض التفاصيل عن الزي الغرناطي ، والذي ظهرت فيه التأثيرات المغربية والأفريقية .

(٧٤) انظر :

- Saqati, Manuel hisp, le hisba, glosario, pp. 14-16.

(٧٥) فيما يتعلق بالمغرب الحديث يمكن الاطلاع على :

- Le Tourneau, Fes avant le protectorat, pp. 247-250.

وللاطلاع على تاريخ حمامات أخرى غير الخليفة يمكن الاطلاع على :

- L. Torres Balbas, eu Al-Andalus, VII, 1942, pp. 206-210.

- (٧٦) انظر نفس العمل ص ٢١٩
- (٧٧) انظر :
- Levi - Provencal, Inscriptions arabes d'Espagne, unim. 219 - p. 195.
- (٧٨) طوق الحمامة ، طبقة Petvof ، ص ٩٠ ، وجارثيا جوميث ص ٢١٢ وليفي بروفنسال ، ص ٢٥٩
- (٧٩) انظر نفس العمل ص ٣٢٨
- (٨٠) نفس العمل المجلد الرابع ص ١٧٠ ، رقم مرجعي ٨١
- (٨١) مجموعة القيسي ص ٩٠
- (٨٢) انظر :
- Sivilla a comienzos del siglo XII, p. 164.
- (٨٣) انظر العمل نفسه ص ٢٤٧ - رقم مرجعي ١٢٦
- (٨٤) انظر ، على سبيل المثال ، ابن سهل ، أحكام كبرى ص ١٠٥ ، من مخطوط الرباط .
- (٨٥) الزخيرة ١ ، ٢ ، ص ٧٢ - ٧٣
- (٨٦) انظر :
- Levie - Provencal, Inscriptions arabes d'Espagne, num, 176, pp. 164-166.
- (٨٧) مثلما حدث في بقية الغرب ، ففي إسبانيا كان يحتفل أيضاً بعيد ثالث من الأعياد الدينية ، عيد «عاشوراء» العاشر من محرم ، والذي يصوم المسلمون فيه ويتم الاحتفال به بإعداد هائل للطعام ، كما يحتفل به - بعد ذلك ، في أفريقيا والمغرب ، بملابس تنكرية .
- (٨٨) في اليوم الذي ينتصف فيه شهر شعبان ، أي أسبوعين قبل حلول شهر رمضان ، كان هذه اليوم يعد من الأيام المباركة السعيدة ، كما هو الحال الآن في المغرب ، وكان يصدر فيه عفو عن المساجين ، كما في الأعياد الكبرى . (انظر العمل المذكور ص ٩٠ - ٩١) .
- (٨٩) انظر بداية الزجل رقم ٤٨ من الديوان .
- (٩٠) انظر نفس العمل ص ٧٨ - ١٩٩ - ٢٠٠ .
- (٩١) عن الاحتفال بالعيدين الفلكيين في إسبانيا الإسلامية ، انظر :
- Esp. Mus. X : siecle, page, 172, nota, I.
- Peres, Poesie andalouse, pp. 303-305.
- (٩٢) العمل المذكور ص ٢٧٦ - ٢٧٧
- (٩٣) حول هذه الأمور كلها يمكن الاطلاع على :
- Sevilla a comienzos del siglo XII, pp. 54 y. 190.
- M. Asin, los caracteres y la conducta (trad, de la Risala ji mundamat al nafis de Ibn Hazm) Madrid, 1916, p. 33 y nota I (pp. 33-36).

(٩٤) نتذكر هنا اللقاء الذي جمع بين الشاعر الرمضي والأمة جالوا على الجانب الآخر من جسر قرطبة مثلما يصوره ابن حزم والضبي ، وانظر أيضاً :

- Levi - Provençal, En relisant le "Collier de la Colombe" en Al-Andalus, XV, 1950, pp. 340-341 y nota 3.

(٩٥) هناك العديد من العروض التي كانت تتم في عهد الحكم الثاني تظهر في الجزء الثالث من المقتبس لابن حيان ، مأخوذة من المؤرخ عيسى الرازي ، ص ٥١ ، رقم مرجعي ٧٧
(٩٦) العمل المذكور ، المجلد الرابع ص ١٢١ - ٧١٠ . وحول الصيد باستخدام الصقور يمكن الاطلاع على :

- Peres, Poesie andalouse, pp. 346-349.

(٩٧) البيازيرة محلة في شمال البرتغال : انظر :

- D. hopes, Toponimia arabe de Portugal, en Revista lusitana, vol. XXIV, Oporto, 1926, p. 10).

(٩٨) ص ٢٥ ، ١٤ ، ٤٩

(٩٩) انظر نفس العمل : ص ٩٢

(١٠٠) اقتباس برتغالي في :

- Cronica geral de Espanha de 1944, ed. L.F. Lindley Cintra, Lisboa, 1952, T. II, p. 67.

(١٠١) حول الصيد بالكلاب انظر :

- Peres, ob. Cit. Pp. 345-346.

(١٠٢) نفس العمل : المجلد الرابع ، ص ٧٧ ، رقم مرجعي ٦٧

(١٠٣) انظر على وجه الخصوص :

Mez, Ren, Isl, trad, Vilak p. 486.

(١٠٤) حول لعبة الشطرنج في إسبانيا الإسلامية انظر :

- F. M. Parega Casanas, Libro del ajedrez, de sus problemas y sutilezas, de autor arabe desconocido, Madrid, Granda, 1935, T. II, pp. 73-78.

(١٠٥) ابن حيان ، المقتبس ، ١ ، ص ٢٣٣

(١٠٦) انظر على وجه الخصوص :

- Peres, Poesie andalouse, pp. 344 Y nota 2.345.

(١٠٧) انظر :

- Mez, Ren, Isl. Trad. Vila, pp. 485-486.

(١٠٨) انظر :

- Sevilla a comienzos del siglo XII, p. 182.

- (١٠٩) نفس المرجع ، المجلد الرابع ، ص ٣٧٦ - مرجع إشارى رقم ٨
- (١١٠) نفس المرجع ، المجلد الرابع ، ص ٤٠٨ ، إشارة مرجعية رقم ٣٩
- (١١١) انظر :
- Levi - Provencal, En relisant le "Collier de la colombe" en Al-Andalus, XV, 1950, pp. 357 Y 363-368.
- (١١٢) هذان اللفظان يردان فى Vocabulista . وكذلك عند Saqati فى :
- Manuel hisp. De hisba, glosario, p. 26.
- (١١٣) وكذلك بالنهاية الرومانثية (Era) التى تدل على أسماء الوظائف المؤنثة Jarachera (خراجية) .
- (١١٤) معجم ابن عيود ، يذكر فيها مقابلاً لكلمة فندق . وعند ابن عذارى ، فى البيان ، الجزء الثالث ، ص ٨١ نجد التعبير : دار البنات .
- (١١٥) حول تصنيع الخمر فى إسبانيا الإسلامية ، يمكن الاطلاع على نفس المرجع ، ص ١٥٩
- (١١٦) لايبود أن الأندلسيين كانوا يفرقون بين الخمر والنبيذ ، الكلمة التى كانت تطلق فى الشرق على «خمر التمر» يمكن الاطلاع على :
- Peres, Poesie andalouse, pp. 367-368.
- (١١٧) نفس العمل ، الجزء الرابع ص ١٣٠
- (١١٨) انظر على وجه الخصوص :
- Peres, Poesie andalouse, pp. 366-376 Y nota I.
- (١١٩) يوجد هذا اللفظ فى مؤلف بن حيان ، المقتبس ، الجزء الأول ص ١٣٠ حين يتحدث عن عباس بن ناصح الجزيرى ، من أشهر الشعراء فى القرن التاسع .
- (١٢٠) انظر على وجه الخصوص :
- Peres, Poesie andalouse, pp. 368.
- (١٢١) انظر العمل نفسه ص ١٢٦
- (١٢٢) مجموعة الجزيرى ص ١٠١
- (١٢٣) انظر ص ٢٩٧
- (١٢٤) حول حرية العادات فى إسبانيا المسيحية فى القرن العاشر يمكن الاطلاع على :
- Sanchez Albornoz, Estampas, pp. 149-15 Y nota 28.
- (١٢٥) حول الموسيقى فى إسبانيا الإسلامية يمكن الاطلاع على :
- J. Ribera, la musica de las cantigas de Santa Maria, Madrid, 1922, e Historia de la musica arabe medieval y su influencia en la espanola, Madrid, 1927.
- (١٢٦) الشيروانى ، حديقة الأفراح ، القاهرة ١٣٠٢ صفحة ، ص ١٢٧

(١٢٧) انظر :

- Prolegomenes, trad, de Salane, II, p. 421. Peres, Poesie andaluse, p. 390.

(١٢٨) ابن حيان ، المقتبس ، الجزء الأول ، ص ٢٥٨ ف ، ٢٥٩

(١٢٩) انظر :

- R. Menendez Pidal, Poesia arabe y poesia europea, Madrid, 1941, p. 14.

(١٣٠) نفس المرجع ، ص ٢٦٠ - ٢٦١

الفصل الثامن

الحياة الدينية والفكرية

تمارين الفصل الثامن :

١ - نظرة عامة على الإسلام في الدولة الإسبانية :

الأموية - صحة المعتقد والغيرة الدينية - الردة وجرائم الزندقة - المسجد الأندلسي - الجهاد - الحج .

٢ - المذهب المالكي الأندلسي والإسهامات العقائدية الشرقية :

المدرسة المالكية في إسبانيا الأموية - تغلغل المذهبين الشافعي والظاهرى الدعوة لمذهب المعتزلة - حياة الزهد - ابن مسرة وأتباعه .

٣ - التأثير الشرقى على الثقافة الأندلسية ورعاية الحكم الثانى للأدب والفنون :

الإسهامات الشرقية حتى منتصف القرن العاشر - الحكم الثانى ، رعايته للفنون وحبه للكتب - نظرة عامة على تاريخ الخلافة - الثقافة العلمية فى ظل الخلافة الازدهار الفنى .

1- نظرة عامة على الإسلام فى الدولة الإسبانية - الأموية

صحة المعتقد والغيرة الدينية :

سوف يتم الحديث هنا فقط من خلال وجهة نظر تاريخية عن النشاط الدينى والفكرى للأندلس تحت إمرة الأمويين ، لأنه فى حالة اللجوء إلى دراسة مفصلة عن جوانب عديدة عن ذلك النشاط ، والتي قد تم التعرض لبعض منها بصورة مبسطة ، فإن ذلك يعنى تجاوزاً كبيراً لما نهدف إليه ، وكذلك فإنه يعنى عنوة ، بالإضافة إلى الشروح الفنية المسهبة ، ذكراً لأعمال ومؤلفين فى سلسلة طويلة ومملة ، ولهذا كله ، فأكثر من قيامنا بتكرار معلومات يمكن العثور عليها فى الكتب البسيطة التى تتحدث عن الإسلاميات والأدب العربى ، نود أن نقصر حديثنا على تقديم وصف بسيط للمناخ الدينى والعلمى فى إسبانيا الإسلامية فى فترتى الإمارة والخلافة ، وأن نبز كيف أن المملكة القرطبية ، سواء فى مجال العلوم الإسلامية أو مجال المعارف الدنيوية - على الرغم من عزلتها السياسية ورغم بعض المحاولات التى كانت تجرى على استحياء للتخلص من التبعية ، والتي كانت تقتصر على مجال الشعر الشعبى - لم تتوقف عن إظهار الولاء الروحى للمشرق ، وأن نشير ، فى نهاية المطاف إلى استمرارية الإسهامات التى أرسلت بها بقاع العالم الإسلامى الأخرى إلى منطقة بعيدة ، وكيف أنها قد تلقت هذه الإسهامات ، ولكن علينا أن نبين بالتحديد فى صورة مبسطة كيف كان السلوك الدينى للمسلم الأندلسى فى القرنين التاسع والعاشر .

على مدى جميع مراحلها التاريخية خلال العصور الوسطى تميزت إسبانيا باحترامها الشديد للمعتقدات الدينية الصحيحة ، حين أعيد بناء دعائم المروانيين ، أصبح التحمس للمعتقد الدينى قاعدة أساسية للمملكة القرطبية والتي كان عليها - فى ظل الإمارة - أن تقتل دون ما رحمة تلك المحاولات الإلحادية الصغيرة والقضاء فى الحال على المحاولات النادرة التى كانت تهدف إلى تطعيم الجسد الأندلسى بدعوات الخوارج التى ظهرت فى الشمال الأفريقى^(١)، فحين أسس عبدالرحمن الثالث الخلافة ، أصبح الاتجاه السننى سائداً أكثر من أى فترة سابقة باعتباره المالك المطلق ، وذلك بهدف تكوين جبهة صد فى مواجهة الإلحاد الإسماعيلى والذى أقام عليه الفاطميون

دعائم أفكارهم من أجل تأسيس امبراطوريتهم ، دون أن يعملوا على إخفاء نواياهم فى رغبتهم الشديدة فى إضافة إسبانيا نفسها إلى تلك الامبراطورية ، وباسم الدين جعل الناصر خلافته فى مواجهة الخلافة المضادة التى أعلن عنها الفاطميون ، وكذلك فقد أعلن المنصور بن أبى عامر نفسه نصيراً للدين حين بدأ الحرب المقدسة ، بلا هوادة ، ضد المسيحية على أرض الأندلس ، وبالتالي ، فليس بمقدورنا أن نتهم بالمغالاة أولئك المؤلفين الأندلسيين حين يطلبون فى عزة المجد لوطنهم لأنه استمر على وفائه التام ، دائماً ودون ماملل أو تعب : للمذهب السنى ، فى ممارسة العبادة وتطبيق تعاليم وقواعد الإسلام على حد سواء .

ليس أمراً مستغرباً أن يجد الدين لنفسه مكاناً سامياً داخل دولة ثيوقراطية فى بنيتها مثل إسبانيا الأموية ، وأنه هو الذى حدد هويتها وطابعها وصاغ بصورة نهائية معظم مظاهر الحياة الاجتماعية ، وماعُدمنا المناسبات التى أبرزتنا فيها سيادة العامل الدينى على ربود الأفعال الطبيعية والشائعة فى الأندلس فى مواجهة الظروف الأكثر شيوعاً فى حياته العادية ، ولكنه يعد من الخطأ من جانبنا أن نعتقد بأن مثل هذا الوضع الذى جرت عليه الأمور كان بحال من الأحوال خاصاً بالأندلس . ففى نفس الفترة ، فى الشرق والغرب على حد سواء ، كان المؤمنون - أهنأك حاجة لقول هذا ؟ - يدورون فى فلك شبكة من المبادئ والتعاليم التى كانت تنظم سلوكهم الدينى والاجتماعى بصورة مماثلة ، وماكان لهم قدرة على التنصل أو الزين عن مثل هذه المبادئ ، إذ معنى ذلك وقوعهم هدفاً للتأنيب واللوم من إخوانهم فى الدين ، وكذلك العقوبة الصارمة من قبل السلطات المخولة ، وعلى الرغم من الاختلافات - التى هى بسيطة فى الغالب الأعم - فى تفسير بعض العقائد الخاصة بكل واحدة من المدارس القضائية - الدينية التى كانت متواجدة على الساحة الدينية ، فإن نفس القانون الحياتى - الذى كان على الفرد أن يخضع له - وفى نفس مجموعة الممارسات الثقافية - التى كان على الفرد أن يقوم بها باستمرار وورع ، كانت سائدة أيضاً فى دمشق والقيروان ، كما كانت سائدة فى بغداد وقرطبة ، ليس هناك مايسمى بالإسلام السورى أو العراقى . من الأحرى القول : إنه ليس هناك من إسلام أندلسى إلا بالقدر الذى يكتسب فيه هذا الإسلام ، حتى دون الرغبة على الإطلاق فى اتخاذه موقفاً

مستقلاً أو تعرضه لأدنى التغيرات فى جوهره - داخل إطاره الجغرافى والتاريخى - شكلاً خاصاً ومظهراً محافظاً وقديماً .

إن القدم والاتجاهات المحافظة هى ، بالفعل ، كما نبهنا لذلك مراراً وتكراراً ، تمثل الملامح التى اكتشفناها فى وجه إسبانيا الأموية ، وذلك بمجرد أن نوجه ناظرينا إلى عينيها ، وهناك ملمح آخر من بين هذه الملامح كثيراً ما أشير إليه ، هو قوة واستمرارية الغيرة الدينية للمسلمين الأندلسيين وربما أنه لم يحدث فى مكان آخر ، فى العصور التى نتحدث عنها ، إن تم الإعراب عن مثل تلك الغيرة بهذه الصورة من الإسهاب والتنظيم ، وكذلك بمثل هذه الحالة من الطواعية الشديدة ، مثملاً كان الوضع فى إسبانيا ، من جانب الطبقات الدنيا والعليا فى المجتمع على حد سواء عن هذا الحماس الدينى ، وعن هذه الدقة فى ممارسة العبادة ، نملك بين أيدينا ألف دليل وإشارة لها قيمتها التى لا يمكن أن نرفضها ، وحتى حين تؤثر على الجموع فى المدينة أكثر من تأثيرها على جموع القرى ، والتى كانت تضم - على جانب آخر - عدداً من الأتباع المستعربين يفوق عدد المسلمين ، إن الوضع الذى تعرض له ابن حزم ، الذى أعلن بأنه كان يجهل ، حتى انتهى من فترة المراهقة ، جزءاً من الشعائر الخاصة بالصلاة ، يعد ، على ما يبدو ، أمراً عرضياً ، إن لم يكن حكاية أسطورية ^(٢) ، وإنه ليكفى أن نقوم بتصفح الأدب الذاتى الأندلسى حتى نقف على مدى النفوذ الذى كانت تتمتع به المبادئ والفروض الخاصة بالعبادة - والذى كان محل قبول من جانب الغالبية العظمى من المؤمنين - على سير الحياة اليومية .

تلك المثابرة الدينية من قبل المسلم الأندلسى لم تكن حالة طارئة ، ولكى يتسنى لنا تفسير هذا الأمر علينا أن نلجأ مرة أخرى إلى عامل العنصر البشرى ، ونتذكر تلك الكوكبة التى تكون منها المجتمع الإسلامى فى شبه الجزيرة خلال العصور الوسطى : أقلية من العرب ، ونسبة كبيرة من البربر الأصليين ، وأغلبية كثيفة من الإسبان المولدين ، لانعتقد بأننا سنكون مخطئين إذا مازعمنا بأنه - أكثر من العرب - كان هؤلاء الأندلسيون من نوى الأصول البربرية والأهالى الأصليين من المسلمين الجدد هم الذين - جيلاً بعد آخر - أخذوا على عاتقهم مسئولية الحفاظ على سيادة الدين فى وطنهم غير ملموسة ، مؤيدين فى صرامة مطلقة فروضه وساهرين من أجل الحفاظ

على إطاره الحيوى من أى تغيير ، بنفس الطريقة التى فرض بها الفاتحون فى القرن الثامن ذلك الدين على كبارهم حين أعلنوا فى وقار رسمى قبولهم للإسلام (٢) ، وإن ميزة يتحلى بها الأفراد الذين ينتمون إلى أصول بربرية هى فى الأساس تلك التى تتمثل فى روحهم الدينية ، والتى من الممكن اعتبارها أيضاً - بقدر ما - ميراثاً خاصة للشعب الأيبيرى ، وإذا ما أضفنا إلى هذه الاتجاهات الخاصة الثقل الذى كان يمثلته القهر الاجتماعى ، والذى لم يكن يقل فى سطوته وقوته فى الأندلس عنه فى بقية العالم الإسلامى المعاصر لتلك الفترة ، فسوف يتسنى لنا فهم السبب الذى دفع بالرحالة الشرقيين ، حين وصفهم لإسبانيا ، لإبراز الغيرة الرحيمة لدى الغالبية العظمى من سكان البلد .

ولقد قام الفقهاء - فى الأندلس وبقية العالم الإسلامى - بدور رئيسى فى تغذية هذه الغيرة الدينية ، أو إذا ما أردنا فلنقل «رجال الدين» وما كنا نقدم الفرص التى نبين فيها بجلاء الأهمية المتزايدة لأولئك الممثلين لكنيسة بلا إكليروس ، المهووسين بما لديهم من معارف ، وماهم عليه من مكانة اجتماعية ، وتطلعهم للدخول إلى صفوف حاشية الملوك والخلفاء حتى يكون لهم التأثير الواضح فى كل مايتخذونه من قرارات ، إن لم يكن تطلعهم إلى ما هو أبعد من ذلك ، إملائها عليهم ، وكانوا يساعدون دائماً - على الأقل فى المدن - على إيجاد روح من الشك المتبادل ، ويثيرون الوشائيات ، ويبعدون استعدادهم الدائم للتعرض بلا رحمة لأولئك الأشخاص من إخوانهم فى الدين الذين يمكن أن يواجهوا لهم اتهاماً بالضعف والفتور فيما يتعلق بسلوكياتهم الدينية ، لقد ساهم نظام الحسبة أيضاً ، والذى قام بنشاط لامثيل له فى بلد آخر غير إسبانيا ، بقدر كبير ، من جانبه ، فى الحفاظ على وضع أتباع الملكية فى قرطبة داخل إطار المبادئ والقواعد الدينية ، وذلك حين ظل يذكرهم ، فى بعض الأحيان دون ما تأملات تذكر ، بالواجبات الأساسية ، وفقاً للمذهب المالكى ، التى كان لزاماً عليهم أن يخضعوا لها .

التحول إلى الإسلام وجرائم الزندقة :

على مدى تاريخ إسبانيا الأموية لم تسجل أكثر من حالات فردية متفرقة من التحول إلى الدين الإسلامى ، حيث إن أسلمة الأندلس قد أصبحت أمراً واقعاً فى فترة إرساء

قواعد المروانيين ، وذلك كما أسلفنا من قبل حين سنحت لنا فرصة عرض الأمر فى بداية هذا العمل ، وإذا ماحدث اعتناق للإسلام فيما بعد من قبل المسيحيين واليهود الإسبان ، حيث كان هو الدين الرسمى للدولة ، فقد كان ذلك فى مرات نادرة الحدوث ، ويمكن القول بأنهم كانوا يقبلون على الإسلام لا بدافع من قناعة داخلية ، وإنما من أجل الحصول على مكانة شخصية يستفيدون منها ، وإنه لمن غير المفيد أن نتعرض مرة أخرى للتسامح الذى أظهرته الدولة الملكية فى قرطبة تجاه أتباعها ، ولكنه فى الأندلس مثل غيرها من بقية العالم الإسلامى ، إذا ماكان من السهل أن يدخل غير المسلم إلى دائرة الإسلام ، فقد كان من الصعوبة بمكان ، بمجرد أن يدخل إلى إطار الجماعة ، أن يخرج منه عن طريق الردة .

إن كتاب الجزيرى ^(٤) يحتوى على نموذج هام لمحضر التحول إلى الإسلام ، ومجرد ظهور مثل هذا الأمر فى المجموعة يجعلنا نفترض أن القضاة كانت تواتيهم الفرص أحياناً لاستخدامه فى الناحية العملية ، على مدى مشوارهم القضائى ، وقد كان على هذا العضو الجديد أن يعترف بأنه قد اعتنق الإسلام عن قناعة شخصية وبرغبة كاملة فى اعتناقه ، كما كان عليه ، عند إعلان الشهادة ، أن يتعهد بإلزام نفسه بأداء الواجبات الدينية الجديدة التى يقرها الإسلام مثل الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج . كان تحول هذا العضو الجديد إلى الإسلام يسجل من قبل القاضى ، فى حضرة شهود عموم ، وكانت الصيغة المكتوبة لهذا الانضمام إلى الجماعة الإسلامية تختلف بحسب الشخص مسيحياً أو يهودياً . كما كانت تختلف أيضاً فى حالة ماإذا كان الشخص مرتداً ويريد العودة إلى حظيرة الإسلام وذلك الشخص الذى يعتقد أنه على علم بكل شعائر العبادة .

والحقيقة ، فإن الإسلام باتخاذ موقفاً تحريراً نسبياً مع الذميين ، نراه قد عانى ، فى الأندلس ، وخاصة فى القرن التاسع ، من بعض المخاطر ، وعلى وجه الخصوص ذلك الخطر المتمثل فى هزيمته فى المناطق والأقاليم التى كان يصعب الوصول إليها وإحكام القيضة عليها فى شبه الجزيرة من قبل المسيحية المستعربة ، ولنتذكر حالات الزواج المختلط التى كانت شائعة فى أسرة بنى قاسى الأراجونية والعودة الاستعراضية من جانب ابن حفصون إلى دين آبائه وأجداده ، وعلى الرغم من أنه ليس هناك من نص يؤكد لنا هذا الأمر ، فعلى ما يبدو أنه قد تواجد داخل النظام الطبيعى للأشياء فى البداية ، وخاصة بين الطبقات الريفية فى قرطبة : «مسيحيون متخفون»

أظهروا من ناحية الشكل فقط انضمامهم الاسمى إلى الإسلام - وفى الوقت الذى حدث فيه التمرد الطويل من قبل عبد الرحمن بن مروان - «ابن الجليقى» ، فى فترة حكم الأمير محمد الأول ، تمكن السكان من المولدين فى المناطق الجبلية من الثغر الأدنى من مد يد العون والترحيب ببعض الدعايات التى انتشرت تهدف إلى العودة إلى المسيحية والتى قام بتنظيمها إكليروس من المستعربين ، وفى إحدى الحملات التأديبية التى وجهها هاشم ابن عبد العزيز صوب هذه الأرض الثائرة ، كان رد فعل الجنرال الشهير عنيفاً ضد مثل هذه الأمور ، وهنا خضعت مجموعات عديدة من الرهائن لاختبار حفظ القرآن ، إذ كان عليهم أن يقوموا بترديد جماعى لسورة من القرآن يتم اختيارها صدفة ، وذلك إذا ما أرادوا النجاة من الموت بحد السكين ، وإنه لمن غير المفيد أن نقول بأن هذا الاختيار قد راح ضحيته مجموعة كبيرة (٥) .

ولكن ، بصفة عامة ، فإن الإسلام الأندلسى لم يفقد فى شبه الجزيرة أصوله وجذوره بين كل أولئك ، أياً كانت أصولهم ، الذين ولدوا بين أحضانه وشبوا بين ربوعه. ولم يكن الدين الإسلامى يبدى شديد غضبه أمام حالات الزيع غير ذات المعنى ، والتى من الممكن إصلاحها وتصويبها عن طريق الشخص نفسه بعدوله عنها ، ولكن مثل هذا السلوك كان متبعاً فقط فى حالة عدم حدوث أمر يعمل على إثارة وغضب الرأى العام ، وإذا ماحدث هذا ، فما كانت هناك من وسيلة سوى أن يهم الجهاز القضائى بالتحرك ودون أن يتردد فى إنزال أقصى العقوبات وخاصة فى حالة صدور شتائم ضد الدين أو النبى (٦) .

ومن أجل تمييز هذه الجرائم التى تمس الدين ، فقد استخدم المحللون والمؤلفون للوثائق القضائية ، فى الأندلس وبقية العالم الإسلامى على حد سواء ، مصطلح الزندقة (وهو المصطلح الذى كان يطلق فى الأصل على المخالفين فى العقيدة لما تدين به الدولة مما يهدد أمنها) ، ويحفظون لنا صدق بعض هذه القضايا ، والتى كانت تستمر وقتاً طويلاً ، ولكنها كانت تمثل النقطة الساخنة التى كان يدور حولها حديث الجميع فى قرطبة . ومن بين هذه القضايا ، نشير بإيجاز ، إلى تلك التى وقعت عام ٨٤١ (٢٢٧هـ) ، وانتهت بتطبيق حكم الإعدام على شخص يدعى يحيى بن زكريا الخشاب ، والذى نظر لاسمه هذا واسم أبيه ، لابد أنه مسلم جديد ، ولكن البعض كان يطلق عليه أيضاً اسم ابن أخت عجب ، لكونه كان ابن أخت المحظية التقية للحكم الأول ، والتى قامت ببناء مسجد ومصحف لعلاج أمراض البرص والجذام على أبواب العاصمة ، وماكان تدخل عمة المتهم أمراً ذا فائدة فى إثناء همة العامل عن توقيع العقوبة ،

حيث جعلهم ينفذون فيه العقوبة بسبب كلمات خارجة عن اللياقة قالها في حق النبي وما كانت تستأهل تطبيق حد الإعدام فيه ، الذي دأب على المطالبة به في حماس شديد الفقيه عبد الملك بن حبيب ، على الرغم من أن هذا الفقيه قد عفى عن أخيه - مروان - في نفس هذا العام من اتهام مماثل .

وهناك قضية لحالة أخرى من الزندقة ، يقدم لنا الفقيه ابن سهل تفاصيل كثيرة عنها ^(٧) قضى فيها إبان عهد الحكم الثاني، أحد قضاة قرطبة والذي كان يشغل في نفس الوقت منصب قاضي كورة استجة Ecija وقبرة Cabra ، وكان يدعى قاسم بن محمد بن قاسم ، في هذه المرة وصل الأمر إلى حد خطير جداً ، فقد أتى جمع من الناس يشهدون ضد رجل يدعى «أبو الخير» ، ويتهمون به بأنه قد قام بالتشهير والسب العلني بين جموع قرطبة في حق النظام القائم ومهاجمته أيضاً ، كما سب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن بينهم أبو بكر وعمر ، وقد أعلن أن غالبية نصوص القرآن ماهى إلا محض أساطير ، وأنه إذا ما كانت البقية الباقية من نصوصه مقبولة ، فإنه يرى في نفسه القدرة على صياغتها في صورة أفضل مما هي عليه ، وكذلك فقد كان يفتخر بشربه الخمر وحملها إلى السوق ، وأكثر من ذلك ، فقد سُمع يقول : «لو أنى أملك بين يدي خمسة آلاف فارس ، لدخلت عنوة مدينة الزهراء ، ولقتلت كل من ألقاه ، وأعلنت الدعوة لنظام «أبو تميم» (أى المعز «الفاطمي») ، أو قوله : «إذا ما ارتفعت تسعة سيوف تعلن إسقاط الخليفة ، فسوف يكون سيفي هو عاشرها ، وبالطبع ، فإن مثل هذه الآراء غير المتعقلة التي قالها صاحبها - بكل تأكيد - تحت تأثير بنت الراح التي لعبت بعقله فأصبح ثملاً ، لم يكن بالإمكان أن تمر دون عقوبة ، وكما يمكن لنا أن نتصور ، فإن الحكم قد صدر بتطبيق حد القتل على المذنب ^(٨) .

المسجد الأندلسي :

في ذلك الإطار الصارم للمذهب المالكي ، نجد أن الحياة الدينية للمسلم الأندلسي لاتكاد تقدم ملامح أصيلة تستأهل الإشارة إليها ، كانت الممارسات للشعائر الدينية مرسومة منذ البداية ولأمد طويل ، وماكان نصيب المحاولات التجديدية في الشعائر القديمة التي انتقلت إلى مملكة قرطبة ، إلا أن استحضار واستوجب جام غضب رجال الدين على القائمين بتحريك مثل هذه المحاولات ، ونحن لن نتوقف ، بعد ، أمام دراسة

مفصلة لواحد تلو الآخر لتلك الواجبات الأساسية التي تخص المؤمن ، وعلى وجه الخصوص الصلاة والصيام ، كما أننا لن نتحدث عن الاحتفال بالأعياد الدينية ، والتي أفضنا الحديث عنها حين تكلمنا عن الحياة الخاصة ^(٩) ، وسوف نفعل نفس الأمر بالنسبة لما يتعلق بمكان العبادة ، أو بمعنى آخر المسجد ، قاصرين حديثنا على بعض الملاحظات العامة .

وبعيداً عن المسجد الكبير (المسجد الجامع) ، فقد كانت كل مدينة من المدن الهامة فى إسبانيا الإسلامية تحتوى على عدد معين من مساجد الأحياء ، التي كانت تقام على نفقة أهل الخير من الأغنياء المسلمين ، سواء فى حياتهم أو بعد مماتهم تنفيذاً لوصية يوصون بها ، كانت تلك المساجد تحمل أسماء من يقوم بإنشائها من الرجال أو النساء ، وكما رأينا ، كانت تعد بالملئات فى قرطبة ، وبعض هذه المساجد كانت تبني فى البيوت الخاصة ، وذلك كنوع من الزوايا ، والتي كانت تحظى - فى غالبيتها ، رغم أن ذلك لم يكن أمراً حتمى الوقوع - بوجود مئذنة صغيرة يؤذن من خلالها للصلاة ، كانت بسيطة المساحة ، وكثير منها كان متهدماً ، وماكانت تفتح أبوابها إلا فى ساعات الصلاة ، ويعمل بكل منها موظف ، يقوم إلى جانب الإمامة بدور المؤذن والحارس ، وأحياناً يؤدي دور المعلم فى المدرسة ^(١٠) ، أما بالنسبة للأماكن التي يتكون منها المساجد فقد كانت بسيطة للغاية : صالة مستطيلة ، ووجهتها صوت القبلة ، بما فى ذلك المحراب ، وأمامها يوجد فناء به بئر وغرفة صغيرة للوضوء ، أما الأرض فكانت تغطى بالحصير المصنوع من الحلفاء ، والذي كان يتم تغييره وتجديده حين لايصبح صالحاً للاستخدام .

أما المسجد الجامع - الأكثر اتساعاً - حيث كان يتسع فى البداية لاستيعاب جميع المؤمنين فى المدينة فى صلاة الجمعة ، فقد احتل فى إسبانيا - كما قلنا من قبل - مكاناً كانت تقام عليه كنيسة قديمة ، وكانت الأماكن التي يشتمل عليها بسيطة هى الأخرى فى غالب الأمر ، وماكان من حال أنيقة وزينة رائعة فى مسجد قرطبة يبدو أنها كانت أمراً استثنائياً ، وقد كان ذلك المسجد مقسماً إلى مساحات محورية وجانبية بواسطة أقواس محملة فوق أعمدة مصنوعة ، أو على أعمدة قديمة جداً ، كان الهواء

والضوء يملآن جنبات المسجد ، عبر الفتحات الواسعة التى كانت توصله بالصحن ، وكانت هذه المنطقة تعرف ببيت الصلاة التابع للمسجد الكبير ، وكانت تمثل بالنسبة لمسلم المدينة المبنى المدنى الوحيد الذى بمقدوره الدخول إليه فى حرية تامة ، وفى قرطبة على الأقل ، كان هناك على يمين المحراب بين سور القبلة والصف الأول للمصلين مكان «محموظ» مصنوع من الخشب المشغول ، يسمى المقصورة - كما قلنا من قبل - وكان محمد الأول هو أول من أمر باستخدام هذه المقصورة ، التى كان يدخلها العاهل باعتبارها المكان الآمن ، حين يأتى لأداء صلاة الجمعة ، وبداية من فترة حكم عبد الله ، كان يدخل إلى هذه المقصورة عبر باب خاص ، بعد أن يقطع عبر ممر ، كان ينقذه من غوغاء الشارع الكبير فى قرطبة ، المسافة البسيطة التى كانت تفصلها عن القصر ، وبين المحراب والمقصورة كان يرتفع المنبر ، المصنوع من خشب نسيجي قيم وشرائح عاجية ، وكان عبارة عن منبر مرتفع ، يصعد إليه الإمام عبر عدة درجات سلمية ^(١١) ، كان الخطيب يعتلى هذا المنبر ليلقى الخطبة الأسبوعية ويقرأ على مسامع الحاضرين البلاغات الرسمية ، أما فيما يتعلق بالاثاث فقد كان بسيطاً جداً ، فهناك باب مفتوح فى السور الداخلى يؤدى إلى الصالة ، التى أحكم غلقها جيداً ، لوجود بيت المال بها ، أو خزانة الأموال المجموعة من تبرعات أهل الخير ، وفى بعض الأحيان ، كانت تحوى بين أركانها بعض المنقولات أو المخطوطات الثمينة ^(١٢) ، وفى بعض الأحيان كانت صحون المساجد وساحات الصلوات تشتمل على مقصورات جانبية تسمى «السُقف» موضوعة على ارتفاع يصل منتصف الأسوار وكانت مخصصة فى الغالب للنساء ، ومن بين المحلات الأخرى التابعة للمسجد ، بالإضافة إلى المنذنة ، كانت تبرز صالة الوضوء ومحل آخر ، كان يطل مباشرة على الشارع ، حيث كانت تحمل إليه فى ساعات معينة جثث من فارقوا الحياة لأداء صلاة الجنائز عليها .

ومن أجل رعاية ونظافة المسجد الجامع كان هناك حضور دائم لمجموعة من الأفراد ، تقوم بأعمال الكنس ، وفرش الحصير ، وإضاءة الثريات فى ليال معينة (وخاصة ، على مدى شهر رمضان) ، ونقل المياه والقيام بكل الأعمال الضرورية . وهناك العديد من الأئمة والمؤننين الذين كانوا يؤتون وظائفهم بالتناوب على مدى الأسبوع ، فيما عدا يوم الجمعة حيث يجب على الجميع الحضور وشغل عدد

من الأماكن الثابتة ؛ من أجل تكرار حركات ونداءات صاحب الصلاة وبهذا يهتدى بهم المصلون الذين لم يكن بمقدورهم العثور على مكان فى الصلاة المعدة للصلاة وكان عليهم البقاء فى صحن المسجد أو حتى على رصيف عال بعض الشئ بجواره ، كما كانوا يفدون وفى نيتهم الحرص على تقديم يد العون إلى صاحب الصلاة (إمام الصلاة) ، حين كانت تقام بمناسبة الأعياد الكبرى أو أى حد طارئ فى المصلى ، الكائن بساحة خارج المدينة فى الهواء الطلق .

الجهاد La guerra santa

من بين الواجبات الأساسية التى فرضها الإسلام على أتباعه هناك اثنان ، نظراً لعوارض تاريخية وجغرافية - كان لهما أهمية خاصة فى الأندلس : فريضة الجهاد وفريضة الحج ، وإن يكون هباءً أن نتعرض هنا بإيجاز لكل فريضة منهما .

فى القرن العاشر ، كانت شبه الجزيرة الأيبيرية تمثل - داخل العالم الإسلامى الغربى - أرض الحرب المقدسة المتميزة ، دار الجهاد ، التى أصبح بإمكان كل مسلم أن يفد إليها ، إذا ما أراد ، ليحارب سنوياً «فى سبيل الله» ضد الكفار ويبحث فى ميدان القتال عن الشهادة ، التى تضمن له فى الحياة الآخرة نجاة دائمة خالدة ، ولقد تحدثنا ، حين تكلمنا عن التنظيم العسكرى للخلافة (١٣) ، عن الظروف والشروط التى كانت تضعها السلطة المركزية لقبول ، حين كانت تعد طوائفها السنوية لمواجهة المسيحية الإسبانية ، خدمات العديد من الشباب المتطوع للحرب (الجهاد) ، والذين كانوا ينخرطون فى صفوف العسكرين ويتدافعون بهذا المتطور من كل أنحاء المملكة وحتى من الشمال الأفريقى ، كان هذا الجمع من المتطوعين يصدر عن مختلف الطبقات الاجتماعية حتى من أدنى الطبقات ، على الرغم من أن هؤلاء المتطوعين كانوا يتحركون وراء قصد خفى للحصول على مكاسب مادية من وراء مشاركتهم تلك فى بعض الأحيان ، فلم يكن ذلك مانعاً من انجرافهم نحو هذا الجهاد بدافع من الحماس الذى يتسم بالزهد بعض الشئ والبحث عن الحرب المجيدة وتقديم حياتهم فى خدمة دينهم ، وقد كانت جاذبية الجهاد ، الذى كان يتسم كلية بأسلوب العصور الأولى للإسلام ، قد أمد الجيوش القرطبية ، فى عهدى الإمارة والخلافة على حد سواء ، بمدد

لا يستهان به - على الرغم من أن فاعليته القتالية العسكرية كانت متوسطة ، من الجنود - كان من بينهم عدد كبير من رجال الدين ، ولقد حفظ لنا ابن الفرض أسماء العديد من الفقهاء القرطبيين ، والليبريين والبلنسيين الذين وجدوا موتاً بطولياً ، أو وقعوا في الأسر ، في ظل حكم الناصر ، سواء إلى جانب هذا العاهل ، في الوقت الذي أصيب فيه بانكسار كبير عام ٩٣٩ (٢٢٧هـ) في «خندق» شنت منكش Simancas (١٤) ، وإما بعد ذلك بعشرين عاماً ، عام ٩١٧ (٢٠٥هـ) ، حين شرع الجنرال القديم أحمد بن أبي عبدة الحصار الكارثة على صان استيبان دي جورماث San Esteban de Gormaz (١٥) ، وهناك أحد الفقهاء الذي رغم بلوغه سن الثمانين لم يتردد في الانضمام عام ٩٦٣ (٢٥٢هـ) إلى الحملة التي خرج بها الحكم الثاني لقتال قشتالة Castilla ، ولكن قواه قد خانت في مدينة طليطلة ، ومات هناك (١٦) ، وآخرون قاموا بالخروج جنباً إلى جنب مع المنصور في صوائفه ، أو حتى قيامهم بجعل أنفسهم في رباط لسنوات عديدة على الحدود ، وذلك من أجل المساهمة ، بتعريض حياتهم للخطر ، في صد ، إلى جوار الحاميات المتمركزة في القلاع ، الهجوم الذي كان يوجهه المسيحيون ضد جبهة نهر الدويرة Duero ، وفي بدايات القرن العاشر ، وجه القرشي القرطبي ابن القط نداء للحرب المقدسة (الجهاد) إلى الجماهير من العامة في إسبانيا الوسطى وذلك للاشتراك معه في الهجوم التعس على ألفونسو الثالث ، والذي انتهى بموت وهزيمة الأول أمام أسوار سمورة Zamora ، في عام ٩٠١ (٢٨٨هـ) (١٧) .

الحج : La peregrinacion

إذا ما كان المسلم الذي تواجد على أرض إسبانيا الإسلامية قد وجه نفسه على بعد خطوة من الوفاء ، كلما أمكن له ذلك وأراد ، بواجب الجهاد ، فهناك أمر مختلف تماماً ، وأحياناً له نفس مخاطر الأول ، كان يتمثل في رغبته في أداء الواجب الآخر ، الذي يحظى بنفس القدر من الثناء ، أداء ولو مرة واحدة على الأقل في الحياة فريضة الحج إلى الأماكن المقدسة في الجزيرة العربية ، وكان عليه أن يهجر وطنه مدة شهور طويلة ويترك طوال هذه الفترة أعماله وبيته ، دون أن يخفى عليه كم تكون المخاطر التي يتعرض لها في هذه الرحلة الطويلة ، والتي يصبح عليه خلالها أن يعبر برأً وبحراً ، في ذهابه وإيابه على حد سواء ، حوض البحر المتوسط على اتساعه كله ، كانت هذه

الرحلة تعد - فى ذاتها - نوعاً من الجهاد ، وكان يلزم للشروع فيها فى السنوات الأولى للإسلام أن يتمتع الشخص بإيمان أكثر حرارة وقوة من ذلك الذى يدفع صوب الحجاز ، فى ساعات قليلة بالطائرة أو أيام قليلة فى البخرة ، بالمسلمين من أفريقيا وآسيا . ويبدو ، مع ذلك ، أنه بالرغم فى صعوبات الانتقال ، فقد كانت فريضة الحج تمثل ، فى القرن التاسع ، ذهاباً وإياباً لا ينقطعان ، بين شبه الجزيرة الأيبيرية ومهد الإسلام ، بالنسبة للأندلسيين الذين ينتمون إلى مختلف الطبقات الاجتماعية وإلى كل الأجناس : ، ويبدو أن تلك المسافة لم تقل ، فى أى فترة من فترات العصور الوسطى ، حماس هؤلاء المسافرين الذين تميزوا بالجرأة وعدم الخوف من المخاطر من أجل قيامهم بأداء شعائر فريضة الحج فى نفس الأماكن المقدسة وكذلك الذهاب إلى المدينة المنورة - حيث قبر الرسول صلى الله عليه وسلم - لزيارته ، دون أن يشغلوا أنفسهم بالعقبات الكبرى التى كان عليهم تحديدها وتخطيها .

ولسوء الحظ فنحن نعلم شيئاً قليلاً ، بالنسبة للفترات الأولى من العصور الوسطى عن الطريقة التى كان يتم بها القيام بمثل تلك الرحلة الطويلة التى كانت تقل الحاج الأندلسى حتى أراضى الجزيرة العربية وتعيده بعد ذلك إلى موطنه الأصلي ، وكان لابد من الانتظار طويلاً حتى يأتى إسبان مثل ابن رشيد أو ابن جبير حتى يأخذ كل منهما على عاتقه رواية الظروف التى أحاطت برحلته ، وفيما يتعلق بالفترة الأموية ، لابد لنا من أن نسعد - كما هى العادة ، على الأقل بصفة مؤقتة - لوجود المعلومات القليلة التى يوردها كاتبو السير الذاتية ، والتى تحتوى على أخبار تتحدث عن نسبة معتبرة من الفقهاء قاموا بأداء فريضة الحج ، ومن الممكن لنا أن نتصور بأن السفر عنز البحر لم يكن يحظى سوى بتأييد نسبة تقل كثيراً عن أنصار السفر عن طريق البر ، فما كان السفر عبر البحر مكلفاً فقط ، وإنما كان محفوفاً بالمخاطر ، فهناك احتمالات التعرض للغرق وسط القراصنة الذين يمارسون نشاطهم فى مياه البحر ، منهم المسيحيون ومنهم المسلمون ، وفى كل عام ، مع ذلك ، كانت هناك مجموعة من السفن التى تبحر من الموانئ الأندلسية فى ألميرية Almeria ودانية Denia أو بلنسية Valencia ، فتأخذ طريقها بمحاذاة الضفاف الشرقية ، تحمل على متنها العديد من المسافرين ، وحين تحط فى ميناء الاسكندرية أو أحد الموانئ السورية ، لم يكن أمام هؤلاء المسافرين

من خيار سوى مواصلة ماتبقى من الرحلة عن طريق البر ، ففي عام ١٠٢٨ (٤١٩هـ) ، قام سيد أراجوان التوجيبي ، محمد بن أحمد بن صمادح ، الذى أصبح ابنه معن أميراً مستقلاً لألميرية ، وكان هو نفسه حاكماً لمدينة وشقة Huesca ، بتدشين سفينة فى ميناء دانية Denia بهدف القيام برحلة لأداء فريضة الحج ، فجهزها بكل مايلزم بعناية فائقة ، ثم استقلها فى وقت طيب ، يصحبه فيها حاشية عديدة ، إلا أن عاصفة هبت فأغرقت السفينة بين الشاطئ الشرقى وجزيرة بسطة Ibiza ، ومات غرقاً مع عدد كبير من رفاقه (١٨) .

وإذا لم يكن السفر بالطريق البرى يلحق بالمسافرين نفس هذه المخاطر ، إلا أنه كان يعرضهم لمخاطر أخرى كانت محطاً للتفكير من جانب كل من يهم بركوب البر ، فما أن يضعوا أرجلهم على الطريق ، بعد سفر طويل عبر البحر ، داخل أراضى الشمال الإفريقى حتى يجدوا أنفسهم أمام طريق لانهاية له ، يبلغ طوله آلاف الكيلومترات ، يتطلب السير فيه مدة تصل إلى شهور يقاسى فيها المسافر عناءً كبيراً ، وخاصة من أجل أن يتمكنوا من عبور تلك السهول الأفريقية والصحراء الليبية ، حيث يظهر لهم عند أطرافها ، كما لو كان فردوساً حقيقياً ، وادى النيل وحدائقه الخضراء الياضعة ، كان القليل من المسافرين يحظى بركوبة يمتطيها ، رغم أن امتلاكها يعنى التعرض للمخاطر ، فما كان قطاع الطرق يتورعون عن اغتصابها منه . وهكذا ، كان الحجاج ، الذين لا يحملون نقوداً أو أية أحمال أخرى غير القليل من الثياب ، يتقدمون فى سيرهم نهاراً صوب تلك القبلية ، التى كانت وجهتهم السامية ، وفى كل مرحلة تنتهى يحاولون نسيان متاعبها لكى ينخرطوا فى أداء بعض الشعائر ، ويشكروا الله ويحمدونه ويطلبون منه العفو والرضا ، ومما لاشك فيه أنه من كل البلاد ، بعد معاناة قاسية مماثلة ، توافد أيضاً كثيرون آخرون من الحجاج شطر الأماكن المقدسة ؛ ولكن ، ألم يكن المجهود الأكبر هو ذلك الذى بذله هؤلاء الأندلسيون الذين ، بتعرضهم لكل ألوان الخطر ، تحملوا عناء السفر من أجل هذا الحج البعيد ، رغم أنهم فى عودتهم إلى بلادهم سوف يحصلون على ذلك اللعب الذى يحسداهم عليه الآخرون ، لقب الحاج ، وحصولهم كذلك على التقدير والاحترام الواجبين من قبل أبناء وطنهم ؟

وماعثرنا فى أى ركن من أركان الأدب الأندلسى المعاصر للأمويين على أية معلومة يمكن لنا أن نستند إليها فى القول بأن الدولة ، مثلما حدث بعد ذلك فى الغرب الإسلامى ، قد تدخلت من أجل التنظيم الرسمى لرحلات الحج التى يقوم بها رعاياها ، مجمعة إياهم فى ركب كبير يمكن له أن ينضم إلى ركاب المغرب وأفريقية فى طريقهم صوب الأماكن المقدسة ، كان إسهام الظروف السياسية فى مثل هذا المجال قليلاً جداً ، وفيما يبدو ، أنه كان على كل فرد أن ينظم مراحل رحلته بما يتاح له من وسائل خاصة .

ومن ناحية أخرى ، ففي إسبانيا - مثلما كان يحدث فى بقية العالم الإسلامى - كان مقبولاً فى تلك الفترة أن يقوم شخص بإثابة آخر مكانه لأداء فريضة الحج باسمه ، فيرسل مكانه مبعوثاً شخصياً كبديل له ، وقد لجأ إلى هذا الإجراء فى الغالب فى العصور الوسطى ملوك الإسلام فى الغرب ^(١٩) ، الذين كانوا يرفضون ترك ديولاتهم من أجل أداء تلك الفريضة ، رغم أن ذلك يعد واجباً عليهم كما هو واجب على أتباعهم ، ومثل ذلك الحل كان شائعاً جداً فى إسبانيا ، حيث إنه فى كتابه الخاص بالعقود ، قد احتفظ لنا الجزيرى الأندلسى ^(٢٠) بنموذج واحد من هذه العقود ، والذي بمقتضاه كان يتعهد فرد من الناس ، بعد أن يدفع إليه مبلغ من المال يساوى ثلث ميراث الشخص المتوفى بالقيام بتلك الفريضة باسم من انتقل إلى الآخرة ، مثل هذا العقد يعد وثيقة بالغة الأهمية ، حيث يعد واحداً من أقدم النصوص العربى التى تقدم لنا ، بدقة متناهية تفاصيل مناسك الحج التى قام بعض المؤلفين المسلمين المتأخرين بوصفها لنا بشيء من التفصيل .

لم تكن هناك مغالاة فى الأهمية التى كان يمثلها النظام الإسلامى للحج بالنسبة لإسبانيا الأموية ، فعلى الرغم من أن رغبة مملكة قرطبة كانت ، فى القرنين التاسع والعاشر ، تكمن فى محاولة الانغلاق داخل حدودها ورفض أى تغلغل سياسى من جانب الخلافة العباسية ، وكذلك بصورة أكبر مع مرور الزمن من قبل الخلافة الفاطمية إلا أنها لم تتمكن من أن تمنع رعاياها بصورة قانونية من الخروج بصفة مؤقتة لأداء فريضة لها سلطانها ، وبهذه الطريقة فتحت الأبواب أمام التأثيرات الخارجية ، وأباحت على الرغم منها ، الاتصال الروحى بالشرق ، فبفضل الحج ، تمكن

فقهاء الأندلس من نشر مذهب المدينة المنورة في ربوع بلادهم ، وبعد ذلك ، ساهم الرحالة القرطبيون ، في عهد عبد الرحمن الثاني ، في إدخال الموضات والعادات المأخوذة من الحضارة البغدادية إلى أراضى الأندلس ، وقد كان ذلك كذلك لأنه في أغلب الأحوال كان حجاج شبه الجزيرة الأيبيرية ، الذين يمتلكون قاعدة من المعلومات مكنت لهم في العلوم الشرعية ، ينتهزون سفرهم الش المشرق لكي يمدوا ، على مدى سنوات دائماً ، إقامتهم في الجزيرة العربية ، أو حتى السفر إلى العراق أو إلى أماكن أبعد من هذا ، وعليه فقد كان انتقالهم من أجل تحقيق هدفين : أداء مناسك الحج و«البحث عن العلم» أو طلب العلم .

٢ - المذهب المالكي الأندلسي والإسهامات العقائدية

الشرقية (٢١)

المدرسة المالكية فى إسبانيا الأموية :

إذا ماكانت إسبانيا الأموية قد تميزت دائماً بأنها قلعة صحة المعتقد الدينى ، فقد كانت تعد - فى نفس الوقت - إحدى القلاع الحصينة للمذهب المالكى ، ولكنه مذهب قد تجمد فى وقت قريب والذى نطلق عليه هنا ، فى رفاعية «المذهب المالكى الأندلسى» .

فى الواقع - وبداية من القرن التاسع - أصبح المذهب المالكى هو المذهب الرسمى المقبول فى المملكة القرطبية ، وأصبح فقهاء الأندلس ، فى غالبيتهم - يمثلون الجبهة المكلفة بحراسة هذا الاحتكار المذهبى ، والذى لم يتأخر فى تحوله إلى شلل فكرى يتناقض تماماً مع ذلك النشاط الذى كانت تمارسه وتنشره فى نفس الفترة المدارس الشرقية فى المواد الشرعية والقضائية ، وقد كان الأدب الذى واكب المذهب المالكى ، والذى اصطبغ فى الغالب بلون مالكى كثيف ، يقدم طابعاً وشخصية أحادية الجانب تعمل على إثارة الشكوك ، لأنه إذا لم نعر الانتباه إلا إلى هذا الجانب ، فإن إسبانيا الإسلامية ، تحت حكم الأمويين ، قد رفضت بكل شدة كل تدخل من جانب المدارس الدينية الأخرى ، حتى تتمكن من الحفاظ ، عن طريق الدعم المتواصل من قبل السلطة الموقته ، على التبعية للمدرسة المالكية الوحيدة من أن تمس ، وهذا هو ماحدث بالفعل فى بعض فترات معينة ، فى فترتى الإمارة والخلافة على حد سواء ، سواء أكان ذلك بسبب التأثير الذى مارسه رجال الدين من أنصار المذهب المالكى على عاهل قرطبة ، أو بسبب أن من كان يمارس السلطة - وخاصة فى فترة الوصاية على الإمارة - وجد فى مثل هذا الموقف فائدة سياسية لشخصه ، ولكن كان هناك أيضاً عدد من الملوك الذين عرفوا كيف يتخلصون من هذا التأثير ويعلنون السماح ، حين لايقدرّون على التشجيع ، بدخول تيارات جديدة من تلك التى لا تقدم على إلحاق الأذى والضرر بصحة المعتقدات ، وهو الأمر الذى كان بمثابة الركيزة الأساسية للنظام ، ولدينا دلائل عديدة

على مثل هذا التسرب ، وخاصة خلال فترتي حكم محمد الأول والحكم الثاني ، على الرغم من أن الأدب المناصر للمذهب المالكي يتلاشى ذكرها أو يصمت عنها ، مطالباً بأعلى صوته أن يكون للمدرسة التي يمثلها النشاط الوحيد المشروع ، داخل الأندلس ، في مجالي الدين والقانون .

وحتى يتسنى لنا تقويم هذا النشاط دون اللجوء إلى استخدام معلومات قليلة الموضوعية ، فنملك بين أيدينا ، لحسن الحظ ، مصدرين غير متساويين في الانتشار ، ولكنهما معاصرين تقريباً ، وخاصة الأول منهما ، يتمتعان بقيمة وثائقية من الدرجة الأولى ، مجموعة السير الذاتية لابن الفرضي والرسالة الصغيرة لابن حزم عن «فضل الأندلس La exclencia de La Andalus» ودائماً ماكانت الفرص سانحة لذكر اسم هذا المجادل الإسباني الكبير الذي عاش في القرن الحادي عشر ، وذلك حتى نتذكر بأننا ندين له ببعض التفاصيل عن الحياة السياسية والاجتماعية داخل البيئة الإسبانية ، سواء في الجبهة Chamhara ، المكتوب الذي يهتم بمعالجة الأنساب ، أو في كتابه الشهير طوق الحمامة Collar de Paloma ، أو في نقط العروس ، وهذا العمل الأخير - في رأينا - يتضمن محتوى وخطة يبذوران لنا فقيرين ، إلا أنه يشتمل على كم وافر من المعلومات القيمة عن العالم الأندلسي . أما «الرسالة» لابن حزم حول فضائل وطنه^(٢٢) ، رغم قصرها ، تحتوي على تلخيص أخذ للنشاط العقائدي لبلاده ، إذ بما أنه لا يذكر فيها فقط رجال الدين من أنصار المذهب المالكي ، وإنما يتعرض بالذكر أيضاً لبعض الشافعية والظاهرية (المدرسة التي كان ينتمي إليها المؤلف) ، فبالإمكان أن تصبح ذات فائدة عند القيام بأي وصف تفصيلي بعض الشيء للدور الذي قامت به الأندلس ، حتى عهد الطوائف ، في وضع القواعد الفقهية ودراسة الحديث ، والعلوم الدينية ، وفيما يتعلق بابن الفرضي ، الذي يعترف ابن حزم بأستاذيته له ، فإن له الفضل أيضاً في عدم قصر كلامه في مجموعة سيره الذاتية على المالكية فقط (الأمر الذي كان من الضروري أن يتركه متقوقعاً في نفس الإطار الضيق الذي يجول في كتاب الطبقات) ، وكذلك في فتحه الطريق الذي يجب أن يسير عليه مواصلوه بداية من أواخر القرن الحادي عشر : ابن باشكوال وابن الزبير وابن الأبار ، وقد كان هذا التراث المعتر من

المعلومات التي جمعها ابن الفرضى - والذي سوف نتحدث في مكانه المناسب عن موته المأساوى فى قرطبة عام ١٠١٣ (٤٠٣هـ) ، محل تقدير من جانب ابن حيان حيث اعتمد عليه كمصدر أولى ، حين أراد أن يرسم فى كتابه (المقتبس) النشاط الفكرى فى شبه الجزيرة الأيبيرية على مدى الفترات التى حكم فيها الملوك من السلسلة الروانية .

نحن فى حل الآن من التعرض بالتفصيل مرة أخرى للظروف - التى أشرنا إليها فى بداية هذا العمل^(٢٤) - التى أحاطت بدخول مذهب الإمام مالك إلى أرض الأندلس ، أو مدرسة المدينة ، وذلك فى أواخر فترة حكم الأمير هشام الأول أو فى السنوات الأولى لحكم ابنه الحكم الأول ، والتى كانت كلها على مقربة من مطلع القرن التاسع ، وكذلك فقد أسلفنا أيضاً القول فى كيفية سيادة هذا المذهب بسرعة على ذلك الذى كان سائراً حتى دخوله إلى المملكة القرطبية ، والتى كانت حتى ذلك الوقت تتخذ فى ثبات تام كمذهب لها تلك «العقيدة المذهبية السورية» مذهب الفقيه الأوزاعى الدمشقى ، والذى كان تلميذه الرئيسى فى أرض قرطبة هو صمصاع ابن سلام الشامى ، كان محركو مثل هذا التغيير ، والذين وجدوا ترحيباً بهم لدى أتباع عبد الرحمن المهاجر (الداخل) ، من رجال الدين الأندلسيين ، من أصول عربية أو بربرية ، والذين بدأوا فى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم ، مع مالك نفسه أو مع تلاميذه ، فى دراسة نظام المدرسة المدنية ، وأحضروا إلى قرطبة نسخاً من العمل الرئيسى لمؤسس هذه المدرسة ، ألا وهو كتابه الشهير «الموطأ» ، والذى يمثل أقدم الكتب القضائية الإسلامية التى وصلت إلينا ، هؤلاء الفقهاء - زياد ابن عبد الرحمن ، يحيى بن مضر ، عيسى بن دينار والبربرى يحيى بن الليثى - لم يكونوا فقط من قاموا بنشر المذهب المدنى فى إسبانيا ، وإنما أيضاً سيكونون بمثابة الممثلين الأوائل لهذه الزمرة من رجال الدين الأندلسيين المؤثرة والتى ستعمل على صبغ المذهب المالكى الأندلسى ، لا فى العاصمة وحدها ، بل فى إلبيرة Elvira وأشبيلية Sevilla أو طليطلة Toledo ، بالتزمت والتصلب ، وهما أمران سوف يصبحان - فيما بعد - ميزتين يتميز بهما المذهب المالكى على مدى البقية الباقية من فترة حكم الأمويين .

إن المذهب المالكي الأندلسي - والذي يمكن دراسته من خلال وجهة النظر العقائدية مقارنة بالمدارس الدينية الأخرى ، ولكن ليست هذه هي المناسبة التي يمكن لنا فيها أن نبدأ مثل هذا الدراسة - في حاجة - بلا شك - إلى أن يقيم في ضوء النظريات التي ظهرت حديثاً عن تطور الاتجاهات المتعددة للفقهاء في العصور الوسطى^(٢٥) ، ومع هذا ، فسوف نلجأ إلى ذلك الرأي الذي تبناه في هذا الصدد اثنان من علماء الإسلاميات المعاصرة ، وكلاهما بعيد عن التقدير اليوم : جولد تسهير^(٢٦) وأسين بالاثيوس^(٢٧) ، وفي رأي هذين العالمين ، قامت المدرسة الإسبانية للفقهاء بإعلان رفضها المبكر لدراسة الأحاديث النبوية ، التي كانت تمثل القاعدة التي قام عليها مذهب إمام المدينة ، ليعلموا التزامهم بالكتب المختصرة التي تتناول فتاوى في موضوعات خاصة من القضايا الفقهية ، وذلك بنفى الوضع الذي صيغت عليه من قبل رجال الدين من فقهاء المالكية من الأجيال التالية ، إن الاستخدام الاستثنائي لهذه الكتب من الفروع قد أدى سريعاً إلى وجود طريقة سهلة وروتينية ، من شأنها أن تعمل جبراً على وضع العراقيين أمام التطور الفكري واستبعاد البحث عن حلول للقضايا الإشكالية بالعودة مباشرة إلى المصادر المنزلة من القانون الإسلامي والاجتهاد الشخصي ، وكانت نفس هذه الروح هي السبب الذي أدى بالمالكية الأندلسيين إلى معارضة استخدام المواد القائمة على دعم من الأحاديث حتى يمكن أن يستنبط منها تطبيقات قضائية ، وفقاً للطريقة العقلية «لعلم الأصول» (أصول الفقه) ، بنفس الطريقة التي صيغت بها هذه العلوم في أوائل القرن التاسع على يد الإمام الشافعي ، المؤسس للمذهب الذي يحمل اسمه ، كان هذا الاستخدام الاستثنائي للكتب المختصرة للفروع عاملاً من العوامل التي جرفت المذهب المالكي الأندلسي إلى التقليد المحض ، والذي كان يعتريه قليل من التغيير في بعض الأحيان عن طريق الممارسات المحلية ، ولقد امتد الوقت بمثل هذا الحال للأوضاع إلى فترة أبعد من فترة الخلافة ، كما كان هذا سبباً أساسياً في تجميد الإسلام في الغرب خلال فترة حكم المرابطين .

وتلزمنا صفحات كاملة لكي نعدد أسماء الفقهاء الأندلسيين الذين برزوا على طريقتهم داخل إطار هذا المذهب المالكي المتشدد المحافظ ، وسوف نقصر حديثنا هنا

على بعض الشخصيات منهم ، والتي حازت شرف ذكرها فى رسالة ابن حزم ، ومن الجدير بالذكر هنا أن نذكر فى المقام الأول تلاميذ مالك نفسه أو أتباعه المباشرين ، الذين أدخلوا إلى الأراضى الأسبانية المذهب المدنى : عيسى بن دينار ، والذي بسبب مشاركته فى المؤامرة التى حيكّت فى قرطبة ضد الحكم الأول ، كان عليه أن يختفى لبعض الوقت ، حتى حصل على العفو ، عبد الملك بن حبيب ، المتوفى عام ٨٥٢ (٢٨٨هـ) الذى نسبت إليه أعمال كثيرة ، من بينها قصة تبدو أسطورية بكاملها ، ويحيى بن يحيى ، الذى أصبح فى منتصف القرن التاسع عميداً حقيقياً لجماعة الفتوى بالعاصمة ، ورغم أنه أصر على رفض منصب القضاء ، إلا أنه أُملى على الأمراء اختيار قضائهم وفرض عليهم أشخاصاً يحلون محلهم على مر الوقت ، هؤلاء الثلاثة من علماء الدين ، الذين أعطوا للمدرسة المالكية الأندلسية شكلها الخاص ، كانوا هدفًا فيما بعد لقول ابن لبابة ، أحد أتباعهم : «ابن دينار كان فقيه الأندلس ؛ وكان ابن حبيب عالمها ، ويحيى ابن يحيى أكثر من شهد الناس له بالعقل ، أما عبد الملك بن حبيب ، الذى اشتهر أكثر ما اشتهر بكتابه «الواضحة» والذى يعد تعليقاً على كتاب الموطأ للإمام مالك ، فقد كان له تلميذ من أشهر أتباعه يعرف باسم محمد العبثى ، المتوفى عام ٨٦٩ (٢٥٥هـ) المؤلف لكتاب أسماه «العتبية»^(٢٨) والذى حاز التقدير والتبجيل فى إفريقيا ، فى رأى ابن حزم ، وهناك فقيه آخر من نفس الفترة ، عاش فى قرطبة ، هو يحيى ابن ابراهيم ابن مزين ، قام بالتعليق على كتاب الإمام مالك وكتب مجموعة من السير الذاتية عن الشخصيات المذكورة فيه ، وبعد فترة حكم عبد الرحمن الثانى ، أصبح الفقيه القرطبى الشهير مولى محمد بن عمر بن لبابة فقيه قرطبة ، والمتوفى عام ٩٢٦ (٣١٤هـ) ، والذى أصدر مجموعة من الفتاوى ذكر معظمها ابن سهل فى «مؤلفه» ، وبعد ذلك ؛ وحتى نهاية الخلافة ، فى قرطبة وبقية المدن الأندلسية الكبرى على حد سواء ، مثل علماء الدين الإسلامى من أتباع المذهب المالكى فيلقا كبيراً ، ورغم همتهم فى شرح الموطأ أو المدونة للقيروانى سحنون ، أصبحوا يكرسون جهودهم لغرس نهج كتاب الطبقات ، والذى تميز فيه على وجه الخصوص عبد الله بن أبى دليم وأحمد ابن عفيف .

تغلغل المدرستين الشافعية والظاهرية :

فى النصف الثانى من القرن العاشر ، وحين دهش الجغرافى المشرقى المقديسى^(٢٩) أمام من أخبره من أبناء الغرب الإسلامى بأن المذهب الحنفى لا يوجد له نصير واحد فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، مع وجود الكثير من أتباعه فى المغرب ، كانت الإجابة على دهشته هذه أن مثل هذا الأمر راجع للأمير ، حيث قام عاهل قرطبى ، لم يذكر اسمه ، فأعلن قوله : «يكفينا فقيه المدينة ، فلا أريد مذهبين فى أرضى» ، وقد بلغ الأمر بالحكام ، كما يذكر المقديسى فى وصفه^(٣٠) إلى طرد أى شخص يتم التأكد من ممارسته للمذهبين الحنفى والشافعى من أرض الأندلس ، ولكن - كما سنرى - فإن مثل هذا التقدير كان أمراً شكلياً فقط .

وبالفعل ، إذا ما كان المذهب الحنفى ، على مايبدو ، لم يحظ مطلقاً بأى فضل على أرض الأندلس فى عهد الأمويين ، فلم يكن الوضع هكذا بالنسبة للمذهب الشافعى ، الذى بدأت جذوره تنبت - وفقاً لشهادة ابن حزم وابن الفرضى - بداية من فترة حكم محمد الأول ، كان هذا العاهل هو أول من سمح من بين الأمراء فى الدولة الإسلامية فى الأندلس - إذا لم يكن أولهم تشجيعاً ، على الرغم من معارضة الفقهاء المالكيين - ببعض المحاولات لتوسعة مجال القضاء ، دون الخروج من دائرة صحة المعتقد ، كان المشروع الأول فى العاصمة الذى بشر بالمذهب الشافعى ، الذى كان ينتمى إليه فى المشرق ، هو القرطبى قاسم بن محمد بن سيار ، ويقناعة منه بضرورة اللجوء إلى إجراءات استنباط القواعد القضائية عبر دراسة القرآن والسنة والاستناد إلى رأى الإجماع ، وكذلك إلى القياس ، قام بفتح مدرسة فى قرطبة لتعليم مثل هذه الأمور ، بموافقة ضمنية من محمد الأول ، الذى من أجل أن ينقذ هذا الفقيه من مدرسة الفقهاء المناصرين للمذهب التقليدى ، قام بتعيينه كاتباً خاصاً له ، واحتفظ به فى هذا المنصب حتى وفاته فى عام ٨٩٠ أو ٨٩١ (٢٧٧ - ٢٧٨هـ) .

ولقد تثبت الموقف التحررى للأمير محمد الأول بصورة أكبر حين أظل برعايته عالماً قرطبياً آخر ، احتل نفس المكانة التى كانت للطبرى : هو بقى بن مخلد ، هناك بقية باقية من الشخصيات غير المشهورة مثل هذا الفقيه الأندلسى ، والذى ذكرنا أنفاً بضع كلمات عن مشواره ، الذى حكى لنا عنه بطريقة مسهبة ابن حيان^(٣١) ، فبعد رحلة طويلة قطعها إلى المشرق ، تابع خلالها حلقات العلم التى نظمها أشهر الأساتذة والمعلمين فى تلك الفترة ، وعلى وجه الخصوص محمد بن حنبل ، عاد إلى قرطبة حتى

يقيم فيها دراسات الحديث - والتي كانت ممنوعة - عرف كيف يؤهل العديد من التلاميذ الذين تمكنوا بعده من تشريف هذا الفرع من العلوم (وخاصة ، ابن وضاح) ، ووصل به الأمل في دروسه أن يشرح الأحاديث التي جمعها ابن أبي شيبه ، وقد رأى فقهاء قرطبة هذا الأمر فضيحة غير محتملة (٣٢) ، ولهذا فقد ضجوا بالشكوى منه إلى الرأي العام ، وظل من دعا إليه واقعا تحت الإدانة بالإلحاد والمروق ، حين قام محمد الأول ، الذي أحيط علماً بالأمر من قبل وزيره هاشم بن عبد العزيز ، بالقضاء على البطانة ثم دعى بقيا إلى استئناف دروسه في الحديث ، بعد أن وعده بعدم تعرض أحد له ، وقد شهد بعض كتاب السير بأن بقي بن مخلد المتوفى عام ٨٨٩ (٢٧٦هـ) هو من علماء الشافعية ، رغم أن هناك جمعاً آخر يبرز عدم انتمائه الدائم إلى أى اتجاه مذهبى .

كان هناك عدد كبير من الفقهاء والمنتسبين إلى المذهب الشافعى بعد أن ألقوا دروسهم في إسبانيا ، وخاصة في عهد الحكم الثانى (٣٣) ، وقبل ذلك ، فى ظل حكم الناصر ، كان هؤلاء - على ما يبدو - يعيشون فى الظل ، وقد حدث لهم نفس الشيء مرة أخرى ، فى فترة وصاية المنصور ، حين أحكم وثاق الحصار المالكي من جديد ، وذلك فى الوقت الذى أعلن فيه الجغرافى المقديسى رأيه الذى ذكرناه آنفاً . وفى ظل حكم الناصر ، ظهر داع عنيد للمدرسة الشافعية هو ابن الخليفة نفسه، ولى العهد عبد الله ، الذى كما ذكرنا (٣٤) قد حكم عليه بالموت فى عام ٩٥٠ (٣٢٨هـ) من قبل والده ، وذلك بسبب تورطه فى مؤامرة حيكت ضده ، وبعد فترة الإمارة ، خلال السنوات المائجة الأولى التى سبقت فترة الخلافة ، عاد المذهب الشافعى ليجد له أنصاراً فى قرطبة ، وأكثرهم شهرة هو ابن حزم ، والذى ، بعد أن بدأ مشواره بين صفوف المدرسة المالكية ، قام أيضاً لوقت طويل بدراسة المذهب الشافعى ، قبل أن يستقر رأيه أخيراً على المذهب الظاهرى ، الذى كان يمثل العلم الإشباني الأبرز بالنسبة لهذا المذهب وأعمل ذهنه ككاتب ومجادل فى خدمته .

لقد تأسس المذهب الظاهرى ، الذى لم تتح له الفرصة للتواجد فى الإسلام الحديث مثلما حدث مع المذاهب الفقهية الأربعة - فى العراق ، فى القرن التاسع - على يد داود ابن على المتوفى عام ٨٨٢ (٢٧٠هـ) ، عمل مذهبه هذا ، الذى تميز بانحيازه الشديد للأخذ بالمعنى الحرفى أو الظاهرى للقرآن والأحاديث باعتبارهما مصدراً للتشريع ، على تهينة المناخ أمام تطوير نظام عقائدى يقوم على قاعدة من النظر الحر

فى النصوص المنزلة دون استثناء للجوء أحياناً إلى المجهود الشخصى فى تقويم الأشياء ، وهو ما يعرف بالاجتهاد .

ولقد وطئت أقدام المذهب الظاهرى أرض إسبانيا فى نفس الوقت الذى دخلها فيه المذهب الشافعى ، وأصبح مثله فى ذلك مثل المذهب الشافعى ، هدفا للعداء المفتوح المعلن من قبل الأوساط المالكية المحافظة ، وكان الذى أتى بهذا المذهب إلى أرض الأندلس وقنن تعاليمه هو تابع قرطبى لداود بن على ، يسمى عبد الله بن محمد بن قاسم ، إبان حكم الأمير محمد الأول ، ولكن الممثل الرئيسى للمذهب الظاهرى الأندلسى فى القرن العاشر هو - على مايبدو - ذلك القاضى الشهير منذر بن سعيد البلوطى ، الذى تحدثنا عن مشواره فى مكانه المناسب ، وأشرنا إلى بعض الملامح المميزة لشخصيته المستقلة (٢٥) ، وإذا ما كان لنا أن نصدق كاتبى سيرته الشخصية ، فإنه قد انتسب فى العامين اللذين أمضاهما فى المشرق إلى مذهب داود ، والذى ظل على وفائه له حتى وفاته فى عام ٩٦٦ (٢٥٥هـ) ، رغم الحماس الذى أبداه ، فى الوقت الذى شغل فيه منصب القضاء ، فى الابتعاد قليلاً عن المذهب المالكى ، الذى كان متوافقاً مع اجتهاده الخاص . وبعد وفاة هذا القاضى ، عانى المذهب الظاهرى مرارة العيش فى الظل مثلما حدث مع المذهب الشافعى ، حتى وجد من يحمل رايته ، «بعد أن كان مصنفاً فى الطرف الأقصى من المعتقد الصحيح» (٢٦) فى شخص ابن حزم ، والذى استند على هذا المذهب فى جريبه الشعواء ضد المدرسة المالكية ، التى تأصلت جذورها فى وطنه .

الدعوة لمذهب المعتزلة . حياة الزهد :

ليس هناك بين صحة المعتقد والهرطقة الخالصة البسيطة من حد فاصل سوى خطوة واحدة (٢٧) ، ويبدو أنه لم يكن فقط ممكناً - بل أكيداً - أن الأندلسيين قد أقدموا على تلك الخطوة فى القرن العاشر ، رغم إحاطتهم لأنفسهم بالاحتياطات اللازمة حتى لا يقعوا فى أيدي حملات التفتيش التى لا ترحم فتدينهم إدانة دامغة لا استئناف فيها ، وما نعرف قط - بما لا يدع مجالاً للشك - ويشئ من التفصيل علام ارتكزت الدعوة الإسماعيلية التى أصبحت منظمة بداهة فى إسبانيا ، خلال فترة حكم عبد الرحمن الثالث ، على يد مبعوثين سريين للفاطميين ، وعلى الأخص فى الأقاليم الواقعة على حوض البحر الأبيض المتوسط فى أندلسيا والجهة الشرقية ، وهى المناطق

التي يسهل التأثير عليها نظراً لموقعها الجغرافي وانعزالها النسبي عن قرطبة ، ماهو التأثير الممكن فى الأندلس ، قبل وبعد فترة الإمارة ، إذا ماكان قد رغب أو تمكن من الظهور ، فى السلوك الدينى للعامة من الناس التواجد على ساحة العاصمة من قبل المجموعة المجندة من «بنودمار» و «بنوبرزال» التي كانت تنتمى إلى فرقة الإباضية ، القادمة من جنوب أفريقيا ؟ فى القرن الحادى عشر ، أشار ابن حزم - كما أسلفنا القول (٣٨) - إلى تواجد نواة من السكان الشيعيين فى بلفيق Velefique التابعة للميرية Almeria ، وهى النواة التى نود معرفة معلومات أفضل عنها ، وقد أخبر البعض عن القاسم بن حمود - الذى تمكن قبل سقوط الخلافة بقليل من الجلوس لعدة أشهر على كرسى الخلافة - بأنه كان يعتنق الآراء الشيعية (٣٩) ، التى تعد - بلاشك - نفس آراء السادة الإدارسة ، والذين أدت نشاطاتهم العدائية فى شمال المغرب خلال القرن العاشر إلى إخماد مملكة قرطبة ، أياً كان الوضع ، فيبدو أن العدوى الشعبية لم تتمكن من أن تحصل فى إسبانيا إلا على بعض المكاسب المتفرقة والتى لم يكن لها مستقبل يذكر .

وعلى العكس من ذلك ، فإن مذهب المعتزلة قد وجد فى البلاد عدداً من الأتباع أكثر اعتباراً من ذلك الذى تذكره الآداب التاريخية والخاصة بالسيرة الأندلسية ، وبنفس القدر الذى تم به إدانة المذهب الشيعى كان نصيب هذا المذهب المؤيد لحرية الرأى ، كما يعلن ذلك بون مواربة المقدسى فى رأيه الموحد عن الإسلام فى الأندلس (٤٠) ، ولكن هذه الطائفة المذهبية قد لجأت بصورة أفضل من الهرطقة الإسماعيلية إلى بعض أعمال التخفى ، والتى بفضلها تمكن أتباعها من ممارستها ، وبث تعاليمها حتى بين تلاميذها المعروفين وراء الأكمة ، بون الظهور أمام الوسط الاجتماعى وجلب المضار لنفسها وأتباعها من جراء محاربة المحافظين المالكين ، الحراس الغيورين للمعتقد الصحيح الصارم .

وليس من السهل تحديد التاريخ الذى بدأ فيه الاعتزال بالظهور رويداً رويداً بين العناصر الغير معلومة فى المجتمع الإشباني ، ولكن على مايبدا أن ذلك لم يحدث قبل فترة حكم محمد الأول ، وذلك عندما بدأت أعمال الجاحظ ، تلميذ المعتزلى النظام ، فى الانتشار بوفرة فى الأوساط الفكرية على الساحة القرطبية وغيرها من ساحات أهم المدن التابعة للمملكة (٤١) ، إن الاطلاع على مجموعة السير لابن الفرضى يسمح لنا بتحديد وجود نواة صغيرة من هؤلاء المعتزلة الأندلسيين فى أواخر القرن التاسع ،

والذين كانوا فى نفس الوقت فقهاء يحظون بالتقدير من جانب أهليهم ومواطنيهم ، وعلى سبيل المثال ، فهناك القرطبى عبد الأعلى بن وهب ، الذى درس فى المشرق وأفريقيا ، وكان عضواً مشاركاً فى مدرسة الشورى فى مدينته التى ولد فيها ، وكان محل تقدير واعتبار حتى وفاته فى عام ٨٧٥ (٢٦٢هـ) ، وذلك باعتباره نصيراً للمعتقدات المذهبية الإلحادية عن حرية الإنسان ونفى خلود الروح ^(٤٢) ، وأبرز من هذا كان وضع المعتزلى الشهير ، من أصل قرطبى ، خليل بن عبد الملك بن كليب ^(٤٣) ، الذى اشتهر أكثر بلقبه خليل الغفلة ، وكان معاصراً لبقى ابن مخذ ، والذى بعد أن عاد من رحلته الدراسية فى الشرق «بدأ يتحدث فى وضوح وعلانية عن الإرادة المستقلة للإنسان ومقدرته على أن يحدد بكل حرية أفعاله (الاستطاعة) ، دون أن يخفى نفيه لقبول الجبرية» ^(٤٤) ، على الرغم من تفاديه للقضايا شديدة الخطورة ، وخاصة مسألة خلق القرآن ، ماتعرض للمضايقة قط - على ما يبدو - طيلة حياته ؛ ولكن بمجرد موته - فى تاريخ غير محدد - هجم الفقهاء على بيته وأحكموا قبضتهم على كتبه ، التى - باستثناء تلك التى تناول فيها القضايا الفقهية - أضرمت فيها النيران .

ومن أتباع خليل الغفلة هذا كان ذلك القرطبى الذى سافر هو الآخر إلى المشرق ، يحيى بن يحيى ، المعروف بابن السمينة ^(٤٥) ، والذى أثنى سعيد الطليطلى على سعة وتنوع معارفه وعلومه ، فأطلق عليه لقب المعتزلى الشهير ، وقد أصيب فى أواخر أيامه بداء النقرس فاقعده عن الحركة زمناً طويلاً داخل بيته ، ووافته منيته عام ٩٢٧ (٣١٥هـ) بعد أن كون أتباعاً ودون أن يخفى انضمامه للآراء المؤيدة لنظرية الاستطاعة التى كان يمارسها أستاذه .

وبعد ذلك أسدل ستار الصمت على الاعتزال فى إسبانيا أثناء فترة الخلافة ، بالقدر الذى لم يحقق لهذه المدرسة العقائدية الاختلاط بأراء ابن مسره ، وبالقدر الذى أصبح فى لفظ الاعتزال ، حسب التعبير الذى يذكره جولد تسهير ^(٤٦) ، لايعنى بالنسبة لكتاب السير الأندلسيين أكثر من كونه «لفظاً عاماً وغامضاً ، يطلق على بعض الأفراد المستقلين الذين ناصروا اتجاهها مضاداً للأنشطة الدينية الصحيحة» ، وبعض المعتزلة المشرقيين الذين حاولوا الإقامة فى إسبانيا أعيدوا إلى بلادهم مرة أخرى بمجرد اكتشاف حقيقتهم ، وذلك مثلما وقع الأمر بالنسبة لمعتزلى بغدادى يدعى أبو الطيب بن أبى بردة ، الذى وصل إلى قرطبة عام ٩٧١ (٣٦١هـ) واستقبل بكل ترحاب من قبل

الحكم الثانى ، واعتبره الفقيه الأول فى زمانه ، ولكن بمجرد أن تم كشف حقيقة انضمامه إلى صفوف المعتزلة حتى تلقى أمراً بمغادرة البلاد (٤٧) .

هل بدأت فكرة الاعتزال منذ ذلك العهد فى الوصول إلى الطبقات العامة ، غير المثقفة فى الغالب ، بصورة مباشرة ؟ لا تواتينا الجراءة على تأكيد مثل هذا الأمر ، على الرغم من أن ابن حزم (٤٨) يطلق تسمية المعتزل على سكان حى كامل من أحياء الأندلس ، وادى بنى توبة ، وعلى كل ، فيبدو أن تطور وانتشار مذهب الاعتزال هذا كان يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحياة الزهد والتصوف ، والتي نملك عنها - فى تلك الفترة نفسها - معلومات أكثر دقة .

فها هو ميغل أسين Miguel Asin قد رأى بكل وضوح كيف أنه ، فى فترة الخلافة كانت الطريقة الوحيدة الممكنة للبقاء من قبل أولئك الذين أرادوا الهرب من وصاية رجال الدين الأندلسيين ، وتعليم حفنة قليلة من التلاميذ والأتباع أموراً من المستحيل تعليمها علناً دون أن يتعرض من يقوم بها لمخاطر جمّة ، هى اللجوء إلى حياة الاعتزال والزهد ، وحين أصبحت حياتهم هكذا ، تمكنوا ، على العكس ، دون أن يتعرضوا للعقاب من أن يحملوا إلى المذهب العقائدى الصحيح تلك الأفكار الإلحادية القادمة من المشرق (٤٩) ، وفى ظل ما أظهره هؤلاء من ورع مثالى ، حظى جميعهم بالمزيد من المكانة السامية أمام السلطة والفقهاء ، وعلى وجه الخصوص ، أمام العامة من الناس ، لقد كان هؤلاء - بصورة ما - رواد التصوف الغربى ، مجموعة من المنعزلين ، على مسافة من المدن فى الجبال والغابات ، فرضوا على أنفسهم الحرمان والتعذيب الجسدى ، وباختصار ، كانت حياتهم فى كل شىء تقارن بحياة الزهاد من المستعربين الذين سكنوا فى تلك الفترة الأديرة الواقعة فى سفوح جبال الأندلس .

هؤلاء المتصوفة ، الذين عرفوا بأسماء عديدة مثل عابد ، ناسك ، زاهد ، وأحياناً ، بالإضافة أيضاً إلى اسم الصوفى ، كان كُتّاب السير يرسمونهم كإناس قطعوا بإرادتهم كل صلة بينهم وبين الحياة الدنيوية ، ومن بينهم آخرون حافظوا على علاقتهم بالأوساط المثقفة ، على الرغم من أنهم كانوا يتميزون بأصالة طريقتهم فى اللبس وقواعدهم وتعاليمهم التقشفية فى الحياة ، فقد كانوا يمارسون المهن اليدوية الممتنة التى تعينهم على الحياة ، وفى بعض الأحيان بلغ بهم الأمر للانضمام إلى إحدى الطوائف الداهية للقتال على الحدود ، ومن بين كل هؤلاء المتصوفة يوجد واحد كثيراً

ما تناول سيرته الضبى^(٥٠) ، كان يُدعى محمد بن طاهر ، وعند عودته من المشرق ، حين أعلن عن رغبته فى عدم العيش بين أركان بيت أسرته فى مرسية ، بنى لنفسه كوخاً من الحلفاء والنباتات الصغيرة ، بالقرب من إحدى القرى ، وسط بستان صغير كان يمتلكه ، عاش هناك معتزلاً ، لا يأكل سوى الفاكهة والخضراوات التى يزرعها ، فارضاً على نفسه نوعاً من العقوبة ، وما كان يرتدى غير الصوف الخشن ، وما كان يغيب إلا عند مشاركته فى أعمال الجهاد التى كان يقوم بها ابن أبى عامر ، مثل تلك الصائفة التى استولى فيها المسلمون على قلمرية Coimbra وسمورة Zamora ، وفى نهاية حياته استقر فى طلبيرة Talavera ، إلى جوار نهر التاجه ، فشارك فى كل الغارات التى شنت على مواقع المسيحيين ، وفى إحدى هذه الهجمات وافته المنية ، بعد شهر قليلة ، عام ٩٨٩ (٢٧٩هـ) (٥١) .

وأثناء فترة الخلافة ، استقبلت إسبانيا أيضاً عدداً من أولئك المتصوفة السائحين ، الذين تجمعوا بكثرة فيها خلال القرون التالية وخاصة فى الجبهة الشرقية ، وأخيراً فى مملكة غرناطة ، وابن الفرضى ، على سبيل المثال ، يدرج فى معجمه للسيرة الإشارة إلى أحد متصوفة خراسان الذى عاش فترة وجيزة على أرض قرطبة عام ٩٦٩ (٣٥٨هـ) (٥٢) ، وآخر من أصل أنتيوكي Antioquia ، وصل إلى قرطبة عام ٩٨٣ (٩٨٣هـ) (٥٣) .

ابن مسرة وتلاميذه :

فى معبد صغير بسلسلة جبال قرطبة ، على مسافة بسيطة من العاصمة ، فى السنوات الأولى من القرن العاشر ، بدأ شخص يدعى محمد بن عبد الله بن مسرة ، تحت مظهر لرجل ورع كرس حياته للتقوى ، التأمل فى نظام لاهوتى وفلسفى جديد للغاية بالنسبة للأندلسيين ، وتدرسه لعدد قليل من التلاميذ ، وفى البداية ، أدت فضائل الروحية والنظام الصارم لحياته الدينية إلى تمتعه باحترام مواطنيه من أهالى قرطبة ، وبعد ذلك بدأت الشائعات تسرى والاتهامات السرية تتوالى ضده لقيامه بنشر أفكار تتعلق بمذهب المعتزلة وبناء نظام فلسفى يقول بوحدة الكون ، كان مثل هذا الاتهام بالإلحاد خطوة أولية . وحين شعر بأن حياته مهددة بالمخاطر ، استسلم ابن مسرة لفكرة الخروج من أرض الوطن ، فجاب أركان المشرق ، وأدى فريضة الحج ، ثم عاد إلى قرطبة ، حيث بدأ منها حياة الزهد من جديد واستأنف دروسه حول معتقداته

ومبادئه ، وماتأخر به الوقت فى تحمل أنواع الحرمان والتعذيب النفسى ، وفى عمر يقل عن الخمسين عاماً لقى حتفه فى أواخر عام ٩٣١ (٣١٩هـ) .

لا نملك بين أيدينا تفاصيل كافية عن حياة ابن مسرة حتى نقرر ما إذا كان قد صاغ منهجه قبل أو أثناء رحلته إلى المشرق ، فى رأى جولد تسهير^(٥٤) ، «وضح عليه تأثير النظرية الأفلاطونية الجديدة ، التى كانت شائعة الانتشار فى تلك الفترة فى بلاد المشرق ، التى تحقق شكلها الكامل فى مذهب الإسماعيلية» ، وفقاً لما يقوله نفس هذا العالم ، مستنداً لأقوال ابن الفرضى ، فإن ابن مسرة «قد مارس المنهج الرمزي القرآنى المفرط» وكان المؤسس لمدرسة كانت ستدخل فى الإسلام الأندلسى «حركة سرية لحرية الفكر» . فى بحثه الجميل عن ابن مسرة ، يصل ميجل أسين بالاثيوس MI-guel Asin Palacios إلى نتائج مختلفة بعض الشيء^(٥٥) ، فهو يفصل داخل إطار المنهج المسرى ، المنهج اللاهوتى للفيلسوف ، ويحاول أن يضع وسائل تمييزية لكل منهما ، مستنداً إلى تقديرات الأندلسيين من أمثال ابن حزم وسعيد الطليطلى ، وتقديرات الشرقيين من أمثال الشهر زورى والشهر ستانى ، وتكمن أصالة الفلسفة المسرية فى نظرية مأخوذة عن فكرة وحدة الكون عند الأفلاطونية الجديدة ، وهى للعلم ، عبارة عن «وجود مادة روحية ، يشترك فيها كل المخلوقات ، فيما عدا الله عز وجل» ، وعلى أساس من هذه النظرية بنى ابن مسرة مفهومه عن وحدة الكون ، ومبادئه عن حرية الفكر وإصدار الحكم ، والذى لا يخضع لسبق العلم الإلهى ، وتطهير النفس عن طريق العالم المادى حتى تعود إلى إطار العالم الروحى .

كانت هذه هى المرة الأولى التى يتم فيها التعبير عن مثل هذه الآراء العقلية فى إسبانيا ، والتى أثارت ضجة فاضحة وسط الرأى العام ، على الرغم من أن قلة من المبتدئين قد عزتهم تلك الآراء ، ومن بين هؤلاء الأتباع والتلاميذ من امتدت به الحياة إلى مابعد حياة ابن مسرة ، فعملوا على نشر أفكاره ، دون أن يتعرض لهم أحد ، على ما يبدو ، فى أول الأمر ؛ ونشروا كتبه ، التى افتقدناها فى الوقت الراهن ، والتى لا بد أنها وجدت قراءً على درجة من الوعى كثرى العدد مما جعلهم يثيرون الفقهاء فى قرطبة عليهم ، فى السنوات الأخيرة لفترة حكم الناصر ، بالتحديد فى عام ٩٦١ (٣٥٠هـ) ، تلقى فقيه العاصمة ، المدعو محمد بن زرب ، الذى عرف مؤخراً بنشرة لتقنين لمنهج بن مسرة ، من الخليفة ، إلى جانب فقيه آخر ، الزبيدى ، الذى سيكون فى المستقبل مؤدب الأمير هشام الثانى ، سلطات تامة لكى الجرح ، فقام ابن زرب

بإصدار أمر بالقبض على كبار تلاميذ ابن مسرة ، وأجبرهم على أن يسبوا علناً آراءه ويعدلون عنها ، ثم أمر بأن تحرق فى حضرته ، وأمام أبواب المسجد الجامع بقرطبة ، النسخ الشخصية التى كانوا يحوزونها من أعمال أستاذهم (٥٦) ، وبعد ذلك حين وصل ابن زرب بعد موت الحكم الثانى إلى منصب قاضى العاصمة ، أحيا من جديد حركة التفتيش ، وذلك بموافقة الحاجب ابن أبى عامر ، ضد أتباع ابن مسرة ، والذين خمدت دعوتهم بعض الشئ أثناء فترة حكم ثانى خلفاء بنى مروان .

فى تلك الأثناء - ٩٧٩ (٣٦٨هـ) - وقعت مؤامرة ضد العرش ، والتى تحدثنا عنها بعض الشئ آنفاً (٥٧) ، نجم عنها ، بين عقوبات كثيرة أخرى ، قتل وصلب صاحب الرد عبد الملك ، أحد أبناء القاضى الشهير منذر بن سعيد البلوطى ، المتوفى قبل هذا التاريخ بخمسة عشر عاماً ، ويبدو أن عبد الملك هذا ، الذى اتهم أيضاً باعتزاله ، قد دخل إلى جانب ثلاثة من أخوته سعيد ، وعبد الوهاب ، وحكم على وجه الخصوص ، إلى ساحة المذهب المسرى ، وأصبح ، فى تلك الفترة واحداً من أنشط الدعاة له فى قرطبة ، وكذلك فقد أدى المنهج الذى تبناه معتزل سلسلة جبال قرطبة إلى تكوين نواة فى نفس الفترة من التلاميذ والتابعين الذين أصبحوا على قناعة فى منطقة بجانة Pechina ، وبعد ذلك أصبح هذا المذهب شقاً داخل المدرسة المعروفة فى الشرق الإسلامى .

وعلى كل ، فما كان بمقبور الحماس المالكى الإشبانى غير المتسامح ، والذى نال التشجيع من قبل ملوك الطوائف ، أن يقتلع المذهب الذى أرساه ابن مسرة من جنوره فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، وما قدر حتى على منع انتشاره ، ورغم أن معلوماتنا غير دقيقة وجيدة عن مصير هذا المذهب فى الأزمان اللاحقة ، إلا أنه فى استطاعتنا أن نؤكد بأن مؤسسه كان على الساحة الأندلسية أول من بذل مجهوداً فى سبيل نشر التأمل الفلسفى وحركة فكرية برزت على الساحة فى صورة كاملة بداية من نهايات القرن الحادى عشر ، وخاصة التطور المتلاحق لحياة التصوف الجماعى التى اصططفت بصبغة إشبانية خاصة .

٣ - التأثير الشرقي على الثقافة الأندلسية

ورعاية الحكم الثانى للآداب والفنون :

الإسهامات الشرقية حتى منتصف القرن العاشر :

لقد تحدثنا عن كيف أن الواجب الدينى المتمثل فى أداء فريضة الحج قد هيا الظروف فى كل فترة أمام توافد الأندلسيين ، الراعين فى أن ينهلوا من مصادر المعرفة الإسلامية ذاتها على مراكز الثقافة الشرقية ، ففى العهد الأموى ، لم تكن المدينة فقط ، بل أيضاً بغداد وبقية المدن العراقية الكبرى^(٤٨) ، هى مراكز الجذب الرئيسية لهؤلاء الرحالة الذين لا يكتفون ولا يتعبون ، يهونون العلم ولا يأملون فى العودة إلى بلادهم إلا بعد أن يكتسبوا كما هائلاً من المعارف يضمن لهم الحظية بالتقدير والمكانة الرفيعة فى ديارهم ، ولكن لم تكن تلك الحالة من التعطش للعلم فى الغالب هى المحرك الوحيد لأولئك نفر من الأندلسيين للشرع فى مثل هذا الترحال المضنى ، فقد تحرك البعض مدفوعاً بالفضول وحب الاستطلاع أو لتمتعه بروح المغامرة ، أما البعض الآخر ، فقد ذهب بدافع من حبه لاعتبارات دنيوية تجارية ، مثل تجارة البضائع النادرة ، التوابل ، العبيد وأنوات الرفاهية^(٤٩) ، وفى المقابل - على الرغم من حالة الصمت التى تسود كتابات الأدباء الشرقيين عن هذا الجانب من العالم الإسلامى فى هذه الخصوص ، باستثناء بعض الجغرافيين القلائل ، نجد أن إسبانيا الأموية ، منذ بداية فترة حكم عبد الرحمن الثانى ، وعلى وجه الخصوص فى القرن العاشر ، قد بدأت تحظى بشهرتها كأرض متميزة ومرحبة نسبياً بالنسبة للبعض ، شريطة أن يكون معتقدهم الدينى المذهبى معصوماً ، من أصحاب الدين أو الأدب والذين أتوا للبقاء بصفة دائمة أو مؤقتة ، منذ منتصف القرن العاشر ، كانت تلك العمليات من الهجرة المؤقتة أو النهائية من قبل رجال الثقافة وغيرهم من طالبى العلم تتضاعف وعملت على تهيئة الظروف على أرض قرطبة لتكوين نوع من الجالية ، ليست بالكبيرة ، ولكنها كانت مؤثرة بكل تأكيد ، من الأشخاص الذين ينحدرون من أصول أفريقية ومصرية وسورية وعراقية ، بالإضافة إلى أناس من أماكن نائية من مختلف أنحاء العالم الإسلامى ، إن

مجموعة السير من المختارات لم تتوانى ، من ناحية أخرى ، فى الحديث عن هؤلاء الغرباء المسلمين ، الذين ما إن استوطنوا إسبانيا دون نية فى العودة مرة أخرى إلى بلادهم الأصلية ، لم يتأخر بهم الوقت فى الانخراط فى المجتمع الأندلسى وفى أن يصبحوا مقبولين تماماً من قبل ذويهم الجدد .

لقد تحدثنا أيضاً عن الظروف التى تهيأت لمثل هذه التبادلات فى منتصف القرن التاسع ، فى ظل مملكة عبد الرحمن الثانى الهادئة ، فى الوقت الذى أتى فيه الموسيقى زرياب بموضات العراق إلى قرطبة وأطلع الارستقراطية الأندلسية على جوانب الترف والرفاهية فى الحضارة البغدادية ، ولكن لم يكن زرياب - فى تلك الفترة - هو الشرقى الوحيد الذى استقبلته قرطبة بكل ترحاب ، فنحن نعلم ، على سبيل المثال ، أن الشاعر إبراهيم بن سليمان الشامى ، الذى وصل إلى قرطبة قبل وفاة الحكم الأول ، بعد أن كان على اتصال بأبى نواس وأبى العتاهية ، كان أحد المقرّنين المشهورين فى بلاط من أتى بعد هذا الأمير ، وكذلك فى بلاط محمد الأول ، خلال فترة حكم هذا الأمير ، الذى سار على نفس النهج التحررى لوالده ، كان هناك أيضاً العديد من أبناء المشرق ، الفقهاء والمثقفون من الأدباء ، الذين أمضوا مدة داخل قرطبة أو ظلوا للعيش فى رحابها على الدوام ، لقد بدأت الحركة تقل بعض الشيء على ما يبدو ، فى بدايات القرن العاشر ، ربما بسبب أن عبد الرحمن الثالث أصبح يخشى ، تحت غطاء سفريات الدراسة ، من تسريب عدد من الجواسيس العباسيين أو الفاطميين إلى مملكته ، مثلما حدث بالنسبة لأحمد بن محمد بن هارون (٦٠) ، الذى على مدى سنوات عدة ، خلال فترة حكم الأمير عبد الله ، جاب أركان مملكة قرطبة ، التى أدخل إليها بعضاً من أعمال ابن قتيبة والجاحظ ، حتى يتسنى له الدخول فيما بعد فى دائرة خدمة الشيعة عبد الله ، الذى عينه سكرتيراً له ، ولكن كان مرور عقود من الزمن كافياً حتى تكون هناك ، على العكس ، خلال فترة حكم الحكم الثانى ، وحتى قبلها ، فى الفترة التى سبقت بلوغه العرش ، حالة من الإلحاح الشديد على النزوح إلى العاصمة الأندلسية ، من قبل علماء شرقيين وأدباء وشعراء وفقهاء والذين جذبهم إلى ذلك المقصد ماكانت تتمتع به قرطبة من شهرة فى الأوساط الفكرية القديمة والبعيدة والترحيب المؤكد الذى سوف يستقبلون به فيها ومعاملتهم فى إطار من الحرية والتقدير .

فى نوبة الذهاب التى ظهرت وترسخت بهذه الطريقة ابتداءً من القرن التاسع ، بين الأندلسيين والمشرق وبين الشرقيين وإسبانيا على حد سواء ، كانت مدينة القيروان تمثل على مدى ذلك التاريخ محطة وسيطة ، وفى أواخر فترة حكم عبد الرحمن الثانى ، تواجد على أرض إلبيرة Elvira مالا يقل عن سبعة فقهاء نقلوا ، فى نفس الوقت ، المعلومات التى تلقوها فى العاصمة الأفريقية مباشرة عن الفقيه الشهير سحنون (٦١) ، وحتى نجاح حركة الفاطميين ، ظلت القيروان بمثابة المنافس الفاعل لقرطبة فى الفقه المالكي ، وكان عدد كبير من الأندلسيين قد وفد لمدة طالت أم قصرت للحياة فى تلك المدينة ، فى رحلتى الذهاب والعودة من وإلى المشرق ، وقد تواجد على أرضها دائماً منذ زمن سحيق عدد كبير من الأسر المكونة من الحكماء والتجار الذين كانوا يفتخرون بأصولهم الأندلسية ، من أمثال أسرة «بنو خيرون» ، الذين تركوا بصماتهم فى العلوم التاريخية وعلوم الكتابات القديمة القيروانية (٦٢) ، فهذا هو الفقيه الإسباني ، إبراهيم ابن النعمان ، قد مات فى مدينة سوسة عام ٨٩٦ (٢٨٣هـ) (٦٣) ، من جانبهم ، فى القرن العاشر قام العديد من الفقهاء بالبحث عن مهرب فى الأندلس ، بعد فرارهم من الهرطقة الفاطمية ، ومن بينهم القرشى المدعو حكم بن محمد المتوفى فى قرطبة عام ٩٨٠ (٣٧٠هـ) (٦٤) .

وماكان من هذه النوبة من الذهاب والإياب إلا أن فتحت أفقاً جديدة أمام الدوائر الفكرية فى الأندلس ، وكذلك فقد عملت على تحفيز شهيتها للمعرفة فى مجالى العلوم الدينية والأدب على حد سواء ، هذا بالإضافة إلى مجال العلوم الصحية ، وفى فترة وجيزة أمكن التأكد من الإقبال الكبير الذى حظيت به فى قرطبة بعض الأعمال الكبرى من الأدب العربى فور وصولها إلى أراضيها ، هذا بالإضافة إلى انتشارها السريع والهمة التى أبدت فى نقدها والاقتباس منها ، كان أهم الأدباء الأندلسيين الذين ساهموا - أثناء حكم الأمير محمد الأول ، أى قبل فترة الخلافة - فى أقلمة بعض هذه الكتب مع المناخ الجديد فى بلده ، هما فرج بن سلام وعثمان بن المثنى ، وقد أقام الأول الذى كان مهتماً بدوره بتأليف المعاجم ، وكتابة الشعر ودراسة الطب ، صداقة خلال إحدى رحلاته إلى العراق مع الجاحظ وأحضر إلى قرطبة كتاب البيان والتبيين ، إلى جانب كتب عديدة أخرى ورسائل لنفس هذا الكتاب (٦٥) ، أما الثانى الذى امتدت به الحياة طويلاً وكان لفترة طويلة المؤدب الأول لأولياء العهد من أبناء الأمراء ، فقد كان

مستمعاً مواظباً فى المشرق لدروس الشاعر الشهير «أبو تمام» والذي نشر ديوانه فى قرطبة (٦٦) .

إنه من غير المفيد الإلحاح فى الحديث عن هذه الرعاية الروحية التى أولتها إسبانيا الإسلامية للمشرق العربى قبل الوصول إلى فترة الخلافة ، التى كانت من ألمع فترات تاريخها ، فى اليوم الذى تم فيه المعالجة التفصيلية للثقافة الأندلسية ، فى المقام الأول ، لم يمكن تجنب الحديث عن هذا الانتقال المتواصل لأفضل أعمال الأدب المشرقى إلى الطرف الآخر من العالم الإسلامى ، وإن حدث قيام القرطبى ابن عبد ربه فى بدايات القرن العاشر بإنهاء مؤلفه الموسوعى الواسع المعروف باسم «العقد الفريد» ومن دون أن يخرج من بلده ، يعد فى ذاته كافياً بصورة موسعة للتأكيد ، إذا ماكان ذلك ضرورياً ، على التسرب التدريجى للمعارف الشرقية ، التى حين بلغت فترة الخلافة ذروتها ، طفت على السطح ومهدت الطريق لأن تظهر فى إسبانيا بعض الأعمال ذات الأهمية الحقيقية .

وابن عبد ربه هذا ، أقدم المؤلفين الأندلسيين الذى حاز شهرة دائمة فى الأدب العربى ، وطبع كتابه العقد مرات عديدة ، كان واحداً من المقرظين الرسميين للدولة المروانية ، منذ بداية فترة حكم محمد الأول وحتى منتصف فترة حكم الناصر ، ولد عام ٨٦٠ (٢٤٦هـ) - وتوفى ، بالفعل عن عمر طويل - عام ٩٣٩ (٣٢٨هـ) ، كانت قريحته الشعرية فقيرة للغاية ، فما كانت تتمتع بالقوة التخيلية والصلابة التى كان يحظى بها الغزال فى شعره الساخر ، على الرغم من أنه فى رحلة قام بها إلى المشرق ، حين لقائه بالمتنبى ، الشاعر الكبير ، عامله بكل تكبر وغطرسة ، وعمله الرئيسى ينتهى بقصيدة تعليمية حول تاريخ الإسلام ، والتى تعد من الشعر المتوسط الحال ، وماتكاد تأتى بجديد على الإطلاق ، حتى عن إسبانيا . وباعتباره شاعر البلاط الذى وجد نفسه مضطراً لمخالفة أسياده - الأمويين - وماوجد أى غضاضة من أن يعلن فى تلك القصيدة موقفه المعادى لعلى ، لدرجة أنه حذف من اسمه مايشير إلى أنه صهر النبى (٦٧) ، ومع هذا فإن أكثر ما يؤخذ على مؤلف العقد ، وينصرف أيضاً نفس الشيء على كثير من أبناء وطنه المتأخرين ، هو أنه ، بما أن الأمر يتعلق بعمل له كثير الاعتبار ويتم فيه عرض هائل للجوانب والمظاهر الأساسية للعالم حتى عصره ، ألا يفرد أدنى مساحة لبلده ، إذا مااستثنينا العديد من الأبيات التى تضمنتها القصيدة الأخيرة المشار إليها . وعلى ما يبدو أنه قد كان مصراً بدرجة كبيرة على التزام مثل هذا

الصمت ، ولكن كم كانت ستحمل هذه المعلومات الصادرة في كتابه عن إسبانيا من وثائق عن إسبانيا المروانية إذا ماوضع في اعتباره أن يلفت انتباه قرائه بعض الشيء إليها ! فحين عثر الوزير الشهير البويهى فى منتصف القرن العاشر ، الصحاب بن عباد ، على نسخة من العقد وقرأها ، بحثاً عن أية أخبار عن إسبانيا ، ولكن مجهوده ذهب سدى ، فصاح بحق : هذه بضاعتنا ردت إلينا (٦٨) .

الحكم الثانى ، رعايته للفنون وحبه للكتب :

ليس هناك من عاھل فى الدولة الأموية حتى عبد الرحمن الثالث ، لايتحدث المؤرخون باستفاضة عن ثقافته الواسعة وفضوله الروحى الشخصى ، ولكن المديح الأكبر - والذى لايتأتى - فى هذه المرة يمثل حدا زائداً عما يلزم - هو الذى يخصصه هؤلاء للأمير الذى كان ، فى نفس الوقت ، الأقوى والأكثر علماً بين أفراد أسرته : إنه الخليفة الحكم الثانى المستنصر بالله (٦٩) .

وكما نذكر (٧٠) ، كان الحكم الثانى يبلغ الأربعين من عمره حين خلف والده على عرش قرطبة ، الذى ظل قابعاً على كرسيه طيلة خمسة عشر عاماً ، وحين عين وريثاً للعرش منذ فترة بعيدة ، طاف أماكن عديدة لأوقات طويلة ، قبل أن يحصد ميراث الخلافة ، وذلك حتى يكمل فى الفروع العديدة للمعرفة الإسلامية والدينية التعليم الكامل الذى أتاحه له الناصر ، حين اختار لأبنائه الأساتذة القرطبيين ممن ذاع صيتهم ، وما تأخر المستنصر القادم ، الذى تميز باستعداد خاص للدراسة ، فى أن يكتسب ثقافة إسلامية عميقة ، والتى - على الرغم من أنها لم تتجاوز كونها شأناً خاصاً - جعلت منه واحداً من أفضل فقهاء العاصمة ، وأصبح مؤهلاً تماماً لى يتناول بلياقة فى جلسات الشورى ، ولكن ماحدث فى إسبانيا ، كما كان يحدث فى الشرق الإسلامى ، فإن المتعلمين ماكانوا يريدون الاقتصار فى دراستهم على فرع واحد من فروع المعرفة فى فترة إعدادهم العلمى ، وإنما كانت لديهم الرغبة فى تحصيل علوم أخرى بجوار تخصصهم ، فيحصل لهم بهذا التنوع الذين ينشدونه ، أى بالإضافة إلى سلسلة العلوم الفقهية - الدينية ، يحصلون القواعد اللغوية وعلوم المعاجم والبلاغة والأدب والشعر والتاريخ وعلوم الأنساب ، بالإضافة إلى علم الفلك والطب ، وماهناك من صفة أفضل من صفة «مشارك» ، والتى كانت تطلق على أولئك الذين يرغبون فى

الافتخار بأنهم يمتلكون زمام كل هذه المعارف ، أو على الأقل لديهم دراية بها ، حسناً : فإن كاتبى سيرة الحكم الثانى يتوافقون فى رسم شخصية لنا فى صورة شخص موسوعى المعرفة ويتمتع بفضول عال ومتيقظ ، وكل مانعرفه عن علم هذا الأمير والدفع الذى أعطاه فى مملكته للتأمل الفكرى يجعلنا نعتقد فى مثل هذه الشهادات .

وأكثر هذه الشهادات اعتباراً هى تلك التى تجعل من الحكم الثانى محل الثقة الذى يرجع إليه فى توثيق المعلومات الخاصة بالسير الذاتية والمراجع العلمية ، وباستمرار من أجل دعم معلومة ما ، تشتمل المراجع الأندلسية على إشارة مضمونها ، إن هذه المعلومة ترد من ملاحظة كتبها بخط يده الخليفة القرطبى الثانى ، «إن رأياً خطياً للحكم المستنصر - فى رأى الحميدى - يعد بالنسبة لعلماء أرضنا حجة دامغة ، حيث إن هذا العاهل كان عالماً معتمداً وصادقاً» (٧١) ، ومثل هذا الأمر يجعلنا نعتقد بأنه ، قبل بلوغه العرش أو بعده - على حد سواء - قد أمضى ابن الناصر يومياً ساعات طويلة يحمل قلمه فى يده ، مسجلاً المخطوطات التى يطالعها . ومن المحتمل أنه بالإضافة إلى ذلك كان يرأس أحياناً اجتماعات الفقهاء والأدباء الذين كانت توجه إليهم الدعوة للحضور إلى قصر قرطبة أو إلى مدينة الزهراء (٧٢) ، وعلى وجه الخصوص أثناء السهرات الطويلة التى كانت تعقد على مدى لياالى شهر رمضان .

ويبدو أنه من غير الصحيح ، مع هذا الحديث عن «بلاط أدبى» للحكم الثانى (٧٣) . ومهما كانت كبيرة تطلعاته وميوله نحو الدراسة وحماسه الورع وتقواه ، فليس من المصدق أن هذا العاهل ، فى صالح حاشيته الدينية والعلمية ، قد ضحى بما للحياة الخليفة من صخب وبريق ، الوضع الذى كان قائماً خلال الأيام الأولى التى ورث فيها العرش ، ولكن الروح الليبرالى ، الذى ورثه من والده ، والرغبة فى أن يترك للأجيال الثالثة ذكرى رجل رعى العلوم والفنون حق الرعاية ، والرغبة فى اجتياز كل العقبات ، حتى يجعل من مكتبة الخلافة واحدة من أثرى مكتبات العالم الإسلامى ، كل هذه الخصال، بون أن تكون أمراً استثنائياً بين أمراء العرق المروانى ، أمكن لها أن تتوافر - بفضل السلام الذى كانت تتمتع به الملكة وازدهار بيت المال - فى هذا العاهل والذى وقف الحظ بجانبه أكثر مما وقف إلى جوار من سبقوه ومن أتوا بعده .

وبما أنه فى منتصف القرن العاشر أصبح الشرق العربى (وعلى الأخص بغداد) ، وحضارته ونشاطه الفكرى تحظى فى كل يوم بمكانة أكبر فى الأندلس ، كان الحكم الثانى أفضل من نبه إلى هذه المكانة وفهم منتهاتها ، ولهذا فحين أتى دوره ، فتح ذراعيه فى مملكته أمام أولئك الذين حصلوا العلوم من أبناء المشرق ورأوا أنفسهم مضطرين للخروج من أوطانهم لسبب أو لآخر ، كما وجه الدعوة لآخرين لى يقيموا إقامة دائمة على أرض قرطبة ، بعد أن وعدهم بالرعاية الكريمة ، وقبل سنوات عديدة من موت عبد الرحمن الثالث بدأت تسجل ، بإيقاع سريع وبلا هوادة ، مثل تلك الإقامة فى العاصمة من قبل المهاجرين الجدد ، فى البداية ، فى عام ٩٤١ (٢٣٠هـ) ، كان وصول العالم اللغوى الشهير «أبو على القالى» ، الذى يرجع بأصوله إلى أرمينية ، والذى بعد أن قضى مايقرب من ربع قرن من الدراسة فى بغداد ، وبعد أن وجد نفسه فى موقف حرج من الناحية المادية ، بدأ الطريق متوجهاً إلى إسبانيا وأبدى رغبة فى البقاء بها ، وإذا ماصدقنا ماقاله كاتبو سيرته من أبناء الأندلس ، فقد استقبل بكل ترحاب وإعجاب ، حيث استقبل كضيف رفيع من قبل الحاكم البحرى ابن الرماحص حين نزل فى مدينة ألمرية Almeria ، ووصل إلى قرطبة فى صحبة سكرتير للمستشارية أرسل إليه خصيصاً لهذا الغرض «هذا الأديب العالم ، الذى له أن يفخر بأن تتلمذ على يد أساتذة من نوى الشهرة العالية مثل ابن دريد وابن قتيبة ، شكل مدرسة فى الأوساط التعليمية بالعاصمة وأعاد من جديد فى صورة حديثة تعليم علم اللغة العربية فى هذه المدرسة ، وحين أصبح خالى الذهب من المشاغل المادية ، تمكن من أن يكتب بكل حرية روحية مؤلفه الكبير - الأمالى - الذى خصصه للناصر ، وحتى اللحظة التى مات فيها ، عام ٩٦٧ (٣٥٦هـ) كان يحرص على تثقيف التلاميذ وإعدادهم ، والذين برز من بينهم الزبيدى الإشبلى ، الذى عينه الحكم مؤدبا لابنه هشام الثانى .

وقبل أن يصل ثانى خلفاء بنى مروان إلى العرش أقام فى قرطبة أيضا ، بدعوة منه أو بموافقته ، شريقيون من نوى الشهرة القليلة ، على سبيل المثال ، شاعر بغدادى يدعى المهند ، الذى وصل إلى العاصمة فى عام ٩٥١ (٢٤٠هـ) ، وبعد أن أصاب حظاً من الثراء فى قرطبة واشترى مزرعة فسيحة ، انزوى بين جنباتها ليعيش حياة التأمل^(٧٤) ، ولكن سيعد تطويلاً كبيراً أن نقوم هنا بتعداد الرجال الكثيرين الذين

توافدوا على العاصمة الأندلسية من أصحاب الأدب ، واللغة أو من الفقهاء الشافعيين ، القادمين من العراق وسوريا أو من مصر (٧٥) ، والذين ذكر كاتبو السير الأمر الكثير عن مشوار حياتهم ، وعلى كل ، فإن أول ما يتبادر إلى النظر هذا التأثير الحاسم الذي مارسه في تلك الفترة ذلك التوافد من قبل المهاجرين على ازدهار مختلف فروع المعرفة في الأندلس ، ومن بين هؤلاء كانت زمرة من الأفارقة البارزين ، على سبيل المثال - حتى لا نذكر أكثر من حالتين - القيروانيين محمد بن حارث الخوشاني ، الذي اشتهر على وجه الخصوص بتاريخه عن قضاة قرطبة ، والمؤرخ محمد بن يوسف الوراق ، اللذين وافتهما المنية ، بفارق عامين بينهما ، قبل أن تنتقضى مدة حكم الحكم الثاني (٧٦) .

إن المحللين وكاتبى السير ، لم يجمعوا فقط على امتداحهم لكرم الخليفة مع هؤلاء الضيوف الذين وفدوا إلى أرض قرطبة ، وإنما هم مجمعون أيضاً على إظهارهم لنا كيف أن هذا الكرم قد وصل ، وقت تحين الفرصة ، إلى خارج حدود مملكته ، فها هو ابن حيان يحكى - على سبيل المثال - أن الحكم الثاني قد أرسل بهدايا ثمين لبعض مشاهير الآداب في المشرق ، وبالتحديد إلى «أبو عمر الكندي» ، مؤرخ الحكام والقضاة المصريين . كما قام مبعوث خاص بحمل مبلغ ألف دينار من جعبة العاهل القرطبي إلى أبي الفرج الأصفهاني الشهير ، حتى يحصل على نسخة من مؤلفه كتاب الأغاني ، الذي لم يكن قد انتشر في أرض العراق بعد . وفي الفترة نفسها ، جاب مبعوثو العاهل القرطبي العالم العربي لكي يشتروا له المخطوطات ، وفي بغداد نفسه كان هناك نساخ ، يدعى محمد بن طرخان ، لم يكف عن استخراج العديد من النسخ لتلك الأعمال ، التي كان العاهل يرغب في الحصول على نسخة منها (٧٧) .

وحسب رأى كل المؤرخين الإسبان المسلمين ، فقد كانت مكتبة الحكم الثاني ، في أواخر فترة حكمه ، ثرية بدرجة كبيرة (٧٨) ، وحسب ما يذكر البعض ، فقد كانت تحتوى على ما لا يقل عن ٤٠٠.٠٠٠ مجلداً ، كانت واقعة داخل قصر قرطبة ، وزودت بكتالوج مفهرس يتكون ، كما يفصل ابن حزم (٧٩) ، من أربعة وأربعين دفترًا يحتوى الواحد منها على خمسين صفحة ، ومما لا ينسى أن المكتبة التي كانت تحتوى على عدد معتبر من المخطوطات كانت توجد بقصر الخلافة قبل منتصف القرن العاشر ، وحين

اختفى من الساحة ولى العهد عبدالله ، الذى كان مولعاً بالكتب هو الآخر ، أصبحت الكتب فى حوزة أخيه ، ولكن هذا ، حتى قبل أن يصل إلى سدة العرش ، هو الذى نظم فى قرطبة خدمة حقيقية للبحث عن الكتب التى كانت تنقص المجموعة الملكية ، والتى أمر بتسليمها لجمع كبير من الوراقين المحترفين حتى يهملوا فى الحال بعمل النسخ اللازمة ، ونحن نحفظ بأسماء العديدين من هؤلاء الوراقين ، الذين برز من بينهم صقلى هاجر إلى قرطبة ، وهناك امرأة أيضاً عملت بهذه المهنة ، الشاعرة لبانة (٨٠) ، عمل إلى جانبهما أدباء آخرون أوكلت إليهم مهمة خاصة تكمن فى مقابلة النصوص الأصلية بالنسخ ، والتأكد من أن هذه النسخ لا تحوى أى نوع من الأخطاء أو الثغرات (٨١) .

إن تكوين مكتبة معتبرة (٨٢) - تم تطهيرها بعد ذلك بسنوات على يد المنصور من كل الكتب الموضوعية فى دليلها وذلك من قبل حاشيته غير المتسامحة من فقهاء المالكية ، ثم شنت كتبها ، ومما لاشك فيه أنها قد أهدمت عند سقوط الخلافة (٨٣) - يعد كافياً ، إلى جانب التوسعة الفخمة للمسجد الجامع بقرطبة ، لتأكيد شهرة الحكم الثانى .

وبعده ، أراد بن أبى عامر أن يضيف إلى ألقابه الشرفية أيضاً سمعته كداع للآداب والفنون ، فأحاط نفسه بالحكماء ، واستضاف فى قرطبة سعيد البغدادى ، واصطحب فى رحلاته ديوان شعرائه المأجورين (٨٤) ، ولكنه لم يتمكن من الوصول حتى ولو من بعيد إلى تلك المكانة التى تساويه بسلفه الشهير ، وماتمكّن من ذلك أى فرد من أفراد الأسرة الحاكمة المروانية فيما بعد ، وعلى كل ، فإن الدفع الذى أعطاه الحكم الثانى للنشاط الدراسى على أرض الأندلس لم يكن له أن يعود القهقرى ، فى أقرب وقت ، حين هدأت الاضطرابات الناجمة عن الحرب الأهلية ، ظهرت إسبانيا تحت ظل عرش ملوك الطوائف ، على الرغم من تقسيمها السياسى ، كوريث تأهل لأن يحوز التراث الثقافى الموروث عن الأمويين ، وفى الأثناء التى تابعت العلوم القضائية الدينية وعلوم اللغة سيرها المعهود فى طريق تعلمها من قبل الكثيرين ودراستها بنفس الحماس على أرض عواصم الممالك الصغيرة التى قامت على أطلال الخلافة ، نجد أن آداب الفنون الدنيوية قد بلغت حدّاً كبيراً من التطور ، وفقط بداية من النصف الأول من القرن الحادى عشر بدأت هذه الآداب تنتج ، فى النثر والشعر على حد سواء ، بعد الأعمال الكبرى ، التى وإن ظلت على صلة وثيقة بالنزعة الكلاسيكية البغدادية لم تكن

مجرد استشفاف للأعمال الشرقية الكبرى ، ويتجاوز هذه الصفحة ، خرجت إلى النور عناوين أخرى جديدة تجرى في عروقتها الأصالة الأندلسية ، والتي من خلالها حاول النقد الحديث أن يكتشف تعبيراً ، تلقائياً وحرراً في النهاية ، «للحس الإسباني» .

وليس بمقدورنا أن نتخذ موقفاً ، حين نقوم رسم إجمالى بسيط ، بالنسبة للمشاكل المطروحة بسبب وجود هذا الأدب الفنى ، بالقدر الذى بدأ يتكون فيه قبل سقوط الأمويين ، حيث إن تلك المشاكل تؤثر فيما يبدو على الموضوعات الشعرية ، أو الشعر الذى كان فى بعض الأحيان «موجهاً» أو «سياسياً» ، وفى أحيان أخرى كان يرى خالياً من أى اهتمام بالأمور السياسية ^(٨٥) ، وكذلك فلن نتعرض للأسباب التى مازال يكتنفها الغموض الحالك ، والتى كان بمقدورها أن تسبب ، قبل أن تزول الإمارة القرطبية ، ميلاد الأجناس ذات الخصوصية الإسبانية من الموشحة والزجل ^(٨٦) ، وإن الحلول المقترحة حتى الآن لحل مثل هذه القضايا تبدو - بغض النظر عن ذلك - فى جانب كبير سابقة لأوانها ، ونحن على قناعة بأنه ليس من الممكن الوصول إلى نتائج مقبولة عن تطور الأدب الدنيوى فى الأندلس حتى القرن الحادى عشر ، طالما أن المنتجات الكثيرة المعاصرة للإمارة ، والتى مازالت فى معظمها حتى الآن دون استغلال أو طبع ، لم تكن محطاً للدراسة النقدية وإبداء الرأى فيها على ضوء التاريخ السياسى والاجتماعى لكل هذه الفترة ، التى مازالت حتى اللحظة الراهنة لم تكتشف إلا فى القليل النادر منها .

نظرة عامة على تاريخ الخلافة :

كان على إسبانيا الانتظار حتى القرن العاشر ، ومجئ عبد الرحمن الثالث حتى تجد أول مؤرخ حقيقى لها ^(٨٧) ، وهو فى هذه المرة أيضاً واحد من أبناء المشرق الذين أقاموا فى شبه الجزيرة الأيبيرية : إنه الشهيد أحمد بن محمد بن موسى الرازى ، الذى أتى ولده عيسى ليصبح بدوره مؤرخاً رسمياً بارزاً للدولة الأموية ، وذلك فى خدمة الخليفة الحكم الثانى .

ومثل هذا التأكيد فى حاجة إلى بعض الشروح ، فعادة ما اعتبر محمد والد أحمد الرازى بالفعل مؤرخاً أيضاً للأندلس ، ومن هذا المنصب خلق فى الأسرة تقليداً احترامه الابن والحفيد فيما بعد ، كما يعتقد بأنه حتى قبل محمد ، لم تعد إسبانيا الإسلامية وجود المحللين الذين أرخوا للممالك التى حكمها أمراء سابقون ، ولكن كل هذه النظريات قد تهدمت من أساسها بمجرد اكتشاف جزء جديد من المقتبس لابن حيان

الذى احتوى على فقرة كتبت بقلم عيسى الرازق نفسه ، وبالتالي بقلم الشخص الوحيد فى العالم الذى لا يشك فى قوله فى هذا الخصوص إلا فيما ندر ، حول الظروف التى أدت بجده إلى القيام لمرات عديدة بزيارة مملكة قرطبة ، وحب التاريخ من قبل والده أحمد .

لقد كان على الأمير محمد الأول - فيما يرويه عيسى الرازى بإيجاز - (٨٨) أن يكون على علم تام بقدر الإمكان بنشاط الخلافة العباسية ، ولهذا الغرض فقد جمعت بينه وبين أمراء البربر فى الشمال الأفريقى علاقات حميمة ، وعلى وجه الخصوص مع الرستميين فى تاهرت Tahart والمدرايين فى سيتشيلماسا Sichilmasa والذين كانوا يرسلون إليه بتقارير الجواسيس المجموعة عن الوضع السياسى فى بغداد وسوريا ومصر وإفريقيا (٨٩) ، كل هذا كان معروفاً ، ولكن الأمر الذى لم يكن معروفاً بقدر كبير هو قيام العاهل القرطبى بتوثيق علاقاته بالقيروان ، وخاصة بإبراهيم بن الأغلب ، وأن هذا قد أرسل إليه ، مبعوثاً يحمل هدايا ثمينة وهو على وجه التحديد محمد الرازى تاجر من الراى Rayy بفارس ، دعت تجارتها إلى الحضور للأراضى الأفريقية ، وبعد أن استقبل بحفاوة من قبل الأمير محمد الأول ، عاد الرازى إلى المشرق ، وحتى يشكر العاهل القرطبى على الحلم الذى عامله به ، قام بأداء فريضة الحج نيابة عنه وأرسل إليه بالعديد من التقارير حول الوضع السياسى فى العراق . وقد تلقى دعوة للمرة الثانية للعودة إلى إسبانيا عام ٨٨٤ (٢٧١هـ) ، فذهب يحمل معه ، حتى يبيعهها له ، أمة يونانية تنحدر من أصول طيبة ، تعلمت بحق أصول اللغة والأدب العربى ، بالإضافة إلى أنها تحفظ دواوين كاملة من الشعر الجاهلى ، والفترة الأولى من العهد الإسلامى ودواوين من الشعر الأندلسى ، وكذلك فقد كانت مغنية ذائعة الصيت ، ما الذى حدث بالضبط ؟ إن مرثناً مشنوماً بالمخطوط منعنا من معرفة ما حدث . أما النتيجة فكانت أن المشرقى ، الذى أصيب بالاستياء لعلمه بالاهتمام الفاتر الذى استقبل به البلاط مغنيته ، قطع علاقته بمحمد الأول ، وفى أواخر فترة حكم هذا الأمير توجه المشرقى مرة أخرى صوب أفريقيا ، وبمروره بأراضى سيتشيلماسا اتخذ لنفسه زوجة وواصل أعماله ، التى كانت تتركز بلاشك حول تجارة الإماء السوداوات . ولكن ، بعد وفاة محمد الأول ، فى عام ٨٨٦ (٢٧٣هـ) ، عاد خلفه ، الأمير المنذر فوجه

الدعوة إلى محمد الرازي للحضور إلى قرطبة ، والذي سرعان ما عاد إليها ، وإن كان ذلك لمدة قصيرة ، حيث بعد أن توفي المنذر أمام ببشتر Bobastro كان عليه أن يعود مرة أخرى إلى أفريقية ، ولكنه لم يتمكن من العودة إليها ، ففي الطريق داهمه المرض ومات في إلبيرة Elvira عام ٨٩٠ (٢٧٧) ، وإلى هذه المعلومات الدقيقة لم يضيف شيئاً عيسى ، حين نصبح على يقين من أنه إذا افترضنا - وهذا شئ قليل الاحتمال - أن كتاب الرايات ، الكتيب الوحيد الذي ينسب إليه ابن مزين إلى محمد بن موسى الرازي ، والذي خصصنا له في فصل سابق بضع كلمات (٩٠) ، ولم يكن يعرفه الابن ولا الحفيد (ابن وحفيد الرازي) ، دون الحديث عن «أبو مروان بن حيان» ، أفضل العارفين بمدونات التاريخ الأموي .

ولكن الأهمية العظمى لهذا الاستشهاد الذي أتى به المقتبس لم يتوقف هناك ، فحين يتحدث عيسى الرازي عن ولده أحمد ، يستخدم عبارة دقيقة وواضحة على السواء ، وهذه هي الترجمة الحرفية لها : «كان أحمد ، والذي ، عندما توفي والده طفلاً في الثالثة من عمره ، عاشت أسرته معه على أرض الأندلس ، وهنا شب وترعرع . ودرس العلوم الدينية وأبان عن ميل إلى علوم الأدب ، ولكنه كان يختزن في ذاكرته الروحية حباً كبيراً للتاريخ والبحث التاريخي ، وهذا نوع من الدراسة لم يكن قد تخصص فيه حتى ذلك الوقت أحد من الأندلسيين ، بدأ بجمع المعلومات من كبار السن والرواة ، ثم جمع ونسق في انسجام هذه الوثائق في صورة مؤلف للتاريخ ، وقد كان بهذا العمل أول من قنن في إسبانيا قواعد التأليف في التاريخ ، الأمر الذي قرّبه من العاهل وسمح له بأن يعلى من وضعه ، ومن وضع ابنه من بعده ، كلاهما قدم للأندلسيين علماً لم يكن حتى تلك اللحظة ممارساً بصورة ناجحة .

هل هناك حاجة لإبراز غاية هذه التأكيدات ، التي لم يكف ابن حيان بصراحته المعهودة عن تكرارها ، في حالة عدم تأييدها على الإطلاق ؟ إنه بالتالي من المؤكد حقاً أنه في القرن التاسع ، وبحق أكثر في القرن الثامن ، أخذ بعض المحللين العرضيين ، وجامعي الأخبار المجهولين والأسطوريين أحياناً ، على عاتقهم جمع المعلومات والأخبار التي لم يحاولوا نشرها خارج إسبانيا ، والتي احتلت الجزء الأكبر فيها ذكريات فترة الفتح الغابرة ، وكما يؤكد عيسى الرازي بحق ، كانت تمثل تاريخاً شديداً الفقر ، يعتمد على قليل نادر من الوثائق ، وما وصل إلينا منها شئ على الإطلاق .

وإذا كان الأمر هكذا ، فلم لانتعتبر بنايات العلم من المهام التى تصنع هباءً ، وفى بعض الأحيان نعتبرها تفريراً ، تلك البنائيات التى أقامها على أرض رملية بعض المتخصصين المعاصرين لتاريخ إسبانيا المسيحية فى العصور الوسطى ، والذين لم يتعودوا على استخدام النصوص الأصلية ، لشرح تطور مأمول الجنس التاريخى فى الأندلس بداية من الفترة القديمة ؟ من أين تأتى هذه الكوكبة من النظريات المأخوذة من تلك المجموعة البسيطة من الأخبار التاريخية قليلة القدر ، والتى أتت تسمى - بأسلوب ذى مغزى - أخبار مجموعة ؟ والآن ونحن نملك بين أيدينا ليس فقط للشهادة الأساسية للمؤرخ الذى دون تاريخ فترة الحكم الثانى ، وإنما - أيضاً - لكل القرن التاسع على وجه التقريب ، ذلك الإطار التاريخى الذى يحتوى على ترصيع لاستشهادات المقتبس ، نجد أنفسنا فى ظروف مواتية لتقويم الإنتاج التحليلى للأندلس داخل إطاره السياسى والاجتماعى الحقيقى والعمل على صبغه بصبغة مميزة على الدوام ، دون أن يخشى مجئ الأحداث فى التوبما يمكن أن يكذب مانقول ، إن الأمر يتعلق بتدوين تاريخ البلاط ، المتمركز حول شخص الخليفة ، الأمر الذى يعد شيئاً داخلياً يدع فى رؤية على جانب ما كل مامن شأنه أن يفت فى مكانه الدولة . ولكن مهما كان التدوين التاريخى «موجهاً» أيضاً ، لا بد من أخذه كما هو ، دون أن ننتظر تحقيقه يوماً ما بوثائق من الأرشيف أو عن طريق استدراقات تأتى بين دفات كتب مخالفة .

وكلما وجه المرء ناظره إلى جانب تاريخى ما ، أيا كان ذلك الجانب ، من تاريخ إسبانيا الأموية ، يجد ابن حيان تجاهه ، فدون كتابه المقتبس ما وجدنا بين أيدينا معلومة تذكر للرازى وابنه ، ولا للمؤرخين الآخرين على مدى القرن العاشر ، الذين تزودوا بالعلم فى هذا المجال على أيديهما وفى مدرستهما ونالا شهرة كبيرة : القرشى معاوية بن هشام ابن الشابانىسى ، والحسن ابن محمد بن مفرج ، قرطبى آخر من أصل عربى ^(٩١) وبدونه ماكان لنا أن نحقق - بفضل الاستشهادات الوفيرة - الجزء الأكبر من تاريخ بن القوطية ، ولا بعض الفقرات المطولة لمجموعات الخوشانى وابن الفرضى ، فى أشكال أقل اختصاراً من تلك التى كانت مطبوعة ، وأخيراً ، فبدون ابن حيان ماكان من الممكن أن يرى النور ذلك المؤلف المنهجى لابن عذارى ، وربما لم يكتب - بالتالى - تاريخ دوزى .

وهناك - مع ذلك - مصدر هام للغاية بالنسبة لتاريخ الخلافة ، والذي لم يتحدث ابن حيان عنه في كتابه المقتبس ، وبحق ، حيث أننا لانملك بين أيدينا حتى الآن من هذا العمل ، الذى كتب فى القرن العاشر ، أكثر من جزء بسيط جداً ، والمأخوذ بأكمله عن عيسى الرازى ، إنها المكملات الضرورية للتاريخ ، المؤلف من قبل أريب بن سعد ، على نمط مواصلة تاريخ الطبرى ، بالطريقة التى أدرجها دوزى ، بشكل اصطناعى من ناحية ، فى طبعته لكتاب البيان لابن عذارى ، ولى السنوات المحددة لهذا ، أى ، من ٢٩١ إلى ٣٢٠ من الهجرة ، ولكن ، من ذا الذى يخبرنا بأن هذه الفقرات الأندلسية من تاريخ أريب لاتعد هى الأخرى مجرد استشفاف بسيط لتاريخ أحمد الرازى ؟ فى هذه الحال أيضاً يصبح من التسرع إصدار الرأى ، وإذا ما أتى اليوم الذى نعثر فيه على الأجزاء الأخرى من المقتبس التى تتناول القرن العاشر ، فمن المحتمل أن تسلط أضواء جديدة على الصلات المشتركة التى تربط كل هذا الزخم من الخيال التاريخى المدون ، الذى يدور حول حكاية تاريخية - فى رأينا - لم تحن اللحظة - حتى الآن - لصياغتها ، ولاحتى داخل فترة الخلافة فحسب .

الثقافة العلمية فى ظل الخلافة :

فى منتصف القرن العاشر ، حين وصل عبد الرحمن الثالث إلى سدة الحكم ، شهدت إسبانيا الإسلامية تطوراً معتبراً فى الثقافة العلمية ، والتى ساهم فيها التأثير الحاسم القادم من أعماق الشرق والدفع الشخصى للأمير الوريث الحكم ، وحول المكانة التى كانت تحظى بها «العلوم القديمة» المأخوذة عن الإسلام المستمد من الإيرانية وخاصة الهيلينية ، حتى هذه الفترة فى الاهتمامات الدراسية للأقلية المثقفة فى قرطبة ، ستكون معلوماتنا غير دقيقة إذا لم نحز بين أيدينا ذلك الكتاب القيم الذى ألفه عالم طليطلى فى القرن الحادى عشر ، سعيد بن أحمد ، تحت عنوان طبقات الأمم Categorías de las naciones ، هذا الكتيب ، الذى يعد أول تاريخ للعلوم ألف فى الإسلام ، أصبح محطاً للإشارة والذكر والاستخدام فى الشرق على مدى العصور التالية ، وفيما يتعلق بإسبانيا ، يعد الكتيب مصدراً ثرياً للمعلومات الدقيقة والتفصيلية عن الانطلاقة ، فى أواخر أيام الخلافة ، التى أتيحت فى هذا البلد لدراسات الطب ، والعلوم الطبيعية ، والفلك ، والرياضيات .

يبدو أنه في بداية فترة الخلافة ، ونفس الشيء أثناء فترة الإمارة ، كانت علوم الطب الذي لم يكن ممارساً حتى ذلك الوقت من قبل المسلمين الأندلسيين ، ميراً لمتخصصين شرقيين أو لبعض الممارسين الإسبان واليهود والمسيحيين ، وهناك بعض الأطباء الذين تعلموا في العراق حضروا إلى قرطبة للاستقرار على أرضها منذ بداية فترة حكم عبد الرحمن الثاني ، وأحد هؤلاء - يونس بن أحمد الحراني ، الذي أصبح طبيب العاهل - قد أجبر - على أن يعد بأمر من الفتى ناصر شراباً مسموماً للأمير ، إلا أن الطوشي نفسه قد أجبر على تناوله ^(٩٢) ، كان ليونس بن أحمد هذا أسلافاً في قرطبة ، اثنان منهم ، وهما بلاشك من أحفاده - عمر وأحمد ، حملاً لقب الحراني ، خرجا من أرض الأندلس أثناء حكم الناصر ليكملا معارفهما الطبية في بغداد ، وأمضيا فيها مدة عشر سنوات يدرسان أعمال جالينو Galeno وتعلما طب العيون ، وها هو سعيد الطليطلى يقدم لنا العديد من أسماء الأطباء الآخرين ، الذين تم إدراجهم في ديوان خاص في عهد الحكم الثاني، ولهذا فقد كانوا يتلقون دعماً رسمياً ، ذهب البعض منهم للدراسة في المشرق ، والبعض الآخر نال تعليمه في القيروان ، مدفوعين بولعهم بشهرة ابن الجزار الذي ذاع صيته ، ومؤلف كتاب زاد المسافر ، الكتاب الذي ترجمه قسطنطين أفريكانو إلى اللاتينية تحت عنوان الزاد الأخير ، ومن بين الأطباء المسيحيين يذكر خالد بن يزيد ابن رومان ، ومن بين اليهود ، ذلك الشهير حسداى بن شبروت والذي قام بدور سياسى هام ي بلاط الناصر خلال النصف الأول من القرن العاشر .

وفي نفس الفترة تم اتخاذ خطوة حاسمة ، حين تخصص أطباء قرطبة ، وعلى رأسهم حسداى بن شبروت ^(٩٣) ، وذلك بمساعدة الراهب البيزنطى نيكولاس ، فى فك رموز وترجمة نسخة من «المادة الطبية» لديوسكوريدس الذى أرسله قسطنطين السابع كهدية للناصر ، إلى جانب نسخة من عمل المؤرخ الإسبانى للقرن الخامس ، باولو أوريوسو ، وهنا هم بالعمل فريق من الأطباء وعلماء النبات ، الذين برز من بينهم القرطبى ابن جلجل ، وذلك بمساعدة المترجم البيزنطى ، فى كتاب ديوسكوريدس بداية من ٩٥٢ (٢٤٠هـ) ، وقد أدى هذا العمل إلى إحداث نوع من المفخرة بدراسة علوم الصيدلة والنبات ، والتي واصلت مشوارها بفخر داخل إسبانيا الإسلامية ، وعديد من

المتخصصين الذين عملوا فى قرطبة فى إعداد ونقل كتاب المادة الطبية أصبحوا معروفين ومتميزين فيما بعد كأطباء البلاط فى عهدى الحكم الثانى والمنصور ، كان هذا هو وضع عبد الرحمن بن إسحق ابن الهيثم ، ومحمد بن القطنى ، وابن ساماجون ، وعلى وجه الخصوص ، أبو القاسم خلف الزهراوى ، الذى ترك حين وفاته ، فى عام ١٠١٣ (٤٠٢هـ) ، موسوعة كبيرة عن الطب الجراحى ، والتى ترجمت أجزاء عديدة منها إلى العبرية والبروفنسالية وكانت نواة وهدفاً لترجمة لاتينية قام بها خيراردو دى كريمونا .

والفلك ، رغم اعتباره علماً غير مشروع ، استمال على الدوام فى إسبانيا ، أو على الأقل منذ القرن التاسع وحتى أواخر القرن الحادى عشر ، اهتمام العديد من العلماء ، والذى كان موجهاً - حسب ما هو مسموح به - إلى مجال التوقيت أو تحديد أوقات الصلاة ، وحول الأمراء والخلفاء ومن بعدهم ملوك الطوائف ، تجمع علماء التنجيم الذين يكشفون الطالع وكانوا كيماويين ، وماكانت توقع عليهم عقوبات سوى الحرمان من هذا الاسم ، وعلى كل ، فإن دراسة علم الفلك - مثله فى ذلك مثل العلوم الرياضية - قد تطورت فى الأندلس دون عقبات تذكر تحت رعاية الحكم الثانى ، الذى تأسست فى عهده مدرسة استمدت هيبتها ومكانتها من اسم مسلمة المجريطى ، أشهر أبناء مدريد الذين يمكن لهم الافتخار بهم ، ولقد اشتهر مسلمة هذا الذى أتى من المشرق إلى أرض الأندلس بتلك الموسوعة الشهيرة لإخوان الصفا ، والمتوفى عام ١٠٠٨ (٣٩٨هـ) ، على وجه الخصوص ، بنقله التعادلات الفلكية للخوارزمى ومؤلف الاسطرلاب وبعض الأعمال عن الرياضيات التطبيقية والسحر (١٤) .

وعلى أساس من كتاب سعيد الطليطلى ، بإمكاننا أن نستمر هنا فى ذكر تعداد غير مفيد . وإن مايجب التوقف عنده هو تلك الدفعة ، فى مجالى العلوم الخاصة بالثقافة الدينية والثقافة العلمية على حد سواء ، التى أعطاهها أمير ليبرالى ، فى بيئة صالحة وترك فيها الباب مفتوحاً على مصراعيه أمام كل مايأتى من الشرق الإسلامى والبيزنطى ، وعلى الرغم من رد الفعل الذى ظهر خلال عصر ملوك الطوائف ، إلا أن التقليد قد أرسيت قواعد بعد ، وحين يأتى اليوم الذى يعترف فيه بحق بالدور الذى قامت به إسبانيا الإسلامية باعتبارها حاملة الشرارة الأولى فى الغرب المسيحى

فى الثقافات الهلينية والبيغدادية ، لابد من أن يسطع فى المقام الأول ذلك الاسم العظيم : اسم الحكم الثانى ، الحكيم المعصوم راعى الآداب والفنون وصاحبهما أيضا .

الازدهار الفنى :

لكى نفتح الطريق أمام هذا التحسس فى الحياة الفكرية لإسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ، فيبدو أنه من الضرورى أن نقول على الأقل ، بضع كلمات عن الازدهار الذى مر به الفن الأندلسى فى تلك الفترة - وهو الفن الذى جرت العادة فى إسبانيا على أن يطلق عليه اسم الفنى «الإسباني العربى» ، وفى فرنسا «الإسباني المغربى» - على الرغم من أنه يعد اليوم بدرجة كبيرة أفضل الجوانب استغلالاً وشهرة من بين الجوانب الأخرى للحضارة القرطبية ، حيث قد أعطى مجالاً منذ مايقرب من ربع قرن ، سواء فى إسبانيا أو فى فرنسا ، لكتابة الأبحاث المفصلة ، التى توصلت إلى نتائج نود أن نذكرها هنا باختصار ، دون الدخول فى أغوارها العميقة (٩٥) .

فى سلسلة تطور الفن الأموى الإسباني نجد أن العمارة الدينية تشغل - بداهة - المكانة الأولى ، حيث هى أكثر الطلقات دراسة مفصلة ، وذلك بفضل البقاء المعجز على قيد الحياة للمسجد الجامع بقرطبة ، والذى نفرد لتاريخه الأثرى وصفاً تناولناه فى صفحات سابقة بشئ من التفصيل ، إن التوسعة التى قام بها الحكم الثانى قد شكلت العديد من المشاكل للمهندسين المعماريين ومؤرخى الفن ، مثل مشكلة «القباب متقاطعة الدعائم» ، وعلى وجه الخصوص ، مشكلة الزخرفة ، التى هى أيضاً الشاغل الأساسى لآثار العمارة المدنية ، والتى تبرز من بينها لأهميتها المجموعة الأثرية ، التى لم يكتمل حفرها تماماً حتى الآن ، لمدينة الزهراء .

ومن أجل هذه الزخرفة ، لجأ الفن الخلاقى فى إسبانيا إلى استخدام مواد متعددة : المرمر ، والحجر الجيرى ، والأستوق (ملاط من كلس ومرمر) ، وصلات الطين المحروق والطين المبرنق ، أما الأقواس فكانت إما محدبة أو مقصصة ، بها أحجار ذات ألوان متناوبة ، حرص على اتباع أسلوبها فيما بعد الفن الرومانى الذى برز فى أوبييرنيا Auvernia ، هذا إلى جانب «كشقات حلى تيجان الأعمدة» ، أما تيجان الأعمدة ، ليست قديمة ، فهى صورة طبق الأصل من النماذج الرومانية ، وتنتمى إما إلى الهيكل الكورينثى أو الآخر (المعقد) - الذى يشتمل على كشوف مشدوفة وحلى

مزدوجة عريضة - أما بالنسبة للعناصر الخاصة بالرسوم الهندسية فى عملية الزخرفة ، فهى بين هندسية وزهرية وخطوط قديمة ، تكثر عناصر الزخرفة الإييجرافية القديمة ، والنقوش ، والتي تأتى فى صورة رسوم لاتتسم بالبهرجة الزائدة ، منحوتة من الحجارة أو مرسومة بمكعبات من الفسيفساء ، أما الزينة الهندسية فتمتد عبر مشربيات من الرخام المفرغ ، طبقاً لرسم من الزوايا الملصقة ، ولكن أكثر أنواع هذه الزخرفة ثراءً هى الزخرفة الزهرية ، بفضل استخدام عناقيد العنب (الكرم) ، وخاصة ، المقرعة المزدوجة الأقتنوسية ، وبالنسبة لأسقف مسجد قرطبة فقد ظلت تفخر بوجود بصمات بها ترجع إلى الزخرفة المرسومة ، التى أصبحت على علاقة بالفن الفاطمى وحتى بالفن الطولونى ، وأخيراً ، فقد كانت تضم إلى المجموعة الزهرية المرسومة فى الزخرفة مجموعة أخرى من صور الأشخاص والحيوانات ، وبالأخص ، فى كتل مرمرية ، مثل تلك التى يحتفظ بها فى مدريد وغرناطة ومراكش .

أما فيما يتعلق بالعمارة العسكرية - التى مازالت آثارها تتمثل حتى الآن فى بعض النماذج ، من بينها قلاع جورماث Gormaz وطريفة Tarifa وبرج الحمة Banos de la Encina ونماذج أخرى من القرن التاسع ، مثل قصبة ماردة La Alcazaba de Merida - فإنها تتميز باستخدام الكتل الحجرية ، أو فى بعض الأعمال الاستراتيجية ذات الأهمية البسيطة ، التى كانت تتميز باستخدام القوالب الطوبية ، كان تصميم السور المحيط بالقلاع لا يأخذ فى العادة شكلاً ثابتاً : فإذا ما كان يحيط بمنطقة صخرية يصبح فى شكل الناتئة البارزة ، وإذا أحاط بغيرها ، أخذ شكلاً مربعاً أو مستطيلاً^(١٦) .

ويعد فن الأثاث المنقول فى الأندلس أحد أمجاد الخلافة ، فمعظم الصناديق العاجية المحفوظة ترجع فى تاريخها إلى القرن العاشر ، وفى الغالب ما أتت هذه الصناديق تحمل التاريخ الذى صنعت فيه محفوراً عليها بخط كوفى ، كانت هذه الصناديق ، التى صنعت داخل ورش رسمية فى قرطبة ومدينة الزهراء ، تحتوى فى زواياها المختلفة وأغطيها على ميداليات كبيرة مزخرفة بمشاهد مصورة ، وأخرى تتحدث عن رحلات الصيد أو مصارعات الحيوانات ، مثل الأسود ، والقيلة أو الصقور ، تظهر كلها على خلفية من الرسوم الزهرية ، وبعض هذه الصناديق كانت تصنع فى أشكال اسطوانية ، وفى البعض الآخر ، كانت الرسومات المميزة لها تصنع بدلاً من العاج من الفضة المذهبة والمنقوشة .

وأما المشغولات البرنزية فكانت وثيقة الصلة والارتباط بالمشغولات البرنزية الفاطمية . فمن هذه المادة صنعت مصابيح الزيت ، والمهاريس ، والأباريق المستخدمة فى غسيل الأيدي ، والتي كانت تصنع فى شكل الظباء ، أو الطواويس أو الأسود وغيرها من الحيوانات ، هناك بعض التوقيعات المكتوبة بلغتين مختلفتين - مثل الطاووس الموجود بين جنبات متحف اللوفر ، الذى يحمل نقشاً باللغة العربية يقول : «عمل قام به عبد الملك المسيحى» ، وباللغة اللاتينية : (عمل سليمان) وهى أمور جعلنا نفكر فى أن مثل هذا النوع من العمل تخصصت فيه أياد عاملة فنية من المستعربين .

هناك بعض الاكتشافات الحديثة تطلعنا على جانب من الفن المنقول لفترة الخلافة ، والذى ظل مجهولاً حتى وقتنا هذا ، إنه جانب الجواهر والحلى ، وبالفعل ، فقد تم الكشف ، فى لوجا Loja عن مجموعة كبيرة من الحلى المصنوعة من الذهب والفضة ، هذا بالإضافة إلى كمية كبيرة من الدراهم التى كانت مستخدمة فى أواخر القرن العاشر (وهو الأمر الذى يعد دليلاً على أن هذا الكنز البسيط قد توارى بين حبات التراب فى لحظة الفتنة القرطبية) ، وفى نفس الوقت تقريباً ، ثم الكشف عن مجموعة أخرى من الحلى المصنوعة من الفضة ، فى منطقة جاروتشا Garrucha (التابعة لإقليم ألمرية Almeria) ، والتي أضحت هى الأخرى تثرى المجموعات التى يضمها معهد بلنسية دون خوان ، بمدريد ، وهى عبارة عن أسورة ، وخلاخل توضع عند كعب الرجل ، وسلسلة من الأطواق ، ومن بعض الرواشم المزخرفة بحجارة ثمينة محدبة الشكل ناصعة وبعض الفراغات الصغيرة التى تغطى بتطعيمات من الأحجار الثمينة ، تستخدم - بلا شك - كصدريه أو دبوس للزينة .

ولقد أخرجت أعمال الحفر التى تمت فى البيرة Elvira ومدينة الزهراء إلى النور كمية هائلة من قطع السيراميك والزجاج ، بعضها موقع عليه ومزخرف بأشكال لحيوانات مختلفة ، بينما البعض الآخر يسطع من خلاله بريق معدنى ، كان الزجاج يصنع فى القرن التاسع فى قرطبة (٩٧) ، وبالنسبة لصناعة الخزف الفخارى ، فتأتى مشابهة وشديدة التقارب مع مثيلتها فى أفريقيا المعاصرة لها ، وأما الزخرفة المزججة فتظهر دائماً فى صورة التلوين المزدوج باللون الأخضر والبني للمنجنيز .

ونشر - أخيراً - إلى التطور الذى وصلت إليه فى القرن العاشر صناعة النسيج الرفيع القيمة فى دور الصناعة الخلافية ، وذلك وفقاً لتقنية وافدة من بغداد (٩٨)

وباستخدام تعبيرات زخرفية يبدو على البعض منها أنها تنتمي إلى نقوش فاطمية ، أو حتى قبطية ، ومثال طيب على ذلك ، هو القطع العظيم من النسيج الحريري ، باسم هشام الثانى والمحفوظ بمدريد (٩٩) .

على الرغم من أن العمارة الأهلية والدينية للأمويين الإسبان قد أثرت بشكل ملحوظ وجدير بالاعتبار ، كما هو مدلل عليه بصورة موسعة اليوم فى نشر الفن المستعرب ، فقد كان مع ذلك عبر فنه المنقول الذى تزخر به قرطبة بصورة كبيرة ، وفى وقت مبكر ، هو خاتمتها فى زخرفة حياة الأبهة فى إسبانيا المسيحية ، وبإمكاننا أن نغامر بالقول بأن ورش الحلى والجواهر ونجارة الأبنوس فى العاصمة ، هذا بالإضافة إلى المصانع المنتجة للحرائر الفخمة ، كانت تزاوّل نشاطها فى القرن العاشر بالنسبة لإسبانيا المسيحية وجنوب فرنسا ولمملكة قرطبة على حد سواء ، ويفضل التجارة بين موانئ البحر المتوسط ، قام الشرق بفنونه الصغيرة ، بتزويد الأندلس بنماذج عراقية ومصرية ، متجددة باستمرار ، والتي لم يجد الصانعون والنساجون الأندلسيون أمامهم بداً من تقليدها ، أو على الأقل يجعلونها نصب أعينهم كعلامة على الذوق والموضة السائدة . تلك الصناعة المتعلقة بالبذخ والترف ، التى من المناسب أن نضيف إليها تصنيع الكهرمان الأسود والجلد المنقوش ، ساهمت فى نشر صيت قرطبة فى أوروبا الغربية فى العصر الوسيط ، ربما بقدر مماثل لصيتها فى مجال الأعمال العسكرية التى قام بها خلفاؤها وقوادها ، أو مثّل صوائفهم التى أخرجوها ضد الثغر الإشباني أو قشتالة ، أو ليون ، أو حتى ضد الأراضى المضطربة لإقليم جاليتيا المشهور بأرض الحواريّ سنّياجو ، وهى صوائف ذاع صيتها وقلّ نتاجها .

هوامش الفصل الثامن

(١) المرجع الأصلي ، الجزء الرابع ص ١٠٦

(٢) انظر :

- M. Asin Palacios, Abenhazm de Cordoba, I. Pp. 106-107.

وفقاً لياقوت ، إرشاد الأريب ، الجزء الخامس ص ٨٩ .

(٣) ومن جانب آخر ، فإن هذا لايعنى - بطريقة ما - اعترافاً برفعة العنصر العربى ، الأمر الذى ترفضه نظرية الشعوبية ، انظر :

- Goldziher, Die su'ubijja unter den Muhammedanern in Spanien, en ZDMG, T. III, 1889, pp. 601 - 620.

(٤) ص ١٠٨ ، ابن سهل ، أحكام كبرى ص ٢٣٤ ، من مخطوط الرباط .

(٥) ابن حيان ، المقتبس ، الجزء الأول ص ٢٧٧

(٦) العمل المذكور ص ١٥٢ رقم إشارى مرجعى ٤٦

(٧) ابن سهل ، أحكام كبرى ص ٢٤٦ - ومايليها ، من مخطوط الرباط .

(٨) هناك قضية أخرى خاصة بالزندقة ، تم رفعها فى طليطلة ضد أحد الأفراد المدعو ابن حاتم الأزدي عام ١٠٦٥ (٤٥٧) . انظر : ابن سهل ، أحكام كبرى ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ من مخطوط الرباط .

(٩) العمل المذكور ص ٢٨٢ ، ٢٨٣

(١٠) انظر : مجموعات القيسى ص ١٠٢ ، والجزيرى ص ٥٩

(١١) يوجد منبر من القرن العاشر ، محفوظ بمسجد الأندلسيين بفاس ، يحمل فى مسنده نقشاً مكتوباً يظهر فيه : اسم هشام الثانى ، ومحمد بن أبى عامر بتاريخ ٣٧٥ (٩٨٦) . انظر حول هذا الموضوع .

- H. Terrasse, la Mosquee des Andalus a Fes, Paris, S.A. pp. 35-40.

(١٢) انظر :

- Idrisi, Description de L'afrique et de L'Espagne, Texto, pp. 210-211, trad. P. 260. Levi - Provençal, la Penisule Iberique, pp. 185. 186.

(١٣) العمل المذكور ص ٤٥ - ٤٦

(١٤) ابن الفرضى ، تاريخ ، أرقام ٣ ، ٣٢٠ ، ٤٤٢

(١٥) نفس المرجع ، عدد ١٥٧٢

- (١٦) نفس المرجع ، عدد ٢٣٣
- (١٧) العمل الأصلي ، مجلد ٤ ، ص ٢٤٢
- (١٨) انظر : ابن الأبار ، التكملة ، عدد ٤٠٢
- (١٩) العمل المذكور ص ٣٢١ - ٣٢٢ حين يتحدث عن الأمير محمد الأول .
- (٢٠) ص ٩٠ ف ، ٩١ ر .
- (٢١) حول المدارس الدينية القضائية فى إسبانيا الأموية انظر :
- M. Asin Palacios, Abenhazam de Cordoba, I, pp. III Y ss.
- (٢٢) حفظ لنا من قبل المقرئ ، النفع ، II ، ص ١٠٩ - ١٢١
- (٢٣) العمل المذكور ، الجزء الرابع ص ٤٧٢
- (٢٤) العمل المذكور ، الجزء الرابع ص ٩٦ - ٩٨
- (٢٥) انظر :
- J. Schacht, the origins of Muhammedan Jurisprudence, Oxford, 1950.
- (٢٦) فى مقدمته لكتاب :
- L' Livre d'Ibn Toumert, Argel, 1903k pp. 23 - 25.
- (٢٧) ابن حزم القرطبي (Abenhazam de Cordoba) ، الجزء الأول ص ١٢١ - ١٢٢
- (٢٨) العنوان الدقيق لهذه الدراسة هو «المستخرجة من الأسماع» وقد كان هذا العمل هدفاً لتعليق كبير من جانب ابن رشد ، كتاب البيان والتحصيل .
- (٢٩) أحسن التقاسيم (B.G.A., 17) ، ص ٢٣٧
- Trad. Ch. Pellat, Description de l'occident musulman, p. 45.
- (٣٠) نفس العمل المذكور ص ٢٣٦ (الترجمة ص ٤١) .
- (٣١) العمل المشار إليه ، الجزء الرابع ص ١٨٨
- (٣٢) ظل القاضى القرطبي أسبج ابن خليل ، الذى كان معاصراً للأمير محمد الأول ، قائماً فى منصب المفتى على مدى خمسين عاماً (رئيس هيئة للإفتاء الأندلسية) وقد اشتهر بأرائه ضد دراسة الأحاديث والاستعانة بها ، بهذا الصدد يمكن الاطلاع على :
- Goldziher, Introduccion al divred' Ibn Toumert, pp. 25-26.
- (٣٣) انظر على وجه الخصوص :
- M. Asin, Abehazam de Cordoba, I, pp. 123-127.
- (٣٤) العمل المذكور ، الجزء الرابع ص ٣٢٧
- (٣٥) العمل المذكور ص ٧٩ - ٨٠
- (٣٦) انظر :
- Brunschvig, Polemiques medievals autour du rite de Malik, p. 395.

- (٢٧) حول مذهب الاعتزال ومذهب ابن مسرة فى إسبانيا الإسلامية ، يعد المصدر الأساسى هو :
- M. Asin Palacios, Ibn Masarra y su escuela; origenes de la filosofia hispano - musulmana, en la reedicion de obras escogidas, I, Madrid, 1946, pp. 1-216.
- (٢٨) العمل المذكور ، الجزء الرابع ص ١٠٦
- (٢٩) العمل المذكور ، الجزء الرابع ص ٤٨١ وإشارة مرجعية رقم ٣٢
- (٤٠) فى المقطع المذكور ، ص ٣٠٨ ، إشارة مرجعية رقم ٣٠
- (٤١) العمل المذكور ص ٣١٥
- (٤٢) ابن الفرضى ، تاريخ ، عدد ٨٣٥ : وأسین بالاثيوس ، ابن مسرة ص ١٨٠
- (٤٣) ابن الفرضى ، تاريخ ، عدد ٤١٧ ، أسین ، ابن مسرة ص ١٨١ - ١٨٢
- (٤٤) انظر :
- Goldziher, Inrod. Al divre d'Ibn Toumert, p. 67.
- (٤٥) ابن الفرضى ، تاريخ ، رقم ١٥٧٨ ، سـعید الطلیطلى ، الطبقات ، ترجمة Plachere.
- (٤٦) انظر :
- Introduccion al Livre d'Ibn Toumert, p. 68
- (٤٧) ابن الفرضى ، تاريخ ، رقم ١٤٠١ ، جواد تسهیر ، العمل المذكور ، ص ٦٧
- (٤٨) العمل المذكور ، المجلد الرابع ، ص ١٠٦ عدد ٨١
- (٤٩) انظر :
- Asin, Ibn Massarra, P. 35.
- (٥٠) البيان ، عدد ١٥٤
- (٥١) هناك زاهد أندلسى مشهور عاش فى القرن العاشر هو العالم اللغوى «عثمان بن محاسن» من إستجه ، مات عام ٩٦٦ (٣٥٦) : ابن حزم ، كتاب الأخلاق والسير ، القاهرة ١٩٠٨ ، ص ٥٦
- Trad. M. Asin, los caracteres y la conducta, Madrid, 1916, p. 84.
- وابن الفرضى ، التاريخ ، عدد ٨٨٩ ، الضبى ، بغية الملتمس ، عدد ١١٩٣
- (٥٢) ابن الفرضى ، التاريخ ، عدد ٥٠
- (٥٣) نفس المرجع ، عدد ٢٠٢
- (٥٤) انظر :
- Introdu. Al Livre d'Ibn Toumert, p. 68.
- (٥٥) يمكن العثور عليها بصورة مختصرة فى :
- Suplemento de la ENC. ISL., Po. 99-101.
- (وهو جزء مخصص لابن مسرة) .
- (٥٦) التاريخ المحدد لهذا يبدو مرتين فى النبامى ، مرقية .
- (٥٧) العمل المذكور ، الجزء الرابع ص ٤٠٨ ، وفى نفس هذا الجزء ص ٨٠ ، إشارة مرجعية رقم ٨٧

- (٥٨) أقام بعض الأندلسيين في تلك الفترة في كريت لبعض الوقت ، أو حتى إقامتهم في تلك الجزيرة ، يمكن الاطلاع على : ابن الفرضى ، تاريخ ، أعداد ١٤٢١ ، ١٥٨٦
- (٥٩) ابن الفرضى ، تاريخ ، أعداد : ١٨٤ - ٢٣٥
- (٦٠) ابن الفرضى ، تاريخ ، عدد ١٩٩
- (٦١) ابن الفرضى ، تاريخ ، عدد ٧
- (٦٢) يمكن الاطلاع على :
- B. Roy Y P. Poinssot, Inscriptions arabes de Kairouan, Paris, 1950, pp 63.
- (٦٣) ابن الفرضى ، تاريخ ، عدد ١٣
- (٦٤) نفس المرجع ، عدد ٣٧٥
- (٦٥) نفس المرجع ، عدد ١١٣٦ - ابن حيان ، المقتبس ، ١ ، ص ٢٢٩
- (٦٦) ابن الفرضى ، تاريخ ، عدد ٨٨٩ ، ورقم ١٥٠٩ سوف نجد سيرة ذاتية لشخص عاش في منتصف القرن العاشر ، وقام بتأليف بعض التعليقات على أشعار أبي تمام ومسلم بن الوليد .
- (٦٧) حول هذه النقطة يمكن الاطلاع على : ابن الأبار ، التكملة ، عدد ١٤٠
- (٦٨) انظر ياقوت ، إرشاد الأريب ، طبعة مارجيلوث ، ١١ ، ص ٦٧
- (٦٩) انظر :
- P. Melchor M. Antuna, La corte literaria di Alhaquem II en Cordoba, Tirada aparte de Religion, Y Cultura (Revista de Los PP. Agustinos de El Escorial) 1929.
- (٧٠) العمل المذكور ، الجزء الرابع ، ص ٣٧٠
- (٧٢) الضبى ، البيان ، عدد ٢٢٧ ، ابن الأبار ، الحلة ، ص ١٠٣
- (٧٢) وفقاً لما يذكره مؤلفه ، فإن الأمايى للقالى كان هدفاً ، في كل يوم من أيام الخميس ، لجلسة عمل يرأسها الخليفة في أحد قصوره .
- (٧٣) هذا هو أيضاً مايراه إميليو جارثيا جوميث في عمله : الشعر العربى - الأندلسى ص ٥٤
- (٧٤) ابن الفرضى ، تاريخ ، عدد ٦٢٠ : الضبى ، البيان ، عدد ٨٥٩
- (٧٥) ابن الفرضى - تاريخ ، عدد ١٤٠٣
- (٧٦) انظر :
- R. Brunchvig, un aspect de la Litterature historico - geographique de L'Islam, en Melanges Gaudetroy - Demombunes, pp. 149 - 152.
- (٧٧) ابن الأبار ، الحلة ، ص ١٠٢
- (٧٨) انظر :
- J. Ribera, Bibliofilos y bibliotecas en la Espana musulmana, en Disertaciones y opusculos, I, pp. 181-182.

(٧٩) فى جمهورته ، ص ٩٢

(٨٠) ابن الفرضى ، تاريخ ، عدد ٨٨٤ ، ابن باشكوال ، الصلة ، عدد ١٤١٣ ، الضبى ، بغية الملتمس

عدد ١٥٨٩

(٨١) الضبى ، بغية الملتمس ، عدد ٩٤

(٨٢) كانت هناك فى القرن العاشر فى قرطبة مكتبات خاصة ، رغم أنها لم تصل فى مكانتها إلى تلك التى كانت تتمتع بها مكتبة الخليفة ، ولكنها كانت مكتبات تتمتع بأهمية على مدى فترات طويلة ، انظر - بهذا الصدد - ابن باشكوال ، الصلة ، عدد ٦٧٩ ، وهو يقدم لنا تفاصيل عديدة عن القاضى عبد الرحمن بن فطيس ، الذى كان يعمل تحت إمرته سبعة من النساخين ينقلون بدون توقف مخطوطات عديدة .

(٨٣) حول تشبيه محتويات مكتبة الحكم من قبل الواضع ، فى أوائل القرن الحادى عشر ، يمكن الاطلاع على الجزء الرابع ، ص ٤٧١ ، عدد ٢٠

(٨٤) حول ديوان شعراء المنصور يمكن الاطلاع على : الطبى ، بغية الملتمس ، أرقام ٨٩٠ ، ١٠٣٦ ، ١١٢٣ ؛ وخاصة ابن الخطيب ، الإحاطة ، طبعة القاهرة ، الجزء الثانى ص ٧١ - ٧٢

(٨٥) انظر :

- E. Garcia Gomez, Poesia arabigo - andaluza, breve sintesis historica, Madrid, 1952.

(٨٦) انظر لمؤلف هذا العمل ، عمله التالى :

- Poesie arabe d'Espangne et poesie d'Europe medie vale in Islam d'Occident, I, pp. 281-304.

(٨٧) انظر :

- F. Pons Borgues, Ensayo bibliografico sobre los historiadores y geografos arabigo - espanoles, Madrid, 1898.

(٨٨) ابن حيان ، المقتبس ، ١ ، ص ٢٥٢ ، ٢٥٤

(٨٩) العمل المذكور ، الجزء الرابع ، ص ١٨٤

(٩٠) العمل المذكور ، ص ١١٢ ، إشارة مرجعية ، ٥٧

(٩١) حول هذين المؤرخين ، يمكن الاطلاع على :

- Heri-Provencal, y Garcia Gomez, Una cronica anonima de'Adb al Rahman III el Nasir Tntrod, pp. 20-22.

(٩٢) العمل المذكور ، الجزء الرابع ، ص ١٧٦

(٩٣) انظر :

- M. Meyerhof, Esquisse historique de la pharmacologie et botanique chez les Musulmans d'Espagne, en Al-Andalus, III, 1935, pp. 3-13.

(٩٤) العمل المذكور ، ص ٢٠

(٩٥) انظر :

- Manuel de G. Marçais, el Art hispano - mauresque de H. Terrasse; M. Gomez Moreno; G. Marçais, L'Art de L'Islam, Paris, 1946, p. 90-103.

(٩٦) العمل المذكور ، ص ٢٨

(٩٧) العمل المذكور ، الجزء الرابع ص ١٧٤ ، وكذلك في نفس الجزء ص ١٨٥

(٩٨) ابن الفرضي ، تاريخ ، عدد ١١٩٧ ، حيث يذكر سيرة أحد المشايخ القرطبية ، محمد بن عبيد بن أيوب ، المتوفى عام ٩٢٩ (٣١٧) ، الذي انتهز سفره في دراسة إلى بغداد حتى يبدأ في صناعة النسيج (الديباچ) . وحين عاد إلى إسبانيا ، تخصص في هذه الصناعة .

(٩٩) العمل المذكور ، ص ١٨٤ ، إشارة مرجعية رقم ٢٠٢

**ملحق بالأشكال الواردة
بالجزء الأول من المجلد الثانى**

- شكل ١ : منظر للبلاط الملكي على صندوق من العاج بكاتدرائية « بنبلونة » .
- شكل ٢ : قوس روماني بـ « مدينة سالم » (سورية - قشتالة القديمة) .
- شكل ٣ : أطلال « قلعة رياح » القديمة (المدينة الملكية) .
- شكل ٤ : « برج الحمّة » (جيان) ، منظر عام للمدينة وقلعة الخلافة .
- شكل ٥ : « برج الحمّة » (جيان) ، منظر للقلعة من الداخل .
- شكل ٦ : كروكي لحصن « غراماج » (سورية - قشتالة القديمة) .
- شكل ٧ : بوابة الدخول إلى حصن « غراماج » (سورية - قشتالة القديمة) .
- شكل ٨ : منظر للصيد على صندوق العاج بكاتدرائية « بنبلونة » .
- شكل ٩ : محاربان على ظهر فيلين (صندوق العاج بكاتدرائية « بنبلونة ») .
- شكل ١٠ : نواحي « مدينة سالم » (سورية - قشتالة القديمة) .
- شكل ١١ : مدينة « سبته » والمنطقة المحيطة بها .
- شكل ١٢ : منظر عام لمدينة « شَلَب » (البرتغال) .
- شكل ١٣ : لوحة تذكارية من الحجر بمناسبة افتتاح عبد الرحمن الثالث لترسانات « طرطوشة » عام ٩٤٤ - ٩٤٥ م (٣٣٣ هـ) .
- شكل ١٤ : شاهد حجرى على مقبرة أحد المستعربين ، عثر عليه في مدينة « اللّسانة » (قرطبة) . محفوظ بمتحف القصبّة بمدينة « مالقة » .
- شكل ١٥ : مرثية شعرية منقوشة على ضريح المستعرب « يوحنا إكسيموس » المتوفى عام ٩٢٥ م قرطبة .
- شكل ١٦ : كتابة على ضريح « ثييريانوس » المتوفى عام ١٠٢ م . قرطبة .
- شكل ١٧ : مرثيتان على شاهد مقبرة المستعربة « اسبثيوسا » وابتنتها « ترنكيا » المتوفاة عام ٩٢٧ م ، الشاهد مجلوب من قرطبة ومحفوظ بمتحف القصبّة في مدينة « مالقة » .

شكل ١٨ : دراهم شرقية من القرنين السابع والثامن الميلاديين ، عُثر عليها فى « جراف » (برشلونة) .

شكل ١٩ : دراهم شرقية وأندلسية من القرنين السابع والثامن الميلاديين ، عُثر عليها فى « جراف » (برشلونة) .

شكل ٢٠ : دنائير أندلسية محفوظة بالجمعية الأمريكية الإسبانية (نيويورك) :

- ١ - دينار ، مسكوك فى الأندلس ، عام ١٠٢ هـ .
- ٢ - دينار ، مسكوك فى الأندلس ، عام ٢١٧ هـ (عبد الرحمن الثالث) .
- ٣ - ثلث دينار ، ٢٢١ هـ ، لا يحمل اسم المكان المسكوك فيه .
- ٤ - دينار ، مسكوك فى مدينة الزهراء ، عام ٣٥٧ هـ (الحكم الثانى) .
- ٥ - دينار ، مسكوك فى الأندلس ، عام ٣٨٠ هـ (هشام الثانى) .
- ٦ - دينار ، مسكوك فى الأندلس ، عام ٣٩٠ هـ .

شكل رقم ٢١ : دنائير أندلسية محفوظة بالجمعية الأمريكية الإسبانية (نيويورك) :

- ١ - دينار ، مسكوك فى الأندلس ، عام ١١٦ هـ .
- ٢ - دينار ، مسكوك فى الأندلس ، عام ١٦٥ هـ (عبد الرحمن الأول) .
- ٣ - دينار ، مسكوك فى الأندلس ، عام ٢٥٤ هـ (محمد الأول) .
- ٤ - دينار ، مسكوك فى الأندلس ، عام ٢٢١ هـ (عبد الرحمن الثالث) .
- ٥ - دينار ، مسكوك فى مدينة الزهراء ، ٣٥٩ هـ (الحكم الثانى) .
- ٦ - دينار ، مسكوك فى الأندلس ، عام ٣٩١ هـ (هشام الثانى) .
- ٧ - دينار ، مسكوك فى الأندلس ، عام ٤٠٦ هـ (سليمان المستعين) .

شكل ٢٢ : منظر كهوف مسكونة بمدينة « وادى آش » (غرناطة) .

شكل ٢٣ : مزارع زيتون فى الأراضى المحيطة بمدينة « جيان » .

- شكل ٢٤ : مزارع زيتون فى الأراضى المحيطة بمدينة « أنتقيرة » (مالقة) .
- شكل ٢٥ : مزارع زيتون فى « روميرال » (أنتقيرة - مالقة) .
- شكل ٢٦ : مزارع زيتون متاخمة لـ « حص اللوز » (غرناطة) .
- شكل ٢٧ : منظر لإحدى معاصر الزيتون خارج أسوار مدينة « فاس » .
- شكل ٢٨ : معصرة زيتون بإحدى القرى الأندلسية .
- شكل ٢٩ : مزارع كروم بأراضى « ساجونتو » (بلنسية) .
- شكل ٣٠ : منظر لأحد بساتين مدينة « بلنسية » .
- شكل ٣١ : أرض بستان بمدينة « بلنسية » تم تخطيطها وإعدادها للرّى .
- شكل ٣٢ : ناعورة بقواديس بأحد بساتين كاركاخينتى « (بلنسية) » .
- شكل ٣٣ : ناعورة بقواديس فى جزيرة « يابسة » .
- شكل ٣٤ : عجلة هيدروليكية ضخمة بالقرب من مدينة « حماة » السورية .
- شكل ٣٥ : عجلة هيدروليكية ضخمة على نهر دجلة (آسيا الصغرى) .
- شكل ٣٦ : عجلة نهريّة فى « كاسترودل ريو » (قرطبة) .
- شكل ٣٧ : عجلة هيدروليكية فى « نورة » (مرسية) ، هُدمت عام ١٩٣٦ م
- شكل ٣٨ : كروكى لمدينة « بلّش » (مالقة) فى نهاية القرن السابع عشر الميلادى .
- شكل ٣٩ : أشجار النخيل فى « أّلىش » (لَقَنّت) .
- شكل ٤٠ : رسم لنبات الزعفران فى مخطوطة إسلامية محفوظة فى Frier Gallery (واشنطن) .
- شكل ٤١ : منظر عام لمدينة « رُنْدَة » (مالقة) .
- شكل ٤٢ : منظر لنهر « التاجّه » عند مروره بمدينة « رُنْدَة » (مالقة) .
- شكل ٤٣ : الخريطة الاقتصادية لإسبانيا الإسلامية .

شكل ٤٤ : مديغة جلود مغربية .

شكل ٤٥ : مديغة مغربية للجلود .

شكل ٤٦ : قطعة قماش من الحرير تحمل اسم هشام الثانى ، محفوظة باكاديمية التاريخ الملكية بمديرد .

شكل ٤٧ : قرن لصناعة الخزف والفخار بالمغرب .

شكل ٤٨ : جانب من ورشة مغربية لصناعة الخزف والفخار .

شكل ٤٩ : جرّة من الخزف ، مجلوبة من « إلبيرة » ، محفوظة فى متحف الآثار بغرناطة .

شكل ٥٠ : طبق مرسوم عليه جواد ، عُثر عليه بين أطلال « إلبيرة » ، محفوظة بمتحف الآثار بغرناطة .

شكل ٥١ : حوض من الرخام يحمل اسم عبد الملك (ابن المنصور) ، موجود فى مدرسة ابن يوسف (مراکش) .

شكل ٥٢ : صندوق من العاج مجلوب من كاتدرائية « سمّورة » ومحفوظ فى المتحف الوطنى للآثار بمديرد .

شكل ٥٣ : خريطة للطرق الرئيسية فى الأندلس خلال القرن العاشر الميلادى (الإسطخرى) .

شكل ٥٤ : القنطرة القديمة لمدينة « قورية » .

شكل ٥٥ : منازل (محطات) الطرق فى الأندلس كما ذكرها ابن حوقل (الأرقام الواردة بالخريطة تبين عدد الأيام التى يستغرقها الانتقال من محلّة إلى أخرى) .

- شكل ٥٦ : مخطط مختص لأشبيلية خلال القرن العاشر .
- شكل ٥٧ : منظر لأشبيلية خلال القرن السابع عشر - طبقاً لرسم في *Spaniae urbs*
- شكل ٥٨ : منظر لأشبيلية من الجو .
- شكل ٥٩ : منظر لاستجة (أشبيلية) طبقاً لرسم يرجع إلى القرن السادس عشر .
- شكل ٦٠ : برج البرانة بالقرب من استجة *Ecija* (أشبيلية) .
- شكل ٦١ : قصبة قرمونة (أرشيف دار نشر *Espasa*)
- شكل ٦٢ : منظر لقادش في نهاية القرن السادس عشر ، رسم في مؤلف بعنوان

Civitates orbis terrorum

- شكل ٦٣ : منظر لسبتة في نهاية القرن السادس عشر .
- شكل ٦٤ : مقر مسور في لبلّة *Niebla* (ولبة) .
- شكل ٦٥ : الأبراج والحوائط في سور لبلّة .
- شكل ٦٦ : باب الماء في سور لبلّة .
- شكل ٦٧ : منظر شلب *Silves* (البرتغال) - القصبة .
- شكل ٦٨ : بوابة القصبة في شلب (البرتغال) .
- شكل ٦٩ : منظر للشبوية طبقاً لرسم يعود إلى القرن السابع عشر (صورة من أرشيف *Espasa*) .
- شكل ٧٠ : منظر لمربلة (مالقة) أرشيف دار النشر *Espasa* .
- شكل ٧١ : قلعة سهيل فوينخيولا *Fuengirola* (مالقة) .
- شكل ٧٢ : مخطط مختصر للملقة خلال القرنين العاشر والحادي عشر .
- شكل ٧٣ : ملقة في نهاية القرن السادس عشر - رسم منشور في *Civitates Orbis t*
- شكل ٧٤ : منظر للمالقة من الجو .

شكل ٧٥ : قصبة مالقة .

شكل ٧٦ : جبل الفنار من عند قصبة ملقة .

شكل ٧٧ : مخطط مختصر للمرية خلال القرنين العاشر والحادي عشر ، طبقاً

لتورس بالباس .

شكل ٧٨ : أبراج سور المرية في مستنقع شانكا (تصوير تورس بالباس)

شكل ٧٩ : قصبة المرية بعد ترميمها .

شكل ٨٠ : منظر لغرناطة من قصبة الحمراء (أرشيف دار نشر Espasa)

شكل ٨١ : أرشدونة مالقة في نهاية القرن السادس عشر-رسم ورد في Civitates

orbis terrorums

شكل ٨٢ : انتقيرة (مالقة) خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر (نفس

المصدر) .

شكل ٨٣ : أرشدونة مسورة (مالقة) .

شكل ٨٤ : الجزء الجنوبي من جيان - منظر من القسبة (تصوير تورس بالباس) .

شكل ٨٥ : قسبة جيان .

شكل ٨٦ : قسبة جيان (أرشيف Espasa) .

شكل ٨٧ : منظر لقنت خلال القرن الثامن عشر - رسم فرنسى .

شكل ٨٨ : قسبة لقنت وميناؤها .

شكل ٨٩ : قسبة دنيل (لقنت) .

شكل ٩٠ : قسبة شاطبة (بلنسية) .

شكل ٩١ : مخطط مؤجز لبلنسية خلال القرنين العاشر والحادي عشر .

شكل ٩٢ : منظر لبلنسية من الجو .

- شكل ٩٣ : مخطط موجز لطليطلة خلال القرن العاشر .
- شكل ٩٤ : منظر لطليطلة من الجنوب طبقا لرسم يعود إلى القرن الثامن عشر دار
- نشر Espasa
- شكل ٩٥ : منظر من الجو للجزء الغربى فى طليطلة .
- شكل ٩٦ : الحائط الذى يكون السور وكوراجا بجوار جسر سان مارتين - فى سوط
- طليطلة .
- شكل ٩٧ : جسر القنطرة وحصن سان سر باندو - طليطلة .
- شكل ٩٨ : مخطط موجز لسرقسطة - خلال القرنين العاشر والحادى عشر .
- شكل ٩٩ : الرقعة العمرانية القرطبية خلال القرن العاشر .
- شكل ١٠٠ : مخطط موجز لقرطبة خلال القرن العاشر .
- شكل ١٠١ : باب المدور فى سور قرطبة .
- شكل ١٠٢ : الجزء الجنوبى للمدينة والجانب الشرقى طبقاً لمخطط قرطبة عام ١٨١١م
- شكل ١٠٢ : منظر من الجو للجسر والمسجد الجامع والجانب الشرقى لقرطبة .
- شكل ١٠٤ : جسر والقلعة الحرة calahara
- شكل ١٠٥ : أطلال بوابة الرصيف وقصر على نهر الوادى الكبير فى قرطبة فى بداية
- القرن العاشر .
- شكل ١٠٦ : أسقف المسجد الجامع فى قرطبة حيث يرى فى الخلف نهر الوادى
- الكبير Campino
- شكل ١٠٧ : تفصيلة فى القطاع السابق على المحراب فى مسجد قرطبة .
- شكل ١٠٨ : كتابة تذكارية لوضع أعمدة عقد الدخول إلى المحراب فى مسجد قرطبة .

- شكل ١٠٩ : لوحة حجرية قبرية ترجع إلى عام ٩٧٧ (٢٦٧) تم العثور عليها في خيميننا (جيان) .
- شكل ١١٠ : كتابة على قبر مجهول ، توفي صاحبه عام ٩٨١ (٢٧٠) ، محفوظ في متحف طليطلة للآثار .
- شكل ١١١ : لوحة حجرية قبرية لمسلم توفي عام ١٠١٩ (٤٠٩) .
- شكل ١١٢ : مدرسة لتعليم القرآن بالمغرب .
- شكل ١١٣ : أطفال يتلون القرآن في مدرسة بالمغرب .
- شكل ١١٤ : حارة عربية مسدودة في آخرها ، في قرطبة .
- شكل ١١٥ : غرفة فوق شارع بمدينة فارس ، تشغلها مدرسة لتعليم القرآن .
- شكل ١١٦ : منزل ريفي في بريجيو (قرطبة) .
- شكل ١١٧ : قنديل خيفي من البرنز ، محفوظ داخل متحف معهد دون خوان البنسسى ، بمدريد .
- شكل ١١٨ : مدخل أحد الأفران الشعبية في مدينة فاس ، وبائع خبز على بابه .
- شكل ١١٩ : لوحة من الرخام توضح خوان الزينة والأدوات المستخدمة . متحف معهد دون خوان البنسسى ، بمدريد .
- شكل ١٢٠ : العشاب ، وفقا لمخطوط عربي ، بمتحف الميتروبوليتانو بنيويورك .
- شكل ١٢١ : مشهد للصيد بالصقور . تفصيل جاء على علبة عاجية بكتدرائية بامبلونة .
- شكل ١٢٢ : مشاهد صيد . تفصيل جاء فوق علبة من العاج بكتدرائية بامبلونة .
- شكل ١٢٣ : مشاهد صيد . تفصيل ورد فوق علبة من العاج بسيلوس ، محفوظة بمتحف بروجوس للآثار .
- شكل ١٢٤ : قطع شطرنج ، من الزجاج الجري المنحوت ، واردة من آخر Ager .

- شكل ١٢٥ : قطع شطرنج ، من الزجاج الحجري المنحوت ، من آخر Ager .
- شكل ١٢٦ : مشهد لموسيقى تعزف فى البلاط وأمام الحاشية الملكية . تفصيل جاء على علبة من العاج بمتحف اللوفر بباريس .
- شكل ١٢٧ : مسلمون مغاربة أثناء أدائهم لصلاة العصر .
- شكل ١٢٨ : نقش كتابى تأسيسى لمسجد تم إنشاؤه عام ٩٤٤ (٢٣٢) ، تم العثور عليه فى جواردامار ومحفوظ بمتحف الفنون الجميلة بموريثا .
- شكل ١٢٩ : منارة فى كنيسة سان خوان دى كوردوبا .
- شكل ١٣٠ : منبر مسجد الأندلسيين ، بمدينة فاس .
- شكل ١٣١ : ظهر منبر مسجد الأندلسيين ، بمدينة فاس ، يبدو لنا فيه إسمى هشام الثانى والمنصور بن أبى عامر .
- شكل ١٣٢ : خاتمة مخطوط من مكتبة الحكم الثانى بقرطبة ، تاريخ ٩٧٠ (٢٥٩) ، محفوظة بمكتبة مسجد القيروان بمدينة فاس .
- شكل ١٣٣ : قلعة طريف (قادش) .
- شكل ١٣٤ : لوحة تذكارية حول إنشاء قلعة طريف (قادش) على يد عبد الرحمن الثالث ، الذى تم الانتهاء منها فى شهر صفر عام ٢٤٩ (أبريل ٩٦٠) .
- شكل ١٣٥ : قلعة بانىوس دى لا إنتينا (جيان) .
- شكل ١٣٦ : نقش كتابى تذكارى لإنشاء أحد الأبراج على يد الحكم الثانى فى قلعة بانىوس دى لا إنتينا (جيان) ، انتهى العمل به فى شهر رمضان عام ٢٥٧ (أغسطس عام ٩٦٨) ، محفوظة بمتحف مدريد الوطنى للآثار .
- شكل ١٣٧ : تفصيل لفوارة برونزية ، واردة من قرطبة ، محفوظة داخل متحف مدريد الوطنى للآثار .
- شكل ١٣٨ : طاس برونزى يسمى الأميرية . محفوظ بمتحف قرطبة للآثار .
- شكل ١٣٩ : حلى من الذهب فى كنز لوخا (غرناطة) ، محفوظة بمتحف معهد دون خوان البلسى بمدريد .

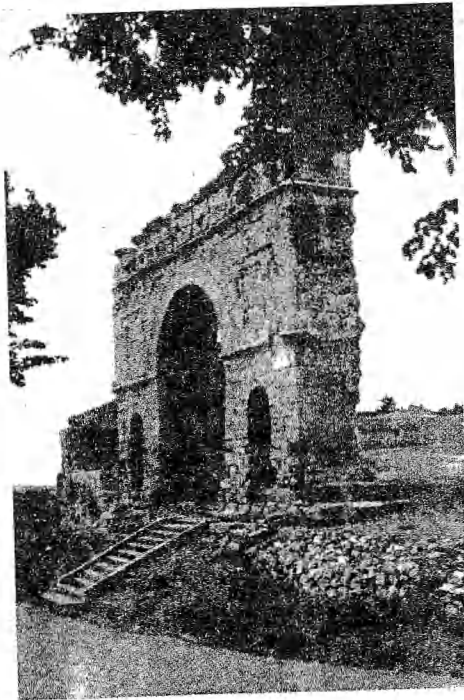
شكل ١٤٠ : خلخال من الفضة من كنز كاروتشا (ألميرية) ، محفوظ بمتحف معهد
دون خوان البلسي بمدريد .

شكل ١٤١ : سوار فضي من كنز جاروتشا (ألميرية) ، محفوظ بمتحف معهد خوان
البلسي بمدريد .

شكل ١٤٢ : دملج فضي من كنز لوخا (غرناطة) ، محفوظ بمتحف معهد دون خوان
البلسي بمدريد .



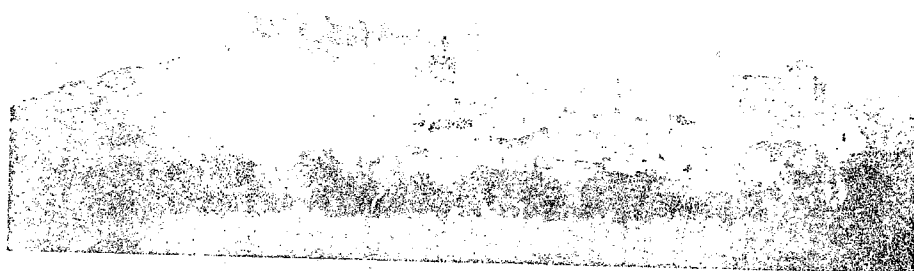
شکل رقم (۱)



شکل رقم (۲)



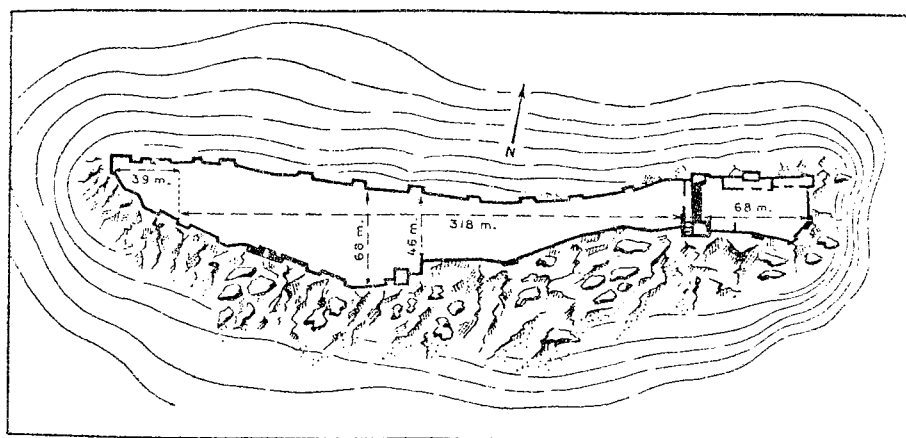
شكل رقم (٣)



شكل رقم (٤)



شكل رقم (٥)



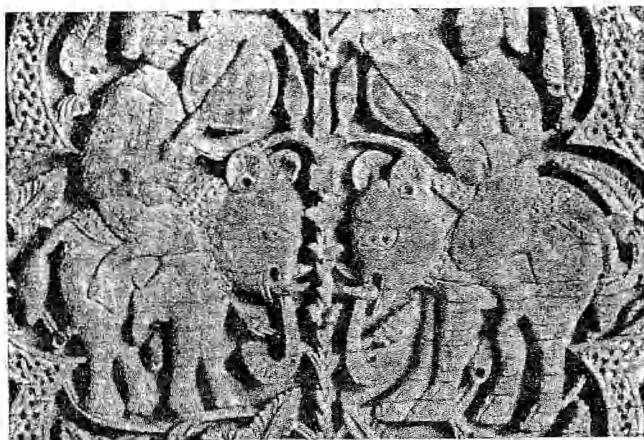
شكل رقم (٦)



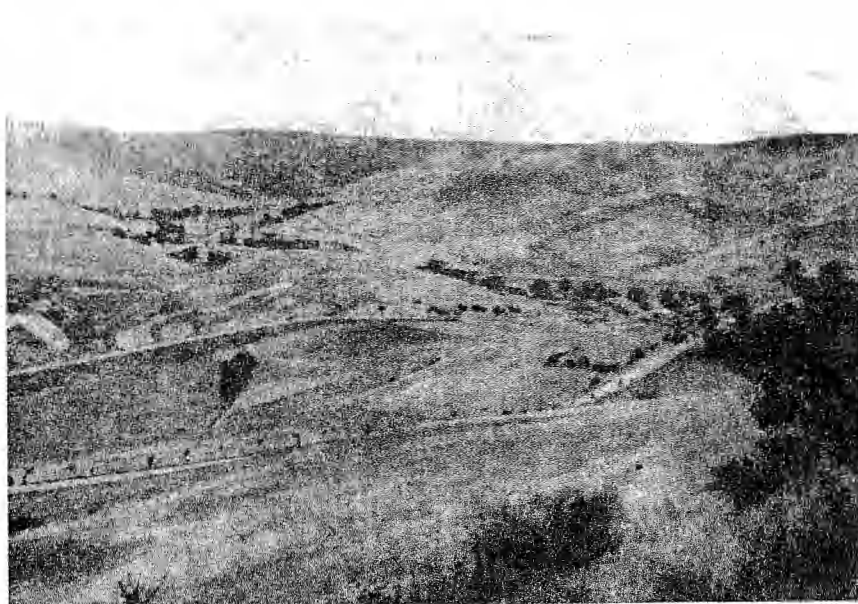
شکل رقم (۷)



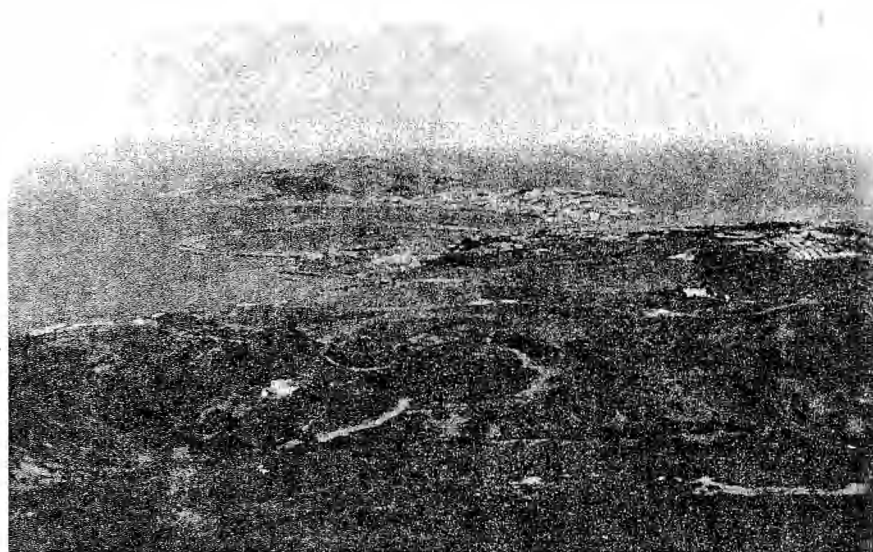
شکل رقم (۸)



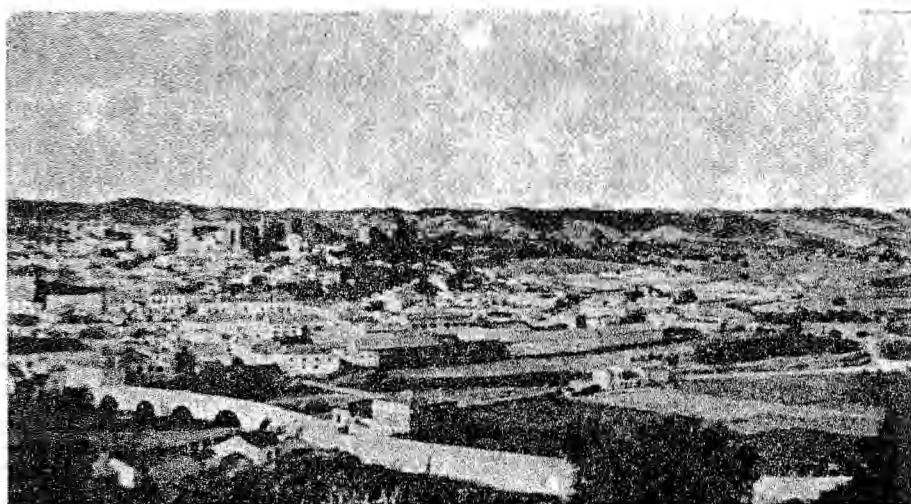
شکل رقم (۹)



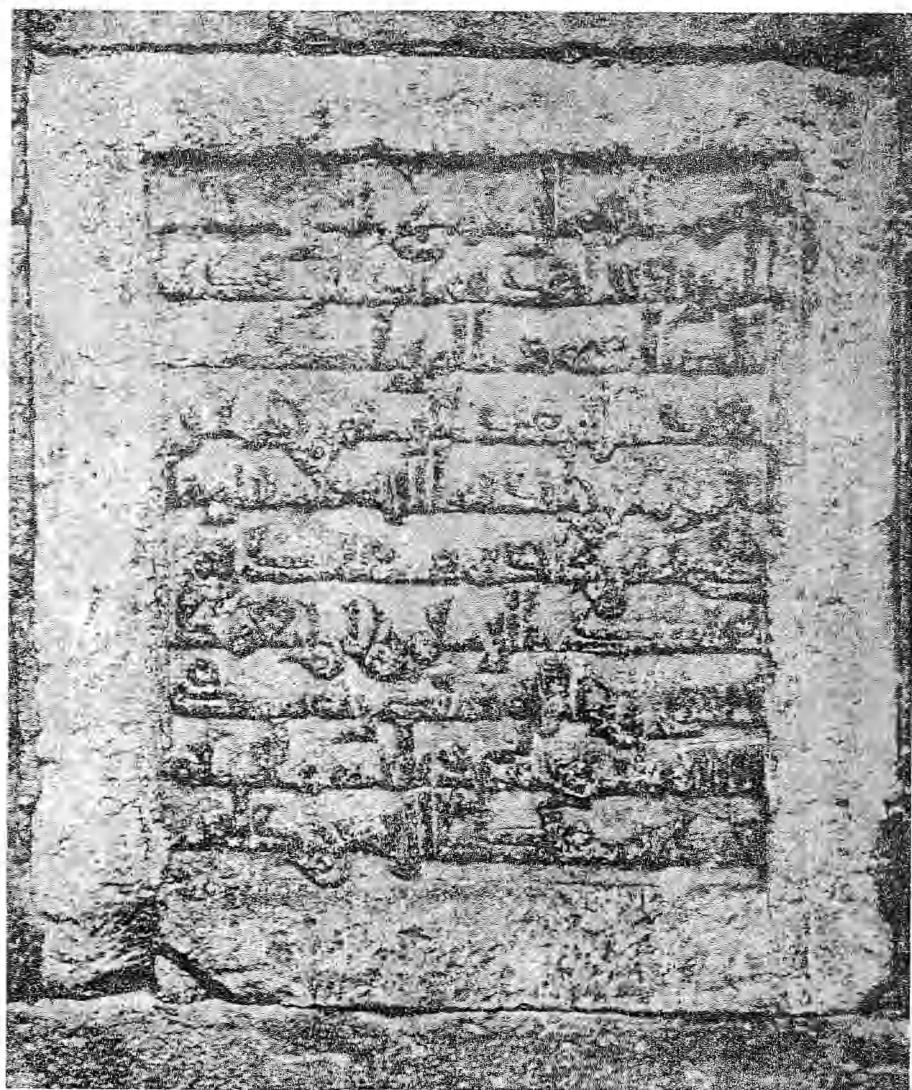
شکل رقم (۱۰)



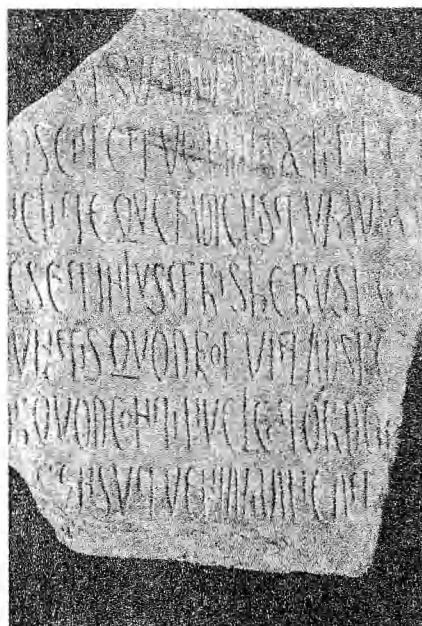
شكل رقم (١١)



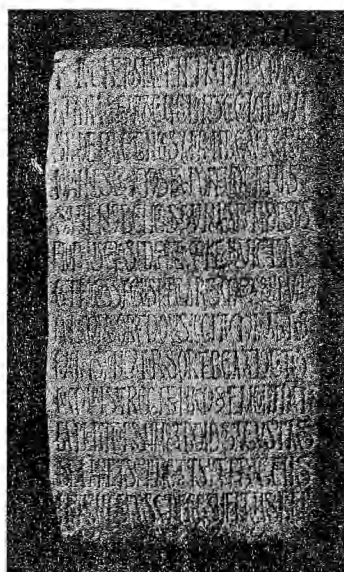
شكل رقم (١٢)



شکل رقم (۱۳)



شكل رقم (١٤)



شكل رقم (١٥)



شکل رقم (۱۶)



شکل رقم (۱۷)



شكل رقم (١٨)



شكل رقم (١٩)



1



3



2



4



5



6

شكل رقم (٢٠)



1



2



3



4



5



6



7

شكل رقم (٢١)



شكل رقم (٢٢)



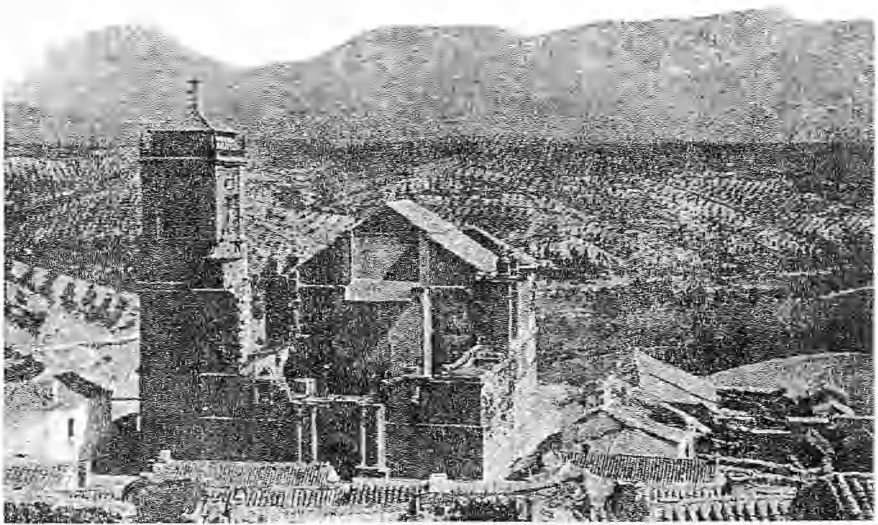
شكل رقم (٢٣)



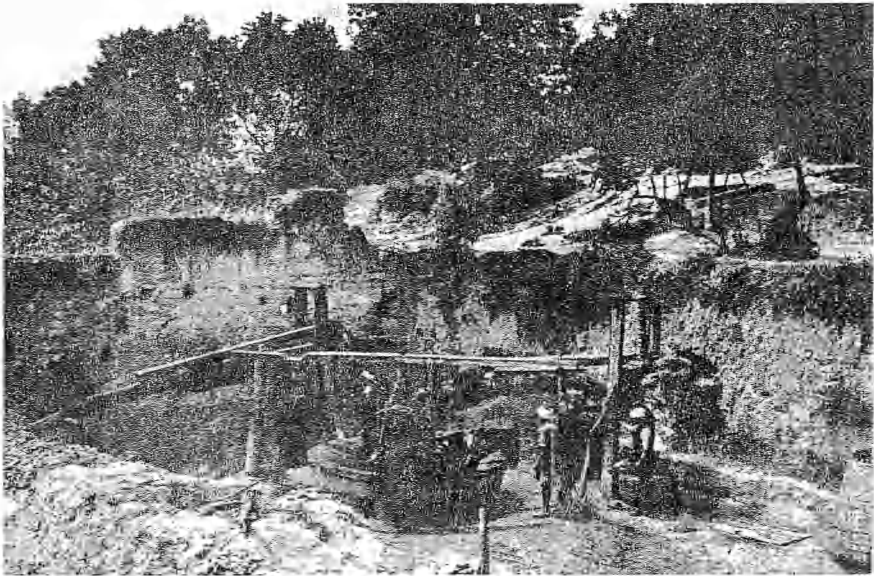
شكل رقم (٢٤)



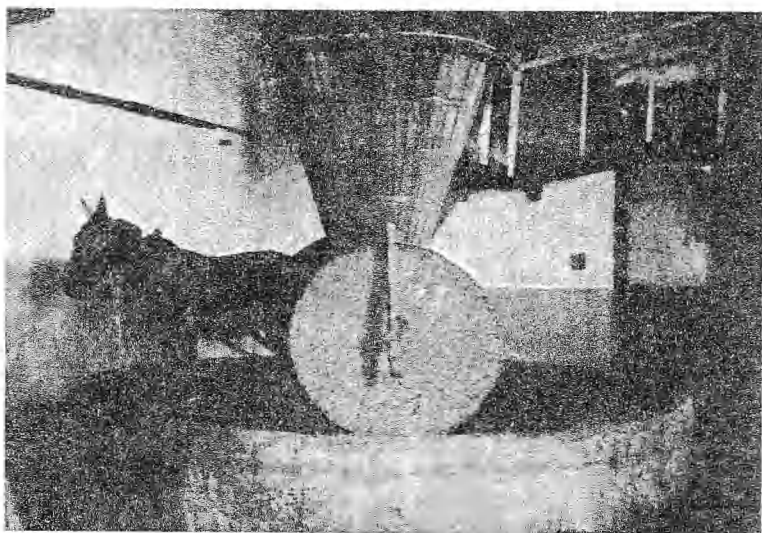
شكل رقم (٢٥)



شکل رقم (۲۶)



شکل رقم (۲۷)



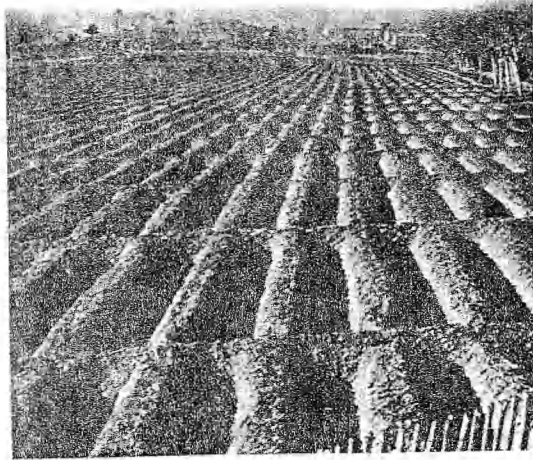
شكل رقم (٢٨)



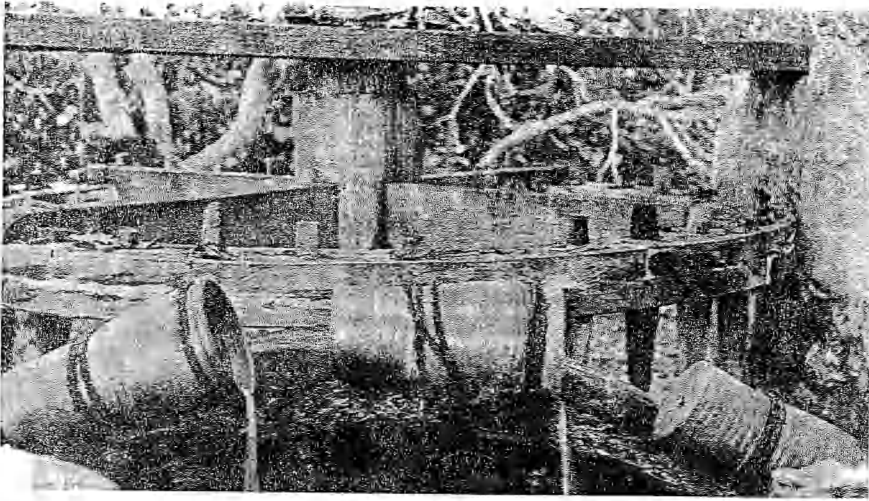
شكل رقم (٢٩)



شكل رقم (٣٠)



شكل رقم (٣١)



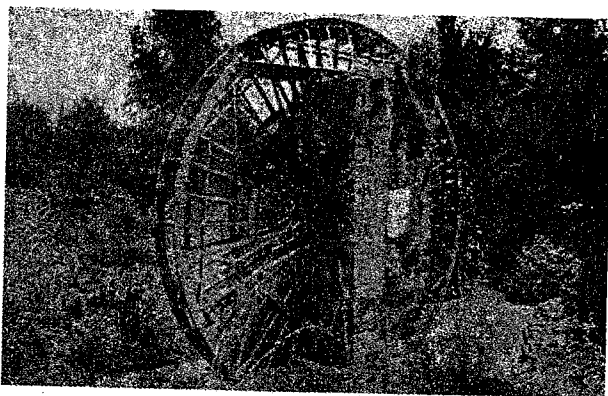
شکل رقم (۳۲)



شکل رقم (۳۳)



شكل رقم (٣٤)



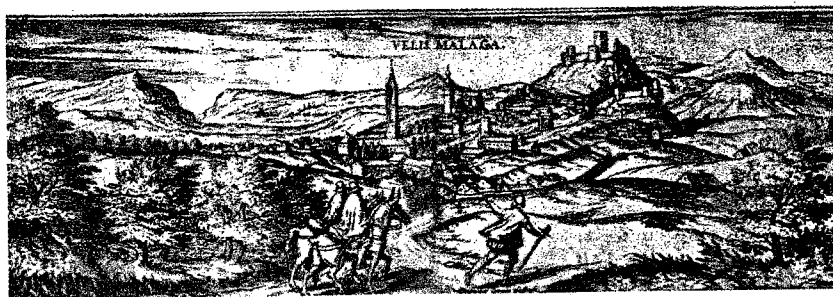
شکل رقم (۳۵)



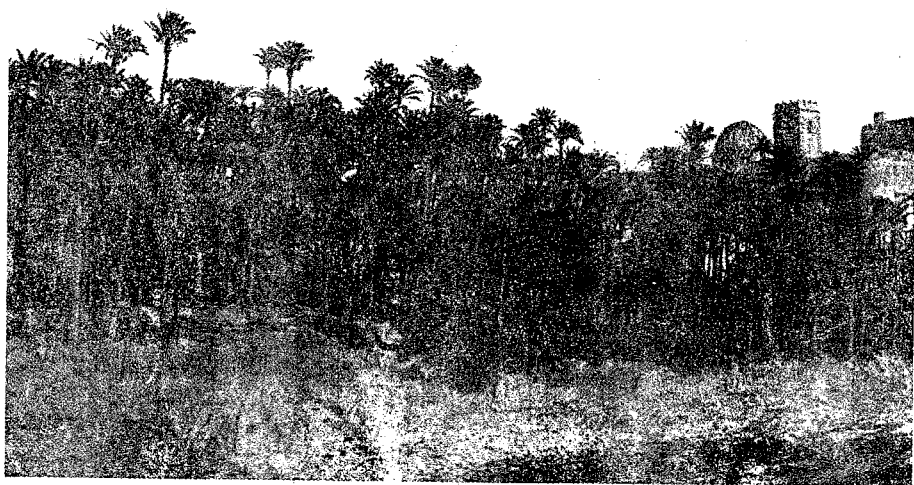
شکل رقم (۳۶)



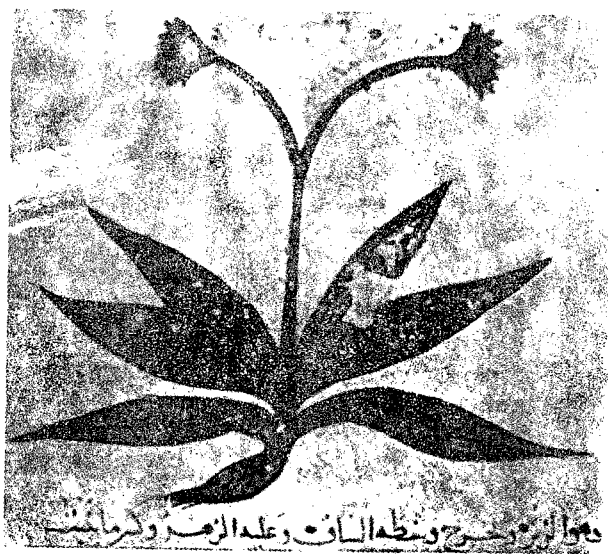
شكل رقم (٣٧)



شكل رقم (٣٨)



شكل رقم (٣٩)



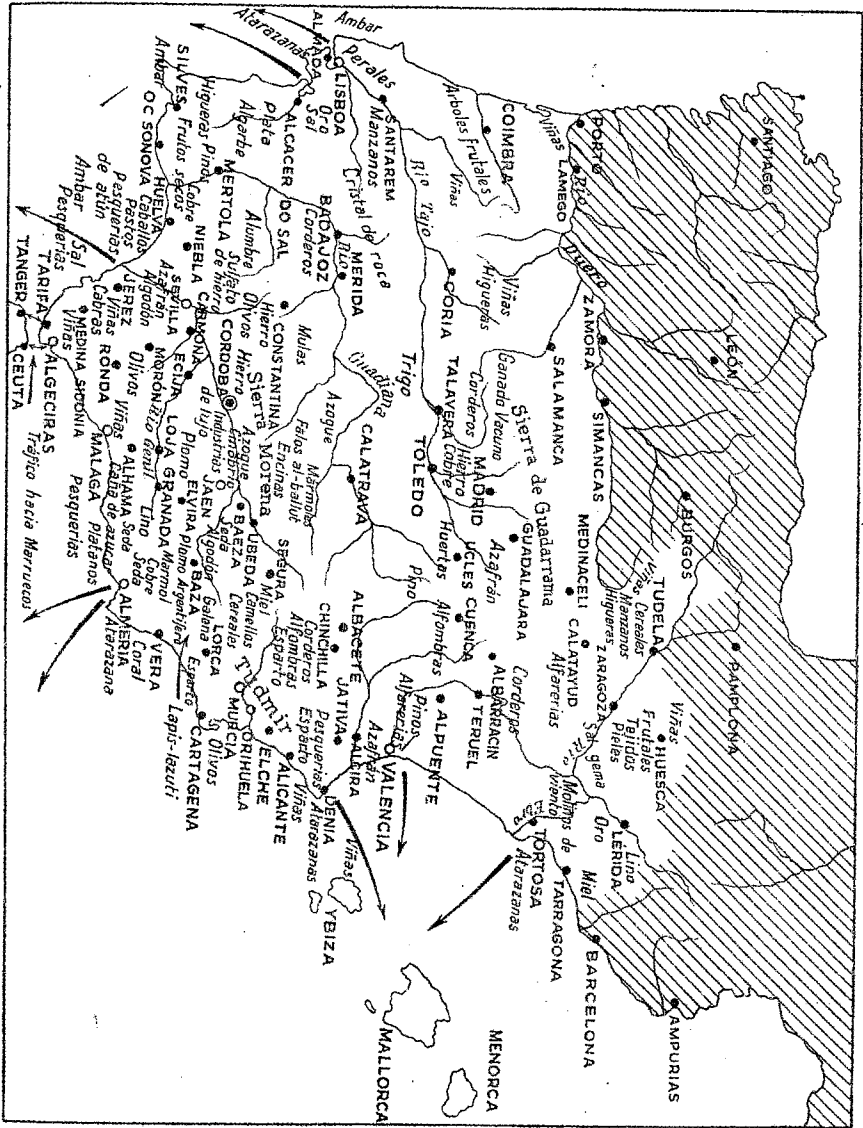
شكل رقم (٤٠)



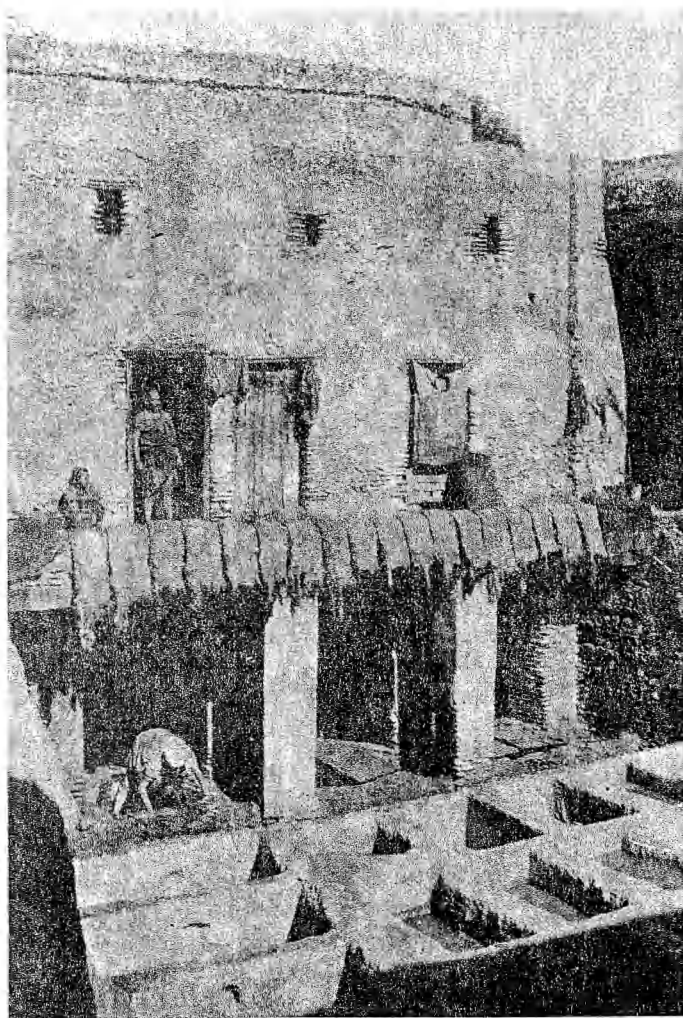
شكل رقم (٤١)



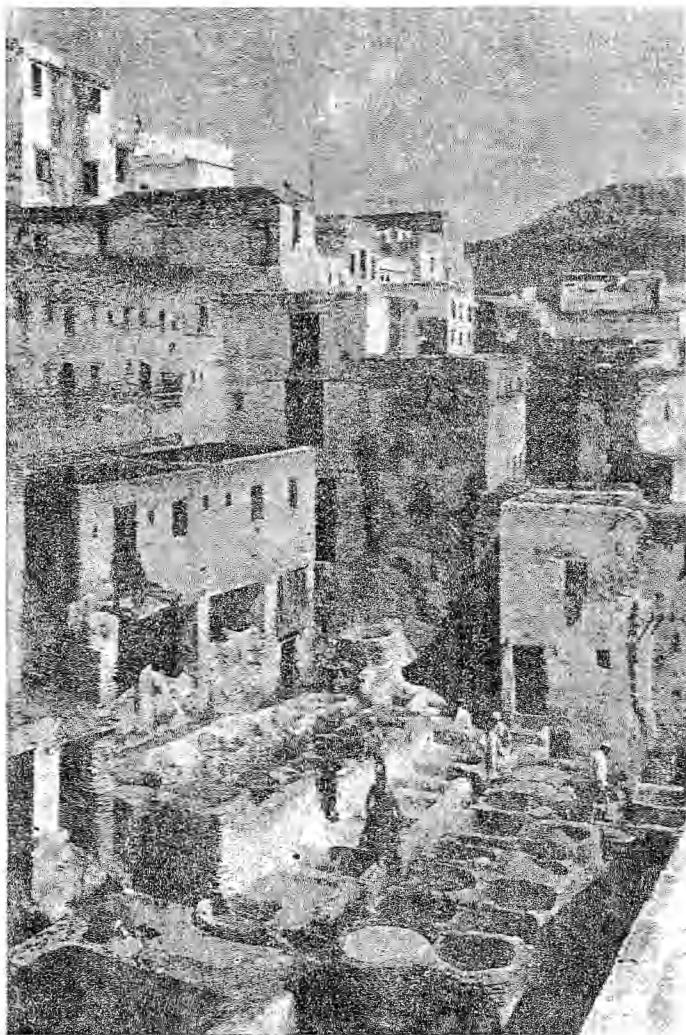
شكل رقم (٤٢)



شكل رقم (٤٣)



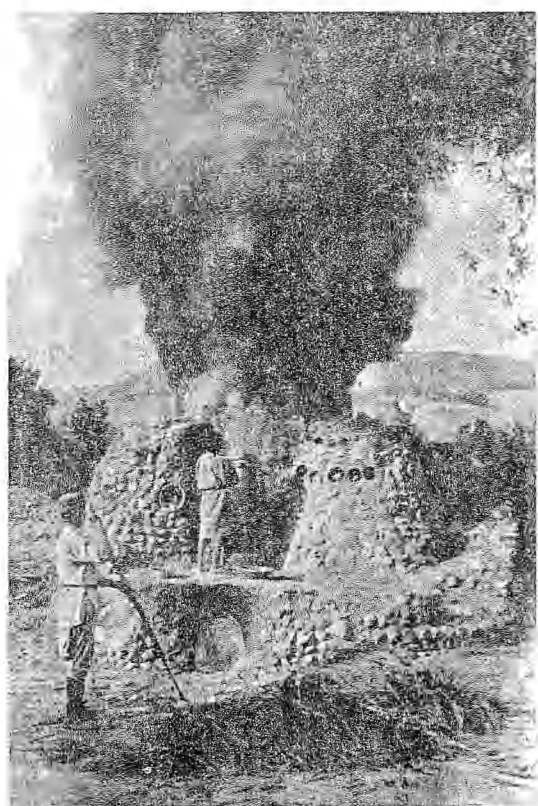
شكل رقم (٤٤)



شكل رقم (٤٥)



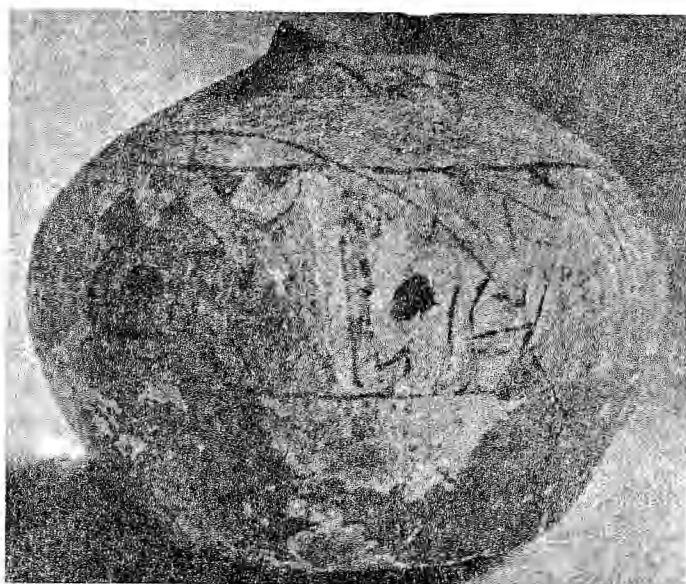
شکل رقم (۴۶)



شکل رقم (۴۷)



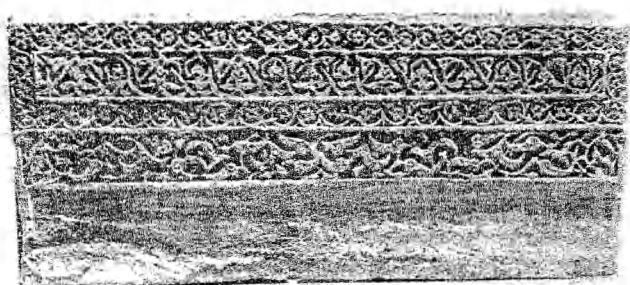
شكل رقم (٤٨)



شكل رقم (٤٩)



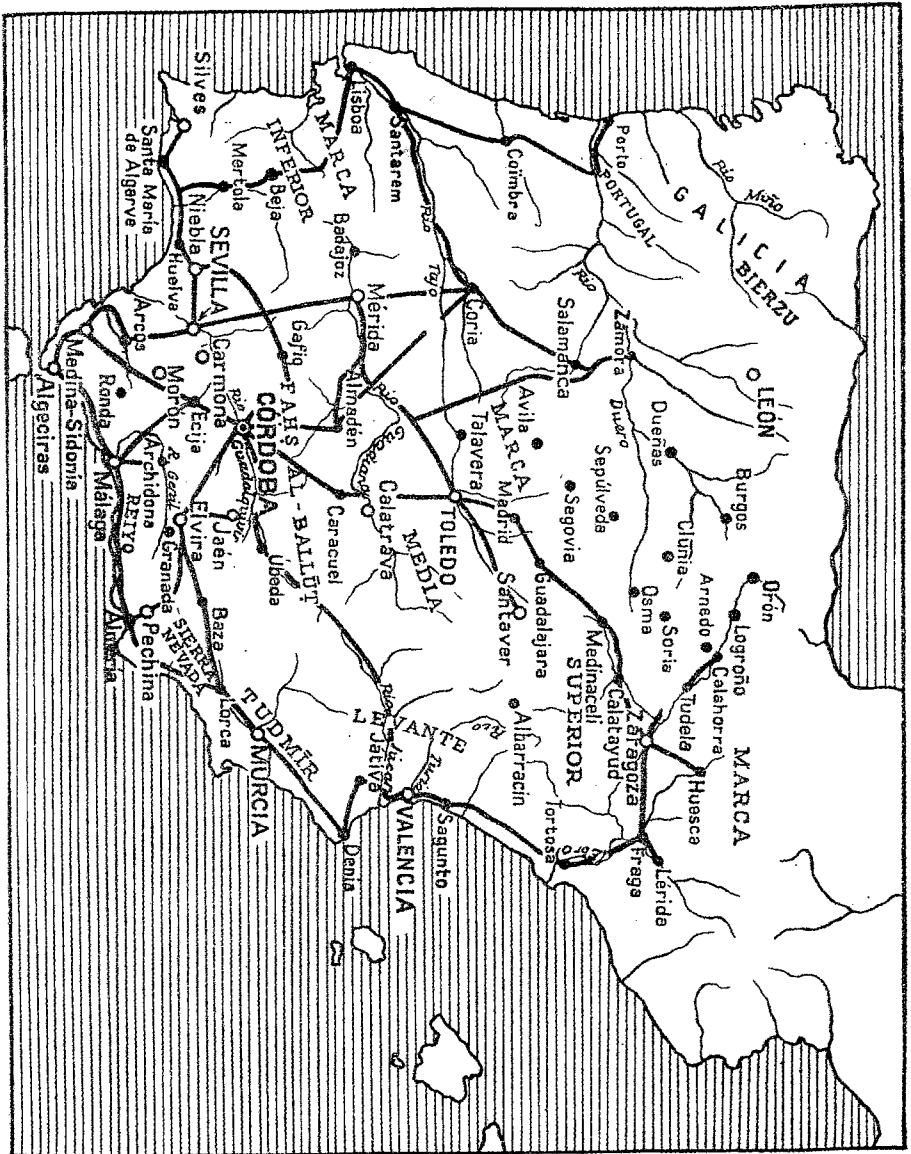
شکل رقم (۵۰)



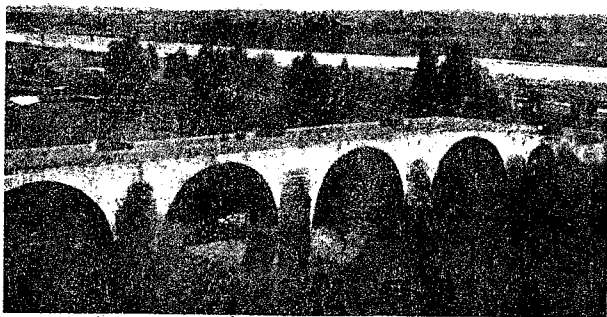
شکل رقم (۵۱)



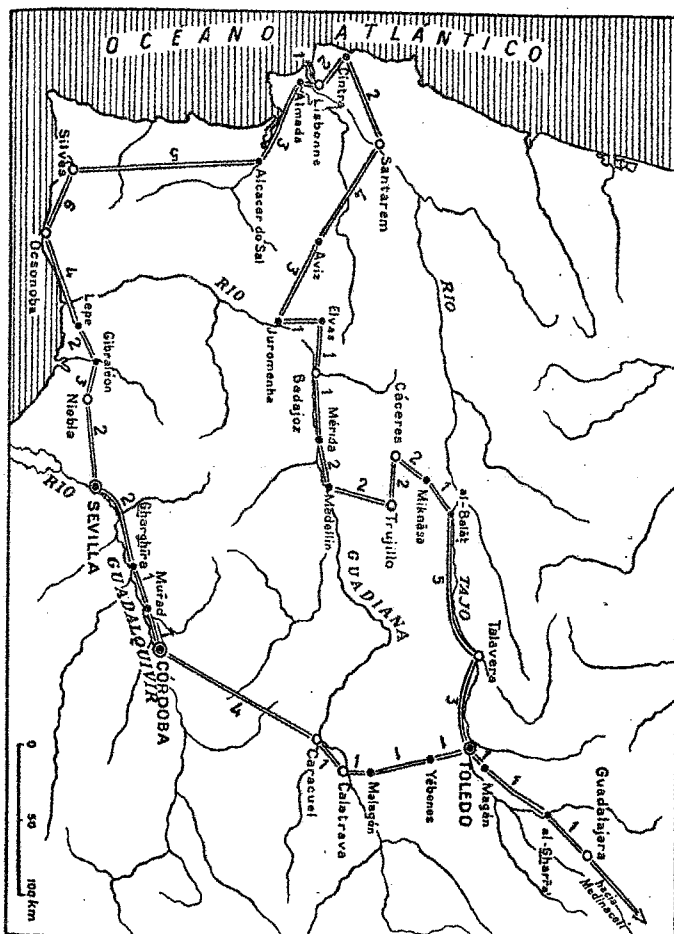
شكل رقم (٥٢)



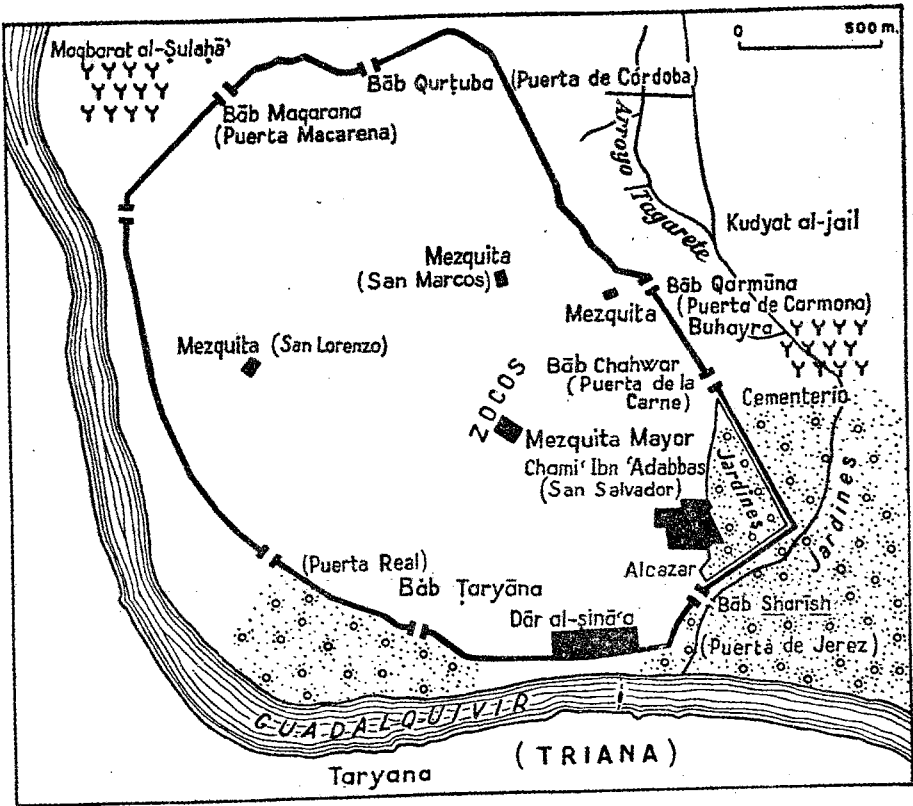
شكل رقم (٥٧)



شكل رقم (٥٤)



شكل رقم (٥٥)



شكل رقم (٥٦)



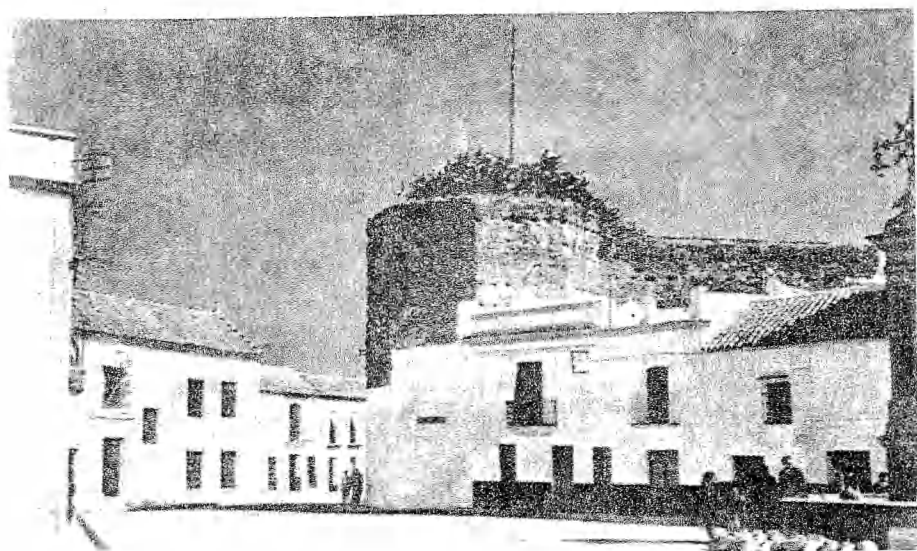
شكل رقم (٥٧)



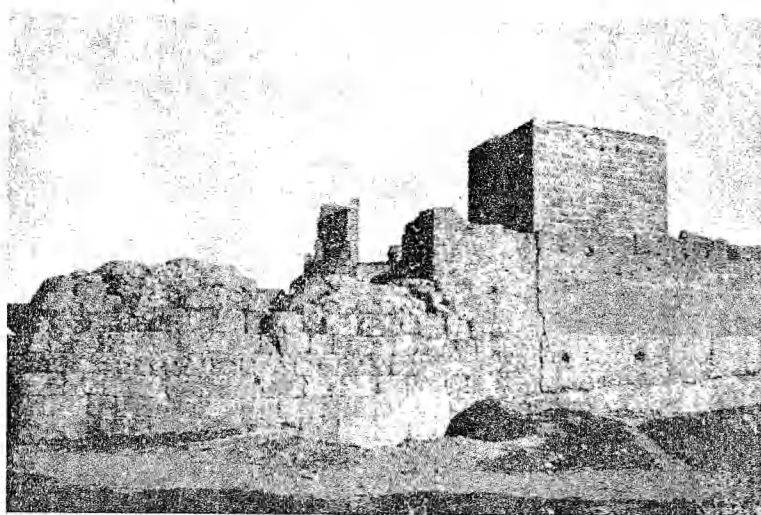
شكل رقم (٥٨)



شكل رقم (٥٩)



شكل رقم (٦٠)



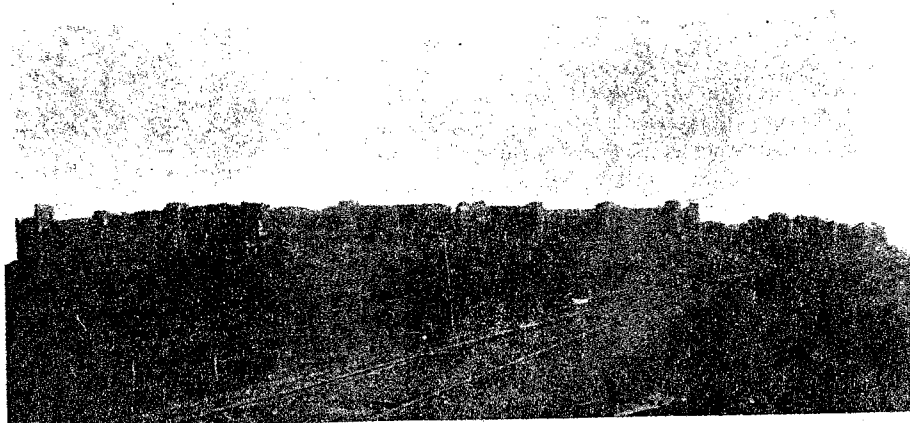
شکل رقم (۶۱)



شکل رقم (۶۲)



شكل رقم (٦٣)



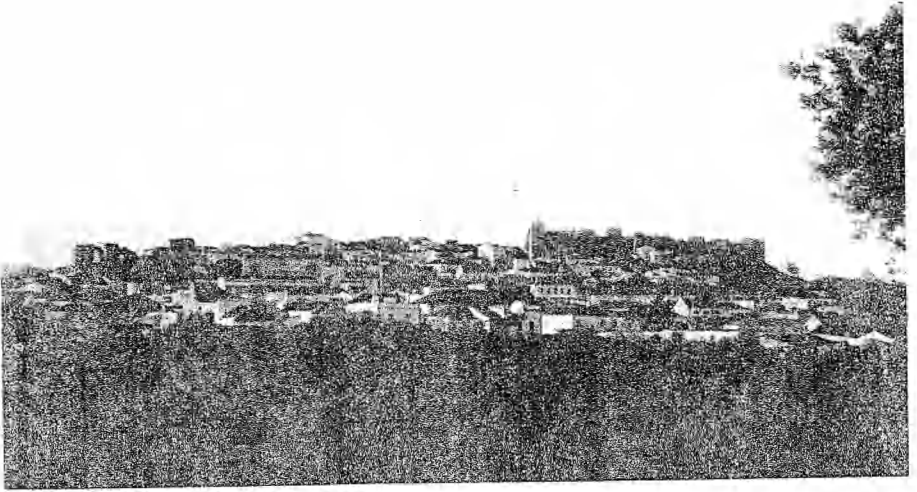
شكل رقم (٦٤)



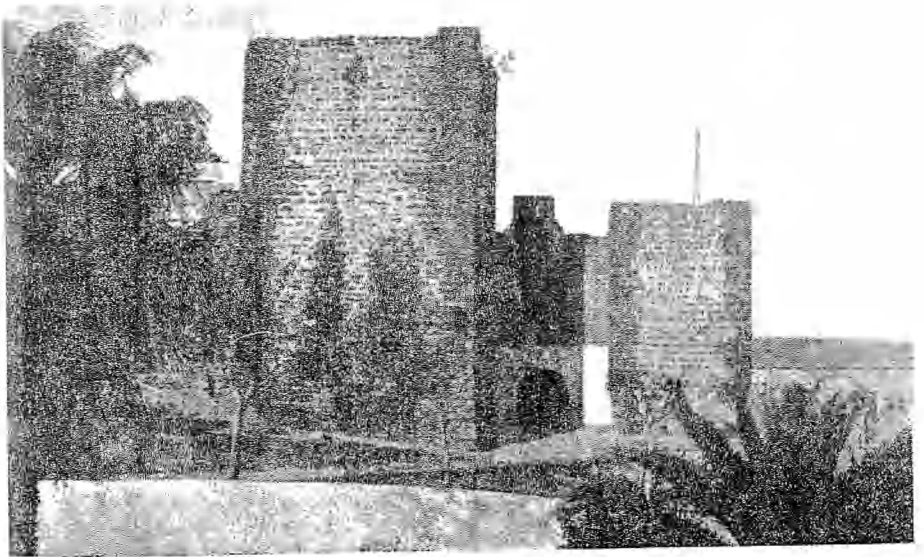
شكل رقم (٦٥)



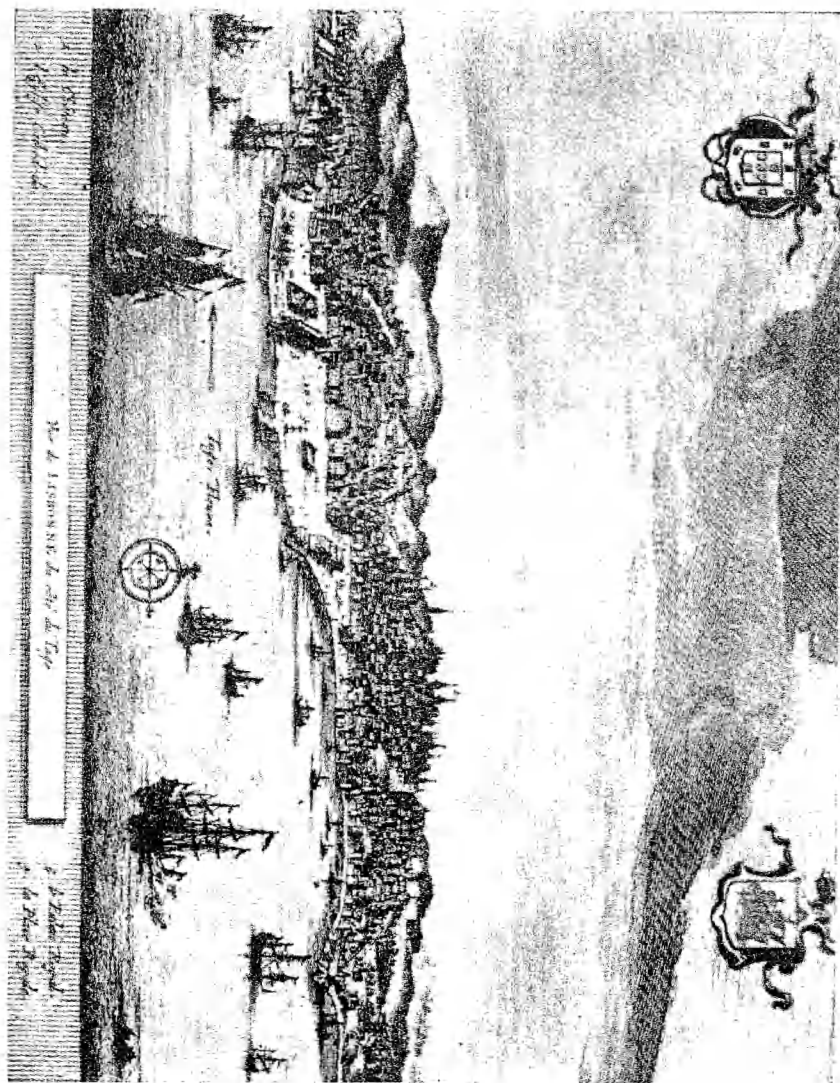
شكل رقم (٦٦)



شکل رقم (٦٧)



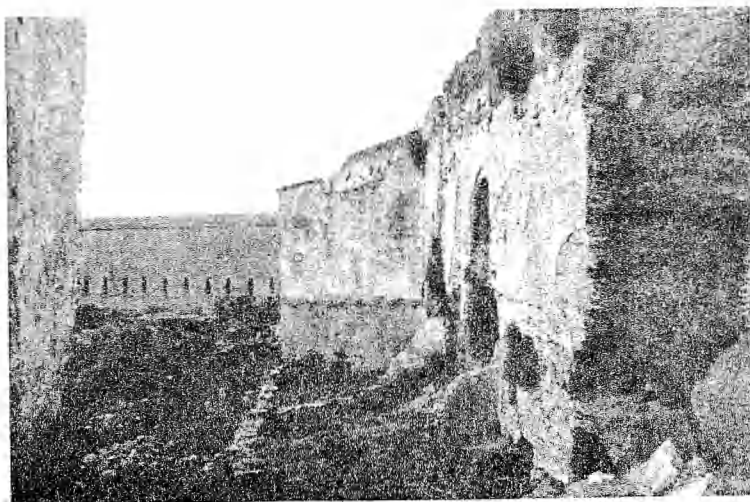
شکل رقم (٦٨)



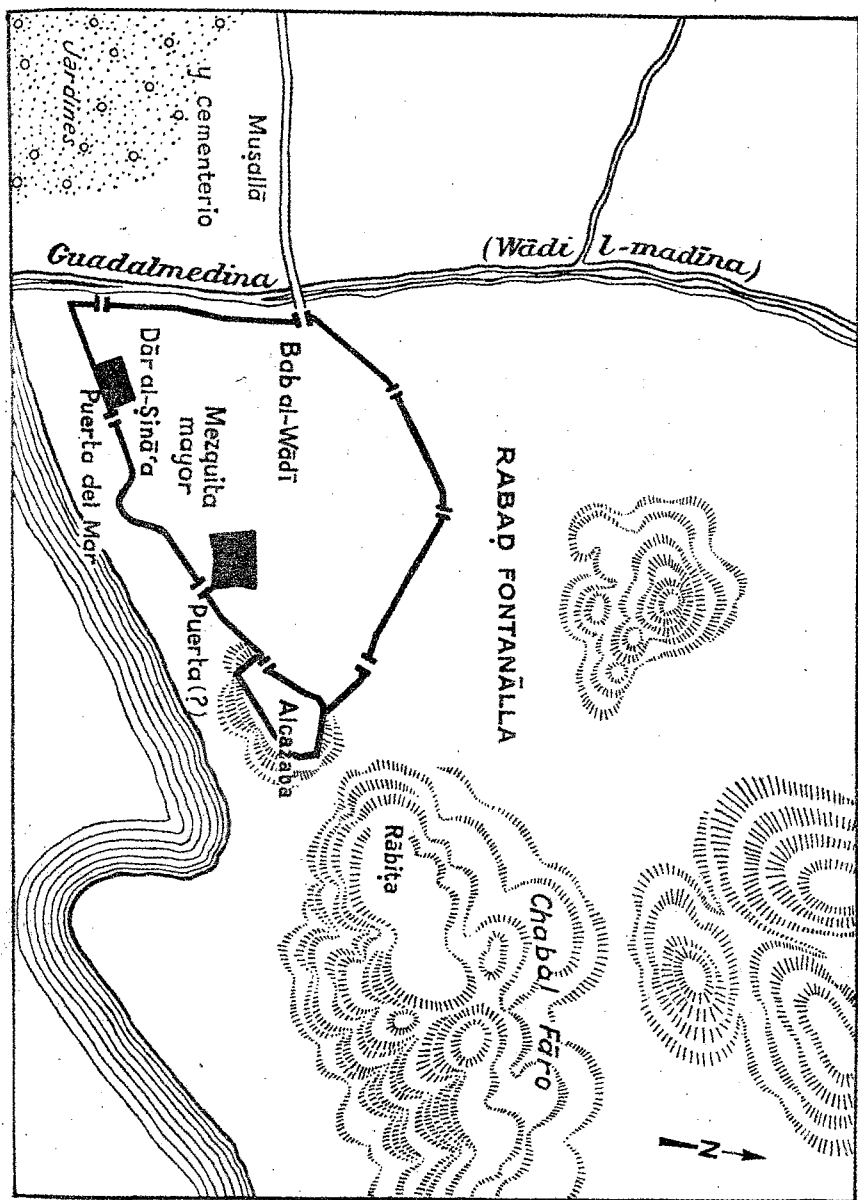
شکل رقم (۶۹)



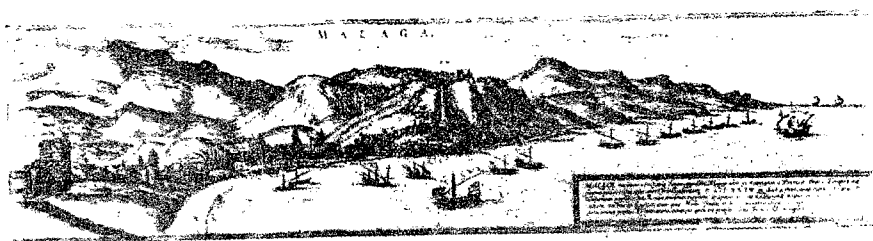
شكل رقم (٧٠)



شكل رقم (٧١)



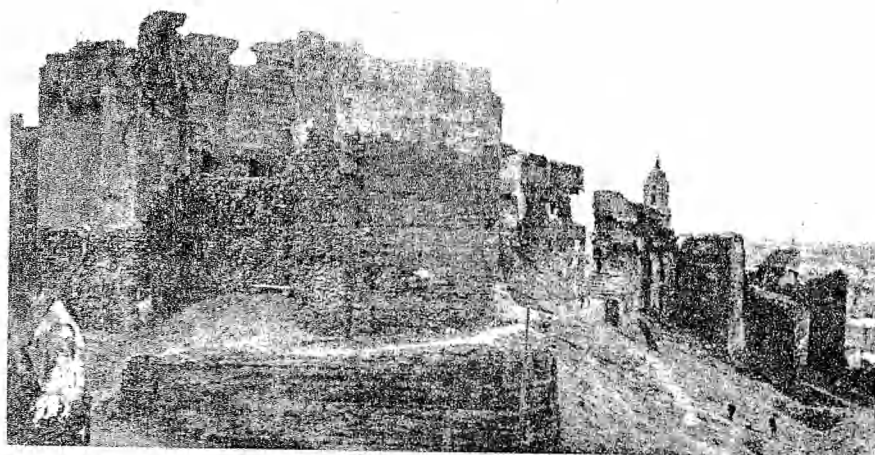
شكل رقم (٧٧)



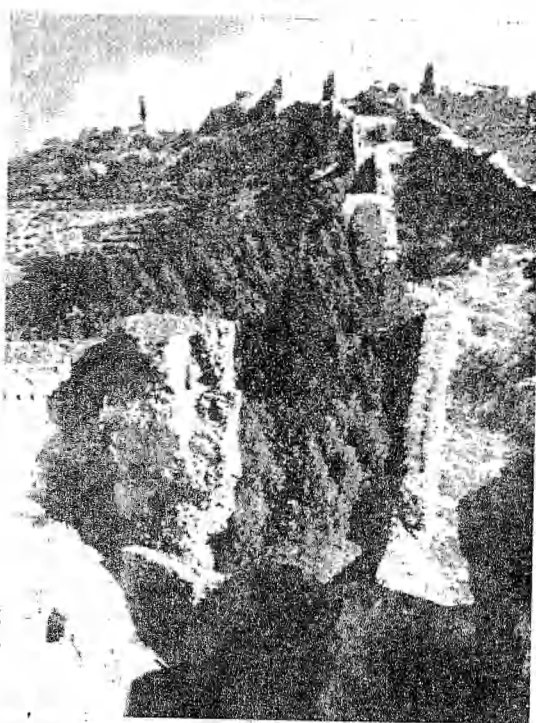
شكل رقم (٧٣)



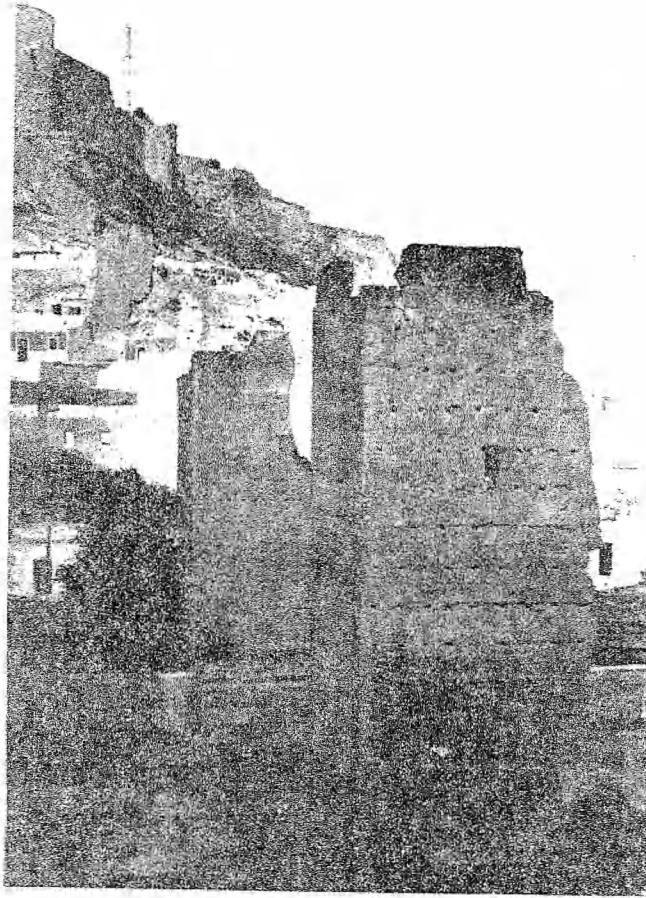
شكل رقم (٧٤)



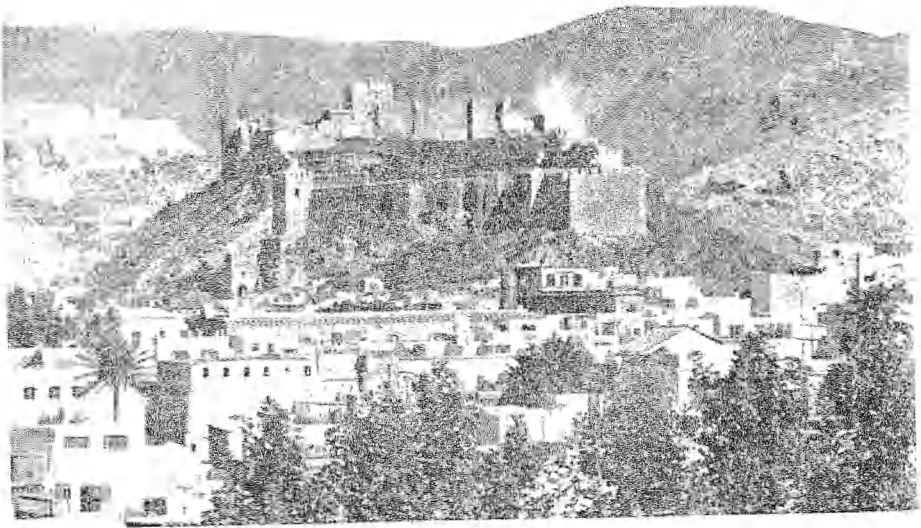
شكل رقم (٧٥)



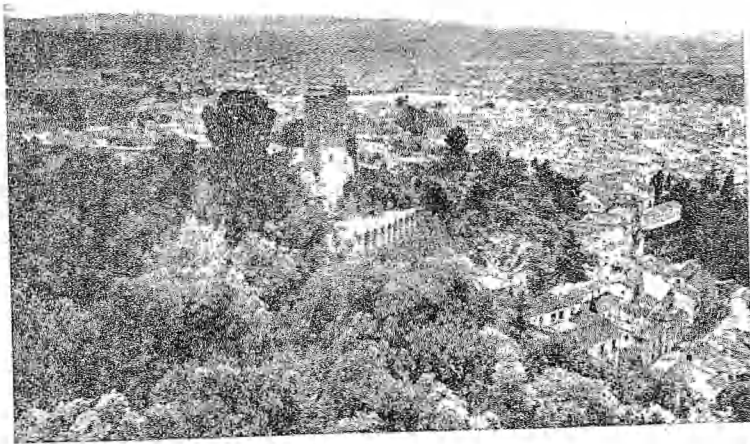
شكل رقم (٧٦)



شكل رقم (٧٨)



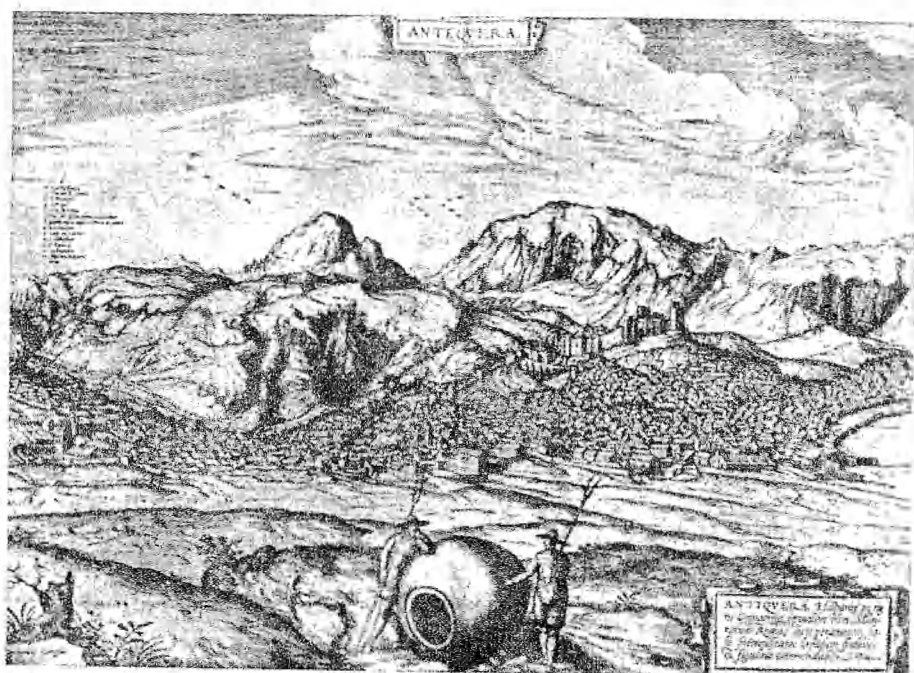
شكل رقم (٧٩)



شكل رقم (٨٠)



شكل رقم (٨١)



شكل رقم (٨٢)



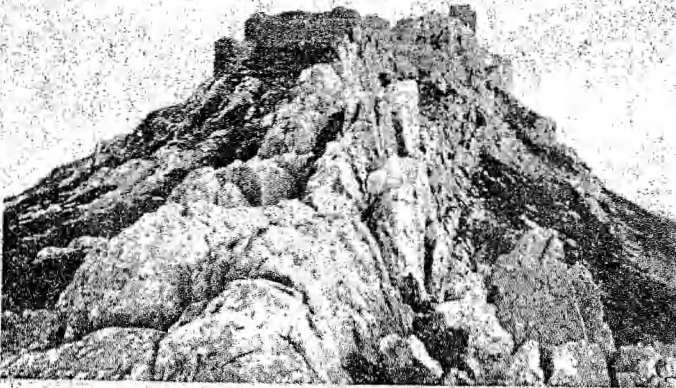
شكل رقم (٨٣)



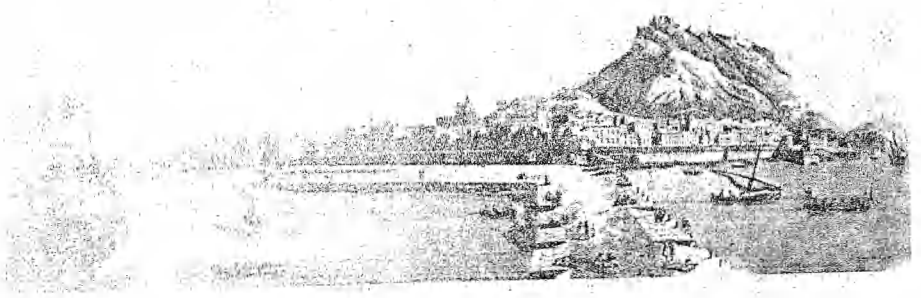
شكل رقم (٨٤)



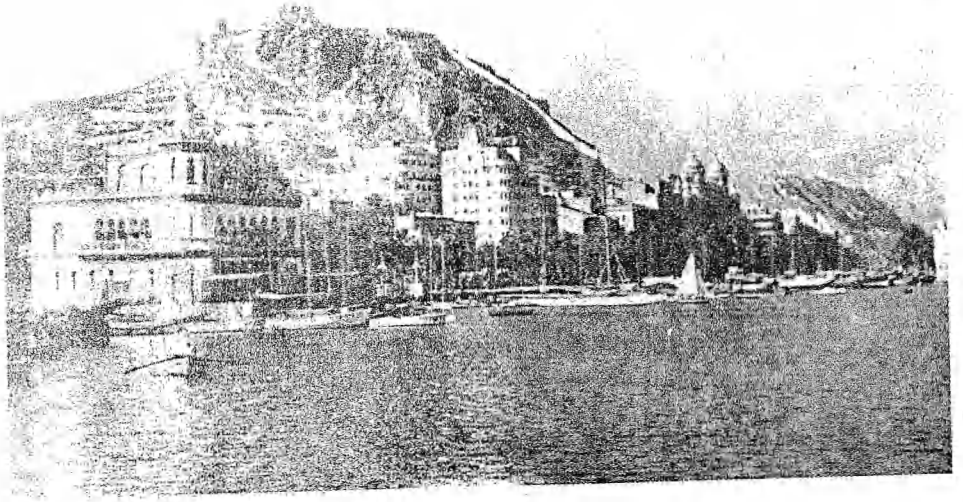
شكل رقم (٨٥)



شكل رقم (٨٦)



شکل رقم (۸۷)



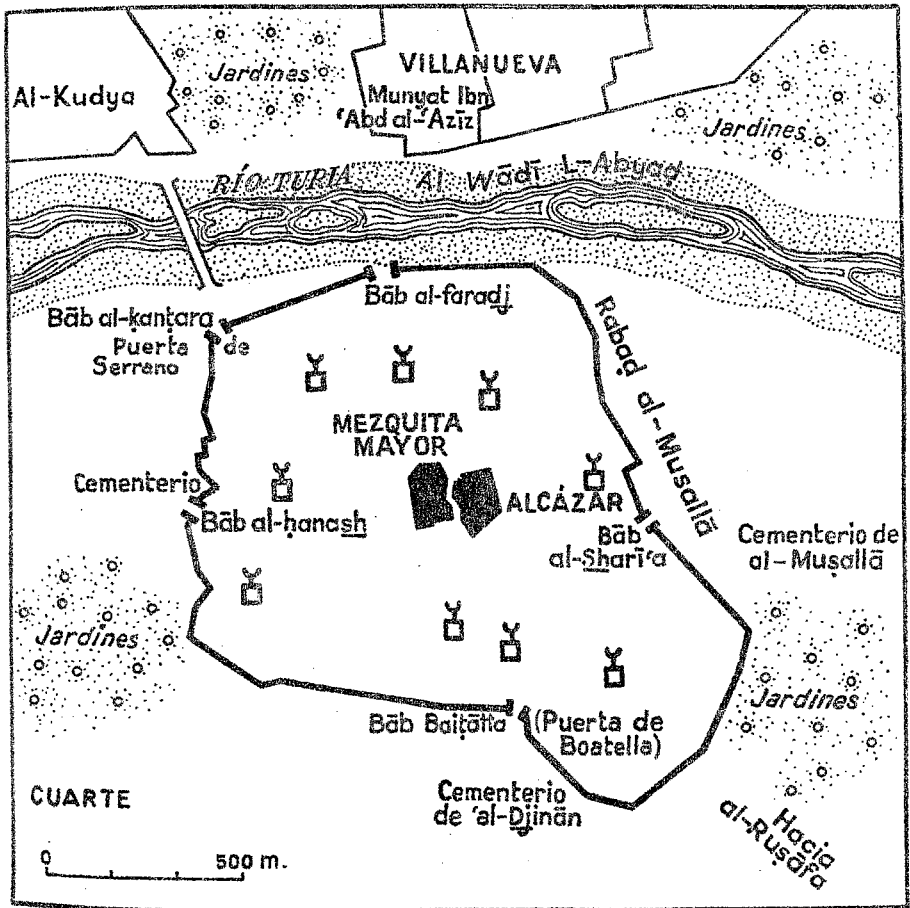
شکل رقم (۸۸)



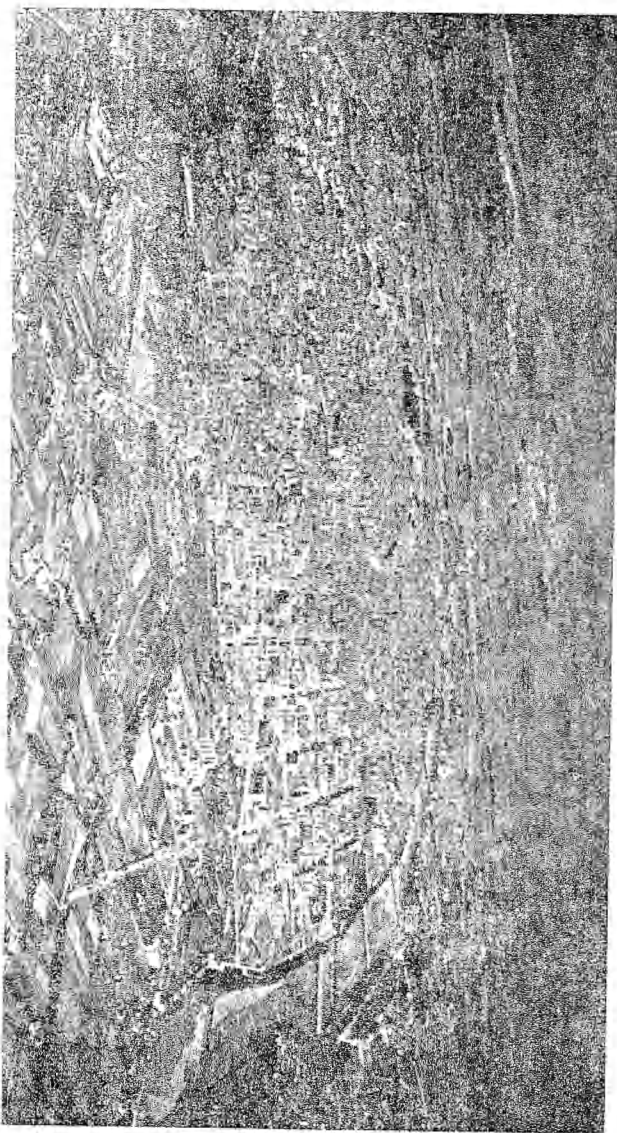
شکل رقم (۸۹)



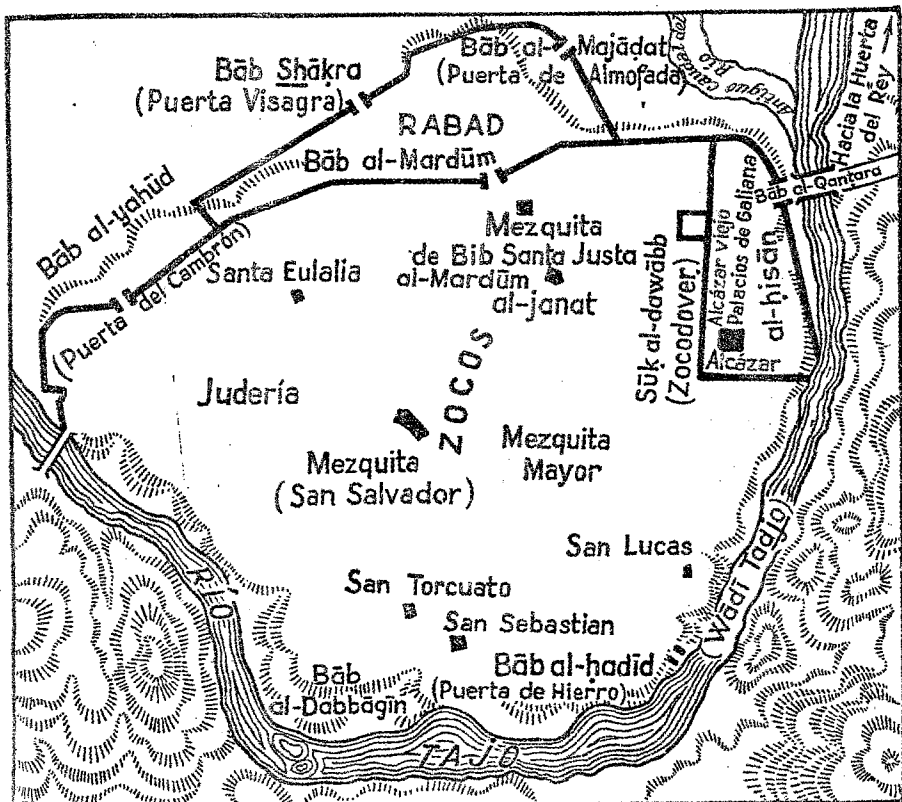
شکل رقم (۹۰)



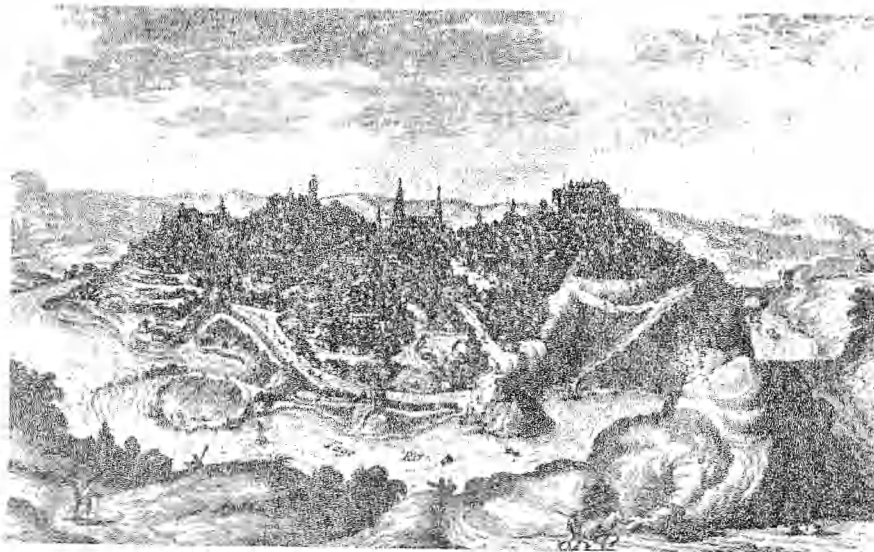
شكل رقم (٩١)



شکل رقم (۹۷)



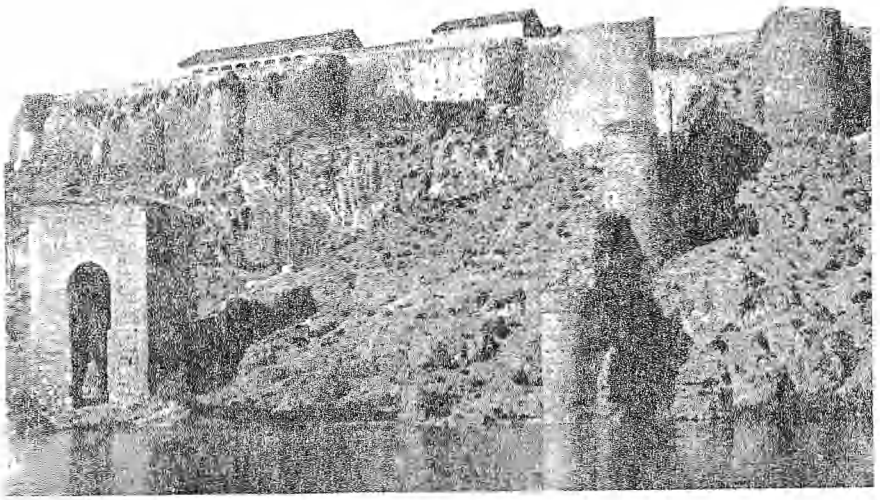
شكل رقم (٩٢)



شكل رقم (٩٤)



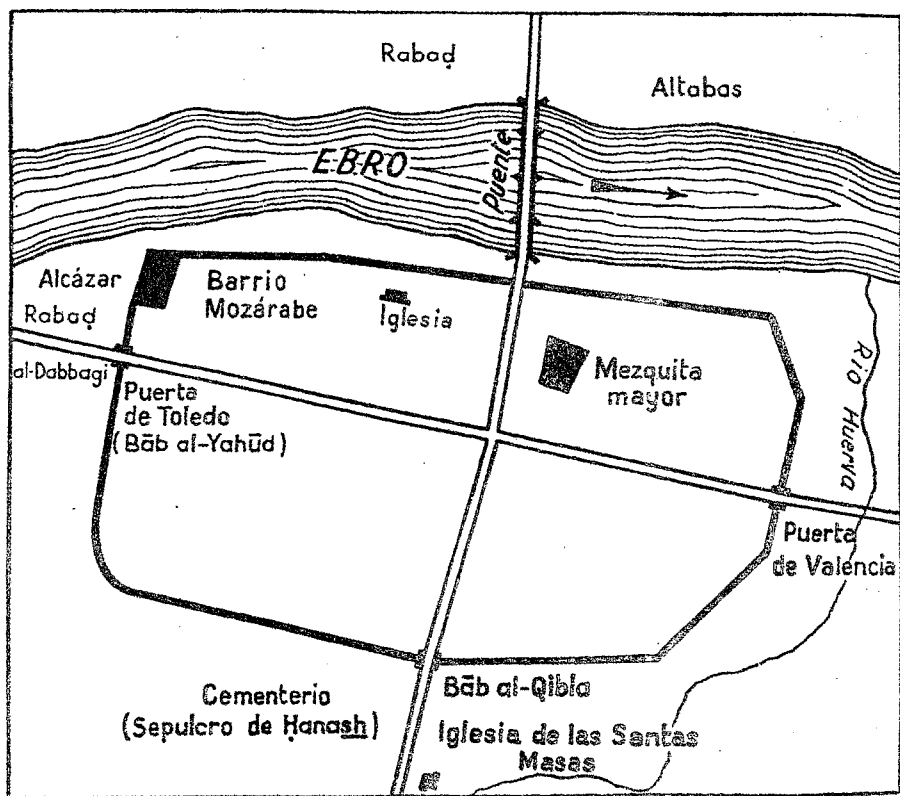
شكل رقم (٩٥)



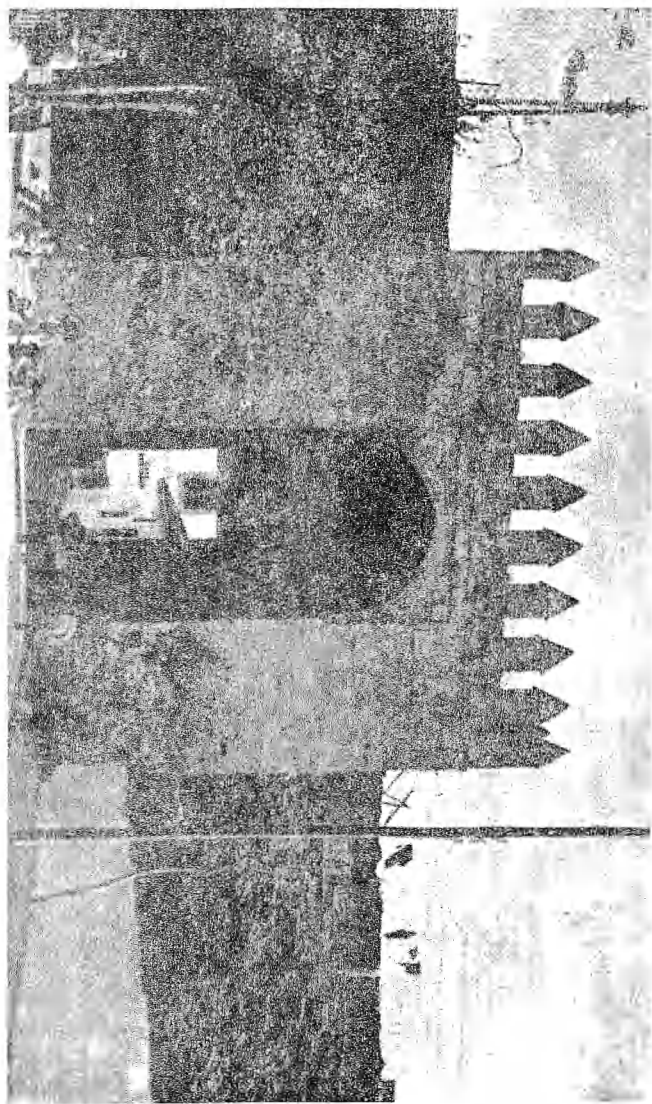
شکل رقم (۹۶)



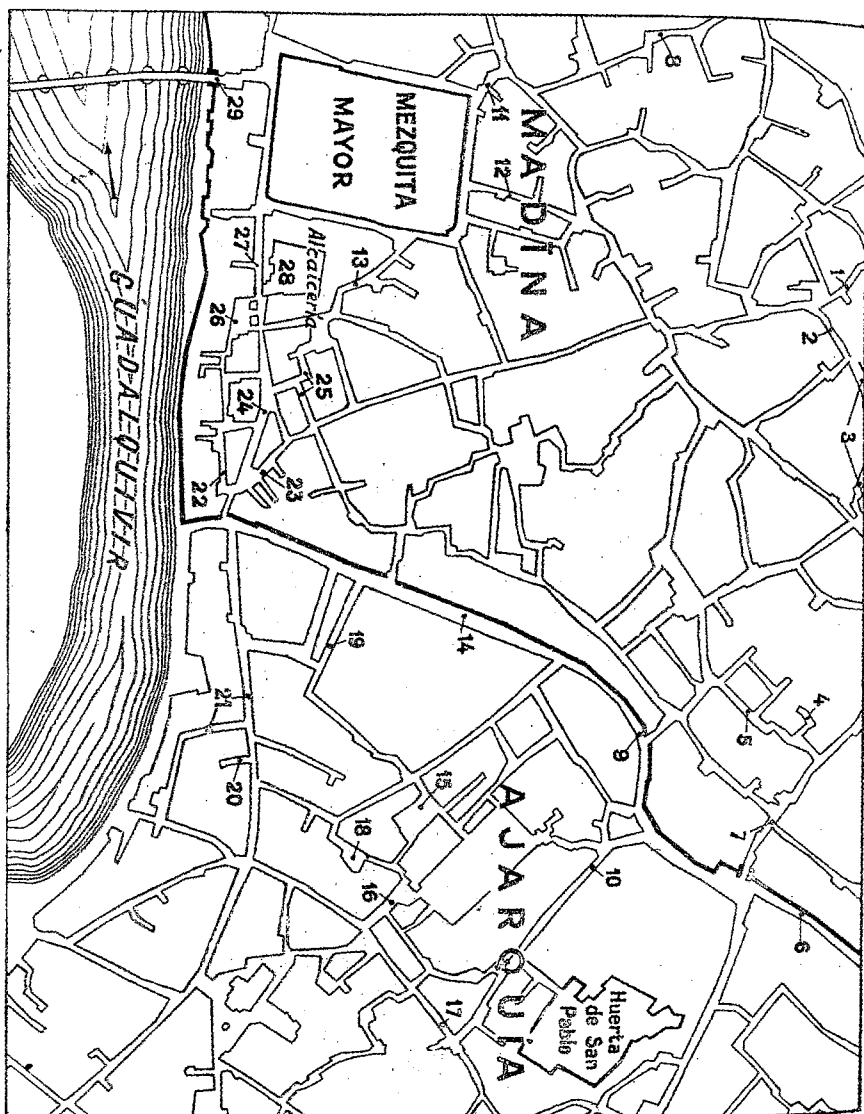
شکل رقم (۹۷)



شكل رقم (٩٨)



شکل رقم (۱۰۱)



شکل رقم (۱۰۷)



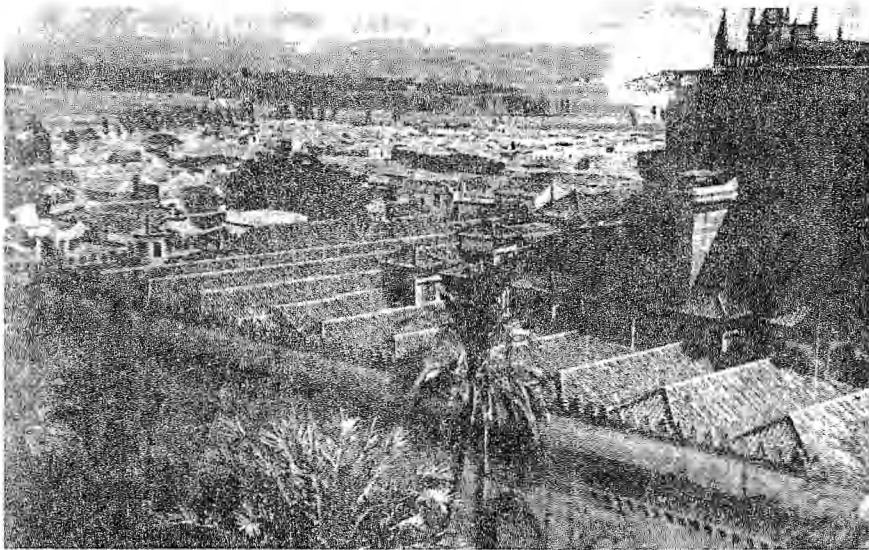
شکل رقم (۱۰۲)



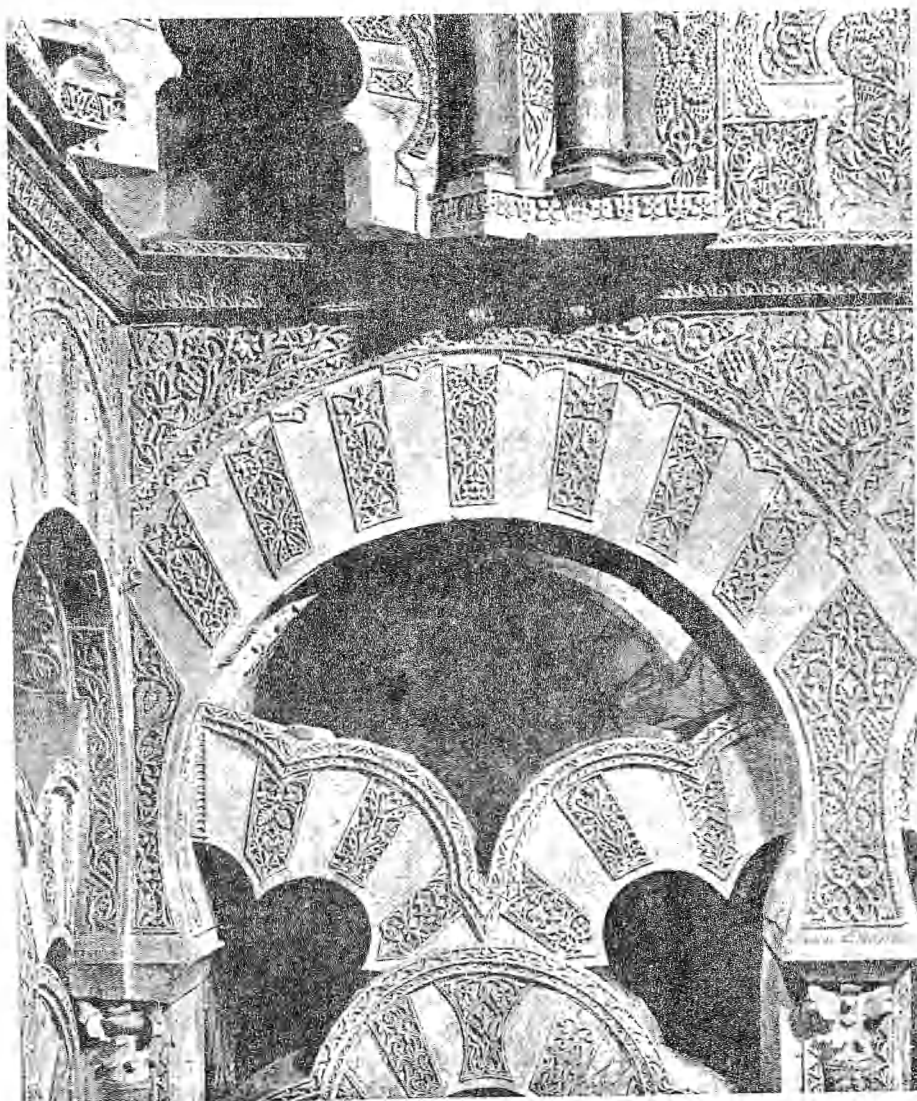
شکل رقم (۱۰۴)



شکل رقم (۱۰۵)



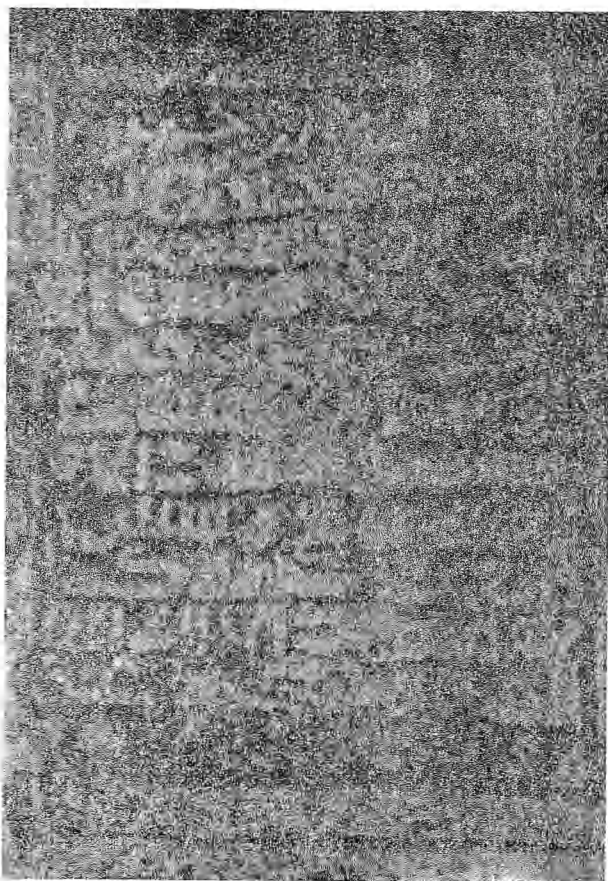
شکل رقم (۱۰۶)



شكل رقم (١٠٧)



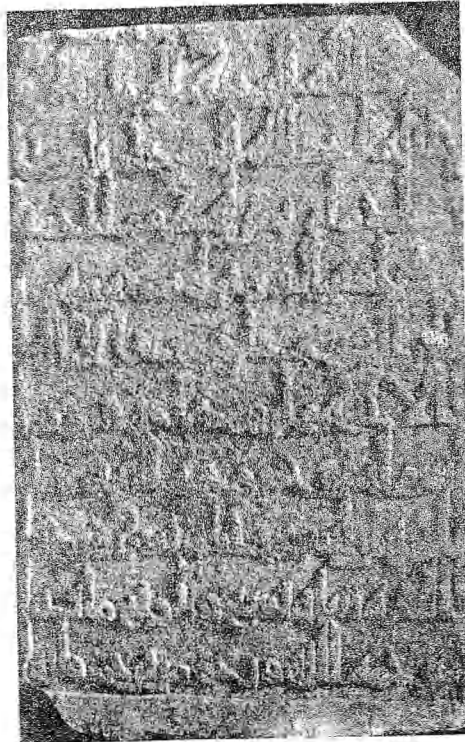
شكل رقم (١٠٨)



شكل رقم (١٠٩)



شكل رقم (١١٠)



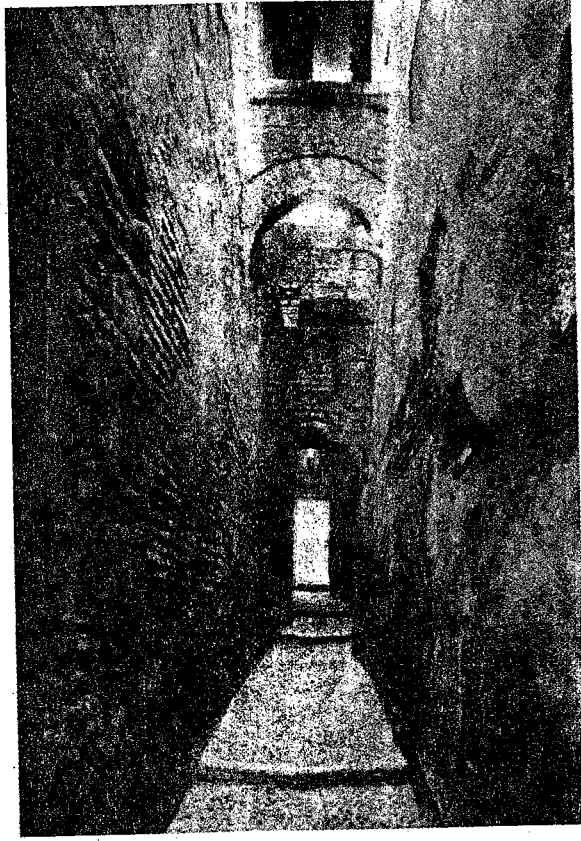
شكل رقم (١١١)



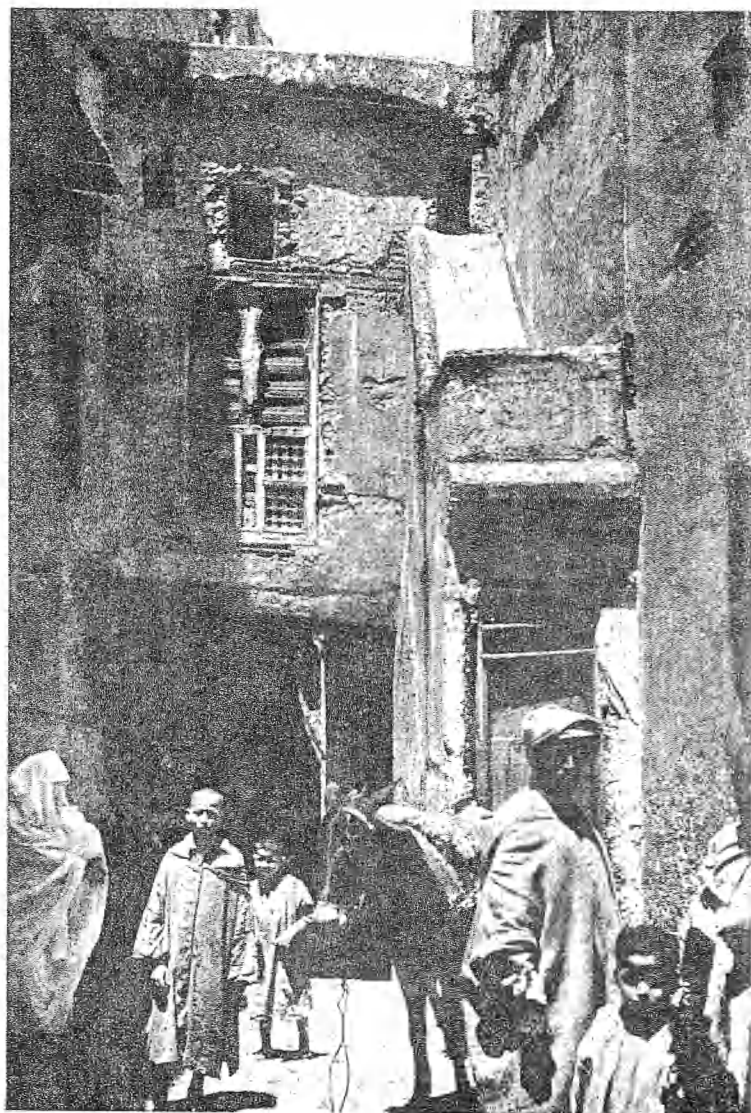
شكل رقم (١١٢)



شكل رقم (١١٣)



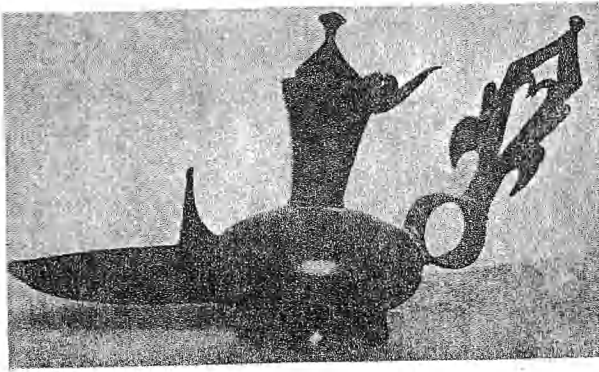
شكل رقم (١١٤)



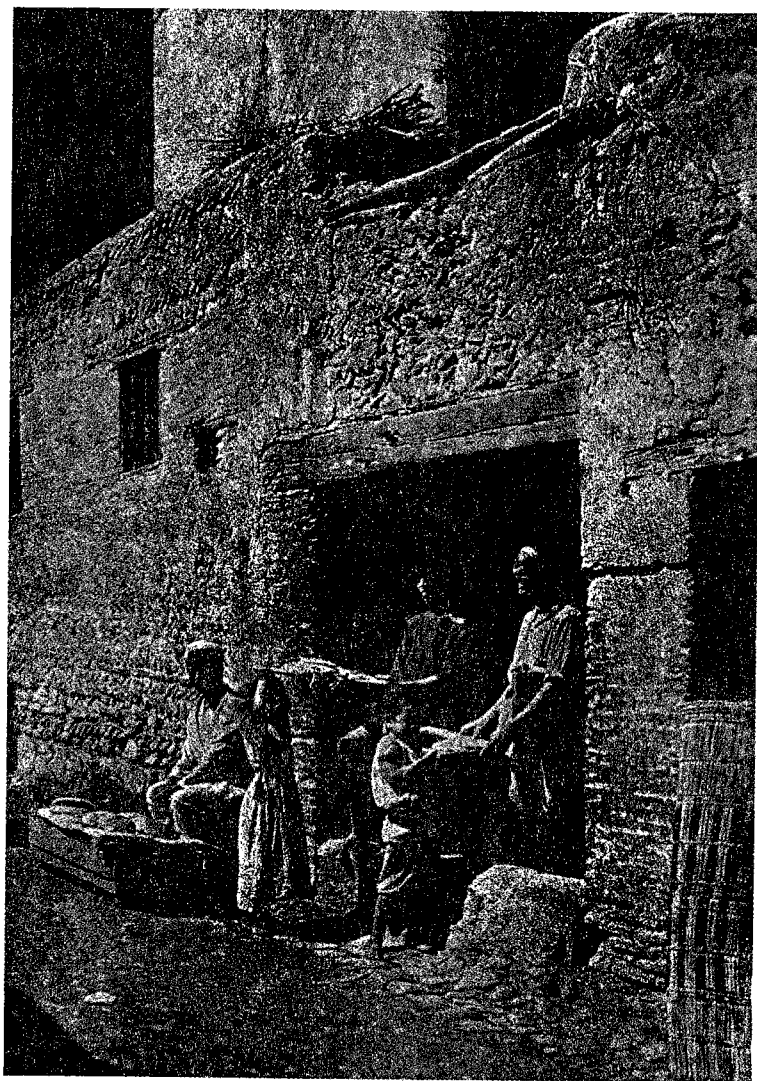
شكل رقم (١١٥)



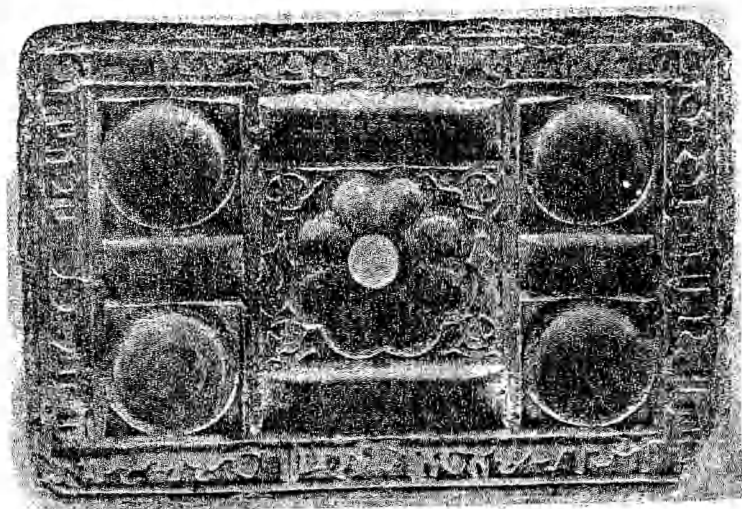
شکل رقم (۱۱۶)



شکل رقم (۱۱۷)



شكل رقم (١١٨)



شكل رقم (١١٩)



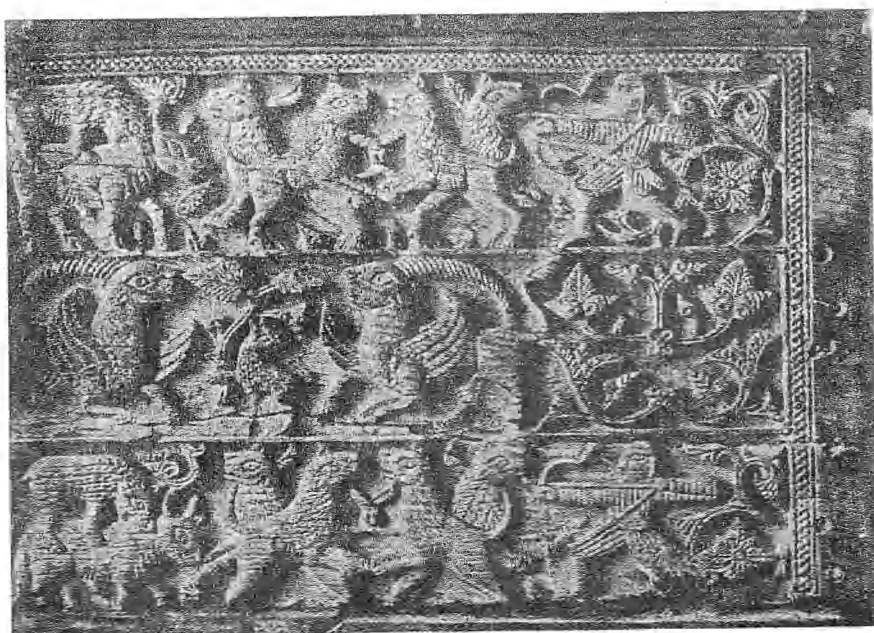
شكل رقم (١٢٠)



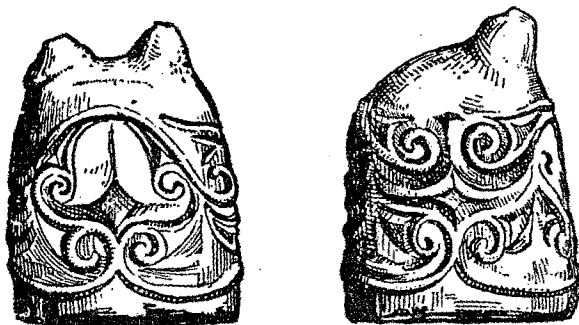
شکل رقم (۱۲۱)



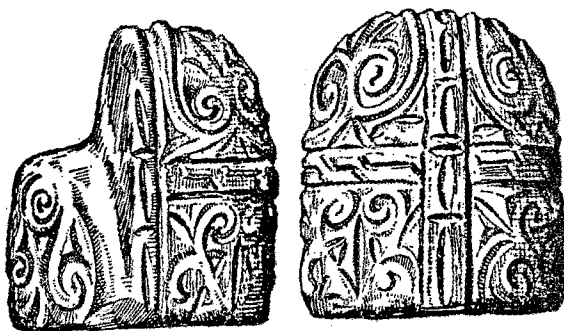
شكل رقم (١٢٢)



شكل رقم (١٢٣)



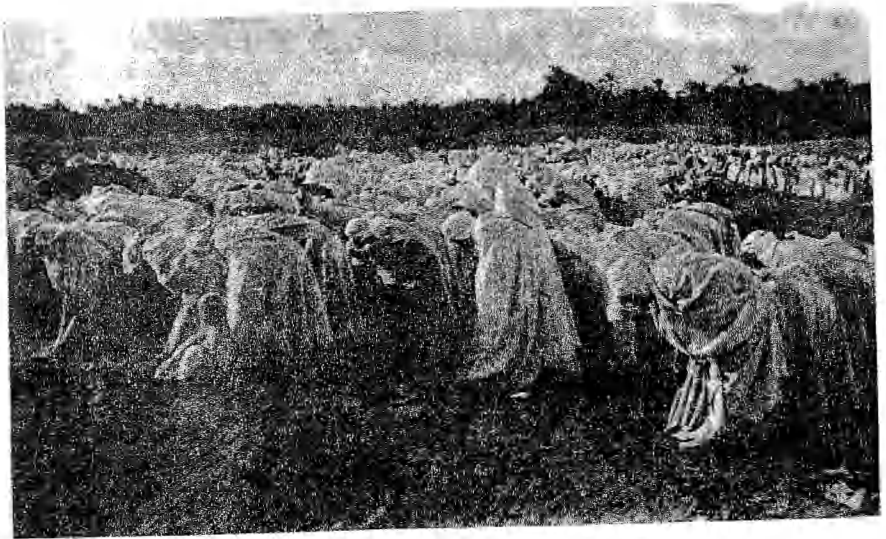
شكل رقم (١٢٤)



شكل رقم (١٢٥)



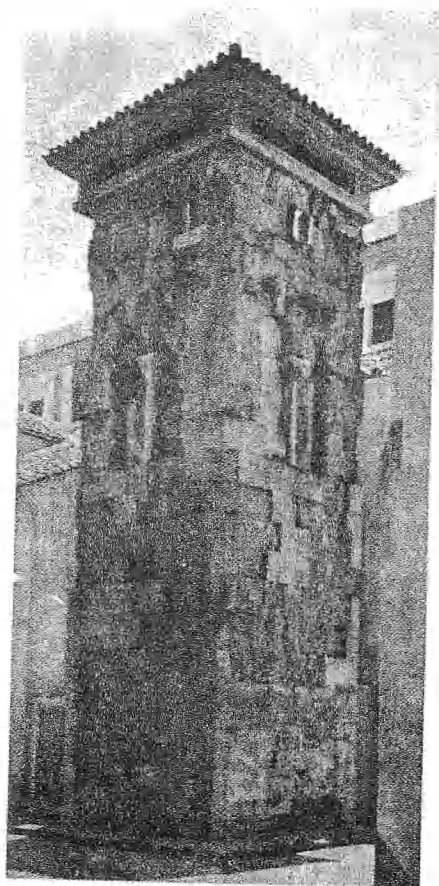
شكل رقم (١٢٦)



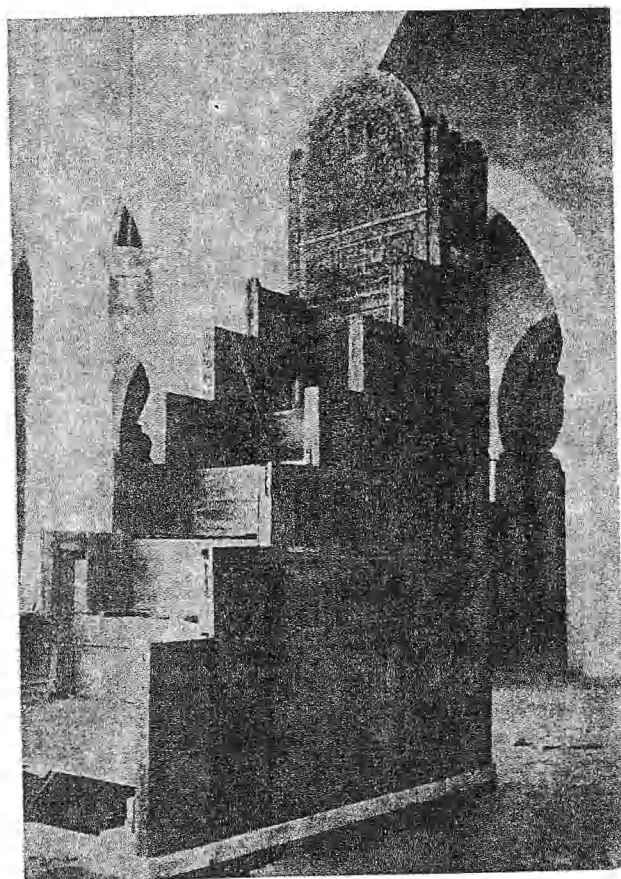
شكل رقم (١٢٧)



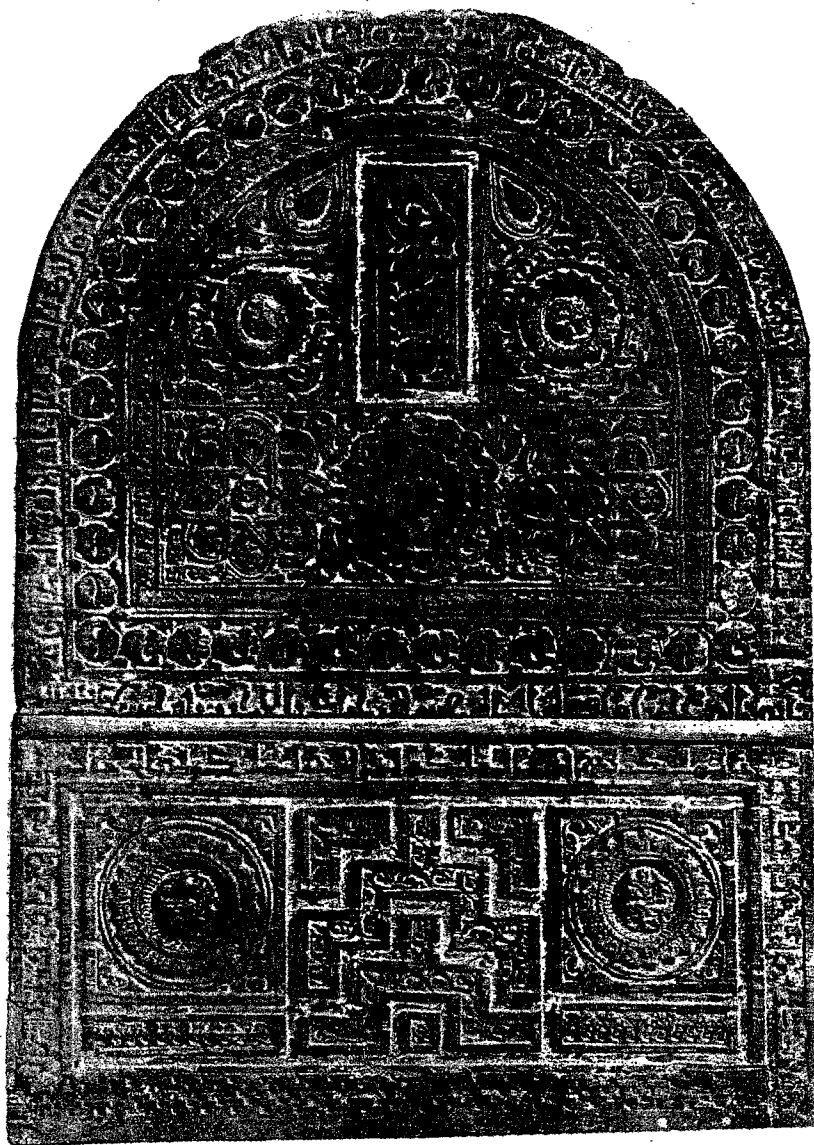
شكل رقم (١٢٨)



شكل رقم (١٢٩)



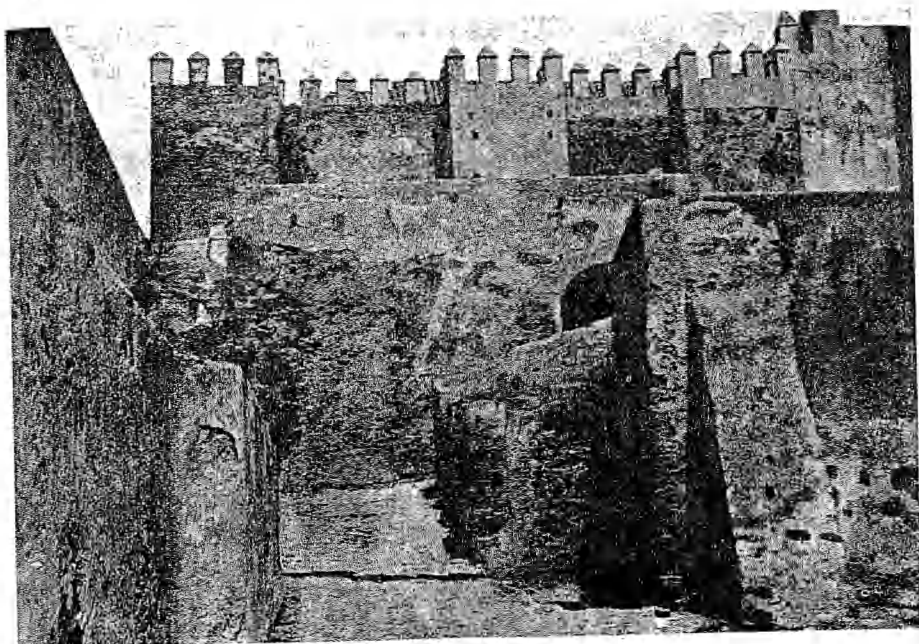
شكل رقم (١٣٠)



شكل رقم (١٣١)



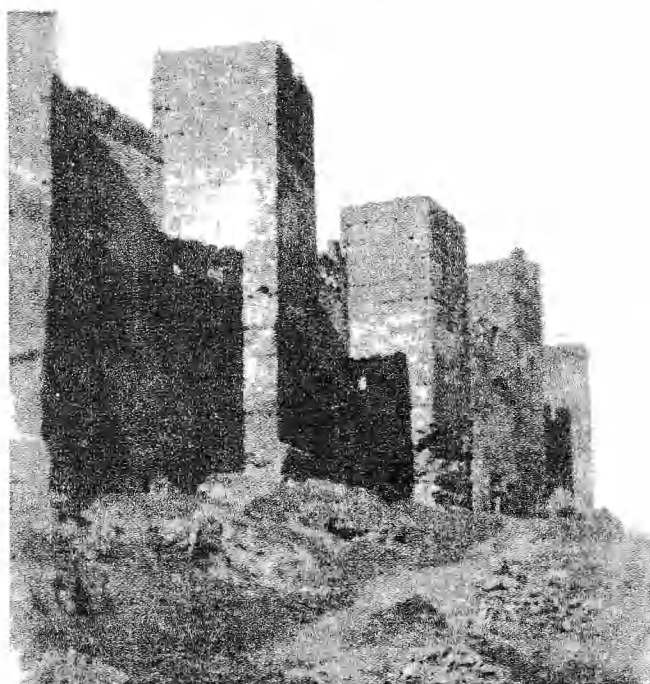
شكل رقم (١٣٢)



شکل رقم (۱۳۲)



شکل رقم (۱۳۴)



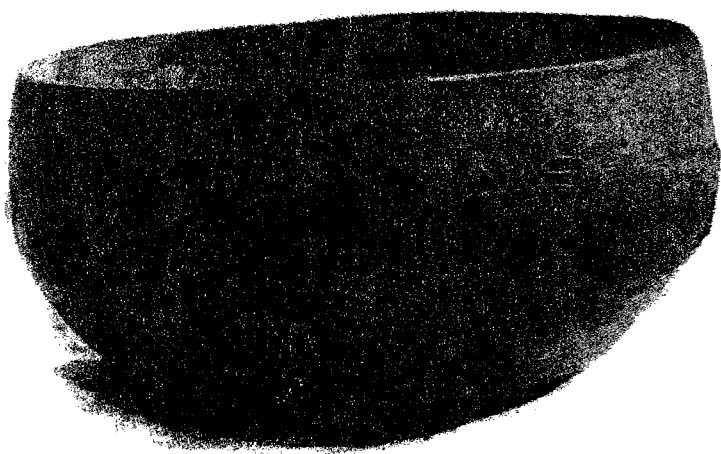
شکل رقم (۱۳۵)



شکل رقم (۱۳۶)



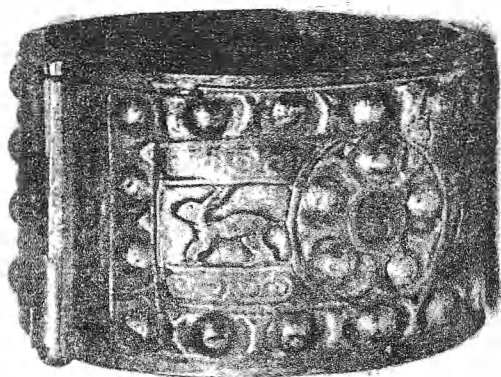
شكل رقم (١٣٧)



شکل رقم (۱۳۸)



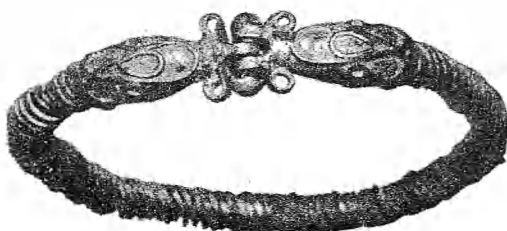
شکل رقم (۱۳۹)



شکل رقم (۱۴۰)



شکل رقم (۱۴۱)



شکل رقم (۱۴۲)

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

- ١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .
- ٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .
- ٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .
- ٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .
- ٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .
- ٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومي للترجمة

١- اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢- الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بليغ
٣- التراث المسروق	جورج جيمس	شوقي جلال
٤- كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتتكوفا	أحمد الحضري
٥- ثريا في غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦- اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إفيتش	سعد مصطوح ووفاء كامل فايد
٧- العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكي
٨- مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩- التغييرات البيئية	أندرو. س. جودي	محمود محمد عاشور
١٠- خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد منتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي
١١- مختارات	فيسوفا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢- طريق الحرير	ديفيد براونستون وإيرين فرانك	أحمد محمود
١٣- ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤- التحليل النفسي للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥- الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	أشرف رفيق عفيفي
١٦- أثنية السوداء (ج١)	مارتن برنال	إلشراق: أحمد عثمان
١٧- مختارات	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوي
١٨- الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩- الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠- قصة العلم	ج. كراوثر	يمنى طريف الخولي و بدوي عبد الفتاح
٢١- خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجي	ماجدة العناني
٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد علي الناصري
٢٣- تجلي الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤- ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥- مثنوى	مولانا جلال الدين الرومي	إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦- دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧- التنوع البشري الخلاق	مقالات	نخبة
٢٨- رسالة في التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩- الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ببر الديب
٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بليغ
٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامي	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الطلوجي وعبد الوهاب علوب
٣٢- الانقراض	ديفيد روس	مصطفى إبراهيم فهمي
٣٣- التاريخ الاقتصادي لأفريقيا الغربية	أ. ج. هويكنز	أحمد فؤاد بليغ
٣٤- الرواية العربية	روجر آلن	حصه إبراهيم المنيف
٣٥- الأسطورة والحداثة	بول. ب. ديكسون	خليل كلفت
٣٦- نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد
٣٧- راحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم

أنور مغيث	ألن تودين	٣٨- نقد الحداثة
منيرة كروان	بيتر والكوت	٣٩- الإغريق والحسد
محمد عيد إبراهيم	أن سكستون	٤٠- قصائد حب
عاطف أحمد وإبراهيم فتحي ومحمود ماجد	بيتر جران	٤١- ما بعد المركزية الأوروبية
أحمد محمود	بنجامين بارير	٤٢- عالم ماك
المهدي أخريف	أوكتايفيو پاث	٤٣- اللهب المزبوج
مارلين تادرس	ألدوس هكسلي	٤٤- بعد عدة أصياف
أحمد محمود	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	٤٥- التراث المغفور
محمود السيد على	بابلو نيرودا	٤٦- عشرون قصيدة حب
مجاهد عبد المنعم مجاهد	رينيه ويليك	٤٧- تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج١)
ماهر جويجاتي	فرانسوا دوما	٤٨- حضارة مصر الفرعونية
عبد الوهاب علوب	ه . ت . ثوريس	٤٩- الإسلام في البلقان
محمد بركات وعثمانى المياد ويوسف الأنطكى	جمال الدين بن الشيخ	٥٠- ألف ليلة وليلة أو القول الأسير
محمد أبو العطا	داريو بيانوفيا وخ . م بينيا ليستي	٥١- مسار الرواية الإسبانية أمريكية
لطفي فطيم وعادل دمرادش	ب. توفاليس وس . روجسيفيتز ووجر بيل	٥٢- العلاج النفسى التدميمى
مرسى سعد الدين	أ . ف . ألتجتون	٥٣- الدراما والتعليم
محسن مصيلحى	ج . مايكل والتون	٥٤- المفهوم الإغريقى للمسرح
على يوسف على	جون بولكنجهوم	٥٥- ما وراء العلم
محمود على مكى	فديريكو غرسية لوركا	٥٦- الأعمال الشعرية الكاملة (ج١)
محمود السيد و ماهر البطوطى	فديريكو غرسية لوركا	٥٧- الأعمال الشعرية الكاملة (ج٢)
محمد أبو العطا	فديريكو غرسية لوركا	٥٨- مسرحيتان
السيد السيد سهيم	كارلوس مونيث	٥٩- المحيرة (مسرحية)
صبرى محمد عبد الفنى	جوهانز إيتن	٦٠- التصميم والشكل
مراجعة وإشراف : محمد الجوهري	شارلوت سيمور - سميث	٦١- موسوعة علم الإنسان
محمد خير البقاعى .	رولان بارت	٦٢- لغة النص
مجاهد عبد المنعم مجاهد	رينيه ويليك	٦٣- تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٢)
رمسيس عوض .	ألان وود	٦٤- برتراند راسل (سيرة حياة)
رمسيس عوض .	برتراند راسل	٦٥- فى مدح الكسل ومقالات أخرى
عبد اللطيف عبد الحليم	أنطونيو جالا	٦٦- خمس مسرحيات أندلسية
المهدي أخريف	فرناندو بيسوا	٦٧- مختارات
أشرف الصباغ	فالتين راسيوتين	٦٨- نتاشا العجوز وقصص أخرى
أحمد فؤاد متولى وهريدا محمد فهمى	عبد الرشيد إبراهيم	٦٩- العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين
عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد	أوخينيو تشانج روبريجت	٧٠- ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية
حسين محمود	داريو فو	٧١- السيدة لا تصلح إلا للرمى
فؤاد مجلى	ت . س . إليوت	٧٢- السياسى العجوز
حسن ناظم وعلى حاكم	جين . ب . تومكينز	٧٣- نقد استجابة القارئ
حسن بيومى	ل . ا . سيمينوفا	٧٤- صلاح الدين والمماليك فى مصر
أحمد درويش	أندريه موروا	٧٥- فن التراجم والسير الذاتية
عبد المقصود عبد الكريم	مجموعة من الكتاب	٧٦- چاك لكان وغواة التحليل النفسى

٧٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبينسكى	سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمرى
٨١-	الجماعات المخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣-	مختارات	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	عبد الحميد شبيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرزاق بركات
٨٦-	طول الليل	جمال مير صادقى	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالتغريب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	أحمد زابيد ومحمد محيى الدين
٩٠-	وسم السيف	ميجل دى ثريانس	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين المسرح الإسباني المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو بايخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
٩٨-	الهيم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نخبة	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساطة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١-	النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه آباء	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	عبد العزيز شبيب
١٠٦-	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	أشرف على دعور
١٠٧-	صورة القدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	محمود على مكى
١٠٩-	حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف
١١٣-	رأية التمرد	سادى پلانت	أحمد حسان
١١٤-	مسرحيتا حصاد كرنجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥-	غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	سعية رمضان

١١٦-	امراة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧-	المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨-	النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩-	النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنيل	بإشراف: روف عباس
١٢٠-	الحركة النسائية والتطوّر فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	نخبة من المترجمين
١٢١-	الدليل الصغير عن الكاتبات العربيات	فاطمة موسى	محمد الجندي وإيزابيل كمال
١٢٢-	نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣-	الإمبراطورية العثمانية وعلاقتها النولية	ننيل ألكسندر وفناليونا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤-	الفجر الكاذب	جون جرائ	أحمد فؤاد بليغ
١٢٥-	التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديفى	سمحة الخولى
١٢٦-	فعل القراءة	فولفانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧-	إرهاب	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨-	الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩-	الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروت	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠-	الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندرو فرانك	شوقى جلال
١٣١-	مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢-	ثقافة العولة	مايك فينرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣-	الخوف من المرايا	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤-	تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥-	المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦-	فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧-	مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	جوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨-	عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيلينا تارونى	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩-	پارسيفال	ريشارد فاجنر	مصطفى ماهر
١٤٠-	حيث تلقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١-	اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢-	الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣-	قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	عدلى السمري
١٤٤-	صاحبة اللوكاندة	كارلو جولونوى	سلامة محمد سليمان
١٤٥-	موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦-	الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	على عبدالرؤف البمبى
١٤٧-	خطبة الإدانة الطويلة	تاتكريد دورست	عبدالغفار مكارى
١٤٨-	القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكي أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩-	النظرية الشعرية عند إليوت وأونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠-	التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان
١٥١-	هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٢-	عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	محمد محمد الخطابى
١٥٣-	غرام الفراغة	فيولن فاتورك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤-	مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت

- ١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى
١٥٧- خسرو وشيرين
١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)
١٥٩- الإيديولوجية
١٦٠- آلة الطباعة
١٦١- من المسرح الإسباني
١٦٢- تاريخ الكنيسة
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)
١٦٥- حكايات الثعلب
١٦٦- العلاقات بين المتنبيين واللطائفين فى إسرائيل
١٦٧- فى عالم طاغور
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة
١٦٩- إبداعات أدبية
١٧٠- الطريق
١٧١- وضع حد
١٧٢- حجر الشمس
١٧٣- معنى الجمال
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء
١٧٥- التلفزيون فى الحياة اليومية
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية
١٧٧- أنطون تشيخوف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث
١٧٩- حكايات أيسوب
١٨٠- قصة جاويد
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى
١٨٢- العنف والنزوة
١٨٣- جان كوكتو على شاشة السينما
١٨٤- القاهرة... حالة لا تتام
١٨٥- أسفار العهد القديم
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل
١٨٧- الأرضة
١٨٨- موت الأدب
١٨٩- العلمى والبصيرة
١٩٠- محاورات كونفوشيوس
١٩١- الكلام رأسمال
١٩٢- سياحت نامه إبراهيم بك (ج١)
١٩٣- عامل المنجم
- نخبة من الشعراء
جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو
النظامى الكتوجى
فرنان برودل
ديفيد هوكس
بول إيرليش
اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا
يوحنا الأسبوى
جوردن مارشال
جان لاکوتير
أ. ن أفانا سيفا
يشعياهو ليشمان
رابندراناث طاغور
مجموعة من المؤلفين
مجموعة من المبدعين
ميفيل دليبيس
فراانك بيجو
مختارات
ولتر ت. ستيس
ايليس كاشمور
لورينزو فيلشس
توم تينتيرج
هنرى تروايا
نخبة من الشعراء
أيسوب
إسماعيل فصيح
فنصنت ب. ليتش
و.ب. بيتس
رينيه جيلسون
هانز إيندورفر
توماس تومسن
ميخائيل إنوود
بزدج علوى
الفين كرنان
پول دى مان
كونفوشيوس
الحاج أبو بكر إمام
زين العابدين الراغى
بيتر أبراهامز
- أحمد مرسى
مى التمساني
عبدالعزيز يقوش
بشير السباعى
إبراهيم فتحي
حسين بيومى
زيدان عبدالحليم زيدان
صلاح عبدالعزيز محجوب
باشراف: محمد الجوهري
نبيل سعد
سهير المصادقة
محمد محمود أبو غدير
شكرى محمد عياد
شكرى محمد عياد
شكرى محمد عياد
بسام ياسين رشيد
هدى حسين
محمد محمد الخطايبى
إمام عبد الفتاح إمام
أحمد محمود
وجيه سمعان عبد المسيح
جلال البنا
حصه إبراهيم المنيف
محمد حمدي إبراهيم
إمام عبد الفتاح إمام
سليم عبد الأمير حمدان
محمد يحيى
ياسين طه حافظ
فتحي العشرى
دسوقي سعيد
عبد الوهاب علوب
إمام عبد الفتاح إمام
محمد علاء الدين منصور
بدر الديب
سعيد القانمى
محسن سيد فرجاني
مصطفى حجازى السيد
محمود سلامة علاوى
محمد عبد الواحد محمد

مختارات من النقد الأنجلو-أمريكي	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد	١٩٤-
شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور	١٩٥-
المهلة الأخيرة	فالتين راسيوتين	أشرف الصباغ	١٩٦-
القاروق	شمس العلماء شبلي النعماني	جلال السعيد الحفناوي	١٩٧-
الاتصال الجماهيري	ادوين إمري وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم	١٩٨-
تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية	يعقوب لاندواي	جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد	١٩٩-
ضحايا التنمية	جيرمي سيبروك	فخزى لبيب	٢٠٠-
الجانب الديني للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصاري	٢٠١-
تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد	٢٠٢-
الشعر والشاعرية	ألفاف حسين حالي	جلال السعيد الحفناوي	٢٠٣-
تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد محمود هويدي	٢٠٤-
الجنينات والشعوب واللغات	لويجي لوقا كافاللي- سفورزا	أحمد مستجير	٢٠٥-
الهيولوية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	علي يوسف علي	٢٠٦-
ليل أفريقي	رامون خوتاسنديز	محمد أبو العطا	٢٠٧-
شخصية العربي في المسرح الإسرائيلي	دان أوريان	محمد أحمد صالح	٢٠٨-
السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ	٢٠٩-
مثنويات حكيم سناني	سناني الغزنوي	يوسف عبد الفتاح فرج	٢١٠-
فردينان دوسويسير	جوناثان كلر	محمود حمدي عبد الغني	٢١١-
قصص الأمير مرزيان	مرزيان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج	٢١٢-
مصر منذ قدم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد علي الناصري	٢١٣-
قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع	أنتوني جيندز	محمد محمود محي الدين	٢١٤-
سياحت نامه إبراهيم بك (ج٢)	زين العابدين المراغي	محمود سلامة علاوي	٢١٥-
جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ	٢١٦-
مسرحيتان طليعيتان	ص. بيكيت	نادية البنهاوي	٢١٧-
لعبة الحجلة (رايولا)	خوليو كورتازان	علي إبراهيم متوفى	٢١٨-
بقايا اليوم	كازو ايشجورو	طلعت الشايب	٢١٩-
الهيولوية في الكون	باري باركر	علي يوسف علي	٢٢٠-
شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام	٢٢١-
فرانز كافكا	رونالد جراي	نسيم مجلى	٢٢٢-
العلم في مجتمع حر	بول فيرابنر	السيد محمد نقادى	٢٢٣-
دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم	٢٢٤-
حكاية غريق	جابريل جارشيا ماركث	السيد عبدالظاهر السيد	٢٢٥-
أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	طاهر محمد علي البربري	٢٢٦-
المسرح الإسباني في القرن السابع عشر	موسى مارديا ديف بوركي	السيد عبدالظاهر عبدالله	٢٢٧-
علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ماري تيريز عبدالمسيح وخالد حسن	٢٢٨-
مازق البطل الوحيد	نورمان كيچان	أمير إبراهيم العمري	٢٢٩-
عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمي	٢٣٠-
الدرافيل	خايمي سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن	٢٣١-
ما بعد المعلومات	توم ستينز	مصطفى إبراهيم فهمي	٢٣٢-

فكرة الاضمحلال	أرثر هومان	طلعت الشايب	٢٣٣-
الإسلام في السودان	ج. سينسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود	٢٣٤-
ديوان شمس تبریزی (ج١)	مولانا جلال الدين الرومي	إبراهيم الدسوقي شتا	٢٣٥-
الولاية	ميشيل تود	أحمد الطيب	٢٣٦-
مصر أرض الوادي	روبن فيرين	عنايات حسين طلعت	٢٣٧-
العولة والتحرير	الانكتاد	ياسر محمد جادالله وعربي مديولى أحمد	٢٣٨-
العربي في الأدب الإسرائيلي	جيلرافر - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق	٢٣٩-
الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامي حافظ	صلاح عبدالعزيز محجوب	٢٤٠-
في انتظار البرابرة	ج. م. كويتز	ابشام عبدالله سعيد	٢٤١-
سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبرى محمد حسن عبدالنبي	٢٤٢-
تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	على عبدالرؤف اليمبي	٢٤٣-
الغليان	لاورا إسكينيل	نادية جمال الدين محمد	٢٤٤-
نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	توفيق على منصور	٢٤٥-
مختارات قصصية	جابريل جارتيا ماركت	على إبراهيم منوفى	٢٤٦-
الثقافة الجماهيرية والحدثة في مصر	والتر إرمبريست	محمد طارق الشرقاوى	٢٤٧-
حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم	٢٤٨-
لغة التمزق	دراجو شتامبيوك	رفعت سلام	٢٤٩-
علم اجتماع العلوم	دومنيك فينيك	ماجدة محسن أباطة	٢٥٠-
موسوعة علم الاجتماع (ج٢)	جوردين مارشال	بإشراف: محمد الجوهري	٢٥١-
رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران	٢٥٢-
تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	حسن بيوى	٢٥٣-
الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام	٢٥٤-
أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام	٢٥٥-
ديكارت	ديف روبنسون وكريس جرات	إمام عبد الفتاح إمام	٢٥٦-
تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	محمود سيد أحمد	٢٥٧-
الفجر	سير أنجوس فريزر	عبادة كُحيلة	٢٥٨-
مختارات من الشعر الأرمني عبر العصور	اقلام مختلفة	فاروجان كازانجيان	٢٥٩-
موسوعة علم الاجتماع (ج٢)	جوردين مارشال	بإشراف: محمد الجوهري	٢٦٠-
رحلة في فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام	٢٦١-
مدينة المعجزات	إبنوار مندوثا	محمد أبو العطا	٢٦٢-
الكشف عن حافة الزمن	جون جرين	على يوسف على	٢٦٣-
إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	لويس عوض	٢٦٤-
روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	لويس عوض	٢٦٥-
مدير المدرسة	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم سويلم	٢٦٦-
فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عرودى	٢٦٧-
ديوان شمس تبریزی (ج٢)	مولانا جلال الدين الرومي	إبراهيم الدسوقي شتا	٢٦٨-
وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج١)	وليم جيفور بالجريف	صبرى محمد حسن	٢٦٩-
وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج٢)	وليم جيفور بالجريف	صبرى محمد حسن	٢٧٠-
الحضارة الغربية	توماس سى. باترسون	شوقي جلال	٢٧١-

إبراهيم سلامة	س. س والترز	الأديرة الأثرية في مصر	٢٧٢-
عنان الشهاوى	جوان آر. لوك	الاستعمار والثورة في الشرق الأوسط	٢٧٣-
محمود على مكي	رومولو جلاجوس	السيدة باريارا	٢٧٤-
ماهر شفيق فريد	أقلام مختلفة	ت. س إليت شاعرًا ونقادًا وكاتبًا مسرحيًا	٢٧٥-
عبد القادر التلمساني	فرائك جوتيران	فنون السينما	٢٧٦-
أحمد فوزي	بريان فورد	الجينات: الصراع من أجل الحياة	٢٧٧-
ظريف عبدالله	إسحق عظيموف	البدائيات	٢٧٨-
طلعت الشايب	ف.س. سوندرز	الحرب الباردة الثقافية	٢٧٩-
سمير عبد الحميد	بريم شند وآخرون	من الأدب الهندي الحديث والمعاصر	٢٨٠-
جلال الحقناوى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	الفردوس الأعلى	٢٨١-
سمير حنا صادق	لويس وليبرت	طبيعة العلم غير الطبيعية	٢٨٢-
على البمبى	خوان رولفو	السهل يحترق	٢٨٣-
أحمد عثمان	يوريبيدس	هرقل مجنونًا	٢٨٤-
سمير عبد الحميد	حسن نظامي	رحلة الخواجة حسن نظامي	٢٨٥-
محمود سلامة علاوى	زين العابدين المراعى	سياحات نامه إبراهيم بك (ج٢)	٢٨٦-
محمد يحيى وآخرون	انتونى كنج	الثقافة والعولة والنظام العالمى	٢٨٧-
ماهر البطولى	ديفيد لودج	الفن الروائى	٢٨٨-
محمد نور الدين عبد المنعم	أبو نجم أحمد بن قوص	ديوان منجوهري الدامغانى	٢٨٩-
أحمد زكريا إبراهيم	جورج موان	علم اللغة والترجمة	٢٩٠-
السيد عبد الظاهر	فرانشيسكو رويس رامون	المرح الإسباني في القرن العشرين (ج١)	٢٩١-
السيد عبد الظاهر	فرانشيسكو رويس رامون	المرح الإسباني في القرن العشرين (ج٢)	٢٩٢-
نخبة من المترجمين	روجر آلن	مقدمة للأدب العربي	٢٩٣-
رجاء ياقوت صالح	بوالو	فن الشعر	٢٩٤-
بدر الدين حب الله الديب	جوزيف كامبل	سلطان الأسطورة	٢٩٥-
محمد مصطفى بدوى	وليم شكسبير	مكبث	٢٩٦-
ماجدة محمد أنور	ديونيسوس ثراكس ويوسف الأهواني	فن النحو بين اليونانية والسريانية	٢٩٧-
مصطفى حجازى السيد	أبو بكر ثقاوايليوه	مأساة العبيد	٢٩٨-
هاشم أحمد فؤاد	جين ل. ماركس	ثورة في التكنولوجيا الحيوية	٢٩٩-
جمال الجزيري ويهاه جامين وإيزابيل كمال	لويس عوض	أسطورة بومبشيس في الأدبين الإنجليزي والفرنسي (ج١)	٣٠٠-
جمال الجزيري و محمد الجندي	لويس عوض	أسطورة بومبشيس في الأدبين الإنجليزي والفرنسي (ج٢)	٣٠١-
إمام عبد الفتاح إمام	جون هيتون وجوهى جروفز	فنتجشتين	٣٠٢-
إمام عبد الفتاح إمام	جين هوب ويون فان لون	بوذا	٣٠٣-
إمام عبد الفتاح إمام	ريوس	ماركس	٣٠٤-
صلاح عبد الصبور	كريزيو مالابارته	الجلد	٣٠٥-
نبيل سعد	جان فرانسوا ليوتار	الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	٣٠٦-
محمود محمد أحمد	ديفيد بابينو	الشعور	٣٠٧-
ممنوح عبد المنعم أحمد	ستيف جونز	علم الوراثة	٣٠٨-
جمال الجزيري	أنجوس چيلاتي	الذهن والمخ	٣٠٩-
محيي الدين محمد حسن	ناجي هيد	يونج	٣١٠-

٣١١-	مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٣١٢-	روح الشعب الأسود	وليم دى بوير	أسعد حليم
٣١٣-	أمثال فلسطينية	خاير بيان	عبدالله الجعيدى
٣١٤-	الفن كعدم	جينس مينيك	هويدا السباعى
٣١٥-	جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	كاميليا صبحى
٣١٦-	محاكمة سقراط	أ.ف. ستون	نسيم مجلى
٣١٧-	بلا غد	شير لايموفا- زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨-	الآلب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	أشرف الصباغ
٣١٩-	صور دريدا	جايتز ياسييفاك وكريستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠-	لمعة السراج فى حضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج ١)	ليفى برو فنسال	نخبة من المترجمين

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٦٤٧ / ٢٠٠٢

